پول هازار



أزمة الضمير الأوربي

١٦٨٠ - ١٧١٥

مقدمة لطه حسين

ترجمة
جـودت عثمـان
محمد نجيب المستكاوي

پول هازار
عضو المجمع الفرنسي

أزمة الضمير الأوربي

١٦٨٠ - ١٧١٥

مقدمة لطه حسين

ترجمة :
جودت عثمان
محمد نجيب المستكاوي


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٤

العنوان الأصلي للكتاب :

PAUL HAZARD

LA CRISE DE LA CONSCIENCE EUROÉNNE

1680 - 1715

صدرت الطبعة العربية الأولى

من هذا الكتاب عام ١٩٤٨

عن دار الكاتب المصري - القاهرة

أفـكـــار

«١»

الإهـــداء

إلى

قراء العربية نقدم هذه المحاولة

لتفسير تطور الفكر الأوربي الذي

عاد على الإنسانية بخير عميم

المترجمان



تقديم

هذا كتاب علم وتعليم، أراد به مؤلفه إلى أن يعرض في وضوح وجلاء، أزمة الضمير الأوربي في عصر من أخطر عصور الانتقال. وهو العصر الذي يختم طور النهضة الأوربية الحديثة، ويبدأ في الاعداد لطور الثورة الفرنسية التي لم تغير حياة أوربا وحدها، وإنما غيرت معها حياة الإنسانية كلها.

والناس جميعًا يعلمون أن النهضة الأوربية الحديثة، قد أخرجت أوربا من حياة القرون الوسطى، إلى نوع جديد من الحياة، لا يستأثر الدين المسيحي بالسيطرة عليه، وإنما تشارك في تكوينه عناصر أخرى، يكون لها في حياة الناس أبعد الأثر؛ بل يكون لها في الدين المسيحي نفسه أبعد الأثر. فالرجوع إلى أصول الثقافة اليونانية واللاتينية، واستكشاف أقطار من الأرض لم يكن العالم المتحضر يعرفها؛ كل ذلك عرض العقل الأوربي لحركات عنيفة، لم تلبث أن أحدثت آثارها، فشعرت الضمائر بالحاجة إلى الحرية، وطمعت العقول في تحقيق هذه الحرية وجاهدت في سبيلها جهاداً عنيفًا؛ ونظرت الكاثوليكية فإذا هي وسط بين طرفين متباعدين أحدهما يطمح إلى الحرية ويحقق منها قدراً لا بأس به، وهو الإصلاح الديني الذي يتكشف عن البروتستنتية. والآخر لا يطمح، وإنما يجمح حتى يتجاوز بحريته حدود الدين كلها. وإذا شيء من الوثنية القديمة يعود إي الحياة في كثير من القلوب والضمائر، ويصبغ كثيراً من البيئات بشيء من الشك والإباحة والاستخفاف، وقد تغيرت حياة الناس المادية بفضل استكشاف ما استكشف من

أقطار الأرض، فأتيح لهم من الثراء وأسباب الدعة ما كان ممنوعًا عنهم ، أو مقتراً عليهم فيه. ولا يكاد القرن السادس عشر يتقدم شيئًا حتى تكون الحياة الأوربية قد تغيرت تغيراً تاماً، فظهرت فيها نزعات في الأدب والفن، وفي العلم والفلسفة، وفي السيرة الفردية والاجتماعية، لم تكن موجودة من قبل. فإذا أشرف هذا القرن على آخره، كان هذا النظام الجديد قد استقر واطمأن، وألفه الناس وأصبحت له أصوله الثابتة وقواعده المقررة. وأخذ ينتج في الأدب والفلسفة، تلك الآثار الكلاسيكية الخالدة. ولكن العقل ماض في طريقه إلى البحث والدرس والاستقصاء والابتكار. وإذا مضى العقل في هذه الطريق، فلا سبيل إلى أن يقف، ولا إلى أن يحد سلطانه على الحياة مهما تختلف فروعها؛ وما هي إلا أن يأخذ المثقفون في عرض القيم المقررة للبحث والنقد، كما عرضت للبحث والنقد في أوائل عصر النهضة الحديثة. وإذا أزمة تطرأ على التفكير والشعور، وعلى تقدير الأشياء والحكم عليها، وعلى المقاييس التي تقاس بها القيم الفنية والأدبية والدينية. وإذا صراع يثأر بين القديم والجديد. وليس القديم هو الثقافة اللاتينية اليونانية فحسب، وإنما هو هذه الثقافة وما نشأ عنها من ثقافة أوربية تقليدية. بل ليس القديم هو الثقافة اللاتينية اليونانية وما نشأ عنها من الثقافة الحديثة، وإنما هو هذا ومعه الحياة الإنسانية كلها بما فيها من نظم السياسية والإدارة، ومن أصول الأخلاق والاجتماع. كل شيء موضوع للشك. وكل شيء عرضة للنقد، وكل شيء صالح للبحث والدرس، وكل شيء قابل للتغير والتبديل.

وهذه الأزمة هي التي اتخذها الأستاذ بول هازار، موضوعًا لكتابه هذا الرائع الرفيع. فهو يقتطع من الحياة الأوربية ثلث قرن من أواخر القرن السابع عشر إلى أوائل القرن الثامن عشر، ويتخذ حياة أوربا العقلية في هذه القطعة الصغيرة من الزمن موضوعًا لبحثه، لا يدرسها في فرنسا وحدها، وإنما يدرسها في أوربا بأكملها، مستقصيًا مستقرئًا، موازنًا معارضًا، مستنبطًا بعد هذا كله لما يصل إليه من الأحكام، عارضًا عليك في أثناء هذا كله، نصوصه التي اعتمد عليها ومصادره التي رجع إليها.

ومن أجل هذا قلت إن هذا الكتاب، كتاب علم وتعليم، تقرأه فتظهر بفضل قراءته على الحياة الأدبية، بل على الحياة العقلية كلها في أوربا كلها، وهو من هذه الناحية كتاب علم، لا أعرف له نظيراً فيما قصد إليه من البحث والدرس، ومن النقد والتحليل. وهو من هذه الناحية أيضًا كتاب ينتفع به المثقفون جميعًا، مهما تكن ثقافتهم، ومهما يكن نشاطهم في هذا الفرع أو ذاك من فروع الحياة. ولكن للكتاب ناحية أخرى، لعلها أن تكون أعظم خطراً من هذه الناحية، فهو كتاب تعليم وتوجيه ورسم لمناهج البحث والاستقصاء. يقرأه المتخصصون في تاريخ الحياة العقلية، فيتعلمون منه أن كيف يتأتى الباحث لهذا اللون من ألوان التاريخ، ويتعلمون منه أن الحياة العقلية لا تؤرخ بالقرون، ولا بالأعوام، ولا بما يكون من سقوط دولة وقيام أخرى، ولا بما يكون من سبوب الحروب حين تشب، ومن عقد الصلح حين يعقد، وإنما هذه كلها وأشياء أخرى غيرها، لها آثارها المختلفة في حياة العقل والشعور، دون أن تكون هي المقياس الذي تقسم به، وتقاس إليه حياة العقل والشعور.

فالذين يؤرخون لأدب أمة من الأمم في قرن من القرون، يتجوزون فيما يحددون لبحثهم سن هذه العصور. فالقرن السابع عشر الفرنسي مثلاً، لم يبتدئ بالضبط سنة ستمائة وألف حين يقاس إلى الحياة العقلية، وإنما ابتدأ قبل هذه السنة بوقت يقصر أو يطول، لا سبيل إلى تحديده الدقيق، وإنما يدل عليه دلالة مقاربة بظهور الأصول الثابتة، والقواعد المقررة للأدب والفن. وهذا القرن لا ينتهي سنة سبعمائة وألف بالضبط، وإنما ينتهي قبل ذلك بوقت لا سبيل إلى تحديده تحديداً دقيقًا بل يدل عليه دلالة مقاربة بظهور الشك في الأصول الثابتة، والقواعد المقررة للأدب والفن. وقل مثل هذا بالقياس إلى الآداب الأخرى مهما تكن، فللحياة العقلية خصائصها وظواهرها التي ليست هي موقوفة على ما ألف الناس أن يتخذوه حدوداً للتاريخ من الخطوب والأحداث.

وللكتاب ناحية ثالثة ليست أقل خطراً من هاتين الناحيتين. فهو نموذج رائع للأدب المقارن، ودراسة الأدب المقارن بدع جديد عرفته أوربا في أواخر القرن الماضي، وتقدمت به خطوات واسعة قيمة، وأخذنا نحن نعرفه منذ أعوام، أو قل أخذنا نحن نسمع به ولا يكاد أكثرنا يحقق معناه فضلاً عن أن ندرسه ونتعمقه وننتج فيه إنتاجًا قيمًا على شدة حاجتنا إليه، لتعقد الصلات بين أدبنا العربي وبين الآداب الأجنبية المختلفة قديمًا وحديثًا.

فهذا الكتاب دروس رائعة في الأدب المقارن، يعلم المتخصصين في التاريخ الأدبي كيف يتتبعون الظاهرة الأدبية المعينة في الشعوب المختلفة، بل في البيئات المختلفة من الشعب الواحد، وكيف يشخصون هذه الظاهرة تشخيصاً دقيقاً، وكيف يقيسونها إلى أمثالها في الشعوب المتباعدة والبيئات المتباينة، وكيف يستخلصون من هذا القياس أحكامًا أدبية لها دلالتها الخطيرة على ما يكون بين الشعوب من تباعد وتقارب، ومن تشابه وتنافر في الطبيعة والمزاج. فالذين يريدون أن يعلموا يجدون في هذا الكتاب علمًا كثيراً غزيراً ممتازًا. والذين يريدون أن يتعلموا مناهج البحث في التاريخ الأدبي، والذين يريدون أن يعرفوا طرائق الدرس للأدب المقارن، يجدون في هذا الكتاب أبرع تعلم وأروع توجيه.

ويعجبني أن يقرأ الناس وأن يفهموا ما يقرأون في هذه الظروف التي تحيط بنا، والتي تصد الناس عن القراءة، ولا سيما القراءة القيمة، وتعجلهم عن الفهم ولا سيما الفهم النافذ العميق، ويعجبني إذا قرأ الناس وفهموا واستمتعوا بالقراءة والفهم، أن تكون قلوبهم كريمة ونفوسهم سخية، وأن يدفعهم ذلك إلى أن يشركوا الناس معهم فيما وجدوا من لذة المعرفة ومتعة الفهم والذوق.

من أجل هذا لم أكد أصدق حين أنبئت بأن أديبين مصريين، قد فرغا في هذه الأيام لقراءة هذا الكتاب وفهمه وإساغته. فلما بلغا من ذلك ما أرادا كرها أن يستأثرا بالمتعة من دون قراء العربية، فتكلفا أعنف الجهد وأعظم المشقة لنقله إلى لغتنا العربية. لم أكد أصدق ذلك حين أنبئت به. فنحن نحيا في هذه الأيام حياة

قوامها الكسل والأثرة والانصراف عن جد الأمر إلي سخفه، وعن عسير الأمر يسيره. ولكني رأيت الكتاب بين يدي مترجمًا حسن الترجمة، فاستبشرت واطمأنت إلى حسن الظن بالمواطنين وصدق الرأي فيهم، وإلى الثقة التي لم تفارقني قط بأن الخطوب قد تلم، وبأن النوائب قد تنوب، وبأن الأحداث قد ترهق الناس من أمرهم عسراً، ولكن جذوة الثقافة العالية والمعرفة الرفيعة ستظل دائمًا حية قوية، تشيع في القلوب والنفوس والعقول حرارة ونوراً. وأنا رجل شره إلى العلم مسرف في الطموح؛ لا أعرف للطمع حدًا حين يتصل الأمر بالثقافة والمعرفة، فلم أكد أحمد للأديبين الكريمين ما بذلا من جهد ومال من ترجمة هذا الكتاب ونشره حتى أغريتهما بترجمة كتاب آخر للمؤلف نفسه موضوعه التفكير الأوربي في القرن الثامن عشر، وأعترف بأني لم أحتج معهما إلي شديد إغراء. فقد استجابا للدعوة كريمين، وأقبلا على العمل مشغوفين به، محتفلين له، مستعدين أحسن استعداد لاحتمال ما سيكلفهما من مشقة وعناء.

فلهما شكري خالصًا. وعليهما ثنائي صادقًا، وما أشك في أنهما سيظفران من كل قارئ بمثل ذلك الشكر وهذا الثناء.

طه حسين

مقدمة

يا للتناقض! يا للانتقال الفجائي! تدرج السلطات والطبقات، طاعة القوانين، النظام الذي تتكفل السلطات بتحقيقه، المذاهب التي تنظم الحياة بحزم: ذلك ما كان يحبه رجال القرن السابع عشر. الإجبار، السلطة، المذاهب: ذلك ما كان يبغضه رجال القرن الثامن عشر، الذين خلفوهم مباشرة. الأولون مسيحيون، والأخيرون خصوم المسيحية؛ الأولون يؤمنون بالحق الإلهي، بينما الأخيرون يؤمنون بالحق الطبيعي؛ الأولون يستطيبون العيش في مجتمع ينقسم إلى طبقات غير متساوية، والأخيرون لا يحلمون إلا بالمساواة. إن الأبناء يتندرون على الآباء، ظانين أنهم سوف ينهضون بإصلاح عالم، لا يتوقف إصلاحه إلا على مجيئهم: ولكن الغليان الذي يثير الأجيال المتتابعة لا يكفي لتفسير تغير سريع قطعي مثل هذا التغير. كانت أغلبية الفرنسيين تفكر كما فكر بوسويه؛ وبغتة، فكر الفرنسيون كما فكر فولتير: إنها لثورة.

ولكي نعرف كيف وقعت هذه الثورة، قمنا بالبحث في أراض غير مطروقة فقد درسنا القرن السابع عشر طويلاً فيما سبق، واليوم نعكف على دراسة القرن الثامن عشر. وفي حدودهما الفاصلة تمتد منطقة وعرة، مبهمة، نأمل أن نجد فيها بعض الكشف والمغامرة. لقد حبسنا خلالها، واخترنا لتحديدها تاريخين غير قطعيين: من جهة حول عام ١٦٨٠، ومن جهة أخرى ١٧١٥.

ولقد قابلنا سبينوزا، الذي بدأ نفوذه يشتم فيها، ومالبرانش، وفونتنل، ولوك، ولبنتز، وبوسويه، وفينلون، وبايل، إذا اقتصرنا على ذكر الأعلام، ودون تحدث عن ديكارت الذي لا يزال يسكنها. إن أبطال الفكر هؤلاء، كانوا عاكفين - كل حسب طبعه وعبقريته - على البحث في المسائل التي ما برحت تشغل أذهان الناس منذ الأزل، كما لو كانت مسائل جديدة؛ مثلاً: وجودالله وطبيعته، والكائن والمظاهر، الخير والشر، الحرية والقدرية، حقوق السلطان، تكون الحالة الاجتماعية، والمسائل الحيوية كافة. فبماذا ينبغي أن نعتقد؟ وكيف ينبغي أن نسير؟ وكان هناك سؤال، سؤال طالما حسب الناس أنه أصبح أمراً مفروغاً منه، يعود دائماً من جديد: ما هي الحقيقة؟ Quid est Veritas؟

في الظاهر كان العصر الكبير يمتد في كل عظمته وجلاله، وما كان على المفكرين والمؤلفين إلا أن يقلدوا الروائع الأدبية التي ظهرت بوفرة من قريب. واستعرت بينهم المنافسة، فهذا يؤلف المأساة على منوال راسين، وذلك يؤلف الملهاة على منوال موليير، وغيرهما يؤلف القصص على منوال لافونتين؛ وانتقد النقاد الوجهة الأخلاقية في الملاحم الشعرية، والتوسل بأسرار المسيحية؛ ولم يكفوا أبداً عن امتداح قاعدة الوحدات الثلاث[1]: فخر الفن. لكن في البحث اللا هوتي السياسي Tractatus theologico - politicus وفي «علم الأخلاق» Ethique وفي «المقال عن الإدراك الإنساني» Essay concerning human understanding وفي «تاريخ تبدل الكنائس البروتستانتية» Histoire des vartions des églises protestantes وفي «القاموس التاريخي والنقدي» Dictionnaire historique et critique وفي «جواب على أسئلة قروي» Réponse aux questions d'un Provincial استعر جدال لم تعد هذه المشاغل التافهة تبدوا بازائه إلا كلعبة أطفال أو عجزة ضعاف. فالأمر يتعلق بمعرفة ما إذا كان الناس ما برحوا مؤمنين، أم فقدوا الإيمان؛ ما إذا كانوا يذعنون للتقاليد أم يتمردون عليها، ما إذا كانت الإنسانية ستواصل

---

(١) - أنظر ص٨٨.

السير في طريقها، واثقة بقادتها أم تختار رؤساء جدداً ليقودها نحو جنات جديدة. كان العقليون والدينيون كما يقول بايل يتنازعون الأرواح ويتواجهون في معركة شهدتها أوربا المفكرة بأسرها.

جعل المهاجمون ينتصرون شيئًا فشيئًا. لم يعد الألحاد منفرداً مستخفيًا، بل أخذ يكتسب الأشياع حتى أصبح فخوراً متغطرسًا. ولم يعد الإنكار متخفيًا، بل انكشف وانتشر. ولم يعد العقل حكمة متوازنة، بل أصبح جرأة انتقادية. وأصبحت المعارف المألوفة، مثل الارتضاء الشامل الذي يثبت وجود الله، والإيمان بالمعجزات موضع شك وإنكار. لقد نفى الناس ما هو إلهي إلى طبقات سماوية غير معروفة، يستحيل إدراكها؛ أصبح الإنسان، الإنسان وحده، مقياس كل الأمور؛ إذ كان بذاته علة بدئه ونهايته. ظل رعاة الشعوب مدة طويلة يملكون السلطة بين أيديهم، واعدين باستتباب الطيبة، والعدل، والمحبة الأخوية على وجه الأرض: لكنهم لم ينفذوا وعدهم هذا، بل انهزموا في المعركة الكبرى، المعركة التي كانت الحقيقة والسعادة جائزتها: إذن كان ينبغي أن ينسحبوا. كان ينبغي أن يطردهم الناس، إذا لم يقبلوا الانسحاب مختارين. فكر الناس أنه يجب تدمير البناء القديم، الذي عجز عن حماية الأسرة البشرية الكبرى، وهكذا أصبحت المهمة الأولى عملاً تدميريًا. وكانت المهمة الثانية عملاً إنشائيًا من جديد، وتجهيزاً لأسس المجتمع المستقبل. واقتضت الضرورة الملحة بناء فلسفة - لكيلا يقع الناس في الشك، نذير الفناء - فلسفة تترك الأوهام الميتافيزيقية الخادعة، وتدرس الظواهر التي يمكن أن تتوصل إليها أيادينا الضعيفة، والتي ينبغي أن نقنع بها. اقتضى الأمر إقامة سياسة دون حق إلهي، ودين بلا أسرار، وأخلاق بغير مذاهب. اقتضى قسر العلم على ألا يكون تسلية ذهنية، بل قوة قادرة على قهر الطبيعة. خيل إلى الناس أنه لا شك في وصولهم - بفضل العلم - إلى السعادة، وأن الإنسان قد ينظم هذا العالم المهزوم في سبيل راحته، ومجده، ورفاهة مستقبله.

ولن يعيينا أن نرى هذه الصورة، روح القرن الثامن عشر. ولقد أردنا، على التحقيق، أن نبين أن صفاته الأساسية هذه، إنما ظهرت في وقت أقدم جداً مما يتصوره الناس عادة؛ وأن تكوينها قد اكتمل في عهد كان لويس الرابع عشر لا يزال يتمتع فيه بكل عظمته الساطعة، وأن كل الأفكار التي كانت تبدو ثورية نحو عام ١٧٦٠ أو حتى عام ١٧٨٩، إنما كانت في الواقع قد أفصح عنها من قديم، نحو عام ١٦٨٠. وقتئذ وقعت أزمة في الضمير الأوربي؛ وفيما بين «النهضة» - التي أنشأتها - والثورة الفرنسية التي أعقبتها، لا توجد أزمة أهم منه في تاريخ الأفكار. لقد حاول «الفلاسفة» الجدد أن يبدلوا مدنية تستند على فكرة الواجب: الواجبات نحو الله، والواجبات حيال الملك، - بمدينة تقوم على فكرة الحق: حقوق الضمير الفردي، حقوق النقد، حقوق العقل، حقوق الإنسان والمواطن.

خمسة وثلاثين عاماً من الحياة الفكرية لأوربا، كان من المحال أن نحددها في الزمن دون حسبان للسنين التي تلت هذه الحقبة على الأخص، بل التي سبقتها كذلك - ودون حسبان لتلك المحاكم التي استدعت الإنسان نفسه، لتستجوبه عما إذا كان قد ولد بريئاً أو مذنباً، وعما إذا كان يؤمن بالحاضر أو بالأبدية، - ودون حسبان لتلك الأفكار الحية الخالدة ذات القوة الهجومية أو الدفاعية، التي بلغ من شدتها أن تأثير ذلك الماضي علينا لم ينقطع حتى الآن، وأننا لا نزال نواصل، في المسائل الدينية، والفلسفية، والسياسية والاجتماعية، تلك المعارك الكبيرة الحامية التي لم يخمد لها بعد أوار - ودون حسبان للمؤلفات الضخمة التي كتها في سخاء غريب، أناس لم يهتموا بكمال الشكل اهتمامهم بوفرة البراهين وفاعليتها - دون حسبان للمؤلفات الغامضة، اللاهوتية والفلسفية - ثم تعدد الصلات بين البلد والبلد؛ سريان الأفكار، والعدوى والتأثير، وغرائب الأحداث التي يصعب تفسيرها في بيئتها المحلية، ويقتضي الأمر زجها في المحيط الأوربي لكي يسهل تفهمها، والتوجيهات التي ينبغي، ويشق التماسها في هذه البلاد الجبلية الوعرة،

والفواصل الجبلية والطرق والدروب؛ والشخصيات التي ينبغي أن ترسم، والسيم التي ينبغي أن نفهمها على حقيقتها، في غضبها أو في ابتهاجها: ما من شك في أن هذا مشروع عسير التحقيق. ونحن لا نستميح لأنفسنا عذراً في محاولتنا التعرض لهذا المشروع. لأننا لا نجهل ما سيتبقى وراءنا من عمل، ولا نجهل أن معرفة الشجرة تقتضي دراسة فروعها وجذورها أتم دراسة - ولكننا نعتقد أنه من المفيد أحياناً، أن يشق المرء درباً مؤقتاً في الغابات الكثيفة[1].

* * *

هناك أزمان شاعرية: يلذ للمرء في تناولها بالدراسة، أن ينتصت إلى نغمها المنسجم، وأن يستروح عبيرها الفواح، وأن يستسلم لموسيقاها الحانية، تحمله إلى آفاق يعجز عن تصويرها اللسان: حيث لا تعود الدنيا إلا أنشودة عذبة. والزمن الذي ندرسه ليس من هذه الأزمان؛ فقد جهل الجرس والإيقاع، وفسر معنى الشعر تفسيراً عكسياً، ولم يشعر بقوة ما فيه من سحر. ولكن القيم التخيلية والحساسة لم تتوار على حين غرة، ولم يكف الناس عن الاستسلام للهوهم وأهوائهم فجأة دون تمهيد؛ فقد سجلنا، على النقيض، استمرار حياة الأشكال والألوان، ومعارضة القلب، بجانب عمل العقل الصافي. فقيام الخشوعية piétisme هنا، والركونية quiétisme هناك، قد كشف لنا عن الأماني والرغبات التي تجيش في الأرواح القلقة، التي لم يقنعها العقل، بل كانت تبحث عن إله للمحبة. بيد أن هذه الروحانية نفسها قد ساهمت في أزمة الضمير التي يتميز بها هذا العصر. فإنها فضت التحالف بين الدين والسلطة، وبافلاتها من رقابة الكنائس الأرثوذكسية، وبنظرتها إلى الإيمان كنفحة فردية، اختيارية وطبيعية؛ وبتقويضها دعائم النظام

(١) - لقد نشرنا مقتطفات مختلفة من هذا الكتاب في أعداد ١٥ أغسطس، ١، ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٢ من مجلة Revue des deux mondes وفي عددي اكتوبر وديسمبر ١٩٣٢ من مجلة Revue de lirrérature comparé وفي عددي ٢١ اكتوبر، ٢٥ نوفمبر ١٩٣٣ من مجلة L'Europe centrale وسيجدها القارئ هنا معدلة بعض التعديل.

القائم، قد قامت من جهتها بدور عنصر مجدد: وبالمثل فقد أدخل على المجتمع إذ ذاك بذرة من الفوضى، بمواجهة أخطاء المدنية وجرائمها، بفضيلة الرجل الهمجي البدائية.

بيد أن هذه السنين الشاقة، الدسمة، الحافلة بالجدال وبالقتال، الزاخرة بالأفكار، لها بالرغم من ذلك جمالها الخاص. وإذا نحن تتبعنا هذه الحركات الواسعة النطاق، وشهدنا هذه الكتل من الأفكار تتفرق ثم تتجمع من جديد طبقًا لقوانين أخرى وأصول مستحدثة، وإذا رأينا إخواننا من بنى الإنسان يتلمسون في شجاعة سبيلهم نحو المصير المجهول، دون أن تثبط لهم همة أو يستسلموا لعائق أو غمة، شعرنا بما شعروا به من انفعال. وإن في عنادهم واستبسالهم لشيئًا من الجلال؛ وإذا كان الشيء الذي يميز أوربا - كما سنبين فيما بعد - هو عدم قناعتها أبدًا، وتجديد بحثها عن الحقيقة والسعادة، فإن في هذا المجهود لمحة من الجمال لا تخلو من مسحة من الألم. وليس هذا بكل شيء. فبدراسة نشأة الأفكار، أو على الأقل ما انتابها من تبدل، وبمتابعتها على طول طريقها، في بدايتها الضعيفة، وفي طريقة تدعمها وتجرئها؛ في تقدمها وفي انتصاراتها المتتابعة حتى ظفرها النهائي - نصل إلى هذا الاقتناع العميق الوثيق، وهو أن ما ينظم الحياة ويوجهها ليس هو القوى المادية بل هو القوى الفكرية والأخلاقية.

القسم الأول
تبدلات سيكولوجية كبرى



الفصل الأول
من الثبات إلى الحركة

الاستقرار، أي اجتناب كل تغيير من شأنه أن يخل بالتوازن الفذ القائم: تلك أمنية العصر الكلاسيكي. فحب الاستطلاع الذي يعتمل في النفوس القلقة خطر. أجل، خطر وجنوني معًا؛ لأن الرجل الذي يرتحل إلى أقاصي الدنيا لا يجد حيثما ارتحل إلا ما يحمله هو معه: أي حالته البشرية. ولو أنه وجد شيئًا آخر فإن ذلك لن يخفف من قلقه. فليزكز تفكيره في المسائل الأبدية التي لا يمكن تحليلها أو تعليلها والفكر مشتت حائر. قال سينكا: «أول دليل على اتزان العقل قدرته على التوقف وانطوائه على نفسه»، وكشف باسكال أن بؤس الناس مرده إلى سبب واحد، هو أنهم لا يستطيعون الاستقرار في غرفة.

فالفكر الكلاسيكي في عظمته، يحب الثبات: بل هو يريد أن يكون الثبات بعينه. فبعد الحدثين التاريخيين العظيمين: حركة النهضة وحركة الإصلاح الديني la Réforme، جاء زمن كان زمن التروي والتفكير. فأقصيت كل من الأمور السياسية والدينية والاجتماعية والفنية عن دائرة المناقشات التي لا تنتهي، والنقد الذي لا يكتفي؛ لقد وجدت سفينة البشر الضالة ميناء تستقر فيه: فلترس فيه أطول أمد، أو تركن إليه إلى الأبد! إن النظام يسود الحياة: فما دام الناس قد اهتدوا إلى نهج اعترف الجميع بكماله، فما جدوى بحث جديد، يجعل كل شيء محل مناقشة من جديد؟ هكذا بدأ الناس يخشون الامتداد بما فيه من مفاجآت، ولو استطاعوا

لعملوا على إيقاف الزمن! حتى الماء في فرساي يبدو للزائر كأنه لا يجري؛ فهم يخزنونه ثم يطلقونه، ويدفعون به نحو السماء، كأنما يريدون استبقاءه إلى الأبد.

في القسم الثاني من كتاب دون كيشوت[1]، الفصل الثامن، يقدم لنا سرفانتس Cervantes «النبيل ذا المعطف الأخضر»، الذي يقابله في الطريق «الفارس ذو الوجه الحزين» le Chevalier de la Triste Figure ونرى هذا النبيل يسرع إلى منزله حيث يجد الساعدة والحكمة معاً. فهو في بسطة من العيش دون ترف، يقضي حياته مع زوجته وأولاده وأصدقائه، مسلاته الأثيرة عنده الصيد والقنص، لكنه يفضل بجعة مستأنسة أو سمانة أليفة على العربات المطهمة، وكلاب الصيد والصقور. ولديه بضع عشرات من الكتب وهو بذلك راض قرير. وهو تارة مدعو عند جيرانه لتناول الطعام، وتارة يدعوهم عنده: مائدته معتدلة لا تبذير فيها ولا تقتير. يحب الحرية المتزنة ويميل إلى العدل والوفاق. يجود على الفقير مراعياً ألا يستسلم للزهو أو الإعلان. يسعى إلى الصلح بين المتنابذين، ويقدس العذارء، ويثق كل الثقة برحمة الله الواسعة. هكذا يصف ذلك النبيل نفسه. ونرى على إثر ذلك سانشو - خادم دون كيشوت - يترجل من فوق حماره، ويمسك بقدم النبيل، يود أن يتناولها بالتقبيل، فيقول له: «ماذا تفعل أيها الأخ؟» فيرد سانشو Sancho: «اسمح لي أن أقبل قدميك، لأنك أول قديس أراه على صهوة جواد!»

---

(١) - قصة مشهورة من روائع الأدب العالمي كتبها سرفانتس المؤلف الإسباني، ونشر القسم الأول منها في عام ١٦٠٥، والقسم الثاني في ١٦١٥. ودون كيشوت هو بطل هذه الرواية ولقبه الآخر هو الفرس ذو الوجه الحزين le Chevalier de la Triste Figure يسخر فيها سرفنتس من الفرسان المغامرين إذ يقول دون كيشوت: «لقد تركت وطني، ورهنت أملاكي، وتخليت عن راحتي وبيتي، وألقيت بنفسي بين يدي الحظ لكي يدفع بي أينما يشاء... أردت أن أبعث الفروسية المغامرة البائدة... وأصبحت متعتي المفضلة حماية الأرامل والفتيات واليتامى...» من كتاب «دون كيشوت»، القسم الثاني الفصل السادس عشر، طبعة جارنييه، باريس. وانظر أيضاً بول هازار، «دون كيشوت» باريس ١٩٣١. [المترجمان]

وما كان دون دييجو دي ميراندا Don Diego de Miranda - الرجل ذو المعطف الأخضر - قديساً، بل هو يمثل في سنة ١٦١٥ المثل الأعلى للحكمة الكلاسيكية. فهو لا يزدري «الفارس المغامر» بل إنه يحمل في نفسه قسطاً من روح البطولة والفروسية، ولكنه لا يرضى أن يتبعه في هذا الطريق. إنه يعلم تمام العلم أن الحياة لا تستطيع أن تجود على المرء بشيء يسعده أكثر من الانسجام بين الفكر والحواس والقلب. أما وقد اهتدى إلى سر الحياة الطيبة فإنه سيحتفظ به ويطبقه حتى يومه الأخير.

بيد أن كل شيء إلى فناء، ولن يساوي سره هذا شيئاً لدى أولئك الذين سيخلفونه في الدنيا. وعندما يكبر أحفاده ويصبحون رجالاً سوف يجدون ذوقه قديماً بالياً، ويحتقرون الوسيلة التي اهتدى بها إلى القناعة في الحياة. وسوف يفسخون تلك الهدنة السعيدة، التي كانت تسمح بالنشاط والعمل في هدوء واطمئنان. ويطلقون عنان الحرية لرغباتهم المكبوتة من أمد طويل، فيرتحلون إلى الآفاق البعيدة، بحثاً عن الشكوك. وإذا نحن وجدنا فيما بعد، روح الظعن والارتحال يقوى وينتشر، وإذا رأينا الرواد يفارقون القرى والولايات والأوطان إلى مختلف الأصقاع بحثاً عن طرائق الناس في الحياة والتفكير، فإننا ندرك من هذه العلامة الأولى أن تغيراً يعترى المبادئ التي كانت تنظم الحياة. «إن كنت طلعة، فارتحل...[1]»

* * *

عندما كان بوالو Boileau يذهب إلى مياه البربون Bourbon كان يخيل إليه أنه في آخر الدنيا إذ كان قانعاً بالإقامة في أوتوي Auteuil. وكان راسين Racine

(١) - تروتي دي لاشيتاردي «تعليمات لنبيل صغير أو فكرة الرجل الكيس»، باريس ١٦٨٣ ص ٦٨.
Trotti de la Chétardie, Instructions pour un jeune Seigneur, ou L'idée du galant homme, Paris, 1683

مكتفيًا بباريس؛ وانزعج الاثنان أيما انزعاج عندما اضطرا أن يتبعا الملك في رحلاته. ولم يذهب بوسويه Bossuet إلى روما مطلقًا، ولا فينلون أيضًا. ولم يشأ موليير أن يعود مرة أخرى إلى دكان الحلاق في بزيناس Pézenas. فكل العظماء الكلاسيكيين كانوا يؤثرون الثبات. أما المغامرون فسوف نرى أنهم فولتير ومونتسكيو وروسو. ولكن الانتقال من أولئك إلى هؤلاء لم يتم إلا بعد عمل غامض.

والواقع أنه في نهاية القرن السابع عشر وفي مستهل القرن الثامن عشر، عاودت الإيطاليين روح السفر. وكان الفرنسيون دائبي الحركة كالزئبق: وكانوا على حد قول أحد المعاصرين، مولعين بالجديد حتى أنهم قلما احتفظوا بأصدقائهم إلى أمد طويل؛ إنهم يبتكرون كل يوم الجديد الطريف، ويستحدثون البدع. فإذا هم سئموا الإقامة في بلادهم، سافروا إلى آسيا أو إلى أفريقيا لتغيير المكان والتسلية[1].

أما الألمان فقد اعتادوا حب الظعن من قديم. ولا يمكنك أن تحملهم على الاستقرار حيث يكونون. كتب المؤلف الفرنسي سانت إفريموند Saint - Évre-mond في روايته المختلطة Cosmopolite الهزلية المسلية Sir Politick Would be على لسان ألماني: يقول «نحن رحالون جميعًا من الأب إلى الابن، ولا شيء يستطيع أن يمنعنا عن الترحال. لا نكاد نتعلم اللاتينية حتى نتأهب للسفر. وأول شيء نقتنيه دليل يشرح لنا الطريق، ثم كتيب صغير يعرفنا بالتحف والغرائب في كل بلد. وإذا كان المسافر أديبًا أخذ معه دفترًا أبيض فاخر التجليد، يدعونه دفتر الأصدقاء album Amicorum، ولا ينسى أن يزور العلماء في كل مكان يمر به، وأن يعرض عليهم هذا الدفتر ليسجلوا فيه أسماءهم...» وإنك لترى الألماني في سفره لا يوفر مجهوده، فهو لا بد أن يصعد في الجبل حتى قمته، ويتبع النهر من

---

(١) -جيوفاني باولو مارانا: رسالة من أحد سكان صقلية إلى صديق، تتضمن نقدًا ظريفًا لباريس وللفرنسيين ١٧٠٠ - ١٧١٠.

منبعه إلى مصبه، يعد المعابر والجسور، ويدرس أطلال المسارح والمعابد، ويشاهد - مسجلا في مذاكرته - الكنائس والأديرة والميادين والمجالس البلدية والقناطر القديمة والقلاع ودور الأسلحة، ويذكر ما سجل على القبور، ولا ينسى الأبراج والقباب وساعات الميادين، ويترك كل ذلك ويسرع إلى مكان آخر، إذا سمع بحفلة تتويج ملك فرنسا أو انتخاب الامبراطور!

والإنجليز مولعون بالأسفار، وهم يعدونها استكمالاً للتربية. كان النبلاء الشبان حديثي التخرج من اكسفورد وكمبريدج يملأون جيوبهم بالمال ويستصحبون رائداً حكيماً ثم يجتازون المانش ويشرعون فيما يسمونه «الدورة الكبرى». وقد عرفنا منهم أنواعاً مختلفة: فمنهم من كان يكتفي بمعرفة أجود أنواع النبيذ كالفرنتيان Frontignan والمونتفياسكون Montefiascone وداي d'Ay وداربوا d' Arbois وبوردو Bordeaux واكسيريس Xérez؛ ومنهم من كان يبحث في كل مكاتب التاريخ الطبيعي، ويدرس مجموعات قديم الآثار. ولكل امرئ خلق. يقول جريجوريوليتي[1] Grégorio Leti: «يرتحل الفرنسيون عادة بغية الاقتصاد حتى إن وجودهم في مكان، كثيراً ما يسبب من الخسارة أكثر مما يجلب من المنفعة. أما الإنجليز فعلى العكس من ذلك، يخرجون من بلادهم مزودين بكثير من صكوك الصرف، ومصطحبين حاشية كبيرة فينفقون مبالغ طائلة. وفي مدينة روما وحدها يوجد عادة ما ينيف على الخمسين نبيلاً انجليزياً، ومن يتبعهم من خدم، ينفق كل منهم مالا يقل عن ألفي جنيه ذهباً في العام. حتى إن مدينة روما وحد تسحب كل عام من انجلترا ما ينيف على ثلاثين ألف بستول[2].» وكذلك باريس «لا تخلو من السياح الإنجليز. أخبرني أحد أصحاب المصارف الإنجليز أنه صرف للنبلاء الإنجليز

---

(١) - «تاريخ ومذكرات عن حياة كروموبل»، أمستردام ١٦٩٢، الترجمة الفرنسية ١٦٩٤، طبعة ثانية في ١٧٠٣ ص٤٦.

Grégorio Leti, Historia e Memorie sopra la vita di O. Cromvele, Amsterdam, 1692, trad. fr. 1694, p. 46.

(٢) - بستول pistol: عملة قديمة تعادل ثلاثين فرنكاً.

في فرنسا، مائة وثلاثين ألف جنيه في غضون عام، ولم يكن هذا الرجل من أغنى رجال المال.» وقد كان جريجوريوليتي نفسه مغامراً ومهاجراً، وكان له خمسة أوطان. فلقد ولد في ميلان، وانضم إلى مذهب كالفين في جنيف، وكان مادحًا للويس الرابع عشر في باريس، ثم مسجلاً للتاريخ الإنجليزي في لندن، وكاتبًا هجائيًا في هولندا حيث توفي عام ١٧٠١. كان العلماء يزيدون من معارفهم بالانتقال من بلد إلى بلد كما فعل أنطونيو كونتي، وبادوان الذي أقام في باريس عام ١٧١٣، وفي لندن عام ١٧١٥ حيث اشترك في معركة حساب النهايات الصغرى[1]، ثم رحل إلى هانوفر للاجتماع بليبنتز، وفي أثناء مروره بهولندا لم يهمل زيارة ليوفنهوك Leuwenhoeck. وكان الفلاسفة يرحلون كما فعل لوك وليبنتز، لا للتأمل الهادئ بجوار مدفأة بل لمشاهدة تحف العالم. كما رحل الملوك أيضًا، فقد توفيت الملكة كريستينا ملكة السويد في روما عام ١٦٨٩ وسافر بطرس قيصر الروسيا إلى أوربا عام ١٦٩٦.

انتصرت السياحة لأنها نوع من الأدب غير مقيد بحدود، نوع يسير يستطيع المرء فيه أن يلج كل باب وأن يطرق كل موضوع، من أبحاث علمية إلى نشرات للمعارض والتحف إلى قصص غرامية. وهي حينًا تروى كقصة جافة حشدت بالعلم، وحينًا تكون بحثًا في علم النفس، وحينًا آخر تسرد كمجرد رواية، وهي قد تشمل كل ذلك في نفس الوقت. وهي قد تقابل بالإطراء، أو بالانتقاد ولكن هذا وذاك يؤكدان الأهمية التي اتخذتها السياحة على كل حال ويبينان لزومها للإنسان. إن نفس الميل الذي جعلها تزدهر، شجع أيضًا صناعة دلائل السفر. ليس علينا إلا

---

(١) - حساب النهايات الصغرى Calcul infinitésimal: هو فن قياس وتعداد مالا نتصور وجوده، إخضاع اللا نهائي للحساب الجبري. «لاتظن أننا نسخر منك حين نقول إنه توجد خطوط لا متناهية في الكبر تشكل زوايا لا متناهية في الصغر، وأن خطا مستقيمًا طالما هو متناه، إذا اعوج قليلاً جدًا أصبح منحنيًا لا نهائيًا. وإذا كان كل هذا يبدو في أول الأمر مغالاة في مخالفة المنطق، فهو في الواقع نتيجة رفعة الذهن البشري وسعته ومنهج كشف الحقائق التي كانت مجهولة حتى الآن.» - الرسائل الفلسفية لفولتير، الرسالة السابعة عشرة عن اللا نهائي. [المترجمان].

الاختيار: «النبيل الأجنبي السائح في فرنسا» Le gentil homme étranger voyageur en France «تعليمات عامة لمن يريد السفر»؛ Il Burattino veridico ovvero Istruzione genrale per chi viaggia؛ «دليل لطرق جميع ولايات إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا» Guia de los caminos para ir por todas las provincias de Espana, Frania, Italia, Y Alemania. إن المدن الشهْيرة لها الحق في أن تحظى بمعاملة خاصة، «مدينة وجمهورية البندقية» La ville et la république de Venise «وصف مدينة روما لصالح الأجانب» Description de la ville de Rome en faveur des étrangers «دليل للأجانب الذين يدفعهم حب الاستطلاع إلى رؤية واستماع أشهر الأشياء في مدينة نابولي الملكية» Guida de' Forestieri curiosi di vedere et intendere le cose le piú notabili della regal cittá di Napoli. «وصف جديد لأغرب ما يوجد في مدينة باريس» Description nouvelle de ce qu'il Y a de plus remarquable dans la ville de Paris. وهناك عنوان جذاب، لا يمكن أن يقرأه المرء دون أن تتملكه الرغبة في السفر، ودون أن تلوح له آفاق ملأى بأعذب الوعود: الملاذ Les Délices «ملاذ إيطاليا» Les Délices de L' Italie «ملاذ الدانمراك والنروج» Les Délices et Agréments du Danemark et de la Norvége «ملاذ بريطانيا العظمى وارلاندا» - Les Délices de la Grande - Bretagne et de L' Irlande «ملاذ سويسرا» LÉtat et les Délices de la Suisse. وكل هذه الملاذ مجتمعة تهيئ «عجائب أوربا» Les Merveilles de L'Europe.

* * *

ولكن أليس «رواق الدنيا الظريف» La Galerie agréable du monde أكثر إغراء من كل ذلك؟

وواقع الأمر أن نشاط أوربا في كشف العالم واستغلاله لم ينقطع لحظة، ولقد واصل القرن السابع عشر في هذا الصدد المهمة التي ألقاها على عاتقه القرن

السابق. ففي عام ١٦٣٦ أعلن توماسو كامبانيلا Thommaso Campanella مايلي: لما كان كشف العالم قد ناقض بعض المعارف التي كانت تستند عليها الفلسفة القديمة فلا بد من أن ينجم عنه نظرة جديدة نحو الأشياء(١). هذه الفكرة التي نشأت رويداً رويداً في مبدأ الأمر، ازداد سريانها سرعة لأن الهولنديين لم يقتصروا على تنظيم تجارتهم مع بلاد الهند الشرقية، بل وصفوا ما شهدوه فيها من غرائب، ولأن الإنجليز لم يرفعوا علمهم على كل البحار فحسب بل نشروا عن رحلاتهم أفخم المؤلفات مما لم يسبق له مثيل. ولأن كولبير Colbert عرض على الفرنسيين أن يوجهوا نشاطهم نحو المستعمرات الغنية النائية: وما أكثر القصص التي سترد من هناك «مؤلفة بأمر الملك»! وما كان الملك يدري أن ستتمخض هذه الروايات يوماً بأفكار تزلزل أعز مبادئ عقيدته وألزمها لاستتباب سلطانه!

وهكذا نرى إنتاجاً ينشأ ويتسع حتى يجاوز كل حد معقول؛ فمن أحاديث إلى وصف وبيان ومجموعات. واستطاع الناس الذين يلتزمون دورهم، ولا يعرفون شيئاً عن البحيرات الكبيرة في أمريكا ولا عن حدائق مالابار في الهند، ولاعن المعابد العجيبة في الصين - استطاعوا أن يطلعوا في غرفهم، وبجانب مدافئهم، على ما يقصه الآخرون. وجعل الملحقون بالارساليات الأجنبية الكابوسان Capucins والفرنسيسكان والجيزويت Jésuites يحكون عن التبشير. ووصف الأسرى من أهل طرابلس والجزائر ومراكش ما عانوا من اضطهاد في سبيل الدين. ونشر أطباء الشركات ما دنوا من مذكرات؛ وحكى رواد البحار مثل دامبيير Dampier، جميللي كاريري Carreri، وود روجرز Wood Rogers سياحتهم حول العالم، فخورين. وكان هروب اللاجئين البروتستانت الذين أبحروا في ١٠ يوليو من عام ١٦٩٠ من أمستردام مغادرين أرض أوربا الجاحدة، للبحث في طريق

---

(١) -عن تأثير الارتحال على الأفكار، أنظر إلى كتاب هنري بوسون «التفكير الديني الفرنسي من شارون إلى باسكال» ١٩٣٣ ص ٢٨٤.

Henri Busson, La pensée religieuse francaise de Charron à Pascal, 1933, p. 284.

بلاد الهند الشرقية عن فردوس يبدأون فيه حياة جديدة، علامة من علامات الزمن. ولكنهم لم يجدوا هذا الفردوس.

وتأثرت الضمائر تبعًا لهذا الإنتاج الضخم، ونجدها في أواخر القرن تعمل بهمة ونشاط. ابتعد سير وليم تمبل Sir William Temple عن ضجيج الأمور السياسية وركز اهتمامه في استثمار حدائقه الجميلة في موربارك Moor Park وفي تثقيف ذهنه. إننا نستطيع أن نتبعه في تفكيره: كم من بلاد ومناطق كنا نجهلها بالأمس أو نعتبرها في حالة من الوحشية، قد عرفناها اليوم بفضل روايات التجار والبحارة والسياح! في تلك البلاد التي دخلت في أفقنا حديثًا وأصبحت الآن موضع محادثات ومناقشات علمية، ظهرت مكتشفات لها أهميتها ووقعت أحداث تستحق التنويه ولا تقل في قيمتها عن تلك التي كانت تغذى أذهاننا من قديم. لا ينبغي أن نلقى كل اهتمامنا إلى حدود تلك البلاد وأقاليمها وغلاتها فحسب، بل يجب أن نهتم بقوانينها وتقاليدها وإدراتها وأشكال حكوماتها... وعلى إثر ذلك شرع وليم تمبل في درس السياسة والأخلاق في الصين وبيرو والتتار وبلاد العرب، وبالتأمل في خريطة العالم الجديد، عاد يبحث عن المبادئ التي كانت تسود العالم القديم[١].

وكثيراً ما كان المسافر يعود إلي وطنه بفكرة يعتقد أنها مبتكرة، بينما هو في الواقع كان يحملها معه عند رحليه: ولكنه لا يخطئ كثيراً في اعتبارها فكرة فعالة. لأنه عند رجوعه بها إلى أمستردام أو لندن أو باريس تكون هذه الفكرة أو النظرية قد ازدادت فخراً وجسارة واكتسبت نفوذ التجربة الذي كان ينقصها من قبل. نستطيع أن نؤيد واثقين أن كل الأفكار الحيوية، كالملكية والحرية والعدالة، صارت محل مناقشة من جديد، بفضل الأمثلة المستمدة من البلاد البعيدة. أولاً، لأنه من تبسيط الفوارق بغية الوصول إلى نموذج شامل، تحقق وجود ما هو خاص، فردي، لا يقبل

(١) Essay upon Heroick Virtue. Dans les Miscellanea de 1690.

أي تحويل. ثانيًا، لأنه أمكن مواجهة الآراء المكتسبة بالوقائع المستمدة من التجربة، التي أصبحت في متناول المفكرين. وأضيفت براهين جديدة، حية لامعة، إلى البراهين التي كانت تعوز الناس لمعارضة هذا المذهب أو ذاك، وهذه العقيدة المسيحية أو تلك، والتي لم يكن بد من التماسها بمشقة في محفوظات الأجيال الغابرة: فها هي ذي الآن قد أحضرها المرتحلون وأصبحت في متناول الناس. كثيرًا ما يستشهد بيير بايل Pierre Bayle بتلك الشهادات التي تضمن صحتها المراجع الجديدة. «يؤكد لنا مسيو برنييه M. Bernier في مقالة الغريب عن المملكة المنغولية الكبرى. . . » - «يتضح لنا من رحلات مسيو تافرنييه Tavernier. . . » - «يتضح لنا مما نشر من مقالات عن الصين. . . » - «أنظروا إلى ما كتبت الشركة الهولندية عن اليابان. . . » ويقول في شأن الجلبة التي يقوم بها الناس في أثناء خسوف القمر: «لا يزال الفرس يقومون بهذه العادة السخيفة كما يتضح من بيان بيترو دلافالي. وهي مستعملة أيضًا في مملكة تونكين حيث يسود الاعتقاد بأن القمر يقاتل تنينًا: أنظر المقال الحديث الحديث الذي كتبه مسيو فرنييه» - «إن الملاحظة التي أبديتها عن تفشي الفسق والفحشاء بين المسيحيين تذكرني بأني سبق أن قرأت في رواية المسيو ريكو. . . إن مقالات مسيو ريكو قد أحدثت ضجة كبرى حتى لا يمكنك أن تجهلها. . . » وحين يريد بايل تبيان أن وجود الله لا يؤيده الارتضاء الشامل - وهو بيت القصيد - فهاك البرهان الذي يستمده من السفر: «بماذا تجيبون إذا اعترضت عليكم بوجود شعوب الكفار التي يتحدث عنها سترابون، والشعوب التي كشفها الرواد المحدثون في أفريقيا وأمريكا؟[1]»

لعل أحدث الدروس التي تلقتها أوربا عن «الامتداد» درس النسبية. لقد تغيرت وجهات النظر، فالمبادئ التي كانت تتراءى سامية فيما سبق، لم تعد قيمتها تتوقف إلا على اختلاف المكان، والعادات التي كانت تبدو مستندة إلى العقل اتضح أنها في الواقع تقوم على التقليد. وعلى العكس من ذلك فإن عادات كانت تبدو

(١) - «أفكار عن المذنب»، ١٦٨٣، الفصل ١٤، ٧٣، ٨٩، ١٢٩، ١٦٥ وما بعدها، Pensées sur La Cométe, 1633.

خرافية أصبحت منطقية، إذا تناولها الناس بالتفسير على أساس المصدر والبيئة. فنحن نرسل شعرنا ونحلق لحانا، أما الأتراك فيحلقون شعرهم ويرسلون لحاهم. واليد اليمنى عندنا أشرف من اليد اليسرى بينما يرى الأتراك عكس ذلك: هذا الاختلاف بين الشعوب لا تجوز المناقشة فيه، فلنقبله على علاته. إن أهل سيام يديرون ظهورهم للنساء ظانين أنهم يحترمونهن بعدم نظرهم إليهن، أما نحن فنفعل عكس ذلك. ولكن من المصيب؟ ومن المخطئ؟ إذا نظر أهل الصين إلى أخلاقنا على ضوء أفكارهم الخاصة التي تكونت منذ ٤٠٠٠ سنة فإنهم يكادون يعتبروننا برابرة جهالاً، وإذا نظرنا نحن إلى الأخلاق الصينية نجدها شاذة. هذا ما يقوله الأب لي كونت عضو إرسالية اليسوعيين، وبعد ذلك يصل إلى هذا الاستنتاج الفلسفي: «إننا نخطئ جميعًا، لأن الآراء التي ورثناها منذ طفولتنا، تمنعنا من النظر إلى أفعال الإنسان بعين الحقيقة، فنتوهم أن هذه الأفعال ليس لها في ذاتها قيمة، بل إن الشعوب هي التي حددت معانيها في بداية تأسيسها.» ومثل هذه الأقوال تؤدي إلي نتائج بعيدة، تؤدي إلى فكرة النسبية العالمية مباشرة. يقول برنييه: «لاشيء يستعصي على الاعتقاد، والرأي المبتسر، والعادة، والرجاء، ومسألة الكرامة، الخ» وبوقل شاردان: «إن إقليم كل شعب هو فيما أرى، السبب الأساسي لميول الإنسان وعاداته على الدوام...» وهو يضيف إلى قوله: «إن الشك بداية العلم، فالذي لا يشك في شيء لا يفحص شيئًا، ومن لا يفحص شيئًا لا يدرك شيئًا، ومن لا يدرك شيئًا فهو أعمى، وسيظل أعمى.» وعندما نطالع هذه الكلمات الزاخرة بالمعاني، نفهم الملاحظة الملاحظة التي كتبها لابروبير في فصله المعروف «العقول

---

(١) – Esprits forts تعبير يدل على من يفاخرون بعدم التصديق. ويتكلم لابروبير La Bruyére عن العقول القوية في كتابه «الشخصيات» Les caractères الفصل الخامس عشر «هل تعرف العقول القوية، إننا ندعوها هكذا من قبيل السخرية؟ أي ضعف أبلغ من ألا يكون المرء واثقًا بمبدأ كيانه، وحياته وشعوره، ومعاونه، وما سينتهي إليه؟ أي تثبيط للهمة أكبر من أن يشك الإنسان فيما إذا كانت روحه ليست مادة كالحجر أو الهامة، وأنها لا تقبل الفساد كهذه المخلوقات الدنيئة...» [المترجمان].

القـوية» Des Esprits forts[1]: «بعض الناس يفسـدون بسـبب أسـفـارهم الطويلة، ويفقـدون القليل الذي تبقى لهـم من دينهم: إذ يشـاهدون كل يوم مذهبًا جديدًا، وأنواعًا شتى من المراسيم والأخلاق».

* * *

وأخيرًا أقبل أولئك الأجانب الرمزيون، أقبلوا ومعهم عاداتهم وقوانينهم وقيمهم المبتكرة، وفرضوا أنفسهم على ضمير أوروبا التي كانت تتحرق إلى سؤالهم عن تواريخهم وأديانهم، وقد أجابوا على ما وجه إليهم من أسئلة، ، كل بدوره.

وكـان مـوقف الأمـريكي محـيرًا، فـقـد وجـد مـفـقـودًا في أرض حـديثـة الاكتشاف، إذن فهو ليس ابنًا لسام أو حام أو يافث، ترى ابن من يكون؟ كان الوثنيون قبل تجسد المسيح على الأقل مشتركين في الخطيئة الأصلية لأنهم ينحدرون جميعًا من أب واحد وهو آدم: ولكن ما القول في الأمريكان؟ ثم بأي سر استطاعوا الهروب من الطوفان؟ ويا ليت الأمر يقف عند هذا الحد. فكل أمرئ يعلم أن الأمريكان برابرة همج: كان المرء إذا أراد أن يتصور حالة الإنسان قبل المدنية، يضرب بهم المثل. قوم يعيشون عريا لا يسترهم كساء. بيد أن شكًا جعل يساور العقول: هل الرجل الهمجي لا بد أن يكون مخلوقًا وضيعًا حقيرًا؟ ألا يوجد رجال من الهمج يعيشون سعداء؟

مثلما كان الجغرافيون القدماء يرسمون على خريطة الدنيا صور النباتات والحيوانات والناس، فلنسجل هنا في خريطة الدنيا الذهنية مكانة ذلك الرجل «الهمجي الطيب» le Bon Sauvage وأهميته. صحيح أن هذا الشخص ليس جديدًا، إلا أن شخصيته لم تكتمل نهائيًا إلا في الوقت الذي ندرسه، ، بين القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر. وقبل ذلك كان الاعداد قد أنجز، فقد امتدحت إرساليات المذاهب المختلفة فضائل ذلك الرجل، التي رفعت من شأنه، دون اهتمام

بما إذا كانت تلك الفضائل التي يطرونها مسيحية أو غير مسيحية! ولما كانت الحماسة قد أنستهم الحرص فقد امتدحوا بساطته قائلين إنه يكتسبها من الطبيعة، وامتدحوا كرمه وحسن طويته، تلكما الميزتين اللتين لا توجدان دائماً في أوروبا. ولما نضجت هذه الأفكار ظهر رجل لم يكن عليه إلا أن يقدمها في أسلوب حي قوي، وفي حذق أيضاً: فالحذق ألزم الشروط. وكان ذلك الرجل، البارون دي لاهونتان -bar on de Lahontan متمرد الذهن، سئم الجيش، فأبحر إلى شواطئ كويبك عام ١٩٨٣، وارتأى أن يشق طريقه في الحياة في كندا، فإنه لم يكن أحمق أو جباناً، ثم اشترك في مقاتلة الهنود الحمر بصفته ضابطاً. ولما كان عديم الطاعة، حاد المزاج، فقد لاحقه الكرب حتى هرب، وعاد إلى أوروبا ليعيش فيها حياة غير موفقة. ولما نشر في عام ١٧٠٣ «رحلاته، ومذكراته، ومحاوراته»، خلف تحفة لا شك في أنها أبقى وأخلد مما دار في خلده، ولو أنه لم يكن يستخف بقدره.

إن أداريو الرجل المتوحش يحادث لاهونتان الرجل المتمدن، الذي يقوم بالدور السيء. يعرض أداريو مظفراً الدين الطبيعي مقابل الانجيل. ويعرض الأخلاق الطبيعية مقابل القوانين الأوروبية، التي لا همّ لها إلا الايحاء برهبة العقاب. ويعرض اشتراكية بدائية يجد فيها المرء العدالة والسعادة، مقابل المجتمع الجديد. وهو يصيح فليحيى الهنود الحمر! ويرثى لذلك المتمدن المسكين الذي لا فضيلة له ولا قوة، والذي لا يستطيع أن يجد القوت والمأوى، ذلك الساقط الفاسد الأخلاق، مسخرة الكرنفال بثيابه الزرق وجواربه الحمر وقبعته السوداء وريشته البيضاء وشرائطه الخضر، ذلك الذي يموت ألماً في كل لحظة بما يلاقي من عذاب وهوان في البحث عن رتبة أو مال، لا تترك في قلبه سوى اليأس والاشمئزاز آخرة المآل.

أما الرجل المتوحش فقوي يجيد السير والصيد ويقاوم التعب والحرمان. إلا ما أجمله وما أنبله! إن الجهل نعمة له: فهو لا يعرف القراءة والكتابة ولذا يجتنب

كثيراً من السوء: فالعلوم والفنون هي منبع الفساد. أما هو فيطيع الطبيعة أمه الرءوم، ولذا فهو سعيد. إن المتمدنين هم البرابرة الحقيقيون، فليكن ذلك الرجل مثلاً يحتذونه وليلقنهم كيف يهتدون إلى الحرية والكرامة الإنسانية.

وبجانب ذلك المتوحش الطيب يطالب المصري الحكيم بمكانه: بيد أن شخصيته لم تكتمل بعد، فهي في دور التكوين. وستشكل بتنسيق فسيفسائي قوامه مواد متباينة: أحجار هيرودوت وسترابون التي تستعمل دائماً ولكنها لا تقدم أبداً، وتقريظ علماء التاريخ الذين سيسعون إلى سلب العبريين مجدهم المقدس ونسبته إلى المصرين، ثم روايات السياح. وقد ذكر أولئك الأخيرون أن الموسيقا والهندسة قد نشأتا في أرض مصر القديمة، وأن المجموعات النجمية سجلت لأول مرة في سماء مصر. ولنتذكر هنا الصفحات الرائعة التي سطرها بوسويه في مؤلفه «مقال عن التاريخ العالمي» Discours sur L'Histoire Universelle كان الصقلبيون والأمهريون أقواماً من البرابرة، فكان على مصر أن تقدم للعالم مدنية كاملة. وكان هذا الشعب المصري رصيناً رزيناً، تدفعه قوة ذهنه وثباته إلى التمسك بالقديم والنفور من الجديد، فإذا أشاد التاريخ بحفظه للجميل، فإنما يدل ذلك أيضاً على أنه كان شعباً اجتماعياً أنيساً لطيف المعشر. ولم يقتصر المصريون على سن القوانين بل حرصوا على تنفيذها، وتلك فضيلة المعشر. ولم يقتصر المصريون على سن القوانين بل حرصوا على تنفيذها، وتلك فضيلة نادرة. وكانوا يحاكمون الموتى، وعلى ضوء تلك المحاكمة السامية كانوا يميزون بين الأخيار والأشرار، ، فيحتفظون للأولين بشرف المقابر الكبيرة، أما الأخيرون فيلقون بهم بين الأقذار. . ولقد كانوا يتركون مياه النيل تغرق أراضيهم لتزداد خصباً. . إنهم بناة الأهرام.

وإذا كان بوسويه يبدي هذا الإعجاب بمصر، ، فلأنه كان يغذي تفكيره بذكريات الأزمان الغابرة، ولأنه قرأ تقارير إرساليات الكابوسان التي زارت مصر العليا. وقد دفعته الحماسة إلى أن يأمل يوماً أن تبعث طيبة الجميلة ذات المئة باب.

أفلم يكن مثل ذلك المشروع يليق بمقام الملك العظيم[1]؟ «لو أن سياحنا وصلوا حتى المكان الذي بنيت فيه هذه المدينة، لوجدوا بلا شك بين أنقاضها آثاراً ليس لها نظير: لأن ما شيده المصريون إنما أقيم ليصمد للزمن. والآن، وقد انتشر اسم الملك العظيم في أماكن الدنيا التي كانت مجهولة من قبل، الآن، وهذا الملك يشجع البحث عن الصنائع الجميلة طبيعية كانت أو فنية في أقصى الأرجاء، أفلا يليق بإزاء هذه الرغبة النبيلة في المعرفة أن نكتشف الآثار الجميلة المدفونة في صحراء طيبة، فتغتني العمارة الفرنسية بفضل المخترعات المصرية؟»

أما ما لم يكن يقبله بوسويه فهو البحث في مصر عن فلسفة قديمة جداً، وجديدة في الوقت نفسه[2]. غير أنه ظهر رجل مغامر ذو ذهن مخترع غريب يدعى جيوفاني باولو مارانا Giovanni Paolo Marana غادر جنوة غاضباً لأسباب تافهة والتحق بخدمة لويس الرابع عشر، غير منزه عن الغرض، ونشر في عام ١٦٩٦ قصة عجيبة «محادثات بين فيلسوف ومعتزل، عن موضوعات أخلاقية وعلمية عديدة». وهو يقدم في هذه القصة شيخاً في التسعين من عمره، يبدو في عنفوان الشباب، غض الاهاب، متورد الوجنات كالغادة الحسناء. ترى كيف يتيسر حفظ الشباب على هذا النحو؟ إنه عاش في مصر أمداً طويلاً: وفي أرض مصر يتلقنون سر الأكسير الذي يطيل العمر. ويتعلمون على الأخص الفلسفة الحقيقية التي لا تربطها أدنى علاقة بالمسيحية. وهو يقدم أيضاً شاباً مصرياً كله فضيلة ومعرفة، يستطيع أن يدلي على الفور ببيانات تستحق الإعجاب عن أدق الموضوعات. تلك فضيلة هذه الأرض الوثنية، التي هي بالرغم من ذلك أرض مباركة.

فلندع السنين تمر: وستكتمل الشخصيات، وتتضح وتغتني؛ وسينتظم المنظر بالطنبور والبردي واللوتس وأبي قردان؛ وأخيراً سنجد المصري الحكيم، le Séthos الذي قدمه الأب تيراسون والذي سيصبح فتنة القرن الثامن عشر. لم يكن ستيوس

(١) - يقصد لويس الرابع عشر.

(٢) - نعتقد أن المؤلف يقصد البحث عن فلسفة «جديدة» أي غير الفلسفة اليونانية القديمة. [المترجمان].

هذا بطلاً بل فيلسوفًا، لم يكن ملكًا بل محافظًا، ولم يكن مسيحيًا بل أحد الموقفين على أسرار Eleusis: نموذج رائع لكل حاكم ولكل إنسان.

ولقد بدا كما لو أ العربي المسلم لن ينال من الحظ مثلما نال المصري: لأن محمداً كان موضع حملات شائنة وتخرصات مؤداها أنه أغرق الأرض بالدم والنار، ، ولكن هنا جاء العلماء يضمون جهودهم إلى جهود السياح، إذ عنى بدراسة الحضارة الشرقية بعض كبارهم مثل d'Herbelot وتلميذه جالاند Galland الأستاذ بالكلية الملكية، وبوكوك Pococke أستاذ التاريخ العربي بجامعة أكسفورد، وريلاند M.Reland أستاذ اللغات الشرقية والآثار الاكليريكية القديمة بأوترخت Utrecht، وأوكلي M.Oekley أستاذ اللغة العربية بجامعة مامبردج. اطلع هؤلاء على النصوص الأصلية فنظروا إلى العربي نظرة جديدة.

لفت أولئك العلماء الأنظار إلى أن جمهوراً غفيراً لم يكن ليتبع محمداً لو كان محمد رجلاً دعيًا مصروعًا، وأنه من المحال أن دينًا غير مهذب - كما يدعي البعض - يستطيع أن يعيش وأن يتقدم. لكن لو سأل الناس العرب عن تاريخهم بدلاً من أن يستمعوا إلى الروايات الكاذبة، لعرفوا أن محمداً وأتباعه لا يقلون عن أبطال الشعوب الأخرى في مزايا القلب والفكر. وبعد، فما أسوأ ما قاله الأميون عن الدين المسيحي! وما أكثر السخافات التي ألصقت به! هكذا شأن الناس على الدوام إذا ألقوا نظرة سطحية على الأشياء. لقد ناقضوا أقوالاً لم يلفظها المسلمون، وأخطاء لم يرتكبها الإسلام. والحقيقة أن الإسلام دين منطقي معقول، دين نبيل جميل. وأكثر من ذلك فإن الحضارة الإسلامية جديرة بالإعجاب؛ بعدما طغت الجاهلية على العالم، من الذي كان حفيظًا على حقوق التفكير والثقافة؟ العرب.

تم هذا التطور من الجفوة إلى الحظوة في سنوات قلائل نهايتها سنة ١٧٠٨. ففي هذا التاريخ أعلن سيمون أوكلي Simon Ockley حقيقة - أو وهمًا - سنغدو فيما بعد، بعد مئتي سنة، جديرة بالمناقشة: فهو ينكر أن الغرب يفوق الشرق. لأن الشرق أنجب من العباقرة عدداً لا يقل عما أنجبه الغرب، ولأن الحياة هناك أسعد:

«من حيث خشية الله، والتحكم في الشهوات، والحكمة في السلوك، والاحتشام، والتواضع في كل الأمور وفي كل الظروف، بالنسبة إلى كل هذه المسائل (وهي الأهم على كل حال): إذا كان الغرب قد أضاف شيئًا مهما كان قليلاً، إلى الحكمة الشرقية، فينبغي أن أعترف أنني مخطئ كل الخطأ». تسير هذه الأفكار حتى تصل إلى فرنسي هو الكونت دي بولانفلييه Comte de Boulainvlliers الذي بعد أن شكر هربيلو، وبوكوك، وريلاند، وأوكلي، كتب «حياة محمد» حيث يكتمل التحول: لكل شعب حكمة تخصه فمحمد يمثل حكمة العرب، كما مثل المسيح حكمة اليهود.

ترى أي بلد - تركيا أم فارس - سيقدم لنا ذلك الرجل الذي يسخر من عاداتنا ومن عيوبنا ومن رذائلنا؟ ذلك الغريب الذي يسير في طرقنا منتقدًا أمورنا؟ ذلك الشخص الذي يسلينا ويكدرنا في نفس الوقت، والذي أنيط به أن يذكر شعبًا معتدًا بنفسه، بأنه ليس يملك بعد، لا الحقيقة ولا الكمال؟ الشخص الذي لا غنى عنه في الأدب الأوروبي بل شك مادام قد جعل منه أحد نماذجه المفضلة، واستخدمه مئة مرة قبل أن يسأمه؟

لقد قدمته تركيا، لأن أحد أوجهها كان متجهًا نحو أوروبا وكان الناس أعرف بها. ولقد وصفها انجليزي هو سيربول ريكو، سكرتير أحد السفراء، في أسلوب بلغ من حيويته أن كتابه أصبح منذ عام ١٦٦٦ أحد كتب السياحة الكلاسيكية، وأعيد طبعه مرات عديدة، حتى أصبح يدور في كل يد؛ ونشرت بعده روايات أخرى كثيرة. فقام مارانا الذي ذكرنا اسمه من قبل، والذي كان معجبًا بالمصريين، يصف تركيا: بدأ في عام ١٦٨٤ بنشر «جاسوس السلطان الأعظم» الذي لقي رواجًا فذًا، وأنجب أسرة كبيرة العدد من الأبناء والأحفاد. الجاسوس محمود الذي اتخذ لقب تيت المولدافي Tite de Moldavia رجل دميم، كتوم: ولما كان رصينًا متحرزًا ومتواضعًا فإنه لم يجذب اهتمام أحد حتى إنه عاش ٤٥ عامًا في باريس دون أن يستلفت الأنظار. كان يتنزه في النهار، ، ويعود في الليل إلى غرفته، ،

ليكتب إلى رئيس الديوان في الأستانة، أو إلى رئيس الخزانة، أو إلى آغا قائد الانكشارية، أو إلى محمد، آغا السلطانة الوالدة، أو إلى الوزير المهاب قاسم. وكانت رسائله حافلة بالنقد الجارح الجريء سواء ضد الأمور السياسية أو الأمور الحربية، أو الأمور الكنسية. كان يسخر من كل شيء.

ولكن الفارسي أخذ بثأره، وتم له النصر. ولا شك في أن ذلك يرجع إلى سببين: أولهما، أنه لا توجد حكايات عن الأسفار أمتع مما كتب شاردان بالرغم مما فيها من بطء وإطناب، ذلك الجوهري الذي رحل إلى بلاد الفرس لبيع الحلي، من ساعات وأساور وعقود وخواتم؛ ذلك البروتستانتي الذي حرم عليه فسخ أمر نانت[1] دخول فرنسا، كان يحس في وطنه إحساس الرجل الغريب. كان يعرف أصفهان أكثر مما يعرف باريس ويحبها على الأخص حبًا جمًا. حتى إن من يقرأ كتابه ولو كان أميًا، ، يدرك أن هناك، بعيداً في بلاد آسيا، أناسًا لا يقلون عنه شأنًا بحال من الأحوال، ، ولو أنهم يحيون حياة تفترق كثيراً عن حياته. إذن يجب على الأوروبيين أن يدعوا فكرة التفوق الشخصي التي ألفوها، وإبدالها بفكرة الاختلاف" يا له من تغير سيكولوجي! ففي بلاد الفرس كل شيء يختلف: الغذاء الذي يتناوله المرء في الطريق، والدواء الذي يصفه الطبيب المحلي على طريقته، والخان الذي يختلفون إليه للمبيت؛ كل شيء يختلف، الثياب، والحفلات، والمآتم؛ الدين والعدل والقانون. ومع ذلك فإن أولئك الفرس ليسوا قومًا من البرابرة: إنهم على النقيض في غاية الرقة والتهذيب بل في أوج المدنية، حتى إنهم لطول عهدهم بها قد ملوها. وهنا ينوه شاردان بوجود هذا «العالم الآخر» وشرعيته. لقد عرف قراءه «بكل ما هو جدير بأن يتجه إليه فضول أوروبا، ، مما

---

(١) - Révocation de L`Edit de Nantes: أمر نانت، أمر أصدره هنري الرابع في ١٥٩٨ لصالح البروتستانت، يسمح فيه بمباشرة مذهب كالفين، وكان للبروتستانت أربع جامعات ومقاعد في البرلمان وغير ذلك من الحقوق. ولكن لويس الرابع عشر حدّ من هذه الحقوق شيئًا فشيئًا حتى فسخ هذا الأمر في عام ١٦٨٥. وأعمل في البروتستانت الاضطهاد. الأمر الذي سبب فرار عدد كبير من البروتستانت كان بينهم خيرة الفرنسيين وأنشطتهم. [المترجمان].

يتعلق ببلد تستطيع أن تسميه «دنيا أخرى»، سواء لبعد الشقة أو لفوارق الأخلاق والمبادئ. . [1]».

أما السبب الثاني، الذي أتاح للفرس احتلال مكان الأتراك فهو واضح كل الوضوح، حتى ليكفينا أن نشير إليه: فبعد المسودات والرسوم التخطيطية، ظهر رجل - ليستغل فيما بعد، مادة معدة - رجل لم يكن موهوباً فحسب، بل كان فوق ذلك عبقرياً فذاً يدعى مونتسكيو Montesquieu[2].

لم يكن ينقص غير القليل لالتحاق السيامي بهذه الفرقة ذات الألوان المختلفة. أراد لويس الرابع عشر توطيد العلاقات التجارية مع بلاد سيام، ليبشر هناك بالدين المسيحي. وبدأت العلاقات: ففي عام ١٦٨٤ رأى أهل باريس - لشدة عجبهم - حضور مندوبي سيام، وفي عام ١٦٨٥ ذهبت بعثة فرنسية إلى سيام، وفي عام ١٦٨٦ حضرت بعثة سياسية جديدة إلى فرنسا؛ وفي عام ١٦٨٧ جددت المحاولة بعثة فرنسية أخرى. وعندئذ ظهرت بيانات كتبها العلماء الأكليريكيون وبعض رجال السلك السياسي المشاركين في الموضوع. ومن هنا تولد حب استطلاع الجمهور. ومن هنا أصبح الناس - بمقتضى آلية سيكولوجية لا تتغير - يتخيلون صورة السيامي في إطار جميل: رجل تقي عاقل مستنير. فمثلاً، يحكى أنه لما عرض على ملك سيام أن يتقبل الدين الجديد، أجاب بأنه، لو شاءت العناية الإلهية أن يسود العالم دين واحد، فما كان أيسر من تنفيذ ذلك الغرض. ولكن حيث إن اللّه يسمح بوجود أديان مختلفة، فينبغي أن تستنتج أنه يؤثر أن يسبح بحمده عدد لا يحصى من المخلوقات، كل يمجده طبقاً لأصوله الخاصة. فدهش الناس عندما سمعوا هذه الكلمات: واعجباً! إن أمير سيام، هذا الذي لا يعرف شيئاً من علوم أوربا، قد شرح بالرغم من ذلك، وفي قوة ووضوح يستحقان

(١) - مقدمة «صحيفة سياحة الفارس شاردان Chardin في بلاد الفرس» ١٦٨٦.

(٢) - مونتسكيو من أعلام الأدب في فرنسا. ألف «روح القوانين»، و «عن عظمة وانحلال الامبراطورية الرومانية»، و «الرسائل الفارسية» Les Lettres persanes وهي المقصودة هنا. [المترجمان].

الإعجاب، أقوى برهان تتذرع به فلسفة الجاهلية ضد الدين! . . . إن النتيجة التي نستخلصها من كل ذلك تؤدي بنا إلى الأثورودكسية[1]. إن السياسيين يتقبلون في أرضهم كل أنواع الأديان، وملكهم يسمح للبعثات المسيحية أن تمارس التبشير في بلاده بكل حرية: فهل الأوربيون في مثل تسامحه هذا؟ - ترى ماذا كانوا يقولون لو فكر «الطالابوان» فهكذا يدعى كهنة سيام - في القدوم إلى فرنسا ليبشروا بدينهم؟ - إن السياسيين يؤمنون بدين خرافي، إذ يعبدون إلهًا غريبًا يدعى «سومونوخودوم» وبالرغم من ذلك فإن في أخلاقهم الطهر والزهد؛ ولا يستطيع أي مسيحي أن ينتقد سلوكهم. أفلا توجد إذن بين الدين والأخلاق صلة حتمية؟

إلا أن ثورة نشبت في القصر السيامي، جاءت على غير ما تشتهي البعثة الفرنسية، فلم يغير ملك سيام دينه، وأهمل المشوع. وعلى إثر ذلك جاء الفيلسوف الصيني يحجب الطالبوان السيامي.

* * *

ذلك أنه ليس لبلد، في جغرافية الأفكار هذه، ما للصين من أهمية. لما كان الجيزويت العلماء تحدوهم أوسع المطامع، ويأملون في تحويل تلك الكتلة الآسيوية الهائلة إلى المسيحية، بالتهوين من الفوارق بين الدينين، وغض النظر عن تعارضهما؛ ولما كانوا قد عرفوا كيف يكتسبون في بكين عطف الامبراطور، فقد حاولوا تبيان اقتراب الفلسفة الصينية من المذهب الكاثوليكي، حتى إنه يمكن جعلها متماثلين تمامًا، إذا توافرت الرغبة في ذلك. وعندهم، أن كونفوشيوس الذي كون روح شعبه وهذبه، قد نادى بمذهب يشعر فيه المرء في كل لحظة، بنفث إلهي. كان يعتبر أن الطبيعة البشرية قد جاءت من السماء في غاية الطهارة والكمال، وأن الفساد تطرق إليها فيما بعد، وأن واجبنا الآن أن نرد إليها جمالها الأول: إذن يجب على أشياعه الصينيين أن يطيعوا اللّه، وأن يتمشوا مع أوامره السامية، وأن يحبوا إخوانهم محبتهم لأنفسهم. كان يخيل إلى المرء إذا اطلع على تعاليم كونفوشيوس،

(١) - الأثورودكسية: انظر إلى الفصل الرابع من القسم الأول.

أنه أمام قديس للدين المسيحي، لا أمام رجل تربى في فساد حالة الطبيعة: إنه شبيه صيني للقديس بولس. لا ريب في أن الصين قد استقت الحقيقة من منابعها الأصلية، وأن أولاد نوح الذين انتشروا في آسيا الشرقية قد أتوا إليها بتلك البذور التي استثمرها كونفوشيوس.

ولد كونفوشيوس قبل المسيح بثمانية وسبعين وأربعمائة سنة، وكثيراً ما كان يقول، كأنه نبي: في الغرب يوجد القديس الحقيقي. وبعد ٦٥ عاماً من ولادة المسيح استحث الأمبراطور ميمتي حلم، وفسر كلمة «الأستاذ» هذه، ثم أرسل مبعوثين إلى الغرب وأمرهم أن يواصلوا رحلتهم حتى يقابلوا ذلك القديس. وفي ذلك الوقت كان القديس توما يبشر بالدين المسيحي في الهند، ولو أن أولئك المبعوثين أدوا رسالتهم، بذلاً من التوقف في أول جزيرة، خشية خطر البحر، فربما أصبحت الصين فرعاً من الكنيسة الرومانية...

وبالمثل، لو أن الجيزويت أفلحوا في مسعاهم لتحقيق التماثل بين الدينين، فلعل أوربا لم تكن لتشعر بصفة عدم التحول، التي يتصف بها الشرق الأقصى، الذي كان يجبرها على الالتفاف إليه. وفي عام ١٦٩٧ بذل الجيزويت جهدهم الأخير: إذ نشروا مؤلفهم الكبير Confucius, Sinarum Philosphus؛ مؤلف يهم المذهب أكثر مما يهم العلم، ويخص تفسير الوقائع أكثر مما يخص الوقائع، لأنه إنما كتب قبل كل شيء، من أجل شباب الارساليات: صائدي الناس، الذين يصحبون أقدر على اصطياد الأرواح في شباكهم، بازدياد معرفتهم بأوجه الشبه الممكنة: جنود المسيح، مزودين بالأسلحة المخصصة لمعاركهم الجديدة.

بيد أن الجيزويت أخفقوا، واتضح في عام ١٧٠٠ استحالة التوفيق بين المستحدثات التي نتجت من دراسة الشرق، والتقاليد القديمة. فإن معركة «المراسيم الصينية» أوضحت وبينت حالتين فكريتين، وأجبت الاختيار بينهما. وكانت معركة قديمة قدم الارساليات الأولى إلي الصين، لأن المذاهب الأخرى المنافسة، لم تكف أبداً عن انتقاص تسامح الجيزويت وميلهم إلى المصالحة. فلما رأت هذه المذاهب

نجاح الآباء الجيزويت، وتقربهم بين المسيحيين والصينيين، احتجوا احتجاجًا شديدًا حتى إن الموضوع لم يرفع إلى السلطات الدينية، بل اشترك فيه الجميع. ونحن نعلم أي شدة تثور بها المناقشات اللاهوتية إذا انتقلت إلى مثل ذلك الوسط. قالوا: لاتخطئوا، فإن الجيزويت يخدعونكم، فأهل الصين وثنيون. إنهم يعبدون أجدادهم ويعبدون كنفوشيوس. والجيزويت المقيمون في الصين يبيحون للمتنصرين أن يسجدوا أمام تمثال شنهوام، وأن يحتفلوا بجنائزهم في مراسيم ملؤها الخرافات، وهم يقدمون لزعيمهم كون - فو - زو القرابين، ويخفي الجيزويت عنهم سر الصليب؛ ولا يقومون بأداء «المسحة الأخيرة» للمرضى والأموات، ولا العمادة أيضًا. ثم رفع أعضاء الارساليات الأجنبية ما كتبه الأب لو كونت والأب لوجوبيان إلى مجامع روما والسوربون، متهمين إياهما بالمروق.

وكان القتال عنيفًا. فقد قررت روما إرسال مندوب إلى الصين لكي يقوم بتحقيق جديد؛ أما السوربون فقد أدانت الجيزويت دون انتظار أوبة ذلك المبعوث. هنا اتضحت استحالة تحويل المجهول إلى المعروف وتحويل الدين الصيني إلى الكاثولوليكية، والصين إلى المسيحية. لم يكن بد من تقبل وجود كائن لا يتحول، ولا يمكن إنكار غرابته أو عظمته.

ولكن المتحررين من كل نوع كانوا معجبين بالصين كل الإعجاب:

Vossius apportait un traité de la Chine

Où cette nation paraît plus que divine.

ذكر فوسيوس[1] أن الصينيين لا يعترفون بالنبل إلا لرجال الأدب؛ ولا يحتفظون بذكرى إلا ذكرى أمرائهم العادلين المسالمين، وأن مستشاري

(١) - جاءنا فوسيوس ببحث عن الصين يبدو فيه هذا الشعب شعبًا إلهيًا.

الامبراطورية وأخصائه يؤاخذون أميرهم بمثل الحرية التي كان الأنبياء يؤاخذون بها ملوك اليهود: وإلا تعرضوا للوم الشعب وسخطه. يقال إن لا موت لوفاييه لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من الصياح: أيها القديس كونفوشيوس، ادع لنا! Sancte Confuci. ora pro nobis وذلك قبل أن يطالع مؤلفات الفيلسوف الصيني: ولما ازدادت معرفة المتحررين به، وشهدوا معركة المراسيم، اتضح لهم أمران بينان: أولهما أن المدينة الصينية كانت تستحق الإعجاب، وثانيهما أن هذه المدينة كانت وثنية تماماً: فبالنسبة «للعقول القوية» يا لها من ثروة للاستغلال!.

استغلال في السياسة:

«إن الصينيين قد حرموا من الوحي. إنهم ينسبون إلى قوة المادة كل صفة ننسبها إلى القوة الروحانية، التي ينكرونها وينكرون احتمال وجودها. إنهم عميان ولعلهم عنيدون.

ولكنهم عاشوا على ذلك منذ ٤٠٠٠ عام أو ٥٠٠٠، وهذا الجهل أو هذا العناد لم يحرم حالتهم من شيء من الفوائد الكبيرة التي يرجوها الرجل العاقل، وينبغي أن ينالها، من المجتمع: الرفاهية، والكثرة، وممارسة الفنون الضرورية، والدراسة، والهدوء، والأمان[١]. »

واستغلال في الدين:

«إنه لعجيب أن يوجد بين مختلف الأديان، دين واحد، يقوم على أساس الواجب الطبيعي، ودون استناد على الوحي، ينكر المذاهب العجيبة وأشباح الخرافات والتهاويل، التي يظنون أنها مفيدة جداً لسلوك الناس[٢]. »

---

(١) - بولانفلييه، «حياة محمد» ١٧٣٠، ص١٨٠ - ١٨١. Boulainviliers La Vie de Mohomed, 1730.

(٢) - بولانفلييه تفنيد أخطاء سبينوزا» ١٧٣١ ص٣٠٣.

إن أهل الصين كفرة، ولكن كفرهم هذا ليس كفراً سلبيًا مثل كفر همج أمريكا، بل هو كفر إيجابي اختياري: ومع ذلك فهم قوم ذو حكمة وفضيلة وتقوى، وعقيدتهم تشبه مذهب سبينوزا:

«بقدر ما أستطيع أن أحكم على شعور الأدباء الصينيين، بما يزودنا به السياح ولا سيما الأب جوبيان من أخبار، في كتابه: «تاريخ أمر امبراطور الصين في صالح الدين المسيحي»، يخيل إلى أنهم جميعًا متفقون مع سبينوزا على أنه ليس في الكون جوهر غير المادة، تلك المادة التي يميزها باسم الاله وستراتون باسم الطبيعة[1].

إن الفيلسوف الصيني يفتن أولئك الذين يتعجلون مجيء نظام جديد، أكثر مما يفتنهم الهمجي الطيب، أو المصري الحكيم، أو العربي المسلم، أو التركي الساخر، أو الفارسي المتهكم.

* * *

إن سياح أوربا بوجه عام يدفعهم حب استطلاع هادئ؛ أما سياح أمريكا وأفريقيا وآسيا، فهم أكثر حماسة، لأنهم مدفوعون بروح المغامرة والطمع والإيمان. والهائمون في عالم الخيال، يذهبون إلى حد الجنون.

وأولئك عددهم كبير، وإننا لنحتار في الاختيار. أنتبع جاك سادير في رحلته إلى أستراليا، حيث أقام أكثر من ٣٥ عامًا؟ أم نتبع الكابتن سيدن إلى «السيغارمب»؟ أنتعرف جزيرة كالاجافا حيث كل السكان عقلاء؟ أم جزيرة نودلى مثال دماثة الأخلاق؟ أم مملكة كرينك كسمنر العظيمة؟ أنجد تسلية في قصة مغامرات جاك ماسيه؟ ليست هذه الروايات الخيالية بمؤلفات فنية، فإن أبطالها ثراثرة مزعجون لا يخشون التطويل أو الاستطراد الثقيل. يمتلكهم الزهو بأنفسهم،

(١) - كولنز Collins رسالة عن أبدية الروح» ١٧٠٩، الترجمة الفرنسية، لندن ١٧٦٩ ص٢٨٩.

فلا يوفرون علينا عرض معلوماتهم ولا التحليل المفصل لفضائلهم. أولئك المؤلفون، أغلبهم من التائهين أو المهاجرين، يصفون لنا في كتبهم المشاعر التي كانت سببًا في مؤاخذة قومهم لهم، والآخرون بورجوازيون ذوو مظهر هادئ، يفضفضون أحلامهم المكبوتة.

إن الصيغة لا تتغير: فجميعهم يبدأون بقصة مخطوط قديم، وجد بإحدى المعجزات: ولسنا ندري لأي سبب يفتن هذا الاختراع الخيالي كل الكتاب على الدوام، حتى يكرروه، الواحد بعد الآخر، كأنه شيء جديد دائمًا؟ - ويحكي هذا المخطوط عادة، أسطورة بطل مغامر، عرف أخطار المحيط، ولما غرق مركبه نزل بأرض مجهولة، يحسن أن تكون أرض أستراليا. وهنا يبتدئ الموضوع الهام: وصف طويل لأرض لا يعلم بها الجغرافيون، فيجمعون الذكريات المستمدة من الخيال[1]، ومن الرحلات البعيدة، ثم يضيفون إليها بعض البيانات السخيفة المضحكة: فمثلاً جاك سادير شخص مخنث، فيوقعه حسن طالعه في منطقة كلها خناث مثله، يقتلون ذوي الجنس الواحد، إذ يعدونهم مثل الوحوش. ولكن هذه الدعابات ليست إلا حواشي للموضوع. فالغرض الأساسي هو الانتقال إلى أرض خيالية، والبحث من هناك في الحالة الدينية والسياسية والاجتماعية لأوربا، وتبيان أن الدين المسيحي على العموم والمذهب الكاثولكي على التخصيص همجي غير منطقي، وأن الحكومة عامة والملكية خاصة نظام جائر مكروه، وأن المجتمع ينبغي أن ينقلب رأسًا على عقب ليتكون من جديد. وحين يتم هذا التبيان، لا يكون على بطل الرحلة الخيالية إلا أن يعود إلى أوربا، لكي يلاقي الموت.

والشيء الذي يستفلت النظر في هذه الروايات هو الرغبة الدائمة في التدمير والتخريب. ما من عادة أو تقليد لا ينكرونه، أو فكرة مألوفة لا يرفضونها، أو

---

(١) - aux utopies من البلاد الخيالية، utopie في الأصل بلد خيالي اتخذه توماس مور عنوانًا لأحد مؤلفاته، وأصبحت الكلمة تطلق على كل مشروع مستحيل التحقيق. [الترجمان].

سلطة لا يتعرضون لها. فهم يعملون على هدم كل مؤسسة، ويعارضون بكل ما في وسعهم. ويظهر شيوخ حكماء في مواقف معينة، ويحلون محل رجال الدين فيلقون مواعظ مدنية، ويشيدون بالجمهوريات التي لا يتطرق إليها الفساد، وبالحكومات المتسامحة، وبالسلام الذي يكتسب بالاقناع، وبالدين بلا قساوسة وكنائس، وبالعمل المخفض الذي يبدو للعامل كمسلاة. ويمجدون الحكمة التي تسود أراضيهم الجديرة بالإعجاب، حيث فقد الإنسان معنى الخطيئة ويضعون تعاليم ضد تعاليم الدين. وعلى إثر ذلك نعود إلى المغامرة بوثبة من وثبات الخيال أو بتعبير ماجن أو صورة خليعة، تنعشنا وتستثير اهتمامنا، أو هذا على الأقل ما يظنه المؤلف. ثم يعود إلى تبيان ما في حياتنا اليومية من مشاق وسخافات وأحزان، ويصف الأيام السعيدة التي يقضيها الناس هناك، في تلك البلاد التي ليس لها وجود.

والشيء الذي يستلفت النظر أيضاً، هو انتصار الفكر الهندسي. انتظام في كل شيء حسب الرقم والقياس: فكرة تلاحق المؤلفين جميعاً وتلازمهم حتى في أحلامهم وجنونهم. هذا الميل إلى التسوية ينطبق على كل مظاهر الحياة، حتى على اللغة التي لا يجوز أن تتضمن شيئًا تجريبيًا شيئًا تجريبيًا، بل ينبغي أن تكون منطقية تمامًا. وهو ينطبق أيضًا على المساكن، مساكن «الست عشرات»؛ ففي كل منطقة ستة عشر حيًا، وفي كل حي خمسة وعشرون بيتًا، وفي كل بيت أربع حجرات تحتوي كل منها على أربعة رجال: ذلك هو البلد التام الانتظام. وشوارع منتظمة وعمارات كبيرة مربعة، مبنية كلها على رسم واحد: تلك هي المدينة الجيدة البناء. وحدائق مربعة تمامًا حيث تغرس الأشجار في انتظام حسب فائدة الفاكهة ولذتها: ماأروعه من بستان! فبالأرقام يستطيع المرء أن يثبت كل شيء، حتى استحالة بعث الأجساد. فلنفترض بلداً فيه ٤١٦٠٠ قرية في كل قرية ٢٢ أسرة وفي كل أسرة ٩ أفراد. الحاصل: ٠٠٠، ٢٣٠، ٣٨ نفساً يمثلون ١٠.٤٠٠.٠٠٠ قدماً مكعباً من اللحم. وتتجدد هذه الكتلة كل ٦٠ عاماً فتخيل ضخامتها بعد مرور ١٠ آلاف

سنة : ستكون كتلة ضخمة تفوق حجم الأرض بشكل لا يقدر ولا يتصور؛ وعلى ذلك فبعث الأجساد شيء محال . - إن الجبال شيء مزعج لما فيها من عدم استواء : لذلك فإن الاستراليين لم يترددوا، فطووها وسووها .

وإذا انتشى الإنسان بتلك الأفكار ثم أفاق من حلمه ليجد نفسه أمام الواقع الملوس، فلا بد أن يحز في نفسه الألم . أو هو على الأرجح يخضع ذلك الواقع الملموس، طوعًا أو كرهًا، لتحويل هندسي، فيقول إن مجيء المسيح يحير العقل، إذن فهو ليس حقيقيًا، وإن العهد القديم ليس واضحًا، إذن فهو ليس صحيحًا، وإن الحكمة تقضي بألا يقبل المرء شيئًا ما لم يكن مبنيًا واضحًا . يقول تيسو دي باتو، أحد الخياليين وأكثرهم بحثًا وتفكيرًا، وهو مؤلف «مغامرات جاك ماسيه jacques Massé» . ١٧١٠ «أما وقد سرت منذ أمد طويل في طرق الهندسة الواسعة المضيئة، فإني لن أعد أحتمل شعاب الدين الضيقة المعتمة إلا بمشقة . . . إني أريد في كل شيء، الوضوح والإمكان[1] . »

إن هذه الكتب مؤلفات تتضمن قسطًا وافرًا من الحماقة، فيها أفكار فجة غير مصقولة، ولكنها قوية . ومشاعر لم يحسنوا التعبير عنها، ولكنها مشاعر عظيمة . إنها لا تنبئ عن مجيء سويفت وفولتير وروسو فحسب، بل عن الروح الديمقراطي أيضًا، عن روبسبيير .

لم يكن المراد من السياحة البحث عن المناظر الرائعة، أو التنزه في مختلف الأجواء حتى يدرك المرء مايطرأ على حساسيته من تغيرات، بل المقارنة بين الأخلاق والمبادئ والفلسفات والأديان؛ الوصول إلي معنى النسبية، والمعارضة والشك . وكان بين أولئك الذين ساحوا خلال الدنيا، أكثر من متحرر واحد .

---

(١) - تيسو دي باتو، رسائل مختارة، ١٧٢٧، رسالة ٦٧ Tyssot de Patot, Lettres choisies, 1727. L. 67

وقراءة روايات السياحة والأسفار تعني الهرب والفرار، تعني الانتقال من ثبات الفكر إلى الحركة. كم من أفكار خجول كسول واتتها الجرأة بفضل معرفة الصين أو مملكة المغول! وبازاء هذه المذاهب المتناقضة التي يزعم كل منها أنه يعبر عن اليقين الوحيد، وبإزاء تلك المدنيات التي تدعي كل منها تمثيل الكمال الوحيد، كم تعلمت العقول الشك وعدم الإيمان! «إنهم عميان، لا خبرة لهم ولا تجربة، أولئك الذين يظنون أن أوربا قارة تكفي نفسها بنفسها، وليست في حاجة إلي جيران... لا ريب في أنها لو استطاعت الاتصال بالاستراليين، لاختلفت كل الاختلاف عما هي عليه الآن [1]. »

ولكن أوربا لم تتصل بالأستراليين، بل آثرت الاتصال ببلاد الشرق، من بين كل البلاد التي ألحت في هذا الاتصال. الشرق الذي- بالرغم من أن أوربا شوهت صورته- لم يزل بعد يحتفظ بقوة مبتكرة تكفي لكي يقدم للعالم حضارة غير مسيحية، كتلة من البشر قد بنت بنفسها أخلاقها، وحقيقتها، وسعادتها.

لقد كان ذلك أحد الأسباب التي جعلت ضمير أوربا يتعكر ويضطرب، وبما أنه رام أن ينقلب رأساً على عقب، فقد انقلب أي منقلب!

---

(١) جثريل دى فواني «الأرض الاسترالية المعروفة ١٦٧٦» الفصل الحادي عشر. Gabrel de Foigny, La Terre australe connue, 1676, chap. XI

الفصل الثاني
من القديم إلى الحديث

القدماء، القدماء الأعزاء: يا لهم من مثل عجيبة! كلما أرادوا الكتابة أنتجوا المؤلفات النبيلة. في ميدان الفلسفة قدموا للعالم مبادئ أخلاق ما كان على المسيحية إلا أن تكملها. وفي ميدان العمل عاشوا كأبطال، لا أبطال أساطير مثل رولان وأماديس، بل أبطالاً حقيقيين. فإذا أراد امرؤ الكتابة أو التفكير أو الحياة فما عليه إلا أن ينسج على منوالهم.

وعلى حين غرة، أو هذا ما يبدو على الأقل، جاء الكفرة المجدفون: المحدثون الذين قوضوا مذابح الآلهة القدامى. أنظر كيف اكتسب هذا اللفظ، لفظ «حديث»، قيمة ليس لها نظير: تعبير سحري يرد جبروت الماضي. وبعد ماكان الناس يبدون عصريتهم في خجل واستحياء، أصبحوا بها مختالين، اختيالاً يستفز ويثير. لقد تخلوا عن حزب الأموات العظام مستسلمين إلى متعة رخيصة، متعة الاحساس بحياة فتية ولو كانت فانية، مؤثرين الرهان على الحاضر بدلاً من الماضي. معتقدين كما يعتقد «تريفلان إحدى شخصات ماريفو Trivelin de Marivaux أنه لا فخر في أن يحمل الإنسان على عاتقه أربعة آلاف عام، فإنه حمل لا يطاق». فنشأ اعتقاد باطل ما زلنا به متشبثين. «إن الجديد، مع أنه زائل من أصله، يبدو لنا ميزة لها من القيمة ما يجعل غيابها عنا يفسد المزايا الأخرى، ووجودها يقوم مقام كل المزايا: فنحن مضطرون إلى أن نظهر دائماً متقدمين في

الـفنـون والأخـلاق والسـيـاسـة والأفـكار، خـشـيـة الحكم علينا بالإجـداب والهوان والمضـايقـة- ونحن مـفطورون على ألا نقـدر إلا دهشـة المفـاجـأة وتأثيـرها السريع ... [1]»

مـا السبب في هذا الانتقـال الجديد من الماضي إلى الحـاضـر؟ ما السبب في أن شطراً من الفكر الأوروبي قد تنكر للقدمـاء الذين آمن بهم عصر النهضة والعصر الكلاسيكي؟ إن النزاع الشهير، النزاع بين القدماء والمحدثين الذي يفسرون به هذا التقلب، ليس إلا علامة له، فينبغي أن نبحث في علة وجوده.

في أعـمـاق الضـمـائر، أضـاع التاريخ من قيـمـتـه حـتى أفلس؛ بل إن نفس الشعور «بالتاريخية» كان يسير إلى الزوال. وإذا تولى الناس عن الماضي فلأنه تراءى لهم غير مؤكد، غير محقق، غير صحيح. لقد فقد الناس الثقة بمن يدعون معرفته، فأما أن أولئك كانوا يخطئون، وإما أنهم كانوا يكذبون. فحدث ما يماثل الانهيار الشديد، وصار الناس لايرون شيئًا مؤكداً إلا الحاضر، فانتقل السراب من الماضي إلى المستقبل.

* * *

في أول الأمـر اتضح أن كـلام المؤرخين المحـدثين ليس مـحل وثوق. وكـان عددهم كبيراً: ميزايري Mézeray، الأب ميـمبرج، فـاريلاس Varillas، فيرتو Vertot، سانت ريال Saint-Réal، الأب دانييل، الأب بوفييه Buffier الذي أجمل الملوك والملكات والحـروب والمعـاهدات والممـالك والولايات والمدن في أشـعـار صغيرة يمكن حفظها عن ظهر قلب، ولورانس إيشارد، وإدوارد هايد، والكونت دى كلارندون، وآبل بوابيه Abel Boyer، وأشـهـرهـم جلبرت بورنيت Gilbert Burnet، ثم أنطونيو دى سوليس، الذي أهدى إلى إسبانيا في عام ١٦٨٤ مؤلفه الرائع «تاريخ غزو المكسيك». فضلاً عن عدد كبير من الآخرين الذين يتمنون أن

---

(١) - بول فـاليـري «نظرة إلى العـالم الحـاضـر» ١٩٣١ ص١٩١. Paul Valéry, Regards sur le monde actuel, 1931, p. 191.

ننتشلهم من مملكة النسيان، ولكن العدل يقتضي أن نتركهم هناك، وهم وإن كانوا يختلفون كثيراً، فقد كانوا يتفقون في نقط عديدة: فالتاريخ مدرسة للأخلاق، إنه محكمة سامية، هو ملهاة للأمراء الصالحين، ومأساة للأمراء الطالحين. إنه يعلم دراسة الخلق لأنه «تحليل معنوي للأفعال البشرية». وهو على التخصيص عمل فني، فكما يقول كورديموا «يحسن أن نخصص وقتنا لتنميق الإنشاء، وترتيب الحوادث التاريخية، بدلاً من تمحيصها. كما أنه يحسن أن نراعي جمال الأسلوب وقوته ووضوح الكلام وإيجازه بدلاً من أن نبدو صادقين فيما نكتب». إن التاريخ دراماتيكي مؤثر، يقتضي ترتيباً مسرحياً فاخراً، فالحروب والمؤامرات والانقسامات موضوعات جميلة ومادة دسمة. وهو خطابي، يقترب من الشعر الذي هو وجه من وجوه البلاغة. وهو نبيل شريف، فالجزالة مصدره الطبيعي. وهو، لا جرم، يتضمن خطباً ووصفاً وأمثالاً وتحليلاً ومقابلة، كالمقابلة بين شار لكان وفرنسوا الأول: «إن المشيئة الإلهية لم تكتف بأن يولد في وقت واحد وفي مملكة واحدة وفي قرابة وثيقة، بل شاءت أن يستمدا تألقهما كل من الآخر. وتلك حقيقة لا مراء فيها، حتى إنه لما انهزم فرانسوا الأول، بقي الثاني بلا فضيلة ولم يرتكب إلا أخطاء في إثر أخطاء. فلنبدأ هذه المقارنة الشهيرة بما هو أكثر خفاء في تاريخ أبطالنا العظماء، ولنكمله إذا استطعنا بالدقة التي يتحراها أرسطو وفلوطرخس أكبر العظماء في هذا النوع من الكتابة... [1]».

وجملة القول في ذلك، أن جميع المؤرخين في ذاك الوقت أرادوا أن يحذو حذو «تيت ليف» وأن يكونوا أبلغ منه. ولا ريب في أنهم ارتضوا جميعاً ذلك الدستور الذي وضعه أحدهم وهو الأب لي موان: «إن التاريخ لرواية متصلة لأحداث حقيقية، أحداث عامة عظيمة، كتبت في حكمة وبلاغة وتقدير، لتعليم الأفراد والأمراء ولصالح المجتمع المدني [2]».

---

(١) - فلاريلاس: تاريخ فرانسوا الأول، ١٦٨٤، Varillas, Histoire de francois Ier, 1684.

(٢) - الأب لي موان: في التاريخ، ١٦٧٠ Le p. Le Moyne, de l,Histoire. 1674.

ولقد كانوا يكتبون مقدمات جميلة، يقولون فيها إن اهتمامهم إنما يتجه إلى العدل وعدم التغرض. إلا أنهم لا ينسون أيضًا أن من واجبهم الدفاع عن ملوكهم وبلادهم ودينهم، ولذا فقد كانوا يمالئون طبقًا للظروف، ولا يتحرون الحقيقة فقط بل يدافعون عن آرائهم الشخصية. ففي الجدال بين الكاثوليك والبروتستانت، تجد من كان يمدح لويس الرابع عشر، ومن كان يمدح وليم أمير أورانج، وهكذا نشبت منازعات لا نهاية لها، أشهرها ما صحب كتاب جلبرت بيرنت «تاريخ إصلاح كنيسة إنجلترا» (١٦٧٩ - ١٧١٥)، وكتابي الأب مامبرج «تاريخ مذهب لوتر ١٦٨٠»، «وتاريخ مذهب كالفين» ١٦٨٢؛ وكتاب فاريلاس «تاريخ ما وقع في أوربا من ثورات دينية» ١٦٨٦ - ١٦٨٩.

وما كان يعوقهم شيء، فقد أخذ (سان ريال) يحول حياة دون كارلوس ومؤامرة الإسبان ضد جمهورية البندقية إلى رواية: فما دام الروائيون يقتبسون موضوعهم من التاريخ فلماذا لا يجعل المؤرخون من التاريخ رواية وهي لا تقل عنه كثيراً من ناحية الخطأ؟- لما تقدم العمر بفاريلاس وكل بصره، كان يملي في كل يوم عدة ساعات دون أن يتحقق من شيء مما يمليه. وهو على كل حال لم ينتظر الشيخوخة حتى يخترع الحوادث. فقد نعى عليه أحد خصومه أنه روى- في سياق مختلفات أخرى- النهاية المؤثرة لحب فرانسوا الأول مع محظيته مدام دى شاتوبرياند: فطبقًا لقول فاريلاس نجد أن مسيو شاتو برياند، عقب عودته من بافي Pavie في عام ١٥٢٦، قد حبس زوجته الخائنة في غرفة مجللة بالسواد. وأنه في سبيل لذة الانتقام، كان لا يتورع عن أن يشاهدها خفية تتلوى ألمًا ويأسًا، حتى قتلها ذات يوم بنقل دمها بواسطة الأطباء. إلا أن الواقع أن فرانسوا الأول وهب السيدة المذكورة في رحلته إلى بريتاني في ١٥٣٢ غلة ممتلكات عديدة. وقد تركت غلة أموالها لزوجها بعد وفاتها عام ١٥٣٧.

عندما كتب لورانس إيشارد تاريخ انجلترا منذ يوليوس قيصر، قدر أن عصراً راقيًا كالعصر الذي يعيش فيه، لا يصح أن يرجع إلى مؤلفات الكهنة غير المتقنة،

حتى إنه قنع بتقليد ما أعجبه من مؤلفات القدماء والمحدثين: معترفًا بذلك، بما اعتاد الآخرون أن يفعلوه، دون اعتراف. - وما ذكر لنا من نوادر، لا يستعبد أن يكون صحيحًا: لما انتهى (فيرتو) من كتابة قصة حصار مالطة، وأطلعوه على الوثائق، أجاب بأن الوقت قد فات، فقد انتهى الحصار. وذهب الأب دانيال إلى المكتبة الملكية، حيث قضى ساعة بين المجلدات، ثم أعلن أنه قد أصاب كفايته. فيا له من رجل سعيد! ويقول هو نفسه إن ذكر المخطوطات شيء يشرف المؤلف، وأنه اطلع على عدد كبير منها، ولكن هذه المطالعة سببت له من العناء أكثر مما سببت من فائدة. وصدقناه بسهولة.

كيف تصمد عمارة على هذه الفخامة- وعلى هذا الضعف- لأقل صدمة؟ لقد تطرق الشك منذ ذاك الوقت إلي ضمائر المؤرخين، فإنهم علماء في اللغات والآداب القديمة، ولكنهم جاءوا متأخرين. وهم يدركون ذلك التأخر. بدأ وخز الضمير ينحسهم، فحتى في نصرهم لا يشعرون براحة بال يتساءلون في قلق، وهم يتظاهرون بالكبر أمام الجمهور: ترى أين الحقيقة Quid est Veritas؟

هل الحقيقة لا تعدو الاحتمال البسيط في الوقائع غير الثابتة؟ «أهي ذلك المظهر المنطقي الذي تتراءى فيه الأمور بعد قليل من التفكير؟» أهي موافقة نفسية؟ أهي انسجام يتولد من تأليف متقن أهي ابتداع فني؟ ما أصعب الوصول إليها! ولعمري إلى أي حد يسمح للمرء في ذاك السبيل؟ ولعل للمرء الحق في أن يبحث عند الغير وأن يدخل المكاتب وأن يكشف الستار الذي يخفي أسرار الأسرة للبحث عما يشفي حب استطلاع الناس؟ ما أكثر ما وصف كاتبان أو أكثر حصاراً واحداً، أو معركة واحدة، واختلفوا في التفسير، فترى أي تفسير نختار؟ وبأي معجزة تتخذ الأحداث لونًا روائيًا، بمجرد ما يتناولها قلم المؤلف؟ هذه هي المسائل التي تحير المؤرخين. ولا ريب في أن المؤرخين سطحيون عاجزون عن البحث المستديم، كثيروا الكلام في غير ما يفيد، وفي نفس الوقت متعجلون، وأنهم بارعون في تذليل المشاكل، لا يعرفون كيف ينفذ المرء إلى المصادر، ولا كيف يهتدي تحت

الطبقات المتراكمة إلى اللون الأصيل، وتنقصهم روح النقد والتحليل: ولكنهم يعجزون عن التخلص من بعض القلق الخفي، الذي نلمس آثاره في كتاب «منهج لدراسة التاريخ» الذي نشره في عام ١٧١٣ (لنجليه ديفرنوا): رجل ذو ذهن حر ولكنه مهوش. يقول: «حذار، لا شيء أشق من تجنب الخطأ، خذوا حذركم واتبعوا قواعد أكيدة؛ لا تقبلوا كل شيء، بل افحصوا، ونقبوا، وشكوا إذا لزم الشك، أمام كل غريب وشاذ؛ وابحثوا عن الأسباب التي قد توقع المؤرخ في الخطأ، والتي قد تدفعه إلى خداعكم. انتقدوا: وإلا أعطينا الحقيقة والكذب نفس السلطة.» ذلك هو موضع الخطر، فلقد عبروا عنه بكلمة كثيراً ما تتردد على الألسنة، بكلمة، كرهوها ولكنهم عجزوا عن استبعادها: فإلى الشك Pyrrhonis-me الذي أفزع باسكال، أضافوا كلمة «التاريخي».

في عام ١٧٠٢ كلف العلامة الشهير يعقوب بيريزونيوس أستاذ التاريخ اللاتيني واليوناني في جامعة ليدن، بتدريس تاريخ الأراضي الواطئة. فخطب خطبة افتتاحية كالعادة أمام حكام البلدة والطلبة وزملائه المدرسين، واختار موضوع خطبته «الشك التاريخي». فقال في كلمات لاتينية رائعة: إننا أصبحنا في زمن يغالي أهله في نقد كل شيء؛ وإن التاريخ في أزمة مستحكمة، إذ يصدق البعض بحماقة ما يفسده من قصص، بينما ينكر الآخرون كل ما فيه. وإن هذه الحالة الذهنية الأخيرة البراقة، الجابة، قد سرت وتوطدت، حتى أصبحت على جانب كبير من الخطورة. فلو أنها انتصرت لضاع كل شيء ولوقع الناس في ارتياب عالمي. لذلك أكد الخطيب احتمال وجود الوثوق التاريخي. واختتم خطبته بقوله: إلى الجحيم أيها الشك!

ولكن كان أمامه الكثير، فهناك ثلاث فرق على الأقل تهاجم التاريخ: الديكارتيون الذين يعتقدون مثل زعيمهم أنه لا على الرجل الفاضل إذا لم يعرف اليونانية واللاتينية أكثر مما يعرف السويسرية، ولا عليه إذا لم يعرف تاريخ الامبراطورية الجرمانية أو الرومانية أكثر مما يعرف تاريخ أية دولة صغيرة في أوربا.

وأتباع مالبرانش الذي قال إن المؤرخين لا يفكرون بل يسردون أفكار غيرهم، وإن آدم كان يملك ناصية العلم في الفردوس، فهل كان يعرف التاريخ؟ كلا بالطبع. إذن فالعلم الكامل ليس هو التاريخ. أما مالبرانش ذاته فكان يكتفي بمعرفة ماعرفه آدم ... بل يرى أن الحقيقة لا توجد إلا بالتفكير العميق؛ فالحقيقة ليست تاريخية بل ميتافيزيقية. - أما أتباع جانسينيوس [1]، الأخلاقيون المتزمتون، فلم يكونوا مرتاحين إلى هذا النوع من شهوة المعرفة الأبدية "L'éternelle libido sciendi". ولكن أعنف الخصوم كانوا المتحررين.

---

(١) - مذهب جانسينيوس أو Jansénisme.

كتب جانسنيوس، اللاهوتي الهولندي، عام ١٦٤٠ مؤلفًا ضخمًا بعنوان «أوجيتينوس» حيث شرح مذهبه عن النعمة الالهية والجبرية. وهذا المذهب يرمي إلى: ١) تحديد حرية الاختيار البشري: لا يستطيع الانسان شيئًا وحده، بل كتب نصيبه منذ الأبد، ٢) إنكار مفعولية النعمة الالهية، والاعتقاد بفساد الإنسان منذ سقوطه: فإن الإنسان بغلطة آدم فقد كل حق في النعمة، وينعم الله على من يشاء.

هذا المذهب دافع عنه لاهوتيو «بورت رويال» Port Royal بزعامة سير وارنو Arnauld، وأثار معركة كبيرة مع الجزويت، موضوعها المسألة الأخلاقية الإنسانية كلها: ١) إما أن الإنسان يفرق مختاراً بين الخير والشر، ولا يتدخل الله إلا للحكم، وإذن فلا وجود للجبرية وبالمثل للنعمة، ٢) وإما أن الله يعطيه كل شيء، الإرادة والعمل، ويحيط علمه تعالى منذ الأبد بنتيجة كفاح الإنسان. وقد أخذ باسكال جانب الدفاع عن أتباع جانسنيوس، وبوحي من علماء بورت رويال، كتب ضد الجزويت «رسائله القروية» Let-tres Provinciales التي تعد من الوجهة الأدبية المثال الفذ للنثر الحديث.

كان من الطبيعي أن تستفز مسألة «النعمة» هذه فليسوفًا كفولتير، الذي فندها في قاموسه الفلسفي بأسلوبه الرائع: لا شك في أن أول من تكلم عن النعمة هوميروس ... لكن بين الفلاسفة من لم يشارك هوميروس في رأيه هذا، زعموا أن العناية الالهية العمة لا تتدخل مباشرة في أمور الأفراد الخاصة؛ بل هي تحكم كل شيء بمقتضى قوانين شاملة. عند هؤلاء الفلاسفة أن العشب والبلوط، والسوس والفيل، والإنسان، والعناصر والكواكب تطيع كلها قوانين ثابتة لا تتغير، وضعها الله منذ الأزل ... يصعب على أولئك الفلاسفة أن يأخذوا جانب الزاعمين بأن السيد المطلق على الناس يهب مالا لعبد، ويمنع الغذاء عن الآخر ... يقولون إنه إذا وجد ذئب في طريقه عنزة صغيرة ليتعشى، وإذا كان ذئب آخر يموت جوعًا، فإن الله لم يعن قط بأن يمنح للذئب الأول نعمة خاصة ... (مقتطف من القاموس الفلسفي Dictionnaire Philoshique، باب الغفران، وبيان رقم ٢٠) وأنظر أيضًا «باسكال» بقلم Srephen valot الفصل ٢٩، وأفكار باسكال بقلم F. Strowski. (الترجمان).

ذلك لأن التاريخ كان يبدو لهم بمثابة عدو شخصي، فادعوا أنه موضع شك وبطلان، وأنه وضيع لأنه كله تملق لأصحاب السلطان، وأنهم ينسقونه كما لو كانوا ينسقون صحاف الطعام، فيضعون نفس الطعام، في عدد من الصحاف يعادل عدد البلاد الموجودة في الدنيا؛ فإذا تحتم علينا أن نقرأه، فليس لمعرفة الأحداث بل لكي نعرف كيف يفسرها كل رجل وكل حزب وكل شعب؛ والخلاصة أن التاريخ كله لم يكن إلا شكًا مستمراً.

وكان الفرنسيون يمتازون بحماسة هجومهم، ولكنهم لم يكونوا وحدهم؛ ففي ليبزج كان (منكن) J. B. Mencken يهاجم المؤرخين جاعلاً إياهم من طائفة الدجالين. دجالون، لأن بعضهم يحشون رواياتهم بخطب مملة طويلة- تقليداً للمؤرخ الروماني المجيد تيت ليف- وينسبون أرق الحكم والأمثال إلى أغلظ الناس؛ ولأن البعض الآخرين يملئون صحائفهم بزخرف قديم كأنما يخشون ألا يجدوا قراء ما لم يقدموا لهم مناظر مشوقة بديعة؛ ولأن غيرهم يخترعون سلاسل الأنساب ويزورون الوثائق، تملقًا للعظماء الذين يدفعون لهم الأجر. أما الفرنسي فاريلاس فدجال مع الدجالين؛ ولكن المؤرخين على العموم دجالون جميعًا، ما داموا يعدون في مقدماتهم بأنهم سيقدمون للجمهور حقيقة لا تظهر للناس أبداً...

ووافق الحكماء على ذلك قائلين: هذا صحيح بلا نكران. فبعد كل ما كتبه المؤرخون عن فرنسا لم نجد تاريخًا واحداً لفرنسا يستحق التقدير، ولا تاريخًا لانجلترا ولا أي تاريخ كان. فالناس فيما سبق كانوا يصدقون بغير تفكير، أما الآن فقد حلت ساعة الشك والارتياب. «ألا نكون على صواب إذا عددنا عصرنا هذا عصر الشك التاريخي؟ [1]»

ولكن الشك في التاريخ الروماني أيضًا، والظن في أن المؤرخين القدماء لم يكونوا أقل من الآخرين محاباة وتحيزاً، ولا أقل خفة وتطيراً، ولا أقل دجلا وتحايلاً- قد يكون أليمًا موجعًا.

---

(١) - بوليان Paulian: «نقد الرسائل الرعوية لجوربيه»، ١٦٨٩ ص٧٨.

كان كل الأدباء على معرفة وثيقة برومولوس ومن سبقه ولحقه من الأبطال. فلقد درسوا تاريخهم في المدارس وكتبوا بلغاتهم، وحفظوا رسائلهم وخطبهم. وكان ذلك التاريخ الموقر مرتبًا ترتيبًا يستحق الإعجاب، وكان مسرودًا في أسلوب فيه من النبل والتوكيد ما يجعله بريئًا من كل احتمال للكذب أو التدجيل. كان قصة بطولة واقعية: في ذات يوم- وعلى وجه التحقيق في عام ٢٨٢٤ أي أربعمائة سنة قبل إنشاء روما- حضر (إيني) إلى (اللاثيوم) مع الطرواديين الذين هربوا مذعورين من النار واللهيب التي حولت (إيليوم) إلى رماد، بعد أن ضل في البحار ثلاث سنوات. وكان لاتينوس يحكم هذه البلاد؛ وقد أشفق هذا الأمير الكريم على بؤس إيني فأكرم وفادته وأراد أن يستبقيه برابطة رقيقة قوية، فزوجه بابنته (لاتيني). وكان ثورنوس أميراً غيوراً يحارب اللاثيوم، فارتد وانهزم. وبوفاته أصبح اللاثيوم في سلام. ونال إيني صولجان الملك الذي تركه لاثينوس حين وفاته كميراث يؤول إلى زوج ابنته [1]. كل ذلك كان ينتظم كمسرحية جميلة؛ إن هؤلاء الرومان كانوا يبدون حقيقيين، بما يرتدون من خوذ ذات ريش وثياب قصيرة، - كأولئك الذين يشاهدهم الناس على المسرح.

لكن لا. فقد كان على الأدباء أن يصححوا، مع شديد الأسف، الصورة الكاذبة لهؤلاء الأصدقاء الأعزاء، وربما كان عليهم أن يقنعوا أنفسهم أنهم لم يكونوا غير أشباح؛ ولسوف ينبلج الصباح، وينصرفون مع الظلام. إن صوتًا أعلن أنهم غير حقيقيين، ولم يكن صوتًا باطلاً. بل لقد تجاسر فقال إن الناس هم الناس، فهم مشغوفون بالباطل، سريعو التصديق، شديدو الحساسية فيما يتعلق بالأصول

---

(١) - لورانس إيشارد: التاريخ الروماني ابتداء من تشييد مدينة روما، ١٦٨٤.

فيرتو: تاريخ الثورات التي حدثت في حكم الجمهورية الرومانية ١٧١٩.

D'aprés Laurrence Eachard, The Roman History From The building of the City... 1694. Vertot, dans son Histoire des Révolutions arrivées dans Le Gouvernement de la Répubigue tomaine)1791, s'il varie guelguefois sur les faits, ne parle pas autrement.

والأنساب: فالناس اليوم، كانوا من قبل، كل يطالب لشعبه بألقاب الأقدمية الزائفة. لقد اخترع الرومان خرافات خيالية ارتضيناها وأحببناها؛ يقول سانت افريموند:

«لم يكن ينقص الرومان هذا الزهور والخيلاء. إنهم لم يقنعوا بالقرابة مع فينوس عن طريق «إيني» قائد الطرواديين في أرض إيطاليا، بل وطدوا حلفهم مع الآلهة بفضل الولادة الروائية لرومولوس، الذي اعتقدوا أنه ابن الاله مارس، واتخذوا منه إلهاً بعد مماته. ولم يكن في خلفه «نوما» صفة تؤهله للألوهية، ولكنه حظى بفضل قداسة حياته بعلاقة مع الربة إيجريا... لم تكن للأقدار مهمة أخرى غير إنشاء روما إذا صدقنا أقوالهم... فإلى هذا الحد سهرت العناية الإلهية على التوفيق بين مختلف مواهب ملوكها ومختلف حاجات شعبها».

«لشد ما أبغض الاعجاب القائم على الأقاصيص أو على خطأ في التقدير! ففي تاريخ روما أحداث أخرى حقيقية تستحق الإعجاب، حتى إنه ليس من صالح الرومانيين أن يقوم تكريمنا لهم على الروايات والأساطير [١].

هذا الصوت الواضح، هذه الأفكار الجسور كانت تعكر صفو الإيمان الهادئ. كيف نستطيع أن نميز بين الأحداث الحقيقية، التي يريد منا سانت أفريموند أن نعجب بها، وغير الحقيقة؟ وعلى وجه التخصيص كيف نستبعد فكرة مجموعة كاملة التنسيق، ونستبدل بها فكرة التطور التي لا يكاد الناس يتصورونها إذ ذاك؟ كيف نرد الماضي ونطيح به إلى أغوار الزمان، بدعوى عجزنا عن تفهم حقيقته إلا هناك في طيات الظلام؟

في ليدن أنكر يعقوب جرنوفيوس وجود رومولوس. وفي أكسفورد أثار هنري دودويل حول وجوده الشكوك. منذ ألفين وخمسمائة عام والمؤرخون يروون أن الكاهنة سيلفيا أنجبت طفلين عقب حبها لمارس: رمولوس وريموس. وأن هذين

---

(١) - سانت افريموند: «تأملات في مختلف مميزات الشعب الروماني»...

Saint- Evremond, Réflexions sur les divers génies du peuple romain, dans les différents temps de la Républigue.

الطفلين وضعا في الكابيتول ورضعا من ذئبة: بيد أنها قصة سخيفة لا تستحق عناء التكذيب. من المؤكد أنه لا يوجد تاريخ غير التاريخ المقدس، لا يقوم في أصله على الأقاصيص والأساطير. إن تاريخ روما قبل رومولوس ليس أهلاً للتصديق، ولعل قصة رومولوس أيضًا من قبيل الاختلاق... ذلك ما بدأت تلوكه ألسن الناس. وسنرى فيما بعد، كيف يستبعد الارتياب المطلق، صحة القرون الأربعة الأولى لتاريخ روما.

أما التاريخ اليوناني فلا يستحق عناء الكلام: إنه يبدو أكثر خداعًا. هل تصدق أن الأثينيين، أعلم الناس طرًا، لم يكن لديهم تاريخ منظم إلا في زمن متأخر جدًا، بمعنى أنهم لم يعرفوا أصلهم ونشأتهم مطلقًا؟ لقد خلطوا كل شيء، خلطوا السنين ودورات السنين، ولم يعرفوا حتى تواريخ أعيادهم؛ فإن أريستوفان يظهر الآلهة على المسرح، شاكين من أن القمر لا يخبرهم في الوقت المناسب، بمواعيد الأعياد العامة، الأمر الذي يحرمهم من تلك المناسبات السعيدة، فيعودون إلى السماء ساغبين. فكيف نصدق بعد ذلك المؤرخين اليونانيين؟

لقد أخذ الناس يدركون أن الأمر لا يقتصر على أنهم لا يعرفون الحقيقة في التاريخ القديم فحسب، بل إن الوسائل اللازمة للوصول إليها تعوزهم. كيف كان القدماء يقيسون الوقت؟ كيف كانوا يعدون السنين؟ أظن أنه لابد من أن نعرف ذلك قبل أن نتكلم عن حقائق حياتهم: وإلا حكم علينا بأننا دائمًا نخالف الدقة والصواب، ولا نقول إلا هراء.

بدأت هذه المسائل الهامة تشغل أذهان المجامع العلمية، مثل الأكاديمية الملكية للتاريخ والآداب. وما من شك في أن أعضاء هذه المجالس لا تنقصهم المعرفة ولا قوة الإرادة، إلا أنهم يفتقدون المنهج الأكيد. إنهم يفحصون ويستريبون ويظهرون حب استطلاع لا يعرف القناعة، وأخيراً يكتسبون تلك الحكمة المؤسفة: معرفة المرء أنه لا يعرف شيئًا!

* * *

فليكن، لنترك ما هو غير ديني، ولا نثق إلا بالتاريخ الوحيد الموثوق به، التاريخ الذي أملاه الله. هنا يصبح كل شيء سهلاً يسيراً. لقد انقضى منذ بدء الخليقة حتى مجيء المسيح أربعة وأربعة آلاف عام، أو قل أربعة آلاف عام، تفادياً للمناقشة والانتقاد. وفي عام ١٢٩ أخذت الأرض تغص بالناس، وزاد الإجرام. في عام ١٦٥٦ حدث الطوفان. في عام ١٧٥٧ بدأ تشييد برج بابل. وفي عام ٢٠٨٣ بدأت دعوة ابراهيم. وأنزل القانون المكتوب على موسى بعد دعوة ابراهيم بثلاثين وأربعمائة عام، وبعد ٨٥٦ عاماً من الطوفان، وفي نفس السنة التي خرج فيها الشعب العبري من مصر. على ضوء هذه التواريخ الثابتة، يرى بوسويه، حينما يكتب مؤلفه النبيل «مقال عن التاريخ العالمي»، سلسلة من العصور تنتظم وتحدد نفسها بنفسها على مر الزمان، وهكذا يمتد- تحت أروقة هائلة منسجمة- طريق النصر الذي يوصلنا إلى المسيح. كم كان يلذ للناس أتباع ذلك الطريق، حتى إن بعض النفوس الغريرة الساذجة ملأت حياتها بتلك المطابقات التاريخية والذكريات، مشيدة بالسنة، بل بالشهر، بل باليوم الذي وقع فيه ذلك الحدث الشهير الذي يذكره التاريخ المقدس أو ذاك. فكان المؤمنون يفتحون كتب الصلوات: ١٨ فبراير عام ٢٣٠٤ قبل ولادة السيد المسيح، أطلق نوح يمامة خارج السفينة؛ في ١٠ مارس، ترامت إلى عيسى أخبار عن مرض «العازر»[١]؛ في ٢١ مارس لعن عيسى شجرة التين[٢]، في ٢٠ أغسطس عام ٩٣٠، مات آدم، أول رجل[٣]...

---

(١) - «وكان إنسان مريض وهو لعازر من بيت عينا من قرية مريم ومرثا أختها. . . . وأرسلت الأختان إليه قائلتين يا سيد هوذا الذي تحبه مريض» (العهد الجديد، يوحنا، الأصحاح الحادي عشر، ١). (المترجمان)

(٢) - «وفي الصبح إذ كان راجعًا إلى المدينة جاع. فنظر شجرة تين على الطريق وجاء إليها فلم يجد فيها شيئًا إلا ورقًا فقط. فقال لها لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد. فيبست التينة في الحال» العهد الجديد. متى ٢١، ١٨. (المترجمان)

(٣) - هانري بريموند Henre Brémond، «التاريخ الأدبي للشعور الديني في فرنسا» ١٩٣٠ جزء ١٠، الفصل السادس.

جاء علم التاريخ يناقض تلك المعتقدات البسيطة، ذلك الاطمئنان.

كان يبدو كنظام متواضع، مفيد للتلاميذ، لتعمير ذاكرتهم ولمنعهم من الوقوع في إبهام أحمق مرذول: ولكنه خشن جاف، جسم نحيل هزيل، لا ترى فيه إلا العظام والعروق. إلا أنه كلما ازداد إحساس الناس التهوش في جعبة الذكريات القديمة، كلما ازداد هذا العلم منزلة وأهمية؛ وأصبح فنًا ضروريًا بل علمًا. لقد سموه علم «الأزمان والتواريخ». «مثلما تهيء الملاحة للبحارة قواعد تقودهم في خضم البحر دون ضلال، في الأسفار النائية، فإن علم التاريخ يهيء لنا قواعد تضمن لنا سلامة الارتحال في غياهب الزمن القديم الواسعة المظلمة» حقًا ما أطولها رحلة، على مر القرون الغابرة والأجناس الفانية! وإذا كان هذا العلم لا يعي قوانينه بالضبط فإنه على الأقل يطبقها: فهو يقدر صحة النص أيًا كان، بالحساب والأرقام، لا بما يستند إليه نفوذ وسلطان، لا يهتم باللغة التي كتب بها النص، فرنسية كانت أو لاتينية، يونانية كانت أو عبرية؛ لا يبالي مصدر النص وصفته، بل ينتقل من اللاديني إلى المقدس بطبيعة كيانه التي إن هي إلا الحساب؛ فهو لا يعرف إلا شيئًا واحدًا، هو أنه ينبغي أن يحسب بالتحقيق والتدقيق. إن الاخصائيين، مفتشي ومحققي الحسابات التاريخية يعملون في داخل مكاتبهم، منكبين على كتبهم، يفصحون ويقارنون، عاكفين على أشغال مضنية «جاحدة» وإن كانت في المظاهر هادئة سالمة: فهم يجدون تسليتهم وهوايتهم في تسجيل التواريخ، وحساب السنين. وهم يتنازعون فيما بينهم؛ فإذا سمع الناس ضوضاءهم، ضحكوا قائلين: أدعياء يتسلون. وعندما ينتهي أولئك العلماء من عملهم، أو على الأصح عندما يصلون في بحثهم إلى شوط بعيد (لأنهم شرعوا فيه منذ زمن بعيد، منذ النهضة، ولن ينتهوا منه أبدًا) سوف يعكرون صفو الضمائر أكثر مما يعكره العصاة والكفار، إذ يؤمنون على أنه ليس في الماضي شيء أكيد. والحق أنهم ليسوا جميعًا غير مصدقين، فالبعض يعملون للدفاع عن التواريخ التقليدية ضد المؤرخين المحدثين، حتى إنه نشب بينهم جدال عنيف، طال سنين. سنرى ليبنتز ونيوتن يشتركان فيه.

ولقد كان الحساب الجاري يبدو سهلاً يسيراً. عاش آدم مائة وثلاثين سنة وولد له ولد على شبهه كصورته وسماه شيثا. وكانت أيام آدم بعد ما ولد له شيث ثمانمائة سنة؛ وولد له بنون وبنات. فكانت كل أيام آدم التي عاشها ثلاثين وتسعمائة سنة ثم مات. وعاش شيث خمساً ومائة سنة وولد له أنوش. وعاش شيث بعدما ولد أنوش سبعًا وثمانمائة سنة ... [1] ومجموع هذه الأنسال المتتابعة يقدر بأربعة آلاف عام، هي المدة التي انقضت بين خلق العالم وولادة المسيح. ولكن ربما فقدت من هذه السلسلة حلقات، ولعل ذلك التعداد لم يبلغ مرتبة الكمال؛ ومن المحتمل أنه كان للعبريين طريقة خاصة في الحساب، وإذا أراد علماء التاريخ، لكي يخرجوا من الارتياب، أن يستعملوا أصول القياس، ويبحثوا عند الشعوب المتاخمة لليهود عن تواريخ وأرقام، فيا للسماء! ما أوسع هوة الاختلاف! إن المشاكل تتكاثر وتتراكم ولا يصلون إلا إلى ظلام.

وإذا نفذنا مباشرة مباشرة إلى جوهر الموضوع نجد أمتين تنسفان حدود هذا التاريخ زاعمتين أن تاريخهما لا يقف عند أربعة آلاف عام، - فهي حقبة من التفاهة بمكان- بل يمتد بهما إلى عشرات بل مئات من الأعوام. إن المصريين الذين أوتوا رجاحة العقل وصحة التقدير، والذين كانوا دائماً محل تقدير وموضع إعجاب، يظهرون في مسألة التواريخ مبالغين إلى حد الجنون. ولما كانوا مصرين على قدمهم وعراقة أصلهم فقد اعتقدوا «أنه شيء جميل أن يتيهوا في هوة القرون اللانهائية التي تقربهم من الأزلية» إلا أن تكذيب أقوالهم كان مشكلة لأنهم بارعون في الحساب ولديهم تواريخ منظمة أتم نظام. ففي القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان مانيتون الشهير كاهن هليوبولس، قد كتب تاريخ مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس، حيث عدد مجموعة من الأسر الملكية يرجع أولها إلى ما قبل المدة المفروضة عادة للطوفان، وتمتد دو ن انقطاع حتى في خلال الطوفان. وهناك تاريخ أقدم كتب قبل حكم بطليموس يذكر وجود ملوك مصريين «على مدى ٣٦٥٢٥ عام إلى

(١) - نقلنا هذا الكلام حرفيًا من العهد القديم «تكوين، الأصحاح الخامس، ١-٥». (المترجمان).

ما كتانب الذي اغتصب منه العرش أوخوس ملك الفرس، قبل الاسكندر الأكبر بتسعة عشر علماً [1]».

وبالمثل ادعى الصينيون- الفلكيون العلماء أصحاب التواريخ الدقيقة والتقاويم- الوجود منذ أمد طويل، حتى إننا لو صدقنا أقوالهم لوجدنا هؤلاء السفهاء قد سبقوا الزمن الذي خلق الله فيه النور! كان آدم يبدو مثل قادم متأخر، بجانب أمراء الصين الأولين. «... يدعى يام- كوام- سيم أنه منذ بدء الخليقة حتى الامبراطور تينسكى الذي تولى الحكم عام ١٦٢٠، قد انقضى زمن لا يقل عن تسعة عشر مليوناً وثلاثمائة وتسعة وسبعين ألفاً وستة وتسعين عاماً [2]».

كانت مسألة خطيرة للضمائر، مسألة عويصة تدرسها كل دوائر العلم في كل أنحاء أوربا بغية إيجاد حل لها في عناء وأناة. وفي عام ١٦٧٢ ظن عالم انجليزي هو جون مارشام أنه قد وجد الحل: صحيح أنه كان للمصريين ثلاثون أسرة ملكية لو وضعناها على التوالي لزادت عن عمر الدنيا: غير أننا يجب ألا نضعها على التوالي لأنها ليست أسراً متتابعة تجمع بينها القرابة، تحكم في آن واحد في نواح مختلفة لدولة واحدة... وفي عام ١٦٨٧ عرض الأب بول بيزرون حلاً آخر: إنه يعترف بأن أربعة آلاف عام لا تفسح مجالاً كافياً لتاريخ قدماء المصريين. ولكن هذه المدة هي التي يحددها التفسير العبري للعهد القديم. فلنتبع التفسير اليوناني المعروف باسم (السبعين) [3]، فإنه يتيح لنا قرابة خمسمائة وخمسة آلاف عام وهذه الخمسة عشر قرناً الإضافية تهيء فسحة ويسراً للأسر والتواريخ. لقد انتصر الأب بيزرون، لكنه لم يتمتع طويلاً بنصره، فإن علماء التاريخ رأوا عدم كفاية هذه المدة الإضافية، ومن جهة أخرى وجد رجال الكنيسة أنه إجتراء أن نفاضل بين التفاسير المختلفة

---

(١) - الأب بول بيزرون Le P. paul pezron, L'antiguité des temps rétablie, 1687, chap.

(٢) - الأب جرسلون: «تاريخ الصين تحت حكم التتار» ١٦٧١ القسم الأول الفصل ١٩ ص٤٢. Le P. Greslon

(٣) - Septante تفسير يوناني للعهد القديم. أقدم وأشهر تفسير قام به ٧٢ يهودياً من مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس في ٢٨٢ ق.م. (المترجمان).

للكتاب المقدس لحساب المصريين والصينيين، وأفهموا الأب بيزرون أنه ينزلق من علم التاريخ إلى هوة الألحاد. وتبادل الطرفان البحوث والمناقشات في لسان ينبو عن الآداب. وأعلن الأب أستوريني في إيطاليا تخمينًا أيده فيه الأب ثورنمين عام ١٧٠٣ إذ قال: جرت العادة على أننا إذا ذكرنا تاريخًا، وليكن عام ١٦٠٠، وأردنا أن نذكر بعده تاريخًا آخر قريبًا، فإننا لا نذكر الرقم كله بل نقول: في عام ١٦٠٠ حدث كذا وفي عام ٦١٠ حدث كيت... ولعل الأمر قد جرى عند اليهود على ذلك المنوال، ولما كنا لا ندرك عادتهم، ولأننا نعتمد على حرفية عباراتهم، فقد اختصرنا هكذا من التاريخ بضعة آلاف من السنين... ولكن كيف نثبت أن هذه العادة «الإيطالية المصدر» في التعداد والحساب كانت مستعملة لدى العبريين؟ على كل حال هذا الحل لا يؤدي إلا إلى استبدال التباس بالتباس...

وقد تولد عن هذا الارتباك ارتباك آخر لا يقل عنه قسوة. فلنصغ إلى بوسويه: «لما خلص الله شعبه من ظلم المصريين وقاده إلى الأرض التي أرادهم ليعبدوه فيها، عرض عليهم قبل أن يثبت أقدامهم هناك، الشريعة التي ينبغي عليهم أن يتبعوها. فكتب بيده تعالى على لوحتين أعطاهما لموسى على قمة جبل سينا أساس هذه الشريعة، أعني الوصايا العشر التي تتضمن المبادئ الأولى للدين وللمجتمع الإنساني. وأملى على موسى قواعد أخرى...»

ولكن فكرة ساورت بعض الأذهان: فإذا كان المصريون يمثلون العراقة الأصلية والحكمة العميقة، وإذا كان العبريون قد عاشوا زمنًا طويلاً تحت حكم المصريين، فإنه من المنطق بل من الضرورة أن هناك مدنية مزدهرة كبيرة قد أثرت في مدنية بسيطة صغيرة، إذن فالمصريون قد أثروا في العبريين. تلك هي النظرية التي دافع عنها أولا جون مارشام، ثم جون سبنسر رئيس المجلس المسيحي بكامبريدج عام ١٦٨٥. وينسب كلاهما للمصريين الذين يعجب بهم تأثيراً قاطعًا على القانون والنظم والعادات الدينية: فالختان والعمادة والمعابد والرهبنة والقربان والمراسيم الدينية، كلها مأخوذة عن المصريين، وحينما صنع موسى، لإنقاذ شعبه من

الحيات، حية من نحاس [1] تشفي كل من نظر إليها، فما كان ذلك معجزة بل كان نقلاً عن سحر مصري قديم. إذن لقد ورث الشعب المختار معتقداته الأساسية من شعب وثني. إذن لم يمل الله وصايا على أحد على جبل سينا، إذن لم يفعل موسى إلا أن نقل عن أساتذته المصريين.

أراد الأب الطيب هويه أسقف أفرانش، ذلك المشغوف بالعلم، الذي يروي عنه أنه ملأ منزله بالكتب حتى انهدم على رأسه ذات يوم- أراد بين مطالعاته الطويلة أن يصل إلى قصد صالح: أن يرد لموسى مكانه الحق، مكان الصدارة. لقد أخذ على عاتقه تبيان أن ديانة الوثنيين تصدر عن أفعال موسى وعن كتب موسى؛ وأن آلهة الفينيقيين والفرس والمصريين، والجرمان والرومان والغال والبريتان، مصدرها كلها موسى، وأنها ليست غير تحويرات أخذت عن موسى. ذلك هو ما ذكره في كتابه Demonstratio Evangelica في عام ١٦٧٢ وفي كتابه Quaestiones alnet-anae de concordia rationis et fidei ... «مسائل تخص الاتصال بين العقل والدين» في عام ١٦٩٠: إلا أنه لم يدر بخلده أن الحجة يمكن أن تنقلب ضده من أيسر طريق: إذا كان هناك أوجه شبه بين العقيدتين الموسوية والوثنية، فهل موسى هو الذي أوحى بها إلى الشعوب الأخرى، أم أن الشعوب الأقدم قد أورثت موسى عاداتها؟ يا للأب هويه من مسكين! فها هو ذا يجره نجاح كتابه إلى زمرة الملحدين! يقول لويس راسين في رفق «لم يوافق أبي على ما كان يريده هذا العالم من استخدام علمه اللاديني الواسع في صالح الدين». أما أنطوان أرنو فيقول في قسوة «إنه لمن الصعوبة بمكان أن يؤلف الانسان كتاباً أحفل بالالحاد من ذلك الكتاب، كتاباً يستطيع أن يقنع شباب المتحررين بأنه لا غنى عن الدين وأن الأديان كلها صالحة وأنه حتى الوثنية يمكن أن تكون موضع مقارنة بالمسيحية».

---

(١) - فقال الرب لموسى اصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لدغ ونظر إليها يحيا. فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على راية فكان متى لدغت حية إنساناً ونظر إلى حية النحاس يحيا. (العهد القديم، عدد، أصحاح الحادي والعشرون، ٩). (المترجمان)

وبعد، فهذا ما آلت إليه خير النوايا البشرية، أخذ الناس ينتقلون من مشكلة ليقعوا في مشكلة، ومن ارتياب ليقعوا في ارتياب. وقد كان ذلك الوقت فصلا أليمًا من التنازع الذي وضع العلم في مواجهة الإيمان؛ تنازع امتد من جيل إلى جيل واتخذ في كل منها لونًا خاصًا. فلنصغ إلى الأب رينودو الذي ناقش عام ١٧٠٢ كتاب جون مارشام أمام مجمع التاريخ فهو يقدره تقديرًا لا يخلو من قلق: «إنه مؤلف كامل من حيث النظام والنهج والوضوح والإيجاز وسعة العلم. غير أنه يصعب أن نغتفر للمؤلف أنه، بدافع من ميله إلى المصريين أو لسبب آخر، قد أضعف كل ما من شأنه أن يعزز قدم الكتاب المقدس وجلاله، حتى إنه قد هيأ للعقول المتحررة من أسباب الارتياب أكثر مما هيأ كثيرون ممن هاجموا الدين هجومًا صريحًا».

وتبلبلت الأفكار. صحيح أن الناس كانوا يستطيعون أن يلوذوا بالحصن يدفعون أسباب علماء التاريخ، قائلين إن أولئك الكلدانيين والبابليين الذين يطالبون بعشرات الآلاف من السنين لإرضاء مطامعهم لم يكونوا إلا كاذبين. وقال القديس أوغسطين آخر كلمة في الموضوع: إذا ذكر المؤرخون اللادينيون ما يناقض التاريخ المسجل في العهد القديم، فلنعدهم مخطئين.

ولكن أولئك المجاهدين لا يكادون يعرضون أنفسهم خارج الحصن حتى يلاقوا في طريقهم أخطر المغامرات لعجز وسائل دفاعهم أمام أسلحة ماضية لم يكن الأبولوجيون [1] قد أثلموها بعد. إن أرقامًا تدير الرؤوس ما فتئت تحتل الأذهان: ثلاثة وعشرون ألف، أربعون ألف، مائة ألف، سبعون ومائة ألف عام! أكان ينبغي أن يحذوا حذو الأب أنطونيو فورستي الذي اختار تواريخ بذاتها لا لأنها حقيقية بل لأن فيها راحة ويسرًا؟ لقد وجد نظريتين متطرفتين تزعم إحداهما أن الخليقة بدأت منذ ٦٩٨٤ عامًا وتزعم الأخرى أنها بدأت منذ ٣٧٤٠ عامًا وعدد بينهما سبعين

(١) Aplogétique : علم الدفاع عن صحة الدين المسيحي. (المترجمان)

رأيًا: وهو لا يستطيع أن يقبلها كلها، وهو لا يستطيع أن يمحصها بأجمعها: لكن ينبغي أن يتخذ قراره من أجل أسباب عملية لا صلة لها بالعلم... ولأجل هذه الأسباب بعينها فاضل فورستى بين المؤلفين: ولكن المؤلفين جميعهم متناقضون، ترى أيهم المخطئ وأيهم المصيب؟ لا يمكن تفضيل واحد دون استبعاد الآخرين ومع ذلك فلا مندوحة عن البت في الأمر.

وإذا نحن لم نحذ حذو فورستي فليس أمامنا إلا أن نتبع حكمة بريزيونس الذي كان قد خطب في ليدن أمام الطلبة يدفع الارتياب المغير. وبعد مر تسعة أعوام من خطبته الافتتاحية قال كلمته في معركة علم التاريخ وبحكمته التي أضاف إليها شيئًا من الاستدراك. قال: إن هدم البراهين السالفة شيء سهل يسير، أما البناء من جديد فذلك هو الصعب العسير، فنحن لا نستطيع استخلاص شيء أكيد حتى لدى المصريين: فأقصى ما نستطيع عمله هو التوفيق بين أحداث الشعوب القديمة المختلفة حتى تتجانس. هكذا كان بريزيونس يجتهد لينقذ ما يمكن إنقاذه من حطام كبير.

ما مصير حقائق الماضي إذًا؟ تلك النظريات البسيطة العظيمة؟ تلك التوكيدات الهادئة؟ ذلك الاعتقاد بالتواريخ الثابتة التي لاتتزعزع؟ كيف يستطيع المرء أن يتعرف إرادة المشيئة الالهية فيما لا يبدو إلا مبهمًا مهوشًا؟ وكيف نعترف بقيمة الوقائع في ميدان المعرفة بينما الوقائع تبدو كأنما تفلت من قبضتنا؟ كان المحدثون يبطلون دفعة واحدة التاريخ والعناية الالهية والمراجع.

لقد أصبح الموضوع شديد الإقلاق. ماذا؟ أكلما ازداد البحث كلما قل التحصيل؟ كان الزمن غارقًا في ضباب ولم تكن الجهود التي تبذل ابتغاء انقشاعه تزيده إلا كثافة. يقول بول بيزرون [1] «إن الزمن الذي يتلف كل شيء، ويبدو كأنه يروم تغليف كل شيء بالنسيان الأبدي، قد حرم الإنسان أو كاد، من معرفة تاريخه وقدمه. ذلك صحيح، حتى إنه بعد كل ما بذل من عناية لمعرفة مداه وكم

---

(١) في كتابه L'antiquité des temps rétablie، ١٦٨٧، ص٨.

قرنًا مضى منذ بدء الخليفة حتى مجيء المسيح لم نصل إلى الحقيقة أبداً، بل بعدنا عنها كثيراً ... »

إلا أنه بالرغم من ذلك كانت هناك طريقة أخرى للتأريخ: العلم الواسع الغزير. كان جمهرة من العلماء يشتغلون، جادين في عمل مضن غير مثمر، في نشر النصوص وكشف الوثائق وحل رموز الحجارة «وحك» المسكوكات. جمهرة صغيرة تعمل في غيرة وإقدام. قرية من النمل لها عمالها ومحاربوها. عمال مجيدون يعشقون العمل المضنى، ويبحثون عن الحقائق الأكيدة كبيرة كانت أو صغيرة. وينقبون عن مواد قوية تبقى إلى الأبد، بغير تفسير سطحي سريع، ولا حكم باطل مبتسر، ولا افتتان أو تحوير.

أولئك كانوا: فرانشيسكو بيانكينى الذي بحث في الآثار القديمة عن معارف وثيقة لم يجدها في النصوص، وريتشارد بنتلى أستاذ جامعة ترينتي وأمين المكتبة الملكية وأستاذ العلوم الكلاسيكية والذي وهب ذهنًا قويًا ليس له نظير، وبوفندورف الذي كان يعرف تمام المعرفة قيمة جعبة الأوراق القديمة، وليبنتز.

وكان ليبنتز ينعزل في المكاتب، حيث يبحث عن مخطوطات قديمة ينقلها بخط يده، وعن أوامر ملكية وتقارير دبلوماسية. وكان يرى أن قانون العلاقات الدولية يجب أن يستند على العقود الرسمية وإعلانات الحرب، وعقود الصلح وغير ذلك من الوثائق، لا على الكلمات فحسب. وعندما كان أمينًا لمكتبة الدوق دى برانسويك، شرع في تأليف تاريخ الأسرة الملكية الحاكمة، وبعد مدة طويلة نشر كتابًا ضخمًا، أتبعه بكتب أخرى، وقد حشدها بالمستندات الصحيحة المصادر، وإن لم تعجب ذوق الناس في ذلك الحين. ولم يخف على الذين لعمله هذا، أنه عمل عملاً أفيد بكثير من البيانات الطويلة البليغة. وقد أضاء بنور جديد، قرونًا كان يكتنفها ظلام مخيف. وأزال عديداً من الشكوك وأصلح كثيراً من الأخطاء.

أنظر كيف يعملون في كل البلاد! ها هو ذا هنري ميبوم يعني بإلقاء النور على الآثار الجرمانية القديمة. وتوماس جيل وتوماس ريمر يهتمان بالوثائق الانجليزية.

ونيكولا أنطونيو يعني بمصادر التاريخ الأدنى الاسباني. أنظر كيف يعملون في المعامل العلمية الواسعة التي أنشأها اليسوعيون! وكيف يعمل البندكتيون [1] الرهبان الذين يشتهرون بالصبر والدأب المتواصل حتى عاب عليهم رانسيه أنهم يخصصون للعلوم وقتًا ومحبة كان ينبغي أن يخصصوهما لله! فرد مابيلون على هذا التحرش وبذا نشب نزاع طويل ونبيل، كان محوره الخير الأسمى.

ومن جهة أخرى يعمل بعض «البندكتيين» المدنيين، منهم إيتان بالوز وشارل دى كانج- الذين ظفر العلم بفضلهم بجانب من أروع انتصاراته. فلنذكر أنه في عام ١٦٧٨ نشر دى كانج قاموسه اللاتيني Glossarium mediae et infimae latinitatis، وفي عام ١٦٨١ نشر (مابيلون) Mabillon كتابه عن السياسة De re diplomatica libri V، وفي عام ١٧٠٨ نشر (مونفو كون) كتابه Paleographica graeca. ولكن إذا كان علينا أن نذكر مثالاً فريداً لهؤلاء العلماء فلعلنا نختار (أنطونيو موراتوري) Antonio Muratori الذي كرس حياته لانقاذ وثائق الإنسانية من النسيان. كان يقبر نفسه طوال النهار بمكتبته التي لا يغادرها أبداً إلا للقيام ببحث علمي في السجلات الإيطالية؛ وكتب مجلدات ضخمة جعل منها أكداساً مكدسة خلال ما ينيف على نصف قرن.

إن مؤلفاته الأدبية والفلسفية والجدلية التي تكفي لتمجيد أي مؤلف آخر، لم تكن إلا ما كتب في أوقات فراغه، فبوساطتها كان يرتاح من عمل مضن قام به في عناد: جمع كل ما يمكن من وثائق عن إيطاليا وعلى الأخص عن القرون الوسطى التي يجهل الناس كل شيء عنها، ثم ابتعاث عشرة قرون.

لعل انجلترا كانت تؤثر الاهتمام بدراسة العلوم اليونانية، أما هولاندا فتعني بالعلوم اللاتينية، بينما تفضل فرنسا تاريخ الكنيسة والعلوم الدينية، وتهتم إيطاليا

---

(١) Bénédictins: شيعة القديس بنوادي نورسى (٥٢٩). رهبان يمتازون بالعلم والاجتهاد والتواضع، وقد قاموا بخدمات كبيرة للعلم والأدب وعلى الأخص في القرون الوسطى. وهم الذين نقلوا روائع الأدب اليوناني والروماني فكانت الإنسانية مدينة لهم بهذا الفضل وصار اسم بنديكتان علماً على سعة العلم والاجتهاد. (المترجمان)

بتاريخها وماضيها. ولم يكن يفصل الجميع حاجز أو جدار بل كانوا يشتغلون في كل البلاد. وحينما تتكون آخر الأمر ثروة علمية وافرة، ويمتد البحث عن آثار المدنيات الزائلة حتى أعماق الأرض، بفضل علوم جديدة كعلم المسكوكات القديمة، ويصلح العقول درس الصبر والتواضع، وليد هذه الجهود؛ حينئذ سيهزم الشك التاريخي ويهدم.

ولكن متى ينجز هذا العمل؟ ترى كم من سنين بل كم من قرون لا زالت تلزم لكي يعرف الإنسان بغير تخمين، ولكي يؤكد بدون كذب أو تزييف؟ إنه لمجلبة لليأس والقنوط ألا يجد المرء بضعة أحجار من هذه الفسيفساء الهائلة، والتي لا يكاد الباحثون يبدأون في جمعها حتى ينتقلوا إلى عالم الأموات؛ إذ يقهرهم ماض لا يغلب، ويدفنهم بدورهم. ولو افترضنا أنهم أفلحوا في هذا البعث الاعجازي، فإن الناس لا يتقبلون ما يبعثه لهم الباحثون من عناصر الحياة التي ينبغي عليهم أن يستعملوها ليردوا للأشياء الزائلة أشكالها وألوانها. ومرد ذلك في الواقع إلى أن العلماء والمؤرخين في ذاك الوقت كانوا يعملون جنبًا إلى جنب دون أن يعرف بعضهم بعضًا وكانت مناهجهم تختلف اختلافًا بينًا؛ ولقد ظهر جيل جديد يصبو إلى الراحة ويميل إلى التطير وإلى عدم التعمق، ولا يحب إلا السهل اليسير، فمن جهة نجد «عمالاً» لا يهتمون بالأسلوب، يملئون هوامش مؤلفاتهم بالبيانات والأسانيد، ويثقلون ويطيلون في غير وضوح، مسلمين أنفسهم باختيارهم إلى أعمال مضنية لا ثمرة فيها ولا طائل وراءها. ومن جهة أخرى نجد المؤرخين، العباقرة العظماء يأنفون النزول من عليائهم إلى تلك التوافه البسيطة. ويتركون الأبحاث التفصيلية للعقول المتوسطة، متجنبين المناقشات التي قد تخمد الشعلة التي تذكي عقولهم: فكأن العبيد يجمعون المواد التي يحتقرها نبلاء الأدب العظام.

وبعد، فما هو التاريخ؟ هو أولاً مجموعة من القصص حين تسرد أصول الشعوب، وهو ثانيًا كتلة من الأخطاء. وإنك لتلاحظ لدى فونتنل Fontenelle الذي يعد مثال الارتياب، شيئًا من الحزن وبعضًا من اليأس إذ يقول:

«ما أبطأ وصول الناس إلى شيء معقول، مهما كان بسيطًا! إن الاحتفاظ بذكرى الوقائع كما كانت في الأصل ليس آية من الآيات؛ وبالرغم من ذلك فسوف تمر قرون عديدة قبل أن نكون أهلاً لذلك، وحتى هذا الحين، فلن تكون الوقائع التي نتذكرها إلا أوهامًا وخرافات.»

«لقد عودونا في طفولتنا على الأساطير اليونانية، حتى إذا وصلنا إلى سن العقل والتفكير لا نجدها من الغرابة كما هي في الواقع. ولكن إذا نظرنا بعين غير عين العادة، فلن يسعنا إلا أن ندهش لرؤية كل هذا التاريخ اليوناني القديم، الذي لا يعدو أن يكون كتلة من خيال وأحلام وخرافات. كيف كان ممكنًا أن يقدموا لنا كل ذلك كشيء حقيقي؟ وترى لأي قصد كانوا يخدعوننا؟ وفيم كان حب الناس لأشياء ظاهرة البهتان، واضحة الخرافة والبطلان؟ ولماذا لا تستطيع البقاء والاستمرار؟»

وقد تلا هذا المنهج في كتابه التاريخ، منهج آخر، هو الذي ساد في الشعوب المتمدنة المهذبة: البحث في علل الأفعال وفي الأخلاق: ولا يقل هذا المنهج خطأ عن الأول. لأنه، لا ريب في أن الإنسان غيور مندفع، سريع التصديق، ناقص المعرفة أو عديم الاكتراث؛ «يجب أن نجد رجلاً قد شاهد كل شيء خاليًا من كل غرض، متوفرًا على البحث». وهذا محال. فالغالب أن يرتب المؤرخ نظرية وضع أسسها ومبادئها من قبل، تتكون من وحدة محكمة الاتصال، كما يفعل الميتافيزيقيون؛ فلديه بعض الوقائع التي يتخيل أسبابها؛ فعمله غير مؤكد، لا يقين فيه، ولا يقدم ضمانًا أكثر مما تقدمه أي نظرية فلسفية. إذًا فقد يكون التاريخ الوحيد المفيد حسبان الأخطاء وتعديد أهواء الانسانية:

«إننا مجانين ولو أننا لا نشبه تمامًا نزلاء المستشفيات العقلية. فإن أحدًا منهم لا يهتم بمعرفة جنون جاره، ولا يعنيه من سكن غرفته من قبل، ولكن يهمنا نحن جدًا أن نعرف ذلك. لأن عقل الإنسان يقل احتمال وقوعه في الخطأ متى عرف

حدود خطئه وبكم طريقة يمكنه أن يخطىء، ولن يستطيع أبداً أن يدرس تاريخ أخطاء الانسان دراسة كافية».

ذلك كل مـايستطيع التـاريخ أن يؤدى إليـه، على حـسب قـول هذا الرجل الحديث، بطل المحدثين في «المعركة الكبرى»[1]. فليهتم الحاضر بالحاضر! إننا نقضي سنين عديدة في المدارس لنلقن شبابنا ما يقوله مؤرخو روما: كم كان أفضل أن يدرسوا الوقت الذي سيعيشون فيه! فنحن لسنا ندرك آخر الأمر أي ضوء يمكن أن نكتسبه من مؤلفات كورنيليوس نيبوس C.Nepos أو كنت كـورس Quinte-Curce أوتيت- ليف Tite-Live، لنستنير به في الوقت الحاضر؛ حتى لو فرضنا جدلاً أن نحفظ عن ظهر قلب كل ما تتضمنه تلك الكتب، حتى لو قمنا بعمل جدول دقيق لكل ما فيها من تعابير وأحكام وأمثال. لاجدوى من أن نعرف بالضبط عدد البقر والأغنام التي نقلها الرومان معهم عندما انتصروا على الأكيكولنس Equiculans والهرنيسان Herniciens والفولك Volsques [2]. إنه الحاضر، إنها الحياة، إنه المستقبل ينادي ويستهوى ويسحر Ratis vicit, Vetustas cessit.

---

(١) - المعركة بين القدماء والمحدثين: خلاف مشهور وقع بين أدباء القرن السابع عشر، موضوعه تفوق الأدباء المحدثين على القدماء، في الأنواع الأدبية الكبيرة، اشترك فيه جوالون وراسين ولابروبير في جانب القدماء بينما كان شارل بيرو وفونتنل يدافعان عن المحدثين. [المترجمان]

(٢) - S.Von Pufendorf, Einleitungzu der Historie der vornehmsten Reiche und Staaten... an Europa,I682. Preface نبذة تاريخية عن نظام الحكم في الرايخ وأنظمة الحكم الأخرى في الدول الأوروبية.

أنظر أيضاً مالبرانش، «البحث عن الحقيقة»، ١٦٧٤ Malebranche, de la Recherche de la verite, I672 الكتاب الثاني، الفصل الرابع والخامس والسادس.

الفصل الثالث

من الجنوب إلى الشمال

كانت أوربا تبدو كأنها قد اكتملت: فلكل شعب من شعوبها صفات معروفة، معينة، فلايكاد المرء يلفظ اسم شعب، حتى تنبثق مجموعة من الأوصاف تخصه وحده، كقولنا إن الثلج أبيض وإن الشمس محرقة. السويسريون؟- إنهم مخلصون عقلاء أمناء، بسطاء الأخلاق أصفياء القلوب، وهم شجعان ذوو عزم وإرادة، لايكاد العدو يهاجمهم حتى يبادروا إلى رد هجومه، يتميزون بالثبات والبسالة والصدق وروعة القوام، يصلحون للجندية حتى إن عدداً كبيراً منهم يخدم في أرض فرنسا، ولكنهم يتطلبون جزالة الأجور: فلا جنود إذا غابت النقود. - الألمان؟ إنهم مولعون بالحرب، وهم جنود أفذاذ متى عرفوا النظام، يميلون إلى التجارة ويجيدون كل أنواع الصناعة. لايستهويهم العصيان بل يتمسكون بنوع الحكم الذي اعتادوه. إنهم يكونون كتلة ضخمة، ولكن للأسف تشغلهم انقسامات عديدة، دينية وسياسية ... وقد قال نيكولا دي فير مدرس الجغرافيا لولي العهد في عام ١٧٠٨ : -إن البولانديين بواسل، يحبون الآداب والفنون، ويميلون بعض الميل إلى الفسق والفجور، وكلهم كاثوليك!- والمجريون يتميزون بقوام ممشوق، يحبون الحرب والخيل؛ في خلقهم جرأة وشراسة، ويفرطون في الشراب. خاصتهم رائعون، ونساؤهم جميلات فاضلات- والسويديون قوم شرفاء شجعان، مشغوفون بالعلوم والفنون. والجو هناك بارد صحي صاف. والغابات مليئة بالحيوانات المفترسة. - والدنمركيون لاتختلف أخلاقهم كثيراً عن السويديين- أما النرويجيون فيبدون أكثر بساطة، وأوفر صراحة».

عندما كان الأدباء يبحثون عن شخصية مجهزة، كانت تلك الجنسيات المفسرة تقدم لهم قائمة ميسرة. فمن كان يبتغي تأليف مسرحية راقصة (باليه)، أو مسلاة لرجال البلاط، كان يقدم دون أن يرهق فكره، دوراً للأجانب مثل النابوليتان أو الاسكلافون. في عام ١٦٩٧ ألف (هودار دي لاموت) Houdar de la Motte مسرحية راقصة مثلت في مجمع الموسيقا الملكي اسمها «أوربا الأنيقة» L,Europe Calante: «لقد اخترنا من بين شعوب أوربا أشدها تبايناً في الخلق، الأمر الذي يدخل على التمثيل ظرفًا وتشويقًا: فرنسا، إسبانيا، إيطاليا، وتركيا. ولقد تبعنا الأفكار العامة فيما يخص الصفات المميزة لتلك الشعوب. فالفرنسى طائش، متظرف، عربيد. والاسباني صادق، مندفع، خيالي. والايطالي غيور، حاد المزاج. وأخيراً فقد مثلنا بقدر ما يسمح المسرح عظمة السلاطين، وانفعال السلطانات».

فلنتناول هذه الصور ولنبرز معالمها، وسنرى هذه الصفات الباهتة تستحيل إلى شتائم، دون تغيير يعترى الأصول. في عام ١٧٠٠ كتب دانيل دي فو Daniel de foe[1] نبذة سياسية كان لها ضجيج، ووجدت فيها كل دولة إطراء: The true-born Englishman قال فيها:

Prid,the first Peer, and President of Hell,

To his Share spain, the largest province fell...

Lust chose the torrid zone of Italy,

Where Blood ferments in Rapes and Sodomy...

Drunkness, the darling favourite of Hell,

Chose Germany to rule...

Ungouver'nd passion settled first in france,

(١) - مؤلف روبنسون كروزو. [المترجمان].

Where mankind lives in haste, and thrives by chance.

Adancing nation, fickle and untrue...[1]

ولطالما تقابل كل أولئك الاخوان الألداء، ولكم تصادموا، ولكم تصالحوا وتحالفوا وتعانقوا، وعاشوا جنبًا لجنب أمدًا طويلاً في البؤس والآلام، حتى ظنوا أن تعارفهم أصبح وطيد الأركان، وأن الفكرة التي كونها كل منهم عن الاخر لن يعتريها تغيير - يا له من خطأ! ففي سماء الغرب تخبو نجوم وتنطفئ وتظهر نجوم وتأتلق. لم يعد النور يشع من مركز واحد. ولم يعد التغيير يقتصر على الحدود التي تتحرك إثر الحروب المستمرة فحسب، بل تناول القوى الفكرية التي تتكون منها أوربا، وإدارة روحها الجماعية: ولم يتم ذلك دون كفاح، ودون آلام، ودون ثورة جديدة.

* * *

كانت السيادة الفكرية تبدو دائمًا كميراث موقوف على اللاتين. فقد حملت لواءها إيطاليا في عصر النهضة؛ ثم رأت اسبانيا عصرها الذهبي؛ وأخيراً أقبلت فرنسا تتلقى الميراث. وربما كان التفكير في أن برابرة الشمال يستطيعون منافسة هاته الملكات يبدو تفكيراً وقحًا مضحكًا؛ فماذا كان في وسعهم أن يقدموا؟ شكسبير فلتة الطبيعة؟ أم شعراء ألمانيا القوط الغلاظ؟ أولئك الناس ما كان يحسب لهم حساب.

---

(١) - الكبر كبير الشيوخ، زعيم الجحيم،
وقعت في نصيبه أكبر ولاية، بلاد الاسبان...
والشهوة اختارت ايطاليا أرض الدفئ والحنان،
حيث يهتاج الدم بين الاغتصاب والفساد...
والسكر العزيز الأثير لدى الجحيم،
أختار أن يحكم بلاد الألمان...
واستقرت في فرنسا الشهوات طليقة العنان،
حيث يعيش الانسان في عجلة ويتقدم بالمصادفة.
شعب راقص هوائي حياته خداع وبهتان...

وكانت إيطاليا وإسبانيا وفرنسا في نزاع، متصل الحلقات، تدعى كل منها الحق المطلق في تراث الرومان.

إلا أن اسبانيا انطفأ بريقها. ومع أنها ما فتئت تضيء أوربا ببعض أشعتها الأزلية، فإنها مهمة شاقة على أي شعب أن يحتفظ بمكانه في الصدارة؛ إذ ينبغي ألا يعتريه ضعف أو كلال، وينبغي أن يجدد مجده وأن يشعر به الخارج. والحق أن أسبانيا لم تعد بعد تعيش في الحاضر؛ فالسنوات الثلاثون الأخيرة من القرن السابع عشر وبالمثل السنوات الثلاثون الأولى من القرن الثامن عشر تكاد تكون فارغة؛ وكما يقول (أورتيجا. ى. جاسيه) Ortega y Gasset «لم يخفق قلبها طوال تاريخها الفكري بمثل ذلك البطء الذي كان يخفق به حينذاك». كانت تنطوي على نفسها وتستلقي فاقدة الشعور. في زهو وجلال. وما فتئ يزورها الرواد ولكنهم لم يكونوا يخفون أمارات الاستخفاف؛ منتقدين عيوب شعب يؤمن بالخرافات، ومثالب بلاط جاهل، ومتحدثين عما تلاقى تجارتها من كساد، وساخرين من كسل السكان وما هم عليه من خيلاء؛ وفيما يتعلق بآدابها، كانت مضرب المثل بأسلوب كله تعاظم واصطناع، ومسرحيات تخالف القواعد، مسرحيات كانت فضيحة في نظر الخبراء. وبدأ الناس يقولون إن إسبانيا لم تفقد قوتها ونفوذها فحسب، بل إنها كانت غير أمينة على عبقريتها: روحها الخيالي وعظمتها وشرفها وحبها للعدل وتجردها عن الأغراض، كل هذه المزايا التي اختصت بها. ولقد سخر منها سرفانتس Cervantes في رواية دون كيشوت Don Quichotte؛ وبما أن الاسبان قد أيدوا سرفانتس بالتصفيق والتهليل، فإنهم فضحوا عيوبهم. ولعل هذه فكرة سخيفة، ولكنها تكفي لكي تكون الشعوب المنافسة حكمًا قاطعًا عن جارها الضعيف.

وكانت إيطاليا لاتزال تختلج فيها علائم الحياة، وتمتاز أيضًا بالمرونة، أي القدرة على تغيير لون إنتاجها، فتبحث عن ميادين أخرى، في العلم، عن شهرة لم

تعـد تجدها بعد في الأدب. وكـانت قـد أثرت في الخارج عن طريق ذكرى رومـا: وهي لم تكف يوماً طوال حياتها عن التذرع بهذه الذكرى التي وضعت فيهـا كل آمالها. كانت تؤثر بلسانها الرقيق الرنان، لسان الموسيقا ولغة الغرام. كانت تؤثر عن طريق أبنائها الذين برعوا في الرقص والموسيقا والغناء: فقد كانت أوبراتها تفتن العالم المتمدن وتسلب الألباب؛ كانت تؤثر في الشرق أكثر مما تؤثر في الغرب، على شواطئ دلماشيا، في النمسا وفي بولاندا. ولم تكن هذه مميزات قليلة. ولكن أتى زمن يريد فيه الناس التفكير: وهو ما عجزت ايطاليا عن المشاركة فيه. إنها كانت تنحدر إلى الزوال. وما أكثر السياح الذين ما برحوا يزورونها! لنقتصر على ذكر المشهورين: جلبرت بيرنت Gillbert Burnet، ميسون Missonاللاجئ الهوجونوتي الذي صحب أحد النبلاء في دورته الكبرى، وليام بروملي Willam Bromley، مونفوكون Montfaucon، وزميله دون بريوا Dom Briois، وأديسون Addison. نحن لانستخلص من مذكراتهم ورواياتهم ورسائلهم إلا إعجاباً مستمراً بكل ما هو قديم، واستخفافاً بكل ما هو قديم، واستخفافاً بكل ما هو حي حديث، وسقوطاً سياسياً وانهياراً خلقياً وفكرياً في ايطاليا التي أضحت في نظرهم أرض البرتقال والأطلال، أرض الأموات.

وهنا أتى دور فرنسا. إنها تدير السياسة الأوربية خلال مدة لاتقل عن أربعين عاماً؛ والأصدقاء والأعداء يذكرون- كما قال هوارس والبول Horace Walpole- «التقدم العجيب الذي حققه نفوذها منذ معاهدة مونستر في عام ١٦٤٨ حتى الثورة الانجليزية وبداية «الحلف الكبير» في عام ١٦٨٩»؛ إن هذا الصعود وهذه العظمة، وهذا المجد، لدليل على حيوية دافقة. إن فرنسا شخصية معنوية؛ فرغبتها في الوحدة ورغبتها في التوسع تتتابعان بفضل منطق يزداد اتضاحاً على مر الأيام. وعندما توحدت، لم ينطفئ نشاطها بل انتظم، وصارت على استعداد لأن تستعمل في الخارج قوة تستقيم مدة طويلة. وإن ملك فرنسا لشديد الميل إلى الحركة وإلى

الاشعاع؛ وسيكون الضوء، بل الشمس؛ فقد كون مجموعة شمسية مركزها فرساي، ويريد أن تكون شعوب أوربا كواكب لها: «إنه يمثل مجهوداً مرتباً منسقاً، لخلق جمال نظام فكري للعالم [1]».

وفرنسا وفيرة السكان، غزيرة المدن والقرى، محاربة، فيها طبقة نبيلة على استعداد دائم لحمل السلاح؛ في سكانها مرح ورشاقة وظرف، يمتازون بحذق ونشاط، يستطيعون النهوض بكل مشروع، ولاسيما ما يتطلب الذكاء أكثر من التوفر والاعتناء؛ ومع ذلك ففيهم الخفة وعدم الثبات والافتخار بالفسق والفجور: حتى إنك لتجد بينهم من يفخر بذلك، رغم براءته منه ... تلك هي الصورة التي لاتخلو من بعض الحقائق التي لم يفلح في تغييرها الزمان. ولكن نجاحاً فذاً يضاف إلي هذه الصفات فيخلع عليها نضرة جديدة. ففي فرنسا يسود التأدب والتهذيب، والثقافة ورفاهة الحياة. فكانت قبلة كبار الأجانب، يقصدونها من كل أنحاء أوربا للدراسة في المجامع أو للتربية في البلاط؛ إذ تستهويهم الأساليب الفرنسية، فيتلقون فيها دروس الرقة والتهذيب. وبذا تأخذ باريس مكان الصدارة بين كل المدن. وسحرها في الحرية ويسر التقاليد؛ فلن تجد فيها من يسألك عما تفعل: إذا أردت أن تغير معيشتك فما عليك إلاّ أن تبدل الحي.

وإذا أردت أن تظهر فيها اليوم بثياب من ذهب، والغد بثياب من الصوف الثقيل، فمن سيسأل عنك؟ وإنك لواجد فيها كل ما تريد، وحالما تريد. ولايبتكر العالم شيئاً لكي يتذوق به المرء متعة الحياة إلا ويستعملونه على الفور في باريس. كانت روما تعلو سابقاً فوق كل مدن الدنيا: أما الآن فإنها باريس.

وبينما المتنافسون القدماء يبدون ضعفاء، تقدم فرنسا فيضاً من الروائع الأدبية؛ وهي ليست مما تعدها دولة رائعة لكي تتعزى بها، بل روائع شهد العالم كله بكمالها. فبعد ديكارت وكورنيل Corneille يظهر موليير Molière وراسين Ra-

---

(١) – سلفادور دي مادارياجا: الأنجليز، الفرنسيون، الأسبان، لندن ١٩٢٨. الترجمة الفرنسية ١٩٣١، Salvador de Madariaga, Englishmen, Frenchmen, Spaniards, London,1928

cine ولافونتين La Fontaine وبوسويه Bossuet ؛ ولايكاد هذا الجيل ينقضي حتى يدعمه ماسييون Massillon ورينيارد Regnard ولي ساج Lesage. إن هذا الفيض الأدبي يستمر ثلاثة أرباع قرن. وفي الوقت الذي ينشرون فيه «التراجيديات» و«الكوميديات»، والقصص والمراثي، لمؤلفين سرعان ما أصبحوا كلاسيكيين، تجدهم ينشرون كتباً أخرى تضاف إلى هذه الكتلة لاستزادة قوتها وإسراع حركتها: فكيف يتأتى أن إنتاجاً ضخماً كهذا لايعم أوربا؟ وهكذا بدأ حديث التفوق والعظمة يمتد ويتحقق من يوم إلى يوم. خمن قوة انتشار مؤلفات أولئك الأعلام، وأضف إليها كتلة الذين يتبعون هؤلاء العظام، وأضف أيضاً المؤلفين من الدرجة الثالثة ومن الرابعة-(تلك العملة الصغيرة التي نسينا صورتها ولكنها كانت تدور في،كل مكان،) من أمثال بوهور ورابين وفلوري وغيرهم: حينئذ يمكنك أن تتخيل الحركة الفرنسية وما كانت عليه من عمق واتساع وثراء.

وازداد هذا النفوذ حتى إن الأرستقراطية الأدبية في أوربا لم تحتج لترجمة، فإن اللغة الفرنسية تكاد تصبح لغة عالمية. هذا ما يقوله (جي ميبج) Guy Miège السويسري الذي يقيم في لندن، والذي نشر قاموساً فرنسياً- انجليزياً وآخر انجليزياً- فرنسياً، «لأن اللغة الفرنسية تتحول إلى لغة عالمية». وهذا ما يقوله أيضاً (جريجوريوليتي) Gregorio Leti الذي ترجم في أمستردام كتاب «حياة كروموبل» إلى الفرنسية: «لأن اللغة الفرنسية أصبحت في هذا القرن أوسع اللغات انتشاراً في كل أوربا: لأنه إما أن عظمة فرنسا جعلت لغتها أكثر ازدهاراً، مثلما حدث في الماضي إذ نشرت عظمة الرومان لغتهم في العالم كله؛ وإما أن اللغة الفرنسية، بما هي عليه من تهذيب، تتميز بجمال خاص في وضوحها الذي لاتكلف فيه». بيد أنه ما من شك في أن أقوى شهادة من بين الشهادات التي يمكننا أن نذكرها هنا، قول بايل: - «إن اللغة الفرنسية أصبحت فيما بعد حلقة الاتصال بين شعوب أوربا قاطبة، وغدت لغة نستطيع أن نسميها «ترانساندنتال [1]» لعين السبب الذي يجبر

(١) - Transcendantal ما يخص العقل الخالص، أي ما يدرك بالعقل ولاتثبته التجربة. [ترجمان]

الفلاسفة على أن يسموا بهذا الاسم كل ما من طبيعته الانتشار في كل الأبواب والطبقات ... [١]»

إن الكتب واللغة، والأخلاق أيضاً، وسير الحياة كانت فرنسية. أنظر إلى مكتب ذلك القصر الذي يريد التشبه بفرساي، تجد هنالك مدرساً فرنسياً يعنى بتربية النبيل الصغير. والثياب، والفساتين، والشعر المستعار كانت على الطريقة الفرنسية. وممن كان يطلب الناس تعلم الرقص إلا من أساتذة الأناقة هؤلاء، French dancing masters الذين يبذون الايطاليين؟ ثم أنزل حتى المطبخ تجد الرؤساء والطهاة يجهزون الطعام طبقاً لآخر الأصول الفرنسية، والخدم يقدمون النبيذ الفرنسي. «يظهر أننا لانستطيع أن نجهز مأدبة عشاء من غير نبيذ أجنبي، نقدمه في قنينة تسمى «بوتيل» كما هي في الفرنسية ... » ويقول موراتوري: «نحن الايطاليين البواسل نهرع كالقرود المضحكة إلى تقليد التبدلات الفرنسية، وإلى كل بدعة فرنسية كأنما هي آتية من قصر جوبيتر العظيم [٢]». ، يقول الألماني توماسيوس Thomasius في كتابه «مقال عن تقليد الفرنسيين عام ١٦٨٧» Discours sur L'imitation des Francais «لو أن أجدادنا بعثوا إلى هذه الدنيا، لما عرفونا، فقد فسدت أخلاقنا وتنكرنا لأصلنا. كل شيء عندنا الآن ينبغي أن يكون فرنسياً: فالثياب والطهو واللغة فرنسية، والأخلاق فرنسية، وحتى الرذائل فرنسية [٣]».

لم تعد الفرنسية تقوم مقام اللغة الايطالية والاسبانية فحسب، بل اللاتينية أيضاً التي كانت إحدى حلقات الاتصال للمجتمع الأوربي. «كل الناس يريدون أن

---

١) - بايل: (أخبار من جمهورية الأدب)، نوفمبر ١٦٨٥، الباب الخامس Nouvelles de la République des lettres.

٢) - كما أورده جويليو ناتالي، (القرن السابع عشر IL Settecente)، ميلانو ١٩٢٩، ص٦٨، Giulio Natali.

(٣) - كرستيان توماسيوس: Christian Thomasius, Von Nachahmung der Franzocen, Nach den Ausgaben von 1678 und 1701, Stuttgart 1894. «في تقليد فرنسا، طبعة ١٦٨٧ و١٧٠١، ستوتجارت ١٨٩٤.

يتعلموا اللغة الفرنسية؛ إنهم يجدون في ذلك دليلاً على حسن التربية؛ ويتعجب البعض لاصرار الناس على معرفة هذه اللغة، ولكنها صارت بينهم عادة متأصلة؛ ففي كثير من المدن تجد مقابل كل مدرسة لاتينية عشر مدارس فرنسية، وفي كل مكان تترجم مؤلفات القدماء إلى الفرنسية، حتى بدأ العلماء يخشون أن تفقد اللغة اللاتينية مكانتها القديمة ... [1]» كل هذه الأسباب الحقيقية التي عرضها البعض شرحًا لتلك الشهرة، من قيمة اللغة الجوهرية، إلى مزاياها الفكرية، إلى اعتناء شعب يرى كل ما يتعلق بالنحو والصرف والبلاغة مسائل أساسية، وهو الشعب الذي يتفرد وحده دون شعوب الدنيا بحيازته لمؤسسة رسمية تراقب استعمال الكلمات ألا وهي المجمع -كل هذه الأسباب العميقة الحقيقية، يضاف إليها سبب هام هو طلب أوربا نفسها التي كانت في طريق التجدد. فقد كانت اللاتينية لغة التعليم المدرسي والعلوم اللاهوتية، تفوح منها رائحة الماضي؛ فكانت تفقد رويداً رويداً روابطها بالحياة. ومع أنها كانت أداة كاملة للتعليم، إلا أنها لم تكن تغني المرء أو تكفيه بعد تخرجه في المدرسة. أما الفرنسية فكانت تبدو كشباب جديد للمدنية: إنها تمدن المزايا اللاتينية. إنها واضحة، قوية، أكيدة، وحية. إن العلم الذي يريد أن يفسر الكون بعلل أخرى غير «العلل الفعالة»[2]، يتطلب تعبيراً غير الذي كفى للقرون الوسطى. وإذا نحن وجدنا اللغة الفرنسية وقد أصبحت عقب معاهدة راستادت Rastadt عام ١٧١٤، لسان السلك السياسي، فإنما مرد ذلك إلى أن رجال السلك السياسي لم يقنعوا في عام ١٧١٤ بما قنعت به مستشارية الأمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة. حتى ذلك اليسر وتلك الأناقة في الكلام، والخفة التي ينعيها الناس على الفرنسيين، كانت تفيدهم؛ فقد تراءوا

(١)- بايل- أخبار جمهورية الأدب، أغسطس ١٦٨٤، الباب السابع.

(٢) - Causes efficientes- العلل الفعالة، العلل التي تحقق نتيجتها بالفعل، فالشمس علة فعالة للضوء. والمؤلف يقصد أن التفسيرات المدرسية القديمة للكون- من مثل ذلك- لم تعد تكفي للروح العلمية الحديثة في ذلك الوقت. [المترجمان]

للناس كأنهم تخلصوا من ماض ثقيل . ولقد أخذ علماء الأخلاق الأجانب ينتقدون سلوكهم وميوعتهم وإقبالهم على متاع الدنيا : ولكنه انتقاد لاطائل تحته ، فقد أصبح الفرنسيون نماذج حديثة «ألامود» . وإنك لتجد هذا التعبير الفرنسي وقد انتشر في إيطاليا في أواخر القرن السابع عشر ، في الوقت الذي يعرضون فيه واجهات المحال التجارية دمى صغيرة يلبسونها حسب البدع الباريسي ، البدع الحديث . وإنك لترى الانجليز يستعملونه أيضاً : فالسيدات يرتبن شعرهن طبقاً لأحدث بدع As the mode is ؛ والمكاتب توصي على The à La mode secretary ؛ وينتقد توماس براون في أحد مؤلفاته [1] «بدع النفاق» ؛ ويعرض (فاركار) في كتابه «الزوج الوفي» البدع اللندني the à La mode Londres مقابل البدع الباريسي : the à la mode France ويقدم (ستيل) على المسرح the Funeral, or Grief `ala mode ؛ ويفسر لنا أديسون في مقدمة كتبها لهذه الملهاة ، سر ذلك الاعجاب المفرط :

Our author...

Two ladies errant has exposed to view:

The first a damsel, travelled in romance;

The other more refined: she comes From France...[2]

وما هذه إلا حالة خاصة لحركة عامة ، إنه عرض يجيب إلى طلب : وهكذا نستطيع أن ندرك سيادة فرنسا ، وهي سيادة لاتستند على القوة ، لأن القوة لاتكفي لقيام دولة وطيدة في ميدان الفكر ، بل سيادة مبنية على ارتضاء عالمي . ففي كل مكان تطنطن اللغة الفرنسية ، في إسبانيا وفي مستعمرات اسبانيا حتى ليما (عاصمة بيرو) حيث يمثلون في عام ١٧١٠ اقتباساً لمسرحية رودوجين Rodogune

---

(١)- The Stage- Beaux tossed in a Blanket

(٢)- يقدم مؤلفنا على المسرح سيدتين مرتحلتين ، أولاهما آنسة سائحة في بيداء الخيال ، أما الثانية فأكثر تهذيباً ، فهي قادمة من فرنسا ...

(لكورنيل) وملهاة «النساء العالمات» Les femmes Savantes لموليير؛ وفي هولندا حيث تقاوم المواهب الأهلية بلا جدوى، وفي بولاندا حيث يضمحل النفوذ الايطالي تدريجًا بينما النفوذ الفرنسي يتسع ويقوى؛ إن الناس يقرأون المؤلفات الفرنسية في كل مكان، حتى إن الفكر الفرنسي يسم بطابعه كل الأذهان.

وضعت فرنسا أساس هذه المملكة، وإذا بمنافس يظهر، ويا له من شيء معدوم النظير! إنه دولة من الشمال!

* * *

كانت انجلترا في أول الأمر تقف في طريق السياسة الفرنسية. فهي لم تقبل أن تتخلى لفرنسا لاعن البحر ولاعن الأرض؛ وهي لم تكن تحاربها على السيادة فحسب، بل أيضًا على مبدأ السلطة الذي كان أساسًا للحكم الملكي. فنشبت مبارزة بين لويس الرابع ووليم أورانج، وكانت مبارزة بين بطلين رمزيين. حينما طرد وليم أورانج جاك الثاني من عرش انجلترا عام ١٦٨٨ واعتلى الحكم بدلاً منه تحت رقابة البرلمان، أخذ لويس الرابع عشر ذلك اللاجئ تحت حمايته الشخصية وأسكنه أروع مسكن في سان جرمان- لاي، وهو في ذلك إنما كان يدافع عن الحق الآلهي ممثلاً في شخص جاك الثاني. ولكن بعد حرب طويلة بينهما، اضطرت فرنسا إلى التسليم أما القوات المتحدة، وتوقيع صلح رزويك عام ١٦٩٧؛ فياللاهانة التي لحقت بالملك العظيم! لقد اضطر أن يعترف بسلطة خصمه وأن يصادق على شرعية حكمه، بمحض رضائه، خاذلاً بذلك جاك الثاني، ابن عمه، بل أخاه.

من كان إذن ذلك الشعب الذي فرض حكمه على أوربا، والذي أهان فرنسا في مرة واحدة إهانة لم يلحقها مثلها إبان خمسين عامًا؟ لشد ما كان هياج الرأي العام الفرنسي، حتى إننا نستطيع أن نستشف الثورة الانجليزية من وراء الستار الفاخر لتراجيدية راسين أتالى Athalie، ولاسيما أن الناس أخذوا يترغمون في «ديجون» في عام ١٧٠٩ بأغنية مثل التالية:

Le grand- pére est un fanfaron,

Le fils un imbécile

Le petit- fils un grand poltron,

Ah!la belle famille!

Que je vous plains, peuples francais,

Soumis à cet empir!

Faites ce qu'on fait les Anglais,

C'est assez vous le dire...[1]

ولم يبد على ذلك الشعب العظيم في بداية عهده الزاهر موهبة للأدب. فقد طلب لويس الرابع عشر من سفيره في لندن إخباره بأسماء الفنانين والأدباء في انجلترا، فأجاب السفير بأن العلم والأدب يتركان أحيانًا بلداً لكي يخلعا على بلد آخر المجد والشرف؛ وأنهما قد انتقلا الآن إلي فرنسا؛ وإذا كان لايزال في انجلترا أثر للأدب، فهو ليس سوى ذكرى بيكون، وبوكانان، والمدعو «ملتونيوس» الذي جلب على نفسه من العار بمؤلفاته الخطرة أكثر مما يجلبه القاتل الذي يغتال مليكه.

بيد أنه بعد ذلك بقليل، كان على فرنسا أن تسمح للانجليز بامتياز: امتياز التفكير. وهنا أيضاً نجد التعارض قائماً: ففي فرنسا فن الحياة، وفن الحديث، وحلاوة الشمائل، ونزاهة الفكر. وفي انجلترا قوة الفرد، والعمق والجرأة في

(١) - إن الجد يدعي الشجاعة،
والابن مغفل سخيف،
والحفيد جبان رعديد،
يا لها من أسرة بديعة!
إني لأشفق عليك، أيها الشعب الفرنسي،
الخاضع لتلك المملكة!
افعل ما فعله الانجليز
كفى أن أقول لك ذلك...

البحث، وحرية التفكير. ولو لم يكن لدى هذه الأخيرة إلا كتاباً سطحيين، ومؤلفي «كوميديات» ماجنة، تعرض على المسرح السلوك في عهد إعادة الملكية La Restauration، مثل ويكرلي Wyckerley، وكونجريف Con-greve، وفانبرو Vanbruh، وفار كار، لكان عليها أن تقنع بمكانة التابع: لأنها كانت تقلد فرنسا، وتنتهب مؤلفيها دون خجل أو حياء، لكن ها هي ذي تناقش علناً مسائل هامة أرفع مما يتعلق بالروايات الغرامية أو وصف الشخصيات الفاجرة. فهي لم تتجنب الخوض في المسائل الدينية بدعوى أنها مسائل قد بت فيها، بل هي لاتكف عن مناقشة الطرق المختلفة التي يستطيع بها المرء أن يتعرف علاقاته بالإله: فمن التصوف البوريتاني لبونيان، إلى مذهب (كلارك) و(تيلوتسون) أي الموافقة المنطقية على الدين السائد conformisme، إلى مذهب (تولاند) أي الاعتقاد بالله مع إنكار الوحي Déisme. وكانت تشتغل مع (لوك) في إعداد فلسفة جديدة؛ وكانت تعمل مع (نيوتن) على انقلاب في العلم: فقد كتب هذا الأخير مؤلفه (المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية) Philosophiae naturalis principia mathe-matica في عام ١٦٨٧. من هنا منشأ قوة انجلترا الحيوية التي كانت محل إعجاب الفرنسيين:

Les Anglais pensent Profondément

Leur esprit, en cela, suit leur tempérarement,

Creusant dans les sujets, et forts d' expériences,

Ils étendent partout l'empire des sciences...[1]

---

(١) - إن الانجليز عميقو التفكير،
وفي ذلك تتمشى عقولهم مع طباعهم،
يمحصون المسائل، ويتوفرون على التجارب،
فيمدون مملكة العلم إلى كل مكان...
(لافونتين، حكايات، ١٦٩٤، الجزء الثاني عشر، الثعلب والحصرم)
La Fontaine, Fables, Livre XII, "Le renard et les raisins."

وأخيراً تجاسر الانجليز على مر الزمن، فطالبوا بالمجد في ميدان الأدب: ومنذ ذلك الحين انقسمت مملكة الفكر انقساماً قطعيًا. ولقد ظنوا عقب وفاة • درايدن)، في عام ١٧٠٠، أنهم فقدوا شاعرهم الكبير الوحيد، فإذا بهم يجدون البعث الاعجازي الجديد. فإذا سألتهم عن الفلاسفة قالوا لدينا كدورث وبركلي؛ وإذا سألت عن علماء الأخلاق قالوا لدينا (أديسون) وستيل وآربثنوت وشافتسبورى، ولدينا من العلماء (بنتلى)، ومن الشعراء (بوب) و(جاي) و(برايور) و(سويفت) ذلك العبقري الذي يستطيع التفوق في كل فن وفي كل فرع، وما ذكرنا هنا إلا العظام. وكان الانجليز يعرفون قيمة تلك الثروة تمام المعرفة، فعظموا علماءهم ومؤلفيهم وأحاطوهم بصنوف التقدير والتكريم: لقد أخذ العلماء والمؤلفون الفرنسيون يحسدون الانجليز، فسبحان مغير الأمور! لقد أزفت ساعة النصر، حيث النبات القوى الذي غذته عصارة النماء مدة طويلة، يفيء أخيراً زهرته الرفيعة.

وإنك لتلاحظ لدى مؤرخي الأدب الانجليزي، شيئًا من المباهاة عندما يحكون قصة تلك السنين العظيمة. قال (ادموند جوس) «EdmundGosse في عام ١٧٠٢ جلست الملكة آن على العرش، وتحت ظل حكمها القصير حدثت نهضة رائعة للأدب الانجليزي، على أيدي طائفة من الرجال الذين أوتوا موهبة وابتكاراً ليس لهما مثيل. ففيما بين عام ١٧١١، وعام ١٧١٤ انبثقت في آن واحد من مطابع لندن طاقة من المؤلفات الرائعة نثرًا وشعراً. فكأنما ريح قد قشعت ضباباً كان يخيم على السماء من أمد، فكشفت بعض روائع النجوم. في عام ١٧٠٢ لم يكن في أوربا بلد يداني انجلترا في فراغها الفكري التعس؛ وما أتى عام ١٧١٢ حتى غدت فرنسا ذاتها عاجزة عن أن تقارن نفسها بزميلتها من حيث المؤلفات الأدبية نوعًا ومقداراً». أما عام ١٧١٣ فكان عاماً إعجازيًا! «إن كتاب المحادثة الصغير الذي نشره بيركلي تحت عنوان Hylas et PhiLonoüs يرجع إلى ذلك العام الذي لاينسى annus mirabilis، عام ١٧١٣، - ففيه وصل بوب Popeوسويفت Swift

واربثنوت Arbuthnot وأديسون Addison وستيل Steele إلى ذروة العبقرية، وفيه قدمت انجلترا فجأة مجموعة من مواهب أدبية رائعة، حتى لم يكن في أوربا بلد يستطيع مساواتها أو الاقتراب منه».

لقد قضي الأمر؛ فإن الضوء كان يشع من الشمال، وكان للشمال الحق في أن يواجه الجنوب ظافراً. ونستطيع أن نطبق على المؤلفات الفكرية تلك الكلمات التي كتبها شاعر إذذاك:

What fine things else you in South can have,

Our North can show as good, if not the same...[1]

ولشد ما كانوا مغرورين بانتصارهم، أولئك الانجليز الذين وصلوا إلى طليعة الصفوف! كانوا يتطلعون وراءهم لكي يروا الشوط الذي قطعوه من الطريق، قائلين إنهم كانوا في موقف يأس وقنوط، يهددهم في حريتهم وفي دينهم بل في أرضهم ذاتها أعظم الملوك، لكن سرعان ما تغيرت في أوربا الأمور، وأخذت وجهاً آخر، حتى إنه، والشكر لله، قد انهزم الظالمون وانتصر الصالحون: وبالصالحين كانوا يقصدون أنفسهم. وكانوا يمدحون فلسفتهم، وأدبهم، وكل كيانهم. وفي تلك السنين بدأت حركة ما زلنا نحس أثرها حتى اليوم. وحقًا، من يصدق أنه منذ عام ١٧١٣، أخذوا يعرضون اللغة الانجليزية مقابل الفرنسية؟ يقول (آبل بوايه): «إن اللغة الانجليزية منافسة اليونانية واللاتينية، لغة مثمرة قوية، وهي -كالشعب الذي يستعملها- عدوة القسر والاجبار، فهي تتقبل كل ما يساعد على جمال التعبير وعظمته. بينما الفرنسية التي ضعفت وافتقرت لمبالغتها في الرقة وخجلها،

---

(١)- كل شيء جميل يمكن أن يوجد في الجنوب،
يستطيع شمالنا أن يقدم مثله أو ما يوازيه ...

John Rawlet, An account of my life in the North, (Poetick Miscellanies London1687.)

وعبوديتها للقواعد والعادات، لاتسمح أبداً لنفسها بشيء من الحرية ولاتقبل أبداً أي جسارة موفقة ...»[1]

* * *

ولابد من توافر شروط عدة، لكي تتدفق تلك القوة الحية وتؤثر. ويبدو أنه يجب أولاً إبدال الرواسم «الكليشيهات» القديمة بصورة أصدق وأوفر تشويقاً وجاذبية. كانت الطبقات الراقية تستحب الرحلة إلى باريس، لكن من كان يود زيارة لندن؟ عندئذ بدأت منذ سنة ١٦٦٠ الفترة النشيطة للسفر إلى انجلترا. وكانت العوائق عديدة متنوعة: أخلاق يعتقد الناس أنها بربرية، ولغة لايدركونها، وقبل كل شيء، ذلك البحر المصطخب الذي كان عليهم أن يعبروه، والذي كان يرهب القلوب: ويعلم القارئ قصة ذلك الأب النورماندي الطيب الذي سافر إلى شر بورج لكي يخاطر باختراقه، والذي عدل عن السفر لما رأى لجج الأمواج، وعاد إلى بيته مؤثراً السلامة. إلا أن سكان المدن الساحلية، لاعتيادهم المخاطرة، أقدموا على الخطوة الأولى؛ ورحل النبلاء قاصدين البلاط الملكي الانجليزي، والعلماء والأدباء وحتى الأفراد العاديون، بدافع من حب الاستطلاع. فالسفينة والجمرك والمركبة والفندق، بما فيها من مشاق، والطريق والبراري، والعشب الرقيق أبدع عشب في العالم، ولندن وتحفها وطرائفها، والتاميز المفروش بالسفن، وويستمنستر، والبرج، والأخلاق الانجليزية الغريبة، وطرائق الانجليز في الطعام وفي الشراب، وعاداتهم العجيبة في التسلية بما فيها من صرامة وكآبة: كل ما في هذا الاكتشاف من متع ومشاق كانت تصبغ حكايات السفر بمسحة من المغامرة والبطولة. وجملة القول، أن الناس بدأوا منذ ١٧١٥ يعرفون انجلترا، فليس على الأجيال المتتابعة أن تعاني رسم مسودة بل ستكفي بالتصحيح، استكمالاً للوحة احتلت فيما بعد مكاناً في رواق الشعوب.

(٢)- آبل بوابيه. مقدمة ترجمة كاتون لأديسون، ١٧١٣. Abel Boyer, Préface à la traduction du Caton d'Addison, 1713.

وعما قريب سنرى الأفكار الانجليزية تهاجر إلى ألمانيا. وبجلوس أسرة هانوفر البروسية على عرش انجلترا، ترتبط الدولتان بروابط سياسية. وإنهما لمرتبطتان من قبل، جزئيًا على الأقل، بالدين البروتستانتي، بالكراهية المشتركة للكنيسة الكاثوليكية، وبالمعارضة المشتركة ضد روما. في عام ١٦٩٧، امتدح أندريه آدم هوتشستتر André Adam Hochstetter الأستاذ بتوبنجن Tubingen في خطبة باللاتينية فائدة السفر إلى انجلترا Oratio de utilitate peregrinationis anglicanae فقال: «لن أمتدح خصب انجلترا، ولن أطري تحف لندن، تلك المدينة العظيمة، بل سأتحدث عن علمها؛ وأكثر من ذلك فاني سأتحدث عن دينها. من بيننا يجهل بأي شجاعة وشهامة عارض صفوة الرجال -تحت حكم جاك الثاني- مبعوثي الكنيسة الرومانية اليهودية، وكيف دافعوا عن قضية يشتركون فيها معنا؟» وسنرى بعد ذلك مقدم الفلسفة مع لوك، وسيتبعها الأدب. وسنشاهد التأثير المؤكد للتفكير الانجليزي على التفكير الألماني، في انفصال هذا الأخير عن الطرائق الفرنسية، التي كانت تبعد كثيراً عن جوهره العميق؛ وفي تقديم نماذج أخرى أقرب إليه وآلف، وفي المؤازرة على تحريره، حتى يصل يوماً إلى لونه الأصيل. وفي غضون القرن الثامن عشر، تتبدى لنا على أرض ألمانيا صعود انجلترا مدارج المجد: تمرد على السيادة الفرنسية، وتحالف الشمال ضد فرنسا.

ولكن كيف السبيل إلى بلاد الجنوب، وأي طريق ينبغي أن نختار؟ فالمؤلفات التي تظهر في لندن كانت معرضة لانتظار طويل كي تصل إلى تلك البلاد، لأن اللغة الانجليزية كانت مجهولة في أرض أوربا، ولأن الذين يقرءونها من اللاتين عدد قليل، والذين يتكلمونها أقل. ولذا لم يكن يقدر لانتشارها أن يزداد سرعة، إلا بمعجزة. فقد انتفعت اللغة الانجليزية باللغة الفرنسية المعروفة في كل مكان، فزخذت فرنسا على عاتقها نشر الكنوز المخبأة في الجزيرة. «إنها لخسارة أن تبقى مؤلفات بمثل هذا الجمال حبيسة بين الحدود الضيقة للجزر البريطانية. فمهما كان في اللغة الانجليزية من جمال، فإن الفرنسية تفوقها لأنها لغة الاتصال بين كل

شعوب أوربا تقريبًا. ويمكننا أن نقول بحق في صدد الموازنة بين الفرنسية والانجليزية من حيث مدى الانتشار ما قاله شيشرون Cicéron عن اليونانية واللاتينية في عصره، في مقاله Pro Archia [1]: graeca leguntur in omnibus gentibs, latina suis finibus, exiguis sane, continentur...[2] وعندما يحين الوقت المناسب، ستتكون طائفة من المترجمين، ويحضر للاقامة في لندن عدد وفير من الفرنسيين، وبما هم عليه من حذق وثقافة، سيتصلون بالأدب الانجليزي، ويظهرون الاهتمام به، ويختارون أروع مؤلفاته وينشرونها، لكي يستعينوا على العيش، وفي نفس الوقت لكي يعبروا عن شكرهم لدولة أحسنت استقبالهم وأكرمت وفادتهم. حقًا، لقد كان من المحال أن يجد الأدب الانجليزي سبيلا للانتشار أسرع من تلك السبيل: إلا في الأحلام...

ومع ذلك فقد تحقق هذا الحلم بالضبط: تحقق بفضل الاضطهاد الديني الذي طرد القسس البروتستانت، والأساتذة، والمؤلفين، من فرنسا وأجبرهم على الالتجاء إلى لندن حتى جعل منهم مفسرين للتفكير الإنجليزي. والحق أنه لم يحدث كل ذلك طبقًا لتلك الخطة المرسومة، فلقد بدأت من قبل بعض العلاقات وتم بعض الإعداد؛ لم يحدث شيء فجأة وعلى غير استعداد. وفوق ذلك فإن المنفيين لم يكونوا يعملون في سبيل نشر الأدب الفرنسي في انجلترا، أقل مما كانوا يعملون على تصدير الأدب الانجليزي إلى أوربا. إلا أن إحدى النتائج غير المتوقعة لفسخ أمر نانت Révocation de L' Édit de Nantes كانت اكتساب انجلترا حشداً من الوسطاء، الذين عجلوا انتشار مؤلفاتها واتساع نفوذها بطريقة غير منتظرة: لقد

(١)- Pro Archia لأرشيا: إحدى المرافعات المشهورة للخطيب الروماني شيشرون تتضمن مدحًا رائعًا للآداب. [المترجمان]

«كل الناس يقرءون اللغة اليونانية بينما اللاتينية محدودة. . .»

(٢)- نبذة من المقدمة التي كتبها (ريكوتييه) في مقدمة ترجمته لكتاب «كلارك» عن «وجود الله وصفاته» امستردام ١٧١٧. Extrait, de l'Avertissement mis Par Ricotier en tête de sa traduction de S.Clarke, De L'existence et des attributs de Dieu, Amsterdam, 1717.

وجدت انجلترا تحت تصرفها، قبيل استعادة عهدها الزاهر، المبشرين الذين سوف يعلنون مجدها على العالم المتمدن.

من كان هؤلاء المبشرون؟ لم يكونوا عباقرة، ولكنهم كانوا مدفوعين بحب الاستطلاع، كانوا عقولا نشيطة، شخصيات قوية، قبلوا في شهامة مغامرة النفي الكبرى، ولم يقنعوا بالخبز الذي يغذي الجسم ويقيم الأود. كانوا أصدقاء التجديد... Abel Boyer (آبل بوابيه)، الذي بدأ دراسته في المجمع البروتستانتي ببيلورانس Pylaurens وكان يبلغ التاسعة عشرة عندما فسخ لويس الرابع عشر أمر نانت؛ فرحل إلى هولاندا ثم إلى انجلترا في ١٦٨٩ واشتغل بالتدريس لكي يكسب قوته هناك. نشر تراجم من الفرنسية ومؤلفات للمدارس، وفي عام ١٧٠٢ نشر القاموس الملكي Dictonnaire royal الذي تستشيره أجيال بأكملها، فيفيد انجلترا، وتعده فرنسا كتابًا كلاسيكيًا. وسيترجم «كاتون» مؤلف أديسون Le Caton d'Addison الذي سيقدم لأوربا أروع تحف التراجيديا البريطانية. وسيكون تقريبًا المؤرخ الرسمي لانجلترا، ويشترك في المجادلات الأدبية لذلك الوقت، ثم يموت في هدوء، بعد كثير من النوازل والآلام في منزل بناه في شيليسيا كأي بورجوازي لندني. - وبيير دي ميزو Pierre des Maizeaux وهو ابن قسيس بروتستانتي، رحل إلى سويسرا عندما بدأ اضطهاد البروتستانت، درس علم اللاهوت في بيرن وجنيف، وكان أبوه يتمنى «أن يكون خلفًا صادقًا له لاعادة بناء أسوار بيت المقدس المهدمة». وهو يجرب حظه في هولاندا، حيث عرف بيير بايل Pierre Bayle : الذي لم يكن بذاته الأستاذ الصالح للأرثوذكسية. لذلك لن يصير دي ميزو قسيسًا، بل سيكون أديبًا، متحررًا. ارتحل إلى انجلترا: سويسرا، فهولاندا، فانجلترا، ما أكثر اللاجئين الذين سلكوا هذا الطريق! ولما كان قد نشر علاوة على أعماله الأخرى- مؤلفات سانت أفر يموند Saint-Évremond وبايل، ولما كان صديقًا لشافتسبري Shaftesbery وتولاند، وكولنز، ونشر بعضًا من مؤلفات لوك Loke ،

وتولاند ودرس في شلنجورت، وجمع نصوص المناقشة الهامة التي احتدمت بين ليبنتز وكلارك Clarke ونيوتن Newton على الفلسفة والعلم والدين، ولما كان يرتاد المنتديات، ويراسل الجرائد ويكتب الرسائل، ويتوسط لطلاب الوظائف، ويقدم المعونة للمحتاجين، فقد كان على ملتقى الطرق التي تمر بها الأفكار فحسب، بل الناس أيضاً: لكل هذه الأسباب مجتمعة فهو يمثل التبادل في الحياة الفكرية بما فيه من حمى ومغامرة واضطراب بجانب ما فيه من نفع جزيل وإثمار غزير.

ومع بيير كوست Pierre Coste، نصل بلاشك إلى أعلى مراتب هؤلاء العاملين الطيبين. ولد بيير كوست في أوزيه Uze´s في عام ١٦٦٨، ولما كان قد كرس للسلك الاكليريكي فإنه ذهب إلى مجمع جنيف: ولو أنه أكمل دراسته لصار أستاذ أو قسيساً، ولأقام في مكان ما في «السيفين» بأواسط فرنسا، يمجد مذهبه ويعظ المؤمنين ويموت في داخل أفقه الضيق المحدود. ولكن فسخ أمر نانت يمنعه من الدخول إلى فرنسا، فيصبح من التائهين. تراه في جامعات لوزان وزيورخ، وليدن؛ ويلتحق في عام ١٦٩٠ بمجمع كنيسة فالون في أمستردام. وبعد ذلك يعمل كمصحح في مطبعة؛ وفي ١٦٩٧ يشد رحاله إلى انجلترا، حيث يثبت فيما بعد مكانته في تاريخ الأفكار. سيعمل مربياً لدى عائلات الأشراف، وسيجوب أوربا مع تلامذة منتخبين كرائد لهم في (دورتهم الكبرى). وسيغدو عضواً في «جمعية لندن الملكية»، وينشر المقالات الفلسفية، والأبحاث التاريخية، كما ينشر مؤلفات لابروير La Bruyére ومونتاني Montaigne ولافونتين. ويترجم من اليونانية أكزينوفون، ومن الايطالية جريجوريوليتي، وريدي؛ ولكنه سيترجم من الانجليزية على الأخص: كتاب شفتسبرى عن عادة السخرية Essai sur l'usage de la raillerie؛ وكتاب نيوتن عن «علم البصريات» Traité d'optique. نيوتن، شفتسبرى! إن المشاركة في تعريف فرنسا بهؤلاء الأعلام، ثم تعريف كل البلاد اللاتينية بهم عن طريق فرنسا، لعمل جبار مجيد. ولقد كان عمله أكثر قيمة، وأشد

روعة، فإنه كان مترجم لوك: ترجم إلى الفرنسية باجتهاد وغيرة «بحث فلسفي عن الادراك الانساني» وهكذا فتح لأوربا أبواب الفلسفة الانجليزية- إن الفرنسيين مدينون لكوست بما يدين به الانجليز للوك... [1]»

وما دمنا لانستطيع، عندما نتتبع سير الأفكار، أن نتمالك أنفسنا من الاعجاب بما تتخذه من طرق غير متوقعة، فلنعجب أيضًا بالسرعة وبالسهولة التي تتقبل بها فرنسا الدور الذي تمليه الظروف. فإنها لاتذعن لهذه القوة التي تظهر في الشمال والتي تهدد سيادتها فحسب، بل إنها تخدمها. فهي تضيف إلى نشاطها الابداعي الأساسي، نشاطًا جديداً؛ إنها ستروج القيم الشمالية في الأسواق اللاتينية. وهي ستقوم بدور الوسيط للفكر البريطاني، لدى عملائها الايطاليين والبرتغاليين والاسبان. وهي تتوسط في بعض الأحايين بين الشمال والجنوب، حتى إن المؤلف الذي يجيء من لندن سيمر بباريس قبل أن يعبر الراين. ولكنها في الغالب لاترسل إنتاجها فحسب بل الانتاج الانجليزي أيضًا، ثم الانتاج الألماني، إلى روما وإلى لشبونة وإلى مدريد. وهي سترسله لاكما يفعل البريد العادي، من غير اهتمام بما يحمله، بل إنها على العكس ستزينه وتجمله! وستجعله يلائم «العادات المشتركة في أوربا»، أي الذوق الذي يسود أوربا بفضلها، الذوق الفرنسي. إن هؤلاء الانجليز ليسوا واضحين، فيجب أن نوضحهم؛ إنهم لايتبعون قواعد المنطق الصريح، فينبغي أن ندخل النظام على أفكارهم، إنهم يسهبون في الكلام فينبغي أن نحملهم على الايجار. وهم غلاظ جفاة فينبغي أن نهذبهم ونلينهم. وتشرع فرنسا في العمل، فتغير الثياب، وتقطعها، وتفصلها من جديد، وتضع على الوجوه الأصباغ والمساحيق. ومع ذلك فلايزال الأشخاص الذين تقدمهم إلى العالم، يبدون غرباء إلى حد ما: لكن إلى درجة إثارة الاعجاب دون الدهشة. وفرنسا عليمة بفضلها، عارفة بذوق جمهورها، ولذا فهي تتناول مع

(١)- دارجان: رسائل أخلاقية، الكتاب الأول .D'Argens, Lettres morales, I.xxIII

مصالحها الشخصية، مصالح انجلترا ومصالح أوربا. والمترجمون الذين تستخدمهم يعلون فضلاً وشرفًا: فهم لايعملون كالعامل البسيط الذي يتوخى أمانة الرقيق، بل يصبحون بدورهم مبدعين، أو على الأقل مفوضين كاملي السلطان. يقول بيير كوست: «كلما وجدت أني لاأدرك تمام الادراك فكرة بالانجليزية، لاشتمالهاعلى معان غير أكيدة (لأن الانجليز ليسوا مدققين مثلنا في هذا الصدد) اجتهدت بعد تفهمها، أن أشرحها بالفرنسية في وضوح، حتى يصبح من المحال أن يصعب فهمها على القارئ. إن الفرنسية تمتاز على الأخص بوضوحها عن غيرها من اللغات... وعلى ذلك يخيل إلى أننا نستطيع الموازنة بين المترجم والمفوض ذي الحقوق الكاملة. ولما كانت هذه موازنة بديعة، فاني أخشى أن ألقى العتاب والتثريب على مبالغتي في تقدير عمل لم يجد بعد في العالم ما يستحق من تقدير. على أنه، مهما كان الأمر، يبدو لي أن المترجم والمفوض لايستطيعان الاستفادة المبتغاة بكل مزاياهما لو بولغ في تحديد حقوقهما...[1]». فرنسا، وسيطة بين الفكر الانجليزي والبلاد اللاتينية: مجرى يبدأ هنا، ويمر على القرن الثامن عشر بأكمله وما بعده.

* * *

سفن تصل حتى وسط المدينة لإفراغ شحنتها، والحق أن المدينة كلها ليست إلا ميناء واسعًا؛ عمارات فاخرة، البورصة، المصرف، فندق شركة الهند، بيوت رائعة على طول القنوات، نشاط منتظم، مظهر ثراء، لاشحاذون ولافقراء، بل تجار أقوياء وقوم سعداء: هذه هي أمستردام، كما يتخيلها الغرباء. إنها تبدو لهم وكأنها أرض النعيم:

---

(١)- بيير كوست في مقدمة ترجمته «بحث فلسفي عن الادراك الانساني» للوك، أمستردام ١٧٠٠ Pierre Coste, Avertissement de la traduction de l'Essai philosophique concernant l'entendement humain, Amsterdam,1700

Je vois régner sur ces rivages

L'innocence et la liberté

Que d'objets dans ce paysage,

Malgré leur contrariété,

M' étonnent par leur assemblage!

Abondance et frugalité,

Autorité sans esclavage,

Richesses sans libertinage,

Noblesse, charges, sans fierté

Mon choix est fait...[1]

إن هولاندا لموسـرة وعظيـمة . وهي ، وإن كـانت انجلترا تنافسـهـا في مـيدان التـجـارة ، وإن كـانت توشك بعـد سنة ١٦٨٨ أن تكون القـارب المشـدود إلى السـفـينة

---

(١)- أرى الطهارة والحرية
تسودان تلك الشواطئ .
وما أكثر ما في هذه المنطقة من أشياء ،
أشياء يحيرني تجمعها ، بالرغم من تنافرها!
فالكثرة مع القناعة ،
والسلطة بغير عبودية ،
والثراء بغير خلاعة ،
والأصالة بغير عجرفة :
لقد قر قراري ، وتم اختياري ...
قطعة منسوبة إلى جان باتيست روسو ، مسجلة في مؤلفات شوليو ، طبع ١٧٧٤ الجزء الثاني ص٣٠٤ .
Piéce attribuée à J.B.Rousseau, et recueillie dans les Oeuvres de Chaulieu, éd. 1774.

الكبيرة، ومع أنها كانت تفقد رويداً رويداً الروح الحربي، وحب المغامرة التي جعلت منها قوة عظيمة في البحر والأرض يحسب حسابها، فإن هذا التبدل لايدل على فقرها بل على أنها تتمتع بغناها ورفاهتها. ومع ذلك فإن لديها وسيلة أخرى لتملأ بالذهب والفضة خزانتها: المصرف. إنها تمثل النموذج الأول للدول الرأسمالية، فماليتها لاتزال تغتني وتدعم.

وهذه الحركة المالية الواسعة تقتضي بطبيعة الحال أن تكون هولاندا وسيطة. فهي وسيطة في السياسة، ما دامت في حاجة إلى قارة متوازنة، إلى أوربا يسود ربوعها السلام. وهي أيضًا ملجأ وملاذ للأديان. فمن يبذل جهده لتبشير يهودي فهو مسيحي صالح، ولكنه ليس بالتاجر الماهر. فهولاندا ترعى حرية الضمير، أولاً لأنها تحملت الاضطهاد زمنًا طويلاً من جراء عقيدتها، ولأن تاريخها قصة كفاح أبطال في سبيل استقلال العقل؛ ثم إنه لايمكنك أن تجد تجارة أو مصرفًا، إذا طلبت من الناس شهادة بعمادتهم. ولذا فهي تسمح بقيام الكنائس، والمعابد اليهودية، إلى جانب معابدها. إلا أن هذا التسامح ليس مطلقًا، فإن المنازعات بين القسس تجبر السلطات على التدخل في الأمر؛ وهذه السلطات تحارب، أكثر منها في أي مكان آخر، المبادئ التي قد تؤدي إلى انهيارها. ولكن تلك الحرية، وإن كانت نسبية، جميلة نادرة.

وهولاندا وسيطة أيضًا بفضل جامعاتها. فحول منابرها تتجمع طوائف من طلاب العلم يقبلون من الشرق والغرب، من الشمال والجنوب، لسماع الأساتذة الذين تجد بينهم الفرنسيين والألمان فضلاً عن الهولانديين. «لقد نقابل فيها أناس وكتب وأفكار من مختلف البلاد، وحدثت فيها مبادلات فكرية لم يحدث مثلها في أي مكان آخر في ذلك الوقت ... ففي غضون القرن السابع عشر بأكمله وخلال فترة طويلة من القرن الثامن عشر، درس الانجليز والفرنسيون والاسكتلنديون

والدنمركيون والسويديون والبولانديون والمجريون، فضلاً عن عدد أكبر من مواطنيها، في جامعات أترخت وجرونتج وفرانكر وليدن ...[1]»

ولما فسخ أمر نانت كانت هولاندا على استعداد. وقبل ذلك كانت هذه الأرض المتسامحة الحانية معتادة أن تشاهد حضور الانجليز المنفيين من بلادهم، الملكيين في ظل نظام كرومويل، والجمهوريين تحت حكم شارل الثاني، في وسط كل هذه البلابل والثورات، كلما شعر انجليزي من ذوي المكانة أنه ليس في أمان، كان يلتجئ إلى هولاندا، كائنًا اسمه ما كان، سواء في ذلك شفتسبري، أو لوك، أو كولنز؛ وهناك كان ينتظر في سلام، انفراج العسر وصفو الأيام. ونحو عام ١٦٨٥ كان الهوجونوت الفرنسيون، قد أقبلوا يطرقون أبواب مدنها، فأكرمت وفادتهم وقابلتهم كعادتها بالعطف والترحاب. وبذلت جهدها حتى استطاعت أن توفر لهم المناصب في مصانعها، وفي جيوشها، وفي مدارسها. قبلتهم بين أهلها، لأنها كانت نفسها بروتستانتية، ولأنها كانت تكره سياسة لويس الرابع عشر، ثم لأنها كانت رحيمة وافرة الانسانية.

حينئذ حل وقت دورها الدولي الكبير. كانت أوربا التي تنشد تعبيراً لضميرها الذاتي، في حاجة إلى صحف تكون أوربية حقيقية؛ فأهدى الهوجونوت الفرنسيون هولاندا هذه الهدية الرائعة، مقابل ما قدمت لهم من حرية وكرم ضيافة. لطالما جرب الناس ذلك ولم يفلحوا أبداً لأسباب مختلفة. فصحيفة العلماء Le Journal des Savants-العميد المحترم- تبقى حبيسة في حدود فرنسا، بالرغم من جهودها المتكررة للاتصال بالتفكير الأجنبي. وصحيفة التقارير الفلسفية Philo-sophical Transactions كانت أميل إلى العلم منها إلى الفلسفة؛ وصحيفة le

(١)- ج، هويزنجا: في دور الوسيط الذي قامت به الأراضي الواطئة بين أوربا الشمالية والوسطى. ١٩٣٣،

J. Huizinga, Du rôle d'intermédiares joué par les pays-Bas entre L'Europe occidentale et l'Europe centrale

Giornale dei Letterati كانت تعوزها الحيوية واتساع الأفق؛ وصحيفة Acta Eruditorum في ليبزج كانت ثقيلة بالغة الصعوبة: والخلاصة أنه كان يوجد محل شاغر. وها هي ذي الصحف المرتقبة تظهر الان: تظهر في هولاندا. في شهر مارس عام ١٦٨٣ «أخبار جمهورية الأدب» Nouvelles de la République des lettres لبيير بايل؛ وفي شهر يناير عام ١٦٨٦ «المكتبة العالمية التاريخية La Bibiothéque universelle لجان كلير، وفي شهر سبتمبر عام١٦٨٧ «تاريخ مؤلفات العلماء» لباناج دي بوفال Basnage de Beauval . ثلاث صحف محررة بالفرنسية، كانت تبحث عن قراء أوربيين.

ولم يطل الانتظار حتى وجد القراء. يا للقلق الذي ينتهب المؤلفين، عندما يفكرون في أن صحيفة ستجود لهم أو ستضن عليهم -كما تشاء- بالمجد الذي يجتاز كل الحدود، المجد الذي يسري في كل البلاد، المجد العالمي! أي مؤلف لم يتمن معرفة الحكم عليه؟من منهم لم يلهج لسانه بالشكر، إذا اعتقد أنهم قدروا فضله؟ ومن منهم لايحتج إذا اعتقد أنهم حطوا من شأنه؟- «لدى من الأسباب ما يدفعني إلى الشكوى يا سيدي، من الطريقة غير الشريفة التي تتكلمون بها عنى في عدد. «أخبار عن جمهورية الأدب» شهر يوليو ... لاتنتهكوا مبادئ القانون، احتفظوا بمقاييس الشرف في صحيفتكم، وتشربوا مبادئ المحبة المسيحية ...[1]»- أو: «انهالت الطلبات على كتابي منذ ما كتبتم عنه في «أخبار، Nouvelles ديسمبر؛ لقد لقى التقدير سلفاً لدى علمائنا الذين يعتقدون أنه لم يوجد الرجل الذي يفوقكم نفاذاً إلي جوهر كتاب ليتفهمه ويقدر حق قدره[2]»- «منذ ما تشرفت بقراءة مؤلفاتكم، أعدها كأحد معابد الخلود المقدسة، حيث لايشغل مكان إلا باعتناء

---

(١) - من الأب دي فيل إلى بيير بايل، ٣١ اغسطس ١٦٨٦. L'abbé de Ville à pierre Bayle. Dans le Choix de la correspondance inédite de pierre Bayle,publié par Emile Gigas,Copenhague, 1890.

(٢) - من فرنسوا برنييه إلى بيير بايل، ٢٨ فبراير ١٦٨٦.

(٣) - دينس بابن Denis Papin إلى بيير بايل، ٢٦ يونيه ١٦٨٥.

كبير، تدعمه أهلية كبيرة ...[3]» غير أنه ما من نداء أشد تأثيراً مما وجهه «فيكو» Vicoذات يوم من نابولي إلى (جان لي كلير): إن الناس لم يقدروه في نابولي حق قدره، ولكن إذا شاء جان لي كلير، فسيكون اسم فيكو علماً في كل أنحاء أوربا[4].

إن النور يشع علينا الآن من الشمال ... وفي الشرق أيضاً تغيرات قيمة تعتمل. فبولندا التي أمضها الكفاح، وأرمضها الاسراف في البطولة بعد أعمال «سوبيسكي» الذي حاز إعجاب كل أوربا، تضنيها الانقسامات الداخلية. ولقد طالما علمت موسكو المدنية الأوربية: كانت تؤثر في جاراتها الخشنة بفضل آدابها، وعلومها، وفنونهارالجميلة، ونظرياتها السياسية: إلا أن موسكو أخذت تبحث عن نماذج أخرى. هذا بينما تنهار عظمة السويد، وتكون «بولتافا»، آخر ملحمة حربية لشارل الثاني عشر. وهكذا تفارق الشخصيات الرئيسية المسرح لتأخذ مكانها شخصيات أخرى. تواترت الأخبار في باريس- دون أن يلقى الناس إليها كبير اهتمام في بادئ الأمر- أن فردريك الثالث، منتخب براندنبورج، استولى على العرش في ١٨ يناير من عام ١٧٠١ في كونجسبرج تحت لقب فريدريك الأول ملك بروسيا. وترى ماذا يحدث في روسيا؟ إن أحد أولئك الأدواق الذين يدعونهم قياصرة، يريد أن يجعل من تلك الكتلة الآسيوية قوة متمدينة؛ ويلتمس الدروس في ألمانيا وفي المجر وفي هولاندة وانجلترا وفي فرنسا، حتى إن موسكو تتبدل من عام إلى عام: تبدلاً عاماً في الأخلاق والعادات، والبدع، وفي أصول الثياب؛ إن رحالة هولاندياً يدعى كورنيلوس فان برون، يستشف ببصيرته النفاذة هذه التبدلات، فيسرع في رسم الملابس المحلية لكي يحتفظ لها بالذكرى: «بما أن هذا

---

(١) - نيكوليني: خطاب من فيكو إلى جان لي كلير. مجلة الأدب المقارن، ١٩٢٩ ص٧٣٧.

E.Nicolini, Due lettere inedite di Giovanni Le Clerc. (Rev. de litt. Comparée, t.IX, anne´e 1929, p.737).

التبدل يستطيع أن يمحو كل شيء مع الزمن، حتى ذكرى الملابس المحلية القديمة، فقد رسمت ثياب الفتيات على القماش ... » إن الشعوب القديمة تتعجب، وتعجب بالقوام الهائل الذي يتبدى فيه بطرس الأكبر، امبراطور الروسيا.

ولكن ظهور هاتين القوتين العظيمتين لايتعلق إلا بالمستقبل: فإن بروسيا والروسيا لن تعملا في ميدان الفكر إلا بعد ذلك الوقت. أما في هذه الآونة فالواقع الأساسي هو التالي: إن سيادة الفكر لم تعد لاتينية محضة؛ إن انجلترا تطالب بتقسيم النفوذ؛ إنها تعي قيمتها، وتنادي بمجدها الذاتي، بل هي تشعر نحو اللاتينيين من بورتغاليين وإيطاليين واسبان وفرنسيين، باحتقار تحاول عبثًا أن تخفيه؛ إن هم في نظرها إلا عبيد. يمتدح شافتسبري السياسة الانجليزية فيقول: «أما نحن البريطانيين فلدينا -شكراً للسماء- فكرة أصح عن الحكومة، فكرة ورثناها من تقاليد عريقة في القدم. إننا ندرك فكرة الشعب وفكرة الدستور، ونعرف نظام السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية. . وإن المبادئ التي نستبطها من ذلك لبديهية كمبادئ الرياضيات وهذه المعرفة التي تزداد تدريجيًا، تبين لنا يومًا فيومًا، قيمة «الادراك السليم» في ميدان السياسة، ولابد من أن يصل بنا ذلك إلى إدراك قيمته في مجال الأخلاق، التي هي أساسها»[1]. بينما يشيد «أديسون» في موازنته بين انجلترا وإيطاليا بفكرتها عن الحرية: « ماأجملك يا إيطاليا! ... لكن ما جدوى بسمات الطبيعة، ومفاتن الفن، بينما يسودك الطغيان والظلم؟ إن السكان التعساء يتطلعون بغير طائل إلى البرتقال الذي يتلون بلون الذهب، وإلى الحب الذي يزكو ويطيب، ويشمون عبثًا أريج الريحان الذي يتضوع: إنهم يموتون جوعًا وسط حقولهم الخصبة، ويموتون عطشًا وسط كرومهم الوارفة ... إيه أيتها الحرية! إنك تجعلين البؤس سعادة، أنت التي تعطين للشمس بهاءها، وللنهار لذته ومتعته. إن

(١) - شافتسبري، ١٧٠٩ Freedom of wit and humour

الحرية إلهة انجلترا، التي لاتحسد مزايا إقليم مناخه أصلح للإنسان، فإنه يقتضيها ثمنًا غاليًا. إنك تجد الحرية على صخورها العارية الجرداء. فليحب الآخرون القصور، واللوحات، والتماثيل؛ أما واجب انجلترا فهو رعاية مصير أوربا، وتهديد ملوكها المزهوين، والاصغاء إلى شكاة جيرانها التعساء... [1]

قال دانيل لاروك «كلما رأيت الانجليز ازداد إعجابي بهم؛ إنهم، في العموم، يفوقوننا في كل شيء.»[2] إن لهم على الأقل قيمة وحسابًا؛ إنهم على الأقل يؤيدون قوتهم؛ إنهم على الأقل يمثلون فكرًا جديدًا. - ترى أي فكر؟

---

(١)- أديسون: خطاب من ايطاليا إلى الرايت أونورابل شارلس لورد هاليفاكس، ١٧٠١ Addison, Aletter from Italy, to the right honourable Charles lord Halifax, in the year 1701.

(٢) - دانيل لاروك: رسالة إلى بيير بايل، ١٢ يوليو ١٦٨٦. Daniel Larroque à pierre Bayle, 12 juillet 1686

الفصل الرابع
الأتورودكسية (١)

حدث في عام ١٩٧٨ أن دخل «بوسويه» Bossuet في مناقشة مع القسيس البروتستانتي «كلود» Claude، أثارتها مدام (دي ديراس) Mme de Duras التي تتردد بين المذهب البروتستانتي الذي توشك أن تتركه، وبين المذهب الكاثوليكي الذي تريد أن تعتنقه؛ وكان الزعيمان يتواجهان، ويجاهدان خطوة فخطوة، من جهة لامتلاك روح، ومن جهة أخرى في سبيل حقيقتهما، وإيمانها. فلما وصلا إلى حقوق الضمير الفردي، بدأ بوسويه يضيق الخناق على كلود: — إلى أي مدى تصل تلك الحرية التي يطالب بها السادة دعاة الكنيسة المجددة؟ أليس لها أي حدود؟ أكل فرد إذن، كل امرأة، كل جاهل مهما كان، يستطيع أن يعتقد، ويجب أن يعتقد، أنه يمكنه أن يدرك كلمة الله أكثر من مجمع بأجمعه، ولو اجتمع من جهات العالم الأربع، وأكثر من باقي الكنيسة؟ فأجاب كلود: نعم إنه لكذلك[٢].

---

(١) - الأتورودكسية Hétérodoxie عكس الأورثوذكسية، والأرثوذكسية هي موافقة الاعتقاد الديني السائد. [المترجمان]

(٢) - بوسوية: محادثة مع السيد كلودتتعلق بعصمة الكنيسة، عام ١٩٨٢ ويشرح كلود أسبابه في كتابه «رد على كتاب السيد أسقف مو Monsieur L'Eveque de Meaix المعنون محادثة مع السيد كلود» ١٦٨٣ ص ٤٨٥ فيقول: يقول ذلك الأسقف إنه -بحسب ما قلنا- فكل فرد مهما كان جاهلاً يجب عليه أن يدرك كلمة الله أكثر من المجامع العالمية، ومن كل الكنيسة بأجمعها، وهذا القول يؤخذ على محملين: أولهما أن كل فرد مهما كان جاهلاً ملزم بأن يعتقد أنه يدرك كلمة الله أكثر مما تدركها المجامع العالمية الحقيقية المكونة من قوم من الأخيار الأبرار، من رجال أتقياء، علماء حكماء، مجتمعين باسم المسيح. وثانيهما أن كل فرد مؤمن، وهبه الله الروح القدس، ملزم بأن يعتقد أنه يمكنه أن يدرك كلمة الله أكثر مما تدركها المجامع العالمية الكاذبة، المكونة من أشخاص دنيويين .. =

عندما انتقل الخلاف الأبدي بين السلطة والحرية إلى ميدان الدين، بلغ عنفوانه، إذ تعارضت أشد التعارض وأقساه، المبادئ التي على الناس أن يختاروها لتوجيه الحياة. كلود وبوسويه، بطلا قضيتين متعارضتين، عظيمان بين العظماء، يدافعان أمام روح عليها أن تقرر نصيبها بنفسها، أمام فرنسا، أمام أوروبا -الأول عن حق التفكير بلا إلزام، عن حق الفحص بغير تقييد أو تحديد، عن حق تغليب أحكام الضمير الفردي على الارتضاء العام؛ بينما يدافع الثاني عن إرادة التفكير المشترك، عن السعادة في طاعة نظام قد قبله الناس قبولاً نهائيًا، وعن ضرورة الاعتراف بسلطة لتسيير ركب الحياة.

في ذلك التاريخ، كان كلود يدافع عن قضية تبدو كأنها خاسرة، وبوسويه يدافع عن قضية ظافرة. كانت الأثوردكسية hétérodoxie(معارضة الأورثوذكسية) تتقهقر، وكان مذهب لوثر الألمانيLuthéranisme يضعف ويتعثر، باعتراف زعماء البروتستانت، وكانت البروتستانتية الانجليزية في خطر، يهددها الكاثوليك أعوان أسرة ستيوارت من جهة، والمخالفون من كل لون من جهة أخرى. كان أعداء الانقلاب الديني La Réforme[1] قد استردّوا شطرًا كبيرًا من وسط أوروبا، ولم يكن الجيزويت أنصار النظام والطاعة، أعظم مما كانوا في ذلك الحين.

= نفعيين، منافقين، أي من أشخاص لم يمن الله عليهم بالروح القدس، وأكثر مما يدركها كل أولئك الدنيويين مجتمعين، وإن كانوا يخلعون على أنفسهم كذبًا اسم الكنيسة.

أما المعنى الأول فهو عبارة عن ادعاء محض يرفضه البروتستانت. وأما المعنى الثاني فيتضمن حقيقة من، البداهة والوضوح، بحيث لا يستطيع بوسويه أن ينتصر عليها بأية حال.

(١) - La Réforme: حركة دينية بدأت في أوائل القرن السادس عشر وحطمت الوحدة الكاثوليكية بخروج بلاد شمال أوروبا على الطاعة التقليدية للكنيسة، وللبابا على الخصوص. وكان جان هوس من المبشرين السابقين بهذه الحركة التي عززتها الهزة العميقة التي شعرت بها العقول نتيجة للنهضة. وفي ألمانيا كان بطلها مارتن لوثر الذي التجأ إلى فارنتبورج ومن هناك نظم الحركة ضد الكاثوليكية الرومانية. وفي ١٥٣١ جاء جان كالفين إلى سويسرا عقب فراره من فرنسا، يبشر بالمذهب الجديد، الذي ينكر ألوهية المسيح ولا يعده إلا نبيًا وينصح بالرجوع إلى المسيحية الأولى، ومبادئ العهد القديم، وينكر التقاليد الدينية والمراسيم وينسب للسلطة مصدرًا ديموقراطيًا. واشتهر الفرنسيون التابعون لكالفين باسم الهوجونوت. وهذه الحركة يتكلم عنها الكاثوليك على أنها «انقلاب» ويتكلم عنها البروتستانت بحسبانها إصلاحًا. [المترجمان]

إن فرنسا، أكثر البلاد منطقًا، وأقواها إرادة وتصميمًا إذا تعلق الأمر بالأفكار، قد افتتنت بهذا الميل إلى الوحدة الكاملة. إن ملكًا عظيمًا أحال المسألة السياسية المعقدة إلى مبدأ بسيط يشعر بشيء من الألم والضيق، ويعتقد أنه لم يتم رسالته بعد، طالما يبقى في أعماق القلوب انقسام وتشتيت، وطالما تبقى أقلية تتبع دينًا عاصيًا. كان الحلم الذي يراود خيال لويس الرابع عشر: تنظيم كل شيء حتى العقيدة، وتوحيد كل شيء حتى الإيمان، والقضاء على البروتستانتية حتى لا تبقى إلا كنيسة واحدة في دولة قد نظمت أحسن تنظيم. فحاول أن يقضي علي الدين الذي يزعمونه مصلحًا، بالمجادلة والهداية في أول الأمر، ثم رويداً رويداً بالقوة. كان البعض يقولون له، وكان يجد رضا في التصديق، إن الانقلاب الديني الذي خرب فرنسا فيما سبق بالحديد والنار، لم يجرد من السلاح ولم يضعف فحسب، بل خارت قواه، واقترب من نهايته المحتومة. كتب الأب مامبورج le P. Maim-bourg في مؤلفه تاريخ مذهب كالفين Histoire du calvimisme إنه لا تزال أمامنا خطوة أخرى «وحينئذ سيخمد قريبًا ذلك الحريق المشئوم الذي جر على فرنسا كثيراً من التخريب، والذي لا يتبقى منه اليوم إلا دخان طفيف. ولما كنا جميعًا يربطنا في الملكية المسيحية قانون واحد يلزمنا جميعًا بالخضوع لملك واحد جاد به الله علينا، فانى كبير الأمل في أن يربطنا أيضًا إيمان واحد». ولما كانت فرنسا تعطي مثالاً يحتذى، ولما كانت نموذجًا لأوروبا به يقتدى، أفلا يفكر الناس أن إنجلترا قد ترعوي وتهتدي إلى الكاثوليكية بدورها؟ كان الأب مامبورج يستشف ذلك الانقلاب!- «لي أمل أنه ذات يوم، سيبدد الله بنور نعمائه الظلام الذي قد نشره انشقاق مشئوم، أعقبه كفر، على انجلترا منذ قرن أو يزيد، وسيضيء عيون الانجليز من جديد بشمس الحقيقة التي ستجمع كل العقول في طريق الإيمان، الذي علمهم إياه القديس جريجوري الكبير». هكذا كان يفكر الجميع، إنه بفضل «الملك المجيد المسيحي جداً». سيرد إليهم الكساء الجميل الذي كان يرتديه المسيح، وبذا يتحقق انتصار الأورتودوكسية.

لما فسخ لويس الرابع عشر في شهر أكتوبر ١٦٨٥ أمرنانت، كان في ذلك مطابقًا ومطبقًا لمبادئه. إلا أنه لم يكن مخلصًا للروح المسيحية؛ فإنه أخطأ في تقدير طبيعة الضمير البشري. إن الضمير البشري لا يحتمل الشدة، وهذا سر نبله وعراقته، سر عظمته. إن شدة الطغيان لا تدفعه إلا إلى العصيان. لذلك قلما تجد من الأحداث ما كان أحسم وأحفل بالنتائج التي تؤثر في المستقبل مثل فسخ أمرنانت. وعلى قدر ما نستطيع أن نتوقف عند تاريخ، لنسجل حركات التفكير، فإنه لمن الصواب أن نقول إن سنة ١٦٨٥ تسجل أوج انتصار الهجوم على الانقلاب الديني، أما بعد ذلك فيأتي الجزر.

* * *

أما في الخارج فيا للضجة التي تعالت، ويا لصيحات القتال التي دوت! إن الثورة الانجليزية التي نشبت في عام ١٦٨٨ لم تكن سياسية فحسب، بل دينية أيضًا. وإن انتصار وليم أورانج لم يكن فوزًا للبرلمان فحسب، بل كان ظفرًا للاصلاح الديني أيضًا. ولم يجد الناس في شخصه الذائد عن حقوق الشعب فقط، بل منقذ الدين، بطل البروتستانتية. كذلك لقد كان لويس الرابع عشر، في نظر بلاد الشمال قاطبة العدو الأكبر، عدو الإيمان الحر؛ فكانوا يرددون أن فعلته كانت الدليل القطعي الظاهر، والرمز البين لحكمه الظالم، وجوره ووحشيته وجبروته، واحتقاره لحقوق الإنسان؛ إن الميكيافيلي Machiavel[1]، ذلك االوحش[2] ذلك الدجال An-

---

(١) – مكيافيللي: صاحب كتاب «الأمير» و«فن الحرب» يتلخص مبدؤه في أن الغاية تبرر الوسيلة وقد صار عنوانًا للرجل الذي لا يعرف وخز الضمير، والذي يخرق العرف ويخرج على الأخلاق في سبيل تنفيذ مآربه السياسية، ١٤٦٩-١٥٢٧. [المترجمان]

(٢) – La Bête de L'Apocalypse: الوحش المذكور في رؤيا يوحنا بالانجيل «ثم وقفت على البحر. فرأيت وحشًا طالعًا من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان وعلى رؤوسه اسم تجديف، والوحش الذي رأيته كان شبه نمر وقوائمه كقوائم الدب. وفمه كفم أسد...» (انجيل يوحنا، الاصحاح الثالث عشر). [المترجمان]

téchrist[1]، لا يكفي بأن يفرض على العالم قوة السلاح، ولا يقنع بفتوحاته وسياسته القائمة على المداهنة والنفاق، بل يصبو إلى السيطرة على الأرواح، ويروم إحلال قوانينه محل نداء السماء! وقد بلغ من قوة هذه المذمة أن وصل صداها إلى العالم الجديد. يقول بنيامين فرانكلين إنه قد سمع في صباه، قوماً في كنيسة في فيلادلفيا يلعنون «ذلك العجوز الرجيم، مضطهد شعب الله، لويس الرابع عشر[2]» أي بذرة تنبت البروتستانتية في أوروبا، أولئك الفرنسيون المطرودون من فرنسا! كانوا يشهدون العالم على ما عانوا من عذاب وما حاق بهم من سوء. لقد ظلوا سنين وسنين يطاردون كالوحوش، ولما كانوا قد رفضوا أن ينكثوا اليمين، فقد عوملوا معاملة المجرمين. وكانت قلاع المعارضة لا تقتصر على جنيف وبرلين، وبودابست بل كان هناك أيضاً ملجأ هولاندة وانجلترا حيث عشرات الكنائس وآلاف المؤمنين. وكان أولئك الفرنسيون الأقوياء ذوو العزم الشديد، الذين اعتادوا المقاومة والجهاد منذ أمد طويل، يضعون في خدمة الاصلاح الديني» قوات عديدة: هيبة أولئك الذين يحتملون العذاب في سبيل الإيمان، وبداهة الظلم المبين الذي عانوه، وقوة جدالية كلها حياة وحيوية، وقدرة طائفتهم على الاقناع، وسخطاً جنونياً مدى الحياة ثم يورثونه نسلهم من بعدهم.

كم تغير صوت القسيس كلود، بعد ما فسخ لويس الرابع عشر الأمر المشهور! يعلن كلود أنه قد مضى الزمن الذي كان المرء يستطيع فيه أن يقارع الدليل بالدليل، والسبب بالسبب، وإذ لم يكن الظفر إلا في سلامة النية. فانظر كيف خدعوه، ومن معبده اقتلعوه، وكيف أجبروه على أن يأخذ طريق المنفى في بحر أربع وعشرين ساعة. يا للذكريات الأليمة! لقد أقبلت الجنود، وطوقت الطرق ومنافذ المدينة، حيث نصب الحراس، ثم أخذوا يتقدمون وسيوفهم مشرعة

---

(١) - الدجال L'Antéchrist أو النبي الكذاب المذكور في رؤيا يوحنا اللاهوتي سالفة الذكر، الذي سيظهر قبل يوم القيامة ويغرق الأرض في الاجرام والدم، حتى انتصار المسيح. [المترجمان]

(٢) - مؤلفات بنيامين فرانكلين، طبعة شمت، الجزء السادس ص ٨٦. Writings of B. Framklin, éd. Smith, tVI

صائحين: «القتل... ! القتل! أو الكثلكة! وبين صيحات السباب والانتخاب، أخذوا يشنقون الناس، رجال ونساء، من الشعر ومن الأقدام، على أسقف الغرف أو منحنيات المداخن. وكانوا يعذبونهم باستنشاق دخان القش المبلول، وينتفون شعر اللحى والرؤوس؛ وكانوا يلقون بهم في نيران أشعلت خصيصاً لهذا الغرض، ولا يخرجونهم منها إلا نصف مشويين، وكانوا يغللونهم بالحبال، ثم يغطسونهم في الآبار، ولا يخرجونهم منها إلا بعد وعد بتغيير الدين...» هل كان ملك فرنسا يجهل أن الإيمان ينزل من السماء ولا صلة له بسياسة البشر؟ وأن وسائل الالزام لا تؤدي إلا إلى خلق الكفار أو المنافقين، وأنها تزيد المخلصين صلابة وثباتاً يتغلبان على كل عذاب مبين؟ ألا يدرك أن في استعمال تلك الأساليب خروجاً على قانون دول أوروبا؟ وأنه بخرقه وعد أسلافه والثقة العامة هذا الخرق الفاضح، لن يثق الناس فيما بعد بوعد يقطعه أو ميثاق يبرمه[1]!

هكذا أخذ عدد كبير من قساوسة البروتستانت يستنزلون اللعنات ويبكون بكاء اليهود على شواطئ بابل[2]! نذكر منهم جاك باناج، جاك سوران، J. Saurin، إيلي بنوا Elie Benoist، اسحق باكلو Isaac Jaquelot. ولكن إذا أردنا أن نعرف إلى أي حد وصل الغضب العاصف، فينبغي أن نصغي قليلاً إلى كلام بيير جوريو. PierreJurieu كان مفطوراً على الشغف بالمجادلة، ولكنه كان يتجمل بالصبر طالما هو يبقى على أرض فرنسا: فلما نفى، جن جنونه. وأخذ يقول في

(١) - شكوى البروتستانت المنفيين من مملكة فرنسا، ١٩٨٩.

(٢) - يقصد تشبيه البروتستانت المطرودين من فرنسا باليهود المسبيين إلى بابل عقب غزو ملك الكلدانين لأورشليم: «فكانوا يهزءون برسل الله ورذلوا كلامه وتهاونوا بأنبيائه حتى ثار غضب الرب على شعبه حتى لم يكن شفاء. فأصعد عليهم الكلدانين فقتل مختاريهم بالسيف في بيت مقدسهم. ولم يشفق على فتى أو عذراء ولا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده. وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعاً إلى بابل وأحرقوه بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة، وسبى الذين نجوا من السيف إلى بابل...» العهد القديم، أخبار الأيام الثاني، الاصحاح ٣٩. [المترجمان]

هذيان المحموم، ما يقوله الآخرون في أسلوب رزين؛ وكان يوقع نفسه في الخطأ بتهوره وتخريفه: إلا أنه يلتمس له العذر فقد كان مدفوعاً بتلك المشاعر التي لم يتفرد باحساسها. كان يقف كالحارس من فوق الأسوار، محتجاً ضد البابوية، ومجمع ترانت، وممتدحاً الاصلاح الديني، ومشجعاً المخلصين على المقاومة، داعياً إياهم ألا يذعنوا للقوة، باعثاً إليهم برسائل للارشاد، كما كان يفعل رهبان الكنيسة القديمة مع المسيحيين الواقعين تحت نير الاضطهاد. وكان يتنبأ، قائلاً أنه لن يبعد اليوم الذي ينتهي فيه حكم «النبي الكذاب» وإن مملكة الشيطان ستؤول إلي الدمار، وإن الكنيسة الحقة ستستعيد تاج المجد والفخار. سينتهي الأمر في عام ١٧١٠ أو على الأكثر في عام١٧١٥ . إذ يعود البروتستانت إلى فرنسا ظافرين. ولم يعد من يصدقه، ويتبعه، ويناقش مواعيد ذلك العود السعيد: فنحو عام ١٧٢٠ أو ١٧٣٠ سيسترجع المنفيون أورشليم. -. ولم يكتف بما أبداه من صياح وجنون وهذيان، بل التحق بخدمة منتخب براندنبورج وملك انجلترا ضد فرنسا؛ ودبر عصيان البروتستانت في مختلف أنحاء المملكة، ونظم حركة جاسوسية ضد بلاده، فكان يرسل الجواسيس ويستقبلهم ويدفع أجورهم. وانزلق جوريو من حقد إلى حقد، حتى سقط إلى هذا الدرك، الذي بقي يمثله إلى أن مات في ١٧١٣ .

* * *

إن الروح الحقيقة في الصحف الفرنسية في هولندة، الروح التي نسعى إلى شرحها بالذات، هي أنها غير موافقة للدين القائم، إنها تنادي بصوت الأثورودكسية.

لا شيء في صحيفة «أخبار جمهورية الأدب» يتعلق بالمسرحيات أو القصص أو الأشعار، ومثلها في ذلك «المكتبة العالمية». وإذا كانت صحيفة «تاريخ مؤلفات العلماء» قد شرعت تخصص حيزاً للأدب، فهي إنما تفعل ذلك في انطواء وخجل. حقاً، إننا سنرى تقدماً، وسنرى الاستعلام يزداد على مر السنين، بازدياد ثروة

انجلترا من الأدباء ذوي الموهبة والعبقرية، بيد أن الذي كان يهم تلك الصحف قبل ١٧١٥ لم يكن الأدب بل التفكير. إن هؤلاء الصحفيين من خريجي المدارس الأكليركية البروتستانية؛ فلا يكادون يسمعون أحداً يتحدث عن الأخلاق أو المذاهب حتى يبلغ بهم التأثر كل مبلغ، فتلك هي اللغة التي درسوها في مجامعهم، وبذا يتذكرون علومهم وتفكيرهم، ويجدون علة كيانهم Leur raison d' être . فيشرعون اليراع وينكبون على الكتابة في تلك الموضوعات المألوفة لهم. ولا يذهبن بنا الظن إلى أنهم هواة فن، يبادرون إلى كشف روائع الجمال ليقدروها كفنانين، فما كان لهم بالجمال اهتمام. أما ما يثير فيهم الوحي والالهام فهو روائع أرنو ونيكول M. Arnaud, M. Nicole وتفسير ريشارد سيمون؛ وفيما يخص الانجليز أبحاث إسحاق بارو Barrow، وتوماس براون، جلبرت بورنت G. Burnet، وهنري دودويل Dodwell. وبينهم وبين أولئك المؤلفين قياس مشترك: إنهم يفهم بعضهم بعضاً، ويتفاهمون حتى في غمار المجادلة الشائقة، خبزهم اليومي. فمذهب جانسينيوس[1] أو مذهب مولينا[2]، الاختيار أو القدرية، والعناية الإلهية أو القضاء والقدر، ذلك كان مجالهم. وقاعدة «الوحدات الثلاث»[3] تبدو لهم أقل أهمية من التفسير الفلسفي للعالم. وهم ليسوا جوابي أرض بفطرتهم، بل ينتمون إلى طائفة أخرى غير طائفة السائحين والشاردين: طائفة ذات همة وحمية، تضم مفسري الكتب المقدسة، وآباء الكنيسة، والملحدين، وفلاسفة النهضة، وقادة الانقلاب الديني، وقضاة محاكم التفتيش، وأعضاء مجمع ترانت، والأحياء الذين يهاجمونهم، كالأب مامبورج، وفرانسوا لامى، وبوسويه: طائفة اللاهوتيين.

---

(١) - مذهب جانسينيوس: أنظر بيان ص ٣٩.

(٢) - لويس مولينا: يسوعي اسباني ولد ١٥٣٥ في كوينكا صاحب المذهب الموليني الذي يقول بالتوفيق بين النعمة الإلهية والاختيار وهو مذهب حرمته الكنيسة. [المترجمان]

(٣) - أي وحدة الحركة والزمان والمكان: قاعدة الأدب الكلاسيكي الفرنسي التي تقتضي أن تمثل المسرحية: ١) موضوعاً أساسياً واحداً؛ ٢) وتحدث في مدى يوم واحد؛ ٣) وفي بناء واحد أو على الأقل مدينة واحدة.

كانت المهمة الأولى لصحفي هولاندا، أن يعملوا على احتفاظ الروح التي تحرك الاصلاح الديني بقوتها وحيويتها. إنهم يواصلون عمل آبائهم الهوجونوت، مضاعفين إياه، ومضفين رنة جديدة عليه، بيد أنه لا فرنسا ولا روما يخفى عليهما ذلك، وبالرغم من محاولات بايل لاجتذاب السلطات، بل حتى مداهنة السلطة الملكية، فقد صودرت صحيفته في باريس وحرمت في روما. هيا ننظر عن كثب إلى جان لي كليرJean Le Clerc مؤلف «المكتبات» الثلاث: إنه رجل لا يفرغ. لا تموت صحفه إلا لتبعث من جديد، ويتغير الناشرون وهو يستمر ويسير، تتراكم الكتب فيجد في ذلك سعادته، ويشكو التعب ويجد في ذلك متعته. ويضيف إلى إنتاجه الصحفي كتلة من المؤلفات؛ إنه يمثل نموذجاً، معهوداً في ذلك الوقت، نموذج العلماء الذين يقضون الليل في الكتابة، بعدما كتبوا طوال النهار: وإلا فكيف يتركون مثل هذا العدد من الصفحات، إذا لم يكن الأمر كذلك؟ إن له مؤلفات عميقة في العلم، والنقد، والتفسير، والفلسفة، والتاريخ. وقد طبع ونشر إيرازم وجروسيوس، وترجم الكتاب المقدس. هذا فضلاً عن أعمال أدبية مختلفة، من كل نوع، حتى مراجعة قاموس موريري...

ولكنه لم يتغير على طول الطريق الحافل بالنشاط. لم يكن جان لي كلير رجل أدب، فإن أسلوبه خال من كل المحسنات، ويبدو كأنه لا يلتفت أبداً إلى جرس الكلمات، قانعاً بغزارة المعلومات. إنه يعلم ويؤثر. لقد درس في جينف حيث درج، والتحق بجامعة سومير، وخدم في كنيسة فالون، ثم في كنيسة سافوا بلندن؛ وأخيراً أقام في أمستردام حيث كان خلال سبعة وعشرين عاماً مدرساً للعلوم الفلسفية والإنسانية وللغة العبرية، بجامعة أرمنيوس في هذه المدينة. «لقد درس ثلاثة أشياء: الآداب والفلسفة واللاهوت...» وأعني بالآداب دراسة اللاتينية واليونانية والعبرية، أي معاونات الفلسفة واللاهوت. ذلك دأبه في حياته، وفي كتبه، وفي مجلاته: يستغل كل ظرف ليتناول المسألة الدينية ويشرحها حسب طريقته. «كان يجهل سر اجتذاب الاعجاب، وسر التعليم،

وهو ما يفوق العلم بمراحل ...[1]». ذلك لأنه لم يجر وراءه، إذ أنه لم يكن يريد-على حد قوله في مقدمة مؤلفه «المكتبة القديمة والحديثة»- أن يسلي القارئ، بل أن يعلم الحق والفضيلة.

وما كان الأمر يختلف فيما يخص الكتب التي تنشرها هولاندا بوفرة؛ «لا يوجد في الأرض كلها إلا عشر مدن أو اثنتا عشرة مدينة يطبع فيها عدد وفير من الكتب. ففي انجلترا: لندن وأكسفورد، وفي فرنسا: باريس وليون، وفي هولاندا: أمستردام وليدن وروتردام ولاهاي وأوترخت، وفي ألمانيا: ليبزج: ، وليس هناك غيرها تقريباً[2]. » خمسة مراكز للطباعة في هولاندا، بينما لم يكن في انجلترا وفرنسا إلا مركزان في كل منهما، تلك لعمري نسبة رائعة. وكان في أمستردام على ما يقال، أربعمائة طابع أو ناشر. ولم يكونوا هولانديين فحسب، بل منهم الألمان، والفرنسيون، والانجليز، واليهود. وكان بينهم ذو العقول الممتازة، الذين لم يقتصر اهتمامهم على الناحية التجارية، لكن كان بينهم أيضاً المزورون المنتحلون. فإن «صحيفة العلماء» المؤرخة ٢٩ يونيو ١٦٨٢ تحتج على «انتحال لبعض أصحاب المكاتب في أمستردام، يتعلق بتزوير فاضح». وذلك لأنها لم تكن قلدت فحسب، بل شوهت في هولاندا أيضاً. فيحتج بايل في عام ١٦٩٣ قائلاً «ذلك نهجهم، فهم لا يعطون شيئاً للمؤلف، لاسيما إذا لاح لهم إمكان نشر الصورة في باريس؛ فهم يحتفظون بحق تقليدها هنا، دون أن يكلفهم ذلك شيئاً بالنسبة للمؤلف ... »

بتلك الوسائل، كانت الكتب سريعة التكاثر: ما تجده منها في أماكن أخرى، وما لا تجده على الاطلاق. إن المنسوخات التي تتميز بشيء من الجسارة لم تكن

---

(١) - فولتير، «عصر لويس الرابع عشر»، جدول الكتاب الفرنسيين Voitaire, siécle de Louis XIV.

(٢) - شهادة مؤرخة ١٦٩٩، يذكرها هـ. ج. ريسنك H. J. Reesink (انجلترا والأدب الانجليزي في المجلات الفرنسية الثلاث الأقدم في هولاندا، ١٩٣١، ص ٩٣) L'Angleterre et la littérature anglaise dans Les trois plus auciens périodiques français de Hollande, 1931.

لتجد ناشراً في فرنسا، إلا بفضل إغضاء السلطات، الذي هو من طبع البلد، وكان نشرها في إيطاليا أشق وأصعب، أما في إسبانيا والبرتغال فكان المشروع ميئوساً منه تقريباً. وعلى العكس من ذلك كان الكتاب الذي تمنعه الرقابة وتصادره السلطات، تتهيأ له في هولاندا سبل الحياة، ويجد الطابع والناشر اللذين يهيئان له سبل الانتشار، والاشتهار. قال فنيلون عندما أرسل إلى بواتو ليعظ المهتدين الجدد، إنه ينبغي أن ننشر لهم بحوثاً في تقريظ الكاثوليكية، ممهورة بعلامة مزورة لمدينة من مدن هولاندا: فإن تلك العلامة لابد أن توحي بالثقة إلى نفوس القراء، الذين ما فتئوا متأثرين بالروح البروتستانتي. أما أن كاثوليكيا مثل أرنو يسمح لنفسه بطبع مؤلفاته في هولاندة، فهذا ما يراه جوريو إهانة، بل خيانة؛ فقد كان يرى هولاندة أرض القديسين، قلعة الله، التي ينبغي أن تبقى محرمة على البابويين؛ فلتبق لفرنسا كتب الكاثوليكية، ولتكن لهولاندة كتب الاصلاح. لذلك كان للمتحررين الفرنسيين حسابات جارية في لاهاي: حيث حرية الفكر مكفولة: وحيث يتحرر المؤلفون من طغيان المبادئ السياسية والعقائد الدينية، فلم يكن بد من أن يتخذ منها كل فكر حر منهلاً ومورداً.

وكانت الكتب المحرمة والكتب المصادرة والكتب الملعونة تدخل فرنسا الكاثوليكية تحت حكم لويس العظيم، بطريق التهريب، رغم كل ما اتخذ على الحدود من تدابير. وكانت تخفي بين أمتعة المسافرين، وتمر عن طريق مدن الشمال أو ثغور المانش، حتى تصل إلى باريس، فاحتج المدافعون عن الأورثوذكسية، كما كان متوقعاً. لقد عرف محرو «مذكرات تريفو[1]» les Mémoires de Trévoux وكانوا خير حفظة عليها، أن رقابتهم الساهرة كثيراً ما تنخدع. «عنوان مؤثر جليل، وورق مصقول، وحروف جميلة وصور لطيفة، تلك زنية الكتاب، وهي دائماً رائعة في هولاندا. وإنه لشعار جميل وإن كان لا يدل دائماً على على جودة

(١) - مذكرات تريفو: مجلة أدبية انتقادية أسسها اليسوعيون في فرنسا (تريفو) للمجادلة ضد المدرسة الفلسفية. [المترجمان]

البضاعة، وذلك شأن ما يرد عن هذا البلد بطريق التهريب[1]». ويقول بوسوية Bossuet «أتانا من زمن قريب من هولاندا كتاب تحت عنوان: «تاريخ نقدي لأهم مفسري العهد الجديد» Histoire critique des principaux Commetateurs du mouveau Testament للقسيس ريشار سيمون R. Simom. وهو أحد الكتب التي لا تستطيع أن تلقى تأييداً في الكنيسة الكاثوليكية، وبالتالي لا تجد تصريحاً لتطبع بيننا، ولذا فهي لا تستطيع أن تظهر إلا في بلد يسمح فيه بكل شيء، وبين أعداء الإيمان. ومع ذلك، فبالرغم من حكمة الحكام ويقظتهم، فإن تلك الكتب تتوغل بيننا رويداً رويداً؛ إنها تستشري، فرن الناس يتبادلونها سراً، وما يجعلها جذابة مرغوبة، هو كونها نادرة، غريبة، مطلوبة، أوالأحرى كونها ممنوعة ...[2]».

ولم تنفرد هولاندا وحدها بنشر كتب عدائية ضد لويس الرابع عشر وضد روما، فقد كانت سويسرا وألمانيا تنتجان مثلها، ثم انجلترا حيث كثرت تلك الكتب، لأن الانجليز، كما يقول ريشار سيمون، بحاث عظام في ميدان الدين. حتى إن الأتورودكسية أصبحت تكتنف فرنسا، من جنيف إلى لندن. ،كان الدور الذي أنيط بالهولانديين، وأكثر منهم بالهوجونوت اللائذين لهولاندا، أن يدخلوا تلك المشاعر وتلك الأفكار المتمردة حتى قلب فرنسا نفسها.

وكان الشقاق يستفحل. قال فنيلون «يا له من حكم قاس بالانفصال، أوقعه الله على الأرض في القرن السابق! فإن انجلترا، بتحطيمها رابطة الوحدةالمقدسة التي تستطيع وحدها أن تكبح جماح العقول، قد أوقعت نفسها في وهم كبير. إن ألمانيا والدانمرك والسويد وشطراً من هولاندا، فروع اقتطعها السيف المنتقم، ولم يعد لها بالشجرة القديمة أي اتصال ...[3]. ولم يكن لفسخ أمر نانت من أثر إلا أن

---

(١) - فبراير ١٧١٩، المادة الخامسة عشرة.

(٢) - دفاع عن تقاليد الكنيسة وعن الآباء القديسين، مقدمة (طبع لاشا، ص ٨) Défense de la tradition et des Saints Péres, Préface Es. Lachat, P.8.

(٣) - فنيلون: موعظة لمناسبة «عيد الظهور» ٦ يناير ١٦٨٥، Fénelon, Sermon pour, la fête de L' Epiphamie.

يزيد حكم الانفصال قوة وبريقًا. لقد سجل إحياء محالفة فكرية أخلاقية لن يبطل لها نشاط، حتى عندما توقع جيوش أوروبا عهد السلام. قال ليبتنز «الآن، يواجه الشمال كله تقريبًا جنوب أوروبا، إنه الشطر الأكبر من الشعوب الجرمانية في مواجهة اللاتين[1]». والواقع أن الاصلاح الديني، الذي يبدو منهزمًا في فرنسا، كان في خارجها أشد قوة وأتم وحدة. ولقد قال بوسويه «إن الاصلاح الديني الذي تدعونه، إذا قدرنا القوة التي تسنده من الخارج، لم يكن في يوم من الأيام أكثر قوة ووحدة. إن كل الأحزاب البروتستانتية تتحالف ... في الخارج يبدو الاصلاح أعظم وأخطر مما كان في أي يوم من الأيام[2]». الاصلاح الديني أو مذهب كالفين على وجه التحديد.

ذلك لأن مذهب لوثر، في الواقع، «منزو منعزل في الشمال[3]»، فهو ينطوي على نفسه، قانعًا بحركة محلية محدودة، فإنه ليس مقودًا نحو الفتوحات الكبيرة بفضل دولة منتصرة، ولما كان ينقصه الطموح فإنه تعوزه المرونة. هذا بينما مذهب كالفين، ينتقل مع انجلترا من نصر إلى نصر. وقد نشر جون لوك في عام ١٦٩٠ بحثين يؤيد فيهما تولي رجل مقاليد الحكم تأييدًا نظريًا، وهذا الرجل هووليم أورانج الذي قد يعد أكبر ممثل لمذهب كافين في أوروبا؛ ولهذين البحثين مقصد هو أن يكونا القانون الجديد للسياسة الحديثة: وهما يستلهمان وحي جنيف[4]، الذي يشفان عنه بوضوح، يزخرفهما سحر الانتصار الأخير. وقد كان أساتذة جون لوك وأصدقاؤه في انجلترا وفي فرنسا وفي هولاندا من مذهب كالفين،

---

(١) - ليبتنز: في رسالة إلى بوسويه ١٨ أبريل ١٦٩٢، Leibniz, á Bossuet, 18 avr, 1692.

(٢) - بوسويه: الاخطار الأول إلى البروتستانت ١٦٨٩، Bossuet, Premier áver tissement aux Protestants

(٣) - الأب مامبورج: تاريخ مذهب لوثر ١٦٨٠، ص ٢٦٨، Le p. Maimbourg Histoire du Luthérianisme.

(٤) - لأن چنيف -كما يذكر القارئ- كانت ملجأ لكالفين بعد فراره من فرنسا، حيث أنشأ جامعة كبيرة لمذهبه. [المترجمان].

وكانت أفكاره وبراهينه مستمدة من مطالعاته في هذا المذهب، وهو بالطبع يضاعف من قوتها بعدة مقتطفات وبيانات من الكتاب المقدس؛ وإن رفضه الخضوع للتحكم والاستبداد، بلا قيد ولا شرط، لهو عين الرفض الذي واجهت به الجمعيات الكالفينية في القرن السادس عشر، الأساقفة والأمراء الظلمة. إن مذهب كالفين يمثل هنا حرية الضمير، المنقولة إلى ميدان السياسة. حتى إن دخوله في خدمة الدولة الانجليزية لا يسلبه هذه الميزة. إلى هذه الدرجة تبلغ حيوية الذكرى التاريخية للكفاح الذي واصله في الدفاع عن مبدئه، وإلى هذه الدرجة يتضح سوء استعمال السلطة الذي ارتكبه لويس الرابع عشر باسم الحق الإلهي للملوك.

هنا أيضًا تتأيد، وتظفر بأسباب المجد، نتائج الاتفاقية التي سبق أن عقدت في جنيف بين الرأسمالية والدين. ففي الوقت الذي تزداد فيه هيبة انجلترا التي تستولي رويداً رويداً على التجارة العالمية بعد هولاندا، تزداد هيبة الدين، الذي لا يخالفها بل يعزز نشاطها العملي. لأن الواقع أن الدين الكاثوليكي فيه على حد قول أحد المعاصرين، نوع من القصور الطبيعي تجاه الشئون والأعمال، بينما البروتستانت على النقيض، يمتازون بحمية تعزز ميلهم إلى التجارة والصناعة، ولا غرو فإنهم يرون الكسل غير مشروع[1]. ها هو ذا التاجر يسير، ملبيًا قراراً سماويًا قطعيًا بأن يباشر عمله أو بمعنى أصح مهمته، مختاراً منذ الأزل للبيع والشراء كما اختير غيره للكتابة أو للتبشير، مباشراً نفس الفضائل التي تتطلبها المشيئة الإلهية، ونجاح تجارته معًا: النشاط والضمير والاحتياط والتوفير. يسير ليحتل فيما بعد في المجتمع الأوروبي، مكانة تزداد رويداً رويداً قوة وأهمية، وينتقل بغير ندم أو تبكيت، ودون تردد أو وخز ضمير، من خزانته إلى معبده،

---

(١) - مذكورفي كتاب ر. هـ. تاوني «الدين ونشأة الرأسمالية»، لندن ١٩٢٦ مقدمة، Cité par R. H, Tawney, Religion and the Rise of capitalism, Londres 1926 Préface.

مرفوع الجبين، واثقًا بأداء واجبه المزدوج، فخوراً بتأمين مكانه الحاضر على أديم الأرض، وضمان مكانه المستقبل في عليين.

إنه انتقام الكالفينة: هكذا يتميز، جزئيًا على الأقل، تبدل السلطة الذي يعتمل من الجنوب إلى الشمال.

* * *

ولكن ألا نستطيع أن نتصور شقاقًا، ينظم على مر السنين، حتى يشيد في ثناياه دعائم وحدة من جديد؟ ألا نستطيع أن نتصور نوعًا من الاعتقاد، مهما تعارض مع الكاثوليكية، لا يقبل أي استثناء؟ أو بالاختصار أورثوذكسية بروتستانتية؟

إنها أمنية، بل إرادة طالما تبدت خلال سنين الكفاح وما فيها من بلبلة واضطراب. لقد أحس الناس خطر التفكك والانحلال، ورأوا عاقبة الميل إلى تقسيم الكنائس مجتمعات صغيرة، حتى لا تجد أخيراً إلا أفراداً منعزلين، يناصب بعضهم بعضًا العداء. لقد حكموا بجمع الشمل والاتحاد، بالاشتراك في قانون واحد، ولم لا؛ ما داموا قد عرفوا كيف يتحالفون ضد العدو الخارجي، ضد المذهب الكاثوليكي؟ ولقد وضعوا صيغًا معلنين أنه لا سلام خارج هذه الصيغ. وعمل الناس في انجلترا في هذه السبيل، ولعل النشاط في هولاندا كان أوفر، لأن قدوم عدد كبير من القساوسة الفرنسيين وضع على عاتقها جديداً من المهام. إقرار «أرثوذكسي» بالدين البروتستانتي: ذلك على التحقيق ما أيده مجمع دوردرخت، وعرضه على القساوسة البروتستانت للاعتماد في أبريل عام ١٦٨٦؛ فليختاروا ما بين التوقيع عليه أو الخروج من الكنيسة الجديدة. وقد عملت المجامع التي تلته على الاحتفاظ بالمبادئ، فاستدعت المنشقين للمحاكمة، وحرمت كثيرين من المائدة المقدسة، وأوقفت بعض القساوسة. وكانت أحكامها لا تكاد تقل شدة عن أحكام الكنيسة الرومانية، التي كانت تبغضها. «إن الجمعية الحريصة كل الحرص على

الاحتفاظ بالأرثوذكسية ووحدة المشاعر بين أولئك الذين عليهم أن يبشروا بمذهب الحقيقة، وبانجيل السلام، والمعنية كل العناية بفحص التدابير الحقة التي ينبغي أن تتخذها لاتقاء المستحدثات الخطرة، وبعد التوجه بالدعاء إلى الله لهذا الغرض، قد قررت طبقاً للوائحنا القديمة، ألا تقبل بيننا قسيساً، إلا إذا أكد لنا اتفاق شعوره مع إيماننا على وجه التعميم، ومع مبادئ مجمع دوردرخت على وجه التخصيص، فضلاً عن خضوعه لكل أحكام نظامنا ...[(١)]». وكان جوريو Jurieu صورة من قضاة محاكم التفتيش: يحتج بل يرعد ضد المذنبين في مسألة الضمير ولا يتورع عن مقاضاتهم أمام السلطات المدنية، مطالباً بعزل وسجن أولئك الذين لا يشاركونه في التفكير. «حفظنا الله»، يقول بايل Bayle الذي جره جوريو أمام قضاة أمستردام، والذي فصله من وظيفته، «حفظنا الله من محاكم التفتيش البروتستانتية، إنها ستصبح في مدى خمس سنين أو ست من الفظاعة بحيث نناجي الكنيسة الرومانية نجوانا لشيء حبيب ...[(٢)]».

ولكن الخطر لم يكن هنا، فإن كل ما كانت تستطيع انجلترا أن تفعله في ظل وليم أورانج المنشقين، لم يكن توحيدهم بل التسامح معهم: إذ تشترط عليهم ارتضاء سياستها مقابل حريتهم الدينية؛ فهي، إن لم تكن تسمح بالكاثوليكية، التابعة لروما، فأنها كانت تسمح بمخالفة الانجليكية، التي تعتمد على نفسها. أما عن هولندا فلم تكن سوى خلية من المذاهب؛ منها ما ظهر منذ أولى خطوات الاصلاح، ومنها ما نما في إبانه، فأقدم المذاهب وأحدثها، بل كل المذاهب تجتمع

---

(١) - مقتطفة من المواد المقررة في مجمع كنائس فالون بهولاندة، المنعقد في روتردام ١٦٨٦ -المادة السادسة، ذكرها فرانك بيو في كتابه «الممهدون للتسامح الديني في فرنسا في القرن السابع عشر ١٨٨١- أنظر نفس الكتاب» مباحثات مجمع أمستردام ١٦٩٠، extrait des articles résoLus dans le Synode des Églises wallonnes des pays-Bas, assemblé á Rotterdam (1686) Article VI. Cité par Frank Puaux, Les précurseurs de la Tolérance en France au XVIIe Siécle, 1881.

(٢) - رسالة بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٦٩١.

فيها، وتقف وجهًا لوجه. أشياع أرمينيوس وجومار[1] Arminiens, Gomariens، والقائلون بالتثليث ومخالفوهم Trinitaires et Antitrinitaires ؛ كل المتعقدات المذهبية، كل ألوان الاعتقاد عن النعمة الإلهية، وعن الكتب المقدسة، وعن حقوق الضمير، وعن التسامح، وحتى عن طبيعة السلطة المدنية، توقع الأحزاب الهائجة، الثائرة، بعضها في بعض. وكانت المعركة مستعرة لا يخمد لها أوار، ولا يقتصر السبب على إخلاص الأذهان الصعبة المراس، التي تريد الدفاع عن حقيقتها بأي ثمن، ولا على لذة وفائدة الجدال الذي يدفع النور إلى الانبثاق «كارتطام الحجرين الذي يحول المادة المعتمة والكامنة في جسم جامد إلى شرارة»؛ بل يتعدى ذلك إلى نفس المبدأ الذي يكمن في عبقرية البروتستانتية.

إذا كانت البروتستانتية في مختلف مظاهرها، تتضمن حقيقة عصيان الضمير الفردي ضد تدخل السلطة في مسائل الإيمان، فبأي حق إذن تفرض سلطة نفسها على الضمائر؟ من ذا الذي يعين النقطة التي تقف عندها الأرثوذكسية، والتي تبدأ عندها الأثوردكسية؟ إن القول باسم البروتستانتية بأن هذه النظرية أو تلك في صدد الاختيار والقدرية عقيدة مذهبية، ومن باب أولى القول بأن للحاكم الحق في استعمال سلطته لهدم الوثنية وإيقاف تقدم الكفر؛ القول بأن رجلاً له الحق في أن يمنع رجلاً آخر من أن يمارس تعليمه أو تبشيره، أو حتى من أن يعتقد بما يمليه ضميره: إن ذلك لهو اللامنطقية المحضة.

من هنا كان عدم اقتدار المجامع الدينية على جمع القساوسة والمؤمنين سواء في كتلة خاضعة، وعجزها عن منع تكاثر المذاهب، وعن إيجاد الكلمة التي توقف روح البحث عن نشاطه الذي لا يعتريه كلال.

---

(١) - Arminius لاهوتي بروتستانتي هولاندي (١٥٦٠-١٦٠٩) مؤسس مذهب أرمينيوس، الذي يلطف من نظريات كالفين عن «القدرية». وجومار لاهوتي بروتستانتي ولد في بلجيكا (١٥٩٣-١٦٤١)، من أشد أتباع كالفين تعصبًا، وكان بينه وبين أرمينيوس جدال شديد. [المترجمان]

وإنك لتجد لفظًا يتكرر تكراراً خاصاً في المجادلات اللاهوتية لذلك العصر: السوسنيانية Le Socinianisme[1]. وهو في أولى خطواته مروق فوستو سوزيني F. Sozini، ظهر أول ما ظهر في بولونيا في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر، وقد طرد أشياع سوسان من بولونيا فالتجأوا إلى بروسيا وفرنسا ووجدوا في هولاندا أرضهم المختارة، وهناك تتشكل جمعية الاخوان البولونيين، حيث ينشر حفيد سوسان المدعو «ويزواتي» Wiszowaty في عام ١٦٦٥ كتابه «الدين المنطقي» Religio rationalis، وهو كتاب يتضمن مبادئ المذهب. وفي هذه النقطة يتقوى تيار نهر السوسنيانية برافد فرنسي؛ إذ يقدم القسيس إسحق دي ويسو Isac d' Huisseau في عام ١٦٦٩ كتابه «اتحاد المسيحية»، مقترحاً تطبيق الاصلاح الذي اهتدى إليه ديكارت في الفلسفة، على الدين: لن يصدق الناس شيئًا فيما بعد، ما لم يجدوه مشروحًا في الكتاب المقدس بوضوح، ولن يحتفظوا إلا بالحقائق البسيطة العالمية المسطرة فيه، والتي تتفق مع مبادئ المنطق. فلا تقاليد إذن، أو لا كنيسة صراحة؛ الله والكتاب المقدس والضمير الفردي، لا شيء غيرها ولا مزيد عليها. ويثور الجدال في كل الكنيسة الفرنسية المستصلحة حول هذه المبادئ؛ إن الاضطهاد والنفي لم يوقفا الانقسام بل زاداه حدة. وترى بابون Papon

---

(١) - المذهب السوسيني أو السوسنياني Socinianisme: هو في الأصل مذهب قديم ظهر في القرن الرابع بعد المسيح في عهد الامبراطور قسطنطين. اشتهر باسم الاريانية نسبة إلى صاحبه أريوس، القسيس بالاسكندرية. وهو مذهب ينكر ألوهية المسيح وسر التثليث ويعترف برسالة المسيح وبأنه كلمة الله. وقد لقي نجاحًا موقوتًا في عهد قسطنطين ثم فشل بعد حكم مجمع القسطنطينية في عام ٣٨١. وفي منتصف القرن السادس عشر عاود الظهور في أوروبا تحت اسم «السوسانية» وكان من أصحاب هذا المذهب ليليوس سوسان، باروثا، أوشين، جنتليس، وسرفي. وقد حكم بالاحراق على كل أولئك المتحررين ما عدا فوستوس سوسان، ابن عم الأول، الذي استطاع الفرار إلى المانيا مع بعض رفاقه. وانتشر هذا المذهب منذ ذاك الوقت في هولاندا وفي أرجاء أوروبا حتى ظهر في انجلترا في قوة ونضرة ليس لها نظير. وانضم إليه كبار الفلاسفة الانجليز مثل نيوتون ولوك وكلارك... فولتير: القاموس الفلسفي (Voltaire Dictionnaire Philosphique (Arianisme الجزء الأول، باب «إريانيزم»؛ ورسائل فلسفية Lettres Philosophiques، الرسالة السابعة عن سوسان. [المترجمان]

صهر إسحق دي ويسو يقبل الالحاد، وتجد أتباعه ومخالفيه يتقاتلون. إن المجمع الذي يقاوم تقدم الروح السوسنياني ليس له وجود.

وإذا صح أن هذا المذهب قد وهن من جهة كونه مذهبًا، وأنه «انكمش في الظاهر»، فإنه قد تكاثر «خفية»: فإن مبادئه الفتية المتفشية تتوغل في الضمائر، وتدفعها إلى إبدال الروح الديني بالروح المنطقي.

وبعد، فما معنى السوسنيانية؟

عند بوسويه أن مبدأ السوسنيانية الأساسي، هو أنه ما من أحد يستطيع أن يجبرنا على الاعتقاد بما لا ندركه بوضوح. ويقول بواريه Socinianismus : Poiret finem et scripturam subjicit rationi : المذهب السوسنيانيين يخضع الكتاب المقدس للعقل؛ ويقول بوفندورفPufendorf إن السوسنيانيين لا يجعلون من الدين المسيحي إلا فلسفة أخلاقية صرفة. وكان جوريو مهووساً بالسوسنيانية يراها في كل مكان، ولا ريب في أنه لا يخطئ في ذلك كثيراً، فإن هذا الميل العام نحو المنطقية كان كبيراً. وهو يقول إن السوسنيانيين يرون أنه لا فرق بين دين ودين. وإنهم ينكرون الأسرار: بينما الشعور بالسرية هو جوهر الروح الديني... بيد أن أخطر ما سطر هو ما كتبه ريشار سيمون في صدد الحكم الصادر على دي ويسو «إن القطيع الصغير، أراد بمعاملته القاسية للقسيس دي ويسو أن يتهدد ويتوعد عدداً كبيراً من القساوسة الذين يشاركونه مبادئه. ولقد أبلغ قراره هذا إلى عدد من قساوسة المقاطعات الذين أيدوه، ولو أنهم لم يلجأوا إلى هذه الشدة، لقضى الأمر بالنسبة لمذهب كالفين في فرنسا؛ ولكان أذكى أتباع هذا المذهب أعلنوا صراحة أنهم أرمينيون، بل ربما سوسنيانيون. ولكنهم اكتفوا بأن يكونوا سوسنيانيين في دخائلهم، وألا يفصحوا عن ذلك إلا لأصدقائهم الأخصاء؛ إن خشية فقدان وظائفهم قد دفعتهم إلي إتخاذ هذه الطريق. فهم لم يصدقوا على إقرارهم الديني إلا لأسباب سياسية، مقتنعين بأن كالفين وغيره من دعاة الاصلاح الأولين، لم

يقوموا بالاصلاح إلا جزئياً ...[1]. وإنها لصحيفة من الكراهية والافتراء، ولكنها على الأقل تبين بوضوح، الواقع الذي استشفه ريشار سيمون بثاقب بصيرته: وهو أن الاصلاح يستمر في الاستصلاح.

ويستعر الجدال بين قساوسة هولاندة وألمانيا، ويكافح القساوسة المشتتون في لندن ضد المذهب السوسنياني الذي عبر البوغاز. وكل جهد يبذل لتوحيد مذهب كالفين ومذهب لوثر بطريقة أو بأخرى، -غير ما يجمعهما من وشائج القربى- لجمع الكنيستين في إقرار ديني واحد، يضيع هباء ويبقى بلا جدوى.

وهكذا وجد الكاثوليك مسلاتهم في القول بأن البروتستانت منذ ما خرجوا على الكنيسة الرومانية، دخلوا في قصر التيه. وبالمثل، استطاع بوسويه أن ينشر في عام ١٦٨٨ كتابه «تاريخ تغيرات الكنائس البروتستانتية»، Histoire des variations des Eglises protestantes ، لكي يثبت أن تلك الكنائس قد تغيرت في الماضي، وأنها تتغير بلا انقطاع، وأن جوهرها بالذات هو التغير. إنها تتفتت من جزء إلى جزء حتى لا تعود إلا ترابا... من المحال أن تجمعها، من المحال أن تكبحها، ما دامت كل واحدة منها لها نفس الحق في الحياة. إنها تنتج كلها من نفس مبدأ البحث الذي يتطلب التغير والتحول من فحص إلى فحص. ذلك يفسر وفرة الاقرارات الدينية التي لا يسع المؤرخ إلا أن يسجلها، كما يفسر عقم المحاولات التي جرت في سبيل مصالحة تلك الطوائف التي من طبيعتها أن تسير في طريق الانقسام.

* * *

نستطيع أن نرد على بوسويه مهاجمين وقائلين إن الكنيسة الكاثوليكية نفسها لم تسلم من التغيير، وهو ما فعله جاك باناج بين عدد كبير من معارضيه. كما

(١) - ريشار سيمون: رسائل منتخبة، الجزء الثالث، Richard simon Lettres choisies, t. III, 3.

نستطيع أن نرد عليه بأن الكنيسة البروتستانتية لم تتغير ولم تتحول عن مبادئها الأساسية، وهو ما فعله جلبرت بيرنت.

بيد أننا لا نرى في أقواله هذه اتهامًا، بل شرفًا، ونحن لا نعتبر روح البحث إلا كامتياز للإنسانية، التي لا تتلقى الحقيقة من السماء، بل تعمل جاهدة على كشفها، وعلى توطيد دعائمها بنفسها[1]. ولو أننا لاحظنا خطر السلطة الزائدة عن الحد أو الحرية الزائدة عن الحد، لاخترنا الثانية طواعية، إذا لم يكن بد من الخطر.

يتعرض جان لي كلير في مجلته «المكتبة المنتخبة» عام ١٧٠٥، لهذه المسألة، وبنفس الألفاظ تقريبًا. ما أكثر الكفار حوله! كثير من الكتب التي يذكرها في مجلته تحاول مناقضة الكفر: وهذا دليل على أن الكفر قد أخذت خطورته تستفحل. بالأمس لم يكن الناس يفحصون، ولم يكن يساورهم الشك فيما يلقنهم «الأساتذة». بل كانوا يبنون أحكامهم على كلامهم. أما اليوم فقد انعكست الآية، واختلفت العادة، فلم يعد الناس يثقون بالسلطة. فهل ينبغي أن نفضل الحالة الأولى؟ -جان لي كلير لا يتردد. إن عدم التصديق شر، ولكن الميل إلى تصديق كل شيء بغير بحث أو فحص شر أرذل، فهو يتأتى من حماقة العقل ومن عدم اكتراث بالحقيقة. إن شعبا فيه كثير من النور وقليل من الكفر، لخير من شعب يسود فيه الجهل ولا يساوره الريب في المشاعر الموروثة. فإن النور يفيء الفضيلة ولو أساء البعض استعماله، بينما الجهل لا ينتج إلا البربرية والرذيلة.

إن الفكرة التي يعبر عنها جان لي كلير الأرمنيوسي، السوسنياني، هي التي ستسود في مستهل القرن الثامن عشر. لقد مضى الوقت الذي فرض فيه ديكارت على نفسه طواعية، قيودًا للحيطة، لما شعر أن مبدأه سيدفع به إلى أبعد الحدود: «أولها طاعة القوانين والعادات في بلادي، واحتفاظي دائمًا بالدين الذي تفضل الله فعلمنيه منذ طفولتي، والسير في كل ميدان آخر حسب المعتقدات الأكثر اعتدالاً

(١)- أنظر، ا. ريبليو، بوسويه مؤرخ البروتستانية، الطبقة الثالثة ١٩٠٩، ص ٥٧١، A. Rebelliau.

والأبعد عن المغالاة، والتي يتقبلها عموماً في الحياة العملية، أعقل الناس ممن سأعيش بينهم».

ولقد أتى وقت الأثوردكسية، كل أنواع الأثوردكسية، وقت المتمردين والعصاة، الذين تكاثروا في عهد لويس الرابع عشر في الظلام، مترقبين إشارة التحرير؛ وقت العلماء الذين سيرفضون تقبل التقاليد بغير رقابة ولا تمحيص، وقت أتباع جانسينيوس الذين يؤججون شعلتهم التي لا ينطفئ لها ضرام؛ وقت أنصار الخشوعية[1] Piétisme من كل شاكلة؛ وقت المفسرين والفلاسفة؛ وقت بيير بايل.

(١) - الخشوعية: مذهب بروتستانتي يقوم على التنسك والزهد وينادي بكنيسة عالمية تشمل كل المؤمنين. [المترجمان]

الفصل الخامس

بيير بايل

ينحدر بيير بايل من مقاطعة فواComté de foix، فهو جنوبي فر إلى الشمال، مثله في ذلك مثل الكثيرين، الذين أتوا إلى هناك بنشاطهم الذهني، وميلهم للأفكار، ومتانة خلقهم، وحيوتهم التي لا تصدق. وكان بروتستانتياً، أبوه من قساوسة هذا المذهب؛ درس اللاتينية واليونانية في مدرسته، ثم أكمل دراسته في مجمع بيلورانس. بيد إنه توقف في بداية الطريق الذي اختطه، والذي سيدفعه إلى أبعد الميادين، التي يبقى فيها وحيداً بلا رفيق، سابقًا جميع أقرانه؛ وهو الطريق سنتبعه فيه، لكي نبين مراحل تفكير يبدأ بالدين وينتهي إلى حالة قريبة من الشك الخالص: فلما كان قد قرأ كتبًا عن الجدال، فقد اعتنق الكاثوليكية، ثم تابع دراسة الفلسفة في جامعة الجيزويت في تولوز؛ ولما جعلت «التأثيرات الأولى لتربيته تتغلب عليه،[1]» انضم إلى كنيسة الاصلاح، سعيداً سعادة المقيم في القطب الشمال تطلع عليه الشمس؛ ثم ذهب إلى جنيف في عام ١٦٧٠. «لقد كان وقتاً كنت أجيد فيه المناقشة، إذ كنت حديث التخرج في مدرسة لقنت فيها المشاكسة المدرسية القديمة، وأستطيع أن أقول في غير زهو إني كنت أجيد استعمالها[2]».

خطوة أخرى، وينتقل بايل من أرسطو إلى ديكارت. فقد ألقى محاضرة فلسفية حينما عين أستاذاً في مجمع سيدان، تظهره لنا من أشياع التفكير الواضح

---

(١) - رسالة بايل إلى بنسون دي ريول، روتردام، ٢٥ يونيو ١٦٩٣، Bayle à Pinson de Riolles.

(٢) - رسالة بايل إلى باناج، ٥ مايو ١٦٧٥، Bayle á Basnage.

والبداهة العقلية. على أن هذه الميول ليست دائماً خلواً من روح التبشير. ترى هل كان يقنع بتدريسه؟ وهل يكرر عاماً بعد عام دروسه المملة؟ ذلك أمر ليس قريب الاحتمال. لقد أرسل من سيدان إلى «مجلة العلماء» رسالة عن المذنبات والنبوآت، خشي المحرر أن يقبلها؛ بيد أن هذه الرسالة أصبحت علامة ساطعة لتحرره من قيود التدريس، بعد أن تناولها ببعض التصحيح والتهذيب وزاد في حجمها زيادة كبيرة، ونشرت في عام ١٦٨٢.

كان بايل يستشعر نداء في دخيلة نفسه، وكان البحث والفحص من مقتضيات طبيعته، يزن في كل ما له وما عليه، ولا يقبل شيئاً إلا بعد حكم سابق من محكمته الذاتية. ولما أغلق مجمع سيدان لأسباب دينية، وبعدما بحث عن وسيلة يكسب بها قوته، غير عارف ماذا سيفعل incertum quo fata ferrent، دعاه سادة روتردام أولئك، عارضين عليه وظيفة في مدرستهم التي طبقت شهرتها الآفاق؛ وهنا نستطيع أن نرى مصادفة عجيبة للعناية الإلهية ولقواتها الحية، على فرض أنه لا يزال يعتقد بها: سيظل يعمل مدرساً ليكسب قوته، ولكن عمله الحقيقي، أو الأحرى مهمته، أو وظيفته، أن يكون صحفياً، ليقود الناس نحو الحقائق القاسية، التي أخذت تجتذبه وتسحره بالفعل.

وينبغي أن نتخيله، هناك في روتردام في داخل غرفته، غيوراً وضعيفاً، منعزلاً، مبتعداً عن الحياة الحسية: وقد تجد لديه عواطف عائلية قوية، ولكنك لا تجد لديه حباً أبداً. وقد تجد كتباً كثيرة ولكنها لن تكفيه مهما كثرت. وقد تجد أخباراً أيضاً، يزوده بها أصدقاؤه من مختلف عواصم أوروبا رحمة به! «إن نهمي إلى الأخبار لأحد الأمراض المستعصية التي لا يفلح معها دواء، إنه استسقاء محض، كلما أعطيته كلما ازداد طلباً وإلحاحاً[1]». أما الكتب ففيها شيء أدق، فهي تمثل فكرة معينة، نستطيع أن ندركها تمام الإدراك، إنها تهيج العقل وتدعوه إلى العراك: إننا أمام خصم قد أعد أدلته لمعركة منظمة، فأي سعادة في مهاجمته بالفرق

---

(١) - بايل إلى مينوتولي، ٢٧ فبراير 1673، Bayle à Minutoli.

السـريعة من الأدلة والردود والأسباب! فإنك لتستطيع أن تصل إلى الكاتب من خلال الكتاب، وأن تقول له ما يستحقه، وأن تبين له فقره وعجزه. أما الرجل فلا يظهر إلا نتيجة للكتاب: إن بيير بايل يوجه ضد الكتب معاركه العظمى. منذئذ لا تحسب في حياته أية واقعة ما لم تكن فكرية: إنه يقرأ ويكتب ويناقش، ويجد «في المطالعة» من اللذة والتسلية ما يعادل ما يجده الآخرون في دور اللهو والمقامرة». إن شهوة العلم Libido Sciendi تتملكه: يريد أن يعرف كل شيء، لينتقد كل شيء.

وهو كصحفي لم يصل بعد إلى ذروة حرارته الجدالية: كتب إليه برنييهBernier في ١١ أبريل١٦٨٦ يقول: «إننا نراك كالنبيذ الإيطالي-dolce piccante ولكنا بما نحن عليه من خبث نريد أن نراك doLce piccante [1]. ولقد التزم شيئًا من التحرز والتحوط، ولكن الروح العام لمجلة «أخبار جمهورية الأدب»Nouvelles de la Répubique des lettes يتضح في جلاء. فهي تدعو القارئ إلى التفكير في أخطر الموضوعات: وحيث إنه ليس أخطر من أسباب الاعتقاد أو الارتياب، فلتتواجه كل الأفكار بكل حرية!، ولتحتل مكان الشرف بين الأفكار، تلك التي تركها الناس في الظلام بمحض الاختيار، في حالة التمرد والعصيان! فلتأخذ الأثوردكسية المخنوقة بثأرها منذ الآن! وليعبر عن رأيه كل إنسان، وليكن لأجسر الآراء مظهر من المجد والجلال: «فليعرف أولئك الذين يتهامسون ضد تسامح كتب الملحدين، أن ليست كل أنواع العقول، تلائم ذوق محاكم التفتيش.» حتى الأورثوذكس، على حد قول بايل، يجب أن يواجهوا الالحاد بغير خوف: وإلا فهل يقبلون أن يشاد انتصارهم على الاستحالة التي يضعون فيها خصومهم لابداء ما لديهم من أسباب[2]؟

---

(١) - dolce piccante: لذة حريفة piccante dolce: حراقة لذيذة. [المترجمان]

(٢) - أخبار جمهورية الأدب. يوليو ١٥٨٥، المادة التاسعة. ملاحظات عن تسامح كتب الالحاد، Nouvelles de la République des Lettres, Juillet 1685, art IX. Réflexions sur la tolérance des livres hérétiques.

وكان بايل محموماً بفطرته، وهل كان يستطيع بغير حمى أن يتغلب على هذه الكتلة الهائلة من العمل؟ كان يكتب النصوص، ثم يجري تصحيح الأصول، ولم يكن هذا منشأ تعبه، فمداد المطبعة عبير عطر جميل! وإنما تعبه يتأتى من القراء الذين لا يكتفون ولا يقنعون، قراء يعطون فكرة صحيحة عن الحماقة البشرية، بما يبدون من متعارض الاراء، وباعتقاد كل منهم أنه على صواب، مما جعل منشأ تعبه تلك الرسائل التي تفوق الحصر والتي كان ينبغي أن يسطرها كل يوم. ونحن حين نؤلف كتاباً، نتركه ثم نرجع إليه ثم نقرأ كتاباً غيره، فنجد تسلية في تبديل العمل؛ أما إذا كان لدينا رسائل ينبغي أن تكتب، فلابد من أن نتعجل، فنتعب ونكل. وقد عاش بايل على هذا المنوال مدة ثلاث سنوات، من مارس عام ١٦٨٤ إلى فبراير عام ١٦٨٧، ثم كف عن العمل.

ولكن الطريق عاد فاجتذبه ودفعه نحو الممر الفاصل. لقد وقف في أول صف بين المدافعين عن البروتستانتية. وناقض الأب مامبورج بكلام مستفيض، بالسيل الدفوق الذي يجرف كل شيء في طريقه، من براهين وإهانات. ولما زادت تدابير الاضطهاد، ووقع في يده كتاب وارد من فرنسا، يمدح فيه مؤلفه لويس الرابع عشر، على جعله المملكة كاملة الكثلكة تحت سيادته[١]، شرع اليراع من جديد[٢]: ليقول هو، بيير بايل، رأيه فيه: «لو أننا أدركنا قوة هذه الكلمة ومعناها الحالي، لما حسدنا فرنسا على صيرورتها كاثوليكية تحت سيادة لويس العظيم، لأن أولئك الذين سموا أنفسهم بهذا الاسم قد سلكوا منذ أمد بعيد سلوكاً يدفع إلى الاشمئزاز، حتى إن الرجل الشريف ليعد تسميته كاثوليكياً وصمة عار، فبعد أفعالكم في المملكة الكاملة الكثلكة، ينبغي أن يستوي من الآن قولنا الدين الكاثوليكي وقولنا دين الأشرار الخوان».

---

(١) - فرنسا الكاثوليكية في عهد لويس العظيم، أو محادثات بعض البروتستانت الفرنسيين ١٦٨٤.

(٢) - رسالة مرسلة من لندن إلى الأب ... ورهبان ... عن فرنسا الكاثوليكية في عهد لويس الرابع عشر. سان أومير، ١٦٨٦.

نجد في إنجيل لوقا، في الفصل الرابع عشر، مثلاً لصاحب الدار الذي أعد مأدبة لمدعوين معينين، تخلفوا عن الحضور. فقال السيد لعبده: «اخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة وأزقتها، وأدخل إلى هنا المساكين والجدع والعرج والعمى. فقال العبد يا سيد قد صار كما أمرت، ويوجد أيضًا مكان. فقال السيد للعبد، اخرج إلى الطرق والسياجات وألزمهم بالدخول ...[1]» ألزمهم بالدخول، Compelle litrare تلك هي الكلمة التي رددها القديس أوغسطين لالحاق الدوناتيين Donatistes[2] بكنيسة أفريقيا والتي نادى بها المبشرون الكاثوليك بدورهم، للتدليل على صواب استعمال القسوة ضد البروتستانت. فقابل بايل أولئك بفورة من السخط الشديد، تعدت شدتها كل ما سبق أن أبداه: لأن الأمر هنا يتعلق بأعمق ما في تفكيره وأعزه[3]. أنستعمل القوة في مسائل الضمير؟ يا للشناعة! يا للفضيحة! وينتقل بايل من سباب إلى سباب، ومن استنكار إلى استنكار: - إن الكنيسة الرومانية التي تطالب لنفسها بالسلطة والعصمة، والتي تريد أن تفرض على الأرواح قانون الأقوى، والتي لا تتورع عن استعمال مبشرين أنصاف جنود وأنصاف وحوش، ليست إلا امرأة سليطة، بل بغيًا فاجرة. لا لن يجمعنا بالكاثوليك قياس مشترك بعد الآن، لأنهم يعودون دائمًا إلى رطانتهم العتيقة، قائلين نحن الكنيسة وأنت العصاة، فلنا الحق في أن ننزل بكم العقاب دون أن تستطيعوا إنزاله بنا: يا للادعاء الذي لا يطاق! فلتبق أوروبا في انقسام كما هي الآن! اللهم لا توقع الشعوب التي تخلصت من ربقة روما تحت نيرها مرة أخرى!

---

(١) - نقلا عن إنجيل لوقا، الاصحاح ١٤: ٢١، ٢٢. [المترجمان]

(٢) - الدوناتيون: أتباع مذهب دونات مطران قرطاجنة في القرن الرابع بعد الميلاد وكانوا يرون أنفسهم وحدهم ورثة الحواريين. [المترجمان]

(٣) - «تفسير فلسفي لكلمات السيد المسيح هذه: «ألزمهم بالدخول»؛ يثبت ببراهين كثيرة أن ليس أوقح من الالتجاء إلى القوة لتغيير الدين، وينقد كل سفسطة لمستعملي القوة لتغيير الدين، والمدح الذي أضفاه القديس أوغسطين على الاضطهاد الديني». مترجم عن الانجليزية الجان فوكس دي بروج، بقلم م. ج. ف. (١٦٨٦)، Commentaire philosphique sur ces paroles de J.C.... Traduit de l'anglais du sieur Jean Fox de Bruges par M.J.F. 1686.

وليست هذه بضمانات واهية القيمة لرفاقه بالمهجر؛ وقد كان بايل يستحق من حزبه بعض الشكر. بيد أن القصة تبدأ من جديد؛ إنه لمن العبث أن نسلم للبروتستانت بسلطة الاجبار التي أنكرناها على الكاثوليك. إن الاقتضاء المنطقي لا ينظر أبداً إلى سر من الأسرار إلا على أنه مشكلة مؤقتة عابرة، سواء أكان قد قبله قساوسة الكاثوليك أم قساوسة البروتستانت. فإن نور اليقين الطبيعي يريد أن يحل محل المصباح الذي يسهر أمام الهيكل المقدس سواء أخص الأمر كنيسة أم خص معبداً؛ حتى إن بايل يهلك أصدقاءه، في غمار قتاله ضد أعدائه، وبنفس السلاح. إنه يقول إن الضمير لا يعول إلا على نفسه، وإنه إذا كان يقبل، بحسن نية، ما يتراءى له أنه الحقيقة، فلن توجد قوة خارجية تستطيع أن تؤثر عليه ويكون تأثيرها مشروعاً، وإن الضمير الذي يخطئ دون خبث أو سوء نية، الضمير التائه المتحير، ليس مسئولاً ولا يجوز أن يجبر ويقسر. إن الكافر الذي يعتقد أنه يجب أن يكون كافراً، لا يقل عن البروتستانتي «الأورثوذكسي» في شيء. وإن كلمة أورثوذكسي هذه، لكلمة لا تطاق، ما دامت تعني سلطة مفروضة على الأذهان. ولقد أخفى جوريو وجهه بعد هذه الكلمات، وصاح: لقد أصبح بايل سوسنيانياً. والحق أنه سوسنياني، بل أكثر من ذلك، إذا كان صحيحاً أن بايل نفسه يشرح فكره بهذه الكلمات:

«معاذ الله أن أريد توسيع دائرة النور الطبيعي، ومبادئ الميتافيزيقا مثلما يفعل السوسنيانيون، الذين يرفضون كل تفسير للكتاب المقدس لا يتفق وهذا الضوء وتلك المبادئ، والذين -بناء على هذه القاعدة- يرفضون الاعتقاد بالتثليث وبسر التجسد. كلا، كلا، هذا ما لا أدعيه بغير حدود ولا قيود. إني أعرف جيداً أن هناك حقائق بديهية، لا تفلح في الغلبة عليها أصرح أو أوضح آيات الكتاب المقدس، مثل كون الكل أكبر من جزء منه، وأننا إذا طرحنا أجزاء متساوية من أشياء متساوية، فالبواقي متساوية، وأنه من المحال أن تجد شيئين متعارضين متساويين، كما أنه من المحال أيضاً أن جوهر شيء يبقى بالفعل بعد هلاك الشيء. إذا كان الناس يكشفون مئة مرة في الكتاب المقدس عكس هذه المحمولات، وإذا كانوا

يأتون بألف وألف معجزة، أكثر مما أتى به موسى والحواريون، لكي يثبتوا مبدأ يخالف هذه المبادئ العالمية للادراك السليم، فلن يصدق المرء منها شيئًا، فالأرجح أن يقتنع بأن الكتاب المقدس لا يتكلم إلا بالمجاز والألغاز والحقائق المعكوسة، وأن تلك المعجزات مأتاها الشيطان، فذلك خير من أن يعتقد بأن نور اليقين الطبيعي يخطئ في هذه المبادئ».

... «وإني لأكررها مرة أخرى: معاذ الله أن أريد توسيع هذا المبدأ مثلما يفعل السوسنيانيون؛ ولكن إذا أمكن أن يوجد بعض التحديد بالنسبة للحقائق النظرية، فلست أعتقد بامكان وجود أي تحديد بالنسبة للمبادئ والعادات العامة التي تتعلق بالأخلاق. أريد أن أقول إنه -دون أي استثناء- ينبغي أن تخضع كل القوانين الأخلاقية للعدالة، تلك الفكرة الطبيعية التي يهتدي بها مثلما يهتدي بضوء الميتافيزيقا، كل رجل يخرج إلى هذه الدنيا.

ينبغي علينا، بل يتحتم أن نحكم بأن كل مبدأ ديني خاص، سواء ادعى الناس أن الكتاب المقدس يتضمنه، أو لم يكن الأمر كذلك، باطل غير صحيح إذا نقضته معارف النور الطبيعي الواضحة الصريحة، ولا سيما فيما يتعلق بالأخلاق[1]. »

* * *

أن يعكف بايل على وضع قاموس: أليست هذه فكرة غريبة، لرجل في مثل طبعه؟ سيتولى هو بنفسه الإجابة على هذا السؤال: «نحو ديسمبر من عام ١٦٩٠ قر رأيي على تأليف قاموس نقدي يتضمن سردًا للأخطاء التي ارتكبها مؤلفو القواميس أو غيرهم من المؤلفين، يبين تحت اسم كل رجل أو مدينة، ما يخص هذا الرجل أو تلك المدينة من أخطاء ...[2]» وهو لم ينفذ هذه الفكرة بتمامها، بل سجل تحت

(١) - «تفسير فلسفي» ...، القسم الأول الفصل الأول.

(٢) - رسالة من بيير بايل إلى ابن عمه نوديه، ٢٢ مايو ١٦٩٢.

أسماء مرتبة حسب الحروف الأبجدية بعض معلومات واقعية. ولكن أروع اجتراءاته الحية تتبدى في التعليقات التي ينثرها هنا وهناك، أو يطمرها. حتى إنك لا تجد أسمى صور التعبير عن أفكاره إلا استثناء، وفي الموضع الذي تتوقعه. إنها الجنابي أو «استغماية» وقد كان يهوى هذا النوع من اللعب، وكا يجيده. وبالرغم مما اضطر إلى إدخاله على مشروعه من تخفيف، حتى لا يثير لأول وهلة دهشة الجمهور والناشرين، فإن ذلك «القاموس التاريخي النقدي»-Dictionnaire histo-rique et critique يظل أشد عريضة اتهام تثير الخجل وتنشر الارتباك في الناس. فأمام كل اسم على وجه التقريب، تتفجر ذكرى وهم أو خطأ أو احتيال أو جرم. كل هؤلاء الملوك الذين سببوا تعاسة رعاياهم، وكل أولئك البابوات الذين هبطوا بالكاثوليكية إلى دركات أطماعهم وأهوائهم، وكل أولئك الفلاسفة الذين وضعوا السخيف من النظريات، وكل تلك الدول والمدن التي تذكرنا بالحروب والمذابح والاغتصابات... ثم كثيراً من المفاسد والشناعات: وإذا كان بايل يذكرها راضياً قريراً، فقد يكون ذلك لأن أصحاب المكاتب طلبوها منه لاجتذاب القارئ كما يقول. أو لعله أراد أن يجد بعض التسلية -كما يقول أيضاً- في التنويه بأن سرد الخطايا التي ارتكبها المرء شيء، وإدخال بعض الطلاوة على قصة ببعض ألفاظ طليقة شائقة شيء آخر؛ لكن أليس الأرجح أن السبب هو أن كتلة بطلاننا وضلالنا تضاف إليها كتلة شذوذنا وفسادنا الخلقي، وبذا تطابق أخطاؤنا في دائرة التفكير رذائلنا في مجال الأخلاق؟ يضاف إلي ذلك قصص الرواة، رواة ما فعله الآخرون، وما أكثر القصص التي نسجوها بما هم عليه من خفة أو حماقة أو هوى أو فساد! يا له من منظر!

كل ذلك ينبغي أن يطهر، وتلك هي بالذات المهمة الأولى التي يشرع فيها بايل بالتذاذ تشوبه الحسرة. بئس كتاب الأساطير! لقد أخطأ العالم كله وانخدع: القدماء الذين كانوا يلقون بالكذب كما نلقى بالكلام، والمحدثون المسحورون بنفوذ القدماء، وحتى أكثر المؤلفين اقتداراً وأحقهم بالاحترام، فلاموت

لوفاييهLa Mothe Le Vayer[1] نفسه أخطأ وكذلك غاسندي[2]. وهناك محترفو الكذب مثل موريري[3]، الذي ألف قاموساً كما لا ينبغي أن يؤلف القاموس، قاموساً ليس نقدياً، بل يفيض بالضلال والأخطاء. إنه مسمم عام، فلنفنده نقطة نقطة، ولنرقم أكاذيبه، لقد كذب اثني عشرة مرة هنا، وخمس عشرة مرة هناك: فلنقبض عليه دون شفقة من قفاه. بذلك العمل المنزه المعصوم، نسترد لليقين حقوقه. إن قانون جمهورية الأفكار قانون قاس ولكنه بديع! «إن هذه الجمهورية دولة حرة غاية الحرية. لا يعترف الناس فيها إلا بسطوة اليقين وصولة العقل، وفي كنفهما يحارب الناس أي إنسان بحسن طوية. فعلى الأصدقاء أن يحترسوا من الأصدقاء وعلى الآباء أن يحذروا الأبناء ...[4]».

هذا الاقدام، هذا الشغف بالنضال، هذا العزم على قشع الوهم والضلال، يفترض فكرة قدرتنا على الوصول إلى يقين يبقى بالرغم من كل جهد مضاد: يقين الوقائع الذي يكشفه النقد ومعرفة الواقع. ولكن ما أصعب إدراك هذه المعرفة، وهذه الحقيقة! وما أقوى الخطأ، وما أشد جذوره تمكناً في الأرض، حتى ليجد دائماً فرصة ليتولد من جديد! «ليس هناك كذب، مهما سخف وأسف، لم ينتقل من كتاب إلى كتاب ومن عصر إلى عصر. دع أحقر مهرج في أوروبا يجترئ في كذبه، وينشر كل أنواع هذيانه، فسيجد عدداً وفيراً من الناس ينقل رواياته، وإذا مجوه يوماً أو استنكفوه، فستأتي ظروف يجدون فيها مصلحة في ابتعاثه من جديد[5]».

---

(١) - لاموت لوفاييهLa Mothe Le vayer: أديب وعالم فرنسي ولد في باريس صاحب «ملاحظات عن البلاغة الفرنسية» (١٥٨٨-١٦٧٢). [المترجمان].

(٢) - غاسندي Gassendi: فيلسوف فرنسي مادي، اشتهر بمهاجمته لفلسفة أرسطو (١٥٩٢-١٦٥٥). [المترجمان].

(٣) - موريري Moreri: مؤرخ فرنسي شهير، مؤلف «القاموس التاريخي (١٦٤٣-١٦٨٠). [المترجمان].

(٤) - «القاموس» باب كاليوس، تعليق د، Dictionnaire, art Calius.

(٥) - «القاموس» باب كابت، حرف ي.

لن تستطيع أن تقنع إلا المقتنعين، فشأن العقل عصيان اليقين، مهما أوتى من بداهة ووضوح.

هل الوقائع في الحقيقة كما نتلقاها؟ ألا ترمي المدرسة الحديثة للفلسفة إلى بث الاعتقاد بأن الوقائع إن هي إلا تحورات في الروح[1]؟ لقد أغدقت على الارتيابيين فوائد لا يعييك إدراكها[2]:

«إنهم لا يكادون يعرفون في مدارسنا اسم سكتوس امبريكوس Sextus Em-piricus، إن وسائل تحديد الزمن التي اقترحها في لباقة لم تكن مجهولة لدينا أقل مما نجهل أرض استراليا، حتى جاء غاسندي وأوجزها لنا إيجازاً فتح أعيننا. ثم أكملت مدرسة ديكارت ذلك العمل. لم يعد بين كبار الفلاسفة من يساوره الشك في أن الارتيابيين Sceptiques[3] على حق، في اعتقادهم أن صفات الأجسام التي تؤثر في حواسنا ليست إلا مظاهر. كل منا يستطيع أن يقول «أشعر بحرارة في وجود النار»، لا أن يقول «أعرف أن النار في جوهرها كما تظهر لي». ذلك أسلوب الارتيابيين القدماء. أما اليوم فتتخذ الفلسفة الحديثة لساناً أكثر إيجابية: فالحرارة والرائحة والألوان وغير ذلك لا تقع في دائرة الحواس، بل هي تحورات في الروح. أعرف أن الأجسام ليست كما تظهر لي. ولقد كان المحدثون يتوقون إلى استثناء الحيز والحركة

---

(١) - لعله يقصد مالبرانش على الخصوص وهو من أكبر الفلاسفة الفرنسيين اشتهر بنظرية vision en dieu: من المحال أن يكون للمادة وجود. فالوجود للعقل والرح، إنما الله يوحي إلينا برؤية المادة. وتفصيل نظريته في كتابه المشهور «البحث عن الحقيقة». [المترجمان]

(٢) - القاموس... باب بيرون، pyrrhon.

(٣) - الارتيابيون: أو الشكاك، أشياع مذهب بيرون، وهو فيلسوف يوناني في القرن الرابع ق.م. ينكر استطاعة الإنسان الوصول إلى الحقيقة. يرى أن كل الكائنات تخضع لتجدد مستمر، ولذا فنحن لا نستطيع أن نعرف إلا المظاهر. كل خطوة نخطوها بين الناس لا نرى إلا أخطاء ومتناقضات وأوهاماً في الحواس إذن البحث عن الحقيقة لا يستند إلى شيء متين، وهنا منشأ خطورة ذلك المذهب لأنه يؤدي إلى الخمود المطلق. وكان ديكارت يرى قبول هذا المذهب كشك مؤقت، فهو محك معارفنا ومشاعرنا. وأشهر الشكاك المحدثين مونتاني وبايل وهيوم وكنت. [المترجمان]

ولكنهم عجزوا، لأنه إذا كانت الأشياء تظهر لنا في لون أو حرارة أو برودة أو رائحةما، بينما لا توجد فيها صفة من تلك الصفات، فلم إذن لا تظهر لنا ذات حيز وشكل ساكنة أو متحركة، بينما ليس لها صفة من تلك الصفات؟ تلك هي الفوائد التي أعطاها الفلاسفة المحدثون للارتيابيين، والتي أريد أن أرفضها ...»

بيد أن بيير بايل لا يستطيع أن يرفضها إلى الأبد، فقد حوصر ذهنه، وهذا ظاهر للعيان. فهو ينزلق نحو الارتياب، لكثرة مواجهته لليقين وللضلال، وقد يكون ذلك على الرغم منه أو لاستعداد في طبيعته. وهل نعرف أبدا إلى أين يؤدي بنا مبدأ من المبادئ؟ «إن نفس المبدأ الذي يفلح أحيانًا ضد الضلال يضر أحيانًا أخرى باليقين ...[1]». إن ما نصل إليه دائمًا آخر الأمر، وبعد البحث، هو تناقض المبادئ[2]: «وجماع القول في ذلك أن نصيب الإنسان قد ساء إلى حد أن النور الذي يخلصه من شر يوقعه في شر آخر. طاردوا الجهل والبربرية توقعوا بالخرافة، وبحماقة تصديق الناس التي يستغلها القادة، ويسيئون بعد ذلك استعمال مغانمهم منها، ليغرقوا في البطالة والفجور. بيد أننا بتبصير الناس بهذا الفساد، سنوحي إليهم بروح البحث في كل شيء، فيفحصون، ويتعمقون في التفكير، إلى ألا يجدوا شيئًا يرضي عقلهم التعس ...»

هناك طريقة، يمكن للمرء بشيء من الجهد أن يكشفها، بل أن يحصرها في صيغة. «ما من نظرية لا تحتاج إلى الأمرين التاليين لتكون صالحة: أولهما أن تكون الأفكار واضحة، وثانيهما أن يؤيدها الواقع[3]». فاذا نحن طبقنا هذه الطريقة، في آن واحد إلى الحقيقة المجردة، وإلى الحقيقة الواقعة التي تؤيدها. ولكن كيف التطبيق؟ ففيما يتعلق بالحقيقة الواقعة، نرى الناس يخلطون ويفسدون الوقائع؛ ألا ترى في «القاموس التاريخي النقدي» كيف يهدم النقد التاريخ؟ وفيما يتعلق

(١) - القاموس، باب تقي الدين، Takiddin.
(٢) - القاموس، باب تقي الدين، Takiddin.
(٢) - القاموس، باب Manichéens، بيان D.

بالحقيقة المجردة فإن الناس لا يتبينون الأفكار بوضوح، ولو أنهم تبينوها لظهرت لهم كما هي: متعادلة القوة، متعادلة الاحتمال، تقتتل فتقتل كل منها الأخرى.

* * *

ولكن بايل لا يقف عند هذا الحد. وإذا أردنا أن ندرك تفكيره بجملته، وأن نرى كيف يعادوه في إلحاح، في كل مسألة يرى أنه لم يولها حقها من التوضيح، فينبغي أن نصل إلى كتابه «جواب على أسئلة قروي» Réponse aux questions d' un Provincial الذي شرع في نشره عام ١٧٠٤، ولكن الموت لم يمهله ليكمله. إنه لم يتخل عن طريقته في الاندفاع، ولا عن عادته في البدء برسالة مطبوعة، أو قصة تاريخية، أو بحث أو نبذة، لكي يهاجم ويعارض. ولم يطرح سخريته القاسية. ولكن ازدادت مباغاته واندفاعاته شدة، وازدادت ردوده حدة، وأصبح تحليله أكثر دقة. والمفروض أن القروي يسأله عن فحوى كتاب، أو تحديد تاريخ، أو واقعة تاريخية، أو نقطة فضول هينة. وإذا به يكشف في بضع جمل، وبوضوح يستحق الاعجاب دائماً، عن النقط الرئيسية في المسألة: لا ظلال ولا ظلام، ولا محل لتلك الهوامش الغامضة حيث تستطيع أن تلتجئ بقية من خطأ؛ لا تعلل ولا تسامح، ولا مغفرة. وتحوطه نفس المسائل ولا تكف عن مواجهته: أيسمح اللّه بأن يترك إثبات وجوده للارتضاء العام[1]؟ هل منح اللّه الحرية البشر، أم يقودهم القدر؟ إذا كان هناك إله فلم خلق الظلم ومختلف أنواع الشر؟ إن بايل لا يساوره الضجر، بل يتقدم بحل: حل يرمي إلى القول بأنه من المحال أن نؤكد شيئًا، أو أن نعرف شيئًا!

ويعود ذلك البحاثة الكبير إلى عمله مستزيداً من جسارته، وأكثر شعوراً بمسئوليته. يريد أن يثبت بالدليل القاطع أن ليس بين الدين والفلسفة قياس مشترك: فطالما يخلط الناس بينهما فستذهب جهودهم أدراج الرياح. وهو يزعم أنه لا يهاجم

(١) - القاموس، باب Manichéens، بيان D.

العقيدة بوصفها عقيدة، بل يظهر بمظهر يدل على احترامه لها، قائلاً إنه لا يفعل شيئًا غير اتباع وترديد ما يدلي به المدافعون عنهامن حجج وبراهين: أفلا يعترفون بأن كل دين يقوم على سر أولي؟ تلك حقيقة الأمر، سر يجافي المنطق، ووضع يتنافى مع مجريات الحال ولا يتفق مع وجود عقل مفكر- بل إنه يقتحم القلعة لكي يزلزلها، وينشر بين حماتها الاضطراب والذعر. فتراه يقول لهم، إننا إذا قبلنا الوحي يظهر الدين حقيقيًا، وتتابع مبادئه متفقة مع المنطق. غير أنه يضيف أن الوحي لا يمكن إثباته. فتصديقك شيء، واستعمالك العقل شيء آخر.

لا توسط ولا تجزئة، إن رفضك هذا المعتقد أو ذاك لتقبل هذا المعتقد أو ذاك، لهو التعارض البين، إنه السخف بعينه «خيل إلى من مطالعة بعض رسائلك أنك تدعي أنه فيما يتعلق بالتثليث وببعض مواد المسيحية الأخرى، يجب على العقل أن يسجد أمام سلطان الله، أما فيما يتعلق بخطيئة آدم وما ترتب عليها، فيجب أن يخضع الكتاب المقدس لمحاكمة الفلاسفة. فإذا كانت لديك تلك الفكرة حقًا، وإذا كان قد وصل بك التباين إلى هذا الحد، فإنك لتستدر رثائي ...»[1]. هل أنت من أشياع الأسرار؟ إذن فاعتقد بها، سواء اتفقت مع الفلسفة أو لم تتفق، أو كانت تنقضها الفلسفة ببراهين لا ترد. ولكن عندئذ لا تدعي أنك تستعمل عقلك. وأولئك الذين يريد بايل أن يقنعهم بحماقتهم أو بغفلتهم، ليسوا الكاثوليك وأتباع كالفين فحسب بل كل أصحاب النحل الأخرى ممن يدعون إثبات وجود الله بالنور الطبيعي، وكل أولئك يسميهم جماعة «الدينين»Religionnaires[2]، ويقابلهم «العقليون»Rationaux .

---

(١) - «جواب على أسئلة قروي»، الجزء الثالث الفصل، ١٢٨، ١٧٠٩، Réponse aux questions d'un provincial, t III. chap CXXVIII, 1706.

(٢) - جواب على أسئلة قروي، الفصل ١٣٤ ... «الدينيون (اسمح لي أن أستعمل هذه الكلمة للدلالة على اليهود، والوثنيين والمسيحيين والمسلمين. .)». Ibid chap CXXIV ... "Les Religionnaires (permettez-moi de me servir de ce mot pour désigner en commun les Juifs, les Payens, les Chrétiens, les Mahométans, etc)".

ولكن حينما تفترق القوتان بعضهما عن بعض على هذا الغرار، يجد العقليون لزاماً عليهم، لكي يظلوا منطقيين مع أنفسهم، أن يمحصوا مبدأهم الخاص، وهنا يبدأ الاضطراب. واأسفاه! فإن الفلسفة لا ترتق الخروق التي تثقبها بالرغم من كل ما تتخذه من تدابير. فهي إذا كانت قادرة على تقويض التوكيدات الموروثة، فإنها عاجزة عن إبدالها بشيء سوى الاستفهام. هل الإنسان حر؟ أم يخضع للقدر؟ «لن ننتهي إذا طرقنا مسائل الحرية، فلكل فئة موارد لا تفنى ... » إن الاختيار Le Libre arbitre لمسألة معقدة حافلة باللبس، حتى إننا لو تعمقنا فيها لناقضنا أنفسنا ألف مرة، ولاستغرقنا نصف المدة في استعمال نفس كلام مخالفينا، ولهيأنا بأنفسنا أسلحة ضد قضيتنا ...[1].

هل الروح أبدية؟ إنها لكذلك ولو لم تكن لكانت مادية. —هل هناك إله سامي الحكمة واسع الرحمة؟ ربما، ولكن كيف نعلل بأي دليل رضا هذا الإله الحكيم الرحيم بأن يعذب مخلوقاته في أجسامهم وفي أرواحهم؟ رضاه بأن يحملهم المسئولية؟ إن هذه النظرة التي تحضره لأول وهلة، وهذا الواقع الذي يقرره، والذي يصدم عقله فيثير شعوره، يهولانه ويروعانه. وتنتابه قشعريرة: «أولئك الذين يسمحون بحدوث شر في مقدورهم أن يمنعوه في يسر، يستحقون اللوم؛ أولئك الذين يدعون شخصاً يهلك وفي وسعهم إنقاذه مسئولون ولا شك عن موته. سلوا فلاحة ساذجة: الأمهات اللواتي لديهن فيض من اللبن، ويؤثرن أن يتركن أولادهن يموتون جوعاً بدلاً من إرضاعهم، ألسن مجرمات كاللواتي يرمين أولادهن في الماء سواء بسواء؟ الوالد الذي يرى أحد أبنائه يوشك أن يضع السم في فمه ويدعه يفعل، على الرغم من علمه بأن نصيحة يسيرة منه أو إشارة بعينه تمنعه من تجرع السم، ألا يكون مخالفاً لآدميته، كما لو كان جرعه السم بيده؟[2]».

---

(١) - جواب على أسئلة قروي، الجزء الثالث الفصل ١٤٢، ١٧٠٦.

(٢)- جواب على أسئلة قروي الفصل ٧٤ وما بعده، نقض كتاب وليم كنج W. King عن أصل الشر Origine mali لندن ١٧٠٢.

كيف يتبادر إلى الذهن تشبيه الله بهذه الأم القاسية أو ذلك الوالد المجرم؟ جهدت النفوس الصالحة وسعت؛ وخيل إلى لاهوتي أنجليكي، وهو وليم كنج الطيب القلب، أنه قد برّر وجود الشر، إذ نشر بحثًا ضخمًا باللاتينية متوهمًا أنه حل المسألةالتي لا تحل. بيد أنه لم يحل شيئًا، فهي مشكلة أعقد من ذنب الضب.

يا للإنسان من نسيج من المتناقضات! «الإنسان هو العقبة الكؤود أمام النظريات. إنه الصخرة التي تعترض الحق وتعترض الباطل. إنه يربك الطبيعيين ويربك الأورثوذكس... إننا هنا أمام عمه أصعب في تبديده من عمه الشعراء». نحن نشن الحرب على الضلال ولكنا نخشى أن نجد في نهاية الكفاح، أن أرواحنا أكثر انسجامًا مع الكذب منها مع الحق[1]. ونضع كل ثقتنا في قوة العقل السديد ثم نكتشف أنه لا حول له ولا قوة. «لا حيلة للعقل أمام الطبع، فهو يدعه ينتقل من نصر إلى نصر وينقاد له أما كأسير وإما كمداهن. وهو يغالب الشهوات ردحًا من الزمن، ثم يلوذ بالصمت ويسكن ويكتم الحزن، ثم يذعن[2]» نحن نحس أنه لا يستوثق أبدًا من توكيداته، وأن أوضح الأفكار في الظاهر، ليست إلا مسائل عويصة في الواقع. إن الارتياب يعود فيهدد، بينما الفكر يذوي ويهن.

* * *

لكن هل يسير بايل حتى الشك المطلق؟— لقد كان يصل إليه لو أنه انقاد لطبيعة ذهنه، إلا أن الرهان الفلسفي le Jeu du pour et du contre كان لذته الكبرى. ولو أنه كان منطقيًا صرفًا، ولو لم يحسب حسابًا إلا لما وصل إليه من تجاريبه الإنسانية، وللاستنباطات التي كانت تفرض نفسها على عقله كل يوم أكثر من سابقه، لوصل إلى تلك المناطق الفسيحة من الغموض حيث لا يجد المرء حافزًا

(١) – جواب على أسئلة قروي، الجزء الثالث الفصل ١٠٣، ١٧٠٩.
(٢) – جواب على أسئلة قروي الفصل ١٣، ١٧٠٤.

للعمل أو باعثًا على الوجود، ولاستطاع بل لتحتم عليه أن يصل إلى ما يسميه لي كلير الارتياب الميتافيزيقي والتاريخي، أي الشك المطلق.

ولكنه صمد وقاوم. فإن شجاعته واعتقاده بأن عليه رسالة لابد من تحقيقها، وكراهيته للضلال التي كانت أقوى من كل شك يساوره حيال اليقين، وعقله الذي أبى الاذعان التام لما لقيه من انهزام، وفوق كل ذلك مجهود واع بصير بارادته، كل هذا أتاح له أن يحجم عن الخطوة الأخيرة. لم يقبل أبدًا أن يتخلى عن اعتقاده في أن أمامه خير أخلاقي ليحققه، وتقدم ليؤازره. وفي هذا المعنى يقدم لنا «القاموس» فقرة مؤثرة، وهي في باب ماكون Mâcon تعليقD «لماذا ألمس هذه المفاسد المروعة؟» Pourquoi Je touche ces effroyables désodres . هذه المفاسد المروعة، وتلك الحروب الدينية التي اتخذت ذريعة لأحط أنواع البربرية، هذا الخروج عن الآدمية، أليس الأفضل أن نمحو ذكرها وأن نزيل تذكارها؟ ألا يعني تكرارها أننا نغذي في العقول حقدًا أكولاً لا يخمد؟ «ألا يستطيع الناس أن ينعوا علي أني كأنما أقصد إيقاظ الأهواء، وإشعال نار الأحقاد، بنشري هنا وهناك في كتابي أفظع ما عرفه القرن الماضي من وقائع وأحداث؟ بلى، «فبما أن لكل شيء وجهين، فهناك أسباب قوية تدفعنا إلى أن نتمنى أن تبقى ذكرى تلك المفاسد المروعة ماثلة محفوظة بعناية». ينبغي أن يكون الحكام ورجال الكنيسة واللاهوت على علم بالشرور الماضية ليجتنبوها في المستقبل. هكذا يفاضل بايل بين وجهي الأشياء، ويختار الوجه الذي يستشف فيه بعض الأمل. ومع أن الشك قد خامره في إمكان وصوله يومًا إلى اليقين المطلق، فقد كان يعتقد أن الباطل مرض معد، وأن رسالته أن يضع حدًا لما يسبب من أضرار. إنه طبيب للعميان، أقل ما يجب عليه أن يزيل الغشاوة عن بعض الأبصار.

ولم يقلد بايل أصحاب العقول السقيمة الذين حمل عليهم ساخرًا «إنهم يفتعلون العظمة والشجاعة أمام الله طالما كانوا في عنفوان الصحة وأوج الحظ

والسعادة، فإذا ظنوا أنه قد حاق بهم مرض أو مصيبة، أو أدركتهم الشيخوخة، انحدروا كالعادة حتى إلى الخرافات؛ وإذا أحسوا أنهم على شفا الموت، كانوا أكثر من الآخرين توفراً على تجهيز كل معدات الرحلة إلى العالم الآخر ...» ولقد بقي بايل حتى أخريات أيامه مهاجماً متعدياً. ضد من لم يشهر السلاح؟ شيرلوك Sher-lok، تيلوتسون Tillotson، كادورث Cudworth، وليم كنج W. King، جان لي كلير Le clerc، جوريو Jurieu، أرنو Arnauld، نيكول Nicole، برنار Bernard، وأخيراً جاكلو Jaquelot الذي هاجم «القاموس» والذي كان أكثر من خصم عادي لادعائه بأنه أثبت العقل مع القلب. ولقد كان جاكلو رمزاً للأفكار التي تأبى الاجتلاء، رمزاً للمشاكل التي تستعصي على العقل، ومثالاً للضعف البشري. ولما ضعف بايل أخيراً ووقع فريسة للسعال والنزلة الصدرية، ونهكته الحمى، لم يكف عن استغلال فترة الموت في الردود والجدال. وإذا كان قد خالجه الأسف على شيء، فهو لضطراره إلى الارتحال قبل تفنيد أخطاء جاكلو[1].

إن تفكيره النقدي كعطر مركز أقوى من أن يستعمل في حالته الخالصة، بل مقصود في صنعه أن يخفف: وهذا عين ما حدث. أصبح تفكيره -عن طريق «القاموس»، وبخروجه من نطاق المنازعات بين رجال اللاهوت ودخوله في متناول الجميع «حتى شاهد الناس الاعتراضات في كل ضيائها»، وبايحائه بالأثوردكسية في كل البلاد- داعياً إلى صعوبة التصديق والاعتقاد. «لقد أصبح معلوماً أن

---

(١) - إسحق جاكلو Jaquelot: «توافق العقل والإيمان، أو دفاع الدين ضد الصعوبات الأساسية المنتشرة في القاموس الفلسفي الانتقادي لمسيو بايل»، أمستردام ١٧٠٥. لقد كانت هذه الأزمان أزمان بطولة، حيث لم يوجد من يرضى بأن يترك لخصمه الكلمة الفاصلة الأخيرة، وحيث كان يتعقب المبارزون العنيدون خصومهم حتى بعد الممات. ارجع إلى لي كلير «المكتبة المنتخبة» جزء ١٢، ١٧٠٧؛ ملاحظات عن محادثات مسيو بايل نشرت بعد وفاته «كنت أعرف كل ما يستطيع مسيو بايل أن يقوله ضدي، وكنت مستعداً لأن أتحمل كل حدته وكل شتائمه، بدلاً من أن أيسر له السعادة في أن يكون آخر من يتكلم، السعادة التي كان ينتظرها بفارغ صبر.»

مؤلفات مسيو بايل قد ملأت بالشك عدداً وفيراً من القراء، وغلفت بالريب مبادئ الدين والأخلاق العالمية المكتسبة[1]».

* * *

عقب معارك الأفكار في القرن السادس عشر، ظهر اقتراح بالسلام. إنه عرض بالتهادن: سيقدر الناس أن المسائل التي طالما أضنتهم قد حلت، ظانين أنهم يهيئون بذلك للبشر أن يعيشوا دون عذاب الهموم المقيمة. وتراهم ينشطون، ويوجهون اهتمامهم نحو مبتدعات الفكر الخالصة، ويتذوقون متعة المجتمع، ويتعلمون حسن المعاشرة، فيصبحون على الأقل راضين مسرورين إن لم يكونوا في غاية السعادة. وتجدهم يضفون على ارتضائهم هذا نوعاً من الشجاعة ومن العظمة، ويلقون في أمانهم الاختياري نوعاً من الجلال، مثلما تجد في تنظيم خلية، وما فيها من تدرج طبقات، وقوانين، وفي إنتاجها وتكاثرها، نظاماً يفترض آلافاً من التضحيات.

ولكن كيف السبيل إلى استتباب ذلك السلام، إذا كانت المبادئ السيكولوجية التي يقوم عليها تتغير قبل أن تتوطد؟ المرتحلون والشاردون والفضوليون والمعذبون وأولئك الذين يكرهون الاستقرار، والمحدثون الذين لا يرون في حالة الفكر التاريخية إلا الضعف والرياء، والقادمون الجدد الذين لا يدركون حتى أصول التفكير لدى الشعوب اللاتينية، وكل من يحتج، وكل من يشك ولا يرى المسألة السياسية قد لقيت حلاً، ودونها في ذلك أيضاً المسألة الدينية: كيف تملك نفسها وتربط جأشها هذه الكتلة المتراصة القوية؟ إنها تشن الحرب على المعتقدات التقليدية، كبداية.

(١) - المكتبة الألمانية، الجزء ١٨، ١٧٢٩، Bibliothéque germanique, t. XVIII année 1729.



القسم الثاني

ضد المعتقدات التقليدية





العقل الذي يبني
(صورة غلاف القاموس التاريخي النقدي لبيير بايل. روتردام ١٦٩٧)



الفصل الأول

العقليون

إن مجهولاً يدعى العقل قد حاول منذ سنين أن يقتحم كليات الجامعة قسراً، وأراد أن يناقش أرسطو وأن يطرده، بمساعدة بعض النكرات المهرجين الذين يلقبون أنفسهم بتلامذة غاسندي، وديكارت، ومالبرانش، أولئك المشردين[1]...

وكان هذا صحيحاً، فقد دخل العقل المتهجم إلى المسرح، لا ليناقش أرسطو فحسب، بل كل من فكر وكل من كتب، وهو يزعم أنه قد أزمع القضاء على كل أخطاء الماضي، وبدأ الحياة من جديد. ولم يكن نكرة مجهولا، بل كان الناس قد استشهدوا به في كل آن على مر الزمان، ولكنه كان يتقدم في وجه جديد.

فهل كان العقل يدعى أنه العلة، وعلى الأخص العلة الغائية؟[2] - كلا لم يدع ذلك. - أم كان يدعى أنه مقدرة؟ تلك المقدرة التي نفترض أن الانسان يتميز بها

---

(١) - فرنسوا برنيه وبوالو ديسبريوBoileau Despréaux ، عريضة لأساتذة في الآداب ١٦٧١.

(٢) - بحسب عقيدة قديمة، العقل أعطى للإنسان لكي يصل به إلى متعة المعرفة، هي أكبر المتع وأطهرها، فيها نجد السعادة التي هي «علة» الحياة. (أنظر في هذا الصدد مؤلفات أفلاطون، طبع جارنييه مقدمة... Préface de E. chambry] المترجمان]

عن العلة الغائية Cause Finale أنظر القاموس الفلسفي لفولتير Voltaire, Dict. philos. Fin يقول البعض، إذا كان الله قد خلق شيئًا لغاية معينة فإنه خلق كل شيء لغاية معينة. من السخف أن نعترف بالعناية الالهية في ظرف وأن ننكرها في ظروف أخرى؛ فكل ما صنع كان مقصوداً، مرتبًا، فلا ترتيب بلا موضوع، ولا نتيجة بلا علة. إذن فكل شيء على السواء نتيجة لعلة غائية، إذن يجوز القول بأن الأنوف قد خلقت لتحمل المناظير، والأصابع لتتحلى بالجواهر، كما يجوز أن نقول إن الأذن إنما خلقت لاستماع الأصوات، والعيون لاستقبال الضوء. =

عن الحيوان، وبديهي أن يفوقه في ذلك بكثير؟ - ما في ذلك من شك؛ ولكن على شرط أن نمد حقوق هذه المقدرة السامية بحيث لا يحدها حد ولا تنقصها جرأة. وفضل العقل وضع مبادىء واضحة، حقيقية، لكي يصل إلى نتائج لا تقل وضوحًا وحقيقة. وجوهره الفحص، ومهمته الأولى البحث فيما غمض وفيما استغلق وفيما أظلم، لكي يضيء الدنيا بنوره. وكان العالم زاخرًا بالأخطاء التي خلقتها قوى الروح الخادعة، واحتضنتها سلطات لا تخضع لرقابة، أخطاء استشرت بفضل التصديق الساذج والكسل، وتكتلت وتقوت بفعل الزمن: فكان على العقل أن يبدأ العمل بحركة تطهير واسعة. كانت رسالته القضاء على تلك الأخطاء التي تلك الأخطاء التي تجل عن الحصر، فأسرع لانجازها وتعجل. وإنها لرسالة تكمن في صميمه، في قيمة كيانه الذاتي.

وأسرع العقليون يلبون النداء، في نشاط، وغيرة، واستبسال.

وكانوا فرنسيين، وإنجليز، وهولانديين، وألمان، يمدهم بعبقريته يهودي يكرهه الجيتو[1] يدعى سبينوزا Spinoza. وما أشد اختلافهم! وما أكثر تعارض النقط التي بدأوا منها لكي يصلوا إلى غاية واحدة! إن تركز القوات هذا لشيء مدهش يأسر النفس!

* * *

= «أعتقد أنه يسهل إيضاح هذه النقطة. إذا كانت النتائج واحدة لا تتغير في كل مكان وكل زمان، وإذا كانت هذه النتائج الموحدة تستقل عن الكائنات التي تخصها، حينئذ هناك قطعًا علة غائية. فلكل الحيوانات عيون تبصر بها، ولها كلها آذان تسمع بها، ولها كلها أفواه تأكل بها، ولها كلها فتحات تتبرز منها؛ هذه علل غائية واضحة. وإنه لافساد لقدرتنا الفكرية أن ننكر حقيقة عالمية مثل هذه. أما الأحجار في كل مكان وكل زمان فلا تبنى عمارات، وكل الأنوف لا تحمل مناظير، وكل الأصابع لا تتحلى بخواتم، وكل الأرجل لا تغطيها جوارب حريرية. وإذن فدودة القز لم تخلق لتغطي رجلي، كما خلق فمك لتأكل به، وكما خلق دبرك لتذهب إلى المرحاض. وعلى ذلك فهناك نتائج وليدة العلل الغائية، ونتائج عديدة لا يمكن تسميتها بهذا الاسم». [المترجمان].

(١) - الجيتو: الحي الذي يقطنه اليهود وهو في العادة الحي الفقير في المدينة. وكان أصل الكلمة يطلق على أحياء اليهود في إيطاليا في القرن السادس عشر. [المترجمان]

وإنك لتجد أولا المتحررين. ومنهم الانجليز، مثل وليم تمبل Willam Temple الذي ابتعد عن صخب السياسة، ليبحث عن السعادة في حياة هادئة وادعة، حياة أبيقورية مع شيء من الحكمة. وهناك المتحررون الفرنسيون، على الخصوص. ولم يكن هذا الجنس المتحرر ناشئًا فتيًا، فقد عمل على انتشار فلسفتين عى الأقل: أولاهما فلسفة بادوا، أي مدرسة بومبانوزى pomponazi وكاردان[1]. والثانية فلسفة غاسندي في جانبها غير المسيحي. ولقد واصل غاسندي نظرية أبيقور[2] وما بها من ذرات وروح مادية، مصفيًا أفكاره - معقداً إياها - : حتى أضفى على تلك الأفكار عظمة فلسفة ليس يسيراً أن تدرك، وأضاف لوناً من الجدة والطرافة إلى نفوذ تقليد قديم. فلما جاء المتحررون يقتفون أثره، تشكلت منهم طائفة، أخذت تزداد أهمية، وكأنما تزداد منزلة.

بيد أن غاسندي وقف يواجه ديكارت، وقام بينهما جدال تبودل فيه الهجوم الشديد، وكانت المبارزة بين الخصمين أمام شرفة غصت بالنظارة المشرئبين. وكان غاسندي يقول لديكارت «أيها العقل الصافي! أيها الروح! ويقول له ديكارت «قلْ لي أرجوك، أيها الجسد...[3].».

ولقد انهزم غاسندي. صحيح أنه لا يزال له بعض الأتباع، في انجلترا، وألمانيا، وسويسرا، وإيطاليا، ولكن عددهم قليل، وقد امحقوا، كسفهم مجد ديكارت الذي غزا أوربا المفكرة، ثم مجد لوك ذلك النجم الجديد. وقد حاول

(١) - كاردان Cardan فيلسوف إيطالي ولد في بافي (١٥٠١ - ١٥٧٦).

(٢) - أبيقور Epicureعند أبيقور، الغرض من الحياة هو التمتع بها. فالمتعة شيء إلهي، بل هي علة الحياة. فلنبحث عن حياة من المتعة والسعادة نلقى فيها النهاية العظمى من اللذة والسرور مقابل النهاية الصغرى من الألم. إنما المقصود بالمتعة ليس متعة الشهوات الغليظة، بل متعة العقل وبتهذيبه وتدريبه على الفضيلة. وكما قال فنيلون: إن الناس أساءوا فهم مذهبه واتخذوه مثلاً عل الفجور، حتى أصبحت كلمة أبيقوري مرادفا للشهواني. [المترجمان].

(٣) - «بحث ميتافيزيقي لبيير غاسندي، ...» أمستردام ١٦٤٤، Petri Gassandi Disquisitio metaphsica, seu dubitations et instantia, adversus Renati Cartesi metaphysicum. et responsa. Amstelodami, 1644.

فرانسوا برنييه، الذي نشر في باريس في عام ١٦٧٤ مختصراً لفلسفة غاسندي AbArégé de la philosophie de M. Gassendi لقي قبولاً حسنًا من الجمهور حتى أعيد طبعه عدة مرات، - حاول أن يمد تأثير نظرية تلقاها من فم أستاذه مباشرة: ولكنه كان يعوزه في ذلك ما في الاعتقادات القوية من حمية وحيوية، فقد كان يكثر من ترديد تعبير «على كل حال» إلى المديح، وهو تعبير يحدّ من التأثير: «إن فلسفة غاسندي لتبدو لي - على كل حال - أكثر الفلسفات تمشيًا مع المنطق، وأبسطها، وأعمقها تأثيراً، وأسهلها . . .». أما ما كان ينتصر لديه فهو الشك: «إني أتفلسف منذ أكثر من ثلاثين سنة، ومع اقتناعي كل الاقتناع ببعض الأشياء فقد بدأ الشك يساورني فيها . . .». مثله في ذلك مثل الشاعر سيمونيدس الذي طلب منه الملك هيرو أن يصف له الله، فالتمس يومًا كمهلة، وفي اليوم التالي التمسَ من الملك أن يمدّ المهلة إلى يومين، ثم في اليوم التالي إلى أربعة أيام . . . وهكذا، حتى تعجب الملك من ازدياد عدد الأيام فسأله، فأجاب الشاعر بأنه كلما فكر في الأمر كلما ازدادت أسباب الغموض.

إذن فليس لدى المتحررين مذهب قطعي صريح. فلنعترف بأنهم ليسوا فلاسفة متعمقين، فلاسفة السهرات هؤلاء. إنهم يقنعون بتصفح أشعار هوراس كأنها كتاب مقدس، أما نظرياتهم الميتافيزيقية فقصيرة مختصرة. إذن فما منشأ إشاعتهم الاضطراب في صفوف حراس التفكير الأرثوذكسي؟ ذلك على التحقيق لأنهم ينقصهم الروح الميتافيزيقي. إن طبيعتهم عاصية متمردة عنيدة، وتربيتهم الأرستقراطية لا أثر لها إلاأن تقوي فيهم الشك. فهم أشبه بتلك الروافد السريعة التي تراها في كل مكان في ميدان العقل، والتي تتدفق فتوسع نهر الالحاد. عقل يدعي أنه يفكر من تلقاء نفسه، وإرادة تأبى أن تحد؛ أولئك ليسوا فلاسفة متعمقين، ولكنهم «فلاسفة» على كل حال، إنهم يعتقدون أن السر الديني ما هو إلا لغز لا يعنينا إدراكه، وإذا لم يدركوه فإنهم لا يلقون إليه بالاً، لأنهم يعيشون على هامش الدين، لا في الدين. مادام هناك ظلام، وما دمنا لا نستطيع أن نبدده، فلنستفد على الأقل من هذه الحياة الفانية، فلنتذوق في رقة، ماتقدمه لنا من

متعة، ولنستسلم لحكم القدر. ولعل ذلك إهمال خلقي، ولعله تفسير للحياة أسوأ تفسير، ولكنه مذهب قد اجتذب إذ ذاك عقولاً عديدة لم تكن عقول عوام.

هكذا كان المتحررون الفرنسيون: فئة فائقة الرقة والترف محتوم عليها إما أن تتجدد عن طريق المحالفة مع فئات أقوى منها وأخشن، وإما أن تنحدر إلى التلف. وهكذا كان جان ديهينو، الذي خلف جي باتين ودي لامت لي فايية وترجم مؤلفات الشاعر الروماني لو كريس Lucréce كما فعل كثيرون غيره، والذي عبر عن أفكاره الانكارية أحسن مما عبر الآخرون، تعبيراً قوياً مشوباً بحزن عميق:

Tout meurt en nous quand nous mourons;

La mort ne laisse rien et n'est rien elle-même;

Du peu de temps que nous vivons

Ce n'est que le moment extrême.

Cesse de craindre ou d'espérer.

Cet avenir qui la doit suivre.

Que la peur d' être èteint, que l'espoir de revivre

Dans ce sombre avenir cessent de T' égarer.

L'ètat dont la mort est suivie

Est semblable à l'ètat qui précède la vie

Nous sommes dévorés du temps.

La nature au chaos sans cesse mous rappelle.

Elle entretient à nos dépens

Sa vicissitude èternelle.

Comme elle nous a tout donné,

Elle aussi reprend tout notre être.

Le malheur de mourir égale l'heur de naître,

Et l'homme meurt entier, comme entier il est nè... (١)

وهكذا كانت مدام ديهوليير Mdme Deshoulières؛ وهكذا أيضًا كانت نينون دي لانكلو، (٢) التي كانت مقتنعة بأنها لا روح لها، ولم تفارقها هذه العقيدة حتى في شيخوختها، بل في احتضارها..

---

(١) - كل شيء فينا يموت عند الموت؛
والموت لايدع شيئًا وراءه، وهو نفسه لا شيء؛
إنه ليس إلا اللحظة الأخيرة
من الوقت القصير الذي نقضيه.
لا تخش ذلك المستقبل الذي سيتبعه
ولا تأمل فيه.
ولا يخدعنك ذلك الخوف من الهلاك
ولا أمل البعث في ذلك المستقبل البهيم.
فإن ما بعد الموت شبيه بما قبل الحياة.
إن الزمن يفترسنا
والطبيعة تدعونا باستمرار إلى الهوة.
إنها تغذى على حسابنا تطوراتها الأبدية.
هي التي وهبتنا كل شيء،
ولذا تسترد منا كل الوجود.
إن بؤس الموت يعدل فرحة تنسم الحياة.
والإنسان كما ولد بأكمله، بأكمله يموت.
من مؤلفات جان ديهينو، ذكرها فردريك لاشير، ١٩٢٢ ص٢٧ Imitation du choeur de, l'acte second de la Troade de Sénéque, OEuvres diverses, 1670, citè par Frèdèric Lachèvre, OEuvres de Jean Dehènault, 1922, p. 27.

(٢) - نينون دى لانكلو Ninon de Lenclos : غادة مشهورة بذكائها وجمالها ولدت في باريس وكان صالونها كعبة للأدباء والنبلاء، (١٦٢٠ - ١٧٠٥). [المترجمان].

ولكن أنضر زهرة في تلك الطاقة كان مولانا شارل دي سان دينس[1] messire charles de Saint-Denisمارشال جيوش «الملك المسيحي جداً». منذ عام ١٦٦١ - حين لجأ (سانت افريموند) إلى انجلترا، هارباً بعد فقده الحظوة لدى ملك فرنسا والوزراء - حتى وفاته في عام ١٧٠٣، لم يعرف مهمة أخرى غير أن يكون متحرراً: وبذا وجد وقتاً فسيحاً لكي يصبح نموذجاً فذاً للمتحررين، وهكذا بدا للفرنسيين الذين كانوا يأسفون عليه، وللانجليز الذين كانوا يحبونه، وللهولنديين الذين أقام بينهم زمناً طويلاً. كان يوجد في شخصه وفي بعض ميول ذهنه شيء من التأخر والرجعية: مثل الرجل الذي اضطر إلى تغيير عاداته وحياته وهو في عنفوان شبابه فتراه يحاول ألا يقع أسيراً لماضيه. هكذا بقي «رجلاً فاضلاً» حتى في وقت عز الفضلاء فيه، وبدأ ذلك المثال الجميل للإنسان بعدما فقد قوته يحتل مكاناً بين الذكريات. وهو كرجل فاضل لم يفتخر بشيء، وإذا ما تناول اليراع كثيراً ليكتب، فليس ذلك - كما يقول - على منوال أستاذ يكتب للتعليم، في ألفاظ قاطعة من الحكم والأمثال، بل كرجل مجتمع يحاول أن يمضي وقت الفراغ. لم تكن كل هذه الرياضيات والطبيعة التي انشغل بهاالناس من حوله، تثير اهتمامه. فعنده أنه لاعلم يهم ذوي الفضل والشرف سوى علم الأخلاق، والسياسة والأدب: وهو استعداد رجعي في زمن يوشك العلم فيه أن يؤيد عمل الفلسفة ويكمله، زمن من يبق فيه بمبعدة عن العلم، يتعرض للبقاء على هامش الحياة. كان سانت إفريموند مشغوفاً بالدراسة الدقيقة لمؤلفات القدماء، وبالمقارنات المتزنة التي يجريها ناقد نبيل بين المؤرخين، وبين الخطباء، وبالتحليل والموازنة، وتصوير الشخصيات، وغير ذلك مما يجد فيه عقل رقيق بطبيعته تجربة لقدرته السيكولوجية؛ وكان يباشر المحادثة وليس هذا في حاجة إلى تبيان. وقد نال كل مبتغاه حينما جاءت هورتانس مانسيني دوقة مازارين لتقيم في لندن، وافتتحت صالونا: صالونا سيغشاه كل يوم، وذلك هو ما كان ينقصه حتى الآن في الحياة.

(١) - لقب آخر لسانت أفريموند. [المترجمان]

وكان أبيقورياً، يرى أن ليس بين آراء الفلاسفة عن الخير الأسمى، رأي يبدو أصح من رأي أبيقور. كان يريدأن يعيش مجارياً الطبيعة، وهو وإن لم يدرك تمام الإدراك- في الحق- ما هي هذه الطبيعة، . إلا أنه عرف كيف يعيش عيشة رقيقة ناعمة. كانت السلطة تحميه حتى لما تغير صاحبها بانتقال الحكم من يد جاك الثاني إلى يد وليم الثالث، وكان يشغل فراغ أيامه بعادات لطيفة منظمة، وكان نهماً أكولا، يعين متعه بدقة حتى يكون أكثر تلذذاً بتذوقها، فكان بذلك كله مثالاً ظريفاً لحب الذات. كان يبغض فكرة الامتناع والحرمان، والزهد وتعذيب النفس. أما الاعتدال والاتزان، وعدم الاكتراث الذي يتيح للمرء تجنب الشهوات، وحب الذات في رقة، فيراها فضائل أساسية، ومثل ذلك التوفر على حفظ الصحة، فإنه خير قيم، جعلنا اعتياده نبخسه حقه من التقدير.

وقد أصيب بعاهة نغصته، لما بلغ السبعين من عمره. يقول لنا دي ميزو ناشره ومؤرخه الأول «كان لسانت افريموند عينان زرقاوان حيتان براقتان، وجبين عريض، وحاجبان كثان وفم جميل وابتسامة ماكرة، وطلعة طريفة ناطقة بالذكاء، وقوام ممشوق، وخطو نبيل وثيق، وقبل وفاته بعشرين عاماً ظهر بين عينيه كيس دهني، كبر كثيراً فيما بعد...» ولكنه قابل ذلك بتصرف حكيم: فليس بذي أهمية أن يصاب المرء بدمل بين عينيه، ما دام باقياً على قيد الحياة. «إن ثمانية أيام من الحياة. لأثمن من ثمانية أيام من المجد بعد الوفاة.» كان يعتز بتلك الحياة التي أفلح في إطالتها بمهارته، والتي رقت له بعد عوائق شبابه. لم يصبه إلى متعة أخرى، ولقد كان دون ريب يؤثر على كل ماكتب تخليداً لذكره، الكلمات الآتية:

Aimè de plus d'un roi, chèr a plus d'une dame,

Il connut peu l'orgueil, peu l'amoureuse flamme, (1)

Ecrire et bien manger, fut son double talent,

---

(١) - أحبه أكثر من ملك، وأعزته أكثر من حسناء،
عرف الكبر قليلاً، ولفحته شعلة الغرام؛

Il nourrit pour la vie un amour violent,

Connut à peine Dieu, mais point du tout son âme...[1]

والحق، أنه شعر بحب شديد للحياة، ولكل ما يجعلنا نقدر الحياة: حرية التصرف من تلقاء الذات، وفوق كل حرية، حرية عقل لا يقبل إلا قانونه الخاص.

هل ينبغي أن نتصور له نفساً أكثر تعقيداً؟ هل ينبغي أن نعتقد أنه سبك قصته الشخصية، وأراد أن يخلف للناس صورته، مرسومة حسب بدعة المتحررين، بينما سانت أفريموند الحقيقي، يحن إلى وطنه، ولا يشك إلا قليلاً، ويأمل دائماً؟ ذلك ليس مؤكداً، ولو أنه طالما أيده الكثيرون. فإنه، عندما تقلقه حالة الإنسان التعسة، ويطلب صعوداً إلى درجات الملائكة، أو سقوطاً إلى درك الحيوان، لا يبتهل إلى «الاله» الذي مات على الصليب، والذي يهينه مثل هذا الطلب، وإنما يبتهل إلى الطبيعة:

Un mèlange incertain d'esprit et de matière

Nous fait vivre avec trop ou trop peu de lumiére,

Pour savoir justement et nos biens et nos maux.

Change L' état douteux dans lequel tu nous ranges,

Nature, èlève-nous à la cLarté des anges.

Ou nous abaisse au sens des simples animaux.[2]

---

(١) - موهبته المزدوجة، الكتابة وجودة الطعام.
أحس حيال الحياة حباً جارفاً شديداً،
يكاد يؤمن بالله، ولم يؤمن قط بالروح.

(٢) - إن مزيجاً مبهماً من المادة والروح،
يجعلنا نعيش بكثير - أو بقليل - من النور،
لندرك ما يصيبنا من خيرات وشرور. =

وعلى كل حال، فحتى لو كانت تلك الصورة المتفقة قد اختلفت عن أصل حافل بالتردد والتناقض، فسيبقى ذلك الأصل سراً مطوياً، ولا يشتهر إلا الرجل المتحرر: «لو أننا درسنا حياته ومؤلفاته، بحثاً عن رجل جاد رزين، وعن حياة فيلسوف، فلن يطول بنا الأمر حتى نكتشف أننا قد وقعنا في خطأ كبير، وأن امرأ يسلك مسلكه، لن يكون يوماً فيلسوفاً جاداً، يعيش بمبعدة عن المتع الحسية... وفيما يتعلق بمؤلفاته، سيخيب رجاؤنا إذا نحن بحثنا فيها عن علم ضليع بالفلسفة، أو بالتاريخ القديم، أو عن صرامة رواقية[1] أو تنسك، إذ نقرأ كتبه من أولها إلى آخرها دون أن نجد شيئاً مما كنا ننشده». أبيقوري خفيف: هكذا يصفه جان لي كلير في مجلته «المكتبة المنتخبة»، في تعليقه على نشر مؤلفاته في أمستردام[2].

أي جديد يأتي به سانت أفريموند في طائفته، ذلك الرجل المتحرر، بشير العصر الجديد؟ أولا، لمحة تدل على جامعيته Cosmopolitisme، لا لاهتمامه بأدب البلد الذي يقيم فيه، ولا لترجمته «فولبون»Volpone، ولا لتأليفه ملهاة Sir politick would beعلى الطريقة الانجليزية فحسب، بل لأنه - فوق ذلك - أدرك فكرة النسبية، كما أدرك فكرة التطور في التاريخ، لقد فهم أن كل شعب، بما له من أخلاق وسلوك وموهبة تخصه وحده، إنما يمثل قيمة لا يستطيع شعب آخر أن يخضعها لقانونه الخاص. ولقد رفض أن يعد الأجنبي بربريا، وطبق في العلائق

= بدلي أيتها الطبيعة حالة الشك التي تدفعينا إليها،
وارفعينا إلى ضياء الملائكة،
أو اسقطينا إلى مشاعر الحيوان.
يذكره ا. م. شمت، سانت افريموند ١٩٣٢ ص ١٤١

Cité par A. H. Schmidt, Saint Evremond ou L'humaniste impur, 1932,p.141

(١) - الرواقيون: Stoïciens، أو مذهب زينون مذهب حلولي أي لا يفرق بين الاله والكون Panthèiste، ولكنه اشتهر على الأخص بأخلاقه، التي تضع الخير الأسمى في الجهد والخضوع للعقل، دون نظر إلى الظروف الخارجية: المال والصحة والألم... وجوهر هذا المذهب في الواقع هو احتمال الألم وعدم الاكتراث له. [المترجمان].

(٢) - سنة ١٧٠٦، الجزء التاسع.

الدولية ذلك التسامح الذي نادى به تجاه الأفكار. فكما أن لكل نظرية حقيقتها، فلكل شعب مزاياه: «الحق أنني لم أر أوسع أفقًا وإدراكًا من الفرنسيين الذين يعيرون الأمور اهتمامًا كثيرًا، والانجليز الذين يستطيعون أن ينتزعوا أنفسهم من لجة التأمل والتفكير، للعودة إلى سهولة الحديث، وإلى بعض حرية الفكر، التي ينبغي ألا تنقص المرء أبدًا، ما أمكن. وأفضل من في الدنيا، هم الفرنسيون الذين يفكرون، والانجليز الذين يتحدثون.»

وهو يتطلع إلى المستقبل، مدفوعًا بتلك الإرادة في الفهم. ويحس شعورًا من الراحة والهدوء في حالته الدينية. فهو لم يخالجه يومًا شعور بأنه عاص متمرد، بل يستغرق في عدم التصديق براحة البال التي يجدها الآخرون في الإيمان، مقابل بعض التضحيات، نزولا على حكم المظاهر والعادات. وإذا كان بعض المتحررين قد عانوا الاضطهاد من أجل أفكارهم، فهو على النقيض يفوز بالجزاء والمجد؛ إن سانت أفريموند لا يمثل التحرر المناضل، بل التحرر الظافر. ألم يدفن ممجداً مكرمًا في وستمنستر في ركن الشعراء؟- وهو يدلنا، على الأخص، على الاتجاه العام إلى مذاهب أقوى، مذاهب أكثر تهجمًا، وأكثر اقتداراً على تقديم مواد جوهرية تغذى العقول الشرهة المتحرقة إلى التجديد. لقد عرف إبان إقامته في هولندا من عام ١٦٦٦، إلى عام ١٦٧٢ يهوديا يدعى سبينوزا، ولقد سرته - كما يقول دي ميزو- رؤية «بعض مشاهير العلماء والفلاسفة الذين كانوا وقتئذ في لاهاي، وعلى الأخص هينسيوس وفسيوس وسبينوزا». ولسنا نعرف ماذا دار بينهم على التحقيق، ولكن الذي نعرفه أنه بعد مقابلتهم بزمن طويل، أصبحت ذكرى سبينوزا تحتل مخيلة سانت أفريموند ولا تريم. «لقد خيل إلى المتحررين الفرنسيين، الذين لا يمثلون بعد، إلا رغبة متأرجحة في التخلص من القيود، وتبرما بالطاعة والنظام، وتمرداً على المذاهب والنحل، أو قل ثورة معنوية في الاجمال - خيل إليهم أنهم سيجدون في ذلك الرجل المتواضع الذي يعيش متأملاً منعزلاً في راينبرج

وستيل فركيد، عالمًا يضع نظرية عن مروقهم، وميتافيزيقيا يؤيدبالمنطق، ويترجم إلى مذهب، الهدف العميق لذلك المروق . . .[1]».

وهكذا ، فان المتحررين يعملون أولا على اكتساب الشهرة، بالرغم من ضعف مذهبهم، وهم لم يقبلوا أبداً الهدنة الفلسفية التي عرضتها الكلاسيكية الفرنسية، ورفضوا قبول أي مذهب بحسبانه مذهباً مكتملاً؛ لقد شكوا دائماً، ودأبوا على الانكار . إن عصيانهم بمثابة إعداد للتمردات المستقبلة . إنهم ذخيرة من عدم الإيمان. وهذا صحيح حتى أنه في المجادلات الصحفية لذلك الزمن، لم يفرقوا بين أولئك الذين ينتقدون نصوص الانجيل . والذين لم يعتقدوا بالوحي وبالمعجزات، وغير المكترثين، والكفار، بل يسمونهم جميعاً« متحررين»؛ وإنما يرجع ذلك إلى عدم الاعتناء بالتمييز بين الآراء، والمذاهب، والنظريات، وبفحص الفوارق، وتعيين الحدود، وإلى مبادرتهم إلى وسم العقول التي لم تعد خطرة على الإيمان، دون أناة.

ولكنه صحيح أيضاً أن المتحررين لم يعودوا يكتفون بأنفسهم، وأنهم اضطروا في نهاية القرن السابع عشر إلى البحث عن دعامة في فكرة فلسفية أقوى وأكثر انسجاماً . إذا كان التحرر يعني من جهة عدم التصديق، ومن جهة أخرى حب الحياة الشهوانية- دالاً بذلك على حرية مزدوجة : حريةالعقل وحرية الحواس- فان الزمن قد أخذ في تغيير هاتين الصفتين. فعديمو التصديق يبحثون عن مذاهب

(١) - جوستاف كوهين: إقامة سانت أفريموند في هولانداودخول سبينوزا ميدان الفكير الفرنسي، ١٩٢٦
Gustave Cohen, Le Séjour de Saint-Evremond en Hollande et L'entrèe de Spi-noza dans le champ de la pensèe francaise,1926. - رحل ديهينو إلى هولندا ليقابل سبينوزا « كان ديهينو Dehènault رجلا واسع العقل ضليع العلم، مشغوفًا بالمتعة في غير ابتذال، ماجنًا في فن وتأنق. لكن فيه أكبر عيب يمكن أن يصيب الانسان: كان يزهو بكفره، ويعلنه بفخر وإعجاب بغيض- ألف ثلاث نظريات عن فناء الروح. ورحل إلى هولاندا لكي يقابل سبينوزا، الذي لم يقدر سعة علمه واطلاعه كثيراً، بالرغم من ذلك» . Dubos à Bayle , dans le Choix de la Correspondance de p. Bayle,par E. Gigas, 1890 (ديبو إلى بايل ، ٢٧ ابريل ١٦٩٦ ، في رسائل بايل المختارة، تأليف جيجاس ، ١٨٩٠).

جديدة تحل محل مبادئهم الغاساندية المستضعفة المتأخرة، حتى إننا سنجد في فولتير شخصاً آخر وأكثر من متحرر. أما الشهوانيون فسيطلبون متعاً أقل رقة، وأقل اعتدالاً؛ وسيظهرون أفسق وأوقح. وفي عهد الوصاية[1]، سنرى تحرراً فيه شيء آخر غير البحث عن التوازن، بل سنجد تظاهراً بالمغالاة، فان ندماء الوصي على العرش Les Roués، سيشتهرون بالابتذال في الأخلاق أكثر من اشتهارهم بالاستقلال في التفكير. وسوف يتم هذا الانتقال على أيدي لافار والشاعر شوليو La Fare et Chaulieu ولا سيما الأخير، الذي يعتقد أن النبيذ والنساء يعدان في مقدمة المتع التي تحبونا بها الطبيعة الحكيمة، والذي رد ذات يوم على أشعار صديقه ماليزيو Malézieux بهذا الاقرار:

Pour rèpondre à tes chansons,

Il faudrait de la Nature

De Lucrce ou d'Epicure.

Emprunter quelques raisons ;

Mais sur l'essence divine

Je hais leur témérité,

Et je n'aime leur doctrine

Que touchant la Volupté,

Je suis cet attrait Vainqueue,

Ce doux penchant de mon âme

Que grava d'un trait de flamme

---

(١) - عهد الوصاية: La Règence أي حكم فيليب دورليان في قصور لويس الخامس عشر (١٧١٥-١٧٢٣) وهذه الحقبة مشهورة في تاريخ فرنسا وتتميز بحرية مفرطة في الأفكار، وفي الأخلاق على الخصوص. وقد انفجرت عقب وفاة لويس الرابع عشر ونهاية حكمه الظالم الشديد. [المترجمان]

Nature au fond de mon cœur ;

Dans une sainte mollesse

J' écoute tous mes dèsirs ;

Et je crois que la sagesse

Est le chemin des plaisirs... [1]

لقد أخذ معنى الكلمة يتغير ؛ ينبغي أن نخصص وأن نقول «المتحررين عقلا»[2] libertins d'esprit، إذا أردنا أن نبين أننا لا نقصد التحرر في الحواس. بينما الذين «يقعون في الدييزم (الايمان بالله وإنكار الوحي)، أو في هذا النوع من الشك. . . يدعون العقول القوية»[3].

* * *

(١) - لكي أرد على أشعارك،
ينبغي أن ألتمس بعض البراهين.
لدى «طبيعة» لوكريس وأبيقور.
ولكني أبغض جرأتهما فيما يخص الجوهر الالهي،
ولا يعجبني مذهبهما إلا فيما يخص الشهوة
إني أتبع تلك الجاذبية الظافرة
ذلك الميل اللطيف لروحي،
الذي نقشته الطبيعة في أعماق قلبي،
بألفاظ من نار.
إني أصغي إلى شهواتي،
في استرخاء قدسي،
وأعتقد أن الحكمة هي طريق المتعة.

(٢) - بيير بايل : القاموس، باب أرسيزيلاس Arcesilas «نحن لا نراعي المبدأ الحقيقي لأخلاقنا في أحكامنا النظرية على طبيعة الأشياء، حتى إننا لا نجد أناسا سيئ السيرة أكثر من المسيحيين الأرثوذكس، ولا حسني السلوك أكثر من المتحررين عقلا».

(٣) - بيير بايل : أفكار عن المذنب، الفصل ١٣٩، CXXXIX pensèes sur la Comète.

Nulla nunc celebrior, clamorosiorqu esecta quam cartesianorum

«ليس أشهر الآن من المذهب الديكارتي»، ذلك ما يعلنه أحد المعاصرين في كتاب عنوانه بليغ الدلالة Historia Rationis[1] . الواقع أنه في نهاية القرن أصبح ديكارت ملكا . بيد أن ملكيته ليست مطلقة، لأن مثلها لا يحدث في ميادين الفكر، ولأن بعض الخصائص الأهلية والجنسية تبقى ولا تتغير، حتى في أكثر أشكال التفكير تجرداً ونظرية . فان ديكارت لاينجح في غزو الفكر الانجليزي ولا الفكر الايطالي، اللذين يذودان عن انجلترا وإيطالياويبقيان على خصائصهما الجنسية . لكن إذا نزل المفكرون إلى ميدان «الشامل» فان ديكارت يتوج ويسود . فما من فرنسي يفكر، إلا ويتأثر بنفوذ ديكارت إلى حد ما، ولو كان من أخصامه، وما من أجنبي ذي شأن وخطر لم يكتسب منه على الأقل تشجيعاً على التفكير والتفلسف . إن لوك يعترف بأنه مدين له، وسبينوزا في بدايته يشرح نظرية ديكارت، ولعل أحداً لم ينفذ مثله إلى أعماق تفكير الأستاذ . ولما حاول فيكو بعد قليل أن يجود على إيطاليا بفلسفة من بنات أفكاره، فان العدو الذي يضطر إلى محاربته لم يكن أرسطو المخلوع عن العرش، بل ديكارت المتربع على العرش . لقد صار مذهب ديكارت يدرس رسمياً في مدارس هولاندا، ومنها ينتقل إلى المجر، بفضل الطلبة العائدين من جامعات ليدن ولاهاي وأمستردام وأترخت وفرانيكير؛ واتخذت ألمانيا مذهبه وسيلة للتحرر من المدرسية، وهنا أيضاً، إذا أردنا أن نقدر قوة فعل مما يصحبه من رد فعل ، فلنتذكر أن ليبنتز العظيم قد عني بتفنيد ديكارت . إن أتباع ديكارت، الذين سبق أن حوكموا، وأدرجوا في القائمة السوداء، وعانوا النير والاضطهاد، وأدينوا، قد أصبحوا بعد مرور نصف قرن يشغلون المناصب الجامعية، ويلقون المحاضرات، ويؤلفون الكتب؛ أصبحوا موضع التشريف والتكريم : دانت لهم السلطة . .

---

(١) - تاريخ العقل : ب . كوليه، ١٩٨٥، الباب الثالث عشر ص ١٠٧ . Historia Rationis, auctore D.P.D.J.U.D.(P.collet) 1685, art. XIII, p.107

حينما يبلغ مذهب هذا المدى الواسع من الانتشار، حتى يعرفه من لم يمارسوه أبداً، وحتى يؤثر على من لم تكن لهم أي صلة بالكتب التي تشرحه، فمن الطبيعي أن يفقد على طول الطريق كثيراً من ثرواته، وألا يبقى منه ما يؤثر، إلا ذلك الشطر من جوهره الذي يمتزج إلى الأبد بالتراث الإنساني. هكذا فقدت في الطريق، الغدة الصنوبرية La glande pinéale وهي معقل الروح، «والحيوانات- آلات»، التي تشعر باللذة أو بالألم؛ والملاء، والعواصف، وفيزيقا ديكارت، بل ميتافيزيقاه أيضاً. . . فماذا تبقى إذن؟ تبقت روحه، وطريقته وهي كسب بلا شك، وقواعده الساطعة التي تضيء أمام العقل الطريق، والتي بلغ من بساطتها وقوتها أنها وإن كانت لا تنير لنا كل اليقين، فهي تتيح لنا على الأقل أن نبدد جانباً من الظلمات.

الثقة بالعقل الذي أصبح يعد أداة للمعرفة الأكيدة، «تلك الحركة التي تجري من الداخل إلى الخارج، من الذاتي إلى الموضوعي، du subjectif à L'objecfi[1] من السيكولوجي إلى الأنطولوجي[2]، ومن توكيد الضمير إلى الجوهر[3]»: هذه هي القيم الموقوفة التي يخلفها ديكارت للجيل الثاني والثالث من أتباعه. فلنصدق فونتنل في قوله «يخيل إلي أنه مصدر هذا المنهج الجديد في الاستدلال، والذي يفوق فلسفته نفسها، تلك الفلسفة التي لو طبقنا عليها القواعد التي تعلمناها منه، لوجدنا شطراً كبيراً منها خطأ، أو غير وثيق».

ولم يعد في إمكان ذلك العقل الثائر المنطلق أن يقف، وهو لا يعترف بأي تقليد أو أية سلطة؛ إنه يعلن أن «ليس هناك ما يمنع من أن نطرح كل شيء لكي نفحص كل شيء» إنه يريد أن يمحو الحقيقة المجردة. إن الكلمة السحرية القادرة

---

(١) - Subjectif «ذاتي» أو ما يخص الفاعل المفكر. . . objectif «موضوعي» أو ما يخص الموضوع.

(٢) - «السيكولوجي» ما يخص النفس. «الأنطولوجي» ما يخص الوجود والكائنات. [المترجمان]

(٣) - (تاريخ الأفكار «الاستطيقية»، مقدمة.

Menendez y Pelayo, Historia de las ideas esteticas, siglo XVIII, Introduccion.

على قمع القوات الي توشك أن تكون خطراً، والتي تكمن خطورتها في نفس تزايد قوتها، تلك الكلمة الحكيمة التي فاه بها الأستاذ في سرعة وفي حذر، لم يعد يتذكرها تلامذته السحرة، وإذا هم تذكروها فانهم يرغبون عن استعمالها، إن لهم الأرض والسماء! لهم كل ما يقع في دائرة المعرفة! لهم الأدب والفن ! لا شيء - في عرفهم - يفر من قبضة الذهن الهندسي. ولهم علم اللاهوت! إن أستاذاً في الرياضيات، هو يعقوب شاوتشزر Jacob Scheuchzer في سياق مدحه للذهن الهندسي في الموضوعات اللاهوتية[1]، يذكر في زهو وتقدير، «المقدمة» التي أدرجهافونتنل في مؤلفه (تاريخ الجامعة الملكية للعلوم منذ قانون ١٦٩٩ Histoire(de L'Académmie des sciences depuis le règlement fait en 1699 «إن الذهن الهندسي ليس وثيق الارتباط بالهندسة حتى يتعذر فصله عنها ووصله بمعارف أخرى. فإن مؤلفاً سياسيًا، أو أخلاقيًا، أو نقديًا، أو حتى مؤلفًا في البلاغة، قد يزداد جمالاً لو أنه كتب بيد هندسية، مع بقاء كل شيء على أصله. لعل المنبع الأول لما يسود الكتب القيمة من زمن، من نظام ودقة ووضوح، هو ذلك الذهن الهندسي الذي بلغ من الانتشار مداه، والذي يسري رويداً رويداً حتى إلى من لايعرفون الهندسة. يحدث أحيانًا أن رجلاً عظيماً يؤثر في عصره بأسره، والرجل الذي يستحق عن جدارة أن ننسب إليه شرف وضع فن جديد للاستدلال، كان عالمًا عظيماً في الهندسة». لقد انتهى الأمر، ومر الزمن؛ لقد أثر ديكارت الهندسي في العصور الحديثة. - لكن إذا نحن افترضنا أن هذا الذهن الهندسي تعرض للعقيدة، وطبق دون تحوط على مسائل الايمان، فترى ماذا يحدث؟ يحدث «محو الأديان»: فإنه يعمل على إزالتها كلها[2].

(١) - استعمال الفكر الهندسي في علم اللاهوت، ألفه يعقوب شوتشزر. ١٧١١.
praelectio de matheseos usu in theologia, habita a Jh. Jacobo Sheuchzero, med. D.math. p,Tiguri,1711

(٢) - أخبار جمهورية الأدب، نوفمبر ١٦٨٤، الباب الأول.

أهناك مثال أعجب من أن مذهبًا يؤدي منطقيًا إلى نتائج متعارضة؟ لقد أقيم التدليل على ذلك الواقع في حذق وبراعة حتى إننا لا نملك إلا أن نذكره باعجاب[1] وتقدير. إن الفلسفة الديكارتية تمد الدين، أولاً، بدعامة قيمة مكينة؛ لكن هذه الفلسفة تحمل في ثناياها مبدأ لا دينيًا، يتضح على مر الزمن ويعمل ويؤثر، حتى يستعمله الناس في تقويض دعائم العقيدة. كان المذهب الديكارتي يهيء يقينا، وأمانًا، ويقدم حيال الارتيابية توكيدًا قاطعًا، إذ يثبت وجود اللّه، ولا مادية الروح، ويميز بين الفكر والامتداد، وبين الفكرة النبيلة والحساسية، ويسجل انتصار الحرية على الغريزة: والخلاصة أنه كان سياجًا ضد التحرر. ثم إذا به يثبت التحرر ويقويه. ذلك لأنه كان ينادي بالفحص والنقد، ويحتم البداهة حتى في المسائل التي أبعدتها السلطة عن متناول قوانين البداهة. كان يهاجم المعقل المؤقت الذي شيده ليحتمي فيه الإيمان. لابد أن يرى المرء النقطة المعينة التي ينتهي إليها المذهب الديكارتي، طوعًا أو كرهًا، ويشرط ألا يحاول المرء أن يخدع نفسه؛ حيث يناقش الأديان، وماهية الديانة بالذات. بل لقد طرد المذهب الديكارتي أرسطو: «لعل المشائين أتباع أرسطو Pèripatèticiens، قد اشتد بهم الخجل الارتباك، لرؤية كلمة اللّه الأبدية Le Verbe Eternel وقد أصبحت ديكارتية. . . »[2] ولو أنك انتظرت بعض الوقت، لرأيت إلى أين ستصل نتائج التفكير الديكارتي: «كم ستتملككم الدهشة لو رجع ديكارت الآن إلى الدنيا. أظنكم سترون فيه أعدى أعداء المسيحية»[3].

* * *

(١) - جوستاف لانسون: تأثير الفلسفة الديكارتية على الأدب الفرنسي، دراسات التاريخ الأدبي ١٩٣٠.
G. Lanson, L'influence de la philosophie cartèsienne sur la littérature francaise,Etudes d'histoire littéraire, 1930

(٢) - جوريو: فكر المسير أرنو ١٦٨٤، ص ٧٨. Jurieu, L'esprit de M. Arnauld

(٣) - ل.ا. كاراجيولي: محادثة بين عصر لويس الرابع عشر، وعصر لويس الخامس عشر، لاهاي ١٧٥١ ص ٣٩.
L. A. Caraccioli,Dialogue entre le siècle de Louis XIV et le siècle de Louis XV, La Haye, 1751, p. 39.

ذلك الانفصال بين العقل والدين، الذي يسير ويؤيد نفسه بنفسه، سينبرى رجل ليعارضه، بكل ما أوتي عقله من قوة: هذا الرجل هو الأب مالبرانش Malebranche الذي لم يكف طوال حياته عن الاعتقاد بأن «الدين، هو الفلسفة الحقيقية».

ليس ذلك الرجل بعيداً عن أن يكون فيلسوفًا صرفًا، كما يظن العوام: إنه لا يجد راحته التامة إلا في ميادين «اللامتناهي»، وهو يتغذى بالأفكار وما أقل احتياجه إلى المادة! ولقد كان بمقدوره أن يخترع الميتافيزيقا، لو لم تكن موجودة من قبله. إنه شخصية ظريفة، نسيج وحده، بسيط في مظهره، معقد في مخبره، كان ضعيفًا مسقاما، تقوده فطرته - كما يقول فونتنل الذي يرى فيه موضوعًا عجيبًا شائقًا - نحو سبيل الحكمة والحرمان التي تحتمها إرادته: حتى إن الطبع والإرادة، الجسد والعقل يتفقان لأول مرة، وفي ذلك الرجل. لقد التجأ إلى جمعية الأوراتوار [١]، خوفًا من الدنيا، وفزعًا إزاء الحياة، وفراراً من جلبة الوظائف والرتب، والحق أنه عاش متواضعًا أقصى التواضع خاشعًا كل الخشوع. ولما كان غنيًا فقد تخلص من ماله، بجوده وعطائه، كانت فيه على الأقل بعض الفضائل التي تجعل من القديس قديسًا. ولكنه مع صفاء قلبه وسذاجته، كان أيضًا وقاد القريحة، صلب الرأي، قوي الإرادة، لا شيء في الدنيا يحمله على التخلي عن أفكاره، وحينما تولد أفكاره المشاكل، كانت له طريقة تفرد بها، وهي أن يلقي بنفسه في مشاكل أخرى، حتى تستغلق هي، وينتصر هو.

وذات يوم صادف الفكر الديكارتي، فكان معين إلهامه [٢]. لغاية ذلك

(١) - Congrègation de I'Oratoire: جمعية دينية، تأسست في روما فيما سبق، ثم انتقلت إلى فرنسا سنة ١٧١١.

(٢) - ذات يوم وجد مالبرانش في مكتبته «المقال في المنهج» كتاب ديكارت. وفي هذه اللحظة شعر بالهام عميق، وقرر الفرار إلى الريف حيث عاش عشر سنين في عزلة تامة وتفكير عميق. وبعدها عاد إلى الأوراتوار وكتب مؤلفه الشهير «البحث عن الحقيقة» الذي أكسبه مجداً منقطع النظير، (أنظر حياة مالبرانش بقلم أوليه لابرون).

Ollè - Laprune,Malebranche (Ladrange) 1870, 2 vol.

الوقت، لم يكن يعرف فيم يستغل عقله، كان يتلمس السبيل؛ أما بعد ذلك فلم يتردد: قرر أنه سيغدو ديكارتيًا ومسيحيًا، معًا. سيصلح مابين الديكارتية والمسيحية من خلاف، منذ ذلك اليوم، تقرر اتجاه حياته.

كان يطيل التفكير ويتعمق فيه، حتى إذا بدا له أن تفكيره قد نضج، خرج على الناس بأبحاث ميتافيزيقية ضخمة، تخلق رنة وضجة. لقد سعى إليه المجد بنفسه، مجد بلغ من الحيوية مبلغًا لا نستطيع أن نتصوره اليوم، ولكنه تعدى في إشعاعه حدود فرنسا، وكتب له البقاء أطول مما كتب لصاحبه. وكان له قراء وأتباع ومتعصبون: فإن طالبًا في مدرسة أكليركية في نابولي، يدعى برناردولاما، هرب من وطنه ووصل إلى باريس، قاصداً رؤية مالبرانش الشهير. وكان مالبرانش يعيش في هدوء، بمبعدة عن كل ذهن ثوري متمرد، ومع ذلك فقد أثار مناقشات طويلة، وتفنيدات حماسية، جعل يرد عليها باقتناع عميق، حتى إن حياته كانت عراكًا فلسفيًا مستمراً. ومن صومعته الصارمة، حيث التجأ ليفكر بمنأى عن المجتمع، مستخفًا بالطبيعة، انبعثت في ضياء ساطع «تلك المحاولة الأخيرة للفلسفة المسيحية الحرة». وهذه المحاولة، التي عاونتها مزية تفكير مولع بالمسائل العويصة، هي التي أثرت على النفوس وفازت بأسمى تقدير في تاريخ الأفكار.

البداهة العقلية: ذلك هو النور الوضاء الذي كان يصبو إليه مالبرانش في غيرة صوفية. لأن التصوف عنده يتفق وتوقير العقل. فهو يعمل في ورع على أن تظهر الحياة فردية كانت أو شاملة، وعلى أن يظهر الكون بأجمعه، كتحقيق لنظام يفسر الايمان ويتضمنه.

بينما، لونظرنا إلى الدنيا، لوجدنا فيها، بجانب نظام شامل لا ينكر، اختلالا يربك ويحير. فالظواهر، والشواذ، تعلن جود الشر الطبيعي؛ والخطيئة تعلن وجود الشر الأخلاقي. ومهمة الفيلسوف أن يشرح لنا هذا الاضطراب.

لكيلا يقع بأي حال ما يخالف النظام، ولكيلا تسقط في حبائل الاغراء روح توشك على ارتكاب الخطيئة، وحتى إذا سقطت فلكي تنال الغفران بعد توبتها،

ينبغي أن نفترض إلهاً يتدخل في كل لحظة، ويزعج نفسه في كل آونة ليأتي بالمعجزات، ويخالف بنفسه القوانين التي استنها على ألا تنقض: إذن سنستبدل بالاختلال عدداً لا نهائياً من الأوامر الإلهية المخالفة.

هنا يتدخل مالبرانش - الذي لا يستطيع أن يتصور أن الله القادر على كل شيء يليق بعظمته ذلك الاسراف في الرسائل - لكي يقول لنا إن الله يعمل بموجب إرادة شاملة لا خاصة. لابد أن يراعى الله مقتضيات الحكمة، ما دام يمثل الحكمة في أسمى صورها. إنه يحب الحكمة حباً لا يدفع، حباً عظيماً ولازماً. ولا بد أن يتبع سيرة تليق بأوصافه: سيرة منطقية لا تناقض فيها.

فالمطر يساقط في نفس الوقت على الحقل، ليرويه فيثمر، وعلى الطريق، والبحر والجدول: عندئذ يأخذنا العجب. فأي الطريقين أصوب؟ التدخل كلما سقط المطر لتحديد مكان سقوطه، أم ترك القانون العام للحركة يأخذ مجراه؟ إذا كانت هذه الطريق الأخيرة أصوب وأليق، فإن الله لا يستطيع إلا أن يفضلها.

حقاً، إن الله لا يريد تعذيب هذا الكافر أو ذاك الشرير. ولكنه لا يرضيه أن يتدخل باستمرار، ليهب الايمان لكل الكفار، والطيبة لكل الأشرار. فإن ذلك لا يتفق وفكرة إله ذي حكمة، كمال غير متناهين، ومن ثم يستحيل تحقيق السلام الشامل.

كل ما يستطيع الله أن يفعله، هو أن يضع عللا باعثة Causes occasion-nelles: رسلا يعملون طبقاً لأوامره، وكلت إليهم مهمة وضعت بشكل لا رجعة فيه. إن السيد المسيح قد عينه «أبوه» ليكون العلة الباعثة الوحيدة للغفران الالهي بأسره؛ وهو يوزع هذا الغفران على الناس، الذين يصلّي من أجلهم وهؤلاء الناس سينقذون دون أن يتكلف «الرب» إرادة خاصة. والسيد المسيح نفسه يصلى ويدعو طبقاً لمقتضيات النظام، وحسبما تحتاج العمارة الروحانية التي يريدالله أن يشيدها، إلى حجارة حية. فالله يطيع ذلك المبدأ من التبسيط وتوفير القوات، الذي هو المنطق، والحق، والحياة.

هكذا يستدل مالبرانش. وحيثما يشتم خطر انفصال بين الفلسفة والايمان، سواء تعلق الأمر بسر تناول القربان، أو بفقرات من الكتاب المقدس محل خلاف، يهرع، ويشرح، ويقول: «كونوا أكثر ثقة بعقولكم، كونوا أكثر إدراكًا لعظمة النظام وقيمته، يتضح، يتضح لكم كل شيء، ويستتب الانسجام». إن رشاقته لاحد لها، وإن سعة حيلته لاعجازية، فهو يقيم قصراً واهيًا من الأفكار ويدعمه بقصر آخر، معتقداً أن في معجزة التوازن هذه، دليلاً على المتانة. إلا أنه لايدرك أنه بجعله الله يذعن لحكم نظامه المنتصر وحكمته الظافرة، إنما يسلبه في نفس الوقت كل حقوقه وبواعث وجوده: إما أن الله لا يعدو كونه وكيلا، وأما أنه هو العالم الذي يقوم بنفسه طبقًا لقوانين لازمة؛ حتى إنه، بالرغم منه، ومن إرادته القاطعة، ومن براعته الفذة، لا يصعب اتهام مالبرانش المسيحي جداً، بأن مذهبه مخالف للمسيحية. قال له فنيلون في «مناقضته» التي كتبها ضده «إنكم لم تقدروا أنكم علمتم على إخضاع الدين لأحكام الفلسفة، وعلى السماح بقيام المبادىء السوسنيانية ضد أسرارنا». إن بيير بايل، الذي كان معجبًا به، بل كان يعد مالبرانش وأرنو أعظم فلاسفة الدنيا، والذي يعد كتاب «البحث في الطبيعة والغفران» [1] مولفًا لعبقري ممتاز ومثالا لأقصى مجهود للعقل البشري»، لا يخفي عليه إلى أين ستؤدي تلك الميتافيزيقا. -«لو تحرينا الحقيقة لوجدنا أن مالبرانش يفترض أن رحمة الله وعظمته تحدهما حدود ضيقة، وأن ليس لله أية حرية، وأنه ملزم بمقتضى حكمته بخلق الكون، ثم أنه ملزم بأن يكون فعله هذا مثل ذلك الخلق تمامًا، ثم أنه يخلقه حسب طرق معينة مثل تلك الطرق تمامًا. إنك تجد هنا ثلاثة التزامات تكون دعاية رواقية [2]

(١) - Traitè de la nature et de la Grâce

(٢) - يقصد بالرواقية هنا مذهب الحلوليين أي عدم التفرقة بين الاله والطبيعة هو ما ذهب إليه سبينوزا، هو جانب من مذهب الرواقيين. [المترجمان]

واضحة . . . » وعلى ذلك يضع بايل قياسين منطقيين مؤكداً : أن في صغرى القياس الأول، وكبرى القياس الثاني شرحاً لمذهب الأب، مالبرانش.

- **الأول:**

أن الله لا يستطيع أن يريد شيئاً يخالف المحبة التي يشعر بها نحو حكمته ضرورة؛

وسلام العالم كله يخالف المحبة التي يشعر بها الله نحو حكمته ضرورة؛

إذن لا يستطيع الله أن يريد سلام العالم.

- **الثاني:**

أن صنيعة الله التي تليق بحكمته تمام اللياقة، تتضمن فيما تتضمن خطيئة كل الناس، وعذاب معظمهم عذاباً أبدياً؛

ولا بد أن الله يريد الصنيعة التي تليق بحكمته تمام اللياقة؛

إذن لابد أن الله يريد صنيعة، تتضمن فيما تتضمن خطيئة كل الناس، وعذاب معظمهم عذاباً أبدياً [1].

واعجبا! ألا يكون مالبرانش متديناً فحسب، بل كاثوليكياً مخلصاً، كاثوليكياً طوال حياته وفي كل أفعاله، كاثوليكياً في صميم إيمانه، وأن يعطي في نفس الوقت للحكمة مثل تلك المنزلة، حتى تبتلع كل شيء، حتى الله . . . !.

* * *

(١) - جواب على أسئلة قروي، الجزء الثالث، الفصل ١٥١.

قال ديدرو Diderot [1]، متحدثًا عن نفسه وعن إخوانه الفلاسفة، «كان لنا معاصرون في عهد لويس الرابع عشر.» وهذا صحيح، فقد كان له معاصرون في عهد لويس الرابع عشر، لا في أخريات سني الملك العظيم فحسب حيث نعلم جيداً أن الكتلة السياسية والاجتماعية جعلت تنفصل وتتفكك - بل قبل ذلك بوقت طويل، في زمن لا نرى فيه عادة إلاأورثوذكسية موطدة وسلطانًا لامعًا كالبرق. والواقع أنه في نفس الوقت الذي كانت السلطتان الدينية والملكية تعتقدان فيه أنهما ثابتتان لا تتزعزعان، كانتا ملغمتين. إذا نحن لم ننظر إلا إلى الأدب فحسب، ولاسيما الأدب الفرنسي منذ ١٦٧٠ إلى ١٦٧٧، لأحسسنا شعوراً كله غبطة وسلام وعظمة. لقد مثلت «النساء العالمات» Les Femmes Savantes في عام ١٦٧٢، و«المريض الوهم» Le malade Imaginaire في ١٦٧٣، وقدم راسين «بايازيد»Bajazet في ١٦٧٢ «وميثريدات»Mithridate في ١٦٧٣، و «إيفيجني» Iphigènie في ١٦٧٤ و«فيدر» Phèdre في ١٦٧٧، وفي عام ١٦٧٠ ألقى بوسوسه «رثاء» الأميرة هانرييت الانجليزية، وعين مربيًا لولي العهد Le Dauphin، وألف لتعليم تلميذه «البحث في معرفة الله والنفس» Le Traité de la connaissance de Dieu et de soi-même «والسياسة المقتبسة من الكتاب المقدس» La Politique tirèe de L'Ectriture Sainte، و«المقال في التاريخ العالمي» le Discours sur L'Histoire Universelle وكتب بوالو Boileau «فن الشعر» L'Art poètique في عام ١٦٧٤. وليست تلك الكتلة من المؤلفات رائعة فحسب، بل هي أيضًا متماسكة، قوية، متوازنة. ولكن دعونا ننأى بأبصارنا قليلاً عن الأدب،

(١) - Diderot: فيلسوف فرنسي ومفكر شهير، لعب دوراً هامًا في إذاعة الأفكار الفلسفية في القرن الثامن عشر. وهو أحد واضعي الأنسيكلوبيديا، كان مؤلفًا وناقداً وفنانًا أيضًا، من أبرز الشخصيات في عصره. ومن أهم مؤلفاته «الرسائل» الموجهة إلى أمراء عديدين، والتي تقوم لوحة صادقة عن الحركة الفكرية في القرن الثامن عشر (١٧١٣ - ١٧٨٤). أنظر «الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر» بقلم بول هازار La Pensèe Europèenne au XVIIIe siècle. في القسم الثالث الفصل التاسع Diderot. [الترجمان].

الذي تبهرنا أشعته فتعوقنا عن رؤية القيم الفكرية العميقة، التي سيخضع لها الأدب نفسه ذات يوم؛ ولننظر إلى التيار القوي للتفكير الفلسفي: فنكشف عناصر تعمل جادة على انحلال هذه القوة، قبل أن يكتمل نموها، كشجرة لاتزال تزهر وتثمر، بينما بدأت جذورها تذوي وتموت.

ولنذكر هذا جيداً! لقد ظهر «البحث اللاهوتي السياسي» Tractatus Theologico Politicus في عام ١٦٧٠، يتضمن من المستحدثات ما يكفي ليقلب المجتمع الذي استقبله رأساً على عقب. قال سبينوزا في لسانه اللاتيني، وبكل هدوء، إنه يستحتم علينا أن نقضي قضاء مبرماً على المعتقدات التقليدية، لكي نبدأ التفكير على أسس جديدة، وإن الأمور قد بلغت حداً لا يستطيع معه أحد أن يميز بين المسيحي وبين اليهودي أو التركي أو الوثني، وإنه لما كانت العقيدة لم يعد لها تأثير على الأخلاق، فقد فسدت الروح؛ وإنما مأتى الشر أننا لم نعد نجعل الدين فعلاً نفسياً اختيارياً يقوم على الفحص والتفكير، بل جعلناه «عبادة خارجية»، إجراء آلياً، طاعة سلبية لأوامر القساوسة؛ ولقد استولى بعض أصحاب الطمع على المناصب الكنسية واستعاضوا عن روح المحبة والإحسان بجشعهم القذر؛ ومن هنا تولدت المنازعات والحسد والحقد. ولم يتبق من المسيحية إلا تقاليد شكلية واعتقادات باطلة، اعتقادات تجعل من الناس حيوانات بمنعهم من حرية استعمال الحكمة وبإخماد شعلة العقل البشري. ينبغي أن نعاود البدء على أساس هذا العقل، وأن نعمل باسمه على هدم مؤسستين مخربتين غير منطقيتين: دنيا الكنيسة ودنيا الملك.

الكتاب المقدس؛ إن الناس يذكرون الكتاب المقدس دائماً لفرض الطاعة. ومن الكتاب المقدس يقتبسون كل عقيدة وكل خرافة. ما هو الكتاب المقدس على التحقيق؟ لم يكن هناك أنبياء مفسرون لكلام الله، كتاب يملي عليهم أوامره، بل كانوا رجالا تعساء يستعيضون عن ضعف أفكارهم بقوة الخيال وغنى البيان. لم يكن هناك شعب مختار لكي يحتفظ بالناموس الالهي إلى الأبد، بل شعب مضى

واندثر كما مضى غيره واندثر. ولم يكن هناك أيضًا معجزات لأن الطبيعة تلتزم نظامًا مستديمًا لا يتغير، أي مخالفة لقوانينه لا تدل على عظمة الله بل على عدم وجوده. فإذا اطرحنا كل تلك المعتقدات الباطلة التي حملها الناس الكتاب المقدس وإذا شرعنا في تفسيرها حسب قواعد النقد التي تصلح لكل نصوص العالم، لاتضحت لنا ماهية هذه الكتب: عمل بشري حافل بالتردد والتناقض والخطأ. يستحيل أن تكون التوراة لموسى؛ وليست كتب العهد القديم مثل كتاب يشوع Josuèوكتاب القضاه Juges وكتاب صموئيل وكتاب راعوت Ruth وكتاب الملوك، أصلية ولا صحيحة، وينطبق ذلك على غيرها أيضًا. وهكذا يسير سبينوزا موثقًا كل خطواته، متوقفًاكلما اقتضى الأمر ليتأكد من متابعة القارئ لكلامه، حتى يصل إلى استنباطه الأول: إن الدين المسيحي لم يكن إلا ظاهرة تاريخية يفسرها الوقت الذي ظهرت فيه والظروف التي تطورت خلالها؛ ظاهرة لم تكن لها إلا صفة زمنية لا أبدية، نسبية لا قطعية.

ثم يهاجم سبينوزا الملوك بدورهم ويبدأ في إثبات أمر اقع: هو أن الملوك قد استغلوا الاعتقادات الدينية الباطلة لمصلحتهم الشخصية؛ وأن النظام الملكي هو فن خداع الناس ما دام يزين ذلك الخوف الذي يرمي أصحاب السلطان إلى بقاء الناس فيه كالعبيد ويقدمه لهم باسم الدين. إن الناس يسمون «واجب الطاعة» ما لا يعدو في الحق «مصلحة الملك»؛ يظنون أنهم يقاتلون في سبيل سلامهم بينما هم يؤكدون عبوديتهم؛ ويدفعون دماءهم ثمنًا لدعم عظمة رجل واحد وتشجيع كبريائه، رجل يعاملهم كوسائل لتحقيق أطماعه ويحرمهم سبب الوجود إذ يسلبهم الحرية.

ولو أراد الناس التخلص من تلك الحالة فليس أمامهم إلا دواء واحد: هو تطبيق روح الفحص التي نستعملها في نقض الخرافة والقضاء عليها، على طبيعة الأنظمة السياسية وأغراضها. لتحقيق ذلك لا بد من البدء بالتفكير الحر. حينئذ سيدركون أن الدولة لم تتأسس للاستبداد والطغيان، وأن الحكم ليس إلا تفويضًا ارتضاه المواطنون، وأن الديمقراطية هي أقرب أشكال الحكم إلى القانون الطبيعي،

وأن غرض الأنظمة السياسية، في كل حال من الأحوال، هو أن تضمن للفرد حرية العقيدة، حرية الكلام وحرية التصرف.

فلنتخيل قوة انفجار تلك التوكيدات في عام ١٦٧٠ ولن يأخذنا العجب إذا رأينا سبينوزا يبدو لمعاصريه «المخرب المنقطع النظير»، «واللعين الرجيم». ذلك اليهودي سليل الجنس البغيض، والذي أثار على نفسه سخط اليهود فطردوه، والذي يمضي حياته في عزلة وانفراد، غير ملق بالاً إلى المتعة والشهرة والمال، المنشغل بتجهيز المناظير وبالتفكير، كان قد أصبح موضع الفضول والدهشة والحقد. كان يدعى «بندكتوس» Benedictus وكان أصوب أن يدعى «مالدكتوس» Maledictus، كان شائكًا كماتغدو أرض لعنها الله شائكة. لقد تولد الالحاد مع النهضة الايطالية التي بعثتها الجاهلية، واستشرى بوساطة ماكيافيللي Machiavel، وأريتان Aréin، وفانيني Vanini. وكان من أعظم الذائدين عنه هربرت شربرى Herbert de Cherbury، وهوبز Hobbes: والآن يظهر أكثرهم شؤمًا –سبينوزا[1].

واليوم نضع سبينوزا في صفوف البنائين، بين البنائين المتسامقين المتازين. كان يحتج بشدة ضد الفكرة السائدة في أنه سوف يهدم ولا يبني، ولن يفهم «البحث اللاهوتي السياسي» فهمًا تامًا إذا لم نلاحظ فيه هذا العزم الصحيح. ومن باب أولى، فان كتابه «علم الأخلاق» L' Ethique الذي ظهر عام ١٦٧٧ بعد وفاته، يقدم أفخم قصر من التصورات والأفكار تختلط عقوده بالسماء. إن «علم الأخلاق» الهندسي التأليف والذي تختلج فيه مع ذلك نفثة من الحياة- يتخذ ماهو إلهي وما هو بشري مادة له ويجمع بينهما في باب واحد، ويسجل على مقدمته «أن الله هو الكل والكل هو الله». ولكنك تجد جسارته الكبرى في حافظة البناء، حتى إن أولئك الذين لم يؤتوا الموهبة الميتافيزيقية يجدون دائمًا مشقة كبرى في التطلع

(١) - كتاب عن طائفة الدجالين، بقلم كرستيان كورتلتي. De tribus impostoribus magnis liber, cura editus Christiani Kortholti, S. Theo D. et Professoris Primarii Kilonii, 1680.

إليه . كان سبينوزا يشرح رسومه وقضاياه واستنباطاته فيقول : أعني بلفظ «علة ذاتية» Cause de soi ما تتضمن ماهيته وجوده، أو ما لا تتصوره طبيعته إلا كموجودة . وأعني بلفظ «جوهر» Substance ما يقوم بذاته ويتصور بذاته، أي ما يمكن تصوره دون حاجة إلى تصور شيء آخر . وأعني بلفظ «الخاصية» attributما يتصوره العقل في الجوهر كمكون لماهيته . إذن هناك جوهر وحيد مشكل من عدد لا متناه من الخواص، تدل كل منها على ماهية أبدية لامتناهية : الله . كل شيء موجود فهو في الله، ولا وجود لشيء ولا شيء يتصور إلابوجود الله . إن الله فكر، إنه امتداد، والانسان روحًا وجسما حال «للكائن الأسمى»؛ وهو بهذه الصفة يرمي إلى حفظ كيانه بمجهود يسمى «إرادة» إذا تعلق بالروح، و«شهية» إذا تعلق بالجسد، و «رغبة» إذا وعت الروح هذا المجهود، بمعنى أن الرغبة تصبح العنصر الأساسي للحياة الأخلاقية .

عندئذ تنقلب كل القيم الثابتة رأسًا على عقب .

كان الناس يعدون أنفسهم نقطة البداية، أنفسهم، ومظاهرهم الزائلة، وعاداتهم، وضعفهم، ونقائصهم، ورذائلهم؛ وبنزوة من نزوات خيالهم المنافق توهموا إلهًا على شاكلتهم، إلهًا جشعًا، مغرضًا، يستهويه الملق ويميل إلى الانتقام والقسوة . أما هو، سبينوزا، فعلى النقيض ابتدأ بالله، وأرجع الانسان إلى ذلك الاله المنطقي . لم يعد الإنسان امبراطورًا في امبراطوريته، بل هو يندمج من الآن فصاعدًا في النظام العالمي . ولنفس السبب لم تعد مشكلة الشر تعرض بعد . «فكل ما هو موجود فهو سواء بسواء وجه لازم للماهية الالهية؛ وكل قوة عاملة، هي في حدود عملها، مظهر للقدرة الالهية؛ وعلى هذا، فيما أن الله هو الخير المطلق، فكل مخلوق له من الحق بقدر ما له من قدرة، وكل فعل بماله من صلةاللزوم عينهابكينونة الله فان حدوثه يكون بنفس الشرعية . . .[1]» .

(١) - ليون برانشويك، سبينوزا ومعاصروه، الطبعة الثالثة، ١٩٢٣ ص ١٠٥ . Lèon Brunschvicg, Spinoza et Ses contemporains, 3 e éd., 1923, P.105.

واتخذت مسألة الحرية لونًا اخر؛ لم تعد المناقشة تدور حول الحرية في عدم الاكتراث Libertè d'indiférence، بل أصبحت تدور حول تشبيه الفكر بجوهر يدرك أنه ليس مدفوعًا إلى العمل إلا من تلقاء نفسه. فالرجل عبد إذا عجز عن التحكم في شهواته وكبح جماحها، أما وقد أصبحت العاطفة لا تعد «معلولا» بمجرد أن يكون عنها فكرة واضحة ومميزة، فان الرجل يصبح حراً عندما يستطيع أن ينظم وأن يقيد عواطف جسمه طبقًا لأوامر إدراكه، وأن يوجهها نحو محبة الله.

واتخذ البحث عن السعادة أيضًا معنى آخر، وغير طريقه حتى وصل في النهاية إلى هدفه. ليست السعادة إرضاء الشهوات، كما تخالها المخلوقات الخشنة الفجة التي لا تسمو إلى ذروة المعرفة. وهي ليست أيضًا اطراح كل متع هذه الدنيا، انتظاراً لفردوس يلذ للأديان المختلفة أن تتخيله في هذا الشكل أو ذاك. السعادة هي إدراك الحق، هي إذعان المرء لقوانين النظام الشامل، والعمل على تحقيقه في كيانه الذاتي. إن سبينوزا يظن أنه قد حظي بهذه السعادة التي تجلب معهاالسلام، وهو يرثي لأولئك التعساء التائهين ويشرح لهم كيف تفيد فلسفته حتمًا في ممارسة الحياة:

١) فنحن، طبقًا لهذه النظرية لانتصرف إلا طوعًا لإرادةالله، ونشترك في الطبيعة الالهيةو ويزداد هذا الاشتراك كلما ازداد كمال أعمالنا وكلما ازداد إدراكنا لله؛ فمذهب مثل هذا إذن - فضلاً عن أنه يهيىء للعقل هدوءاً تامًا - له أيضًا فضل إفهامنا ماهية سعادتنا القصوى أي معرفة الله التي لا تدفعنا إلا إلى الأعمال التي تنصحنا بها المحبة والشفقة. ٢) إن قاعدتنا تعلمنا أيضًا أن ننتظر حسن الحظ وأن نتحمل سوءه بنفس الروح: لأن الواقع أن كل الأمور تنتج عن الأمر الإلهي الأبدي، بلزوم مطلق، كما ينتج من ماهية مثلث أن مجموع زواياه يساي زاويتين قائمتين. ٣) ومن وجهة نظر أخرى، فإن قاعدتنا مفيدة أيضًا في الحياة الاجتماعية. ذلك أنها تعلمنا التحررمن الحقد والاحتقار، وألا نكن لأحد سخرية أو حسداً أو حقداً. وتعلم أيضًا كل فرد أن يقنع بما يملك، وأن يكون في عون

الغير، لا مدفوعًا بشفقة نسوية باطلة، أساسها التفضيل والخرافة، بل طوعًا لأمر العقل وحده. . . . »[1].

إن الرجل الواثق بالأبدية لم يعد الرجل التقي الذي يتطهر من الخطيئة الأولى ويكسب السماء بفضائله، بل الرجل الحكيم.

« إن المبادئ التي وضعتها توضح امتياز الحكيم. . . فروح الحكيم من العسير أن تتعكر، إن له بنوع من الضرورة الأبدية وعيًا بذاته وبالله وبالأشياء ولذا فلن ينقطع كيانه، ولذا يملك سلام الروح الحقيقي إلى الأبد . »[2].

لم يكن الأمر يتعلق بضرب من الحكمة الرخيصة، المبتذلة السهلة، بل بحكمة أكثر رواقية من حكمة الرواقيينStoiciens ؛ حكمة منسجمة، تكون أخيراً جديرة بمواجهة المسيحية. حتى إنه كان في مقدور الناس أن يترقبوا معركة فكرية كبرى، يتقابل فيها على التحقيق المسيحي والحكيم. وإذا صح، كما قيل، أننا نجد في «الأفكار»[3] Les Pensèesوفي علم الأخلاق L' Ethiqueأكمل وصف لحالتين على طرفي نقيض يهدف إليهما المثل الأعلى للضمير الديني من جهة، والمثل الأعلى للحقيقة الفلسفية من جهة أخرى»[4]، فما أنبل الكفاح الذي كنا نستطيع أن نشهده بين هاتين النظرتين نحو الحياة، بين هاتين الحالتين للفكر، بين هاتين المملكتين! . . . إلا أن بسكال Pascal، كما لاحظنا، لم يكن له أتباع، وبنوا سبينوزا، كمهندس أفكار، لم يفهمه أحد في ذاك الوقت. إنه سيأخذ بثأره فيما بعد، وسيوحي بالميتافيزيقا الألمانية، وسنرى في ظهور «علم الأخلاق» لحظة حاسمة في تاريخ الغرب[5]. بيد أن الوقت كان مبكراً في سنة ١٦٧٧، وكان علم

---

(١) – علم الأخلاق، القسم الثاني، عن الروح، Ethique deuxième Partie,« De L'âme»

(٢) – علم الأخلاق »، الفصل الخامس، عن حرية الروح.

(٣) – «الأفكار» كتاب باسكال وهو هنا يمثل المسيحية . [المترجمان].

(٤) – ليون برانشفيك: سبينوزا ومعاصروه، الفصل الرابع عشر صفحة ١٥٠ .

(٥) – ليون برانشفيك: تقدم الضمير في الفلسفة الغربية ، ١٩٢٧ صفحة ١٨٨ .

الأخلاق غذاء دسماً جداً، وإذا كان «البحث اللاهوتي السياسي» قد فهم بصورة أوضح فيخيل إلينا أن الفضل في ذلك يرجع إلى ما فيه من إنكار وقوة هدامة.

مذهب سبينوزا - ماأكثر أولئك الذين ناقضوه دون أن يتفهموه، دون أن يطالعوه، أو يكلفوا أنفسهم عناء الاقتراب منه . . . ! حتى بين أولئك الذين بذلوا مجهوداً أكبر، ما أكثر من لم يستطيعوا أن يوثقوا ألفتهم به، حتى يتحدثوا عنه حديثاً صحيحاً، فما صدر عنهم إلا صياح باطل! فعلى الأقل كان في مقدور الديكارتيين - أقربائه - أن يقبلوه، إلا أنهم في هذا بالذات كانوا مرتبكين، بل رفضوا قبوله: إذ كانوا يخجلون من «ابن عمهم» هذا الذي يعرض سمعتهم للخطر. ولقد رفضه بيكر مؤلف «العالم المفتون»Le Monde Enchanté ورفضه أيضاً جان لكلير J. Leclerc الذي قال عن سبينوزا إنه «أشهر كافر في وقتنا هذا»، - وأكثر من ذلك فقد دفعه مالبرانش مبعداً عن نفسه تهمة كان أعداوه يجدون سروراً خبيثاً في التنويه بها. واعتقد أصدقاوه أن عليهم أن يدفعوها. وقد بين مرتين على الأقل، في عام ١٦٨٣ في «تأملات مسيحية Mèditations Chrètiennes»، وفي عام ١٦٨٨ في «محادثات عن الميتافيزيقيا الدين»Entretiens sur La Mètaphsique et sur La Religion كم كان الناس يخطئون لا في حق إيمانه فحسب بل في حق فلسفته أيضاً، بتشبيهها بفلسفة «سبينوزا التعس».

كان سبينوزا يحتل مخيلة بايل. ولطالما ذكر اسمه، ولطالما نوه في غمار بحثه في إلحاد قديم، بما بينه وبين مذهب سبينوزا من تشابه. وهو لم يستطع أن يملك نفسه عن الإعجاب بالرجل الذي كان يبغض إلزام الضمير، والذي تجاسر فأطلق لتفكيره عنان الحرية، والذي عاش في نبل وكرامة، ومات دون أن يتنكر لمبدئه. أما كون سبينوزا أول رجل أجمل الالحاد في قاعدة، وجعل منه مذهباً، متماسكاً محكماً طبقاً للأصول الهندسية، فما كان بيير بايل يرى فيه موضعاً للمؤاخذة. بيد أن ميتافيزيقا سبينوزا تضمنت نقطة استهجنها بايل. وإذا رأيناه يعد مذهب سبينوزا

أفظع الفروض التي يمكن أن يتصورها الإنسان، وأسخفها، وأشدها تعارضاً مع أوضح أفكار العقل البشري، فما كان في ذلك يتذرع بتفنيد هذا المذهب ليشرحه، بل كان مخلصاً في اعتراضه عليه، ولطالما خيل إلى الناس أن هذا الاعتراض حيلة من حيل الجدال، فكان هذا مثار غضبه ومرجل سخطه. ذلك أن مسألة الشر كانت شغله الشاغل، مما من شيء أكثر تأثيراً عليه منه، وكان الحل الذي قدمه سبينوزا يبدو له كأسوأ حل بين الحلول المعروضة. كيف ؟! هل يولد الكائن «اللامتناهي» في ذاته كل الحماقات، كل الهواجس، كل جرائم الجنس البشري! إنه لا يكون في كل ذلك علة فاعله فحسب بل معلولا أيضاً، ويتحد بها بأوثق اتحاد يمكن أن يتصور! ذلك لأنه اتحاد فعال، بل هو في الحق «وحدة حقيقية» ما دامت الكيفية لا تفترق في الواقع عن الجوهر المتغير. «لأن يضمر الناس البغض، بعضهم لبعض، ويتبادلوا الاغتيال في ركن من أركان غابة، ويجتمعوا في جيوش لسفك الدماء، ولأن يلتهم الظافرون المهزومين في بعض الأحايين، هذا شيء معقول: لأننا نفترض أنهم يتميزون بعضهم عن بعض، ولأن صالحي وصالحك يتولد عنهما أهواء متضارية. أما ألا يكون الناس سوى كيفيات مختلفة لكائن واحد، وبذلك يكون الله وحده هو الذي «يفعل»، وأن يتحول الله ذاته إلى تركي حينا وإلى مجرى حيناً آخر، فتنشب الحروب والمعارك: فهذا ما يفوق كل شناعة وكل تخريف باطل لأشد العقول لوثة بين نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية[1]».

لم يكن بين الفلاسفة إذ ذاك من يستطيع أن يقف أمام سبينوزا كند، ، وأن يستوعب «علم الأخلاق»، ويرد على فلسفته قادراً على تفنيدها، غير ليبنتز. أما البحث اللاهوتي السياسي فمسألة أخرى: فليس يلزم أن يكون المرء عالماً أكليركيا لكي يتفهمه، ولكي يستخلص من ثنايا صحائفه حججاً ضد الكتاب المقدس، وضدسلطة الملك، من هنا كان رواجه، بالرغم من الرقابة، وتحت عناوين غير

(١) - بايل، القاموس. . . باب اسبينوزا، Bayle, Dictionnaire, art. Spinoza

صحيحة؛ ومن هنا كانت عاصفة النقد التي قوبل بها، ومن هنا كان الالتجاء إلى السلطات المدنية، والتحريم والمصادرة، حتى في هولاندة الحرة.

ومن هنا نفهم أنه يوجد هناك فيما يتعلق بهذا الكتاب وتأثيره شهادات متناقضة. فمثلاً يقول أرنو إن سبينوزا أصل التحرر، بينما يرد جوريو Jurieu بأنك لا تجد بين كل مليون من الدنيويين عشرة رجال سمعوا باسبينوزا. ويدعى ديبو Dubos أن قراءة سبينوزا وفهم مؤلفاته تقتضي تعود الجلد على المطالعة، وأن المتحررين يعيشون وكأنه لا توجد حياة أخرى دون أي اهتمام بمطالعة أسبينوزا. وهذا أيضاً هو رأي فينلون -: فالبدع لدى المتحررين في عصره ليس في اتباع اسبينوزا؛ بينما يؤكد الأب «لامي» أن أتباع اسبينوزا يزدادون عدداً يوماً بعد يوم- : فإن أخطاءه قد أفسدت أمخاخ كثير من الشباب، كما قال له رجل يسمح له مركزه بالاطلاع على مجريات الأمور. أولئك الشهود يتناقضون ولكنهم جميعاً على صواب. ليس لاسبينوزا أتباع بمعنى الكلمة خارج حدود هولندا وألمانيا. يقول بايل: «أولئك المشتبه في أتباعهم مذهب اسبينوزا قلة ضئيلة وبينهم القليلون الذين درسوه فعلاً، وبين هؤلاء الأخيرين قل من فهموه ولم تثبط همتهم لما لقوا في مذهبه من صعوبات ونظريات مجردة، إدراكها أمر محال. ولكن هاك حقيقة الأمر: فالناس يعدون كل من لا دين لهم ولا إيمان، ولا يخفون ذلك، من مذهب اسبينوزا»[1].

من هؤلاء من لحق بالمتحررين تغذية لجرأتهم وتشجيعاً لعصيانهم؛ ومنهم من ذهب إلى الإيطاليين غير المؤمنين: فإنك لواجد نفثات من روح اسبينوزا في الصفحات التي سطرها الكونت «البرتو دي باسيرانو» ضد الدين وضد نفوذ روما السياسي معاً، ومنهم من قصد ألمانيا لتغذية الالحاد الألماني مثل «ماتياس كنوتسن» Matthias Knutsen ومذهبه الـ Conscienciari، وستوتش F.WStasch.

(١) - بايل، القاموس... باب اسبينوزا.

والآخرين. ومنهم من مد بالبراهين الانجليز المؤمنين بالله الناكرين للوحي Déistes أمثال شافتسبري وكولنز وتندال وخاصة أكثرهم صخبًا: جون تولاند John Toland!.

* * *

جون تولاند - ما أغربه من رجل! كان مفتونًا بعقله. Christianity not Mysterious! صيحة أطلقها في كتابه الذي جعل منه رجلاً مشهوراً في عام ١٦٩٦؛ المسيحية لا أسرار فيها - لهذا السبب البسيط الرائع، وهو أنه ليس هناك أسرار. فالسر، لفظ وثني احتفظنا بغيره من ألفاظ، هو إما خرافة يجب أن نقضي عليها وإما صعوبة عارضة ينبغي أن نذللها. إما أن المسيحية تتفق مع العقل ولا تمثل إلا مجرد ارتضاء للنظام الشامل، متجردة عن كل ما يخرج عن هذا الارتضاء نفسه، كالتقاليد والمذاهب والشعائر الدينية، والعقيدة والايمان- وإما أنه يستحيل عليها أن تعيش؛ فما من شيء في العالم يمكن أن يكون فوق العقل وما من شيء يمكن أن يتعارض مع العقل.

وما كان جون تولاند تنقصه المعارف؛ لقد نال درجة أستاذ في الآداب من جامعة جلاسجو، وكان قد درس في أيدنبرج وليدن وأكسفورد. وكان على دراية بالتاريخ القديم: لكي يثبت أنه لم يكن إلا دجلاً، وأن مؤرخيه لم يعملوا إلا على خداع العالم. وكان ملماً بالكتاب المقدس: لكي يقول إنه مشكوك في صحته، وإن المعجزات التي يسردها يمكن ردها إلى أسباب طبيعية، ولكي يقطع برأيه، ويهذي، ويخترع ويخلط كل شيء. وكان يتقن الأدب والشعروضروب البلاغة؛ لكي يعلن عن أن أقوال أولئك الدجالين الذين تقدسهم الأديان المختلفة إن هي إلا قناع زائف يلجئون إليه لكي يقودوا الشعوب، مرغمة، من الأنوف. كان مفسداً ومزهواً، ولد لكي يثير الفضائح، يسعد بما يحدث من ضجة، ويختال إذا واتاه الحظ، ولا ينزعج إذا قذف بالحجارة لأن سقوطها يثير أيضًا بعض الضجيج.

ليس لنا أن نبحث لدى جون تولاند – الذي يضيف قوته الهدامة إلى «قواه» التي سردناها – عن أفكاره مبتكرة. فكثيراً ما نسمع صدى صوت فونتنيل وبايل وبيكر وفان ديل وهوبز وسبينوزا عندما نطلع على كتبه، ولو ساورنا الشك في ذلك التأثير لكان ما يذكره هو من بيانات صريحة عنهم يؤكد لنا أن الأمر ليس مجرد تشابه قوامه المصادفة بل إن ما وصلنا إليه صحيح. كان رأسه مكتظًا بمطالعاته، وكانت مقتطفات من أفكار المتقدمين عنه تظهر في كتبه. لا تبحث عنده عن أفكار مبتكرة، بل عن انفعال حماسي، عن هياج شديد: هو انفجار لشعور كبتته أمداً طويلاً الكاثوليكية الأرلندية، والتعصب البوريتاني، والتأدب الاجتماعي وليد الوقار؛ حتى إذا تحطمت القيود ذات يوم انفجر في وقاحة وسفه.

ولد جون تولاند في أيرلاندا كاثوليكيًا، ثم اعتنق البروتستانتية؛ ويقول مفتخراً إنه نشأ في أحضان الخرافة والوثنية، إلا أن عقله، معانًا ببعض الأشخاص، كان الأداة السعيدة التي غيرت عقيدته. فهو مذ بلغ السادسة عشرة يضمر للبابوية نفس البغض الذي لم يبرح يضمره لها دائمًا. وكان متحمسًا أيضًا ضد الكنيسة الأنجليكانية، وضد كل كنيسة تحاول أن تعتدي على شخصية حانقة أو تمس حرية لم تعد تحتمل ظل النير. بعد نجاح كتابه Cristianity not Mysterious رحل إلى أيرلاندا لكي يتذوق متلذذاً سمعته الشائنة، ولكي يخطب ويحاضر رواد المنتديات العامة في ادعاء متحذلق وتظاهر. ولكن هذا عاد عليه بشر وبيل؛ فقد أصبح مادة للتشنيع، منبوذاً مطارداً، وألقى الناس به إلى الحضيض وأصبح خارجًا على القانون.

يصف العالم الرياضي مولينو هذا السقوط للفيلسوف لوك الذي كان قد أوصاه بتولاند عندما كان يقدره فيقول: «اضطر تولاند أخيراً أن يهجر المملكة. لقد استجلب هذا الرجل المسكين على نفسه بسلوكه المتهور، ثورة شاملة حتى أصبح من الخطر على أي شخص أن يشتبه في محادثته له مرة واحدة. الأمر الذي جعل

المحافظين على كرامتهم يتجنبونه، حتى إنه بلغني أخيراً أنه لا يجد ما يمسك به رمقه، وأن أحداً لم يعد يقبله على مائدته. ولما نفذ النزر اليسير من المال الذي تبقى لديه اضطر أن يستدين بالربا الفاحش، وعجز عن أن يدفع ثمن شعره المستعار وثيابه وأجرغرفته. وأخيراً لسوء طالعه وقع كتابه في يد البرلمان وحكم عليه «بالموت حرقًا». . . وعلى إثر ذلك لاذ بأذيال الفرار من هنا ولايعلم أحد أي طريق اختار. . . ».

وحالة الخروج عن القانون هذه تفسر لنا حالته الذهنية إلى حد ما. إن نفحة الأرستقراطية التي تجدها لدى المتحررين الفرنسيين، وذكاء بايل الخالص، وعزّة سبينوزا، بعيدة عن طبعه. كان يحلم بأن يكون مؤسساً لدين جديد كمحمد ولكنه كان يفتقر إلى القوة والهيبة. كان جافًا، شرسًا، مستعملاً كل وسائل لسان متهجم سليط، ووسائل عقل يسرع في تلبية مطالب الحقد. لشد ما كان يكره القسس! كل القسس، قسس الحاضر وقسس الماضي سواء بسواء، بادئًا بكهنة «قبيلة ليفي» الذين لم يكونوا إلا دجالين. فهويهينهم ويصفهم بأنهم محتالون ومجرمون. فهو أصلاً ضد الاكليركية.

وكان في انجلترا نزاع سياسي: فإلى من سيؤول العرش بعد موت الملكة آن؟ ظهر تولاند في مؤلفه Anglia Libera سنة ١٧٠١ متحزبًا لأسرة «هانوفر» مناديًا «فلتتجنب انجلترا خطر الوقوع من جديد تحت نير البابوية ولتحتفظ بحريتها السياسية أغلى نعمة بين النعم!» وأغلب الظن أن إنتاجًا كهذا كان يروق لأسرة «هانوفر». حينئذ أصبح تولاند مندوبًا سياسيًا للحكومة. وكثيراً ما كان يسافر مكلفًا بمهام سرية في الخارج، فقد رؤى في برلين وفي هانوفر وفي دسلدورف وفي فيينا وفي براج وفي لاهاي. ولقداستجوبت صوفي شارلوت، ملكة بروسيا - التي سبق أن طلبت من ليبنتز أن يشرح لها سر الحياة - ذلك الرجل الغريب عن فلسفته؛ وأثارت منازعات بينه وبين العلماء وشراح الكتب المقدسة، المحيطين بها. لذلك بعث إليها، في عام ١٧٠٤ برسائل Letters to Serena لعلنا نجد فيها أقوى أفكاره.

إنه يشرح لها أن الاعتقاد بأبدية الروح ليست عقيدة مسيحية محضة، بل عقيدة وثنية، وأن قدماء المصريين آمنوا بها من قبل. وأن الاعتقاد بإله ذي شخصية يرجع إلى الوثنية، وأن الناس يضفون مجداً إلهياً على مخلوقات من جنسهم، ويقيمون لها المعابد وينشئون المذابح، ويقيمون لها التماثيل، ويرسمون الكهنة ومقدمي القرابين. ولم يمض طويل وقت حتى اعتاد الناس أن يتصوروا الاله على صورة ملوكهم: وذلك هو ماحدا بالناس إلى أن يتخيلوا إلهاً غريباً يسير على هواه، غيوراً، منتقماً، ظالماً. لقد سمعنا من قبل كل هذه الأفكار وعرفناها، فلنمر عليها سراعاً. وتولاند، في ميدان الأفكار، هو الرجل الذي كتب خصيصاً ليفند أخطاء سبينوزا، ولكنه تأثر بسبينوزا، حتى إنه هو الذي استعمل لفظ حلولي Panthèiste. ولم ينظر إلى هذا الأمر عن كثب ولم يكن حساساً تجاه المتناقضات.

وفي نفس الوقت، كم يتأيد شعورنا الثاني: ألا ما أعنف المشاعر! وما أشد الغضب ضد القداسة! إن تولاند يتحمس ويهتاج فور ما يلمس باب «الخرافة» ويذهب في بحثه عما يسميه الاعتقاد الباطل إلى غاية لحمنا، ودمائنا. إنه يراه في كل مكان، ولا يرى شيئاً غيره؛ إنه حصار. إن الخرافة تترصد المرء بمجرد ولادته:

«إن القابلة التي تخرجنا إلى الدنيا تتناولنا بطقوس باطلة، والنساء اللواتي يحضرن الولادة يعرفن عدداً لا نهائياً من التعاويذ يعتقدن أنها تجلب للطفل المولود السعادة وتبعد عنه الشرور. ولهن تخمينات وأقوال يزعمن أنهن يعرفن بها حظه المستقبل. ولا يقل القسيس نشاطاً في بعض الأحوال عن أولئك السيدات، إذ يقبض سريعاً على الطفل لوضعه في العبودية، ويطلعه أسراره متفوهاً ببعض صيغ تبدو كالسحر، مستعملاً بعض الملح، أو الزيت أو الماء، أو - كما يحدث في بعض البلاد - ماساً إياه بالحديد أو النار قائلاً إنه يمتلكه، ويسمه بسمة السلطان الذي سيفرضه عليه»[1].

---

(١) -الرسالة الأولى إلى سيرينا: عن أصل الاعتقادات الباطلة وقوتها.

وحين يشب الطفل عن طوقه تزداد معه قوة اعتقاداته الباطلة؛ إذ تحكى له المرضعات قصصاً عن الذئب الخاطف، والخدم قصصاً عن العفاريت. وتحكي له المدارس عن الجنيات Gènies، وعن عرائس الماء Nymphes، والعفاريت Sa-tyres، وأعمال سحر وأحداث عجيبة من هذا القبيل؛ وهناك يقرأ شعراء وقصصيين وخطباء، كلهم محترفو كذب ودجل. ولا يصبح شباب الجامعات أحسن حالاً ولا أكثر حكمة. وليس المدرسون أحراراً ولا مخلصين، لأنهم ملزمون بمجاراة قوانين بلادهم. «إن الجامعات لهي المشاتل الحقيقية للاعتقادات الباطلة...».

فالاعتقادات الباطلة تنتظرنا طول الحياة وتخدعنا، حتى إذا حان الحين، التمسنا من الاعتقادات الباطلة تحقيق آمالنا ونسبنا إليها مخاوفنا. ولكن تولاند بريء من الاعتقادات الباطلة؛ بل قد ولد لكي يحاربها؛ إنه يملك اليقين. ولم يساوره شك في ذلك أبداً، بل أشار إلى هذه الخيلاء وتلك الجسارة وهذا الفتون حتى فيما كتب على قبره: «هذا ضريح جون تولاند، المولود في إيرلندا والذي درس في إيقوسيا وفي إيرلاندا وأيضاً في أكسفورد لما بلغ مرحلة الشباب. وبعد أن تردد على ألمانيا أكثر من مرة، أمضى سني رجولته في ضواحي لندن. درس كل الآداب وعرف أكثر من عشر لغات. كان بطل الحق، والذائد عن الحرية، لم يكن متحزبًا لأحد ولا كان عميلاً لأحد. ولم يعقه التهديد ولا الشرور عن الوصول إلى نهاية طريقه المختار، مقدماً الخير على صالحه الخاص. لقد رجعت روحه إلى رب السموات، . من حيث جاءت من قبل. إن بعثه للأبدية لأمر مؤكد، ولكن لن يوجد «تولاند» آخر فيما بعد. ولقد ولد في ٣٠ نوفمبر؛ ولتبحث عن البقية في مؤلفاته...»

* * *

أولئك هم العقليون .

لقد رحلوا نحو ميادين سوف تسود فيها البداهة والمنطق والنظام؛ جارين معهم رفاقًا يختلفون عن فئتهم، كما لبرانش الذي تبعهم متبرمًا محتجًا ضدهم، وكانوا يهدمون العوائق التي لا تزال تنتشر على طول طريقهم. وكانوا ينتقدون قائلين: نحن في عصر الرقابة Siamo nel secolo dei censuristi يبدو أننا نعيش في عصر تعقب الأخطاء : We live, it seems, in a faultfinding age [1] وكانوا يهاجمون بلا هوادة؛ ويحملون على الطاعة الذليلة، والعادات الخاملة، وكتلة الأخطاء، والحماقات. ويسترسلون في مهمتهم - الضرورية دائمًا - لتخليصنا لا من ضلالنا فحسب، بل من جبننا أيضًا. وإذا هم قالوا إنهم يعملون في صالح المؤمنين أنفسهم، بإلزامهم على تبرير عقيدتهم، وعلى اتخاذها بعد اختيار مقصود، لا على أنها قبول سلبي أعمى: فهم في هذا المعنى لايتعدون الحقيقة. وهم حقيقيون بالتقدير، لإخلاصهم، وشجاعتهم، وجسارتهم؛ لأنهم لم يختاروا الجانب اليسير المفيد، بل الجانب الآخر، عارفين أنهم سيلاقون في أول الأمر عناء شديداً. ولم يكن في صفهم العدد ولا القوة الموطدة، بل كانوا على النقيض أقلية ضئيلة، ويعلمون جيداً أنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا إلا على مجهودهم وحده. «إن العناء الذي لابد من أن نجده في البحث عن الحقيقة بأنفسنا، لشديد بالنسبة إلى السهولة التي نجدها عندما نتبع، مغمضي العيون، الطريق الذي يتبعه الآخرون أيضًا، مغمضي العيون [2] . » كلما طال تسلط الضلال وسيادته، وجبت محاربته بشجاعة: «أعترف بأن محاربة الضلال قبلما يزيد الزمن من تشبث جذوره في عقول شعب بأسره، لأقل تهييجًا للخواطر من محاربته بعد ما تؤصله عراقته.

---

(١) - جريجوريو ليتي: المسرح البريطاني، ١٦٨٤، Gregorio Leti, Il Teatro britannico مقدمة ... Aaron Hill, The Ottoman Empire, 1709, Prèface

(٢) -كلود جلبرت: تاريخ كالاجيفا، أو جزيرة العقلاء. ١٧٠٠، Claude Gilbert Histoire de Calajèva, ou de L'isle des hommes raisonnables

ولكن بما أنه لا تقادم prescription يسري على الحقيقة، فليس من الصواب أن ندعمها على الدوام مقبورة في غياهب النسيان، بحجةأنها لم تكن معروفة لنا أبداً»[1] وإنه لمن أجل هذه المشقة التي يلاقونها، وهذا السخط الذي سيسببونه، مانراه من تقديرهم لضرورة رسالتهم، وعظمتها. - «إني لأقدر كل التقدير صفات رجل يسبح ضد تيارسيل، أكثر من رجل يسلم نفسه لأمواجه، كما أني أقدر تقديراً لا حد له، بصيرة العقل وصلابته في من يبحث في كل شيء، ويخالف في بعض الأحيان الأفكار الموروثة من قديم، أكثر مما أقدر أولئك الذين يرثونها عن أسلافهم، ولايحتفظون بها غالبًا إلا بسبب قدمها أو نفوذها [2]. »

شيء واحد فقط: أنهم جعلوا يظهرون أكثر عجرفة من أكبر المتدينين المتعجرفين، الذين كانوا يبغضونهم. لم يسائلوا أنفسهم حتى، لماذا كان الناس من مسلمين ويهود ومسيحيين، يصلّون على مر العصور، إن لم يكن في نفوسهم فبس ديني لا تستطيع قوة أن تطفئه، بل ظنوا، لعدم تعمقهم، أنهم قطعوا كل قول، عندما تحدثوا عن الضلال والخداع. ظنوا أنهم قطعوا كل قول، حينما رددوا كلمات الاعتقاد الباطل، والخرافة، وما إليها، ولم يسائلوا أنفسهم عما إذا كانوا قد أدمجوا في هذه الكلمات نفسها، اعتقادات صحيحة، وخرافات محققة، وعقائد شرعية وضرورية. لقد دفعتهم، عجلتهم وزهوهم، إلى تشبيه التاريخ كله برقعة من الورق، زاخرة بالطيات المغلوطة: وكان عليهم أن يزيلوا هذه الطيات، وأن يرجعوا إلى الصفحة الناصعة البياض، وهذا كل ما في الأمر: كأنما هذا شيء سهل، كأنما هذا شيء ممكن، كأننا في طريقنا على مرالأجيال، لم نجمع إلا أخطاء. لم يروا إلا

---

(١) - بيير بايل: أفكار مختلفة. . . بمناسبة المذنب، ١٦٨٣، ٩١، -Pierre Bayle Pensées divers es...à l'occasion de la Comète

(٢) -تيسو دي باتو، أسفار ومغامرات جاك ماسيه، ص ٢٨، -Tyssot De Patot Voyages et aven tures de Jacques Massè

البؤس والإجرام، ناسين التضحية والبطولة، والقديسين والشهداء. دفعهم الكبر إلى الاعتقاد بأنهم وجدوا الحقيقة كاملة، وجدوا النور الذي يستطيع أن يبدد كل ظلام، حتى وصل بهم الأمر إلى تأليه الإنسان: «نحن، باتباعنا العقل، لا نعتمد إلا على أنفسنا، وبذا نغدو من بعض الوجوه آلهة[1].»

(١) - كلود جلبرت: تاريخ كالاجيفا .... ص ٥٧.

الفصل الثاني

إنكار المعجزة

المذّنب، الهواتف الإلهية، السحرة

كانت المعجزة عدو العقليين، بطريقتها القاسية في خرق قوانين الطبيعة، وينفوذها الغريب. كانت تستهوى الجماهير: والحق أن العقليين كانوا يبغون اكتساب الجماهير، المؤمنين، والمصلّين في الكنائس والنساء: وكان نجاحهم رهنًا بذلك الثمن.

إنها المعجزة - فيجب حيالها الحرص والاحتياط: حذار من مهاجمتها دون احتراس. كان في مقدورهم على الأقل أن يهاجموا بعض الخرافات المعينة، ولم تكن تنقصهم، فهى متوافرة، وبذا شرعوا يحملون على هذا المعتقد الباطل أو ذاك، مظهرين ما فيه من ضرر وسخف، ثم ينفذون إلى أسباب الضلال - السلطة، والتراضى والعادة، ولما كانت السلطة والتراضى والعادة هي عمدة الاعتقاد بالمعجزة، فقد حققوا أهدافهم بهذا اللف والدوران.

وكانت المعركة على خطوات ثلاث.

* * *

صحيفة العلماء، يوم الاثنين أول يناير ١٦٨١:

«يتكلم العالم كله عن المذنب الذي لا شك في أنه أهم بدعة منذ بداية هذا العام. إن الفلكيين يراقبون سيره، والشعب ينسب إليه كل الويلات».

والذي حدث أنه في ديسمبر عام ١٦٨٠ ظهر مذنب في السماء، وفي السنوات التالية ظهرت مذنبات أخرى، وكانت تلك الظاهرة إيذانًا بعودة الناس إلى نزاع قديم، لكن بنغمة لم يسبق لها نظير.

كان البعض يقولون إن المذنبات خطرة في ذاتها. فمادتها تتكون من كتلة من الغازات التي تتصاعد من الأرض: فاذا حدث أن اشتعلت هذه الغازات، وهو ما يدل على اضطرات عظيم في طبقات الجو، فان ذلك يعقبه ثورة كبيرة... فيرد الآخرون بأن ذلك استدلال الفلسفة القديمة، أما نحن فنعرف اليوم أن هذه المذنبات أجرام سماوية، وأنه لا خشية على الأرض منها...

وكان البسطاء يقولون إن المذنبات نذر، نذر ترسلها السماء لتعلن عن نقمة يستحقها الانسان: عند ظهور المذنبات، فويل لمن لا يتوب عما اقترف من ذنوب! فلتذكروا أنه على مر القرون كان يتبع ظهورها دائمًا حادث مشئوم، من قتل ملك، إلى زلزال أرض، إلى مجاعة وحروب أو طاعون. ابكوا وادعوا، فقد بلغ الكفر ذروته، إن الله يظهر غضبه، فيرسل علينا نذراً من السماء.

ويرد الآخرون «أنحن قوم لنا كل هذه الأهمية، حتى تكلف السماء نفسها مشقة إرسال مذنب من أجلنا؟» لقد بحثنا طويلاً فما وجدنا شيئًا يدعم أسباب وجود هذا الاعتقاد الشائع، وليس بين براهن العلماء ما يقنعنا، ولا في الكتاب المقدس ما يؤيد هذا الاعتقاد الباطل. وبعد، فما المذنبات؟ إن هي إلا نجوم رائعات، حلى السماء، إنما يوحى بالخوف الليل والعتمة والظلام، لا النجم ذو الضياء. وحتى لو سلمنا جدلا بأن في الأمر غازاً: فكيف نستطيع أن ندرك أن في الغاز نذيراً؟ كيف يتأتى أن جسما ماديًا صرفًا لا عقل له ولا شعور، يستطيع أن يدل على معنى المستقبل؟ إن المذنبات تخضع لنظام الطبيعة التي خلقها الله، والذي لم تعكر انسجامه الخطيئة الأولى، فهي تخضع له وليست تؤثر فيه.

O vis superstitonis, quantos motus, quantos tempestis, in illorum animis excitas, quos oppressisti! إيه يا قوة الخرافة، كم من اضطراب تبعثين، وكم من زوابع تثيرين في نفوس أولئك الذين تستعبدين!

وهنا يتدخل بايل[1] محللا الصعوبات تحليلا منظمًا، على أي أساس من فضلكم يستند الاعتقاد بأن المذنبات نذر أو أنها سبب الويلات الشديدة؟ أعلى روايات الشعراء محترفى الكذب والاختلاق؟ أم على نفوذ المؤرخين مختلقي الأساطير؟ أم على التكهن والتنجيم أسخف شيء في الحياة؟ ليس لهذا الاعتقاد أساس وطيد. وإذا صح أن المذنبات كان يعقبها دائمًا عديد من الويلات، فلا محل للقول بأنها علامات لها أو أسباب «اللهم إلا إذا شئنا أن يسمح لامرأة تقطن في شارع سانت أونوريه وترى عربة تمر كلما تطلعت من النافذة، أن تعتقد أنها السبب في مرور تلك العربات، أو أن ظهورها في النافذة يكون نذيراً لكل الحي بأن عربة على وشك المرور ... »

الواقع - ولا اعتداد إلا بالوقائع الثابتة - أنه لم تحدث ويلات تخالف المعتاد في إبان السنوات التي تعقب المذنبات، فكم من ويلات بلا مذنبات، وكم من مذنبات بلا ويلات. إن عدم التمييز بين علاقة العلة بالمعلول، والمعية أو الاقتران لمنطق غير سليم. وإن تأكيد المعية بالرغم من الوقائع لمحض افتراء. دعوا المذنبات في سلام! فما لها من صلة بالانسان، وما خالها الناس مشغولة بنا إلا لسبب الحماقة والكسل والبطلان، وكل أسباب الضلال.

وقد صادق كل مسيحى مستنير على ذلك الاستدلال بغير كبير عناد. ولكن بايل لم ينته بعد، بل إنه لم ينته أبداً، فعندما نخاله قد انتهى من إثباته، نراه يفتح في

(١) - خطاب إلى السيد ا . د . س. الأستاذ في السوربون يثبت فيه ببراهين عديدة مستمدة من الفلسفة ومن اللاهوت أن المذنبات ليست نذراً لأي سوء ... ١٨٦٢ . أفكار مختلفة أرسلت إلى أستاذ في السوربون بمناسبة مذنب ظهر في ديسمير ١٦٨٠ ... ١٦٨٣ - ملحق لأفكار مختلفة عن المذنبات ... ١٦٩٤ - تكملة الأفكار المختلفة ، ١٧٠٥ .

كتابه فصلا تلو فصل، وحينما ينتهي الكتاب يشرع في كتاب جديد. إننا لا نزال بعد في البداية.

إنه ينكر الاعتقاد بقدرة المذنبات، ولو استشهدت بها شعوب بأجمعها، ولو أيدها ملايين من الناس، ولو اتخذوها دليلا لاقناع الذين لا يصدقون بوجود الله. وهو ينكر بالمثل التقاليد التي ينسب إليها المصدقون القدرة على الاحتفاظ بحقائق الايمان. «إني أكرر مرة أخرى أنه وهم محض، ذلك الادعاء بأن فكرة قد انتقلت من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل لا يمكن أن تكون باطلة كل البطلان».

واحتدم الجدال. وهنا يبرز بايل أعز برهان لديه، البرهان الذي يبدو له حديثًا مبتكرًا: إن القول بأن المذنبات نذر ويل، معناه أن الله يأتي بالمعجزات ليؤيد الوثنية في الدنيا ... ويتحمس ويشتعل ويبدو في أوج البلاغة والبيان: لا تجعلوا ضعفكم وجهكم يلجئانكم إلى فكرة المعجزة كلما وجدتم أنفسكم عاجزين عن تأويل حدث من الأحداث! إن العقل لا يستسيغ المعجزة. ولا شيء يليق بعظمة الله وقدرته كالاحتفاظ بالقوانين الشاملة التي سنها بذاته؛ ولا شيء يمس عظمته كالاعتقاد بأنه يتدخل ليخرق سريانها؛ ولأي مناسبة؟ لمناسبة حوادث تافهة بالنسبة لنظام الكون كولادة أو وفاة ملك من الملوك!

«كلما درسنا الانسان أيقنا أن الخيلاء شهوته المتسلطة عليه، وأنه يصطنع الكبر حتى في خضم البؤس والكرب. تبًا له! فقد استطاع بما جبل عليه من ضعف وهوان، أن يقنع نفسه بأنه لا يمكن أن يموت دون أن يزعج الطبيعة جمعاء، ودون أن يجبر السماء على تجشم نفقات جديدة لا نارة موكب جنازته. فيا للخيلاء الباطلة الحمقاء! لو أن لدينا فكرة صحيحة عن الكون، لفهمنا سراعًا أن ولادة أسير أو وفاته مسألة من التفاهة بمكان بالنسبة لطبيعة الأشياء حتى إنه لعبث أي عبث أن تتحرك من أجلها السماء. ولكنا نقول مع سنيكا أسمى فلاسفة روما القديمة فكرًا، إن العناية الالهية لا تغفل عنا بل تنزل إلى غايتنا، وإننا نأخذ نصيبنا منها، ولكن

هدفها يفوق كل ما نتصوره عنها ، وإنه وإن كانت حركات السماء تعود علينا بفوائد جلى ، فلا يعنى هذا أن هذه الأجرام الهائلة تتحرك محبة في الأرض[1] . »

ثم يواصل بايل كلامه عن الارتضاء الشامل والتقاليد والمعجزات . إن الاعتقاد الذي يجعلنا نرى في المذنبات نذر ويلات عامة ، خرافة قديمة لأهل الوثنية ، أدخلت على المسيحية واستقرت فيها . والواقع أن كثيراً من أخطاء الوثنية بقى على مر العصور ، وليس بعسير أن نجده الآن في عادات المسيحيين ومراسيمهم بل في معتقداتهم .

ولنذهب إلى أبعد من ذلك : إن الله لم يقصد ، حينما انتشل الوثنيين من الظلام ، أن يجعلهم أكثر علماً بالحكمة والفلسفة ، وبأسرار الطبيعة ، وأن يقويهم ضد الاعتقادات الباطلة والأخطاء الشائعة ، فلا يقعون في وهدتها مرة أخرى . وسواء كان هناك وحى أو لم يكن ، فان أعماق طبيعة البشر تبقى دائما عرضه لأوهام لا تحصر ، واعتقادات باطلة ورذائل وشهوات وأهواء ؛ والمسيحيون يقعون فيما يقع فيه غيرهم من فساد واختلال . ولنذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً : فليس بمستبعد أن الدين بدلا من أن يبد الظلمات قد زادها كثافة وعتمة : « فيما يخص الميول الخرافية التي أوجدها الشيطان في عقل الانسان ، أقول إن عدو الله هذا وعدو السلام قد واصل الجهاد مستغلا كل ظرف لكي يجعل من الدين - خير ما في الدنيا - كتلة من الخرافات وشاذ العادات واللغو الفارغ والاجرام ، حتى إنه - وذلك أسوأ ما الأمر - دفع الناس مستعيناً بتلك الميول إلى أسخف وأفحش ما يمكن أن يتصوره المرء من وثنية[2] . »

ولعل الوثنية من صفات كثير من الأديان ، وإنه لواضح كل الوضوح أنها الصفة الحالية للدين المسيحي . هذا مع العلم بأنه ليس أسوأ من الوثنية شر : حتى

---

(١) - بيير بايل : أفكار مختلفة ... بمناسبة المذنب ... ١٦٨٣ ، باب ٨٣ . Pierre Bayle, penées diverses … à L'occasion de La cométe… 1683.

(٢) - بيير بايل : أكار مختلفة ... بمناسبة المذنب ١٩٨٣ ، باب ٦٨ .

الكفر. وإنه ليمكن القول نظريا، بأن عدم الكمال يخالف طبيعة الله أكثر من عدم الوجود. ويمكننا لكي نبين مدى استنكار الوثنية، أن نجمع كل ما أصدرته الكنيسة ضدها من أحكام استنكار وتحريم. ولكن الأفضل أن نقدر الوقائع التي هي دائمًا مرجعنا الأخير. ألا يعطي المسيحيون أسوأ مثل للرذيلة؟ ألا يلازم الاعتقاد في الله فساد خلقي مستطير - في الحياة العملية؟ وعلى النقيض من ذلك ألا يوجد من الكفار من يسلك سلوكا كله فضيلة؟ أو ليس لديهم وعي تام بمبادئ الشرف؟ ألا يعملون على أن يحظى اسمهم بأبدية المجد دون أن يؤمنوا بأبدية الروح؟ إن المرء ليستطيع أن يتصور مجتمعنا من الكفار لا يتساوى مع مجتمع من المسيحيين فحسب، بل يمتاز عليه. وأخيراً فاذا كانت قيمة فكرة من الأفكار تقدر بما أوحت من أبطال وبما خلقت من شهداء، أفلا يعلم الناس أن للفكر أبطاله وشهداءه؟.

هكذا يبدأ بايل بالمذنبات البريئة لينتهي بتمجيد الكفر. ولا شك في أنه وجد من واصل أفكاره، قوم أرادوا أن يؤثروا مثلما أثر لا في مجال الفلسفة فحسب، بل على أرواح البسطاء أيضًا: إلا أنه ما من أحد حتى تولاند الذي نقل أفكاره أحيانًا - كان له مثل قوته المطلقة العنان. وما من شك أيضًا في أنه وجد عدد أكبر من معارضيه وأخصامه الذين انشغلوا بنقض أفكاره وتفنيدها نقطة بعد أخرى: إلا أن سنين سوف تمر قبل أن يظهر فكر قوي يواجه فكره. في عام ١٧١٢ كتب إيلي بنوا Elie Benoist راعي كنيسة دلفت Delt بهولندا صفحات ضده، لم تكن دسمة غير أنها لم تنقصها قوة المادة. يقول الراعي: إنه بالمنهج الذي يستعمله بايل في شأن المذنبات، المنهج الذي يتطلب كل وضوح وبداهة وينكر كل شهادة، يمكن القول بأنه ليس هو مؤلف «القاموس». إن بايل يدعي أنه مولفه: ولكن أي دليل يقدمه لنا ليثبت صدقه؟- إنه يقسم على ذلك: ولكن أريد توكيدا ووضوحًا؛ فان هناك يمينا كاذبة - سوف يقدم لنا أصدقاءه ليشهدوا بأنه رجل فاضل شريف: ولكن لا يزال

عليه أن يثبت صدق أصدقائه – وسوف يستشهد بالكتبى والطابع والمصحح : ولكن سأشك في ذمة الشهود، ومن شاهد إلى شاهد سوف يتضح أني قبل أن أصدق مسيو بايل، لابد من جمعية عمومية من الجنس البشري بأجمعه ...

فالواقع أن هناك ظروفا يجب فيها على المرء أن يقنع بالدليل المعنوي، وعيب منهج بايل أنه يريد أن يشمل الروح بكليتها والحياة بأجمعها . إن الدليل المعنوي على ما فيه من غموض وظلال، يتيح للمرء أن يختار وأن يرفض وأن يعمل وأن يريد . « إن الأدلة القاطعة من الندرة والتعذر بحيث لا تغنى ولا تفيد في الأمور التي تحتم فيها ضرورة الحياة ضرورة العمل، وإنه إذا ادعينا أنه لابد لنا – لكي نختار – من براهين تتغلب على كل اعتراض يثيره فيلسوف حاذق حصيف، فعندئذ ينبغي أن نطرح كل مهام الحياة . فالفنون والعلوم والقوانين والتجارة لا أساس لها إلا الأدلة المعنوية» . وعليها يستند الدين ...[1].

ويومئذ نسى الناس المذنبات، وأخذ المؤمنون بكنيسة دلفت، ووراءهم العالم كله، يفاضلون بين المذهب العقلي[2] rationalisme ومذهب الذرائع Ptagmatisme.

* * *

أولئكن « السبيلات» Sibylle أو العرافات الجميلات اللواتي رسمهن مشيل أنجلو في كنيسة الفاتيكان، نساء تلقين الوحي من لدن الله، فقد تنبأن – بالرغم من وثنيتهن – بمجيء السيد المسيح وحياته ومعجزاته وموته وبعثه . وقد استغل آباء الكنيسة أقوالهن على أنها هواتف إلهية لهداية غير المؤمنين : فان الوثنيين كانوا

---

(١) – ملاحظات انتقادية تاريخية فلسفية لا هوتية على مقالين لمسيو تولاند M. Toland أولهما «الانسان بلا خرافة» وثانيهما «أصول اليهو Origines Judaïqeus لا يلى بنوا Elie Benoiat راعي كنيسة دلفت، دلفت ١٧١٢ ، Delft, 1712

(٢) – المذهب العقلي : مذهب لا يعترف إلا بسلطان العقل وينكر الوحى، والبراجماتزم أو فلسفة الذرائع مذهب يقول إن أساس الحق هو الفائدة العملية . (المترجمان) .

يضطرون إلى الاعتراف بقداسة الدين المسيحي وصحته، حينما كانوا يرون في الكتب التي تتضمن أقوال العرافات، أن أسرار هذا الدين قد بينت للناس قبل ظهوره. عشر عرافات شهيرات؛ وثمانية كتب لاتينية ويونانية وشهادة المؤلفين العظماء، فرجيل Virgile، وتاسيت Tacite وسويتون suétone؛ سلطان الآباء، القديس الشهير جوستان، والقديس أوغسطين، والقديس جيروم: أي كتلة قوية! أي حصن ضد الارتياب! ولا يغربن عن البال أن هذه التنبؤات لم تحدث إلا إلى غاية ولادة المسيح وأنها توقفت يومئذ إذ أصبحت وليس فيها نفع ولا غناء: وكان هذا السكوت الاعجازي برهانًا جديدًا على صفتها الالهية.

على أن بعض المتضلعين من العلم لم يؤمنوا بذلك بسهولة. هل كتب العرافات هذه صحيحة؟ ألا يحتمل أن تكون من صنع اليهود المؤمنين بالمسيح[1]؟ أو لعلها من صنع المسيحيين؟ إنها تبدو كمجموعة يونانية فجة غير منسقة. وأما فيما يتعلق بآباء الكنيسة فان علمهم وإخلاصهم لا يعصمهم من الوقوع في الخطأ، فقد كان يعوزهم روح النقد، وكانوا مغرضين فقد أخذوا على محمل الصدق أقوالاً ظاهرة البطلان. لقد انخدعوا، ثم خدعوا قراءهم بدورهم وإن حسنت النيات.

لقد نسب العالم فوسيوس Vossius قسيس قصر وندسور، تلك الكتب إلى اليهود، دون مراعاة لقداسة عرافات دلفوس Delphes أو قيوم Cumes أو الدردنيل

(١) – كان اليهود دائمًا في انتظار مسيح ينقذ الشعب الاسرئيلي من ظلم روما ويعيد إليه عظمته القديمة. وكانوا ينشرون في هذا الغرض كتبا تحت عناوين كاذبة مثل كتب هنوك وجوديت وعزرا – يصفون فيها مجئ المسيح المخلص. وكان يهود «الناصرة» حيث ولد عيسى، أول من آمن به وبرسالته. لكنهم كانوا يرونه رسولا قد بعث: لا لتبديل الدين اليهودي، بل لتتويجه بمجئ المسيح المخلص. وأولئك اليهود المؤمنون بالمسيح يختلفون عن مسيحي اليونان واللاتين في أنهم ظلوا متمسكين بكل عاداتهم اليهودية مثل: تحتيم الختان والوضوء والاحتفال بيوم السبت، وهو اليوم السابع ويسمونه «سابا»، وقراءة العهد القديم بالعبرية. وكانوا يكرهون تلك الفكرة الخرافية: الرجل الاله. (رينان: تاريخ أصول المسيحية، الكتاب الخامس، الفصل الثالث؛ وتاريخ الشعب الاسرائيلي، الكتاب الخامس) E.Renan, or-gines du christiamisme et Histoire du peuple d, Tsraél (المترجمان)

Héllespontique أو غيـرهن la Phrygienne, la Tibutine ؛ بينما نسبها يوحنا ماركوس johannes Marckius العالم اللا هوتي بجامعة جرونوجن إلى الرعيل الأول من المسيحيين. ثم ظهر طبيب هولاندي يدعى أنطون فان ديل Van-Dale يتميز بالقوة وغزارة المعلومات، فوجه ضربتين قاضيتين: أولاهما أن هذه الهواتف الالهية لم تكن إلا دجلا، والثانية أنها لم تتوقف بعد مجيء المسيح.

ثم جاء فرنسي أديب حصيف، أحد أولئك الذين يحسمون الجدال بكلمة قاطعة، ولم يكن أحد من صفه يستطيع أن يتقدم عليه مهما طال الجدال. أي رمز لتطور الأفكار في شخص فونتنل Fontenlle ! لم تجتذبه موضوعات البطولة - وإن يكن ابن أخي كورنيل corneille العظيم - بل كان يعد دعوى «الجليل» طنطنة. لقد عرف التكلف: كان يهوى الأشعار الموجزة، والقصائد الرقيقة، وأناشيد الغزل، ويستطيع أن يجد مائة ناحية من نواحي الجمال في شعرة بيضاء تتخلل الشعر الفاحم لغادة حسناء.

واشترك في مجلة «ميركور» Mercure[1]. وألف الكوميديات والتراجيديات والأوبرات. وكان يرى أن الاشتغال بالأدب يعنى صياغة قوالب محدودة جامدة، طبقا لمبادئ ثابتة: وقد ظهر له هذا العمل، حسبما رسم، مسليا ممتعًا. وقد احتفظ من تلك الأذواق بشيء أكثر من الذكرى، بل ظل طوال حياته قريب الشبه - إلى حد ما - بسيدياس Cydias[2] الذي وصفه لابروييرLa Bruy-ére في قسوة.

---

(١) - ميركور Mercure: مجله أسبوعية أسست في ١٦٧٢ لنشر أخبار البلاط والأشعار القصيرة والقصص، واسمها مأخوذ من ميركور ابن زيوس رب الأرباب، وميركور (هرمس) رسول الآلهة أيضًا فضلا عن كونه إله البلاغة والفصاحة والتجارة، في الميثولوجيا اليونانية. (المترجمان)

(٢) - سيدياس Cydias: مثال الرجل المشهور في الأدب لفرنسي باسم Bel - esprit أي مدعى العقل والذكاء. وصفه لا بروير في كتابه «الشخصيات» Les caractéres وهو حسب وصف لا بروير يعتقد أنه رجل نسيج وحده، حلو الحديث فريد الشمائل لا يقول ما يقوله الآخرون ولا يفتح فمه إلا لينقد رفاقه: «يخيل إلى أن الأمر عكس ما قلتم ... لا أستطيع أن أشاركم رأيكم ... يجب أن نلاحظ ثلاثة أسباب ...» ثم يضيف سببًا رابعًا. يبادر أول ما يدخل مجتمعًا إلى البحث عن حسناء =

بيد أن فونتنل كان طلعة بفطرته، بل تواقا إلى الوصول إلى معارف صحيحة ثابتة: معارف رياضية إذا أمكن. لا تسلية ولا متعة ولا لذة تعدل عنده التحليل والاستنباط، وإعمال الذهن الذي يقشع الظلال رويدا رويدا. وكان عقله قريباً جداً من أصل جوهره الصافي، وإنه لعقل جدير بالأعجاب، يدرك على الفور ويدرك كل شيء، لا تفسده صورة أيا كانت ولا يفتنه شعور أيا كان، وحينما نراه إبان العمل، يخيل إلينا أننا أمام آلة تشريح لامعة حادة النصال. زد على ذلك روح التبشير التي لم يخل منها في ذلك الوقت أحد، إذ لم يكن أحد قد سئم بعد. وصحيح أنه كان أنانياً وأنه اجتنب كل شهوة وكل انفعال، وأنه لم يحب النساء إلا من قبيل حب الذات، وكان يتوقى البرد والحر والتيار، ويبتعد عن الطفيليين والثقلاء وعن كل مبعث ضيق وابتذال، وأنه بفضل «ضعفه» الشديد، شاهد أصح الناس يدفنون، وعاش مدة قرن طويل. إلا أنه ليس صحيحاً أنه قبض يده على ما فيها من ثروة من الحقائق وادخرها لنفسه. وليس ضربة لازب أن يكون المبشرون والدعاة أهل طنطنة أو سوء تربية بل منهم قوم ذوو رقة وتهذيب، مثل فونتنل، ولشد ما كان يكره الضلال، حتى إنه ينسى ما اشتهر عنه من حيطه، ويقاوم الميل إلى الشك قائلا في حسرة «إنك تجد الضلال في كل مكان...»

فونتنل هذا هو الذي اقترب من العرافات ونظر إليهن نظرة متحرزة. وقد نشر في عام ١٦٨٦ مؤلفه «تاريخ الهواتف الالهية» Histoire des oracles وهو لم يتعمق ويتوغل ليبحث عن معلوماته، بل قنع بمؤلفات «فان ديل» Van Dale ولعله كان اكتفى بترجمة كتابه لولمس فيه القوة والوثوق. ولكن فان ديل يكتب في أسلوب جاف ثقيل، حافل بالوثائق زاخر بالتعليق، يثبط همه القارئ لأول وهلة: يحسن إذن أن يتناوله فونتنل بالتزيين والتهذيب، وأن يجمله على الطريقة الفرنسية

= ليسحرها بحديثه الفاتن وذهنه الرائع وسفطته. وينتظر دائماً انتهاء الحديث ليدلي بالرأي الأخير. يظن نفسه فوق أفلاطون وسنيكا وفرجيل. ثقته بنفسه لا تحدها حدود. (لا برويير - الشخصيات الفصل الرابع، في المجتمع والمحادثة). (المترجمان).

حتى يصبح في متناول الجميع. لأن «النساء - ولا أخفي عليكم أن الرجال مثلهن في هذا البلد - يتذوقن جمال الأسلوب والتعبير والأفكار، قدر ما يشعرن بما في الأبحاث الدقيقة والمناقشات العميقة من جمال جاف. ولا سيما ونحن، بما جبلنا عليه من كسل، نريد أن نجد الترتيب والنظام في الكتاب، حتى نبذل أقل اعتناء...» والخلاصة أن فونتنل قسم العمل: فترك لفان ديل الناحية العلمية، واحتفظ لنفسه باللباقة والأناقة وجزالة السياق ولذع الأسلوب.

أولا، ليس صحيحًا أن تلك الأصوات الاعجازية كانت من فعل الآلهة[1] كيف أمكن أن يصدق الناس ذلك؟- لان إنتاجًا أدبيًا بأكمله، زاخراً بالوقائع المدهشة، اجتمع على تأييدها؛ ولأنه كان طبيعيًا أن يستغلها الناس ما استطاعوا مادام المسيحيون قد اعترفوا بها، ولأن الاعتقاد بالآلهة كان يبدو موافقاً للفلسفة الأفلاطونية، زد على ذلك سببًا أقوى من كل الأسباب: تسلط السر المحير على ذهن الانسان.

ولكن كل هذا البناء واهي الأساس: إن الروايات التي يستند عليها هذا التقليد الخرافي غامضة أو متناقضة أو ظاهرة الاختلاق، حتى إنها لتنهدم وتتداعى فور فحصها بمعرفة العقل. وهكذا يسير فونتنل في طريقه ضاربًا ذات اليمين وذات الشمال، قائلاً: إن العقيدة الشائعة عن أصوات الآلهة لا تتفق مع الدين قدر ما يظن الناس، وإن وجود الآلهة لم يقم عليه الدليل الكافي في الفلسفة الأفلاطونية، وإن مذاهب هامة في فلسفة الوثنيين لم تعتقد بوجود شيء خارق للطبيعة في أصوات

(١) - أصوات الآلهة أو الهواتف الآلهية Oracles: هي في الأصل - لدى الوثنيين - جواب الآلهة على أسئلة الناس. ففي المعابد والهياكل مثل دلفوس كلن الاله يتكلم على لسان عرافة يدعونها بيتي أو سيبل. وكانت هذه الكاهنة الحسناء، لكي تأتي بالجواب، تصوم ثلاثة أيام، ثم تمضغ ورقة غار، وتقع في تشنج عصبي هو ولا شك نتيجة عصارة هذا النبات، ثم تقف على منبر موضوع فوق عين يصاعد منها بخار أو غاز، ثم يرتعد كل جسمها، ويقف شعر رأسها ويمتلئ بالزبد شدقها، وحينئذ تجيب على أسئلة السائلين. (المترجمان)

الآلهة، وإن كثيرين من غير الفلاسفة لم يلقوا بالا إلى تلك الأصوات، وإن المسيحين القدماء أنفسهم لم يعتقدوا كل الاعتقاد في أن تلك الأصوات من فعل الآلهة. وهكذا كلما وجد فونتنل تأكيداً، شك وأنكر، مدليا بالأسباب على الدوام.

والآن، وقد ثبت أن أصوات الآلهة كانت فاسدة، وأن الناس ابتدعوها تحقيقاً لهوى ذوى النفوذ، وأن كهنة الوثنيين استعملوا كل الحيل لفرض تلك الأصوات على عقول العوام، وأن كانت غامضة مبهمة فلا وزن لها ولا قيمة، وأن أساسها الخبث البشري ولا صلة لها بالآلهة، ينتقل فونتنل إلى النقطة الثانية: فغير صحيح أن هذه الأصوات قد توقفت بعد مجيء المسيح، بل إن كثيراً منها حدث بعد ذلك التاريخ. وإذا صح أنها توقفت عن الصدور، فلأنها كانت تحمل في ثناياها سبب الفناءو وهو سبب منطقى مستقل عن النفوذ الالهي: بداهة البطلان. «إن جرائم الكهنة ووقاحتهم، ومختلف الأحداث التي أظهرت دجلهم في جلاء، وخطأ إجابتهم وعدم الوثوق بصحتها، كانت لابد أن تضيع آخر الأمر أصوات الآلهة، وتوردها موارد الهلاك، ولو لم تنته الوثنية». وجماع القول في ذلك أنه لا شيء في كل هذه الرواية خارق للطبيعة، وهي رواية تقوم على جهل البعض وخداع الآخرين. الخارق للطبيعة: ذلك هو الملاذ المعتاد للانسان، ملاذ كله خداع وبطلان. نحن في جرينا وراء العلة نتخطى حقيقة الأمر الواقع، وهنا مأتى الضلال. والدواء الناجع في قاعدة ينبغي ألا تغيب أبداً عن العقول: تحقق من الواقع أولا، قبل أن تشغل نفسك بالعلة.

من ذا الذي لا يعرف حكاية السن الذهبية، تلك الحكاية اللطيفة الحية الحافلة بالمعاني. فلنعد قراءتها فان قيمتها خالدة، ولنتخيل ما كان لها في بدء ظهورها من شهرة وضحة. إن فونتنل يبدو كأنه يتسلى، بينما هويلمس أهم مصالح البشر: العلم والتاريخ والدين:

« في عام ١٥٩٣ سرى خبر مؤداه أن طفلا من سيليزيا عمره سبعة أعوام سقطت أسنانه، ونبتت محل أحد أضراسه سن من ذهب. وقد كتب هورستيوس Horstius أستاذ الطب في جامعة هلمستاد Helmstad في عام ١٥٩٥ قصة هذه السن، زاعما أن فيها شيئًا من الطبيعة وشيئًا من الاعجاز، وأنها إنما أرسلت من لدن الله إلى هذا الطفل كسلوة للمسيحيين الذين آذاهم الأتراك. هل تتصورون وجه السلوة في ذلك؟ وأي علاقة لهذه السن بالمسيحيين وبالأتراك؟ وفي نفس السنة كتب رولاندروسRullandus حكاية هذه السن الذهبية مرة أخرى، حتى لا ينقصها المؤرخون. وبعد عامين كتب انجولستا روس IngoIsteterus- عالم آخر - معارضا رأي رولاندوس في هذه السن الذهبية، وعليه أجاب رولاندوس في رد علمي جميل. ثم يأتي رجل عظيم آخر هو ليبافيوس يجمع كل ما قيل عن هذه السن، ويضيف إليه رأيه الخاص. وكل ما كان ينقص هذه المؤلفات الرائعة أن تكون السن حقيقة من ذهب. فانه لما جيء بصائغ ليفحصها وجد أن قشرة من ذهب قد ركبت عليها بمهارة. غير أنهم بدأوا بتأليف الكتب أولا، ثم استشاروا الصائغ بعد ذلك.

«ولا شيء يبدو طبيعيًا أكثر من أن يسير الناس على هذا المنوال في كل الموضوعات. لست أعتقد أن مرد جهلنا إلى عدم إدراكنا علة الموجود من الأشياء، بل مرده إلى إدراكنا علة ما لا وجود له من الأشياء. ومعنى ذلك أننا لسنا نفتقر إلى المبادئ التي توصلنا إلى اليقين فحسب، بل إننا فوق ذلك نملك مبادئ أخرى تتمشى مع الباطل كل التمشى.

« لقد أثبت كبار علماء الطبيعة أن الطبقات الواقعة تحت سطح الأرض حارة في الشتاء، باردة في الصيف، إلا أن علماء أعظم منهم، اكتشفوا منذ زمن قريب أن هذا لم يكن صحيحًا.

«والمناقشات التاريخية أكثر قابلية لمثل ذلك النوع من الأخطاء. نحن نستدل بناء على أقوال المؤرخين، ولكن من يدرينا، هل سلم هؤلاء المؤرخون من الأهواء، والتصديق الأعمى، وضعف التعليم، والاهمال؟ لا بد لنا من مؤرخ يكون قد شاهد كل شيء، ولا بد أن يتوافر فيه الحياد والاهتمام.

«ولا سيما إذا كتب المرء عن وقائع تتصل بالدين، فانه لمن الصعوبة بمكان إذا كان ينتمي إلى إحدى الطوائف أو الأحزاب، ألا ينسب إلى دين غير حق ميزات لا يستحقها، وأن ينسب إلى دين حق صفات باطلة لا يحتاجها. ومع ذلك ينبغي أن نقتنع أنه من المحال أن نضيف أية حقيقة إلى دين حق، كما أنه من المحال أن نضفي أية حقيقة على دين باطل ...»

ولا تبدو البداية إلا هزلا ظريفا، غير أن النغمة تصبح جداً رويداً رويداً.

إن التفكير العميق تحت هذه المظاهر الخفيفة، يلتحق بالتفكير الذي عبر عنه بايل في صدد المذنبات، حتى إنه لا يعييك أن تلاحظ القرابة. إنه نفس النداء موجهاً إلى جمهور، أكبر من جماهير الفلاسفة واللا هوتيين، وفيه نفس الارادة في اتهام ضعف الطبيعة البشرية، أهم أسباب الضلال؛ وعمى التقاليد التي تحتضن الضلال وتدعمه وتجعل منه قوة لا تغلب. تتولد الحماقة: فيصدقها القدماء ويعتمدونها، ونصدقها بدورنا على علاتها، استناداً على القدماء. إن الآلية لا تتغير: أقنعوا ستة رجال بأن الشمس لا تضيء النهار، وفي ذلك الكفاية: فان شعوبا بأكملها يؤول بها الأمر إلى الاقتناع. وفونتنل، مثل بايل، يكره السلطة؛ إن الارتضاء الشامل يبدو له سخافة محضة، إذا اتخذ دليلا على اليقين: إن قبول مائة شخص أو مائة مليون لأسطورة، خلال عام أو خلال قرون، لا يغير منها شيئاً إذ تبقى دائماً أسطورة. وهو، مثل بايل يستنكف المعجزة، وأخيراً فهو مثل بايل يأبى أن يجد فرقا جوهرياً بين الوثنيين والمسيحيين: فالمسيحية تأبى نسبة حقائقها إلى الوثنيين، والوثنيون أورثوا المسيحيين أخطاءهم.

ولما كان فونتنل ذا عقل كسول كسكان سيباريس Sybaris[1] وذا حكمة، ولما كان ميالا إلى المتعة الهادئة خشية أن يستجلب على نفسه نقمة الآلهة، فإنه

---

(١) - سيباريس: مدينة قديمة في إيطاليا اشتهرت بليونة سكانها الذين ضرب بهم المثل في الكسل. يحكى أن أحد أهلها كان يتصبب عرقا إذا رأى عبداً يقطع الأشجار. وأن آخر يدعى سيمينيريت اشتكى من أنه ظل طوال ساهرا أرقا، لأن ورقة من أوراق الورد المفروشة في سريره كانت قد انثنت، وذهبت هذه المبالغة مثلا. [المترجمان]

لا يجادل جدالا شديدًا، ولكنه يجادل على كل حال. وهو يعلم أن في بولونيا مجمعًا للعلوم يدعى مجمع «القلقين»: والقلقون - لقب يليق «بالفلاسفة المحدثين الذين لا يتقيدون بأي سلطة، ولذا فهم يبحثون ولن يكفوا عن البحث [1]». فونتنل من طائفة القلقين. وهو مثل أعضاء طائفته، يدرك أن عليه رسالة شاقة واجبة الأداء: لأن يرفض المرء اعتقاداً جديداً دون فحص، أو يتقبل اعتقاداً شائعاً، هذا سهل لا يستلزم استعمال العقل، أما أن ينبذ اعتقاداً شائعاً وينضم إلى حزب التجديد، فذلك عسير وهو ما يستحق التقدير: «إنما القوة تلزم في مقاومة السيل، أما في متابعته فليس لها لزوم». فهو ينكر على المصدقين كل شيء، ويعطى للمنكرين كل شيء، كما هو مبين في هذا القول: «إن شهادة الذين يعتقدون في ثبوت شيء، ليس لها من قوة تسنده، أما شهادة الذين لا يصدقون به فلها قوة تقوضه. ولعل المصدقين لا يعلمون بالأسباب التي تدعو إلى عدم التصديق، لكنه من المحال أن يجهل غير المصدقين الأسباب التي تدعو إلى التصديق».

* * *

وكان الاعتقاد في السحرة أقدم وأعم وأعمق تشبثا بالعقول. وكان السحرة مخلوقات كريهة مرذولة: يذهبون إلي اجتماعات السبت sabbat [2] على مطايا غريبة، ويشركون في حفلاتهم الشيطان. وعلى ما يقول أحد المعاصرين يؤذون الناس بأعمالهم السحرية فيمنعون الزوج من مجامعة زوجته، ويفسدون الفتيات الفاضلات بطلسم يلقونه فيما يشربن أو فيما يأكلن، ويسممون الماشية، ويتلفون خيرات الأرض، ويميتون الرجال بالتعذيب البطيء، ويجهضون الحوامل، بجانب

(١) - مدح لمسيو مارسيجلي ... Eloge de M . Marsigli

(٢) - Sabbat : يوم الراحة عند اليهود وهو اليوم السابع أو السبت. وهو حسب اعتقاد شعبي يعني اجتماع السحرة في منتصف الليل يوم السبت تحت رئاسة الشيطان. وقد أمر الله اليهود بعدم الصيد في يوم السبت ابتلاء لهم فتمر الأيام لا يأتيهم السمك وفي يوم السبت المحرم تظهر لهم الحيتان بكثرة تراودهم. قال تعالى «واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون». (المترجمان)

مئات من السيئات الأخرى ... وهناك نوع آخر أخطر من هؤلاء : السحرة المجوسيون، وهم على علاقات ودية مع الشيطان، يستحضرونه على الصورة التي يرغب أن يراه فيها محبو الاستطلاع . ويعرفون سر الكسب في المقامرة، ويضمنون الثراء لمن يبوحون له بهذا السر . يرجمون بالغيب، ويستطيعون التحور إلى الحيوان بمختلف أنواعه واتخاذ صورة أبشعه، ويذهبون إلى بعض المنازل حيث يصدرون أصواتًا غريبة تبدو كعواء الذئاب، وأنات مرعبة تثير الفزع، ويظهرون وسط نيران تعلو على هام الشجر، جارين أغلالا في أقدامهم، ممسكين بالأفاعي في أيديهم، والخلاصة أنهم يثيرون الرعب في الناس حتى يضطروا إلى استدعاء رجال الدين لصرفهم .

وإن عددهم لكبير : تجدهم في أمريكا لدى المتوحشين، كما تجدهم في لا بلاندة . ولما كان سحرة لا بلاندة قد تعاهدوا مع الشيطان، فانهم يستطيعون إيقاف السفينة في أثناء سيرها، وتغيير وجه السماء، يدقون طبلا سحريًا لأمد طويل، ثم تستولى عليهم علامات رعب شديد، ويظلون سجودا على وجوههم دون حراك، بينما أرواحهم تفارق أجسادهم، راحلة إلى بعيد، ففي لابلاندة تصادف السحرة أينما سرت وفي كل خطوة .

ومالنا نذهب بعيداً . فقد حدث مثلا في انجلترا القديمة، في تدورث ، أن طرد أحد أصحاب المنازل قارعًا للطبولة من منزله : يومئذ عاد هذا الرجل بالسحر، ليسمع صاحب المنزل رقات تثير الرعب وضجة شيطانية . والواقعة أكيدة . فان قسيسًا يدعى جوزيف جلانفيل Glanvill، حضر إلى المنزل وتفقده من الأساس إلى السقف : ولقد سمع الضجة إلا أنه لم ير أحداً، وأولئك الذين ينكرون تلك الشهادة عن وجود الشيطان وقدرته، غير مؤمنين، كفرة، صدوقيون Sadu-

céens[1] وكان المذهب الصدوقي يسرى في انجلترا ويفتح الطريق للكفر، بتشكيكه في وجود روح أبدي لا متناه. ، ولكن الصالحين من القوم، سوف يعملون على إخماد هذا المذهب، لأنهم لا يستطيعون أن ينكروا ما سببه شبه تدورث من أذى.

ويلغت مسألة الشيطان من الأهمية مبلغًا ظلت معه تعكر صفو العقول، مع أنها ليست جديدة بل ترددت مائة مرة. فيا أيتها الشيطنة ماذا تعنين؟ هل أنت لعبة الأرواح الجهنمية، العفاريت الشريرة المنتشرة في كل مكان؟، والتي تجد متعة في تعذيب الناس، وإيقاعهم في حبائل الاغراء؟ أم أنت مظاهر متعددة متباينة لقدرة الشيطان على بث الارتياب، ذلك الشيطان الذي انتقل بالمسيح إلى قمة الجبل حيث أطلعه على كل ممالك الأرض سعيًا وراء إغرائه؟ أم أنمت لست إلا كابوسًا مخيفًا أو وهمًا يساور الانسان؟ أم لست إلا وليدة الخيال الهائم سيد الكذب والبطلان؟.

لم يكن بد إذن من معاودة النضال للمرة الثالثة، أو على الأصح الاشتباك بشكل حاسم في عراك يبدو كأنه لا ينتهي، وإن كان سينتهي. وكان ينبغي التدخل بحمية ونشاط لأن الأمر لا يتعلق باليقين أو بالضلال فحسب بل بمتهمين ومتهمين، بمحاكم وقضاة وضحايا. وإذا كانت بعض دول أوربا تميل إلى التسامح، وتمنع رفع الدعوى ضد فقراء تعساء للاشتباه في اتصالهم بالشيطان، وهو ما ليس من الاجرام في شيء؛ وإذا كان ملك فرنسا قد أصدر في عام ١٦٧٢ أمرًا يمنع المحاكم من قبول الاتهام بالاشتغال بالسحر: فان دولا أخرى، على النقيض، قد واصلت المطاردة بكل شدة ضد السحرة والممسوسين والمدعين القدرة على استحضار الموتى، بارسالهم إلى السجن والتعذيب والمشنقة والحريق.

---

(١) - الصدوقي: اليهودي الغني من أصل كهنوتي ارستوقراطي محافظ. لا يريد أن يسمع عن اعتقاد جديد، كالبعث والمسيح والملائكة والتفسير الجديد للقانون. وهو يخالف الفريسي الذي يمثل الديموقراطية ويعتقد بالبعث والمثوبة في الدار الأخرى، ويحمل القانون كتلة من التفسيرات التقليدية. (رينان: تاريخ الشعب الاسرائيلي الجزء الخامس، الفصل الخامس ص ٤٢، Renan, Histoire du peuple d'Israél). (المترجمان)

وهنا ظهر هولندي، تبعه ألماني هوبلتازار بيكر Balthasar Bekkrer، ثم أقواهم كريستيان توماسيوس Christian Tomasius، قد تجسد فيهم مجهود العقليين الظافر. ويلتازار بيكر هذا سيماؤه ليس لها نظير: لقد كنت ترى بنيقته البيضاء يبرز منها ذقنه المربع الكبير، وفمه العريض، وأنفه الضخم الطويل، وعيناه البراقتان، يظللهما حاجبان كثان؛ ولم تكن شخصيته أقل تفرداً. وكان هذا الراعي البروتستانتي - شاء أو أبى - متأثراً بديكارت الذي علمه التفكير الواضح المستقيم. وقد علمته إحدى المغامرات التقزز من حكم الآخرين: ففي أثناء قيامه بأعباء وظيفته في فريز، ألف كتيباً عن عقائد المسيحية، حرمته جمعية مكونة من أكثر من مائتي قسيس، دون أن يوجد بينهم قسيس واحد - على ما يزعم - يستطيع أن يبرر هذا الحكم. وقد قوبل هذا الكتاب، فيما بعد، بالتأييد مرتين مع أنه لم يجر في مبادئه أي تعديل. كيف لا نستنبط بعد ذلك، أن مسيحياً صحيحاً، ولا سيما إذا كان عالماً، ينبغي أن يعد حكم الآخرين باطلاً كأنه لم يكن، وألا يستوحي قواعد الايمان إلا من نفسه؟ وعلى ذلك قرر بيكر أنه لن يكون له فيما بعد إلا رسالة واحدة بجانب الاهتمام برعيته: وهي القضاء على الأخطاء وكشف القناع عن الأكاذيب. لن يتبع خطوات أحد، ولن يستمع لنصائح أحد حتى العلماء، الذين سرعان ما ينحنون أمام الشهرة المكتسبة، والذين لا تنقصهم المعتقدات الباطلة. سيجاهد لجعل الناس أكثر حكمة، مع أن حقيقة الأمر أن من يريدون منهم إصلاح عقولهم قلة: إنه ليسير مريح أن يؤمن المرء ويتصرف كما يفعل الناس قاطبة، وأن يردد اعتقاداً يرويه الناس في كل آونة! ما أيسر اتباع الجماهير! وما أصعب التمحيص. إن بلتازاربيكر مثل تولاند قد تسمم بالعقل. إلا أنه كان على الأقل باسلا مخلصا نشيطاً، في عقله تلك الحمية المشتعلة التي لا غنى عنها في حروب العقل المقدسة.

وقد ارتحل لملاقاة الاعتقادات الباطلة، فلم يجد عناء في مصادفة الكثير منها. وهو أيضاً يبتدئ بتبرئة المذنبات: ولكن الشسيطان يستأثر باهتمامه، ويحتل مخيلته ويشغل كل عظاته، إلى أن يتخلص منه ذات يوم في كتاب كبير ينشره في

عـام ١٦٩١ : De betooverte wereld « العـالـم المفـتـون». سـوف يخلص العـالم من الافتتان ...

وهو يبتدئ في أسلوب حي مؤثر . إن الاعتقاد في الشيطان وفي قدرته، وفي خدام الشيطان وإجرامهم، ليس له أمام النور الفطري صمود . فلنصل إلى منشأ هذا الاعتقاد، ولنتبع مسراه على مر العصور، وفي كل البلاد، عندئذ سوف نرى أن مصدره وثنى، وأنه أفسد المسيحية؛ ومع أن البروتستانت، منذ انفصالهم عن كنيسة روما، قد تخلصوا منه إلى حد، فانه لم يكف عن خداعهم بعد. لا تقولوا إنه يستند على الكتاب المقدس: لعله يستند على تفسير آباء الكنيسة له، ولكنه لا يستند على تفسير منطقى، مثل تفسيره هو ، بلتازار بيكر . فمثلا : يتكلم الكتاب المقدس عن الملائكة، ولما كان لا يذكر شيئًا عن طبيعتها أو ماهيتها، فيمكن القول بأنه يشير إلى أشخاص كلفهم اللّه برسالة خاصة، ولذا أمدهم بقدرة خاصة . وهو أيضًا يتكلم عن أرواح شريرة، ولكنه هنا أيضًا يشير إلى أشخاص، أشخاص أشرار مفسدين . وهو يذكر ما وقع لآدم من إغراء، ولكن قصة موسى لا تذكر شيئًا يستدل منه على أن الشيطان نفسه يستطيع أن يؤثر مباشرة على الأرواح والأجساد. كما يذكر الكتاب المقدس اغراء السيد المسيح، لكنه لم يذكر أن الشيطان لم يكن رجلاً شريراً فاسداً . وهو يذكر أن المسيح كان يشفى المسوسين، ولكن الناس اعتادوا أن ينسبوا أخطر الأمراض إلى فعل الشياطين، فضلا عن تسميتهم الأمراض نفسها بالشياطين . إن المسيح لم يغير أساليب الكلام التي كانت في أيامه، حتى إن شفاء المس المزعوم daemonia لم يكن على التحقيق طرداً للشياطين، بل شفاء لأمراض جد حقيقية . وجملة القول في ذلك «أن تفسير الكتاب المقدس تفسيراً عميقًا خاليًا من التغرض، لا ينسب إلى الشيطان كل تلك القدرة وتلك الأفعال، التي ينسبها إليه تغرض الشراح والمفسرين ... » واليوم نرى السحرة قومًا أشراراً جداً، عقيدتهم وأخلاقهم فاسدة كل الفساد، ولا علاقة لهم ألبتة بالشيطان .

وقد حكمت الكنيسة على بلتازار بيكر بالحرمان، ومات بيكر على رأيه. وقد عني بترجمة كتابه إلى الفرنسية تحت إشرافه حتى يتفادى التراجم المزورة التي تتعرض لها دائماً المؤلفات التي تلاقى النجاح. ولم يكن هذا التحوط عبثاً، فقد لقيت الترجمة الفرنسية للكتاب أوسع رواج. وقد ترجم أيضاً إلى الانجليزية والألمانية، وقرأته أوربا بأجمعها.

إلا أن ألمانيا كانت أكثر البلاد مطاردة للسحرة وأخذا لهم بالعنف والشدة. فلم يمض وقت طويل على وفاة رجل قانون شهير، كان أحد أولئك الرجال ذوى المكانة والخطر الذين يستوثقون من القبض على ناصية الحقيقة وتملك زمام العدالة، والذين يدينون إخوانهم متى رأوا صالحهم في ذلك: يقال إن هذا الرجل «بنوا كاربزو» Benoît carpzow زعم أنه قرأ العهد القديم من الألف إلى الياء ثلاثا وخمسين مرة، وأنه كان يذهب إلى الكنيسة ليتناول القربان مرة على الأقل في كل شهر، وأنه كرس حياته لتقوية إجراءات القانون، وتشديد العقوبات على السحرة: حتى أدان أو تسبب في إدانة بضعة آلاف منهم. ومع ذلك، فبعد مرور جيل كان على ألمانيا نفسها أن تقدم أقدر الرجال على محاربة هذه البربرية وهو كرستيان توماسيون: وكان تطور أفكاره علامة من علامات الزمن.

لقد ولد في ليبزج في عام ١٦٥٥، حيث نشأ بين مبادىء قويمة تليق بابن أستاذ كبير. وتعلم التفكير طبقا لمنهج أرسطو، والايمان على يد القساوسة حراس الأرثوذكسية الأشداء. ولما أتم دراسته في العشرين من عمره وذهب إلى فرانكفورت لكي يكون معلما هناك بدوره.، كان يدرك تمام الادراك واجبه في الدفاع عن السلطة والاحتفاظ بالتقاليد، التي لا تترك مجالا للحرية في إعمال الفكر ولا للتسامح في أداء الفروض اليومية.

ولكن حدث في عام ١٦٧٥، أن قرأ مؤلفات بوفندورف Pufendorf، الذي أخرج العلوم القانونية من نطاق الدين بتمييزه بين الحق الطبيعي والحق الالهي: فكان ذلك وحيا لتوماسيوس. إن نظرية الحق الطبيعي التي حاربها حتى ذاك الوقت

دون أن يعرفها جيداً، أصبحت منذئذ دستوراً له، فوصل في بحثه إلى المبادئ التي أوحت بهذه النظرية، وانقلب من دجماطيقي متعصب إلى متحرر ثائر. «لا عقيدة تكتسب اكتساباً أعمى بعد اليوم، عندما أمحص نظرية فلا تقدير عندي لشهرتها ولا لمقام من يؤيدها، بل سيكون تقديري الوحيد لما فيها من وضوح؛ سأدرس ما لها وما عليها من براهين، وسأتخذ قراري طبقا لما تهديني إليه معارفي الذاتية. وبدلا من أن أظل عبداً مطيعاً لطغاة الفكر سأغدو مثل أولئك الأبطال القدماء الذين انتضوا السلاح ضد الطاغية الذي كانوا في خدمته، في سبيل انتصار الحرية...».

وكان مفطوراً على الخشونة والعنف، مشغوفا بالمعارك الحامية، والمناقشات المحتدمة والمجادلات الحية، ومحبا للنداء الذي يتعالى من منابر الجامعة ليرن في أحياء المدينة. وكان يجد لذة في استعمال حيل الحرب التي تدحر العدو الواثق بقدرته، وتوقع العظمة «الروتينية» في الخور والارتباك، بالاستهزاء وبالسخرية وبالهجاء، ولم يكن يأنف تلك السمعة السيئة التي تدفع الناس إلى أن يقولوا في أثناء مروره: هذا هو كرستيان توماسيوس الذي لا يخاف شيئاً ولا يهاب. ولما رجع إلى ليبزج في عام ١٦٨٠ بصفته Privat-docent[١] قام بدور رائع خلاب، إذ سرعان ما اتخذ تعليمه مظهر ابتكار مثير للخواطر. كان يقول إن الميتافزيقا لغو فارغ، وإنه ينبغي ترك اللاهوت للاهوتيين، وإنه لا حساب إلا لعلمين اثنين: المنطق والتاريخ. لأن الأول يعلم التفكير المستقيم، ولأن الثاني يعطى المثل المفيد، سواء بالاجتناب أو بالاقتداء؛ وإن المعرفة ينبغي أن تكون وسيلة للمنفعة العملية، الواقعية، المباشرة؛ وإن القانون يجب أن يكون اجتماعياً. وكان يحارب المعتقدات الباطلة مصدر كل بلاء، فمنشؤها تلقين الأطفال والشباب كل أنواع الضلال التي تدعو إلى الرثاء، دون تقدير لعقولهم؛ فضلا عن خفة الناس وتسرعهم في تقبل كل ما يقدم لهم للايمان به. وأخيراً فانه كان دائب التكرار لنظرياته القيمة:

---

(١) – privant- docet : أستاذ حر في جامعات ألمانيا، يتناول أجره من تلامذته. (المترجمان)

إن النور الفطري شيء والوحي شيء آخر، وإن اللاهوت من دائرة الكتاب المقدس، أما الفلسفة فمن دائرة العقل، وإن اللاهوت يتناول سلام الناس في السماء، أما الفلسفة فتتناول سلامهم في الأرض، وهو الأمر الأولى.

وضاق أساتذة الجامعات ذرعا بتلك الأقوال الجريئة: قالوا إن توماسيوس يفسد عقول الشباب، ويدفعهم إلى الكفر. وتبادلوا وإياه الهجوم والرد والكر والفر. وكان يبدو في حلة الأستاذية، يكسوه شعر مستعار فضفاض ينسدل على عاتقيه، كأنه برج ضخم قوي لا تزعزعه الضربات. كل ما وجه إليه من مقالات ورسائل قدح، وكتب تهديد، واستدعاء أمام المجالس الجامعية، وإيقاف عن التدريس، كل ذلك كان يلهب حماسته. وكان له من حين إلى حين ابتكارات عبقرية فذة؛ كما حدث ذات يوم، وهو يوم ظل مشهوراً في تاريخ الجامعات الألمانية، يوم نشر برنامج دروسه لا باللغة اللاتينية بل باللغة الدارجة. ويا له من شخصية عجيبة! فقد أراد أن يؤثر على التلامذة حتى يجعل منهم لا محامين وقضاة فحسب، بل رجالا مفكرين أيضًا، فاعتزم أن يدرس ذلك النموذج البشري الذي قدمه بلتازار جراسيان Baltasar Gracian، إلى العالم: البطل le héros. وإذا به يقع على نموذج بشري آخر، هو الرجل الفاضل l'honnête homme، وعلى المدنية الفرنسية، سيدة الانسانية: إذ كان يسأل في درسه الافتتاحي، إلى أي مدى يجب أن يقلد الألمان الفرنسيين؟ حسن أن ندرس مؤلفاتهم، ما في ذلك من شك؛ وأن نطالع كتبهم المشهورة «كالمنطق[1] لجامعة بور - رويال» La Logique de port-Royal، وأن نعرف لغتهم التي تحتوي على كثير من النماذج الرقيقة للسيكولوجية. أما أن نقلدهم كالمزورين أو القرود فهذا ما لا يجوز! إن الفرنسيين يفوقوننا علما وذوقا وتربية: أجدر بنا أن نعمل على منافستهم، بدلا من أن نقتفي أثرهم في

---

(١) - المنطق La Logique أو فن التفكير: تأليف أرنو ونيكول Arnaud et Nicole في أربعة أجزاء، ١٦٦٢. (المترجمان)

حطة. فلنتقدم، ولنخجل لأن هؤلاء المزهوين يضعوننا في صف واحد مع أولئك البرابرة الروس، ولنثبت لهم مدى اقتدار الألمان، إن المستقبل في أيدينا.

وكان يضحك في خضم المعمعة، لأن الخلق المرح - كما يقول جراسيان - ليس عيبا بل كمالا إذا هو بعد عن المغالاة: فشيء من الفكاهة كشيء من التوابل في الطعام. وأضفى على الراسيو نالزم - أي المذهب العقلي - كثيراً من الفكاهة، بنشره في عام ١٦٨٨ صحيفة على مزاجه: أقضت مضاجع أصحاب المذاهب. صحيفة لا تصدر باللاتينيةActa eyuditorumمثل فخر ليبزج، بل بالألمانية. صحيفة تجمع بين الهزل والجد، بين الخفة والرزانة، تتعرض للكتب الجادة والكتب الفكهة سواء، صحيفة تزكيها ذكرى أستاذ كان يجمع هو الآخر بين رجاحة العقل والميل إلى السخرية: إرازم [1] Erasme.

ظل يجادل حتى عام ١٦٩٣، حيث اضطر إلى مغادرة ليبزج: ولا بد في حياة هؤلاء المعارضين من هذه العراقيل. فرحل إلى برلين. وكان ذلك في الوقت الذي اعتزم فيه فردريك الثالث تحويل مجمع النبلاء في هال إلى جامعة، سنراها فيما بعد مركزاً كبيراً للنشاط الفكري. ووجد كرستيان توماسيوس فيها مستقراً له، بل أصبح رجل المؤسسة، وخالقها الحقيقي وموجهها. وهناك انشغل في البحث عن الشيطان.

ولشد ما كان نشاطه! ولكم جمع من البراهين، متخذاً بعضها من بيكر ومخترعا البعض الآخر! لا الوقائع ولا التفسير الصحيح للكتاب المقدس، ولا المنطق ولا العقل نفسه، تسمح بترك خرافة مثل هذه باقية: ظهور الشيطان لرجل في صورة حيوانية أو بشرية، ثم عقد ميثاق بينهما، يستبدل فيها الساحر بروحه، قدرة شريرة يؤثر بها على الأشياء والناس. وإنك لترى توماسيوس أحيانًا

---

(١) - إرازم. عالم وفيلسوف وأديب هولندي، ولد في روتردام في ١٤٦٧، مؤلف المحاورات الشهيرة collોquesومدح الجنون L'ELoge de la Folie: وهو أعلم أدباء النهضة في العلوم الانسانية اشتهر فيما بعد بفضل أسلوبه وفكره بلقب «فولتير اللاتيني» ومات في بال ١٥٣٦. (المترجمان)

يحتال: فهذه الصورة السخيفة، مأتاها الكتب، كتب الدين. هناك رأى الكاثوليك الشيطان منذ الصغر في صورة وحش بشع، ورآه اللوثريون في صورة راهب، قدمه ذات ظلف مشقوق، وقرونه نافذة من قلنسوته. وتراه حيناً يغضب ويحتد: كان المنتظر أن يتخلص الاصلاحيون البروتستانت من هذه العقيدة السخيفة، بعد ما فعله لوثر. وبعد تكذيب كل تلك الخرافات الرومانية والبابوية، بيد أننا نجدها لا تزال في اعتقاد العوام قائمة حية، بل إنها بين البروتستانت ولا سيما اللوثريين سارية، قوية. فيا للمشينة! ولكن ليس الفيلسوف الذي يتكلم فحسب، بل يتكلم أيضاً أستاذ القانون، المحامي الذي دافع عن السحرة في القضايا الجنائية. ففي ساكس قوانين، بل قوانين حديثة، تعلن أن كل شخص يعقد ميثاقا مع الشيطان دون مراعاة المسيحية، يحكم عليه بالموت حرقًا ولو لم يسبب لأحد ضرراً. آه... ! فليحذر القضاة واللاهوتيون الألمان، بفضل تقدم الفلسفة الديكارتية، وبفضل تقدم المنطق، الوقوع في خطأ يقود إلى الجريمة! ولعل أكثر ملاحظات توماسيوس ابتكاراً، تدخله العملي في هذا السبيل: فانه يقوم بالدفاع هنا، في ميدان الواقع الملموس، عن العدل والانسانية.

وفي عام ١٧٠٩، وجد متعة في أن يرفض كرسيا عرضته عليه جامعة ليبزج - التي تعض بنان الندم. ولقد استقر في هال، وفي هال قضى السنوات الأخيرة من حياة طويلة، وفي هال توفي عام ١٧٢٨: الرائد المجيد لحركة التفسير الألمانيةAufklarüng، بطل المعركة الكبرى في سبيل النور.

* * *

ليس ضربة لازب أن ننقب في أعماق الضمائر لكي نجد الخرافة، المستعدة دائماً للطفو على السطح. إن المركيز ةبرانفليرLa Brinvilliers والعرافة فوازان [1]

---

(١) - المركيزة برانفليير: ماري مادلين دي برانفليير، محترفة التسميم الشهيرة أعدمت وأحرقت في ميدان جريف ١٦٧٦، ولافوزان: عرافة تسميم اشتركت في حادثة التسميم المشهورة ١٦٧٢ وأحرقت حية في باريس عام ١٦٨٠. (المترجمان)

Lavoisin لم تكونا محترفتي تسميم فحسب، بل عدتا أيضاً ساحرتين. وفي عام ١٦٨٠ قبض على الماريشال دي لوكسمبرج - من أكبر شخصيات فرنسا - وسجن : بتهمة عقد اتفاق مع الشيطان. ولم ينقطع الحديث عن المسموسين في لودون Loudun- وهي قصة قديمة - ولا عما يشبها من أقاصيص. وفي عام ١٦٩٢ كشف المنجم جاك إيمار عن القتلة بعصاه السحرية. وأصبح شهيراً يهدد بها مرتكبي الشرور واللصوص. وأخذ يستغل شخصيته، فيقع في تشنج عصبي شديد: وانهالت عليه الطلبات، وأصبح موضع الفضول. ولم يكن في ذلك الوحيد، فانك تسمع عن أعمال مشابهة في تولوز ودفيني Dauphié وبيكاردي والفلاندر؛ فرجال الدين، والأطفال والنساء يستخبرون المنجمين عن وجود الذهب والماء. وهل حدث ذلك في فرنسا وحدها؟ كلا، فقد حدث المثل في ألمانيا حيث يستعملون العصا السحرية في جبر العظام، وأسو الجراح، وإيقاف النزيف؛ وفي بوهيميا أيضاً والسويد والمجر وإيطاليا وأسبانيا: «زاهوريس Zahuris هكذا كان الناس في أسبانيا يسمون أشخاصا معينين، يزعمون القدرة على رؤية ما تحت الأرض من عروق الماء والمعادن والكنوز والجثث، بما لهم من بصر خارق. ولهم عيون شديدة الاحمرار ...(١)» وفي مصر كانت هذه العصا السحرية «تصرف الماء من بطون الحيوانات المنتفخة». وفي هذه الروايات كثير من الاختلاق. ولكن بما أنه في بعض الأحيان لا مجال للشك في أن هذه العصا تتحرك من تلقاء نفسها، إذ لا سبيل إلى الاشتباه في صدق من يمسكها، فقد نسبت هذه الحركات الاعجازية إلى فعل الشيطان. - كل هذا ولم نتعرض بعد لأنواع السحرة كافة، ومستحضري الأرواح والعرافات وقارئي الطالع ...

ولكن يظهر للعقل السليم le bon sens رد فعل في كل مكان. فاذا سألت عن الكتب التي ظهرت في صحف جاك إيمار أو ضده، فاعلم أنها لا تختلف في كثير أو قليل عن حكاية السن الذهبية: « فبعد نشر كتاب أو كتابين صغيرين عن هذا

(١) - بيير بايل : القاموس، باب زاهوريس. (المترجمان)

الموضوع، ألف فالمون Vallemont كتابا ثالثا في ستمائة صفحة، ليشرح حركة العصا السحرية على أساس الميكانيكا. ثم ناقضه م. ب من مجمع الأوراتوار، مثبتا أن العصا لا يمكن أن تدور دون تدخل الشيطان. وأخيراً بعد هذه الكتب الطلية، ثبت أن جاك إيمار كان مشعوذاً وطرد... وأكثر ما يسر الفيلسوف في هذه الحكاية هو أن فالمون يؤكد في بداية كتابه أن قصة السن الذهبية التي سردها فان ديل قد جعلته حكيماً، وأنه لم يتناول المعجزة بالتفسير قبل أن يتحقق من صحتها!» هكذا يسخر ديبو Dubos في رسالته إلى بايل في ٢٧ إبريل ١٦٩٦ أما بروسيت Brossette الذي شاهد الرجل الاعجازي بعينيه، والذي لا يزال متأثراً به حينما يفضى بما في قلبه لصديقه الحميم بوالو، فيبدو على وشك التصديق «ليون - ٢٥ سبتمبر ١٧٠٦ - رأيت بالأمس رجلا أوتى صفات أو على الأصح مواهب طبيعية ليس من السهل تفسيرها. إنه جاك إيمار الشهير أو الرجل ذو العصا السحرية. وهوريفي من سان مرسلان في دوفيني على بعد ١٤ مرحلة من ليون. وقد اعتاد الناس استدعاءه إلى تلك المدينة للقيام ببعض الاكتشافات. وقد قال لي أشياء مذهلة عن قدرته في التنجيم، من المنابع والحدود المنقولة المخبأة والأشياء المفقودة والقتلة والسفاكين. وشرح لي الآلام الشديدة والتشنجات العصبية التي يعانيها حينما يصل إلى مكان الجريمة أو يقترب من المجرمين. قال إنه يشعر في قلبه بمثل حرارة الحمى، ثم يتقيأ دما ثم يقع في حالة إغماء. وكل هذا يحدث دون أن يقصد البحث عن أي شيء كان، وهذه التأثيرات تتعلق بجسمه أكثر من أن تكون نتيجة لعصاه السحرية. وإذا أردتم أن تشبعوا حب استطلاعكم، فاني أستطيع أن أستزيدكم وأرضيكم...». كلا فان بوالو لا يتوق إلى الاستزادة، وهو لا يتأثر بالوصف الذي أرسله إليه صديقه، ويرد عليه في غلظة: «أوتي - في ٣٠ سبتمبر ١٧٠٦ - الحق يا سيدي العزيز، أني لا أملك إلا أن أصارحك أني لا أتصور أن شخصا لبقا مثلك، أمكنه أن يقع في مثل ذلك الشرك، بتصديق نصاب سافل قام الدليل على دجله، ولا يستطيع أن يجد الآن في باريس طفلا ولا مرضعة تتنازل بالاصغاء إليه. كان ممكنا أن يصدق الناس مثل أولئك النصابين أيام داجوبير وشارل

مارتل، ولكن هل يمكن أن يهتم المرء بتلك الأوهام في عصر لويس العظيم؟ أو ليس هذا يعني أن سلامة الادراك قد تكون ذهبت بذهاب ما أحرزنا من فتوح وانتصارات؟» - إن الادراك السليم، على العكس ساهر متيقظ. يقول ريشارسيمون «بلغني أن في باريس قوماً كثيرين يحترفون التنجيم، ويجنون من مزاولته الربح الجزيل. ولست أعجب لذلك. فان تلك المدينة الكبيرة تعج بشتى الأنواع والأجناس من الحمقى والمغفلين. فلا عجب إذا صدق الناس بالتنجيم[١]. »

تلك هي الاحتجاجات الفردية لذوي العقل السديد. ولكنهم فوق ذلك يعملون على تأسيس منهج، يخلص الأرواح من الخرافات، ويهاجم العقيدة في نفس الوقت. وهو لا يهتم مطلقاً بالتمييز بين الفكرتين بل يخلط بينهما على الدوام. فالمذنبات ليست نذيراً بأي ويل، وأصوات الآلهة ليست إلا محض دجل، ولم يسجل اللّه أوامره في عروق الحيوان ولم يأتمن عليها الحمقى والمجانين. فإذا قصدنا بالسحرة، النصابين والمرضى، فهناك سحرة وإلا فلا. ولا عفاريت هناك ولا شيطان. ولا سلطة إلاوفوقها سلطة. ولا تقاليد دون كذب أو ضلال. ولا معجزة هناك فإن الطبيعة ليست شريكة في هذيان الإنسان[٢]. ولا خوارق للطبيعة، ولا سر يستغلق على العقل: «هل تريد أن أقول لك بصفتي صديقاً قديماً، منشأ تصديقك لاعتقاد شائع دون إصغاء منك لهاتف الحكمة؟ السبب أنك تعتقد أن في ذلك كله شيئاً إلهياً. . . ، لأنك تتوهم أن الارتضاء العام لكل تلك الشعوب، وعلى مر القرون، لا يمكن أن يرد إلا إلى نوع من الإلهام، Vox populi, Vox dei[٣]؛ لأنك اعتدت بصفتك لاهوتياً ألا تستعمل الاستدلال، فور اعتقادك أنك أمام سر من أسرار الدين[٤]. »

(١) ريشار سيمون رسائل Richard simon... الجزء الثالث ص ٥١

(٢) - سبينوزا: مقدمة بحث لاهوتي سياسي، Tractatus theologico - politicus

(٣) - صوت الشعب من صوت اللّه، ومعناه أن الارتضاء الجماعي لشيء دليل على أنه حق: Larousse: Locutions Latines [المترجمان].

(٤) - بيير بايل: أفكار مختلفة - بمناسبة المذنب باب ٨.

الفصل الثالث

ريشار سيمون وتفسير العهد القديم

كيف كان يمكن اجتناب التعرض للكتب المقدسة، كان المنطق يقتضي أن يصلوا في النهاية إلى تمحيصها ونقدها، فقد كانت تمثل السلطة العليا.

وكان المتحررون يفيضون نشوة إذا اكتشفوا في تلك الكتب بعض التناقض. فمثلاً: جاء في سفر التكوين أن آدم وحواء كانا أول الخلق البشري، وأنهما ولدا طفلين: قايين وهابيل، وأن قايين قام على هابيل أخيه فقتله... وقال قايين للرب «ذنبي أعظم من أن يحتمل، فيكون كل من وجدني يقتلني[1]» كل من وجدني: إذن كان يوجد إذ ذاك أناس قبل آدم. وكان اسحق دي لابيرير قد وجد هذا الكشف من قديم، وكان أنصار فكرة وجود إناس قبل آدم préadamites قد أصبحوا الأصدقاء الأعزاء لذوي «العقول القوية».

لنقرأ الرسالة التي بعث بها أستاذ آداب في أكسفورد إلى نبيل من لندن في عام ١٦٩٥. لكل الشعوب الشرقية دون استثناء، حتى العبريين، خيال قصصي أسطوري. كما أن تاريخ الفرس، والماديين، والآشوريين ليس إلا مجموعة من الأساطير، وكذلك العهد القديم. فإن التلمود يتضمن ملايين من الأقاصيص. وقد سبق العرب العبريين في ميدان المجاز والخيال والتشبيه، ويثبت ذلك القرآن الكريم،

(١) - نص سفر التكوين الاصحاح الرابع، ٨-١٤. (المترجمان).

كما يثبته طوائف شعرائهم الذين انتقلت منهم إلى إسبانيا وولاية بروفانس فيما بعد، عدوى القص عن الفرسان المغامرين، والمردة والقصور المسحورة، ومختلف أنواع الفروسية. . . والخلاصة أن الكتاب المقدس : is altogether mysterious, allegorical and enigmatical وأن مرجعه إلى تلك الأقاصيص الشرقية، التي ليست إلا فروضاً رومانتيكية : Romantick hypotheses(1) .

ووجد البروتستانت الذين عكفوا على دراسة كلام الله، وتخليصه من التفسيرات التي تجمعت على مر الزمان، أن تلك المهمة من الصعوبة بمكان. وقد نعوا على الكاثوليك موقفهم السلبي تجاه العهد القديم، بينما أخذ عليهم الكاثوليك اجتراءهم المعيب. والواقع أنه تم من هذه الوجهة عمل تفسيري كبير، ويقوم على ذلك الدليل، في مؤلفات صامويل بوشارت Bochart القسيس والأستاذ في كان، مؤلفات لويس كابل Louis Cappelle القسيس والأستاذ في سومير Saumur .

أما من جهة اليهود فقد قام سبينوزا، عارضاً منهجاً لتفسير العهد القديم، شبيهاً بالمنهج الذي يستعمل في دراسة الطبيعة، وكان هذا نفس تعبيره، ولعلك تدرك إلى أين ذلك المنهج يقود. ولما كان المقصد الأول لهذا المنهج وضع تاريخ صادق للظواهر والأحداث، للوصول إلي تفسيرات صحيحة عن طريق وقائق أكيدة، فلم يكن بد من توافر شرط أولي هو معرفة العبرية؛ وهي مهمة صعبة التنفيذ إذ أن «النحويين العبريين لم يتركوا لنا شيئاً عن أصول هذه اللغة وقواعدها»، كما أننا «ليس لدينا قاموس ولا كتب نحو أو بيان عبرية» .

ويقول سبينوزا إن الشرط الثاني، هو أنه ينبغي علينا أن نحترم العهد القديم روحاً ومعنى، وأن نجاريه، بدلاً من أن نخضعه لأباطيلنا. - «والشرط الثالث

---

(1) -بحثان مرسلان في خطاب من أكسفورد إلى نبيل في لندن. الأول يتعلق ببعض الأخطاء عن الخلق والطوفان، وتعمير العالم بالسكان. والثاني يتعلق بنشأة الأساطير والروايات الخيالية، وتقدمها ثم انعدامها. كتبهما (L.P) أستاذ الآداب، لندن ١٦٩٥ .

واجب على العهد القديم، وهو تعريفنا بما لقيت كتب الأنبياء من ظروف وحظوظ؛ تلك التي احتفظنا بذكراها حتى اليوم؛ وأن يبين لنا حياة وتعاليم صاحب كل كتاب، والدور الذي قام به، وفي أي زمن، ولأي مناسبة، ولمن وفي أي لغة وضع الكتاب. وليس هذا بكاف، بل يجب أن يبين أيضًا نصيب كل كتاب على وجه التحديد، وأن يوضح لنا بأي طريقة جمع، وفي أي يد - على التوالي - وقع، وأي دروس وجد الناس فيه، ومن الذي رفعه إلى منزلة الكتب المقدسة، وأخيراً كيف تجمعت كل تلك الكتب في كتاب واحد... [١]»

والكاثوليك أنفسهم ألم يكن بينهم جاي دي لونوي Jean de Launoy كاشف القديسين، ومابيون Mabillon العالم الذي يجيد نقد النصوص؟ حتى الأب فلوري Abbé Fleury «مؤلف تاريخ الأكليركية» كان ينقي حياة العذارء والحواريين مما يشوبها من أساطير: فهكذا كان روح ذلك الوقت.

إلا أن كل هذه الاتجاهات لم تتركز إلا بظهور رجل اجترأ على ذكر ألفاظ بسيطة، لكنها قطيعة حاسمة، مثلما يأتي «أولئك الذين يحترفون النقد، ليس عليهم إلا أن يشرحوا المعنى الحرفي لما ينقدونه، وأن يتفادوا كل مالا يجدى في تحقيق هدفهم [٢]».

* * *

وبظهور ريشار سيمون ونشر كتابه «تاريخ نقدي للعهد القديم» Histoire critique du Vieux Testament في عام ١٦٧٨، اتضح ما للنقد من قدرة ونفوذ.

وكان لفظ «نقد» Critique اصطلاحًا فنيًا كما ذكر ريشار سيمون في مقدمة كتابه: «أما، ولم يظهر بالفرنسية شيء في هذا الموضوع بعد، فلا تعجبوا إذا

(١) - بحث لاهوتي سياسي، الفصل السابع.

(٢) - ريشار سيمون: تاريخ نقدي للعهد القديم، الجزء الثالث الفصل ١٥. Histoire critique du Vieux Testament, III, chap. XV

رأيتموني أستعمل في بعض الأحايين غير المألوف من التعابير، فلكل فن تعبيرات تخصه، يضعها موضع التقديس. وفي هذا المعنى ستجدون في هذا المؤلف بكثرة كلمة «نقد» وما هو منها بسبيل، وجدت ألا مفر من استعمالها، لكي أعبر عن آرائي بتعبيرات الفن الذي عالجته. زد على ذلك أن العلماء اعتادوا استعمال تلك التعابير في لغتنا. فإذا تكلمنا مثلاً عن كتاب كابيللي Cappelle الذي نشره تحت عنوان Critica Sacra، وعن تفسيرات الكتاب المقدس المنشورة في انجلترا تحت عنوان Critica Sacri، قلنا بالفرنسية la critique de Cappelle, et les critiques d' Angleterre.

وهذا الفن الخاص الذي يهدف إلى ألا يقتصر استعماله فيما بعد على العلماء بل ينبثق بكل جلاله ليعم الجميع، يكمن هدفه فيه نفسه: إنه يبين درجة الوثوق، ومدى الصحة في النصوص التي يتناولها بالدراسة والتمحيص، ولا وزن عنده لكل غريب عنه، كمراعاة نواحي الجمال والأخلاق والإبقاء عليها. فإذا تناول بعض الكتب المقدسة بالدراسة فهو يتجاهل اللاهوت الذي لا يقع في اختصاصه بأي صفة من الصفات، فلا هو يهاجمه ولا هو يدافع عنه. وهو يرى أنه لا يختص بالحكم على النص، فلا سلطة تستطيع أن تجعل من النص شيئًا خلاف ما هو عليه بالضبط. فإذا رأينا فقرة تخالف عقيدة دينية، وثبتت صحة الفقرة فالمعول على نص الفقرة لا على العقيدة. فمبادئ النقد واحدة لا تختلف سواء تعلق الأمر بالياذة هوميروس أو إناييد Enéide فرجيل أو التوارة، فهي ترفض الأولية l'a priori؛ وفور وجوده أمام كتابة سواء نقشت على حجر أو سطرت على قرطاس أو خطت على ورق، فهو السلطان المطلق، السيد الوحيد على أعماله الذاتية.

فالنقد يقوم على الفيلولوجيا (فقه اللغات): الذي ينقلب من مسود إلى سيد. ولو استطاع ريشار سيمون أن يؤيد من مملكة الظلام ما قاله رينان Rénan عن مقام الفيلولوجيا الرفيع لأيده، لأن هذا كان رأيه. أراد ريشار سيمون أن يكون ناقداً

وفيلولوجيا؛ كما أراد علماء التاريخ من قبله أن يكونوا نقاداً. فقد زعموا هم أيضاً أنهم لا يعرفون إلا مادة الفن، وحسبان الزمن: ولكنهم ريعوا أمام اكتشافاتهم. أما أكثر ما كان يعوزهم فهو وعيهم الانقلاب الذي أزمعوا إحداثه. وعلى كل حال فإنهم لم يتغلغلوا إلى أعماق النصوص المقدسة. من جهة النقد، كان جروسيوس ناقداً، في تعليقاته وحواشيه عن تفسير العهد القديم والعهد الجديد، ولكنه لم يلتزم جادة التدقيق إذ خرق القانون الذي التزم به من ناحتين. فهو من جهة استشهد بالوثنية القديمة التي لا محل لها في هذا المقام، وهو من جهة أخرى أسلس قياده لآرائه الشخصية: فهو بصفته أرمينياً، سوسنيانيا قد اختار خير تفسير للنص، ولكنه في نفس الوقت التفسير الذي يفيد أتباع أرمنيوس وسوسان. وكان سبينوزا أيضاً ناقداً، بحيث يصعب ألا نرى فيه سلف ريشار سيمون المباشر. صحيح أن هذا الأخير يناقشه ويناقضه في استنباطاته، ولكن بذلك النوع من الاحترام والتوقير الذي يكنه المرء دائماً لأستاذ كبير. «لا تنعوا على أن هذا أسلوب سبينوزا الكافر، الذي ينكر كل الإنكار ما ورد في الكتاب المقدس من معجزات. دعوا هذا الاعتقاد الباطل الذي يسيء البعض استعماله اليوم. إنما ينبغي إدانة النتائج الكافرة التي يستخلصها سبينوزا من بعض المقولات التي يفترضها. أما هذه المقولات نفسها فليست دائماً باطلة، ولا تستحق الإطراح[1]». ولم يكن سبينوزا، ذلك المخترع العبقري، عالماً متضلعاً من الفيلولوجيا، وقد عانى القسم البنائي من تفسيره ذلك النقص، فقد ترك متافيزيقاه تطغى على علمه.

كان النقد يصل مع ريشار سيمون لأول مرة إلى نقاوته وإلى صراحته المستقلة. لا الفلسفة ولا العقيدة تؤثران على أحكامه، ولا يهتم إلا بالمخطوط والمداد والكتابة والأحرف والعلامات المختلفة. إن العلم اللا ديني يرفض الاعتراف بالسلطة المقدسة.

* * *

(١) - رسائل منتخبة: طبعة ١٧٣٠، الجزء الرابع الرسالة الثانية عشرة.

كان رجلاً قميئًا، دميمًا، ذا صوت حاد رفيع كصوت النساء، لا تلوح عليه مخايل الذكاء: «لانستطيع أن نقول عنه ما قيل عن بعض الآخرين وهو الطبيعة قد كتبت على وجهه أوراق الاعتماد.» ولم تكن الطبيعة قد حابته من ناحية المولد أو المال، فقد كان ابن حداد فقير من أهل دييب. ولكنها حبته شغفا بالبحث والدرس، وعقلا ذا صفاء وسداد، وعزيمة لا تغلب ولا تنقاد، وأمدته في نفس الوقت بخط وافر من المرونة والعناد. درس الفلسفة والعلوم الإنسانية في «أوراتوار» دييب Diêppe، واعتزم الانخراط في سلك الرهبنة، ملتزمًا بذلك الطريق الطبيعي، وأرسل إلى باريس للتمرين. وأوشك أن يترك الجمعية «بسبب تقزز لم يستطع أن يتحمله»، وكاد يقع بعد أن ارتفع، لولا أن أغاثه رجل غنى هو الأب دي لاروك، فهيأ له سبل العودة إلى باريس ليتم دراسة اللا هوت. وفي باريس استشعر ميوله وقرر مستقبله. لم يكن يميل أبدًا إلى دراسة العلوم الإنسانية، ولم يكن مدرسيًا قط، بل بالعكس اجتذبه العلم العميق، بل أقله شيوعًا وأصعبه: فقد توفر على دراسة العبرية.

وعندما اندرج في جمعية الأوراتوار في عام ١٦٦٢ سمحوا له بمواصلة هذه الدراسة. وهنا تجد حكاية من الحكايات التي تجدها دائمًا تجلل مثل هذه الحياة، وتجعل لها معنى رمزيًا. فقد غضب أصدقاؤه إذ وجدوا غرفته تغص بكتب الالحاد، مثل الكتاب المقدس المكتوب في لندن بلغات شتى La Bible polyglotte، بجانب كتب نقد مختلفة عن النصوص المقدسة، فأبلغوا عنه. وعندها اتضح أن ريشار سيمون كان له شريك: مدير المؤسسة بالذات، الأب بيرتاد الذي كان يقرأ معه كل يوم أصول الكتاب المقدس، والذي برغم الستين التي سلخها من عمره جعل من نفسه تلميذا لذلك الأستاذ الصغير. فكان هذا لريشار سيمون يوم النصر الكبير.

ولعل أسعد حقبة في حياته، تلك الأيام التي قضاها في مكتبة الجمعية بشارع سانت أونوريه، ليضع بيانًا عن الكتب الشرقية التي تملكها الجمعية فأن يوسع مداركه الفيلولوجية، ويصل إلى المصادر مباشرة، ويجد خير الأساتذة بل أفضلهم

في الحقيقة في متناوله، ذلك متعة أي متعة! وهو لم يقنع بمطالعة يومية للمطبوعات والمخطوطات، بل عرف بعض اليهود الربانيين ولا سيما حنّا سالفادور الذي قرأ معه العهد القديم. وفي عام ١٦٧٠ - العام الذي عين فيه قسيساً - كتب بناء على رجائه مقالاً يدافع فيه عن قضية يهود ميتز Metz، المتهمين بارتكاب جريمة قتل شعائرية.

كان يقول: إذا أردتم أن تبحروا خلال المحيط العبري الرباني، فاختاروا رباناً اعتاد ذلك السفر الشاق الطويل. ولقد طال سفره سنين. ولم يفعل شيئاً يجعل السفر مستقيماً مأموناً، فاطلع على كل الخرائط وتطلع إلى كل النجوم. استفاد من إرادته والتجأ إلى كل مزاياه: وضوحه، إذ كان بمقدوره أن يبدو واضحاً حتى في موضوعات النحو والصرف الشائكة؛ ورجاحة عقله وسلامة إدراكه وذكائه ودقته[1]. واستمد معلوماته من علمه الغزير العميق ولا سيما علمه عن اليهود؛ وأخيراً وجد نفسه مستعداً لكي يعرض على الجمهور مؤلفه «تاريخ نقدي للعهد القديم».

«أولا، من المحال أن ندرك تمام الادراك معاني الكتب المقدسة، قبل أن نعرف الحالات المختلفة التي وجدت فيها نصوص تلك الكتب حسب مختلف الأماكن والأزمان، وقبل أن نعلم تمام العلم ما طرأ على هذه الكتب من تغيرات...» وهنا يبين المبدأ والقاعدة الأساسية لمنهجه، وهو يكررها ويصر عليها قدر ما يستطيع. «إني مقتنع بأنه لا ثمرة ترجى من قراءة الكتاب المقدس، ما لم نكن عالمين من قبل، ما يتعلق بنقد النصوص.» هاك مثالاً واحداً عن أهمية الفيلولوجيا: احذف كلمة واحدة، حرف عطف بسيط مثل حرف «و» الذي يلوح كأنه لا أهمية له في ذاته: فإذا بك تحبذ إلحاداً. يبتدئ الفصل الثالث من إنجيل لوقا هكذا: «و» في

(١) -كل هذه تعبيرات ف. F. Spanheim، في رسالة إلى صديق، بها تعليق عن كتاب عنوانه «تاريخ نقدي للعهد القديم» نشرت في باريس عام ١٦٧٨.

السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس . . . إن ذلك يفترض وجود قصة سابقة، مادام الحرف (و) الذي يفيد العطف عند النحويين، يدل على صلة حتمية بشئ سابق. قل بعكس ذلك: «في السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس . . . » تجعل للملحدين القدماء عذراً في زعمهم بأن الفصلين الأولين أضيفافيما بعد إلى إنجيل القديس لوقا. ومن باب أولى، فإن العهد القديم الحافل بصعوبات لايمكن أن يفكر في وجودها غير الالمتفقهين، يستحيل أن نقربه إلا إذا عرفنا هذه القواعد، وإلا إذا كانت تحدونا هذه الروح.

فلتتناول الكتاب المقدس ولنعالجه دون أية فكرة مبتسرة: فكيف يتراءى لنا حينئذ؟ هل يمكن أن نعده كلمة اللّه، أوحيت مباشرة وسجلت كتابة وانتقلت إلينا في حالتها الأصلية؟ يجيب ريشار سيمون على ذلك بأنه ينتج من الفحص والتحميص أنه مامن شك في أن النصوص المقدسة فيها معالم التحريف والتغيير، وفيها إبهام وصعوبات، من جهة التواريخ وأن في بعض قصصها تبدلات غريبة في المواضع يمكن انطباقها على فصول بأكملها. علينا إذن أن نرجع إلى الوقت الذي كتبت فيه هذه النصوص، وأن نحاول معرفة المدنية العبرية ونفهمها.

من هم الأنبياء؟- كتاب؛ كتاب عموميون كانت مهمتهم تجميع وثائق الدولة بأمانة، وحفظها في سجلات مخصصة لهذا الغرض. «إذا كان أولئك الكتاب العموميون موجودين في الجمهورية العبرية منذ أيام موسى، هذا وافر الاحتمال، فإنه يسهل الرد على كل محاولة لاثبات أن التوراة ليست لموسى. وذلك مايثبته الناس عادة، بالشكل الذي كتبت به، الشكل الذي يوحي بأن أحداً غير موسى هو الذي جمع التقارير وكتبها. وبفرض وجود هؤلاء الكتاب، ننسب إليهم كل ما يتعلق بتاريخ هذه الكتب، بينما ننسب إلى موسى كل ما يخص الأحكام والقوانين: وهذا ما يسميه الكتاب المقدس شريعة موسى.» ولما كان هؤلاء الأنبياء أو الكتاب لا تقتصر مهمتهم على تجميع التقارير عما يحدث في زمانهم وحفظها في «السجلات»، بل كانوا في بعض الأحايين يصوغون التقارير التي جمعها أسلافهم

في شكل جديد: فإنه يمكننا أن نفسر ما يوجد في الكتب المقدسة من صنوف الإضافة والتغيير. وبالمثل، إذا كانت تلك الكتب لا تخرج عن كونها مختصرات لمذاكرات أطول وأوسع، فلا عجب إذا لم نستطيع وضع تواريخ مضبوطة أكيدة عن الكتاب المقدس. فمن السخف مثلاً عدم الاعتراف بوجود ملوك للفرس غير الذين يذكرهم الكتاب المقدس، واحتساب الزمن طبقًا لتتابعهم، ما دام الكتاب لم يذكروا إلا ما تعلق باليهود، بينما نجد عند المؤلفين الجاهليين إشارات إلى ملوك أخر عديدين، ولذلك كان لديهم تاريخ أوسع وأقدم. وأخيراً فلنفكر في عوادي الزمان، وفي إهمال الناقلين، ولنتخيل الظروف المادية التي كتب فيها أولئك الأخيرون. «لما كانت النسخ العبرية قد كتبت فيما سبق على لفائف أو قراطيس وضع بعضها فوق بعض، تكون كل منها مجلداً، فقد حدث بتغير ترتيب هذه اللفائف بطريق المصادفة، أن تغير أيضًا ترتيب الأحداث والأشياء.»

والخلاصة أن ريشار سيمون يشرح أفكاره ببساطة محسوسة وبقوة ملموسة، حتى إن اللا دينيين وقد هالهم في أول الأمر تغلغلهم وراءه في عالم غامض مقدس - يصغون لقائدهم بآذان واعية: إنه يجيد فن إضفاء مظهر البداهة المنطقية على شرح الواقع الملموس. وعلى كل حال فقد رفض أن يتكلم في لغة اللاهوتيين، بل أراد أن يكتب «تاريخه النقدي» في فرنسية جزلة قوية. فإن اللاتينية لا تكفي إلا للمناقشات بين المفسرين والشراح: أما التطور العام للنصوص المقدسة فيجب أن يظهر أمام كل الأبصار.

* * *

إن طباع الشخصيات العظيمة التي درسناها حتى الآن لبسيطة نسبيًا. إنهم ثوار بالفطرة. وهم لا يتنفسون في يسر إلا في جو المعارضة. أما سيكولوجية ريشار سيمون فمعقدة. فهو قسيس كاثوليكي لا يعلن إخلاصه لصرامة العقيدة فحسب، بل لروح الكنيسة أيضًا، حتى إنه لما أدانته الكنيسة، جاهد ليثبت أنها في قرارها هذا مخطئة.

وذلك لأنه يدعى التمسك بالدين. والواقع أنه لم ينكر الوحي، بل هو يمتد به إلى أولئك الذين تناولوا الكتب المقدسة بالتغيير. وهو يعلن أن الله، بعد اتصاله بموسى، اتصل أيضاً بالكتاب والمؤرخين الذين تناولوا نصوص شريعة موسى بالتغيير على مر العصور. فإن أصحاب التغييرات الواردة في الكتاب المقدس «بما لهم من حق في كتابة الكتب المقدسة، لهم أيضاً الحق في إصلاحها وتغييرها.» فالأنبياء والكتاب العموميون ما زالوا مفسرين لكلام الله. فتلك التغييرات المتتابعة إنسانية من وجهة التنفيذ، وإلهية من جهة الوحي. إن كتاب نصوص الكتاب المقدس، قد وكلوا من قبل الله بأداء هذه المهمة المقدسة التي بدأت في عهد موسى واستمرت على مر السنين. والشعب العبري هو شعب الله المختار، بشكل صريح لا شك فيه. «وفي هذا تختلف جمهورية العبريين عن كل دول العالم الأخرى، في أنها لم تعترف أبداً برئيس غير الله وحده، الذي تولى حكمها بهذه الصفة حتى في الأزمان التي خضع فيها العبريون للملوك. وذلك منشأ اكتسابها لقب الجمهورية الألهية المقدسة، واكتساب شعوبها صفة القداسة، لكي تتميز بهذا اللقب المجيد عن بقية الشعوب. ولهذا السبب عينه وهب الله بنفسه قوانين – عن طريق موسى وغيره من الأنبياء الذين تبعوه – لشعب اختاره ليكون شعبه الخاص»[1].

ولينكر الآخرون قيمة التقاليد، أما هو فعلى النقيض سيدافع عنها. ليس صحيحاً أن الكتاب المقدس واضح على الدوام، ولا أنه تكفى قراءته لكي نجد فيه كل أوامر الله ونواهيه. فالتقاليد مكملة له لا غنى عنها، وهي لازمة لشرحه وتفسيره. إن «التاريخ النقدي للعهد القديم» يصر على توكيد قيمته – «سترون في هذا الكتاب أننا إذا فرقنا بين قاعدة القانون وقاعدة الواقع، أي إذا لم نجمع بين الكتاب المقدس والتقاليد، فقد لا نستطيع أن نؤكد شيئاً وثيقاً في الدين. ولا يعني إشراكنا كلام الله مع تقاليد الكنيسة إنكاراً لفائدته: ما دام الذي أحالنا إلى الكتب

(١) -تاريخ نقدي للعهد القديم، الكتاب الأول، الفصل الثاني، Histoire critique du Vieux Testament

المقدسة، هو الذي أحالنا أيضًا إلى الكنيسة، التي سلمها تلك الأمانة المقدسة[1]. »

ثم يستطرد ريشار سيمون: ليشرح أنه قبلما يكتب موسى القانون، لم يكن الأنبياء القدماء يحتفظون بصفاء الإيمان إلا بفضل التقاليد، وأنه بعد موسى كان اليهود يستشيرون مفسري هذا القانون فيما يستغلق عليهم من صعاب؛ ثم هاكم أيضًا ما حدث بالعهد الجديد: كان مذهب الإنجيل قد تأسس في عدة كنائس قبلما يوجد منه شيء مكتوب، وقد حفظ هذا الكلام غير المكتوب واستقر في الكنائس الأساسية التي أسسها الحواريون: حتى إن كبار رجال الكنيسة - مثل القديسين إرنييه وترتوليان Saint Irénée et Tertullien - استشهدوا به في نزاعهم ضد الملحدين بدلاً من أن يلتجئوا إلى «كلمة الله» المسجلة في الكتب المقدسة. كما استشهد الأساقفة في المجامع les conciles بتقاليد كنائسهم لشرح الفقرات الغامضة في الكتاب المقدس. - «لذلك أصدر آباء «مجمع ترانت[2]» أمرًا حكيمًا بعدم جواز تفسير الكتاب المقدس «ضد رأي الآباء الموحد»: وفضلاً على ذلك فقد اعترف هذا المجمع بالتقاليد الصحيحة غير المكتوبة، وزودها بسلطة تعادل سلطة كلام الله الذي تتضمنه الكتب المقدسة، لأنه افترض في نفس الوقت أن تلك التقاليد غير المكتوبة مصدرها السيد المسيح، الذي أوصلها إلى الحواريين، وأنها بعد ذلك وصلت إلينا. ويمكن تسمية هذه التقاليد ملخصًا للدين المسيحي، الذي تأسس في بداية المسيحية في الكنائس الأولية، مستقلاً عن الكتاب المقدس. . . »

وعلى أساس هذه البيانات القاطعة، يهاجم ريشار سيمون البروتستانت كالعاصفة. فالبروتستانت باستنادهم على الكتاب المقدس وحده، لا يستندون في

---

(١) -تاريخ نقدي للعهد القديم، مقدمة الولف.

(٢) - مجمع ترانت: Concile de Terente ١٥٤٥ - ١٥٦٣. جمعية من الأساقفة اجتمعت في مدينة «ترانت» بالنمسا حيث قررت إصلاحًا عامًا في الكنيسة الكاثوليكية. ولقد اجتمع هذا المجمع أولاً في مدينة «مانتو» في إيطاليا، بأمر البابا بولوس الثالث في عام ١٣٥٧، في في مدينة Trente بالنمسا في عام ١٥٤٥، وتم عمله في شهر ديسمبر ١٥٦٣. في حكم البابا بيو الرابع PIE IV. أنظر في هذا الصدد فولتير، القاموس الفلسفي، فصل المجامع. Voltaire, Dict. Phil. chap, Conciles والبيان رقم ١٠٠ في نهاية الكتاب. [المترجمان].

نفس الوقت إلا على نص زاخر بمواضع النقص والتغيير؛ وبرفضهم الاعتراف بالتقاليد، يرفضون في نفس الوقت عون «الروح» التي سبقت ولازمت ووضحت هذه النصوص الغامضة. فيأخذ في مجادلات عنيفة ضد إسحق فوسيوس Isaac Vossius قسيس وندسور، وجاك باناج Basnage القسيس بروان Rouen ثم بروتردام. ويخص أتباع سوسان برعده الشديد لحسبانهم أن التقاليد لا قيمة لها ولا وجود، بل إنهم يدعون جزءاً من الكتاب المقدس نفسه لكيلا يؤمنوا إلا بما يعجبهم الإيمان به، ولكي يعتقدوا ببعض العقائد التي يقبلها العقل الشامل، ولا شيء غير ذلك. وهو في المعنى كمدافع عن الكاثوليكية.

أجل في هذا المعنى. ولكن من ذا الذي لا يرى هنا ما في استدلاله من عيب وقصور، وكيف ينتقل من قيمة إلى قيمة أخرى تختلف عنها في النوع؟ فأولاً، نصوص الشريعة الموسوية تغطيها طبقات تراكمت على التتابع: وذلك عنده أمر واقع. وثانياً، المؤلفون الذي بدلوا نص القانون استمروا يعملون بوحي من الله مهما تبعناهم بعيداً: وذلك ليس أمراً واقعاً، بل اعتقاداً أو تفسيراً. فنجد من جهة ظاهرة تاريخية يمكن إثباتها بالعلم، ومن جهة أخرى عقيدة تستند على الإيمان ونستطيع، من وجهة نظر خارجة عن دائرة الإيمان أن نقتنع بالنظرية الأولى دون أن نقبل الثانية. نستطيع باستدلال غير ديني، أن نقبل أن الكتاب المقدس حافل بآثار من فعل الإنسان - كما أراد هو أن يثبت - دون أن نقبل أن اليهود الذين بدلوا النص القديم ظلوا معبرين عن الفكر الإلهي، وهذا ما يضيفه على أساس اعتقاد شخصي، دون إثبات واقعي. إن ريشار سيمون يخرج عن دائرة النقد والفيلولوجيا التي سبق أن بين حدودها وقواعدها تبياناً حاسماً صارماً.

وإنك لتستبين هذا الخروج، من شرحه لأفكاره في مقدماته: ولكنا لو تبعناه في تفاصيل كتابه «التاريخ النقدي» لا تضح لنا إلى أي حزب يقوده الميل الطبيعي لذهنه. أنظر إليه يفسر التوارة: إنه يصر على إثبات أن موسى يستحيل أن يكون كاتبها الوحيد. فإنها تحتوي على بيانات وحكم وأمثال وأشعار لغتها وأسلوبها لاحقة على موسى - وإنها تتضمن رواية أحداث لاحقة على موسى: «فهل يمكن

القول - مثلاً - بأن موسى هو مؤلف السفر الأخير (تثنية الاشتراع) الذي يذكر فيه موته ودفنه؟[1]» - والتوارة تضمن أيضًا كثيراً من الأقوال المكررة، مثل «وصف الطوفان كما هو في الفصل السابع من سفر التكوين». «فقد ورد في الآية ١٧ : وكان الطوفان أربعين يومًا على الأرض. وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض. ثم ورد في الآية ١٨ : وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض. فكان الفلك يسير على وجه المياه، وفي الآية ١٩ : وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء. وهو ما يتكرر في الآية ٢٠ : خمس عشرة ذراعًا في الارتفاع تعاظمت المياه. فتغطت الجبال[2]. هناك احتمال كبير، أنه لو كان كاتب واحد قد ألف كل ذلك، لكان عبر عن أقواله بكلمات أقل بكثير، ولا سيما في حكاية واحدة. . . » ويواصل ريشار سيمون عمله؛ فترى أي تأثير يتركه في القارئ إذا ما انتهى؟ أن قصة الكتاب المقدس عن خلق الكون لا اتساق فيها ولا انسجام. وأنها كتبت في أزمان جد مختلفة وبأياد لم تؤت المهارة ولا الأهلية. وأنها على الأقل اعتراها كثير من التبديل، وفي غير حذق حتى أصبح من المستحيل أن نميز كاتبها الأصيل. فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة فأي جدوى في الالتجاء إلى التقاليد؟

لذلك فإن ريشار سيمون في فحصه تلك التقاليد يحدوه روح النقد الخالص، ولا يحدوه روح الإيمان على الإطلاق. فلنتبعه أيضًا في عمله هنا، ولننظر عن كثب كيف يأخذ في دراسة القديس أوغسطين[3]. يحتل هذا القديس الكبير مقامًا ممتازاً

(١) -التاريخ النقدي. . الجزء الأول، الفصل الخامس.

(٢) نص الآيات من سفر التكوين، الفصل السابع. [المترجمان].

(٣) - القديس أوغسطين: من آباء الكنيسة في القرن الخامس. لاهوتي وفيلسوف شهير. صاحب «الاعترافات» و «مدينة الله». كان يريد أن يوفق بين الفلسفة اليونانية والعقيدة المسيحية، وأن يثبت الاتصال بين الحكمة والإيمان. ترك تأثيراً عميقًا على مالبرانش الذي كان مشغوفًا بدراسة فلسفته، وقد وصل فلسفته إلى القرن الثالث عشر القديس «توما الاكويني» ناقلاً أفكار ابن رشد فيلسوف الإسلام عن «الاتصال بين الحكمة والإيمان». [المترجمان].

في نقد الكتاب المقدس برجاحة عقله وصلابة حكمه. «لقد نوه أحسن التنويه في مؤلفاته عن العقيدة المسيحية، وفي مواضع مختلفة في كتبه، بالصفات اللازمة لتفسير الكتاب المقدس خير تفسير.» - إلا أنه «لما كان متواضعاً فقد اعترف بأن أغلب هذه الصفات كانت تعوزه»؛ وأنه أظهر من الدقة في تفسيراته نزراً يسيراً. - ونظراً لجهله اللغة العبرية فقد اعترف بأن كتابه عن سفر التكوين رداً على الزنادقة المانويين[1]، Manichéens كان فوق طاقته؛ «ولم يخجل حتى من أن يعيب العمل الذي قام به على عجل، ودون استعانة بالصفات اللازمة لتفسير الكتاب المقدس خير تفسير.» - فهو بدلاً من أن يبحث في المعنى الحرفي، «لا يتوسع إلا في المعاني المجازية، البعيدة عن تاريخ النص وعن الحرفية» . - «و بما أوتي من ذهن وقاد نفاذ، فقد كان يسيراً لديه أن يجد مواضع الصعوبة والغموض في الكتاب المقدس، حتى كشف بعضها في مواضع تبدو أبعد ما تكون عن كل صعوبة وغموض. ولكنه لم يكن كثير الممارسة لهذا النوع من الدراسة حتى يمكنه أن يقدم حلولا واضحة، ترضى» - «وفضلاً عن ذلك فقد كان متشبعاً ببعض الاعتقادات المبتسرة عن الفلسفة واللاهوت، يحشو بها كل مؤلفاته...[2]». ولا يختلف الأمر عن ذلك فيما بقي - ولنضف فقط أن ريشار سيمون يجد متعة خبيثة في إيقاع القديس أوغسطين في مجادلة مع القديس جيروم، ولنتساءل بعد ذلك عن الفكرة التي يمكن أن يكونها القارئ غير الديني عن مقدرة القديس أوغسطين ونفوذه.

وسرعان ما يرجع ريشار سيمون إلى النقد والفيلولوجيا، فهما مصدر وحْيه وإلهامه. إنه يفكر في أعماق كيانه أن لا شيء يقف أمام «الأدلة المبينة»، وعلى

(١) -المانويين Mamich´eens: الزنادقة أتباع مانيس وهو مذهب ظهر في القرن الثالث بعد الميلاد. ويشرح مانيس وجود الخير والشر كما يشرحه زرداشت: بنسبة الخليقة إلى مبدئين أولهما الخير وهو الله، أي الفكر أو النور؛ وثانيهما جوهره وهو إبليس أي المادة أو الظلام. (مبدأ الثنائية في الخلق). [المترجمان].

(٢) - الجزء الثالث - الفصل الخامس.

الأخص حدس «رجال الدين المتعصبين المستنيرين». إن القول بأن «روحًا خاصًا» أو «هاتفًا في القلب» «يكشف لنا عن أخفى الحقائق في الكتاب المقدس»، كان يليق بأزمان الأساطير. إن ذلك الروح الخاص لا تجده اليوم أبدًا إلا لدى الكويكرز[1] وغيرهم من الموتورين، الذين يلوذون به لافتقارهم إلى المقدرة والعقل السليم.

* * *

ولد واصل السير في طريقه، بالرغم مما صادف من عقبات ومشاق. في ٢١ مايو عام ١٦٧٨ أبلغ بطرده من جمعية الأوراتور؛ وفي نفس العام حرم «التاريخ النقدي للعهد القديم» بقرار من الديوان الملكي، وبناء على ذلك صادر البوليس نسخ الكتاب وأتلفها. وفي عام ١٦٨٣ حرمت جمعية «إندكس» Index[2] بدورها الكتاب. ولما رأي ريشار سيمون أنه لن ينفق مع الرقابة أبدًا، وأن «مسيو الزيفييه Elzevier» (كان قد نشر كتابه في خارج فرنسا مشوهًا نقلاً عن نسخة مخطوطة، فقد حصل على نص صحيح ونشره في أمستردام عام ١٦٨٥. وواصل عمله، فقد كان لا بد من أن تظهر القوة التي تعتمل في كيانه، وكان المنطق يقتضي أن يفسر العهد الجديد بعد العهد القديم. وعلى ذلك أخذت مؤلفاته تتوالى: في عام ١٦٨٩

---

(١) -الكويكرز Quakers: مذهب ديني تأسس في القرن السابع عشر في إنجلترا وصاحبه جورج فوكس (١٦٤٢) ثم انتشر في أمريكا بفضل وليام پن. وكان جورج فوكس يرتعد ساعة الوحي ومن هنا كلمة كويكرز أي المرتعدون. وأتباع هذا المذهب اشتهروا بطهارة الأخلاق فهم لا يحاربون معتقدين أن القتال لا يليق بالإنسان. ولا يقسمون بالإنجيل بل يقولون أمام المحكمة «نعم» أو «لا». ويخاطبون دائمًا بكلمة «أنت» لا «أنتم» وفضلاً عن ذلك ينكرون بعض الأسرار المقدسة لدى الكنيسة كالعمادة معتقدين أن المسيحية ليست عبارة عن غسل الرأس بقليل من الملح والماء. كما يرفضون تناول القربان معتقدين أنه من أباطيل الإنسان. فهم لا يعتمدون إلا على البراءة وصفاء القلب. (الرسالات الفلسفية Les Letters Philosophiques لفولتير رسالة ١-٤). [المترجمان].

(٢) - جمعية إندكس Congrégation de l'Index: محكمة تأسست في روما في عام ١٥٦٣ حسب قرار مجمع ترانت Concile de Trente للبحث في الكتب وتحريمها إذا كانت خطرة على الدين. [المترجمان].

«التاريخ النقدي لنص العهد الجديد»، وفي عام ١٦٩٠ «التاريخ النقدي لتراجم العهد الجديد»، وفي عام ١٦٩٣ «التاريخ النقدي لتفاسير العهد الجديد»: وفي كل هذه العناوين تظهر كلمة «نقد»، ويشرحها ريشار سيمون دائماً لكيلا يجهلها أحد: فقد كان لدى الكنيسة، منذ أول عصور المسيحية، علماء توفروا على تصحيح الأخطاء التي تسربت إلى الكتب المقدسة من حين إلى حين. وهذا العمل الذي يتطلب معرفة تامة بالكتب المقدسة، وبحثاً عميقاً عن النسخ المخطوطة، يسمى «نقداً». لأننا نقدر أفضل الدروس التي يجب أن يحتفظ بها في النص. فكلمة «نقد» لفظ فني مخصص للمؤلفات التي يدور فيها الفحص في مختلف الدروس لتوطيد أحقها. ولأن يجهل الناس هذا الفن في العصور التي خيمت فيها البربرية على ربوع أوربا، هذا محتمل؛ أما أن يحتقر اليوم، فهذه إهانة لا تغتفر. اليوم ينبغي أن ننسب إلى النقد الدور الذي نسبه الناس إلى اللاهوت فيما سبق... تخيل كيف كان غضب اللاهوتيين حينما سمعوا كلمات مثل هذه. كتب أرنو إلى بوسويه في يوليو ١٦٩٣ رسالة يقول فيها «حسب أقوال هذا الناقد لا يجب أن نتبع إلا قواعد النحو، وليس اللاهوت أو التقليد لكي نحسن شرح العهد الجديد!... عندي أنه لا شيء أكثر من ذلك يفيد أشياع سوسان Sociniens[(١)]»

وأخيراً ظهر المؤلف الكبير، «العهد الجديد للسيد المسيح، مترجماً عن النسخة اللاتينية القديمة مع ملاحظات»: ظهر في تريفو Trévoux عام ١٧٠٢. وكانت ترجمة لا ديدن لها إلا الاعتماد على النص، والرجوع إلى النص، وبيان المعنى الحرفي للنص، بالرغم من التفاسير التقليدية التي يقول عنه ريشار سيمون إنها لا تعدو كونها تفاسير بل أخطاء ومعاني معكوسة ومع ذلك فقد انتحلت سلطة القانون. كانت ترجمة نقدية، إذا أمكن القول، تحمل في حواشيها المقارنات التي أوحتها لريشار سيمون معرفته للغتين اليونانية والعبرية. «على كل حال، لما كنت لا مقصد لي من بياناتي إلا شرح المعنى الحرفي للأناجيل وكتب الحواريين،

---

(١) - أرنو إلى بوسويه، يوليو ١٦٩٣، Arnauld à Bossuet.

فلا ينبغي أبداً البحث فيها عن ذلك «التصوّف» cette mystiquerie الذي لا يتذوقه إلا قليلو البصيرة والإدراك من الناس». المعنى ولا شيء غير المعنى الحرفي: «وإلا كثر وقوعنا في تلك الرطانة الأعجمية التي يسمونها روحانية. » - ولقد حرمت هذه الترجمة.

* * *

لا ينبغي أن نجعل من ريشار سيمون رومانتيكيًا، ولا أن نلطف خلقه، لأنه كان شرساً جافاً. ولقد كانت حياته الفكرية غنية قوية، ولكنه كان فقيراً في حياته العاطفية. أحب معركة الأفكار الكبرى ولكنه أحب أيضًا المكائد والحيل: «لأنه ينبغي أن تعرف يا سيدي، أن اللا هوتي المجهول بجامعة باريس، ورينيه دي ليل القسيس René de L'Ile، وجيروم لي كاموس Jerôme le Camus وجيروم دي سانت فوا Sainte - Foi، وبيير أمبرين Pierre Ambrun ووكيل الإنجيل المقدس، وأويجين أدامانتيوس، وأمبروزيوس، وجيروم أكوستا Acosta، والسيد دي موني، والسيد دي سيمونفيل Simonville - أن كل أولئك المؤلفين وكثيرين غيرهم، يتجمعون في رجل واحد»، ريشار سيمون. ولم يتوخ الأمانة التامة في مجادلاته مع الكاثوليك، فقد بعث بصورة من كتابه «التاريخ النقدي» إلى أساتذة السوربون ليفحصوها، بعد أن حذف منها الفصول الخطيرة. وكانت الشفقة المسيحية أقل شيء يثير اهتمامه في مجادلاته الطويلة مع البروتستانت. وكان متكبراً جافًا يستعمل الألفاظ اللاذعة الجارحة، ويجد متعة في رمى السهام الحادة. وحتى في مؤلفاته الكبيرة - وبالرغم من التواضع الذي كان يدعيه - ترى أن ذلك التقدير الذي يشعر به نحو ذاته يصحبه دائماً شيء من الاحتقار الذي يشعر به نحو الآخرين. ولكنك تستبين خبثه وحقده على الخصوص من قراءة رسائله - بل قل مجموعة شتائمه وهجوه. إنه ليس الرجل المظلوم الذي لا يجد القوة في صفه فيدافع عن نفسه بكل الوسائل فحسب، إنه ليس ذلك الرجل الساخط: بل هو رجل يميل إلى الإلحاد، مشغوف بعرض المذاهب التي تشتم فيها رائحة الحطب

والحريق، وبالحديث عن اللاهوتيين الذين خرجوا على الكنيسة، وبلفت الأنظار إلى الكتب المخبأة، الكتب المحرمة التي تتضمن بذور الشقاق، الكتب التي تحمل مواد الانفجار. كيف السبيل إلى التوفيق بين ميول ذهنه هذه، وتلك الشيمة الدينية التي كان يزعم أنه محتفظ بها؟

For some, who have his secret meaning guess'd

Have found our authour not too much apriest [1]

أما عن المعارك الداخلية الدفينة، ولعله قد عرفها، فلم يسر منها شيئًا في أذننا. ولكي تعرف ماذا كان إيمانه على التحقيق، لم يكن بد من أن تطلع على مذاكرته الضخمة التي أحرقها ذات يوم بيديه، مدفوعًا بنوبة من التحرز. كان قد لاذ بداره في بولفيل بنورمانديا. وذات يوم استدعاه محافظ الولاية واستجوبه، ويومئذ خشي أن يفتشوا بيته ويصادروا أوراقه، فوضعها في عدة براميل كبيرة، ودفعها ليلا إلى أحد المروج ثم أحرقها فاستحالت إلى رماد. أما ما كان يخفي في أعماق نفسه فلا يعرفه إلا «الذي» يسبر أعماق القلوب.

وظل يعد نفسه عضوًا في الكنيسة بالرغم من طرده من الأوراتوار، غير ناس ذلك الشعاو بل متشبثًا به في عناد وإصرار: «إنك خادم الكنيسة إلى الأبد». ولقد واصل مهمته كعالم إلى النهاية، لا يريد أن يعرف شيئًا غير العلم، مع احتفاظه بصفته كابن عنيد للكنيسة كعالم إلى النهاية، بالرغم من مؤاخذتها إياه. «لقد تناول أسرار الكنيسة بروح يستوجب العبرة، ثم توفي في أغسطس من عام ١٧١٢ في الرابعة والسبعين من عمره...»[2].

* * *

---

(١) -درايدن: Dryden, Religio laïci ١٦٨٢. «لأن بعض الذين خمنوا مرماه الدفين وجدوا أن مؤلفنا لم يكن قسيسًا كما ينبغي أن يكون.

(٢) - بروزن دي لامارتنيير، مدح ريشار سيمون Bruzen de Lamartiniére, Éloge de Richard Simon.

لقد شارك ريشار سيمون في تصحيح القيم التي سبق أن رأيناها تعتمل في الضمائر في شتى الأشكال، باحتجاجه على مثل هذه الصيغ: لقد اعتاد الناس دائماً - إنه معلوم من قديم - إنه تقليد قديم قدم الدنيا . . . كما أنه أثر وأنتج، لأنه أضفى على النقد وعياً بقوته وواجباته «إن النقد لازم ومفيد» critici studii utilitas et necessitas. ولقد نشر خصمه جان لي كليرLe Clerc - الذي كان ببعض نواحي تفكيره لا يفترق عنه إلى الحد الذي يظنه الاثنان معاً - في عام ١٦٩٧ قانوناً لفن «النقد» L'Art Critique الظافر. ثم إن ريشار سيمون هو الذي أثار تلك الحركة التفسيرية للكتاب المقدس: إن لم يكن لدى الكاثوليك الذين أرجف ضمائرهم، فعلى الأقل لدى البروتستانت: وإن في وجود أكثر من أربعين مناقصة «لتاريخه النقدي للعهد القديم» لدليلا أكبر الدليل على ما أثار من إزعاج وإضطراب. ولم يكن عدد أتباعه كبيراً، ولو أن تلميذه روفائيل ليفي ترجم القرآن- كما يقول لويس دى بيزانس- حسب منهج استمده منه. ولكنه ولد أفكاراً جريئة جديدة في عقول الكثيرين. أنظر كيف يأتي بياجيو جاروفالو في عام ١٧٠٧ فيعلن أن الكتاب المقدس حافل بالكلام الموسيقي المنظوم. والسجع الشعري الموزون: فهل كان يجترئ على كشف ذلك الأثر الإنساني في الكلام الالهي، لو لم يفتح مؤلف التاريخ النقدي الطريق للاجتراء من كل الصنوف؟

وأخيراً، فأي ثروة لغير المصدقين ... ! إنهم ليسوا قادرين على تمحيص الكتب المقدسة بأنفسهم، ولكنهم مستعدون لتصديق كلّ ما يضعف من سلطانها. وهم يقولون «كيف تريد أن أعتقد بصدق هذه الكتب المقدسة التي كتبت منذ أقدم العصور، وترجمت إلى شتى اللغات بمعرفة قوم من الجهال ربما لم يدركوا معناها الحقيقي، أو بمعرفة قوم من الكاذبين الذين ربما بدلوا أو زادوا أو أنقصوا ما تتضمنه اليوم من أقوال؟ ...[1]»

---

(١) بارون دي لاهونتان: محادثات فضولية، ١٧٠٣ ص ١٦٣، طبع شينارد.

Baron de Lahontan, Dialogues, Curieu 1703, éd. G. Chinard.

الفصل الرابع

بوسويه ومعاركه

لايرى الناس بوسويه Bossuet إلا في صورة من العظمة الجليلة، كما يظهره لهم الرسام «ريجو». وإذا كان من العبث أن نذكر هذه الصورة الفاخرة. فلعل لنا في ذلك عذراً لأنه يمكن القول بأن ذلك ضروري: فإن أسلوب بوسويه وعظمته وشهرته ماثلة أمام عيوننا أبدًا. ونحن نتخيل الخطيب عادة يلقي بعض مرثياته: فهو لا يكاد يبتدئ في كلامه حتى نحس أننا ننتقل إلى ميادين الجلال، ثم تعلو أنغامه رويداً رويداً تشوبها مسحة من الحزن والأنين توقظ في قلوبنا من الرنين العميق ما يشتد حتى يصبح مؤلمًا، فإذا انتهت موسيقاه المقدسة بأنشودة للعالم الآخر، خيل إلينا أننا كنا أمام رسول، لا أمام إنسان عادي.

وصورة بوسويه هذه ليست غلطًا. ولكنها تفترض استنارة خاصة، فقد صفى الزمن كا ما عدا النبل والجلال والنصر. بيد أن هناك بوسويه آخر: بوسويه الذليل، التعس.

ولسنا نقصد أن نبدل شيئًا في بساطة عقيدته العميقة التي تستحق الاعجاب. فلقد آمن مرة بالأزلى، بالشامل، وهذه المرة كانت إلى الأبد: Quod ubique, quod semper- «إن اليقين الذي جاءنا من الله له- قبل كل شيء- كماله»[1]: ذلك المبدأ هو قوام كل عقيدته الثابتة. فهنالك يقين أوحى به الله إلى الناس، مسجل في

(١) - في كل مكان وفي كل زمان. كلمة للقديس فنسان دي ليران. [المترجمان].

الإنجيل، مؤيد بالمعجزات. يقين كامل ما دام إلهيًا، وبالتالي فهو متين لا يتغير: ولو أنه يقبل التغير لما كان يقينًا. ومهمة الكنيسة هي أن تكون حفيظة عليه: «إن كنيسة السيد المسيح الحفيظة على العقائد التي أؤتمنت عليها، لا تبدل فيها شيئًا أبدًا؛ فهي لا تنقص أو تضيف شيئًا، لا تحذف منها الأشياء الضرورية، ولا تضيف إليها الزوائد الباطلة. فكل مهمتها أن تجلو ما سلم إليها من قديم، وأن تؤيد ما لقى شرحًا وافيًا، وأن تحتفظ بما أصبح مؤيدًا مبينًا ... [١]» وواجب المرء أن يتمشى مع هذا اليقين الوحيد المتين: لأنه إذا أراد كل منا أن يكون له يقين خاص، لوقعنا في الفوضى واللامنطقية، لأنه بديهي أن الموضوع الواحد لا يمكن أن يكون محل مليون يقين، أو ألف، أو مئة، أو عشرة أو اثنين، بل يقين واحد. «من هنا ندرك بوضوح الأصل الصحيح للكاثوليكي والملحد. فالملحد هو من كان لديه رأي: وهذا معنى الكلمة نفسها. وماذا يعني «لديه رأي»؟ يعني أتباع المرء رأيه الخاص، وشعوره الخاص. أما الكاثوليكي فكاثوليكي أي عالمي، فهو يتبع رأي الكنيسة بلا تردد، ودون أن يكون له رأي خاص ... [٢]»

إيه أيها الكتاب المقدس، أيها الكتاب العزيز، الذي يقدم للناس، في شكل جميل خلاب، مزخرف مؤثر، تاريخ جنسهم وقانون واجباتهم في نفس الوقت! إنه يتضمن المبادئ التي تؤسس الكاثوليكية، حتى إذا فسرته التقاليد، أصبح السلطة التي تمنع الناس من جعلها موضع نقاش. إن بوسويه لا يتخلى عن كتابه المقدس، فقد شغفه حبًا منذ فجر شبابه، وسيكن له الحب حتى أخريات أيامه. لا غنى عنه، فهو غذاؤه، وهو خبزه. ومثلما يستمر الخوري الريفي في قراءة كتاب صلوات حفظه عن ظهر قلب: فكذلك بوسويه قد حفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب ومع ذلك فهو لا يكف عن قراءته. ولما كان آباء الكنيسة قد شرحوا الحقيقة الأصلية،

---

(١) - أول تنبيه للبروتستانت، ١٦٨٩، (طبع لاشا)، الجزء الخامس عشر ص ١٨٤.

Premier avertissement aux protestants, 1689, éd. Lachat.

(٢) - التعاليم الأولى عن وعود الكنيسة ١٧٠٠ (طبع لاشا)، الجزء السابع عشر ص ١١٢.

Premiére instruction pastorale sur les promesses de l'Église, (1700).

وأبدوها ووضحوها، فلا عجب أن نراه يلتجئ كثيراً إليهم. وبوسويه مغرم بالمطبوعات، فهو لا يكاد يتوقع نشوب مجادلة حتى يهرع إلى ما يتعلق بها من أوراق، فإن متانة إيمانه لا تمنعه من الاستعلام، يحدوه إلى ذلك الذوق والواجب معاً. وبين كل الكتب، تراه يؤثر أن يستشير كتب الآباء، خدام الكنيسة، وبين كل الآباء يفضل القديس أوغسطين Saint Augustin. لقد لاحظه سكرتيره المتيقظ «لي ديو» Le Dieu الذي سجل أفعاله وحركاته: «كان يتغذى بمذهب القديس أوغسطين، ويتشبث بمبادئه، حتى إنه لم يؤيد معتقداً، ولم يعط أي تعليمات، ولم يذلل صعوبة إلا عن طريق القديس أوغسطين، كان يجد لديه كل شيء.. كان يطلب مني مؤلفات أوغسطين مع الكتاب المقدس، إذا أراد أن يلقي موعظة على الجمهور، وكان يقرأ القديس أوغسطين إذا أراد أن يحارب ضلالا أو يوضح نقطة في الدين.»

أما وقد وثق بعقيدته، واستنار بالتجائه إلى الكتاب، فقد التزم بوسويه نظاماً يبرر وجوده الذاتي، وكل مجهود شخصيته لا يخرج عن ارتضاء تصويره هذا للحياة، وترسيخه، وإظهاره وتبيانه للناس. إن حدوده لا تضايقه بل يتقبلها عن طيب خاطر. وفي دخيلة تفكيره الخاص، تجده يرتاح لتنظيم حياته: لأن مجهود الحياة ينبغي ألا يكون دائماً نقد قاعدة تقبلها الناس مختارين راضين، بل الاستفادة من الأمان الذي تهيئه، لنمضي حياتنا في إتيان الخير وفي النشاط. وعنده كلمة جديرة بالإعجاب اقتبسها من كتاب الملوك: «إن الطاعة أفضل من التضحية». فنحن نطيع، نطيع الله، ونطيع الملك، الذي يمثل الله على الأرض. ونحن نستمع بالتصرف طوعاً لرغبة «الذي» خلق النظام الذي نرتضيه، والذي هو اليقين وهو الحياة. هكذا نخلص أنفسنا من البحث والفحص، ومن القلق الاضطراب: على منوال مؤلف كلاسيكي قد أذعن مرة وإلى الأبد لقاعدة الوحدات الثلاث التي ظهرت له سليمة منطقية، فيشيد في نطاق هذه القاعدة، ولائذاً بهذه القاعدة، تحفة رائعة.

وبوسويه ليس مفطوراً على الزهد. إنه يحب رانسيه Rancé ويقدره: وعندما يذهب إلى «تراب» ليزوره، يرى الرهبان راعيهم رانسيه وأسقف «مو» L'évêque de Meaux يتنزهان معًا طويلاً، يكرسان للأحاديث الودية الزمن الذي لا يقضيانه في الصلاة. بيد أنه لا يمكث في الدير. وهو مثل الكلاسيكيين أيضًا، يجتنب الافراط في كل شيء، فحتى المغالاة في التقوى تبدو له شديدة الخطر. وهو وإن كان شرسًا مع العنيدين Ies opiiatres إلا أنه بالغ الحنو على الضعفاء، كثير الشفقة بالفقراء. ومائدته، التي لا تخلو من النبيذ الجيد، تبدو عامرة دسمة دون ترف أو إسراف. وهو مرهف الحس من ناحية الطبيعة، يتذوق جمال حدائق «جرميني» أبهى حدائق الدنيا، كما يستمع بالطريق الهادئ المحوط بالأشجار حيث يستطيع أن يطالع في كتابه المقدس وأن يفكر ويتأمل. بل يحس تلك الصلات التي تتولد بين مناظر الطبيعة الرائعة، وقلب رجل يتأثر بها وينفعل. وهو شديد القسوة في بعض الأحيان، ومع ذلك فهو قادر على أن يكون بالغ الحنان: فقد كانت فيه فضيلة الصداقة. وعنده أن القديس أوغسطين كان على اتفاق مع القديس فنسان دى بول، أستاذه. وهو ليس قويًا ثابتًا فحسب، بل متزنًا كل الاتزان.

لا مدخل للشك إلى روح مثل هذه الروح، التي لا تقدم على شيء دون أن تبرره أمام محاكمتها الذاتية، والتي تعي أفكارها وإرادتها تمام الوعي: ذلك أن بوسويه- مثل الكشاك المدققين- يحاسب نفسه على سير تفكيره ونتائجه أعسر الحساب. إنه يحادث ابن أخيه، فيحكي له عن السؤال الذي وجهه إليه ذات يوم مريض على شفا الموت، وكيف أجاب:

«ذات يوم طلبني شخص غير مصدق، كان على فراش الموت، وقال »يا سيدي، لقد اعتقدت دائمًا أنك رجل شريف، وأنت تراني اليوم على وشك الهلاك، فحدثني بصراحة، فإني واثق بك، ما رأيك في الدين؟

- إنه أكيد، لم يخالجني الشك يومًا فيه ... [1].

---

(١) - لي ديو، الصحيفة، ١٥ مايو ١٧٠٠، Le Dieu, Jornal, 15 mai 1700

فعن هذا الإيمان المكين، لا شيء يقال. ولكن بدلاً من أن نتصور بوسويه عظيماً ومنعزلاً، فلندمجه بين معاصريه، لنحاول رؤيته وسط الجدال، بين المعامع والآلام. فلننظر إليه لا في شبابه الزاهر وظهوره المجيد، بل في سني شيخوخته: ولنحاول أن نعرف ما صار إليه أمره، خارج إطاره المذهب، في خضم الحياة، ممثلاً لتقليد قد شن عليه الهجوم من كل صوب وحدب، ومهملاً تخلى عنه عصره، إذا أمكن القول بذلك.

* * *

إن «البحث اللاهوتي- السياسي» الذي أرسله إليه أرنو Arnauld، والذي يملك منه نسخة في مكتبته، ليس كتاب ملحد فحسب بل كتاباً منغصاً منكداً. ماذا... ! سبينوزا هذا، هذا اليهودي الهولندي الحقير، أيفتعل مظاهر التفوق لأنه يعرف اللغة العبرية؟! إنه يعلن أنه لا اللاتينية تكفي ولا اليونانية: إما أن تعرفوا العبرية وإما ألا تتكلموا عن الكتاب المقدس.

كان بوسويه قد اكتفى «بالفولجات Vulgate [1]» لأنه يجهل العبرية: وهنا موضع الخطورة؛ وهو لا يجهل ذلك، فإذا أراد أن يجيب وهو عليم، وألا يبدو متأخراً أو مضحكاً، وفضلاً عن ذلك إذا أراد أن يطيع ضميره المدقق الذي كان يملي عليه واجبه، كان عليه أن يبدأ الدراسة من جديد. ولم يكن ذلك هيناً يسيراً... ومع ذلك فقد اشتغل. ونحن نحب أن نتخيل انعقاد المجلس الصغير ويالها من لوحة جميلة تقية: بعض الرجال الحكماء وبعض القساوة يجتمعون بانتظام، كل يمسك في يده نسخة من الكتاب المقدس: هذا يقرأ النص العبري، وذلك يقرأ النص

---

(١) - الفولجات La vulgate: ترجمة لاتينية للكتاب المقدس، تستعمل في الكنيسة الكاثوليكية، كتبها القديس جيروم في القرن الرابع بعد الميلاد. وقد رفضها الاصلاحيون في القرن السادس عشر بدعوى أنها تتضمن أخطاء في الترجمة. وسمح مجمع ترنت في ١٥٤٦ بدراسة النص القديم وأيد صحة الفولجات من حيث كونها ترجمة ذات قوة إثباتية يمكن الاستشهاد بها في المناقشات اللاهوتية. (المترجمان)

اليوناني، والكل يستشيرون أيضاً القديس جيروم وكبار الأساتذة، ويفسرون ويتناقشون، وبوسويه يقرر والأب فلوري يسجل الملاحظات. مجلس من رجال ذوي إرادة طيبة، يكونون حلقة بحث حيث يزيدون معارفهم ويدعمونها، لأنهم يستشعرون أن زمن التجارب الكبرى قد حان. ولكن هل سيعرف بوسويه العبرية أبداً؟

في يوم الخميس المقدس من سنة ١٦٧٨ قدم الأب رينودو Eusébe Renaudot الذي كان عضواً في المجلس، بياناً للأسقف عن كتاب على وشك الظهور: «التاريخ النقدي للعهد القديم»، تأليف ريشار سيمون. وكان هذا الكتاب قد حصل على الامتياز وأجازته الرقابة وأذن به المدير العام لجمعية الأوراتوار، وكاد الملك يقبل إهداء ذلك الكتاب، لأن الأب لاشيز La Chaise كان قد وعد بالتدخل لهذا الغرض. ففز بوسويه فزعاً مروعاً: إن التاريخ النقدي الباطل هذا، ليس إلا كتلة من الكفر والالحاد، بل هو قلعة للتحرر والفساد، فيجب إيقافه. وبالرغم من قداسة ذلك اليوم، المكرس لمراسيم الكنيسة وللحرمان، فقد هرع إلى مشيل لي تولير Michel Le Tellier رئيس الديوان، وأقنعه ونجح في منع نشر الكتاب.

ولكن أي ألم... ! كيف يتجاسر قسيس، وقسيس من الأوراتوار بالذات على مثل هذه المعاملة للكتاب المقدس! طالما يعيش ريشار سيمون فسيكون لبوسويه مصدراً للحزن والاضطراب. إن ريشار سيمون سيلف حوله ويدور، محاولاً إقناعه بأنه ليس «عنيداً»: بيد أنه لا يستطيع أن يخفى على عيون يقظة ساهرة، تلك القوة التي كانت تدفعه. إن هذا الرجل كان يريد إبدال اللاهوت بالنحو، فتباً له من شرير!

ولو أننا طالعنا القسم الثاني من «مقال عن التاريخ العالمي [1]»، متذكرين أن سبينوزا وريشار سيمون يحتلان ذهن بوسويه، لما ازداد فهمنا للهجة الحماسية التي

---

(١) -مقال عن التاريخ العالمي Discours Sur L'Histoire Universelle: ألفه بوسويه ١٦٨١. وأصبح كتاباً كلاسيكياً، وقد ألفه لتربية ولي العهد [المترجمان].

يستعملها محامي الأورثوذكسية الكاثوليكية فحسب، بل للصفة الحقيقية لهذا الكتاب أيضًا. إنه ينقض أكثر مما يعرض، وهو يجيب على أسباب تختلف بطبيعتها وجوهرها عن تفكير المؤلف المتميز: وإنها لمهمة شاقة، أن يطبق المرء على إقرار ديني، على مبدأ أولي a priori، تبريرًا تاريخيًا يفرضه عليه خصومه، تبريرًا أصبح ضروريًا إذا أراد حقًا أن يقابلهم وأن يجابههم.

وإن قوله لواضح: فالكتاب المقدس له مصدر إلهي، ولذا لا يحق لنا أن نتصرف حياله تصرفنا حيال كتاب بشري. وهو بعد قوله هذا، لابد له، لكي يرد على المفسرين المحدثين، من أن يتطرّق إلى خططهم، وأن يمحص ويقدر وجهات النظر البشرية. وهذا منشأ ارتباك بوسويه، فهو مجبر على شرح كيفية جمع موسى لتاريخ العصور السالفة، ومجبر على دحض الافتراض الذي يعزو تأليف التوراة إلى عزير Esdras[1]، ومجبر على دراسة النص باعتباره نصًا، وعلى تبرير

---

(١) عزير Esdras: كاتب في عهد أرتاكسركس ملك الفرس (القرن الخامس ق.م.) وعالم يهودي عارف بالقانون. رحل من بابل إلى القدس (٤٥٨) ومعه ١٥٠٠ رجل وعمل هناك على إصلاح الشعب والدين وأسس الدولة اليهودية (رينان: تاريخ الشعب الاسرائيلي، الجزء الرابع، الفصل الثامن Renan: Historie du peuple d'Israil 5 vol ويقول العهد القديم إن عزيرًا قد رحل بموافقة الملك إرتاكسركس ومعه رسالة منه موجهة إلى الشعب الاسرائيلي (العهد القديم كتاب عزيز الاصحاح الثالث ١-٢٨). وجاء في القرآن الكريم في سورة التوبة (٣٠) «وقالت اليهود عزير ابن الله» وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى فرفع الله عنهم التوراة. فخرج عزير يسيح في الأرض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له أين تذهب؟ قال أطلب العلم فحفظه التوراة، فأملاها عليهم عن ظهر لسانه. فقالوا ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا أنه ابنه (تفسر أبو السعود ص٤٠٠).

أما القائلون بأن التوراة ليست لموسى فيردون قولهم إلى ثلاثة أسباب ١- أن موسى ليس له موجود أكيد، فإن مؤرخي القديمة لا يذكرون اسمه لا معجزاته سواء في ذلك مانيتون وهيرودوت وسانشونياتون. ٢- أن التوراة نفسها لا تقول إن موسى هو كاتبها. ٣- تقول كتب لليهود إن التوراة اكتشف وجودها في عهد الملك جوزياس. مع أنه بين جوزياس وموسى انقضى ١١٧٧ سنة. ولم يذكر أحد الأنبياء الذين ظهروا في هذه المدة ولو سطرين عن هذا الكتاب. فلا يستبعد إذن أن تكون التوراة كتبت في بابل بان أسر اليهود أو عقب ذلك مباشرة بعد عزير، خصوصًا أن التوراة فيها كثير من الكلمات الفارسية والكلدانية (القاموس الفلسفي لفولتير، باب موسى، وبيان رقم ١٠٠ في آخر القاموس، Voltaire: Dictonnaire Philosphique, Notes. (المترجمان)

غموضه، وصعوبات وما فيه من تبدلات. وشرع بوسويه يهاجم مباشرة إلى الأمام، متعجلاً الخروج من هذه «المنازعات التي لا طائل وراءها»: فلندع التفاصيل إلى لب الموضوع: ففي كل ترجمة للكتاب المقدس نجد نفس القوانين ونفس المعجزات ونفس التنبؤات ونفس التسلسل التاريخي ونفس مجموع التعاليم وأخيراً نفس الجوهر: فإذا تبغون أكثر من ذلك؟ وأي أهمية لبعض الاختلافات الهينة في التفاصيل، بجانب هذه المجموعة الثابتة التي لا يعتريها تغيير؟ فهو طبقاً لطبيعته الواضحة الصريحة على الدوام، لا يتهرب من الاعتراض بل يواجهه ويحاول الغلبة عليه، بهجمة سريعة شديدة: «لكن في النهاية- وهنا تتركز قوة الاعتراض- أليس هناك إضافات في كتاب موسى، وما منشأ وفاته في نهاية الكتاب المنسوب إليه؟ ما وجه العجب في أن الذين واصلوا تاريخه قد أضافوا نهايته السعيدة إلى باقي أفعاله لكي يجعلوا من الكل كتلة واحدة؟ أما الاضافات الأخرى فلنر ما أمرها. فهل من قانون جديد، هل من مرسوم جديد، أو عقيدة أو معجزة أو نبؤة؟ لا أحد يدعي ذلك، ولا شبهة من ذلك ولا أثر ولو حدث هذا لكان ذلك بحق إضافة إلى كتاب الله: ولمنع القانون ذلك، ولكانت فضيحة هذا التجاسر فضيحة شنعاء. فإذا إذن؟ لعله استكمال لتاريخ نسب؛ أو لعله تفسير لتغير اسم مدينة بفعل الزمن؛ أو لعله بمناسبة المن الالهي الذي اقتات به الشعب الاسرائيلي أربعين عاماً في الفلاة، تسجيل الوقت الذي توقف فيه هذا الغذاء السماوي، ولما كان هذا الواقع قد سجل منذئذ في كتاب آخر، فقد استبقى على سبيل البيان في كتاب موسى، كواقع على ثابت شهده الشعب بأسره. إن أربع ملاحظات أو خمساً من هذا النوع سجلها يشوعة أو صموئيل أو بعض الأنبياء الآخرين الأقدمين- لأنها لا تتعلق إلا بوقائع شهيرة لا يتطرق إليها شك ولا غموض- كان من الطبيعي أن تنفذ إلى النص. وقد أوصلتها نفس التقاليد إلينا مع الباقي كله: أفيضيع كل ذلك في الحال؟ ...»

وهنا يبتسم ريشار سيمون ويسخر. فإن الاعتراف ثمين لا يقدر. فالسيد الأسقف يعترف بوجود إضافة إلى كتاب موسى، يعترف بأن التوراة قد حورت

وزورت. وبذا فإن أسقف «مو» الكبير، (مثل هوية أسقف أفرانش M. Huet, éveque d'Avranches) يصبح سبينوزيا في نظر اللاهوتيين، يدمر الكتاب المقدس أيما تدمير ...

إلا أن بوسويه يعاف السخرية: «إن السخرية ليست من طباع الفضلاء» وقد لا يكون لذلك أهمية لولا أنه يشعر أن الكلمة الأخيرة لم تنطق بعد، وأن ريشار سيمون يزداد جرأة من كتاب إلى كتاب، وأن «المسألة أصبحت لدى الكنيسة من الأهمية بمكان». ولم يكن في حياته المثقلة بالمهام مكان، فهناك تربية ولي العهد، وإدارة أسقفيته، وقيادة كنيسة فرنسا التي أصبح رئيسها الروحي، والكفر الذي يتولد هنا وهناك، وإلقاء المواعظ، وضرورة وجوده في البلاط، آه... ! يا للعمل الشاق! العمل الذي لا يستغرق كل أيامه فحسب بل كل لياليه: فحين تستسلم الأسقفية كلها للرقاد، يبقى ساهراً متيقظاً، فيوقد المصباح، ويستشير الملفات، ويشرع اليراع. هيا، فلا زال علينا أن ننجز هذه المهام، وأن ندافع عن التقاليد وعن القديسين، ضد ريشار سيمون: لأنه ليس هناك واجب أكثر إلحاحًا.

وعندما ظهرت ترجمة العهد الجديد، تملكه نوبة جديدة من السخط الشديد: لابد من المبادرة إلى مصادرة هذا الكتاب كما صادر التاريخ النقدي للعهد القديم من قبل. غير أن أربعة وعشرين عامًا كانت قد انسلخت منذ ذلك الحين، فنحن في عام ١٧٠٢ الآن، ولقد ألقى بنفسه رثاء ميشيل لي توليبه رئيس الديوان الذي كان ينقاد لمطالبه عن طيب خاطر فيما سبق. أما الآن فرئيس الديوان هو بونشارتران وهو لا يصغيْ إليه بل يناصبه العداء؛ وأكثر من ذلك أيضًا! فقد أراد أن يجبره على أن يقدم للرقابة «التعليمات» التي كان قد أعدها ضد ريشار سيمون. ولولا الملك الذي بقي على وده معه، لخسر دعواه. كيف يخضع هو- بوسويه-للرقابة! وكيف يستجوبه القضاة! هو، بوسويه في صورة شخص مغموم بل مهزوم! إن السلطة تفر

من يده، فقد تغيرت الأزمان، وظفر المتحررون، ولاشيء يستطيع أن يؤمله من ذلك.

وطالما كان يأمر بإحضار مؤلفه الكبير «دفاع عن التقاليد والآباء القديسين» Défense de La tradition et des Saints Pères فيعيد قراءته، ويأخذ في التحرير: إنه لن يفرغ منه أبداً. ذلك أنه ينبغي أن يضيف إلى كتابه الفصل تلو الفصل، وأنه لم يكن يحارب شخصاً واحداً، بل روحاً متشعباً يتحين كل فرصة للظهور. فلم تكد مسألة ريشار سيمون تنتهي، حتى ظهرت مسألة إيلي دي بان Elie Du Pin. وكان هذا بدوره قسيساً، وهو يبدو أقل عناداً، بيد أن عدم اكتراثه البارد كان خطير المغزى، فقد نشر مجموعه ضخمة عن المؤلفين الأكليركيين، قائلاً إن الملحدين كانوا أحياناً أنفذ بصيرة وأصدق من الكاثوليك في دراسة النصوص المقدسة؛ والأكثر وحشية قوله إن النقط الأساسية التي تتعلق بأسرار الكنيسة بل بالعقيدة ذاتها، لم تكن قد بينت بعد وحددت في ذهن آباء الكنيسة خلال القرن الثالث بعد المسيح. فقد تكلم القديس سيبريان Cyprien عن الخطيئة الأولى في وضوح وجلاء، كما أنه تكلم أيضاً عن التوبة والتكفير، وعن سلطة القساوسة في هذا الميدان، وغير ذلك. ولكن بوسويه ساهر متيقظ. إنه لا يريد أن يأخذ ايلي دي بان بالشدة لقرابته لراسين، ولأنه على أهبة الاستعداد للاعتراف بأخطائه. إلا أن هناك مسائل عدة لا يستطيع بوسويه أن يتحملها: محاباة الملحدين، وإضعاف التقاليد- فيما يتعلق بالخطيئة الأولى وفي نقط أخرى كثيرة- والخوض في سيرة القديسين بتلك الجسارة التي لم تجر عادة الكاثوليك على السماح بها. إن شر الحريات قد أصبحت بدعة في عصر «خطير كهذا الذي نعيش فيه ...»

ويكتب إليه فنيلون Fénelon في ٢٣ مارس ١٦٩٢: «لقد سررت لرؤية الدكتور العجوز والأسقف العجوز،-ولقد تخيلتك والقلنسوة تتدلى على أذنيك

تمسك بتلابيب دى بان كنسر ينشب مخالبه في صقر ضعيف». وما يحق لفنيلون أن يبتسم: فلولا النسر الرابض في «مو»، ولولا يقظته، لتعرض ميدان الدين للغزو والتخريب. ولو أنه يشعر في بعض الأحيان بتعب شديد [1].

* * *

وبوسويه لن يتم «الدفاع عن التقاليد وعن الآباء القديسين»، ولا «السياسة المستمدة من نفس كلام الكتاب المقدس» politique tirée des Propres paroles de l'Écriture Sainte: كم من كتب لم يتمها - وكلها لازمة، وكلها ملحة! وكان يشتغل رغبة في الذهاب إلى انجلترا، والدخول في محادثات مع اللاهوتيين هناك، وفتح عيونهم: ولكنه لن يذهب إلى انجلترا أبداً. ذلك أن انجلترا قد غرقت في الفتنة وطردت ملكها، وآثرت أن تنصب عدو فرنسا اللدود وعدو الكاثوليكية حاكماً عليها. «إني شديد الحسرة على انجلترا» [2] ولقد فكر فيما سبق في إثارة حروب صليبية ضد الأتراك: أين الزمن الذي كان يخطب فيه مادحاً القديس بيير دى نولاسك في كنيسة الآباء «لامرسى»، الزمن الذي كان يدهش فيه للتقدم العظيم المذهل الذي حققه الإسلام؟ الزمن الذي كان يتألم فيه من عدم اكتراث الناس بالأتراك، ذلك العدو الرئيسي، أخطر إمبراطورية تشرق عليها الشمس؟ «أي عيسى، يا سيد الأسياد، أيها الحكم بين الدول، والأمير على كل ملوك الأرض، إلام تحتمل أن عدوك الأكبر، وهو متربع على عرش قسطنطين العظيم، يدعم دعوى محمد بقوة السلاح، ويصرع هلاله صليبك، وينتصر كل يوم على المسيحية بسيفه المجدود؟» عندئذ كان لويس الرابع عشر الشاب يبتسم لفكرة تلك المشروعات

(١) - صحيفة (لوديو) أول ديسمبر ١٧٠٣ «كان يقول لى، وسط ذلك كله، أشعر بأني لم أعد أحتمل هذا العمل. فلتتحقق إرادة الله! إني على أتم استعداد للموت. و الله قادر على إرسال من يذود عن كنيسته. ولو أنه أرجع لي قواتي لاستعملتها في هذا السبيل».

(٢) - رسالة في ٢٢ ديسمبر ١٦٨٨، إلى الأب بيرودوت، a l'abbé Peroudot.

العظيمة. فلم يعد هناك محل الآن للذهاب إلى الشرق البعيد. اليوم لا أحلام ولا أوهام. كلما ذكرت الحروب الصليبية، لم يكن المتحررون وحدهم يبتسمون، بل يرى رجال الدين الأتقياء أيضاً أنه يحسن أن يدعوا الأتراك في سلام: فكان فلورى يقول، لقد استفقنا من وهم الحروب الصليبية، فلم يعد لها موضع إلا في أمنيات الشباب الذين تدفعم الحماسة أكثر مما تنيرهم المعرفة، أو في قصائد بعض الشعراء المداهنين.

وكان بوسويه كعادته دائماً، ثابتًا لا يتزعزع. إلا أنه يمكن القول بأن الأمور أخذت تنزلق من حوله، وتظهر في لون جديد، حتى إنه لم يعد يتعرفها. ولقد كان معتاداً أن يحيطه الناس بصنوف الرعاية والتقدير، وحتى في وطيس الجدال كانوا يحترمون حماسته وشفقته وإخلاصه. ولد غمره الأساقفة والأمراء الأجانب بمظاهر التقدير والتوقير. إلا أنه منذ استقر الاصلاحيون في هولاندة، لم يبق للمراعاة والتوقير أثر، ولا حتى للأدب. بل إنهم أهانوه. إن جوريو Jurieu الذي لم يسلم من هجومه أحد، كان يختص بوسويه بالهجوم. فاتهمه بالتنكر والخداع والكذب، وأثار في أخلاقه الريب، واتهمه بمعاشرة خليلة. وكان فظًا أغلظ له القول: إن بوسويه يدعو نفسه «مولاى» ها ... ها. ! يظهر أن هؤلاء الأساقفة قد ارتفع مقامهم أيما ارتفاع منذ مؤسسي المسيحية، الذين لم يكن لهم لقب غير خدام السيد المسيح. إن بوسويه خطيب متعاظم لا شرف له ولا إخلاص، ولا عقل سليم لديه ولا احتشام، وهو جاهل كل الجهل، مجترئ مقحام. لكي ينكر امرؤ ما ينكره بوسويه، يجب أن يكون صاحب جبين من نحاس، أو أخا جهل عميق عجيب.

إلا أن بوسويه لم يكن من أولئك الذي لا يتأثرون بالإهانات، أو أولئك الذين يجدون متعة في إثارتها، أو تلقيها. فقد كان يشعر بانفعال وغضب شديد يخون قدرته على احتمال الآلام: كان يتألم ويتعذب إذا تعلق الأمر بمن كان يكن لهم الحب مثل فنيلون، أو إذا نجحت الاهانات في المساس بسلطته، أو قللت من

جدارته عى تفسير كلام الله . ثم وقف جوريو في طريقه الشاق الأليم يقذفه بالطين، ويسميه رجلاً لا شرف له ولا إيمان، ويتهمه بالكذب والنفاق. عندئذ أصدر بوسويه صيحة، بل نداء مؤثراً وجهه إلى الله المطلع على كل شيء، والذي يدير كل الأمور لصالح الأرواح :

«رباه، استجب دعائي، يا رباه! لقد بعثوا بي لأتلقى حكمك الرهيب كمفتر كذاب، يلقي على «الاصلاح» تهمة الكفر، والتجديف، والخطأ الجسيم؛ مفتر لم يتهم الاصلاح بتلك الجرائم فحسب، بل اتهم أسقفًا بأنه اعترف بها. ربي إني اتهمت أمامك... فإذا كنت قد قلت الحق، وإذا أقنعت بالتجديف والافتراء أولئك الذين أرسلوني لأتلقى حكمك كمفتر كذاب، كرجل لا إيمان له ولا شرف ولا ضمير، فاللهم أدعوك أن تبيض وجهي أمامهم. ولتحمر وجوههم خجلاً، ولتفحمهم، ولكني أتوسل إليك يا رب أن يكون إفحامك لهم إفحاماً شافياً فيه التوبة وفيه السلام... [1]»

* * *

إن كل ريح من الالحاد تجعله يرتعد. وقد كان على علم بكل ما طبعه المتحررون. ولم يقنع بمطالعة مؤلفات جروسيوس السوسنياني : بل امتد بحثه عن مؤلفاته كريليوس Crellius وسوسان Socin صاحب المذهب إلى شتى المكتبات، لأنها المصدر الذي تسري منه السموم إلى الأرواح... - لا تظنوا أنه يجهل المناقشات الدائرة عن استراليا، ولا الاعتراض الذي يوجه إلى الكاثوليكية بدعوى أنها ليست دينا عالميًا، مادامت توجد قارة بأكملها عاش سكانها دون أن يسمعوا بالمسيح : إنه لا يجهل ذلك. فتسمعه يصيح «هيا إذن ناقشوا القديس بولس بل السيد المسيح أيضـًا، ودللوا أمامها بأراضي استراليا، وحاجوهما في المواعظ التي سمعتها الأرض قاطبة!»

---

(١) - الانذار الثاني إلى البروتستانت ١٦٨٩ الفصل الخامس عشر ص ٢٧٥ .

Deuxième avert. aux protestants, 1689, éd. Lachat, xv, p. 275.

وهو لايجهل شيئًا أيضًا عن أولئك الصينيين الذين يثيرون الحيرة والارتباك: بل يشترك في مؤامرة الارساليات الأجنبية ضد الجيزويت، لإجبارهم على الاعتراف بأن المراسيم الصينية إن هي إلا وثنية. وقد اتخذ لديه قرار نشر الرسالة التي أرسلت إلى البابا عن «الوثنية والخرافات الصينية»، قبل أن يطلع عليها الملك، الذي ربما كان يتدخل لصالح الآباء الجيزويت. كما أن المبعوثين يحضرون إلى الأسقفية لإخباره بما يجري هناك بجوار بكين: لقد حضر أسقف روزالي صباح اليوم وبعد الظهر لمحادثة أسقف مو عن شئون ذلك البلد وعن أخلاقه، وعن مواهب تلك الشعوب ...». يا للاجتراء على الحديث عن كنيسة صينية من تجديف! إن بوسويه يعلن في سخط: «أنها كنيسة عجيبة لا إيمان لها ولا وعد ولا محالفة ولا أسرار ولا أقل أثر للشواهد الالهية: كنيسة لا يعرف الناس فيها من يعبدون ولا لمن يقدمون القرابين، إذا كانوا لا يقدمونها للسماء والأرض وما بها من آلهة كآلهة الجبال والأنهار؛ كنيسة هي أخيراً كتلة مهوشة من الكفر والسياسة واللادينية والوثنية والسحر والتنجيم! ...»

وهو لا يجهل علماء التاريخ وعملهم العميق؛ فلا عجب أن نجد في مكتبته مؤلفات مارشام وكتابه «تاريخ الناموس الديني لدى المصريين.» Cus Chronicus Canon Egyptiac ويتهم جان لي كلير بوسويه باقتباس كثير من آراء مارشام Mar-cham ونسبتها إلى نفسه. والحق أنه عندما نشر مقاله عن التاريخ العالمي في عام ١٦٨١ أراد أن يسجل الانفعال الذي أهاج معاصريه على إثر اتضح من اختلاف بين التاريخ المقدس والتاريخ اللاديني؛ وأنه وإن كان يفضل المعارف التقليدية الثابتة، فقد اعتقد أن عليه على الأقل أن يشرح لولي العهد الأسباب التي تدفعه إلى الاحتفاظ بها. ما أشق علم التاريخ! من جهة، يقول لنا التاريخ المقدس كيف جمل «نبوخذ ناصرّ» بابل التي كانت قد أثرت بغنائمها من الشرق ومن أورشليم، وكيف أن امبراطورية بابل، بعده، لم تستطع احتمال قوة الماديين، وأعلنت عليهم الحرب،

وكيف عين الماديون خورس ابن قمبيز ملك الفرس قائداً عليهم، وكيف دحر خورس القوة البابلية وضم مملكة الفرس - التي لم تكن قد ازدهرت بعد - إلى مملكة الماديين التي كانت قد بلغت من القوة مبلغاً عظيماً بفتوحاتها وانتصاراتها، وهكذا أصبح خورس سيد الشرق بأسره غير منازع وأسس أكبر امبراطورية شهدها العالم. لكن من جهة أخرى، نجد أن المؤرخين اللادينيين مثل جوستان، وديودور وأغلب المؤلفين اليونانيين واللاتين الذين بقيت لنا كتبهم، يقولون بغير ذلك. فهم لا يعرفون أولئك الملوك البابليين، ولا يذكرونهم في كلامهم لنا عن الملكيات، فلا ترى في مؤلفاتهم أثراً للملوك المشهورين من أمثال تغلث فلا سرّ، شلمنأسر، سنحاريب، نبوخذناصرّ [1] وغيرهم من الملوك المعروفين في الكتاب المقدس والتواريخ الشرقية.

لا تصدق يا مولاي أولئك المؤرخين اللادينيين. لقد ضاعت بعض التواريخ اليونانية، ولعلها كانت تذكر ما يذكره الكتاب المقدس. إن الروم - الذين نقل عنهم اللاتين - كتبوا متأخرين. وقد كانوا يهتمون بالبلاغة في مقالاتهم أكثر مما يدققون في أبحاثهم، يريدون تسلية هلاس بقصص قديمة يبنوها على مذكرات مهوشة. لن تصدق بها، فإنما أنت تصدق بالكتاب المقدس، فهو أكثر اهتماماً بأمور الشرق، ولذا فهو أقرب إلى الحقيقة، حتى ولو لم تعلم أنه قد أملاه الروح القدس... [2]

ولما نشر المقال ذاته في عام ١٧٠٠ لثالث مرة، عندئذ اتضح للناس ما كان يشغل ذهنه. فقد ظهر في عام ١٦٧٨ كتاب الأب بزرون «قدم الأزمان»، وظهر الردان اللذان دبجهما الأب مارتيناي والأب لوكيان في عامي ١٦٨٩، ١٦٩٠: فجمع بوسويه كتلة الأفكار والوقائع الواردة في هذه الكتب. كان متضايقاً، مثل علماء التاريخ، من المصريين والآشوريين والصينيين، الذين يطالبون بالقرون

---

(١) - تغلث فلاسر، شلمنأسر، سنحاريب، ملوك آشور (العهد القديم، الملوك الثاني اصحاح ١٥، ١٦) ونبوخذ ناصر، ملك بابل. (المترجمان).

(٢) - مقال عن التاريخ العالمي، طبع ١٦٨١ ص٤١ وما بعدها.

الطويلة لتعزيز تاريخهم، حتى فجروا إطار التاريخ المقدس. فنصح، مثلما فعل الأب بزرون- في سبيل تذليل هذه الصعوبة الخطيرة، بالتجاء إلى «الترجمة السبعينية» التي تسمح بخمسة قرون زائدة لاسكان أولئك المضايقين، واضطر، مثله أيضاً، أن يفاضل، لأسباب تاريخية، بين ترجمتين للكتاب المقدس، لم تتفقا في قياس الزمن. وما من شك في أنه لم يتعرض طوال حياته لارتباك في مثل هذه القسوة.

* * *

إن سيماءه الحقيقية ترتسم رويداً رويداً؛ إنه ليس البنّاء الهادئ الآمن لكاتدرائية فاخرة شيدت على طراز لوي الرابع عشر، بل هو أقرب إلى العامل المشغول المتعجل الذي يجري ويهرول ليصلح ثقوبًا تزداد خطورتها يومًا فيومًا. إن بصيرته تمتد حتى المبادئ: إذ كان يراقب، ويقيس الجهود الواسعة العظيمة التي يقوم بها الملحدون لتقويض أسس كنيسة الله.

إن سبينوزا، بانكاره المعجزة، يريد إخضاع الله لقوانين الطبيعة. آه! فليحذر الناس أن تفتتن عقولهم بذلك الإله- الكون، ذلك الإله الذي لا يعدو كونه ظلاً! أما الله الذي عبده موسى فله قدرة أخرى: «إنه يستطيع أن يبني وأن يهدم كيفما شاء، إنه يعطي قوانين للطبيعة، يقلبها أنى شاء... وإذا كان قد أتى بالعجيب من المعجزات، لكي يثبت وجوده في زمن كان قد نسيه فيه الناس، وأجبر الطبيعة على الخروج على قوانينها الثابتة، فإنما أراد بذلك ن يثبت أنه السيد المطلق للطبيعة، وأن إرادته هي القوة الوحيدة التي تحرك نظام الكون...» انظروا إلى الخليقة «يثبت الله بخلق الكون بكلمته، أن لا شيء هناك يشق عليه؛ ويثبت بإنشائه متواترًا، أنه سيد مادته وسيد فعله وسيد مشروعه كله، وأنه لا يخضع في أفعاله لأية قاعدة سوى إرادته المستقيمة دائماً بذاتها...». انظروا إلى الطوفان «حذار من التفكير في أن الدنيا تسير وحدها، إن ما كان موجوداً من قبل، سيبقى دائماً على ما هو عليه ومن

تلقاء ذاته. إن الله الذي خلق كل شيء، والذي بقدرته يعيش ويبقى كل شيء، سيغرق كل الناس وكل الحيوان، أي سيدمر أبدع جزء من صنعه [1]. » إن بوسويه يفكر في الخراب الذي يستطيع إله سبينوزا أن يولده في الضمائر المسيحية، ومن أجل هذه الضمائر فهو يرتعد من هذا الإله.

ومالبرانش أيضاً يزعجه، لأنه يجد في أغوار فلسفته نفس التفكير. يقول بوسويه في مرثيته تيريز النمسوية في أول سبتمبر ١٦٩٣ «لشد ما أحتقر أولئك الفلاسفة الذين يجعلون عقولهم مقياساً لمقاصد الله، فلا يتصورونه إلا كواضع لنظام شامل، بينما ترك الباقي يسير كيفما يسير! كأنما هو مثلنا، يملك نظريات عامة، مهوشة، وكأنما يمكن للعقل السامي ألا يتضمن بين مقاصده الأشياء الخاصة، وهي وحدها ذات الوجود الحقيقي [2]. وبوسويه يعترف بأن مالبرانش متواضع، حسن المقاصد: ولكنه يعلم أن أشياعه مع كل ذلك، يتجهون صوب الالحاد مباشرة. فإذا نحن نفذنا من القشرة المهوشة التي تغطي فلسفته إلى لبّها، لوجدنا تفسيراً للدنيا ينفي كل ما يخرق الطبيعة؛ وهذا التفسير عينه يقوم على منهج

---

(١) - مقال عن التاريخ العالمي، القسم الثاني.

(٢) - يحسن بهذه المناسبة ذكر كلام لامارتين في هذا الصدد. قال «الاعتقاد بأن الله يدير العالم بمقتضى قوانين شاملة وليست خاصة، يعني إنكار أهم صفات الله وقواته: اللامتناهي. فكما أن العناية الالهية ليس لها حدود، فالله موجود في كل جزء من خليقته بكليته، كما هو موجود في الكل بكليته؛ بالنسبة لله فلا عدد ولا عظمة ولا صغر ولا شمول ولا تفصيل. عنده، لكل ذرة عالم له من الأهمية ما لكل العوالم. والنسبة بين الأشياء ليست في ذات الأشياء بل في ذاته فقط. إنه القاعدة والعدد والمقياس لكل شيء، واللامتناهي في كل جزء من صنعه كما هو فيه ذاته، وكوننا ننسب إلى الله هذا التعميم: هذه القوانين وهذه القواعد التي تطبق على مجموع لعدم إمكان تطبيقها على الفرديات، هو تشبيه لله بالإنسان وللامتناهي بالمتناهي. هذه غلطة في ميتافيزيقا فولتير. وهي ليست إلا زلة في الاستدلال أو عيباً في التفكير تولد مئات الأخطاء في الفيزيقا. وهي في الأخلاق تولد أخطاء لا تقل عن ذلك: لأنه إذا كان الله لا يتأمل ولا يحكم ولا يجازي إلا الجنس البشري في عموميته، فماذا تكون أخلاق الذات الفردية، أخلاق كل واحدة من ملايين الأرواح التي تكون هذا المجموع البشري الشامل؟ (لامارتين في، Cours Familier de Littérature باب فولتير). (المترجمان).

يتضمن «مضار فظيعة». إن الفقرة التالية من كلام بوسويه تنم عن نفاذ بصيرته وتظهر شخصيته بشكل يستحق الاعجاب:

«ينجم عن هذه المبادئ التي أسيئ فهمها، ضرر فظيع آخر يستولي على العقول من حيث لا تدري. لأنه بحجة أنه ينبغي ألا نقبل إلا ما ندركه في وضوح- وهذا قول وافر الصواب، إذا خضع لبعض الحدود- فإن كل امرئ يبيح لنفسه أن يقول: «أنا أدرك هذا ولا أدرك ذاك»؛ وعلى هذا الأساس وحده، يوافق على ما يشاء ويرفض ما يشاء، دون أن يفكر أن هناك، بجلنب أفكارنا البينة، توجد أفكار غامضة وعامة تتمضن حقائق جوهرية، يؤدي إنكارها إلى قلب الأوضاع. فتنجم عن هذه الحجة حرية في التقدير تؤدي إلى أن يجترئ الناس، على قول كل ما يشاءون، دون مبالاة بالتقاليد ... [1]»

لكن ممن تستقي فلسفة مالبرانش؟ من ديكارت. يفكر بوسويه ذاته في عصر مفتون بالديكارتية، كديكارتي إلى حد ما فيحلل ويميز ويدافع. إن ديكارت تجتمع فيه ثلاثة. أولها براهين ناجعة نافعة ضد الكفار والمتحررين، وثانيها نظريات فيزيقية تستطيع أن تطبقها أولا تطبقها، وهي نظراً لعدم أهميتها بالنسبة للدين، ليس لها أهمية كبرى في ذاتها، وآخرها مبدأ يهدّد الإيمان:

«أرى ... معركة كبرى تعد ضد الكنيسة باسم الفلسفة الديكارتية. أرى أنه يتولد في أحضانها، وعن مبادئها التي فهمها فيما أعتقد، أكثر من إلحاد. وإني لأستشف أن الاستنتاجات التي تستخلص منها ضد العقائد التي آمن بها آباؤنا ستؤدي إلى كره هذه الفلسفة، وإلى تضييع كل الثمار التي كانت الكنيسة ترجوها منها، لترسيخ قداسة الروح وأبديتها في أذهان الفلاسفة [2]. »

فلنذهب إلى أبعد من ذلك: ألا يحتمل أن تكون هناك حالة فكرية، لم تكن الفلسفة الديكارتية في أول الأمر إلا عرضًا لها، ثم قوتها فيما بعد؟ ألا يحتمل أن

---

(١) - رسالة إلى تلميذ لمالبرانش ٢١ مايو ١٦٨٧، A un Disciple de Malebranche.

(٢) - رسالة إلى هويه في ١٨ مايو ١٦٨٩، Lettre a Huet, 18 Mai 1689.

تكون هناك إرادة شاملة متأصلة في الحياة، هي مصدر كل شيء؟ ألا يحتمل أن يكون هناك رفض هائل للخضوع للسلطة، واحتياج لا يرد ولا يدفع للنقد الذي أصبح «المرض بل الشهوة السائدة في هذه الأيام [1]». لقد راح الزمن الذي كان الانسان فيه خاشعاً أمام الله، مطيعاً للملك، واليوم جاء زمن «نهم الفكر». وهنا تجمّل البلاغة الحقيقة التي يكشفها بوسويه؛ ففي الكلمات الرائعة التالية يصف الخطيب الحالة الفكرية التي تظفر رويداً رويداً، وتكتسب الضمائر، والتي تروّعه وتسبب له جزعاً شديداً:

«إن منطقهم الذي يتخذون منه دليلاً لهم، لا يقدم لأذهانهم إلا فروضاً وارتباكات، والسخافات التي يقعون فيها بإنكارهم للدين تصبح أصعب إثباتاً من الحقائق التي يذهلهم سموها، ونظراً لرغبتهم في عدم الاعتقاد بأسرار لا تدرك فهم يقعون في أخطاء متعاقبة لا تدرك، ماذا إذن أيها السادة إلحادهم المنكود هذا؟ إن هو إلا خطأ ليس له نهاية، إن هو إلا إجتراء يستخف بكل شيء، إن هو إلا دوار اختياري، وبالاختصار كبر لا قبل له باحتمال علاجه، أعني لا قبل له باحتمال سلطة شرعية. لا تظنوا أن المرء لا تستولي عليه إلا المغالاة في الشهوات، فإن المغالاة في الفكر أكثر إغراء، وهي الأخرى لها متع خفية، ويهيجها التحريم. يظن هذا العظيم أنه يزداد رفعة عن كل شيء- حتى عن نفسه- حينما يخيل إليه أنه يرتفع فوق مستوى الدين الذي طالما احترمه ووقره، إنه يضع نفسه في صف أولئك الذين زالت عنهم الأوهام، وهو يسخر في قلبه من أولئك الضعفاء الذين لا يفعلون شيئاً سوى اتباع الآخرين دون أن يقفوا على شيء من تلقاء أنفسهم، وإذ يصبح ولو موضع لرضاه إلا نفسه، فإنه يتخذ من نفسه إلهاً [2].»

* * *

(١) - بوسويه إلى رانسيه ١٧ مارس ١٦٩٢ «النقد الباطل الذي هو المرض والشهوة السائدة في هذه الأيام».

(٢) - رثاء آن دى جونزاج، طبع لاشا الجزء الثاني عشر ص ٥٥٢، Lachat oraison funébre d'Anne de Gonzague, éd

لقد انعدمت البساطة، وزال التوازن، وامحت المقاييس، يوم بدأ الناس لا ينقادون للسلطة؛ واستسلم أتقى الناس وأعلمهم إلى أهواء غريبة، فلم يعد المرء واثقًا بشيء أو عارفًا بشيء. ألم يفكر البعض في نشر، وفي إطراء مؤلف الراهبة الاسبانية ماري دى جيزو التي يقال إنها متصوفة، بينما الحق أنها مجنونة؟ والغلطة الوحشية التي ارتكبها عزيزه فنيلون... يحاول البعض الدفاع عن المسرح، يريدون أن يثبتوا بكل وسيلة أن الكنيسة تسمح بتحرر المسرح، ويعصرون كتب الآباء القديسين ليستخلصوا موافقتهم، بل لقد اجترءوا على الاستشهاد بالكتاب المقدس، مدعين أنه ذاته يتضمن ألفاظًا تعبر عن الشهوات، وأنه إذا كان الأمر يقتضي تحريم كل شيء يؤدي إلى عواقب سيئة، فإنه ينبغي تحريم قراءة الكتاب المقدس حتى باللاتينية، مادام هو السبب البريء لكل الالحاد، ومن من فضلكم يتفوه بتلك الحماقات والتخرصات؟ إن هو إلا راهب، الأب كافارو- إن الناس ينتقلون من مغالاة إلى مغالاة، وبحجة طاعة الملك يكادون يعصون البابا، وتوشك الكنيسة الفرنسية أن تصبح كنيسة انفصالية، لولا وجود بوسويه ليعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وتتوالى الضربات بلا انقطاع، ولا بد من الانتقال من دفاع إلى دفاع، بل لا بد من وجوده في كل ميدان. لشد ما يربد أعداؤه أن يزول من الميدان! وهم من آن إلى آن يذيعون الشائعات بأن اء القلب قد صرعه، بل يؤكدون أن ريشار سيمون قال: «دعوه يمت، فلن يطول به الوقت.» ولكن بوسويه يقاوم على الدوام.

ولعل ذلك، ومعيشته في حالة حذر مغيظ، وفي حالة مجهود لا ينقطع، هو السبب فيما اتخذ من لهجة قاسية وحشية ليعلن كل ما يتعلق بالدنيا الخداعة: شهوة الجسد التي تسقطنا إلى أسفل سافلين، وشهوة العيون، وشهوة الفكر. ولا شيء يكتسب رضاه إزاء عنفه وصرامته، لا الرغبة في التجربة ولا في المعرفة، ولا الميل إلى التاريخ، ولا العلم إذا بدا في صورة كبر، ولا حب المجد ولا التعلق بالبطولة:

ومن أجل اشمئزازه من أخطاء الناس، يخرج عن الإنسانية. وهو لهذا السبب ينشد «العلوى»، مدفوعًا بقلب يبتغي السلوان. عندئذ يرجع إلى الانجيل، لا للمناقشة بل للتفكير في التقوى، ويستسلم للذات المحبة، وملذات الإيمان: «اقرئي يا روحي مرة أخرى هذا الأمر الرقيق بالمحبة ...» ويصعد بوسويه من قمة حتى يبلغ عنان السماء، فيصل إلى تلك الدرجة الجليلة حيث الصلاة والشعر يمتزجان، وحيث لا يعبر لسانه عن شعور سوى تلهفه الكلى للوصول إلى الحقيقة والجمال اللذان سيبقيان على الدوام.

الفصل الخامس

ليبنتز وإفلاس وحدة الكنيسة

«كان نحيل القامة، شاحب الوجه، أصابعه الضامرة تطيل يديه المعروقتين، وكان بصره الكليل منذ أمد طويل، قد حرمه من تلك المناظر التي تستولي على المرء بصورتها البصرية؛ وكان يمشي محنيًا رأسه، ويكره الحركات العنيفة، يستمتع بالروائح الجميلة ويجد فيها راحة وإنعاشا. ولم يكن يميل إلى الحديث ميله إلى التفكير والمطالعة في عزلة، على أنه إذا تبودلت أطراف حديث فقد كان يشترك فيه بكل سرور. وكان مشغوفًا بالعمل ليلاً، قليل الاهتمام بالماضي، بل لقد كان أقل تفكير حالي يشغل ذهنه أكثر من أكبر الأحداث البعيدة. لذلك كان دائمًا يكتب مقالات جديدة يتركها دون أن يتمها، وكان ينساها في اليوم التالي، أو لايقوم بأي مجهود للعثور عليها [1].»

تلك هي صورة ليبنتز. ما أعنف شهوة المعرفة، في روحه المركبة! إنها شهوته الأساسية. فهو مولع بمعرفة كل شيء، إلى غاية الحدود النهائية للواقع الملموس، وما وراءها حتى ميادين الخيال. إنه يقول: من شهد باهتمام صوراً أكثر من النبات والحيوان، وعدداً أكبر من الآلات، ونماذج أكثر من المنازل والقلاع، ومن قرأ من الروايات أكثر، ومن سمع من القصص العجيبة أكثر، فهو أكثر معرفة من غيره، وإن لم يكن هناك ظل للحقيقة فيما شهد أو فيما سمع ... وكان قد درس

---

(١)- جان باروزي، ليبنتز (الفكر المسيحي) ص١٠-١٢، Jean Baruzi, Leibniz (La pensée chrétienne. p. 10-12)

كل شيء: درس أولاً اللاتينية واليونانية، والبلاغة والشعر، حتى إن أساتذته، وقد ريعوا لشهوته المنهومة، خشوا أن يبقى حبيسًا لدراسته الأولى، ولكنه في نفس هذه اللحظة فر من قبضتها. فانتقل من الفلسفة المدرسية واللاهوت إلى الرياضيات، حيث كشف فيما بعد عن مخترعات فذة عبقرية، ثم انتقل من الرياضيات إلى القانون. وعكف على دراسة الكيمياء القديمة (السيمياء)، منقبًا عن الغامض والنادر، وعما قد يوصل، بطرق تمتنع عن الرجل العادي، إلى شرح المظاهر. كل كتاب وكل رجل يقابله مصادفة، كان له بمثابة تحريض على المعرفة. أما أن يستقر «كمن ثبت بمسمار»، في مكان معين، أو في نظام، أو في علم، فهذا مالاطاقة له عليه. أما أن يختار عملاً معينًا، أن يصبح محاميًا أو مدرسًا، أن يستسلم لأعمال بعينها كل يوم في نفس الموعد- فلا! وارتحل، فجاس خلال ألمانيا بلدة بلدة، وفرنسا وانجلترا وهولاندا وإيطاليا، وزار المتاحف وتردد على المجالس العلمية، ودعم فكره وأغناه بألف اتصال، جاعلاً من حياته كسبًا مستمرًا وغنما. ثم وافق على أن يكون أمينا لمكتبة، مصيخًا سمعه للنداء المستمر لكل الأفكار البشرية؛ ومؤرخًا ليحتضن أكثر ما يمكنه احتضانه من الماضي ومن الحاضر؛ ومراسلاً عالميًا؛ ومستشارًا للأمراء؛ ودائرة معارف دائمة الاستعداد للاستشارة. ولكن رسالته في الحياة كانت أن يمثل في العالم قوة ديناميتية لاتفرغ، لأنها لم تتوقف يومًا عن التزود بالوقائع والأفكار والمشاعر الانسانية.

وقد انبثقت من ضميره العامل الناشط، الذي يحرك ويقلب مكاسبه من كل نوع، المخترعات النافعة والنظريات الفلسفية أو الأحلام الخصبة. فانتهى إلى امتلاك ناصية كل العلوم وكل الفنون، فضلاً عن المواد اللانهائية التي أقام عليها منشآته المثالية. كان -كما قيل- «عالمًا رياضيًا، طبيعيًا، سيكولوجيًا، منطقيًا، ميتافيزيقيا، مؤرخًا، قانونيًا، فيلولوجيا، دبلوماسيًا، لاهوتيًا، أخلاقيًا.» وفي هذا النشاط الفذ، الذي نظن أن أحدًا من بني الانسان لم يسبقه إليه، لم يكن يعجبه شيء -قبل كل شيء- مثل التنوع: إننا نستمرئ التنوع Utique enim delectat nos varietas.

لكنا نستمرئ أيضاً اختزال الأشياء إلى الوحدة Utique delectat nos va-rietas, sed reducta in unitatem . اختـزال الأشيـاء إلى الوحدة: تلك هي في الواقع الشهوة الثانية لدى ليبنتز، الذي لايتأثر بالتعارض تأثره بالاتساق، والذي يهتم بكشف سلسلة التـدرج الواهيـة التي تصل بين النور والظلام، وبين الفناء واللامتناهي. كان يبتغي أن يوحد العلماء فيما بينهم: أو ليس السبب في بطء تقدم العلم انفراد أولئك الذين يزاولونه؟ فلتنشئوا المجامع العلمية في كل البلاد، ولتتصل هذه المجامع بين كل شعب وشعب، حتى تخصب تلك القنوات الفكرية الأرض بأمواج المعارف الجديدة. بل أكثر من ذلك! فان ليبنتز يريد تأسيس لغة عالمية. والحق أن الدنيا مشهد أليم للتنافر والاختلاف: فالحواجز في كل مكان، والطلبات لاتلقي الجواب، ووثبات نحو اليقين، مضي عليها بالضياع هباء: ارتباك مقيم من أجيـال. أفليس في الامكان على الأقل إزالة بعض العـقبات التي يصـدم مـرآها العقل؟ أيتعذر، في البداية، التفاهم على معاني الألفاظ؟ سنخترع لغة توافق الجميع، ولاتسهل العلاقات الدولية فحسب، بل تحمل في ذاتها صفات الوضوح والدقة والمرونة والغنى، حتى تصبح معقولة بديهية محسوسة. فنستعملها في كافة أعمال الفكر كما يستعمل الرياضيون الجبر: إلا أنها ستكون جبراً ملموساً، كل حد فيه يعطي صورة لعلاقته الممكنة باللفظ الذي يجاوره لأول وهلة. فيكون لدينا مقياس بياني عالمي، يمكن اعتباره أدق أداة استعملها عقل الإنسان.

إنه يتألم لانقسام ألمانيا، وانقسام أوربا التي يود أن يهيء لها السلام؛ إلا أنه يوجه نحو الشرق ما يفيض من نشاطه المجاهد. ولو أننا نفذنا إلى أغوار عقله العميقة لوجدنا فيها نفس الرغبة. إن كشفه الكبير في الرياضيات، حساب النهايات الصغرى Calcul Infintésimal ، هو الانتقال من المنفصل إلى المتصل؛ وقانونه السيكولوجي الكبير هو قانون الاستمرار: إحساس واضح يتصل بأحاسيس غامضة تقودنا رويداً رويداً، بسلسلة من التدريج غير المحسوس، إلى الاختلاج الأول

للمجهود الحيوي [1]. إن الاتساق هو الحقيقة الميتافيزيقية العليا، تذوب فيه الفوارق التي كانت تبدو مستحيلة التحويل، والتي تتجمع في وحدة، يجد كل منها مكانًا فيها، طبقًا لنظام إلهي. إن الكون كورس Choeur كبير، يتوهم المرء أنه يغني فيه أغنية بمفرده، ولكن الواقع أنه يتبع من جهته «دورًا» هائلاً، رتبت فيه كل «نوتة» بحيث تتوافق كل الأصوات، وبحيث يكون المجموع «كونشرتو» أكمل من انسجام الأفلاك الذي داعب خيال إفلاطون [2].

ولنقرأ هنا الصفحة الرائعة التي سجل فيها إميل بوترو Emile Boutroux الصعوبات التي لاقاها عقل مثل هذا العقل في الوقت المعين الذي جاء فيه إلى الدنيا. - «إن الظروف التي عرضت لمهمته ليست كالظروف التي عرضت لمهمته ليست كالظروف التي عرضت للقدماء، لأنه يجد نفسه أمام اختلافات ومتناقضات قوتها الديانة المسيحية والتفكير الحديث، الأمر الذي لم يعرفه الأقدمون. فالعام

---

(١) - حساب النهايات الصغرى: أو فن قياس ما لانعلم وجوده بالدقة، إخضاع اللانهائي للحساب الجبري. ارجع إلى الرسائل الفلسفية لفولتير Voltaire, Lettres Philosophiques الرسالة السابعة عشرة عن اللنهائي وعلم التاريخ.

وعن تدرج الكائنات ونظرية إفلاطون: انظر إلى القاموس الفلسفي لفولتير (باب سلسلة الكائنات) Dictionnaire Philosophique: «لما قرأت إفلاطون لأول مرة ورأيت هذا التدرج في الكائنات، حيث تصعد من أصغر ذرة حتى «الكائن السامي» تعجبت، ولكن عندما نظرت باهتمام في هذا التدرج، زال هذا الشبح الكبير، مثلما تزول الأحلام في الصباح، على صياح الديك».

ولما كان لليبنتز مكانة سامقة في عالم الفلسفة، فلعل القارئ يهمه أن يقرأ بعض المراجع عنه وعن فلسفته: بول جانيه paul Janet «مصنفات ليبنتز الفلسفية» طبعة فليكس ألكان Félix Alcan في جزئين، باريس ١٩٠٠. وليبنتز، مصنفات مختارة، كلاسيك جارنييه يقدمها ل. برينان. وكتاب فلسفة ليبنتز، للمؤلف ن. رسل Russel ترجمة م. راي التي حازت تقدير الأكاديمية (طبع فلكس ألكان، باريس). وكتب أولية لابرون Olle´-Laprune عن العلاقات بين ليبنتز ومالبرانش في كتابه القيم: مالبرانش، طبع لادرانج، ١٨٧٠ في الجزء الأول ص٢٨. وقد دارت بين بطلي الفكر هذين رسائل عدة، أوردها ف. كوزان V.Cousin في كتابه «مقتطفات من الفلسفة الحديثة». الطبعة الخامسة، باريس، ١٨٦٦. [المترجمان]

(٢)- لنا عودة إلى هذه الفلسفة، في القسم الرابع من هذا الكتاب، الفصل الخامس: ميتافيزيقا الجوهر.

والخاص، والمحتمل والحقيقي، والمنطقي والميتافيزيقي، والرياضي والفيزيقي، والآلية والغائية، والمادة والفكر، والتجربة والفطرة، والصلة العالمية والاختيارية، وتسلسل العلل والحرية الانسانية، والعناية الإلهية والشر، والفلسفة والدين، كل هذه النقائض -التي كشف عنها تحليل عناصرها المشتركة- تختلف الآن حتى ليخيل إلينا أن التوفيق بينها ضرب من المحال، وأن اختيار أحد الاثنين وصرف النظر عن الآخر نهائيًا، يبدو كأنه يفرض نفسه فرضًا على كل فكر معني بالمنطق والوضوح. والهدف الذي يرمي إليه ليبنتز هو العودة إلى مهمة أرسطو، والبحث في وحدة وفي اتساق الأشياء، الأمر الذي يبدو أن العقل الإنساني قد عجز عن إدراكه، أو لعله قد رفض قبوله [(١)]. »

وهكذا أراد هذا الذهن الوقاد الجدير بالإعجاب، الجسور الهادئ معًا، في زمن كانت تتبارز الأفكار فيه بشدة لم يسبق لها مثيل، وفي هياج وسخط شديد- أراد أن يتسامق في وجهة نظر عالية، بحيث يبدو له كل اختيار يطرح نقيضًا، لاكعلامة قوة بل كعلامة ضعف وإذعان. ترى هل ينجح في مقصده؟ عندما ينزل ليبنتز إلى ميدان الواقع، منتقلاً من البحث النظري إلى التطبيق العملي، ومنتويًا أن يعالج الضمير الديني لمعاصريه- الضمير المقطع الأوصال المثخن بالجراح- بدواء التوفيق: فالسؤال هو هل يتوصل إلى نتيجة، أو لا تسفر جهوده إلا عن إضافة فكرة استعصاء الاصلاح إلى الشقاق القديم. بين هذه المعتقدات التقليدية، هل كان يمكن لانسان مهما أوتي من عبقرية أن ينقذ الروح المسيحية؟

* * *

(١)- إميل بوترو Emile Boutroux: مقدمة La Monadologie، ١٨٨١. وهو كتاب ليبنتز الشهير ألفه بالفرنسية في ١٧١٤ يشرح فيه مبادئ نظريته في (المونادة) monade وعن «الاتساق المقدر» (انظر القسم الرابع من هذا الكتاب). [المترجمان]

لا يكاد المرء يلقي نظرة على أوربا، حتى يرى جرحًا يصدم العيون: فلقد تحطمت وحدتها المعنوية منذ حركة الاصلاح، وانقسم سكانها إلى حزبين يتواجهان. فغدت الحروب والاضطهادات والمنازعات والاهانات، الحياة اليومية لهؤلاء الاخوان الأعداء. فالواجب الأول على كل حالم بالانسجام أن يعالج شراً يزداد استفحالاً واستشراء. والواقع أنه منذ عام ١٦٦٠ تجدد العراك بين الكاثوليك والبروتستانت: ترى أما لهذا الشطط من حد؟ فلو أن هذا العراك استمر لكان وبالا على الإيمان، على كل إيمان؛ لأن المتحررين، وناكري الوحي، والكافرين يشنون على العقيدة حربًا شعواء، تزداد كل يوم اجتراء، ولا تجد في ملاقاتها إلا قوات متفرقة منقسمة. أما إذا توصل البروتستانت والكاثوليك إلى التفاهم، فإن المسيحيين المتفقين- بما يجدون في اتحادهم من قوة لاتغلب -يكونون جبهة ضد الالحاد، وينقذون كنيسة الله.

سوف يساهم ليبنتز بكل قوته في سبيل هذا التوفيق. وهو عليم بمزاعم الجانبين، وقد درس كتب الجدال دراسة طويلة، بل هو يعلم أنها لاتتضمن في عمومها شيئًا ذا قيمة. ولقد خبر الناس. وهو ليس شخصًا أيا كان، لأنه أثبت باكتشافاته أنه جدير بثقة المفكرين وأهل للتقدير: ففي كل أرجاء أوربا علماء أعلام في مقدمة الصفوف يشهدون له. وهو بروتستانتي لوثري: ولكنه -طبقًا لكلمة رائعة له- في مقصد جميل كمقصد الوحدة، «لايريد أن يميز الشيء الذي يميز dis-tinguer ce qui distingue». وهو لكي يجد منهجًا، ليس عليه إلا أن يتبع ميول طبيعته: أن يثبت أن أوجه الخلاف ليست جوهرية، وأن أوجه الشبه عديدة تكاد تبلغ الوحدة التامة، وأن يحقق إجماعًا عامًا على أبسط مبادئ الإيمان، وهي الأعمق.

ومنذ رحلته إلى باريس، كان قد أعلن -لدى أرنو زعيم الجانسينية- دعاء Pater Noster، يقول أن كل شخص يمكنه أن يقبله: «اللهم، أنت الأحد، وأنت الصمد، أنت القادر على كل شيء، وأنت الإله الواحد الحقيقي المستولي على كل

القلوب؛ وإني أنا المخلوق الحقير، لأومن بك وآمل فيك، أحبك أكثر من كل شيء، وأصلي لك، وأمجدك، وأحمدك، وأسلم روحي إليك. اللهم اغفر لي ذنوبي، وجد علي وجودك على كل الناس، بما تراه إرادتك مفيداً لخيرنا في الدنيا، ولخيرنا في الآخرة، وقنا كل شر. آمين.» إلا أن أرنو رفض هذا الدعاء بدعوى أنه لايتضمن اسم المسيح. وسيوجد على الدوام قوم يرفضون هذه الصيغ، ولن تكون المهمة يسيرة، ولكنه على الأقل كان يود الشروع في إنجازها. ولو أنه نجح لحقق الانسجام، ناموس الكون. ولو أنه أخفق لكانت المسئولية على الآخرين، على العنيدين والعميان، الذين سيطيلون الشقاق، ويجعلونه مستحيل الاصلاح، ويعملون على إتلاف الضمير الديني في أوربا.

وبدأت محاولات تقرب وئيدة تمتد على مر السنين. في عام ١٦٧٦ لما كان ليبنتز يجرب حظه في دراسة «السيمياء»، تقابل في (نورمبرج) مع أحد أشياعه وهو البارون بوانبورج Le Baron de Boinebourg -البروتستانتي المرتد- والذي كرس كل حياته في سبيل مفاوضات « iréniques »، كما كانوا يقولون حينذاك. واصطحبه البارون بوانبورج إلى فرانكفورت ثم إلى بلاط مايانس Mayence حيث كانت المنازعات الدينية في ذروتها. ولما آب من باريس، وقبل وظيفة أمين مكتب في هانوفر عام ١٦٧٦، وجد في شخص الدوق جان فردريك- الأمير الكاثوليكي الذي يحكم رعايا من البروتستانت- الرجل الذي تأمل روما في هداية شمال ألمانيا عن طريقه. وازدادت الحركة سرعة، وبدأ هرج الممثلين على مسرح هانوفر: أرنست أوجست خلف جان فريدريك، والأسقف سبينولا، الذي يحميه الامبراطور، والذي ينتقل بين فينا وولايات ألمانيا وروما، لينسج خيوط الوحدة. وفي عام ١٦٨٣ يعد سبينولا صيغة كأساس لاتحاد كل المسيحيين: Regulae circa christianorum omnium ecclesiasticam reunionem. ويجتمع رجال اللاهوت من الطرفين، ويعقدون المجالس، وبوحي من مولانوس قسيس لوكم -

الراجح العقل الكريم القلب- يعدون منهجًا يرجى أن يؤدي إلى التوفيق المنشود: Methodus reducendae unionis ecclesiasticae inter Romanenses et Protestantes مشروع في سبيل اتحاد الكاثوليك مع البروتستانت.

وذهب ليبنتز إلى أبعد مما ذهب إليه الجميع. ففي الوقت الذي يعد فيه فسخ أمرنانت في المملكة الفرنسية وينفذ، ودون اكتراث للشدائد العابرة، ومقتنعًا بأن روح الوفاق هي الحقيقة وهي الحياة، نجده يفكر، ويؤلف إقرار الإيمان المعروف باسم Systema theologicum ، في لهجة بالغة الخطورة رائعة الجمال: بعد أن التمس العون الإلهي بصلوات طويلة حارة، مجتنبًا بقدر ما في طوق البشر، روح التحزب؛ متأملاً في الخلافات الدينية «كما لو كنت مقبلاً من عالم جديد، حديث عهد بالدين، غريبًا عن كل تعميد، حرًا من كل القيود، توقفت بعد تفكير عميق عند النقط التي سأتناولها بالشرح والتفسير: لقد آمنت بها لأني خلت الكتاب المقدس، ونفود الزمن القديم، والعقل السليم المستقيم، وشهادة الواقع الوثيق، قد اجتمعت كلها على إقناع كل شخص متجرد من الاعتقادات الباطلة ...»

ترى عن أي اقتناع يتحدث؟ نظرًا لأنه لم يقتصر على فحص العقائد، ووجود الله، وخلق الإنسان والكون، والخطيئة الأصلية، والأسرار الدينية فحسب، بل تعدى ذلك إلى أكثر النقط تعرضًا للنقاش من الوجهة العملية للدين، كالنذور، والمراسيم، والصور، وعبادة القديسين، فقد اقتنع بأنه لاشيء يحول دون تقارب الكاثوليك والبروتستانت، واتحادهما، وأنهما، يتنازل كل منهما عن بعض الصعوبات الظاهرية، يردان الوحدة إلى الإيمان. أنظر كيف يتكلم عن الأنظمة الرومانية، التي تثير في رفاقه في الدين- اللوثريين- السخط أو الاحتقار:

«أعترف بأن المؤسسات الدينية، الجمعيات المقدسة، وكل ما شاكل ذلك، كانت دائمًا موضع إعجابي بنوع خاص. إنها تبدو كجيش سماوي يحارب على الأرض، بشرط أن يبعدوا عنها كل سوء استعمال وكل فساد، وأن يديروها طبقًا

لـروح مـؤسـسـيـهـا وقـواعـدهـم، وأن يـطبقـهـا الأب الأقـدس عـلى شـئـون الكنيسة العالمية».

وأحسن من ذلك قوله:

«وهكذا، فإن النغمات الموسيقية، وتوافق الأصوات الرقيق، وشاعرية الأناشيد، وقدسيه البلاغة، وتألق الأضواء، وشذا العطور، والثياب الفاخرة والآنية المطعمة بالجواهر الكريمة، والهدايا القيمة، والتماثيل والصور التي توحي بروح التقوى، وقوانين العمارة العلمية، والتنسيقات الفنية، والمراسيم الاحتفالية، والزينات الثمينة التي تجمل الشوارع، وأصوات النواقيس، أو بالاختصار كل مظاهر التمجيد والتشريف التي تحب الشعوب أن تجود بها في سبيل التقوى والعبادة، لاتجد عند الله -فيما أرى- ذلك الاحتقار الذي يتظاهر به في أيامنا هذه، بعض الناس بتواضعهم الحزين؛ وهذا على كل حال ما يؤيده المنطق والوقائع معاً...»

فهل هناك -بعد ذلك- موضع للعجب إذا رأينا روما، التي اقتاده إليها في عام ١٦٨٩ وظيفته كمؤرخ وحب استطلاعه العالمي، تعرض عليه منصب مدير مكتبة الفاتيكان؟ أفلم يكن يحق للناس أن يعتقدوا أنه كاثوليكي مخلص، وأنه يوشك أن يهتدي؟

* * *

بوسويه؛ بوسويه هو الرجل الذي يقتضي النجاح اللحاق به: «إنكم قديس بولس آخر، لاتقتصر أعماله على شعب واحد، أو بلد واحد: بل تنطق مؤلفاتكم في الوقت الحاضر بأغلب لغات أوربا، وينشر أشياعكم انتصاراتكم في لغات لاتعرفونها[1]...»

اعتقد بوسويه من زمن طويل أنه يمكن التغلب على البروتستانت بالمجادلة والمحاجة. ولما نشر في عام ١٦٧١ كتابه «شرح المذهب الكاثوليكي» Exposition

(١)- لورد بيرث إلى بوسويه، ١٢ نوفمبر ١٦٨٥، Milord Perthe Bossuet 12, Nox. 1985

de la doctrine catholique ، كان يبدو كأنه يمد إليهم يده ويفتح لهم ذراعيه وكان -كما فعل ليبنتز- لايريد أن يميز الشيء الذي يميز، بل كان يصر على الشيء الذي يستطيع أن يوحد. ولقد خلص المذهب الكاثوليكي مما حمله المفسدون والمتغالون من غموض وارتباك، وأثبت أن العقائد الأساسية كانت واحدة مشتركة، وشرح عبادة القديسين، وتكريم الصور والبقايا المقدسة وعفو الكنيسة وأسرارها والغفران في أسلوب ينم عن روح المصالحة، وبرر التقاليد وسلطة الكنيسة، وأوضح أن الاعتقاد بسر تناول القربان المقدس هو أساس الصعوبة الوحيدة الحقيقية، ولو أن هذه الصعوبة لاتستعصي على الحل: فكان ذلك كله حركة كريمة صادقة منه، حتى إنها أثرت في العالم البروتستانتي بأجمعه، بل لقد اتهم البعض كتابه هذا بأنه يتضمن لوثة من التحرر، لاتتفق والأرثوذكسية؛ ولكن الكتاب انتصر بالرغم من ذلك لفوزه بموافقة الأساقفة والبابا نفسه، ولقى رواجًا كبيرًا في أوربا: «سيكون لشرحنا هذا لمذهبنا، أثران طيبان، أولهما أن كثيرًا من المنازعات ستزول زوالاً تامًا، لأن الناس سيعرفون أنها كانت تقوم على تفسير باطل لعقيدتنا؛ وثانيهما أن ما سيتبقى من فوارق لن يبدو- حسب مبادئ الاصلاحيين، les Réformés أساسيًا إلى الحد الذي زعموه وحاولوا إقناع الناس به، وأنه طبقًا لهذه المبادئ نفسها، لم يكن في هذه الفوارق ما يجرح أسس الإيمان.»

صحيح أنه قد امتدح (فسخ أمر نانت)، الذي كان يبدو له منطقيًا، الأمر الذي أوسع الخرق بينه وبين البروتستانت؛ فيوم خطب عن كلمات الانجيل «ألزمهم بالدخول» Compelle intrare ، أمام البلاط مجتمعًا في يوم الأحد ٢١ أكتوبر عام ١٦٨٥، لم يكن بد من أن يعده البروتستانت لافي صف خصومهم فحسب، بل عدوًا لهم أيضًا. ونحن نعرف كيف أثار نشر «تاريخ تبدلات الكنائس البروتستانتية» في عام ١٦٨٨ عواصف عنيفة. ففي خلال أشهر، وفي خلال سنين، ظهرت مناقضات وردود، وردود على الردود ولم يكن في هذه أو تلك

شيء من الرقة: «ليس من اللازم أن نشرب كل ماء البحر لندرك أنه مر، كما أنه ليس من اللازم أن نحتفظ في ذاكرتنا بكل الاهانات التي يوجهها الناس إلينا، لنشعر بالحقد الذي يضمرونه لنا [1]. »

وهنا تدخل المسألة في مرحلة خطيرة وتصل إلى درجة مؤثرة. كيف يمكن بعد فسخ أمر نانت، البحث في وحدة الكنائس؟ ومع ذلك فقد كانت هذه الوحدة مرغوبة من كل جانب؛ ففي السويد وفي انجلترا وحتى في روسيا قوم يحاولون جمع أصحاب الإرادة الطيبة في صف واحد. ولكن كيف يمكن التفكير في المصالحة والتوفيق بينما القادة لايكفون عن العراك؟ ومع ذلك فقد كان هذا حلم ليبنتز، الذي التمس المعونة من بوسويه.

وهما سيتفاوضان، إن لم يكن بلحمهما ودمهما، فعلى الأقل بأفكارهما وبإرادتهما، لاجالسين متواجهين، بل بحرص ودقة كأنهما يجلسان سوياً في بهو مهيب تحت ظل الصليب. وبمعونة بعض الموقفين، وفي ظل الغموض الذي يتمشى مع المفاوضات الشاقة الطويلة، ينشب بين هاتين الروحين العظيمتين جدال مؤثر أليم.

* * *

إذا استثنينا فترة تبادل الرسائل والمجاملات، فإن الجدل أخذ يحمي ويتسع ابتداء من عام ١٦٩١. وألقت جمهرة صغيرة من أصحاب الأرواح المتدنية في فرنسا نظرة أمل ورجاء نحو هانوفر: بليسون Pellisson صديق فوكيه [2] القديم، الذي سجن في الباستيل ثم حرر وأصبح كاثوليكيا بعد أن كان بروتستانتيا، يسعى

(١) - التعليمات الثانية الارشادية عن وعود المسيح لكنيسته ١٧٠١ طبع لاشا جزء ١٧ ص٢٣٩ Seconde Instruction pastorale 17.01.

(٢) - فوكيه Fouquet: وزير مالية فرنسا في عهد لويس الرابع عشر. [المترجمان]

بروح مشتعلة في سبيل وحدة الكنيسة التي فارقها مع الكنيسة الرومانية؛ ولويز هولاندين Louise Hollandine أخت دوقة هانوفر التي اعتزلت في دير موبيسون بعد ارتدادها عن البروتستانتية؛ والسيدة دي برينون Mme de Brinon سكرتيرتها الناشطة المتحمسة في سبيل الله. ومن يعرف؟ لعل دوقة هانوفر تهتدي بدورها؟ ولعل زوجها يحذو حذوها! ولعل هذه الأرض الهانوفرية ذات المنبت الطيب تغل محصولاً مجيدًا! لقد بدأ تبادل الاشارات: فليبنتز ويليسون يتراسلان، ويتحاجان، ويبدأ كلاهما يقدر الآخر ويحبه على بعد المدى. وإذا ببوسويه يهب ويدخل الميدان.

وهاهما يبدآن الجدال. وليبنتز يبحث عن منفذ للمصالحة، عن أقل النقط حراسة أو أضعفها دفاعًا لينفذ إلى داخل القلعة، وهي النقطة التالية: يمكننا أن نخطئ في مسائل الايمان دون أن نكون خوارج أو ملحدين، بشرط ألا نكون عنيدين. إذا كان البروتستانت يقبلون أن كل مجلس عام للكنيسة concile oecu-menique يعبر عن الحقيقة فيما يختص بالسلام، أو إذا كانوا على خطأ تفكيرهم أن «مجمع ترنت» الذي قرر الانفصال النهائي، لم يكن له صفة العمومية، فهم على الأقل يخطئون بسلامة نية، فلا هم خوارج ولاهم ملحدون، وبارتضائهم ترك الأمر لحكم مجلس عام يجتمع في المستقبل، فهم يظلون روحيًا خاضعين لوحدة الكنيسة... يا للأمل العظيم! ويا للخطوة التي نخطوها في سبيل سلام الأرواح، لو حبذها بوسويه!

إلا أن تغيير القرارات التي وضعها مجلس عام، بحيث يعد هذا المجلس باطلاً وكأنه لم يكن- هذا هو ما لن يسمح به بوسويه بتلك السهولة. «الكيلا نخطئ في مشاريع الوحدة هذه، ينبغي أن نعرف جيداً أن تساهل الكنيسة الرومانية، في بعض المسائل غير الجوهرية، حسب مقتضيات الزمان والظروف، لايعني على الاطلاق تساهلها في أية نقطة تتعلق بالمذهب المبين، وخاصة المذهب الذي وضحه

مجمع ترانت». فالسماح ببعض الترضية للوثريين، مثل تناول القربان، هذا ممكن. أما التنازل فيما يخص مبدأ السلطة، الحجر الأساسي للكنيسة، فكلا بكل تأكيد. إذن فهو بطريقته العنيفة، التي لاتتفق والدبلوماسية، يختار الهجوم: فإذا كان السيد ليبنتز يؤمن بالكاثولكية، إذا كان يعلن قبوله للمبادئ التي هي روح الكاثوليكية، فهل هناك أيسر من ذلك؟ فليعتنق الكاثولكية!

ولكنه مخطئ، إنه لايعرف خصمه جيداً. إن ليبنتز لن يجاوز ذلك الهامش الغامض، ذلك الحد الواهي، الذي يفصله عن الكنيسة الرومانية. وهو لن يجاوزه أيضًا، لأن ذلك عنده مسألة ضمير شخصية، لايجوز أن تتعرض لأي ضغط من أية قوة خارجية، ولاسيما أن المسألة الجوهرية ليست في ذلك. فالأمر الذي يعني البروتستانت، ليس التنازل بل الوحدة. وهو نفسه مفاوض وليس هاربًا خائنًا. فليعلم بوسويه ذلك جيدًا، وليدع تلك الأساليب، أساليب العجرفة والتعجيل. وليدرك الفرق بين المصالحة وتغيير الدين: «لقد قطعنا مرحلة كبيرة في سبيل تنفيذ ما اعتقدنا أنه من مقتضيات الشفقة ومحبة السلام، واقتربنا من شواطئ نهر بيداسووا Bidassoa [1] لعلنا نتنقل يومًا إلى «جزيرة المؤتمر». ولقد تفادينا عامدين كل الأساليب التي تثير النزاع، وكل مظاهر الامتياز التي يعتاد كل فرد أن يخلعها على فريقه، هذا التعاظم الجارح، وهذه المظاهر من الوثوق الذي، وإن كان المرء يشعر به في الواقع، إلا أنه من العبث ومن غير اللائق أن يظهره أمام أولئك الذين لاينقصهم هذا الوثوق ...» مرة أخرى، فالسؤال الذي نلقيه على بوسويه هو عما إذا كان قولنا -بغير سوء نية- إن مجمع ترنت ليس له صفة العمومية، يمكّننا من إعادة

---

(١) - بيداسووا Bidassoa: نهر بين فرنسا وإسبانيا فيه جزيرة عقدت فيها معاهدة البرانس Pyrénéés سنة ١٦٥٩ بين مازاران Mazarin نيابة عن لويس الرابع عشر وبين إسبانيا بخصوص زواج لويس الرابع عشر بماريا تيريزا Marie- Thérése بنت فيليب الرابع بشرط تنازل فرنسا عن حقوقها في تاج إسبانيا مقابل بائنة قدرها نصف مليون جنيه ذهبًا. وكان مازاران عالمًا بأن إسبانيا الفقيرة لن تستطيع سداد ذلك المبلغ وبذلك تستبقى فرنسا الحق في عرش إسبانيا. [المترجمان]

مناقشة قراراته. إن جواب الأسقف كان جوابًا متسرعًا، فليعد النظر في المسألة، وسننتظره.

وعاد بوسويه إلى العمل: وبالرغم من المشاغل المتكتلة التي تثقل كاهله، فإنه سيدرس النصوص التي كتبت حتى ذلك الحين، والصيغة التي قدمت للموافقة عليها، دراسة مفصلة: «سأنتهز أول فرصة مناسبة لأعبر لكم عن شعوري بنية ...»- «أتمنى أن تكون هذه السنة سعيدة لكم ولكل العاملين باخلاص على اتحاد المسيحيين[1]!». وينكب بوسيه على العمل: «إني أوافق على المبدأ، ومع أني لاأستطيع أن أوافق على كل الوسائل، فإني أرى أنكم لو صدقتم رأى المسيو مولانوس وأمثاله من الصالحين، لزالت أغلب العراقيل، وستعلمون شعوري في القريب ...»

ولم يقض ليبنتز فترة الانتظار في خمول، بل أخذ يبحث عن براهين ليدعم قضيته. لقد لفت الأنظار فيما سبق إلى فرنسا نفسها لم تعد مجمع ترنت مجلسًا كنسيًا عامًا: وهو الآن يكاد يطير فرحا، إذ يجد دليلاً واقعيًا، سابقة يخالها لاتقبل الانكار. لقد حدث مرة واحدة على الأقل- والواقع أنه حدث في ظروف أخرى ولكن مرة واحد على الأقل على الأقل في ظروف مثالي فريد - أن الكنيسة الرومانية نقضت قرارًا لأحد المجامع. فحينما رفضت جماعة الكاليكستيين[2] في بوهيميا الاعتراف بسلطة مجمع كونستانس فيما يتعلق بتناول القربان المقدس، لم يعتمد البابا أوجين ومجمع بال هذا القرار ولم يفرضا على الجماعة المذكورة الخضوع، بل أجلا المسألة إلى حين إصدار قرار آخر من الكنيسة. ترى ما رأى بوسويه في قوة سابقة مثل هذه؟ أليست نفس الحالة التي نحن فيها اليوم؟«احكم

(١) - رسالة في ١٧ يناير ١٦٩٢.

(٢) - الكاليكستيون: Calixtins أشياع جان هوس في القرن الخامس عشر. وجان هوس زعيم إصلاحي ولد في بوهيميا وأحرق حيا بأمر صدر من مجمع كونستانس في عهد سيجزموند امبراطور ألمانيا، بالرغم من أن هذا الامبراطور كان قد أمنه على نفسه. [المترجمان]

يا سيدي، إذا كانت غالبية الشعب الألماني لاتستحق على الأقل جميلاً أو معروفًا مثل الذي ناله البوهيميون ... »

وأخيرًا وصل هذا الرد الذي طال انتظاره؛ وصل في شكل بحث يتبع كتاب مولانوس Molanus «الأفكار الخاصة عن طريق التوحيد بين الكنيسة البروتستانتية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية»، نقطة فنقطة، ويستنتج بدوره. ويقول بوسويه فيه إن المنهج المعروض مرفوض لايمكن قبوله، لأنه منهج تعليق، يرمي إلى قبول التسكين والتوفيق قبل الاتفاق على المبادئ، وإن المنهج الوحيد المقبول هو المنهج البياني، الذي يعرض المبادئ قبل التعرض للوقائع. أما البدء بمصالحه في الناحية العملية، ثم استدعاء مجلس للاتفاق الودي على المذهب، ثم الوصول أخيرًا إلى مجمع يحكم فيما تعذر الاتفاق عليه، فهذا هو الخطأ كل الخطأ! يجب أولاً عقد مجمع يتقبل توبة البروتستنت، وبعدئذ ننتقل إلى التوفيق. وإلا فإننا نتنازل مقدمًا في المسألة الأساسية وهي: إذا كان البروتستانت يريدون العودة إلى الاتحاد الروماني قبلما يخضعون، فهم إذن لم يعترفوا بخطئهم، وبذلك يرفضون الاعتراف بسلطة الكنيسة؛ وهنا كل المسألة.

الواقع أن المنهج يتضمن الأفكار التي يتكون منها جوهر الجدال. فالكنيسة معصومة من الضلال، وما قرره مجمع ترانت يسري إلى الأبد. أما القول بأن فرنسا لم تعترف بصفته «العمومية» فتعسف باطل، لأن رفض فرنسا لايتعلق إلا بحقوق الصدارة والأولوية، وبالامتيازات، وبحريات وعادات المملكة دون أدنى مساس بمسائل الإيمان. والاستشهاد بمثل الكاليكستيين تعسف باطل بالمثل: فالفحص الذي وعدوا به في بال لم يكن يرمي إلى إعادة النظر في قرار مجمع كونستانس، بل لتأييد هذا القرار بإيضاحه. ومادام ليبنتز يسأل صراحة عن قوم مستعدين للخضوع لأحكام الكنيسة ولكن لديهم أسباب تدعوهم إلى عدم الاعتراف بعمومية مجمع من المجامع، أيجب أن نعدهم ملحدين؟- فإن بوسويه

يجيب بنفس الصراحة: «أجل أولئك ملحدون، أجل أولئك عنيدون.» وعلى ذلك يجد ليبنتز أنه لاجدوى من الدفاع. ويرد بأنه قول عجيب، أن يقال «كانوا بالأمس يعتقدون ذلك، إذن ينبغي اليوم أن نعتقد كذلك». ولاجدوى من استشهاده بالسوابق، فليس فيها غناء. إن بوسويه أقام زمامه جداراً يرى أن لاثغرة فيه، وأوشك الجدال أن يتوقف.

إلا أنه استؤنف. وقد زالت شخصيات الصف الثاني إذ أقصاها الموت؛ وبقي بوسويه وليبنتز وبذا بقيت بارقة من الأمل. في ٢٧ أغسطس من عام ١٦٩٨ عاد ليبنتز فكتب في دير لوكم «مشروعاً لتيسير الاتحاد بين البروتستانت والكاثوليك»، اختتمه بابتهال مؤثر إلى الله. واستأنف مراسلاته مع بوسويه. ولكن بقيت الأدلة والحجج على ما هي عليه -إلا واحداً. فإن إصرار ليبنتز على إثبات خطأ الزعم بأن الكنيسة لم تتبدل أبداً، استدعى التعرض لمسألة صحة الكتب المقدسة. فقد لاحظ أن الكنيسة الحالية ترى صحة كتب كانت الكنيسة القديمة ترى صحتها محل شك؛ إذن فقد حدث تبدل في التقاليد... واستمر الجدال عنيفاً دقيقاً حتى اللحظة التي أصبح موت بوسويه فيها وشيكا؛ وأصبحت الرسائل المتبادلة بحوثاً مطولة حتى إن أحدها تضمن ١٢٢ بابا، ولكن أهناك حاجة للقول بأن ليبنتز، باثارته الارتياب في صحة الكتب المقدسة- قد خرج على وسائل المصالحة؟

* * *

وواصل هذان العاملان العظيمان، اللذان لم يقعدهما يوماً تعب أو ألم، عملهما إلى النهاية، كل طبقاً لقانونه. استعمل ليبنتز ذكاءه المرن الخارق، وقدرته الدبلوماسية، فقد ابتدأ بالحذر واللباقة: لأن الأمر - على حد قوله- لم يكن أمر نزاع أو تأليف كتب، بل تعرف المشاعر والآراء، وقياس القوى. وأخذ يتحمس رويداً رويداً، فقد عيل صبره إزاء مقاومة عنيدة لم تنجح إرادته الطيبة ولم تفلح عبقريته في التغلب عليها، وأخذت لهجته تشتد فيتكلم عن «السخافات»، وينعي

على بوسويه إلتواء أساليبه، وميله إلى التضليل، والتجاءه إلى التهويل، فبدا أسلوبه مشوبًا بشيء من الحسرة والمرارة. إن هذا الأسقف مفطور على العناد، فالأفضل أن نشرك معه بعض المدنيين وأن نأتمر معهم. فلأولئك الأكليريكيين نظريات خاصة وآراء مغرضة. أما هو فلا يروم إلا التوفيق والمصالحة. إن ذاكرته الفذة دائمًا متأهبة لأن تمده بأمثلة يستطيع الحاضر أن يهتدي بها. وتفكيره دائمًا يحمله على أن يكتشف في المتناقضات أوجها للاتفاق، وأن يختزل الصعوبات، وأن يخلق الانسجام. وعنده من الروح السياسي أكثر مما عنده من الروح الديني، فالرهان في نظره من الأهمية بمكان، وهو حقيق بالأغضاء بعض الشيء عن قواعد المباراة. نقطة واحدة هي التي لايمكن أن يغضي عنها، وصحيح أن هذه النقطة تجر الباقي وراءها: الحق في حرية البحث والفحص، ورفض الخضوع لسلطة دجماطيقية تحكمية. وقد شعر بحزن وألم لاخفاقه في محاولاته، ولم يتخل دون حسرة، عن المشروع الذي كان ينتظر منه خيراً عميما لأوربا وللإنسانية جمعاء. ويخيل إلينا أننا نشتم أيضًا رائحة الحسرة، ولوم الآخرين، في تكراره العنيد لهذه الفكرة «تسجيل براءته من مسئولية ما قد يجره الشقاق على الكنيسة المسيحية من شرور وويلات.»-«وعزاؤنا أننا لم ندخر وسعًا فيما اعتقدنا أنه واجب علينا، ولن يستطيع امرؤ أن ينعي علينا الشقاق، وإلا كان هذا هو الظلم المبين.»- إن الكنيسة الرومانية «هي سبب الشقاق، وهي التي تجرح الشفقة التي هي روح الوحدة.»

وبوسويه أرهف حساسية إلا أنه يخفي تأثره. فإذا هو أهان ليبنتز بوصفه بالالحاد وبالعناد، وإذا شكا ليبنتز من هذه التهمة، فهو يأسف ويحزن ولكنه يقول: لو لم أتكلم بتلك الصراحة التي طالبني بها ليبنتز، لاتهمني باللف والدوران. وهو يرد على المؤاخذات بتواضع بريء: «إذا تفضلتم بتبيان الأسباب التي تدفعكم إلى الظن بأني لم ألب رغبتكم، فإني أؤكد لكم أني سأقوم بتنفيذها بتمامها دون نظرة مني إلى يمين أو شمال، بل بكل استقامة النية الطيبة التي يمكنكم أن تتوقعوها من

رجل لم يجد يوماً سعادة أوفر من الاشتراك مع رجال بمثل هذه المقدرة وهذا الشرف، في علاج جراح الكنيسة النى ما فتئت تنزف بفعل الشقاق الذي يؤسف له أشد الإسف.» إن الفكرة التي راودت ذهن ليبنتز وهي: تكليف الأسقف الكاثوليكي سبينولا بكتابه مذكرة تعرض وجهة نظر البروتستانت، بينما يكتب هو مذكرة بوجهه نظر الكاثوليك، فكرة لم تكن لتتولد يوماً في ذهن بوسويه. فليس للحقيقة وجهان. بل الحقيقة واحدة لاتتغير. وهي أيضاً أبدية. فهو يتمسك بالمبدأ الذي غذى فكره، والذي هو ناموس روحه، والموجة لنشاطه وحياته: لاتشبث إلا بما يبقى ويثبت.

وهو يرى- بقلب أقل حزناً لكن في غير ضغينة أو مرارة- إبعاد هذا السراب الذي لم يفتنه كثيراً في يوم من الأيام. فالروح الديني عنده يتغلب على الروح السياسي. فهو يعرف أن رفض المصالحة هو رفض رعادة السلام الروحي إلى أوربا. ذلك السلام الذي لم تكن يوماً في حاجة إليه أكثر مما هي الآن. لكن إذا لم يكن بد، للتوصل رلى هذه الوحدة، من الاعتراف بأن الكنيسة الكاثوليكية عرضة للخطأ، وأنها أخطأت في أحكامها، وأدانت وطردت بغير حق، وأنها تناقض نفسها وتتغير- فإن ذلك يكون قضاء على مبدئها بالذات. فأي ثغرة تصيب السلطة، تجر وراءها الكفر يتوالى في إثر الكفر، وتؤدي إلى دمار معبد اليقين. فاختار بين النظريتين: فليبق المنشقون في ضلالهم، ولتبق الكنيسة كشجرة راسخة عتيقة لم تفقد إلا فرعاً واحداً جافاً.

* * *

وانتهى به الأمر فيما بعد، فقد عمر طويلاً، فهو شيخ عجوز. ويتخلى عنه الناس حتى أولئك الذين كان عليهم أن يؤازروه. وهو يشكو من حصاة ولذا يتألم ويتأوه. وعندما يتيح له مرضه لحظة راحة، يركب في محفته ويلتجئ إلى الملك، الذي كان يستمد منه القوة والشجاعة فيما سبق: ولكن الملك كان بالمثل يجنح إلى

الغروب، ولايستطيع أن يأتي بمعجزة ليعيد الشباب إلى الذين أصبح اقترابهم من القبر وشيكا.

وقد كان يقاوم المرض الذي يضنيه، «يقف على رجليه بصعوبة» في تهالك مؤثر، ليحاول تأدية فروض الاحترام للسيد. لايرى الناس سواه في فرساي. ورجال البلاط يسخرون من هذا الشيخ المحطم، المضحك المزاحم. ومدام دي مانتنون القاسية تهمس «أتراه يود أن يموت في البلاط؟». وفي عام ١٧٠٣، في حفلة عيد صعود العذراء التي أراد أن يحضرها، كان موضع مشهد أليم جعل الأصدقاء يحزنون له، والمحايدين يعطفون عليه، وعجائز البلاط يسخرون منه. وكانت مدام دي مانتنون تسر إليه على طول الطريق «شجاعة يا سيدي فسنصل عما قريب». ويقول الآخرون «آه... يا للسيد المسكين!»، ويقول غيرهم «لله دره!»، بينما تقول الأغلبية «ترى لم لايذهب ليموت في منزله؟[١]».

ولم يكن ليبنتز أسعد حالاً. فهو يواصل أحلامه. إنه يفكر في تحويل الصين إلى المسيحية، لابإيضاحه للصينيين أنهم على خطأ، بل بتبيان أوجه الشبه بين ديانتهم وبين المسيحية، مستعيناً بفكرة الوحدة الجوهرية للفكر البشري. ولكن الحقيقة الواقعة تخيب ظنه، لأنها ليست مادة يشكلها المرء على هواه، ولايستطيع الفكر أن يبدلها بغير مخاطرة، إنها مقاومة لاتغلب. لقد ضاع الأمل، فلالغة عالمية إذن، ولاوحدة للكنيسة، كل هذه المشروعات لاطائل من ورائها، إن هي إلا ظلال يتعذر الوصول إليها.

لقد وصفه فونتنل كبطل ظافر حينما أطراه أمام مجمع العلوم بباريس[٢]: «ماأشبهه بأولئك القدماء الذين أوتوا من المهارة ما يمكنهم من سياسة ثمانية جياد مجتمعة مشدودة إلى عربة، فقد أجاد دراسة العلوم مجتمعة.» كما

(١) - جيرو؛ بوسويه. ١٩٣٠، ص١٣٩ V. Giraud,Bossuet,1930

(٢) - عين فونتنل سكرتيراً دائماً لمجمع العلوم في باريس وقد كتب بصفته هذه مقالات تقريظية رائعة عن أعضاء المجمع السابقين. [المترجمان]

وصفه أيضاً من ناحيته الانسانية: «كان دائماً السيد المطلق في منزله، لأنه كان يتناول الطعام دائماً وحده. ولم ينظم وجباته في أوقات معينة، ولم يعش حياة بيتية، بل كان يستحضر من أي بدال ما يجده عنده للغذاء. وكان ينام أغلب الوقت مستلقياً علي مقعد، ومع ذلك كان يستيقظ مبكراً موفور الراحة مكتمل النشاط. ثم يبدأ على الفور في الدراسة؛ وعاش أشهراً بتمامها دون أن يترك مقعده...» وكلما تقدم العمر بليبنتز تجلت حقيقة هذه الصورة. إنه يعيش وحيداً. تخلى عنه أولئك العظماء الذين كان يعتمد عليهم في تنفيذ أغراضه. -ولما أصبح «منتخب هانوفر» ملكًا على انجلترا في يناير من عام ١٧١٤، رفض الناس خدمات ذلك الشيخ المريض. ولما كان لايتردد على المعبد ولايقترب من القربان فقد عدوه ملحداً وخاصمه الرعاة. وتوفى في ١٤ نوفمبر من عام ١٧١٦؛ فدفن بغير احتفال ولاشهود ولاشفقة: «كأنهم يدفنون قاطع طريق، لارجلاً كان فخر وطنه».

فلنحلق في سماء الخيال- لقد مرت لحظة بدت فيها وحدة الكنيسة وشيكة التحقيق، لحظة من اللحظات التي «قل أن يجود بها عصر بأكمله». «إن يد الله لم تنقبض»، هذا ما دبجه ليبنتز إلى مدام دي برينون في ٢٩ سبتمر من عام ١٦٩١؛- «إن الامبراطور يميل إلي التوحيد، والبابا إنوسنت الحادي عشر وجماعة من الكرادلة ورؤساء الكنيسة، ورئيس القصر المقدس ورجال اللاهوت، قد أبدو آراءهم في هذا الموضوع، بعد قتله دراسة، بشكل يدل على تمام التأييد والتحبيذ. ولقد طالعت بنفسي نص الرسالة التي كتبها الأب نوايل الرئيس العام لجماعة الجيزويت والتي يستحيل أن تكون أدق وأوضح من ذلك، ويمكن القول بأنه إذا كان ملك فرنسا والأساقفة ورجال اللاهوت الذين يشير إليهم، ينضمون إلى هذا المشروع، فسيكون ممكن التنفيذ بل وشيك التحقيق. وهكذا تتحقق الوحدة، وتستصلح الكاثوليكية، وتعود البلاد الجرمانية واللاتينية إلى اتحادها الروحي الوثيق، وتنضم الأراضي الواطئة وانجلترا بدورها إلى كنيسة رومانية وإصلاحية في

نفس الوقت، ويقاوم المؤمنون، كل المؤمنين، قوات التفرقة والتشتيت التي تهدد الايمان».

ولنهبط الآن إلى ميدان الواقع. نجد البروتستانت والكاثوليك يعجزون عن الاتفاق، لقد مضت السانحة المناسبة، وأخفق أمهر الرجال وأكثرهم عناية وسهراً في المهمة التي أخذها على عاتقه، وابتهج أعداء المسيحية وانتصروا. فما أشد الدمار، وما أكثر الخراب!

يريد البعض إبدال إله إسرائيل وإسحق ويعقوب بإله مجرد، هو في جوهره نظام الكون، ولعله الكون نفسه. وذلك الاله المتخيل لاقدرة له على المعجزات. إن المعجزات تنم عن أهوائه أو تكشف تناقض أفعاله، وبذا فهي لاتؤيد وجوده بل تنكره. ولم يعد للسلطة قيمة، أما التقاليد فكاذبة، وأما الارتضاء العالمي فلايمكن إثباته، وحتى إذا أمكن إثباته، فلا شيء يمنع من أن يكون ملطخاً بالضلال. وشريعة موسى لم تعد تقدر الكلمة التي أملاها اللّه عليه في جبل سينا وسجلت بتمامها على الفور، بل هي قانون بشرى مازالت فيه آثار للشعوب أورثتها العبريين، وعلى الأخص آثار المصريين. والكتاب المقدس لايفترق عن غيره من الكتب، فهو حافل بالتزوير زاخر بالتبديل والتحوير، لايعدو كونه عدة أضابير ضم بعضها إلى بعض بوساطة أياد غير ماهرة، وبفعل عقول غير صقيلة لم تعن بالتواريخ، حتى لقد أخذت البداية على أنها النهاية في بعض الأحيان. فلم يعد الكتاب المقدس يبدو إلهياً. وجعلت السلطة الملكية تفقد أيضاً صفتها الآلهية. وأعلن الناس ضدها الحق في العصيان. وأبدلت علامة الايجاب بعلامة سلبية في كل مكان. ولما توفى لويس الرابع عشر، كان الابدال يبدو وشيك الاكتمال.

وما من شك في أن العقائد التي كان يستند عليها المجتمع القديم، وعلى الأخص المسيحية، لم تتعرض يوماً لمثل هذا الهجوم. في عام ١٧١٧ يستسلم

سويفت[١] لنوبة من السخرية التي اعتادها فيقول: «إنه لخطر وحماقة أن تتكلم ضد إلغاء المسيحية، في زمن أجمعت فيه كل الأحزاب على القضاء عليها، الأمر الذي يثبتونه قولاً، وكتابه، وفعلاً. فالدفاع عن المسيحية، وتبيان أن إلغاءها لايتم إلا لقاء بعض المحظورات، ولاتنجم عنه العواقب الطيبة المرجوة، لابد من أن يكون مشروع عقل شاذ...» إن كلمة سويفت هذه، تترجم عن اضطراب الضمائر المسيحية، عندما تشاهد نتائج حركة تخريبية طالت خلال سنين، حركة لم تشن هجمات صغيرة خفية، بل هاجمت علنا، في وضح النهار.

إلا أن أوربا لاتحب الخرائب؛ بل هي لن تحتملها أبداً إلا كنزوة عارضة، تجعل منها زينة لحدائقها ومغانيها؛ لالشيء إلا لتبرز، بتناقضها، روعة نماء الأشجار ونضرة الأزهار. لقد توقف أكبر الارتيابيين، من بين العقول التي تتبعنا نشاطها، أمام خطر الانكار المطلق nihilisme، الذي كاد يوقعهم فيه شكهم. إنهم لم يتذوقوا «تلك الراحة التامة، بالنسبة للإرادة أو بالنسبة للادراك»، الراحة التي كان «بيرون» يرى فيها الحكمة والسعادة[٢]: فإذا كان عقلهم قد مال بهم في بعض الأحيان إلى جانب أسباب التفنيد le contre أكثر مما مال إلى جانب أسباب التأييد le pour، فإن إرادتهم مع ذلك لم تضعف ولم تستسلم. فلقد أعلنوا جميعاً أنهم لم يدمروا البناء القديم إلا ليشيدوا بناء آخر، قد رسموا مشروعه، ووضعوا أساسه، وأقاموا جدرانه، إبان قيامهم بعملية التدمير. تدمير، وفي نفس الوقت إنشاء من جديد. فإذا نحن أردنا أن نتم فهم الرجال الذين عاشوا وسط هذه الأزمة الخطيرة، فعلينا أن نراهم الآن في محاولتهم الإنشائية الإيجابية.

---

(١)- ج. سويفت: برهان يثبت أن إلغاء المسيحية في انجلترا قد لايحدث، فيما نحن فيه من ظروف، إلا لقاء بعض المحظورات، وربما لاتنجم عنه العواقب الطيبة المرجوة منه في عام ١٧٠٨، J.Swift, an argument to prove that the abolishing of Christianity in England may. as things now stand, be attented with some inconveniencies, and perhaps not produce those many good effects proposed thereby. written in the year 1708.

(٢)- موريري، القاموس، باب بيرون Pyrrhon.

القسم الثالث

محاولة الإنشاء من جديد



الفصل الأول

لوك ومذهب التجربة[1]

لم يكن إذن من بدء الرحلة الطويلة من جديد، وتوجيه القافلة البشرية إلى طرق أخرى، صوب أهداف أخرى.

وكان الواجب يقضي بادئ ذي بدء، باجتناب مذهب الارتيابية، الذي كان بايل نفسه يخشاه. «المناقشة في كل أمر دون اتخاذ قرار إلا إرجاء الحكم»، هذا ما يؤدي إلى الخمود، بل إلى الموت. فمذهب الارتياب، ولو أنه معوان صادق يضمن للعقل حريته في الاختيار، قد انتهى به الأمر إلى القضاء على الإرادة، بل إلى قتل كل احتمال في الاختيار. فالأمر لا يتعلق بالمناقشة غير المجدية، والموازنة بين ما للشيء وما عليه، le pour et le contre بل يتعلق بالاسراع نحو أقاصي السعادة.

لقد شرح فونتنل لتلميذته المركيزة [2]- وهما يتأملان النجوم سويًا- أن الفلسفة تقوم على أمرين: أن لدينا ذهنًا مستطلعًا وعيونًا كليلة. حتى إن الفلاسفة يقضون حياتهم في عدم التصديق بما يرون، وفي محاولة إدراك مالا يرون: وتلك حالة لا تطاق. وقد كان الأوفق ألا نشغل البال بما لا نرى، وأن نصدق بما

---

(١) - L'Empirisme.

(٢) - أراد فونتنل أن يشرح فلسفته في أسلوب شائق ممتع، فقدمها في شكل محادثات بين فيلسوف ومركيزة تتتلمذ عليه. والكلام الذي أورده المؤلف مقتطف من كتاب فونتنل «ابتسام العقل»... Fontenelle: Le Sourire de la Raison

نـرى. وإن مـنهـجـاً للحيـاة يحقق هذين الشـرطين، ليكون خيـراً للناس، فإنه ينقذهم من الشك.

ولتحقيق هذا الغرض، يتدخل لوك.

* * *

لقد ظهر في الوقت المناسب، كرجل مصلح محسن، لأنه أثبت قيمة الواقع وسمو فضله. ولا نقصد الواقع التاريخي الذي أنكر وأدين وألغى. إذ تلك مسألة لا يستطيع امرؤ أن يعود إليها، فقد بت فيها. فالوقائع المفقودة في غياهب ماض لا بعث له، لم تعد تصل إلى الناس، إذا أرادوا أن يعيدوها إلى وضح النهار، - إلا سيئة التفسير، مزورة، كأنها بالكذب ملطخة؛ فلم يستطع ذوو العقل السليم أن يثقوا بها. لم يكن بد من يقين آخر، وجون لوك هو الرجل الذي كشفه.

ذلك أنه يبين للمفكرين الحقائق السيكولوجية، الكامنة في النفوس، حية، لم يعتورها فساد. والعقل، في هذا الميدان، يعين ولا يشل؛ فهو ليس ملزماً - مهما أوتي من حذر - بتسجيل معارف أولية تبعد عن متناول النقد فحسب، بل يجد أيضاً غبطة في الكشف عن ظروف نشاطه الخاص، التي كان يجهلها. هكذا يقبل العقليون تحالفاً ينقذهم من الشك؛ فالتفكير في القرن الثامن عشر، الذي تمتد جذوره إلى القرن السابع عشر، - عقلي rationaliste في جوهره، بالاتفاق.

كان لوك يبدو وكأنما قد خلق خصيصاً ليكون فيلسوفاً بحق. فهو أولاً انجليزي: ولذا فهو عميق التفكير. ثم إنه لم يقنع بدراسة الميتافيزيقا، بل درس العلوم التجريبية، الطب؛ فقبلما ينشغل بالروح، اهتم بمعرفة الجسد: وهذه حيطة طيبة أهملها الخياليون. وقد شارك في الشئون العامة، فكان كاتم سر للورد أشلي Lord Ashley كونت شافتسبري وموضع ثقته، ثم فقد هو وسيده حظوتهما لدى الملك، ونفي إلى هولاندة، ثم رجع ظافراً مع وليم أورانج، فكان من أولئك الذين أسسوا انجلترا الجديدة، التي لا تغلب. ولكنه كان عاقلاً في قناعته بالوقوف في

الصف الثاني، فقد استطاع بتواريه قليلاً أن يشاهد ما جبل عليه الناس من ختل ودهاء. ولما كان مسقاماً عليلاً، فإنه لم يستغرق في الحركة والنشاط بالمتعة التي يجدها الأشداء: بل تصرف بتحفظ وحكمة كأنما ليحسن التفكير. وقد زادته رحلاته مرونة، فقد قام طويلاً في جنوب فرنسا دارساً عن كثب ذلك الشعب الذي ليس كريهاً، وإن بدا غريباً: فدرس أخلاق الفرنسيين، وغذاءهم، وكيف يفكر منهم من يفكر، وكيف يعمل منهم من لا يفكر؛ وكيف كانوا يصنعون تلك المنتجات اللذيذة التي لا توجد في انجلترا؛ الزيت والنبيذ؛ وكيف ولماذا كان فلاحهم تعساً. وقد صادق في باريس الأطباء والفلكيين ومختلف العلماء، والبحاث والقلقين les inquiets. ولكن هولاندا كانت أنفع له، إذ صح أنه لا مدرسة أكثر فائدة ولا أقسى من مدرسة المنفى. ولما طرد من بلاده ودار في بلاد «الملجأ» تائهاً معاشراً دعاة الاصلاح، والخوارج، ومعارضي الأرثوذوكسية، رجع إلى مدرسة التفكير. وأخيراً أصبح مربياً، وهذا أيضاً نوع من التعليم؛ ولأي تلميذ! لابن لورد أشلي- شافتسبري، الذي سيطالب قريباً بمكانه بين أعلام الفلسفة الجديدة. وجون لوك رجل مهذب gentleman لعدم زهوه بعلمه، ولبعده عن العجرفة، ولبساطته وحكمته، (باستثناء بعض نوبات من الغضب الشديد) ولأنه محبوب في الحياة كما هو في كتبه، ولما يزدان به خلقه من نبل طبيعي. وهو لا يشبه الأستاذ ذا الرداء التقليدي والقلنسوة المربعة في شيء؛ لا يتيح له صدره الضعيف أن يصيح من فوق المنبر، بل هو يخاطب الدنيويين في إسهاب وأناة. فالفلاسفة الحقيقيون سيكونون فيما بعد من الدنويين؛ لن ينتخبوا- إلا فيما ندر- من بين رجال الدين، ومن بين أساتذة السوربون أو السابينزا: بل سيندمجون في الحياة لكي يديروها.

❊ ❊ ❊

ابتدأ بفلسفة المشائين التي درسها في أكسفورد ولم يستسغها. وظل مدة طويلة، يبحث عن طريق، متخذاً من باكون وغاسندي وديكارت أدلاء: ولكنه لم

يكن يثق إلا بنفسه. في شتاء سنة ١٦٧٠ - ١٦٧١، بينما كان يتحدث في الفلسفة مع بعض أصدقائه، وجد أنه كان في حاجة إلى قاعدة أكيدة؛ فمبادئ الأخلاق والدين المنزل لا يمكن أن تقوم على أساس سليم، مالم «نفحص مقدرتنا الشخصية ونعرف أي الموضوعات تقع في متناولنا وأيها فوق إدراكنا.» إذن، لا بد من أن نقدر قوات الادراك بالتدقيق قبل أن نشرع في أي خطوة أخرى؛ ولا ينبغي أن نعيش على الاحسان، ولا أن نركن في كسل إلى آراء الناس، ولا أن نهتم بما إذا كنا في حماية أفلاطون أو أرسطو، ولا أن نقسم بأقوال الأساتذة؛ بل العكس يجب أن نجعل من الحقيقة هدفنا الوحيد، وأن نتوسل إليها بروح الفحص. إنك تجد، في بداية حياة لوك الذهنية، نفس هذا العزم على الاستقلال، ونفس هذه الحاجة إلى التجديد، ونفس هذه الرغبة في ألا يعتمد إلا على تفكيره الذاتي، وهذا ما كان يختمر في الضمائر إذ ذاك.

إن هذا المنهج ليس من فعل رجل منعزل. بل يخيل إلينا أننا نسمع أولئك الأصدقاء الذين يسألون لوك، لأنهم في حاجة إلى أن يطمئنهم؛ ويفوضون أجدرهم بإيجاد فلسفة تسكن ارتيابهم، وهم بذلك إنما يترجمون عن مقتضيات زمنهم. إن لوك قد استدعاه زمنه. إن لوك قد استدعاه زمنه؛ إنه ظل طول مدة تعليمه على صلة مباشرة مع معاصريه، مستمعاً إلى سؤالهم، ذلك السؤال الخالد الذي أصبح عويصاً، لأن الأجوبة التقليدية لم تعد تكفي وهو : ما هي الحقيقة؟ Quid Est Veritas? عليه أن ينطق بهذه الحقيقة الجديدة. وبدأ منذ عام ١٦٧١ يسطر على الورق بعض الأفكار التي سرعان ما كونت مجموعة كان يمكنه أن يطلع بها على الجمهور كما هي عليه؛ ولكنه سينتظر قرابة عشرين عاماً في استكمالها وتجربتها، مطلعاً خاصة أصدقائه على مخطوطه: لا منعزلاً بل اجتماعياً.

كان يفكر ويشتغل، ويعمل شيئاً على استكمال مذهبه، سواء في طرق فرنسا، في الفنادق؛ أو في لندن في وسط ضجيج السياسة؛ وفي أكسفورد ملجئه

العزيز؛ وفي روتردام وأمستردام وكليف. وأخيراً عندما شرح نظرياته، شهد الناس أن لديه قدرة نادرة على إضفاء الحيوية على أي موضوع يطرقه. لأنه لم يقتصر على الفلسفة المحضة، بل كان يروق له أن يبدي رأيه في الدين وفي السياسة وفي البيداجوجيا؛ وكلما نشر كتاباً أثار أصداء لا نهاية لها. لست أرى رجلاً غيره، لم يكتب شيئاً إلا بدا جوهرياً، سوى جان جاك روسو؛ الذي كان يثير دائماً اشتعالاً كلما تكلم في الدين أو السياسة أو البيداجوجيا. إلا أنك لا تجد لدى لوك- الذي تخفى رصانته لهيبه- تلك الحرارة التي يشعل بها روسو كل من يقربه. ولكنه استشعر قبل روسو، نداء الضمائر فاستجاب إليها: هنا سر قوته الفعالة. إن كتبه تبدو كمحادثات تؤثر على القارئ ولا تسمح له بالانصراف إلا مقتنعاً، فهي تقنعه بالتكرار مائة مرة، وتكسبه في صبر وأناة، إن ألفاظها تطوقه وتستبقيه. أما وسائله فهي الأدب الرشيق، وجزالة الأسلوب، وشيء من التدفق الواضح. فالغموض، والاغراق في التركيز، والتغالي في التعمق ليس من شأنه؛ بل هو لا يقبل غير الواضح المبين؛ ويتألم عندما يجادل روحاً ميتافيزيقيا كروح مالبرانش. «يجب الاعتراف بأن لدى هذا الفيلسوف تعبيرات كثيرة لا تقدم لعقلي أفكاراً واضحة بينة، ولذا فهي ليست سوى أصوات لا تستطيع أن تأتيه بأي نور ...»- «هنا أجد نفسي أيضاً في ظلام كثيف ...»- «يخيل إلى أن أي كاتب يجشم نفسه مشقة التعبير عن أفكاره في غموض، لم يكن لينجح كما نجح الأب مالبرانش هنا ...». ما أبعد لوك عن هذا الغموض!- «بما أني لم أقصد من نشر هذا الكتاب، إلا أن أكون مفيداً بقدر ما أستطيع، فقد اعتقدت أني ملزم بجعل كلامي واضحاً مفهوماً بقدر الإمكان، لكل أنواع القراء. أفضل أن يشكو أصحاب العقول النظرية والثاقبة من أني أضجرهم في بعض صفحات كتابي، على أن يعجز بعض الأشخاص الذين لم يألفوا المطالعة العلمية والمجردة- أو الذين أشربوا معارف تناقض ما أقدم لهم- عن إدراك معنى كلامي أو فهم أفكاري ...»

ذلك هو شعوره وتلك هي طريقته. أفلم تكن أيضاً علامة من علامات الزمن، هذه الإدارة الصريحة في ألا يقصد المؤلف إخصائي الفلسفة فحسب، وأن

يغضب عند اللزوم العقول «النظرية الثاقبة»، بل يخدم كل الذين يبحثون عن قاعدة صالحة للحياة؟

* * *

وأخيراً ظهر كتابه في عام ١٦٩٠، تحت عنوان متواضع، «مقال عن الإدراك الإنساني» An Essay concerning human understanding. ومهما قال أولئك الذين لا يحبون في الفلسفة «الألعاب الكبرى» أي الموضوعات العميقة فإنه كان تاريخ تبدل قطعي، تاريخ اتجاه جديد. لقد أتيح للإنسان منذ ذلك اليوم أن يتخذ من ثروة العقل الإنساني اللانهائية موضوعاً لأبحاثه. يقول لوك: فلندع تلك الفروض الميتافيزيقية: ألم نر أنها لم تؤد أبداً ألى نتيجة؟ ألم نتعب من أسئلتنا غير المجدية؟ من استطاع أن يحدد طبيعة الروح وجوهرها؟ أن يبين أي حركات يلزم أن تثار في عقولنا الحيوانية، أو أي تبدلات يجب أن تحدث في أجسامنا لكي تولد- بوساطة أعضائنا- مشاعرنا وأفكارنا؟ إن الجسد يخضع للروح، إن الجسد يؤثر على الروح: وما تكاد الميتافيزيقا تتدخل حتى يصبح هذا الواقع التجريبي، الذي هو واضح كل الوضوح في ذاته، سراً لم يعمل العلماء إلا على زيادة غموضه، فلندعه؛ فلا مدعاة للاهتمام به. إذا كانت هناك جواهر خارجية عنا (ولا شك في أنها موجودة)، فليس لدينا أي وسيلة لندرك حقيقة كيانها، فلماذا نحاول إدراكها بأي ثمن؟ فلندع فيما بعد هذا البحث المؤيس الذي لا رجاء فيه.

إن اليقين الذي نحن في حاجة إليه موجود في نفوسنا فلننظر إلى هذه النفس، ونحول عيوننا عن ذلك الامتداد اللامتناهي الذي يخلق السراب ولنركز بصرنا عليها. أما وقد عرفنا أن إدراكنا محدود، فلنقبل حدوده هذه؛ ولندرسه كما هو، ولنعرف كيف يعمل. فلنلاحظ كيف تتكون أفكارنا وتتركب، وكيف تحتفظ بها ذاكرتنا، فقد كنا نجهل ذلك العمل الاعجازي حتى الآن. هنا نجد المعرفة الصحيحة، المعرفة الأكيدة الوحيدة. وما أغناها بالمرئيات حتى لا تكاد الحياة تكفي للتأمل فيها:

«إن مثلنا في هذا الصدد مثل البخار الذي يركب متن البحر. يفيده جداً أن يعرف طول حبل مسبره، وإن كان المسبر لا يكفيه دائماً لتعرف مختلف أغوار المحيط: يكفيه أن يعرف أن الحبل من الطول بما يكفي ليصل إلى القاع في بعض أرجاء البحر التي تهمه معرفتها لكي يحكم رحلته، ولكي يجتنب مواطن الخطر. فإن شأننا في هذه الدنيا ليس أن نعرف كل شيء، بل أن نعرف ما يتعلق بتوجيه حياتنا. فإذا كنا نستطيع أن نجد القواعد التي يمكن لمخلوق عاقل كالإنسان- بالحالة التي هو عليها في هذه الدنيا- أن يستعملها، ويجب أن يستعملها، ليدير مشاعر وما يتصل بها من أفعال؛ - أقول، إذاً كنا نستطيع أن نصل إلى هذا الحد، فلا ينبغي أن ننزعج لوجود أشياء أخرى فوق متناول إدراكنا [1]. »

أو فلننقل بألفاظ أخرى- (لأن لوك لا يخشى أن يكرر كلامه): ماذا علينا أن نفعل في هذه الدنيا؟- معرفة الخالق بما نستطيع أن نعرفه عن المخلوق؛ معرفة واجباتنا، ومواجهة مقتضيات حياتنا المادية. ولا شيء غير ذلك. ومهما كانت قدرتنا ضعيفة غير صقيلة فقد خلقت متناسبة مع هذه الاحتياجات، إذن، فلندع البحث عن معرفة كاملة مطلقة بما يحيط بنا من أمور تخرج عن متناول المخلوقات الفانية، ولنقنع بما نحن عليه، ولنفعل ما نستطيع أن نفعل ولنعرف ما نستطيع أن نعرف...

والواقع، أنه ما يكاد عقلنا يحاول الخروج عن دائرته المحدودة للاتجاه صوب العلل، حتى نرى أن هذا البحث لا فائدة له إلا أن يشعرنا بقصور معارفنا: إذ نصطدم بسياج من الظلام. وعلى النقيض، لو أننا قنعنا بالدائرة المخصصة لنا- كالرواد المتواضعين، لاكتشفنا عالماً من العجائب، ولظفرنا بالحكمة، والسعادة. فهل يجب أن نتردد في الاختيار؟ لنطلّق المستحيل، فلن نخشى السقوط في الهوة إذا أحكمنا قبضتنا على الوقائع الأكيدة التي يمكن أن تتناولها أيادينا مهما كانت ضعيفة.

(١) - عن إدراك الإنسان- مقدمة- ترجمة بيير كوست، Pierre Coste.

والقيمة الابداعية لفلسفة لوك ليست في إطراح الميتافيزيقا، وهو ما قبلته ضمائر عديدة من قبل، بل هي في تحديد جزيرة والاحتفاظ بها في لجة المحيط الهائل الذي يزيغ فيه البصر.

* * *

وفوق ذلك فإن عليه أن ينظم هذه الأرض التي يريد إنقاذها من الارتياب ينبغي أن يعد المعرفة المسلم بها l'a priori كأنما لا وجود لها: يا للتغير ... ! يجب أن يبدأ كل الفلسفة من جديد على صورة أخرى، كل الفلسفة، منذ أرسطو إلى أحدث الفلاسفة، فلاسفة مدرسة كمبردج المعروفين باسم الافلاطونين الجدد Néo-Platoniciens[1]، و «كادورث» والآخرين، الذين يدعون بعث الأفكار. لا توجد أفكار غرزية. فـفكرة الأبدية ليست غرزية؛ ولا فكرة اللامتناهي، ولا فكرة المماثلة، ولا فكرة الكل ولا فكرة الجزء، ولا فكرة العبادة، ولا فكرة الله. حين يبدأ المخلوق في الحياة، من المستحيل أن نميز فيه تلك الحقائق المزعومة التي لا ندري من أين جاءت، ولعلها مخترعات تفكير نظري قد اتخذ صوراً عديدة، من يوناني إلى مدرسي وحديث، ولكنه لم يقدم لنا سوى كلمات. فلنطرح تلك الأشباح. إن الفكر لوحة بيضاء تنتظر نقش الحروف عليها؛ إنه غرفة مظلمة تنتظر وصول أشعة الشمس.

هناك عنصر إيجابي لبناء كل شيء من جديد: الاحساس. إنه يأتي من الخارج، يصدم الفكر، ويوقظه، وسرعان ما يملؤه. وهو يقدم لنا أكثر الأفكار تركيباً وتجرداً مما ينتج من عمل النفس على أساس معارفها الذاتية، بعد ترتيبها والوصل بينها. بالإحساس، لاشيء أسهل من بناء نظرية عن المعرفة، بديهية كانت

(١) - Néo- Platoniciens مذهب فلسفي ظهر في الاسكندرية في القرن الثالث بعد المسيح، وكان من أبطاله فلوطن Plotin وبورفير ... وهذا المذهب يخلط أفكار أفلاطون ببعض أفكار صوفية. (المترجمان)

أو بيانية، تهيء لنا يقيناً ثابتاً مكيناً. فالنسبة لم تعد بين الفاعل والموضوع (أي النفس والأشياء)، بل هي أبسط من ذلك بكثير، وبين الفاعل والفاعل (أي النفس والنفس)؛ وبذا، لم يعد الكفاح ضد أسباب الضلال إلا مسألة داخلية، اتخاذ بعض التحوطات والاحتفاظ بها. مادام العقل ليس له موضوع آخر لتفكيره واستدلاله إلا أفكاره الخاصة، وهي الشيء الذي يتأمل أو يستطيع أن يتأمل فيه، فإنه بديهي أن كل معرفتنا لا تستند إلا على أفكارنا ... «يبدو لي أن المعرفة ليست إلا إدراك ما بين فكرتين من أفكارنا من اتفاق أو اختلاف ... » حتى إن علمنا، علمنا البشري، محتمل كل الاحتمال ومؤكد كل التوكيد في نفس الوقت.

فلنسلم للوك بمبدئه هذا عن الاحساس الغرزي، نجده على الفور يعيد بناء علم الأخلاق من جديد. نحن نشعر بالمتعة وبالألم، ومن هنا نكتسب فكرة المفيد والمضر، وتتبعها فكرة المباح والمحرم، وبالتالي فكرة أخلاق لا تستند إلا على حقائق سيكولوجية، أخلاق لها لنفس هذا السبب صفة يقينية، لم تكن لتتوافر فيها لو أنها قامت على بعض التزام خارجي. فبما أن اليقين ليس إلا إدراك ما في أفكارنا من تناسب وتنافر، وبما أن البيان ليس إلا إدراك هذا التناسب باستعمال أفكار وسيطة: وبما أن أفكارنا الأخلاقية- كالحقائق الرياضية سواء بسواء- مجردات يؤلفها الفكر؛ فلا يوجد فرق نوعي هذه وتلك والاثنتان أكيدتان.

هكذا يستعاض، رويداً رويداً، عن الوضع الدجماطيقي بنظرية تقوم على التجربة، وتكشف وتسجل كل أفعال حياتنا السيكولوجية. ما أصل اللغة؟ هل وضع الله فينا ذلك الترجمان الاعجازي ببعض أسباب من مشيئته؟ نحن لا نعرف عن هذا شيئاً، ولكننا نعرف جيداً أن للإنسان أعضاء مهمتها النطق بأصوات مفصلة، وأنه يترجم بفضل تلك الأصوات، عن التبدلات التي تشعر بها حساسيته، وأن الكلمات تصبح علامات خاصة، ثم عامة للأفكار. هذه كل البلاغة وهذا كل فن الكتابة؛ فليكف الناس عن التحدث إلينا عن أبحاث في الأسلوب أو في فن الشعر، مالم تستند على هذه الملاحظات البسيطة. إن الكاتب

الذي يعرف مصدر الكلمات ومهمتها، سوف يتجنب استعمال الكلمات التي لا تتضمن أي فكرة واضحة؛ وسوف يستعملها بشكل ثابت، وإلا خلط بين الأفكار التي ليست هذه الكلمات غير علامات لها، وسوف يتجنب الحذق والدهاء والتفخيم: ذلك التغرير. بما أن المقصود من اللغة هو أن ندخل أفكارنا في ذهن الغير، فالذي يجيد الكتابة، ويجيد الكلام هو من يستعمل وسائل الأسلوب في هذا الغرض. فالنحو نفسه ليس من عمل بعض العلماء الأدعياء، الذين يفرضون أهواءهم على تلامذة مساكين، بل له منطقة الخاص، ويجب إقامته على أساس الاحساس.

لأن يشاهد الانسان نضج التفكير البشري، وفي نفس الوقت قيام العقائد التي تتيح له حياة سعيدة، واعيًا أنه لاشيء إلا ويتولد من أفعاله الخاصة سواء في ذلك العلم أو الأخلاق أو الفن: أهناك منظر أجدر من ذلك بتهيئة الاهتمام والسعادة والزهو للمشاهدين؟ ولا نقصد زهو ذلك الذي يتحدى الآلهة، مادمنا لا نستطيع أن نعد من يعترف بجهله، ويرتضي هذا الاستسلام الهائل، من بين الموقفين، إلا إذا ضحينا وصغرنا من شأنهم. وإنما نقصد الابتهاج الذي يشعر به رجل كان مشرفًا على الغرق في الأغوار، ثم توصل إلى الشاطئ فبنى كوخًا بيديه الحكيمتين القديرتين. إن العنوان الذي اختاره لوك يبدو متواضعًا؛ فالأمر لا يتعلق إلا «بمقال» Essay؛ ولكنه مقال عن الإدراك الإنساني: عجيبة العجائب. إنه يتضمن مبدأين فقط: تأثيرات الأشياء الخارجية على الحواس، وعمل الروح الذي يتلو هذه التأثيرات. وهذه المبادئ، إذا وقفنا على نشاطها، ودرسناها وحللناها، تكفي لإشباع حب استطلاعنا؛ إلى هذه الدرجة تأتي بالمعجزات، وإنها لمعجزات حقيقية. سيتوالى كثير من العلماء قبل أن نعرف على التحقيق ما الإرادة، والذكريات، وصور الخيال. إن الادراك منجم لا يفرغ، يعطي معدنًا صافيًا، صفته لا تخدع. «عندما يتعمق الناس البحث إلى أبعد مما تسمح لهم مقدرتهم، مستسلمين في عرض ذلك المحيط الواسع حيث لا يجدون قاعًا ولا شاطئًا، فلا عجب أن يكثروا من الأسئلة، ويضاعفوا المشاكل التي لا نفع لها بما أنها لا يمكن أن

تجد حلاً واضحًا اللهم إلا اضطراد شكوكهم وازديادها، ووقوعهم آخر الأمر في ارتياب محض. » وبالعكس،

«إن معرفة عقلنا وحدوده تكفي لعلاج الارتياب والاهمال الذي نستسلم إليه عندما نشك في مقدرتنا على كشف اليقين».

* * *

يمدح لنا بيير كوست التوفيق الذي لاقاه مؤلف الأستاذ، في المقدمة التي دبجها للطبعة الثانية باللغة الفرنسية: «مقال فلسفي عن الإدراك الإنساني» (١٧٢٩): «إنه أروج مؤلف لواحد من أعظم العباقرة الذين ظهروا في انجلترا في خلال القرن الأخير. لقد نشرت منه في حياة لوك أربع طبعات بالانجليزية خلال عشر سنوات، وبما أن الترجمة الفرنسية التي نشرتها في ١٧٠٠ جعلته معروفًا في هولاندا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا، فقد اشتهر في هذه البلاد شهرته في انجلترا، إذ لم ينقطع الناس عن التعجب مما يسود هذا الكتاب من أوله إلى آخره من عمق وسعة معلومات ودقة ووضوح. وأخيراً فإن مما يرفع هذا الكتاب إلى ذروة مجده، مالقى من تقدير في أكسفورد وفي كمبريدج، حيث يدرسونه ويشرحونه للشباب كأصلح كتاب لتهذيب عقولهم وتنظيم وتوسيع معارفهم؛ حتى إن لوك يحتل الآن مكان أرسطو وأشهر شراحه في هاتين الجامعتين الشهيرتين. »

إن رواج كتاب فلسفي لمغامرة فكرية كبيرة على الدوام: أما رواج كتاب لوك فقد تم بسرعة لم يسبق لها مثيل. لقد استفاد لوك من الوسطاء الذين أوجدتهم تحت تصرفه التبدلات التي حدثت في أوربا. وكان صحفيو هولاندا أول من نادوا بشهرته؛ وعلى الأخص جان لي كلير، في «المكتبة العالمية»: مقتطفات من كتاب انجليزي لم يظهر بعد، عنوانه مقال فلسفي عن الادراك الانساني، يشرح فيه المؤلف مدى معارفنا الأكيدة وكيفية الوصول إليها. » هناك منفيان، أحدهما دافيد مازيل، والثاني بيير كوست الذي لم ينقطع الناس عن ذكره كأنه ظل للمؤلف- فسر أحدهما تفكيره السياسي والثاني تفكيره الفلسفي. مات لوك في عام ١٧٠٤؛ ومنذ

عام ١٧١٠ قدمت ترجمة «مؤلفاته المختلفة» إلى الجمهور الفرنسي جوهر ما كتبه. وفي ألمانيا، قرأ توماسيوس «المقال الفلسفي» نحو عام ١٧٠٠، فجعل منه هذا الكتاب أحد المبشرين بعهد الأنوار: إن لوك يقف في منحنى الطرق الأوروبية التي تقود إلى العصر الجديد.

والحق أن تفكيره قد تعرض لبعض التبدلات. فهما كان هذهبه يقوم على التجربة والحس، فإنه أوحى مع ذلك بمثلية بركلي Idélisme [١]: وعلى كل، فإن ذلك لا يعد أكبر مغامراته غير المنطقية؛ لأننا، إذا صرفنا النظر عن النقطة التي بدأ منها، وعشنا في داخل نظريته الفلسفية، لوجدنا أنفسنا لا في عالم الحقائق بل في عالم النسب والصلات. لم يرد، بأي ثمن كان، أن يدمجه الناس مع الماديين، بل كان على النقيض يؤكد وجود كائن أبدي، جوهر مفكر، لا حد لحكمته؛ وكان في بيانه المسهب الدقيق صفة من الاصرار بل من التعاظم؛ إذ يثبت فيه أن المادة لا يمكن أن تشترك في الأبدية مع روح أبدية [٢]. ولكنه قال عرَضاً- وكأنما قد فتنته الفكرة التي كونها عن عظمة الله وجلاله- إن الله في قدرته، على كل حال، أن يعطي «لبعض كتلة من المادة- إذا وجد ذلك مناسباً- قدرة الادراك والتفكير ... [٣]» وكانت هفوة، هاجمها اللاهوتيون في الحال، هفوة استشفها فولتير [٤] واستغلها،

---

(١) - مذهب فلسفي يعتبر الأشياء صوراً عقلية لا أجساماً مادية. (المترجمان)

(٢) - مقال فلسفي ... القسم الرابع، ١.

(٣) - مقال فلسفي ... القسم الرابع، ٣.

(٤) - فولتير: قال لوك بكل تواضع: «لعلنا لن نستطيع أن نعرف ما إذا كان مخلوق مادي صرف يفكر ولا يفكر.» ... مثل المعتقدين بالخرافات في المجتمع مثل الجبناء في الجيش: يمتلكهم الرعب بلا داع. لقد صاحوا إن لوك يريد أن يقلب الدين رأساً على عقب ... لكن الأمر لم يكن يتعلق بالدين قط في هذه المسألة؛ بل كانت المسألة فلسفية محضة مستقلة قطعاً عن الإيمان والوحي. ما كان علينا إلا أن نفحص بلا مرارة ما إذا كان هناك تناقض بين قولنا: تستطيع المادة أن تفكر، وقولنا: إن الله يستطيع أن يعطي التفكير للمادة. لكن اللاهوتيون يقولون في الغالب إننا نهين الله لو لم نكن على رأيهم ... «رسالات فلسفية»، رسالة ١٣ عن لوك- والقاموس الفلسفي لفولتير: باب الروح Lettres Philoso-phiques,"sur M. Loke". (المترجمان)

وأذاعها، حتى انتهت إلى تأويل معكوس لمؤلفه كله: أصبح لوك مادياً برغمه. لكنه كان يريد أن يكون مسيحياً، وكان التمييز بين العقل والإيمان مما يشغله كثيراً: ففائدة العقل «كشف اليقين أو أرجحية المحمولات والحقائق التي يتوصل إليها الذهن باستنباط مستمد من الأفكار التي يكتسبها باستعمال مقدراته الطبيعية أي بالإحساس أو بالتفكير» - أما الإيمان فهو «تقبل كل قول لا يستند هكذا على استنباط العقل بل هلى الثقة بقائله، على تقدير أنه يأتي من قبل الله ببعض اتصال خارق للعادة. هذه الطريقة في كشف الحقائق للناس هي ما نسميها بالوحي». إذن فقد كان مؤمناً بالوحي، بالرسالة الالهية للمسيح، بسلطة الانجيل، بالمعجزات؛ كان يعتقد أن أشد الناس وسوسة، وأغرقهم في الارتياب، لا يمكن أن تخالجهم ذرة شك في الوحي الانجيلي: وهذه كانت ألفاظه بالذات. ولكن بما أنه كان- من جهة أخرى- يلخص العقيدة إلى نهاية صغرى: الإيمان بالمسيح والتوبة؛ وأنه كان يقول إنه لا يشترط شرط آخر لانقاذ الأرواح إلا قبول رسالة المسيح، والتزام سلوك طيب؛ وبما أنه كان يرفض الاعتقاد بأن كل سلالة آدم قد حكم عليها بعذاب أبدي لا نهائي من أجل خطيئة الرجل الأول، الذي لم يسمع عنه قط ملايين من الناس. فقد كانوا إذ ذاك يعدونه بين ناكري الوحي ويشبهونه بتولاند، ويضعون مؤلفه «المسيحية المعقولة Chritianisme raisonnable» بجانب «المسيحية دون أسرار»: وكان ذلك يؤلمه أعمق الألم، لأنه إنما كان يقصد على التحقيق أن يرد الإيمان إلى أولئك الذين نبذوا الدين بفعل آلية التقاليد وغموض العقائد وتباين المذاهب؛ ولأنه إنما كان يريد أن يثبت أن الدين الطبيعي لا يكفي في ذاته؛ ولأنه أخيراً إنما على التحقيق يريد إفحام المعترفين بالله الناكرين للوحي، Deistes، المتذرعين في إنكاره بالمبادئ العقلية.

هذه هي عواقب ومحذورات تفكير لم يكن متسقاً على الدوام- تفكير هيأ الفرص باختياره لمخالفيه، ولكنه بالرغم من التفسيرات الخاطئة، والانحراف والتيارات المضادة، استمر مؤلفه يعمل في اتجاه كان من السهل إدراكه. ظل لوك الرجل الذي يدعو الحكماء ألا يزرعوا إلا في حديقتهم. حديقة للزراعة: هل

يحتاج الانسان إلى أكثر من ذلك لكي يتوهم أنه في الفردوس؟ أو على الأقل ليروح عن نفسه، وليجد بواعث على الحياة؟- ظل لوك على الأخص الرجل الذي لفت الأنظار إلى ألزم لعبة وفي نفس الوقت أمتعها: السيكولوجي. دراسة محركات العقل البشري؛ والملاحظة والفهم بدلاً من الحكم والادانة: إنه لعمل ومتعة تناولها كوندياك Condillac، فالايديولوجيون (علماء الأفكار والتصورات)، ثم تاين Taine بالصقل والتهذيب، حتى وصلتنا ولا زالت تشغلنا وتسحرنا.

الفصل الثاني

الاعتراف بالله وإنكار الوحي[1] - والدين الطبيعي

هاك أيضًا إحدى الصلات القوية العديدة، التي تربط ما بين النهضة والزمن الذي ندرسه ربطًا مباشراً. لقد أتى هذا المذهب- الاعتراف بالله وإنكار الوحي- من إيطاليا ومن ثم هاجر إلى فرنسا منذ القرن السادس عشر حيث استقر؛ ذلك لأنه اتخذ هناك عناوينه الصريحة القاطعة، ولأن بيانات توالت بلا انقطاع محاولة إيضاح وتحديد كيانه الغامض. واستبان كثيراً في النصف الأول من القرن السابع عشر، ثم لم يعد يعيش إلا في الظلال.

ولكن فرعًا انجليزيًا انفصل عن الشجرة الأصلية؛ كتب إدوارد هربرت، بارون دى شربري، في باريس عام ١٦٢٤، إقراراً بمبادئ هذا المذهب، لا يحمل مسحة الانكار والتجديف، بل الاحترام والتقوى وشيء من التصوف «إني أنبهك من البداية، أيها القارئ العزيز إلى أني لست لك حقائق الإيمان، بل حقائق الإدراك...» لا ريب في ذلك. بيد أن هناك حقائق دينية يتقبلها الإدراك، وتلك كانت طبيعة المبادئ المذهبية للبارون هربرت دى شربري: هناك قدرة سامية- يجب أن نعيدها؛ ومباشرة الفضيلة جزء من العبادة التي يؤديها الناس لله؛ وبالتوبة نكفر عن الجرائم والطغيان؛ وسيلقى الإنسان بعد هذه الحياة العقاب أو الثواب.

---

(١) - Le Déisme.

ولما انتقل هذا المذهب إلي انجلترا، ازداد وازدهر في هذا الوسط الجديد. إذ وجد الأرض والسماء التي توافقه، فهو يشعر كأنه في بيته. واحتدمت المعارك، علنًا، كأنما على قارعة الطريق، بين محبذيه ومعارضيه. وذهب به تولاند إلى أقصى درجات المغالاة في التعصب. وقام ضده بنتلي وبركلي وكلارك وبتلر وواربرتون يدافعون عن الدين المنزل: والخلاصة أنه، «ما من بلد تحدد فيه الدين الطبيعي واتضح أكثر من انجلترا ... [1]»

وبعد حين، عندما يتقاذف الأفكار المد والجزر، ستتقبل فرنسا الدييزم [2] من جديد، إذ سيبدو لها موشّى بصفة أجنبية. سيقتبس فولتير منه فلسفته الدينية، وسيصور جان جاك روسو، في شخص اللورد إدوار بومستون [3]، الرجل «الديست» المثالي، رجلا ماديًا وفاضلاً في نفس الوقت. ولكنا لم نصل بعد إلى زمن تمجيده، بل ما زلنا في الوقت الذي يكافح فيه ليثبت أقدامه. ويسير علينا أن ندرك صفاته السلبية: «لا ينبغي أن نغضب أنفسنا؛ فما من شيء يخالف ذوق عصرنا أكثر من ذلك [4]». كان هناك دين يرغمنا، دين كاثوليكي أو بروتستاني أو يهودي، واناس يوقفون هذا الارغام. لم يعد أي قسيس أو راهب أو حاخام يدعى الاستحواذ على السلطة. لم تعد هناك أسرار مقدسة، ولا شعائر، أو صيام، أو تعذيب للنفس؛ ولا إلزام بالحضور إلى الكنيسة، أو المعبد. لم يعد للكتاب المقدس قيمة خارقة للطبيعة؛ لم تعد هناك أسفار، ولا وصايا. لقد دخل الدييزم في دائرة التسهيلات المتزايدة التي يقتضيها الزمن. بدل الناس من صورة الله؛ فهم لا يريدون

---

(١) - المكتبة الانجليزية، ١٧١٧ القسم الأول، ٣١٨.

(٢) - من أجل ضرورات الترجمة اضطررنا إلى استعمال كلمة «الدييزم» محل «مذهب المعترفين بالله الناكرين للوحي»

(٣) - Lord Bomston صديق سان برو Julie في رواية جوليا أو (هيلويز الجديدة). القصة التي أكسبت روسو شهرة لم يكن لها مثيل. (المترجمان)

(٤) - الأب بوفييه Buffier مبادئ الميتافيزيقا في متناول الجميع ١٧٢٥ ص ٩٢.

غضبه، ولا انتقامه، ولا حتى تدخله في سير الأمور البشرية. فلم يعد الله يبدو مضايقًا، بل أصبح بعيداً متوارياً. إن معنى الخطيئة، ولزوم الغفران، والارتياب في شأن السلام، التي طالما عكرت صفو الضمائر على مر العصور، لم تعد تقلق أبناء الناس.

ولكن ترى ما هي الصفات الإيجابية للدييزم؟

* * *

إذا كان الدييزم ينكر إله إسرائيل، إله ابراهيم ويعقوب فهو على الأقل لا يزال يعتقد بوجود إله. وإذا كان ينكر الدين المنزل، فهو على الأقل لم يرد أن تكون السماء فضاء خاليًا، ولم يرض أن يجعل الانسان وحده مقياسًا للكون. حتى إنك لترى في بعض الأحيان تعبيراً أقل جفاء أو نعتًا أرق حاشية، ينزلق بين الكلمات التي كان الكاثوليك والهوجونوت والانجليكان يؤاخذون بها أنصار الدييزم: كرجال يشتركون في العقيدة الأولى والأخيرة، مع نفس الذين يناقضونهم: الإيمان بالله. انظر كيف يتكلم ميشيل لى فاسور القسيس (بجمعية الأوراتوار) الذي أراد أن يدافع عن شرف الجمعية المتألمة من موقف ريشارد سيمون، فنشر في هذا الغرض في عام ١٦٨٨ مؤلفًا ضخمًا «عن الدين الحقيقي»: «بعض أنصار الدييزم الذين هم أكثر حكمة وبصيرة من أعضاء الأكاديمية والأبيقوريين، يعترفون بسلامة نية بأن هناك مبادئ دينية وأخلاقًا طبيعية، على الرجل أن يتبعها. ولكنهم يضيفون أن هذه المبادئ كافية وأننا لسنا في حاجة إلي الوحي ولا إلى الشريعة ليعرفنا بواجباتنا نحو الله ونحو إخواننا. وإننا لنستطيع أن نسير بفضل العقل؛ وسيرضى الله دائمًا، إذا تبعنا المشاعر الدينية والأخلاقية التي بثها في نفوسنا ... [1]» هكذا يرى هذا المادح الكاثوليكي، أن بعض أنصار الدييزم

(١) - عن الدين الحقيقي، الكتاب الأول، الفصل السابع.

(بعضهم، لأن الفئة تتضمن أنواعًا جد مختلفة)- لا يمثلون إنكاراً مطلقًا، بقدر ما يمثلون انحرافًا مؤسفًا.

ولنأخذ الآن رأي البروتستانت. لقد خصص العالم روبرت بويل، الذي يحزنه سريان عدم التصديق، ريع منزل يملكه في لندن لمؤتمرات سنوية قد حملت اسمه: مؤتمرات دينية، لا تقصد تأجيج النزاع بين المذاهب- بل تقوية المبادئ العامة للإيمان: «تبيان البراهين التي تؤيد صحة الدين المسيحي، والذود عنها ضد هجوم غير المؤمنين، مثل الكفار، وأنصار الدييزم والوثنيين واليهود والمسلمين، ودون مساس بأوجه الخلاف بين المذاهب المختلفة للمسيحية.» لقد لقيت «محاضرات بويل» Boyle Lectures نجاحًا عظيمًا؛ ودعى للاشتراك فيها أكبر رجال اللاهوت في انجلترا وأفصح الخطباء، وكان بينهم صامويل كلارك، الراهب إذ ذاك في أسقفية نوريتش، والذي نال مرتين شرف الاشتراك في هذه المحاضرات في عام ١٧٠٤ وفي عام ١٧٠٥ فإذا يقول عن أنصار الدييزم؟ إنهم أربعة أنواع. أولئك الذين يتظاهرون بالإيمان بوجود كائن أبدي، لامتناه، مستقل عاقل، ولكنهم ينكرون العناية الالهية. - وأولئك الذين يؤمنون بالله وبالعناية الالهية، ولكنهم يزعمون أن الله لا يبالي بأفعال الانسان، طيبة كانت خلقيًا أو سيئة؛ فالأفعال لا تعد طيبة أو سيئة إلا بمقتضى قوانين بشرية وضعت بطريقة تعسفية- وأولئك الذين يؤمنون بالله وبالعناية الالهية، وبالصفة الالزامية للأخلاق، ولكنهم لا يعتقدون بخلود الروح وبالآخرة.

«وهناك نوع آخر من أنصار الدييزم لديهم- من كل النواحي- أفكار سليمة وصحيحة عن الله وعن صفاته كافة. إنهم يفاخرون بالإيمان بوجود كائن واحد، أبدي، لامتناه، عاقل، قادر على كل شيء، كامل الحكمة، خالق، حفيظ، هو السيد المطلق على الكون...»

إن أسلوب صامويل كلارك هنا شبيه بأسلوب ميشيل لى ... ور: إن بعض المعتدلين من أنصار الدييزم ما زالوا يحتفظون بعناصر دين إيجابي؛ لكنهم لسوء الحظ ينكرون الوحي.

والآن، إذا سألنا رجلاً مدنيًا، لا دينيًا- مثل درايدن Dryden اللبق الرقيق- فهل نخطئ في ظننا أننا نجد في أشعاره بعض الادانة؟ ولكنها إدانة مخففة وكأنها مشفقة، لأنه واع أنه لا يزال هناك شيء من التدين لدى عدد كبير من أنصار الدييزم.

صادف داريدن أنصار الدييزم أولئك، في تتبعه للفلاسفة الذين عبروا عن رأيهم فيما يخص الخير الأسمى Summum bonum ووصفهم كما يلي: «يعتقد نصير الدييزم أنه يقف على أرض ثابتة، أوريكا[1]! لقد انكشف السر الزعظم!- إن الله مصدر الخير، المصدر السامي الكامل- أما نحن فقد خلقنا للخدمة، وسعادتنا في خدمته- فإذا كان كذلك، فلابد من أصول للعبادة- توزعها السماء على كل الناس بالقسطاس- ولو لم يكن الأمر كذلك لكان الله مغرضًا ولكان البعض يحرم- من الوسائل التي من العدل أن يفيئها على الجميع- وقوام هذه العبادة الشاملة حمد الله، والابتهال إليه- واقتراض الحسنة منه، ثم ردها- وحينما تنزلق طبيعتنا الضعيفة في الخطيئة، - يكون التفكير في التوبة- ومع ذلك، فما دمنا نشهد أن العناية الالهية- توزع خيراتها، في تفاوت، على الجنس البشري- ومادامت الرذيلة تنتصر في هذه الدنيا بينما تذوى الفضيلة- (عار ولا شك، لا يستطيع العدل السامي أن يتحمله)- فإن عقلنا يوجهنا إلى حالة مستقبلة حيث تستبين كل طرق الله الصالحة-

---

(١) Euréka- : لفظ يوناني معناه «وجدتها!» وكلمة أصبحت مشهورة، وهي التي صاح بها أرشميدس لما كشف فجأة- وهو يستحم- قانون الأجسام الطافية (نظرية الماء المزاح). وكان أرشميدس يفكر في ذلك الوقت فيما كلفه به الملك هيرون- ملك سيراكوز- أي في تحليل سن ... ن الذهب مشتبه في خلطها بالفضة. فوجد في أثناء استحمامه- أن أعضاء جسمه تفقد من وزنها حين يغطس في الماء، وترفع الماء أي تزيحه بكمية تتناسب مع الوزن... كان هذا ضوءاً قاده إلى كشف تلك القاعدة التي اشتهرت باسمه: وخرج من الحمام وطار في الطريق يصيح: أوريكا... ! وجدتها... ! (الترجمان)

استئناف سام ضد الحظ وضد القدر- سوف يعاقب الأشرار وسوف يجزي الأخيار- هكذا سيصعد المرء بفضل قدرته الخاصة إلى السماء، - دون أن يكون ملزماً قبل الله بالتزام آخر ... [1]» فأنصار الدييزم الذين يصفهم درايدن على هذا المنوال عقليون، لكنهم عقليون، يشعرون بحنين إلى الدين.

فالدييزم، - كما يتبين لنا من كتب ذلك الوقت، يضعف فكرة الله: ولكنه لا يمحوها. إنه يجعل الله موضع عقيدة غير معينة، ولكنها إيجابية. وهذا يكفي لكي يحتفظ أشياعه بشعور من التفوق على إخوانهم الأشرار، الكفار؛ يكفي لكي يصلوا لله ويعبدوه، لكيلا يشعروا أنهم منعزلون، ضائعون، يتامى؛ ويكفي لكي يجد رعاة سافويا فيما بعد [2]، Les Vicaires Savoyards عندما تضيء الشمس جبالهم، سر تلك المكاشفة القلبية، ويؤمنوا من جديد بالدموع. إنه لعسير على المرء أن يكفر بالله في قسوة ووحشية، ويسير عليه جداً أن يؤمن بالله وينكر الوحي. إن العصيان التام، الانكار المطلق يتطلب شخصيات غير عادية. يقول بايل «لا فرق

(١) - الدين الدنيوي Religio Laîci، ١٦٨٢، الفقرات من ٤٢ إلى ٦٣.

(٢) - إشارة إلى مؤلف جان جاك روسو «إقرار بالإيمان لخوري من سكان سافويا» Profession de foi du Vicaire Savoyard وهذا الاقرار من أبدع صفحات كتابه المشهور «إميل» -الجزء الرابع- يشرح فيه على لسان راهب أفكاره الفلسفية والدينية ويدرس المسألة الدينية من حيث صلتها بالأخلاق والسعادة، ويبين لنا لزوم دين شخصي يقوم على أساس مشاهد الطبيعة وعلى أساس (الروح الالهية) التي يكشفها المرء لا بعقله بل بالحس والضمير. لذلك يعد «الاقرار» هجوماً على المادية والكفر وليس هجوماً على التقاليد المسيحية. ولقد كتبه روسو في أسلوب قوى جميل حتى أصبح كتابه يعد من أروع صفحات الأدب الفرنسي، وحتى أصبح «الاقرار بالإيمان» إنجيلاً لأشياعه قال عنه فيكتور كوزان V. Cousin إنه أفخم مؤلف في القرن الثامن عشر، ويقول بيير تراها ر Trahard في مؤلفه: «أساتذة الحساسية الفرنسية» إنه سيأتي يوم يظهر فيه جان روسو في نظر الكنيسة كرسول بعثته السماء لينقذ من الدين ما يمكن إنقاذه. أما عن جملة «عند ما تضيء الشمس جبالهم» فإن راهب سافويا يحدث زميله فوق جبل مرتفع بالقرب من جبال الألب، في يوم من أيام الصيف، حينما تضيء الشمس قمم الجبال بأشعتها الساطعة ... عن «الاقرار بالإيمان» أنظر كتاب بيير موريس ماسون: «دين جان جاك روسو»، الجزء الثاني، P.M. Masson, La Religion de J. J. Rousseau, Hachette, 3 Vol. 1916 (المترجمان)

تقريباً بين الكفار وأشياع الدييزم، لو فحصنا الأمور بالدقة». ولكن ما أكثر المعاني التي يمكننا أن نضمها تلك الكملة «تقريباً»! ويقول بونالد: «إن نصير الدييزم لم يتح له بعد الوقت الكافي ليكون كافراً». أما نحن، فيخيل إلينا، بالعكس، أنه رجل لم يشأ أن يكون كافراً.

لا عجب أن ينضج الدييزم في بلد اعتاد سكانه إيقاف تفكيرهم عند النقطة التي يريدونها؛ حيث يحطمون فيه قوة المذهب إذا زاد عن حده وأصبح خطراً يهدد أخلاق الشعب. فلنصدق بشهادة معاصر: «يعد الانجليز دائماً شعباً على استعداد طيب لقبول مشاعر الدين والفضيلة؛ وبالرغم من أننا لا يسعنا إلا أن ندهش لما نراه من تقدم الكفر والرذيلة بيننا، إلا أن أملى أن ذلك لن يكون إلا مرضاً مؤقتاً، لأنه لا يتفق وعبقريته هذا الشعب[1]». إن عبقرية الشعب لا تتعجب ولا تتأثر من تحديد اختياري، أو من تناقض. السماح لدين دون أسرار! إن الشعب يترك السر ويحتفظ بالدين. فالتفكير عند الانجليز ليس مسألة منطق فحسب، بل مسألة إرادة أيضاً.

* * *

إن أشـــياع الدييزم يحتفظون- بجانب ذلك- بفكرة الاذعان لقانون: قانون الطبيعة.

كان الكاثوليك يعترفون بوجود هذا القانون: Est in homnibus Lex quaedam naturalis participatio videlicet legis aeternae, secundum quam boum et malum discernunt [2] يوجد في قلوب الناس شيء من القانون الطبيعي، أي اشتراك في القانون الأبدي، الذي يفرقون به بين الخير والشر... وكان البروتستانت يعترفون أيضاً بهذا القانون بكل رضا لأنهم كانوا أقرب من الكاثوليك

---

(١) - ريشارد بلاكمور: مقال عن موضوعات عديدة، ١٧١٦، الجزء الأول.

(٢) - القديس توما الأكويني Saint Thomas d'Aquin في كتابه المشهور: Summa théologica ويعد هذا القديس أشهر لاهوتي كاثوليكي وأكبر فلاسفة المسيحية في القرن الثالث عشر. (المترجمان)

إلى المذهب العقلي، ولأنهم كانوا أكثر استعداداً لأن يقطعوا جزءاً من الطريق بجانب الفلاسفة، سواء لاقتناعهم، أو للزوم التوفيق بين الدفاع عن الدين ومقتضيات الزمان. ولم يكن العون الذي يقدمه لهم الدييزم هنا يستحق الاستخفاف: لأن في ذلك العون مقداراً معادلاً من الفوز على الكفار، الذين ستأخذهم الدهشة والارتباك.

ولكن لا يكاد الناس ينظرون في فكرة «الطبيعة» هذه عن كثب، حتى تظهر آراء مختلفة لا يمكن إنكارها. وكانت على الأقل ثلاثة آراء.

أول شيء لم يستطع الكاثوليك ولا البروتستانت أن يقبلوه، هو أن هذه الطبيعة الجريئة، - بدلاً من أن تقنع بكيانها وليدة السبعة الأيام، وأن تدين بجمالها «للذي» استخرجها من الفناء- تستبدل بمكانها رويداً رويداً مكان الخالق؛ تصبح وسيطاً له، بل تعمل نيابة عنه، بل تصبح النظام نفسه، ذلك النظام السامي يجب على الله أن يجاريه؛ وأن تصبح «الكائن»: لقد رأينا فيما سبق بأي استنكار استقبل تفكير سبينوزا.

والشيء الثاني الذي لم يستطع المؤمنون أن يقبلوه، هو أن تكون الطبيعة نوعاً من الغريزة الأخلاقية تستطيع أن تقوم وحدها مقام الدين بأكمله: فلا يكون الدين حينئذ إلا صلة بين القوانين الطبيعية والانسان، ولا شيء غير ذلك.

والشيء الثالث: إذا اعتقدنا أن الطبيعة «أم رءوم» كما يقول لاهونتان؛ أو كما يقول شفتسبرى: Nature has no malice؛ وأنه يكفي لعمل الخير أن نتبع القوانين الطبيعية: فما الرأي في الخطيئة الأصلية وما تلاها من فساد؟ وماذا يعني لزوم تخليصنا؟ أفلا تكون الحياة إذن امتحاناً مؤقتاً نكافح في أثنائه ضد المبادئ السيئة التي نحملها في أنفسنا، حتى نحظى بالجنة؟

ماهي الطبيعة؟ لقد عرض هذا السؤال بكل ما فيه من شدة- كما عرضت إذ ذاك كل الأسئلة الأخرى- لأولئك الشجعان الذين لم يسمحوا- أيًا كان الحزب الذي ينتمون إليه- بالالتجاء إلى الحيل أو اللف والدوران. لأنهم كانوا يتحرقون

إلى الحقيقة، وكانوا جميعاً يكافحون في سبيل النور. كلما صعبت المسائل بدت لهم جديرة بالفحص. ما هي الطبيعة؟- سرعان ما تحققوا من أن هذه الكلمة قد اتخذت مختلف المعاني، وبذا، كانت تسبب «لبساً فظيعاً في كلام الجهال وفي كلام العلماء على السواء». إن الطبيعة حكيمة. إن الطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً. إن الطبيعة لا تتجاوز غايتها أبداً. إن الطبيعة تفعل الأصوب دائماً. إن الطبيعة تسلك أقصر طريق. إن الطبيعة لا تبدو أبداً مسرفة فيما لا لزوم له، ولا عاجزة فيما يلزم ويفيد. إن الطبيعة حافظة بذاتها. إن الطبيعة تعالج الشرور. إن الطبيعة تحرص دائماً على حفظ الكون. إن الطبيعة تكره الفراغ... ما أكثر تلك الأمثال السائرة التي لا صلة بينها ولا مناسبة! وما أكثر التفسيرات المتناقضة غير المتناسبة، التي تتعلق كلها بموضوع واحد: خالق الطبيعة، جوهر شيء، نظام الأشياء، شيء مثل نصف إله، وغير ذلك كثير[1].

لم يستطع الناس التوصل إلى اتفاق، ليس أكثر من قبل، ولا أكثر من بعد. ولكن هذا كان مثاراً لألمهم. إن روبرت بويل- الذي أشار إلى هذا الارتباك في الألفاظ التي ذكرناها، والذي رجا أن يحاول الناس إدخال بعض النظام على الطرق المختلفة لتفسير هذه الكلمات، - لم يكن يبحث عن تعريف قطعي، بقدر ما كان عن احتجاج ضمير مسيحي، مخافة أن تنتشر بين الناس عادة ابدال الله بالطبيعة، واحتج بايل ضد الفكرة السخيفة- التي كان من حظها أن تنال نجاحاً غريباً فيما بعد- فكرة أن الناس طيبون بطبيعتهم. الطبيعة؟ أولاً لم يلاحظ أحد المشاعر التي تولدها في قلوب الناس بالضبط. «لا توجد كلمة نستعملها بطريقة مبهمة أكثر من كلمة «طبيعة». إنها تدخل في كل أنواع الكلام، حيناً في معنى، وحيناً آخر في معنى غيره، ولم تتوقف أبداً عند فكرة معينة. ولكن مهما كان الأمر، فإنني أعتقد أن أولئك الذين يجيدون التفلسف سيعترفون بأنه ينبغي أولاً- لكي نتأكد عما إذا كان

(١) - روبرت بويل، عن الطبيعة ... لندن ١٦٨٦، Robert Boyle, De ispa Natura, sive libera in receptam naturae notionem disquisitio, Londini, 1686.

هذا الشيء أو ذاك موحى به إلينا من الطبيعة- أن نعرف ما إذا كان الفتيان يعرفونه دون مساعدة أي تعليم. ولا أظن أننا لم نجر تجارب لمعرفة ماذا يحدث في ذهن رجل لم يتعلم شيئًا بعد. لو أننا ربينا عددًا من الأطفال، بمعرفة أشخاص يكتفون بتغذيتهم، دون أن يعلموهم أي شيء، لعرفنا ما تستطيع الطبيعة أن تفعل وحدها، ولكنا لا نعرف إلا أشخاصًا تعهدناهم منذ المهد وجعلناهم يعتقدون بكل ما نريده»- ثم إننا لا نكاد نفتح عيوننا ونسرحها فيما حولنا، حتى نضطر إلى الاعتراف بأن «طبيعة» و «طيبة» ليستا مترادفتين «إننا نرى في الجنس البشري أشياء بالغة السوء. مع أن أحدًا لا يستطيع أن يشك في أنها من فعل الطبيعة ... أرى أن أنقى الآباء وأكثرهم ميلاً إلى تربية أبنائهم طبقًا للمبادئ الانجيلية، لا يستطيعون أن ينجحوا في كبت الميل إلى الانتقام، وإلى النفاق، وإلى المقامرة وإلى الفحشاء ... [1]» أو كما يقول أيضًا: «أنبهكم إلى أن شرلوك يفترض أن الارتضاء العام للجنس البشري هو صوت الطبيعة، ولذا فهو صفة أكيدة لليقين. وإذا كان هذا يثبت شيئًا فإنما يثبت أنه إذا أمكن أن نجعل شيئًا كصوت للطبيعة، فهو أنه ينبغي أن ننتقم، وأن نشبع شهواتنا الحيوانية تمامًا كما نرضي الجوع والعطش ... »[2] إذن، لم يكن ليكفي أن يتكلم الناس عن الطبيعة ليظنوا أنهم قد وصلوا إلى مصدر الطيبة، مصدر الفضيلة ...

إلا أن أشياع الديزم كانوا يقنعون بالاعتقاد بأنهم يعملون مختارين في اتجاه القوة الغامضة التي تضمن حفظ الكون ونظامه. ولما كانوا يعبدون إلهًا بلا أسرار، فقد كان يخيل إليهم أنهم يذعنون لقانون إيجابي. بل كانوا يعتقدون أحيانًا أن الأديان المنزلة هي التي تسيء إلى الاله الحقيقي، بإبدال «فكرته» بصور ليست طبيعية بل مصطنعة، ألفها رجال مغرضون، خادعون، واستمرت بفضل الخرافة.

* * *

(١) - بيير بايل: جواب على أسئلة قروى، الجزء الثاني، الفصل ١٠٥.

(٢) - بيير بايل جواب على أسئلة قروي: عما هو بالضبط شيء يصدر عن الطبيعة. وعما إذا كان يكفي لكي نحكم على حسن شيء، - أن نعرف أن الطبيعة هي التي أرشدتنا إليه- الفصل ١١١.

لقد تكون بين أشياع الديزم مذهب، «مذهب جديد من العقول القوية أو قوم يفكرون في حرية [1]».

أنظر كيف يستدلون. إنهم يعرفون حرية التفكير بأنها: «إباحة استعمال العقل لمحاولة الوقوف على معنى قول أيًا كان، بوزن وضوح البراهين التي تدعمه أو تناقضه، بمقدار درجة قوتها». إلا أن محكمة الضمير هذه لا تحكم دائمًا بالإدانة- بل تقبل أي شهادة ترى فيها كفاية من الصحة، وتقبل أي واقع يتفق مع قواعد الوضوح والصراحة. إن المفكر الحر Le libre-penseur ينبذ ما يبدو له باطلاً ويحتفظ بما يبدو له صحيحًا، فهو بعيد عن أن يكون ارتيابيًا، بل يؤمن بقوة العقل الفعالة، قوام الحقيقة والعدل.

هنا سر القوة النفسانية التي تحركه: إنه يثق ويرتاح للتفكير في أنه يملك مبدأ من الصحة والبداهة، بحيث يبدو له مستحيلاً أن يضيف إليه شيئًا آخر، يوضح صحته في ضوء أقوى: فإنه أدرك السر الكبير الذي لن يدركه الضعاف. إنه يجد متعة في تكرار الصيغة السحرية التي تقنعه باقتداره على الناس وعلى الأشياء: «إني أفكر في حرية». ما من أحد في الدنيا لم يخطئ؛ أما هو فلم يعد يخطئ أبدًا؛ بل إنه- في نهاية الفحص الدقيق الذي يمتحن به كل شيء يعرض لبصره ولذهنه، - يكشف الحق والخير، جزاء على جرأته التي هيأت له أن يتخلص من الخرافة. إن توكيداته العقلية تمده بالراحة والسعادة التي كان المؤمنون يجدونها فيما سبق في الإيمان: إن العقل لا يخيب، ولا يخيب أملك: Neque decipitur ratio, neque decipit unquam فكروا في حرية، وستفوزون بالباقي، فكروا في حرية، تأكلوا من فاكهة شجرة المعرفة. أما الجبناء والعبيد فسيبقون في الظلام، خارج الفردوس.

---

(1) - أنطوني كولنز: مقال عن حرية التفكير لندن ١٧١٣ Anthony Collins, A Discourse of free-thinking, London,1713 – مقال عن التفكير الحر، بمناسبة مذهب جديد من العقول القوية أو أناس يفكرون في حرية- مترجم عن الانجليزية، لندن ١٧١٤. مقال عن حرية التفكير، والاستدلال في أهم المواد، كتب بمناسبة اتساع مذهب جديد من العقول القوية أو أناس يفكرون في حرية، ترجم عن الانجليزية، الطبعة الثانية، لندن ١٧١٧.

«لاشيء يخالف الصواب أكثر من الظن أنه من الخطر أن نسمح للناس بحرية الفحص في أسس الآراء المكتسبة ؛ ولا شيء يخالف الصواب أكثر من الشك في حسن نوايا أولئك الذين يستعملون هذه الحرية . فإلى أن يجد الناس دليلاً أفضل من العقل ، من الواجب عليهم أن يتبعوا هذا النور إلى كل مكان يقودهم إليه» .

فالتفكير الحر سعادة في ذاته ، وهو فضلاً عن ذلك ، وسيلة لتنظيم الحياة في اتجاه السعادة . إنه يفضل التفكير - ولا شيء غيره - يستطيع الناس أن يصلوا إلى معرفة الحياة البشرية تمام المعرفة ، وأن يقتنعوا بأن البؤس والشقاء عواقب الرذيلة ، بينما المتعة والحياة السعيدة دائماً ثمرة الفضيلة . كان شيشرون مقتنعاً بذلك تماماً لما امتدح سعادة الرجل الذي يقوم بواجباته في مرح ، والذي ينظم كل أفعاله باعتناء ، والذي لا يطيع القانون لأنه يخشاه ، بل لأنه يجده رائعاً في ذاته . فالفكر الحر يشعر بأنه لا يصغي إلا لإرادته المستنيرة ، وللقوة المنطقية التي توجد في عقله : إنه سيد نفسه كما هو سيد الكون .

كان أنطوني كولينز أول من أعلن هذه التعريفات عن التفكير الحر ؛ أولاً في المجادلات ، ثم بشيء من التفصيل في مقاله المشهور عن التفكير الحر : Discourse of free thinking في عام ١٧١٣ . حينئذ اكتسب لفظ The Free thinker ولفظ libre- penseur حقوق الرعوية بين الناس . كان هناك رجل مهذب gentleman شهد له الناس بذلك ، كان فيما سبق تلميذاً في إيتون ، ثم درس في كمبردج ، يمتلك - كما يقول لوك - منزلاً في الريف ، ومكتبة في المدينة ، وأصدقاء في كل مكان ، ولا مأخذ على حياته ، ينطق بالوقار Respectability الذي يعده مواطنوه الفضيلة الاجتماعية الأولى ؛ كان هناك رجل مهذب ، ليرث التركة المهوشة التي خلفها المتحررون وأشياع الدييزم ، وليستخلص الرغبات والمبادئ التي تتضمنها ويوضحها . كان المفكرون الأحرار قد بدأوا في ذلك الوقت يمثلون البدع والذوق الحسن ؛ يرثون لحال المؤمنين من كل نوع - الذين لم يزل لهم العدد والنفوذ - ويسخرون منهم . يخاطب أنطوني كولينز صامويل كلارك بلهجة كلها احتقار : إن

صامويل كلارك أورثوذوكسي، وهذا يكفي للحكم عليه. «الشيء الذي أدهشني من السيد كلارك، - الشئ الذي لم أتوقعه منه والذي قرأته في دفاعه- أنه يشتبه في أني قليل الإيمان. إن كل شخص يستطيع أن يكون آراء من هذا القبيل، ويثير شكوكًا لا تشرف مثيرتها، ولا تلقى عند القارئ الشريف البصير إلا أسوأ القبول. لست أعتقد أني ملزم بتبرئة نفسي من شك لا يقوم على أي دليل، ولن أرد على هذا إلا باستشهادي بأرثوذوكسية السيد كلارك. وعلى ذلك أستأذنه، مؤكدًا للجمهور أنه لا يؤمن في كثير ولا قليل، وأنه أورثوذوكسي تمامًا، وأنه سيبقى أورثوذكسيًا طوال عمره». هذا هو التطور الذي حدا بالناس إلى أن يجعلوا الأورثوذوكس، لا قومًا عاجزين على التفكير بأنفسهم، أو عقولاً متأخرة فحسب، بل أشخاصًا يعوقون التقدم؛ وإلى أن يجعلوا المفكرين الأحرار، لا قومًا يفكرون تفكيرًا صائبًا فحسب، بل عقولاً تشارك مشاركة إيجابية في خير المجتمع. لم يعد بمقدور أحد أن ينعي على أولئك الأخيرين أنهم متحررون متهورون، أنانيون، شهوانيون، أو أنهم صعاليك لا حسبان لهم، أفاقون، ساقطون. إن مفكرًا حرًا مثل أنطوني كولينز مثال يحتذى لطهارة الأخلاق واللباقة التي ترفعه حتى في نظر خصومه المتعددين.

إن كولينز يملأ مقاله عن «التفكير الحر» بالنفي والانكار، ولكن أيضًا بالجزم والتوكيد، مهاجمًا أمامه مباشرة، في عناد، دون اهتمام بتفاوت المعاني الذي لا يزعج ذهنه أبدًا- لسبب واضح هو أنه يجهله- ودون التعرض لحجج خصومه. إنه يبدل العلامات: فيضع علامات سلبية محل العلامات الإيجابية، أو العكس: فيقول مثلاً إن الضرورة مبدأ من مبادئ الحرية، وإن المادية تحقق انتصار الفكر. تداول الناس منذ عام ١٧١٤، لما كان لويس الرابع عشر لا يزال على قيد الحياة، ترجمة فرنسية لكتابه؛ وراجت، مادامت قد نالت شرف الطبع مرة ثانية ١٧١٧. يقول لنا المترجم إن لها أهمية عالمية. إلا أن البعض ادعى أن هذا الكتاب إنما كتب

للانجليز، وأنه يقتضي تفسيراً واسعًا لكي يفهمه الأجانب. ولذلك فلايحتمل انتشاره إذا ترجم إلى لغة أخرى. وفي هذا القول خطأ مبين! - «فاليقين والتفكير والعقل ولا وطن لها بل تخص الجميع»- «إن جوهر هذا المقال يهم كل الشعوب».
ولننوه هنا- وليس هذا موضع الغرابة الوحيد- بأن كولينز يغمر معبد «التفكير الحر» بالقديسين. يجب أن يقدس عبدة العقل العظماء الذين شاركوا على مر العصور، في تأسيس المذهب الجديد: - سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وأبيقور، وفلوطرخس، وفارون، وكاتون، وشيشرون، وسنيكا، وسليمان، والأنبياء، والمؤرخ يوسف، وأريجين، وفلكس، ولورد باكون، وهويز، بل حتى سنسيوس أسقف أفريقيا والأسقف تيلوتسون: الذي ولو أنه كان في الحقيقة مادحًا للمسيحية، إلا أن مواعظه كانت ترمي إلى دعم «حرية التفكير» مصحوبة بالدين والفضيلة، وهي ما تشارك مزاولتها في سلام المجتمع ورفاهته. إلا أن كولينز كان في مقدوره أن يضيف إلى أولئك المفكرين الأحرار الذين يشيد بفضائلهم، عدة أبطال آخرين، ولكنه يكتفي بذكر أسمائهم مخافة الاسهاب، ويعد من بينهم إيرازم، ومونتاني، وسكاليجر، وديكارت، وغاسندي، وجروسيوس، وهربرت شربري، وملتون، ومارشام، وسبنسر، وتدورت، وتمبل، ولوك. ويختم قائلاً إنه من الصعب، بل من المستحيل، أن نذكر رجلاً قد امتاز بعقله السليم وبفضيلته، وخلف أثرًا طيبًا، دون أن تعترف في نفس الوقت أنه ترك لنا دلائل على «حرية تفكيره». وبالمثل لا نستطيع أن نذكر عدواً «لحرية التفكير»، مهما كانت منزلته إلا ويكون متعصبًا أو مضطرب العقل؛ أو يبدو جشعًا، غير إنساني، كله رذائل شنيعة؛ والخلاصة أنه لابد من أن يكون على استعداد دائم لأن يقدم على كل شيء بدعوى أنه يعمل في سبيل الله وتمجيد الكنيسة، وأن يخلف آثار جهله العميق ووحشيته، وأخيراً أن يكون عبداً للقسس، وللنساء أو المال...

* * *

ولا يقتصر الأمر على القديسين المدنيين. بل إن تأسيس جمعية فكرية، ووضع مراسيم وأصول تسمح بالتعرف على الأشياع وجمعهم، والعودة إلى الاحتفال بالشعائر والطقوس؛ هي الرغبة التي نشهدها في نهاية التطور الذي تبعنا سيره من لحظة.

يقول سويفت: من يستطع أن يرى في تولاند فيلسوفًا، إذا حرمناه من موضوعه الوحيد، وهو كره المسيحية؟ يصل الأمر بتولاند إلى تنظيم جمعية تجابه الكنيسة، بدافع كرهه للمسيحية، ويؤلف ترنيمه، لا لتمجيد الألوهية، بل لتمجيد الفلسفة، ولكنها ترنيمة على كل حال: أيتها الفلسفة، أنت دليل حياتنا، تقودينا إلى الفضيلة وتطردين عنا كل رذيلة! ماذا كنا نصبح، وماذا كان يصبح كل الناس في أثناء حياتهم، لولا عونك؟- أنت التي شدت المدائن، وجمعت الناس المتفرقين ووحدتهم في مجتمع ... أنت التي اخترعت القوانين، ولقنتينا قاعدة أخلاقنا وعلمتنا النظام. إليك نلتجئ. لأن يومًا واحدًا نمضيه طبقًا لمبادئك أفضل من الخلود ... أي عون ننشده غير عونك، أنت التي منحتنا الطمأنينة في الحياة، وأنقذتنا من رهبة الموت؟ ...

وهو يعلن كراهيته لكل نوع من أنواع العبادة التي يزاولها الناس: ومع ذلك، يعرض دستوراً لجمعية جديدة، سوف يكون الناس بفضلها أحسن وأعقل، وسوف تهبهم المرح وترفعهم إلى أوج السرور. إن محبته للجنس البشري تدفعه إلى تأسيس جمعية «سقراطية»، يضع أخلاقها ومبادئها، وفلسفتها. وسيعقد أعضاء هذه الجمعية اجتماعات سرية؛ فيها أغان، وولائم ونبيذ، حيث يستعملون الصيغ الكنسية. رئيس ينطق بالأشعار ويرد عليه الأشياع. لندخل لحظة، في أثر جون تولاند، إلى قاعة اجتماع أولئك الإخوان، ولنصغ إليهم:

الرئيس:

لكي نكون سعداء.

يجيب الحاضرون:

- نؤسس جمعية سقراطية .

الرئيس :

- فلتزدهر الفلسفة .

جواب :

- مع الفنون الحرة .

الرئيس :

- صه ! فليكرس هذا الاجتماع وكل ما فيه من تفكير ، وقول ، وعمل ، في سبيل أهداف الحكماء : في سبيل اليقين ، والحرية ، والصحة .

جواب :

- فليكن ذلك على مر الأزمان .

الرئيس :

لنعلن أنفسنا أنداداً وإخواناً .

جواب :

- وأيضاً شركاء وأصدقاء ...

حتى إن الرجل الذي كان أشد الناس تحاملاً على الكنيسة ، يبني معبده أمام أبصارنا . فلنذكر أن المحفل الماسوني الانجليزي الأكبر تأسس في عام ١٧١٧ ، وأن أول محفل فرنسي في عام ١٧٢٥ .

الفصل الثالث

القانون الطبيعي

كان هناك القانون الإلهي.

وكان هذا القانون، كما كان الدين - يبدو واضحًا وعظيمًا. كانت السياسة تستند على نفس الأقوال المقتبسة من الكتاب المقدس: وهل أمتن من ذلك؟ «اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد. فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك[1]». إن محبة الله تجبر الناس على محبة بعضهم بعضًا، وهكذا يتولد المجتمع. وأول صور السلطان هي السلطة الأبوية؛ والملكية التي تخلفها، هي أشيع أنظمة الحكم، وأقدمها، وأكثرها تمشيًا مع الطبيعة، لأن الناس بحالتهم الأصلية رعية؛ والسلطة الأبوية التي تعودهم الطاعة، تعودهم في نفس الوقت ألا يكون لهم إلا رئيس واحد. إن الحكم الملكي هو النظام الأصلح؛ وأصلح الأنظمة الملكية هو الذي ينتقل بالتوريث والتتابع، وعلى الأخص حين ينتقل من الذكر إلى الذكر ومن الأرشد إلى الأرشد[2].

هكذا يبنى أسقف «مو» - مربى ولي العهد - بيديه، المظلة التي تؤوي شخص الملك. إنه شخص مقدس، وما من أحد في الدنيا يستطيع أن يمس سلطانه.

(١) - نص العهد القديم، تثنية، ٦. [المترجمان].

(٢) - بوسويه: سياسة مقتبسة من نفس كلام الكتاب المقدس، ١٧٠٩. Politique tirée des propres Paroles de L'Écriture Sainte

ولا يعني هذا أن يكون الملك فوق كل قاعدة: بل يلزمه القانون الإلهي بواجبات أقسى وأثقل من واجبات أقل الناس شأنًا. إن السلطة الملكية مقدسة، ولكنها أبوية؛ إنها مطلقة، ولكنها تخضع للعقل؛ إنها تطبق بمقتضى إرادة عامة، لا بمقتضى أهواء؛ فليرتعد من يملك هذه السلطة العظيمة ويسيء استعمالها، لأنه سيلقى حسابًا عسيرًا يوم الحساب. أما والملك مسئول أمام الله، فهو غير مسئول أمام رعاياه؛ ليس ملزمًا بأن يستشيرهم أو يتبع نصائحهم. والواقع أن نسبتنا إلى الملزمين بالطاعة قدرة فعالة تؤثر على الذين اصطفاهم الله للحكم، مخالفة للمنطق ومخالفة للدين. وهذا المبدأ من القوة بحيث إن الشعوب لا تعفى من الخضوع حتى ولو جهر الملك بكفره، أو أعمل الأضطهاد؛ ليس لديهم سلاح ضد ظلم الأمراء إلا رفع العرائض، دون عصيان أو تذمر، بل بالدعاء لهدايتهم. إن الله يمسك من عليائه بزمام كل الممالك؛ ويحكم الملوك رعاياهم وفق أهدافه الخفية؛ وعلى الرعية أن تطيع تذمر؛ أما الأحداث العابرة التي تفسد هذا الانسجام في الظاهر، فسيتضح لنا أنها تشارك فيه، إذا نظرنا إليها لا بعيوننا بل ببصيرتنا، وتمكنا من تفهمها في تسلسلها.

والآن إذا نحن بحثنا عن صورة لا تشوه هذه العظمة الساطعة، وتناسب هذه الجلالة التي تفوق البشرية، لوجدنا في الحال أمامنا لويس الرابع عشر. إن هذه الصورة الملكية لا تفارق أذهاننا، إنها تلاحقنا وراء الزمان، وتلحق بنا، إنها هنا، إنها حية. وتتذكر حافظتنا تلك الكمات المشهورة التي نطق بها الملك، حتى يخيل إلينا أننا نسمعه يقولها كما حدث في اليوم الذي سجل فيه بداية سلطته الشخصية: «الدولة أنا» l'État, c'est moi. ونحن نعرف أنه أراد أن يحقق كلمات هذا الشعار حرفيًا: «ملك واحد، إيمان واحد، قانون واحد»؛ وأنه حطم كل مقاومة؛ ودافع ضد البابا نفسه – ذلك النوتي الذي يقود سفينة الكنيسة – عن حقوق الربان الذي يحافظ على سلامة السفينة: وكان هو الربان. إنه بطل الملكية. إننا نبحث عنه في

فرسايل، في الردهات والأبهاء، ونتبعه في رواق المرايا، بين رجال البلاط المتبهين لأدق حركاته وسكناته؛ وحينما نترك عند حلول الليل طرق المتنزهات التي خطتها إرادته السامية، نتجه نحو القصر مؤملين أن نجد على إحدى النوافذ، الظل الذي يذكرنا به لا برويير La Bruyére: «هو بنفسه - إذا أبحت لنفسي القول - وزير لنفسه؛ لا وقت لديه للراحة، ولا ساعات خاصة، لأنه أبداً معنى بأمورنا. لقد تقدم الليل، وتبدل الحراس في قصر، ولمعت الأنجم في السماء ودارت في فلكها؛ كل الطبيعة تستريح، بعد عناء النهار، يلفها الظلام؛ ونحن أيضاً نستريح، بينما الملك، قد أوى إلى مخدعه، ساهراً علينا وعلى كل الدولة. . .»

من جهة أخرى، لدعم الفكرة القائلة بأن السلطة كلها ترجع إلى الأمير، كان هناك نظريات سادرة في الإلحاد، توضح أنه لا يمكن حكم الناس إلا بمعاملتهم كما لو كانوا وسائل. مثل نظرية «ماكيافيللي» التي لم ينسها الناس بعد، وإن بعد بها العهد. ومثل نظرية هوبز Hobbes، وهي أقرب. لقد استكملت تلك النظرية الشرسة الوقحة، الموضوعة من عام ١٦٤٢، صورتها النهائية في عام ١٦٥١، كما ظهرت في «اللوياثان» Leviathan[1]. وفرضت نفسها على كل مفكري أوروبا الذين اضطروا إلى أن يحسبوا لها حساباً، حتى ولو ليفندوها. ولكم رأى الناس في أثناء تصفحهم لكتاب عن المذاهب اسم هوبز يظهر فيما بين السطور! يا للدوي الذي أثارته أفكاره! يا لها من أصداء رنانة أبداً!

كان هوبز يخاطب الناس قائلاً: - إنكم مفطورون على الشر. ليس في الدنيا أي مبدأ روحاني؛ لا خير غير المتعة، ولا شر غير الألم؛ ولا هدف غير المنفعة؛ ولا حرية إلا عدم وجود ما يعوق الشهوة. بما أن مبدأ حفظ الحياة قوامه حب الذات، ولما كان كل فرد يدافع عن حقه في الحياة، فالحالة الطبيعية هي حالة القتال

(١) - اللوياثان: تأليف هوبز. وهو وحش مذكور في كتاب أيوب، العهد القديم الأصحاح ٤١، ١. «أتصطاد لوياثان بشص أو تضغط لسانه بحبل». [المترجمان].

بين الناس، أولئك الذئاب. «إن حالة الناس في هذه الحرية الطبيعية هي حالة الحرب؛ لأن الحرب إن هي إلا الزمن الذي فيه يعلن العزم على القتال أو المقاومة بالقوة، بالقول أو بالفعل. أما الزمن الذي لا حرب فيه فهو ما يدعى السلم». أسيتبع ذلك دمار الجنس البشري؟ . . . بالتأكيد، لو لم نصطنع بعض الحيلة لمعالجة شرور الحالة الطبيعية؛ لو لم نستبدل بالمساواة بين الناس نظاماً قوامه عدم المساواة، إذ هو النظام الوحيد الذي يستطيع أن يحميهم من أنفسهم. من هنا يلزم تأسيس هيئة ساسية، تحت سلطة أمير يجب أن يكون - بحكم الضرورة - طاغية.

لن تستطيع المواثق والأيمان إقامة السلام بين الناس، لأنهم يخرقونها على الدوام؛ لا شيء يستطيع أن يكبح غرائز الناس الوحشية، غير القوة والخوف الذي توحيه القوة: وعلى ذلك يجب أن يتقلد الملك سيفاً للقتال وصولجاناً للعدل. يجب أن تتركز في شخصه كل الحقوق المطلقة؛ إن تحديد سلطته بأحد مخترعات الديمقراطية، كالمجالس، يعني تشجيع الفوضى، والسقوط توا من جديد في وهدة الحالة الطبيعية. إن الملك ليس مسئولاً أمام أحد؛ إنه فوق كل قانون، إنه الكل في الكل. لا ريب أننا ننزل له عن الحرية، التي تعتز بها الشعوب إلى حد ما. وماذا في ذلك؟ . . . ما دمنا لا نستطيع التوفيق بين الحرية والحياة، فالأفضل أن نختار الحياة. إن فن الإنسان لإعجاز؛ إنه نجح في صنع حيوانات اصطناعية، تماثيل آلية تمشي وتجلس وتحرك رأسها، وتفتح فمها وتقفل عينها. وبالمثل، نجح الإنسان في تشكيل مجتمع اصطناعي: آلة مروعة، آلة أوتوماتيكية سياسية تقوم لحسن الحظ، مقام المجتمع الطبيعي؛ هذه الآلة الأوتوماتيكية تسمى «لوياثان». «إن المجتمع العالمي الذي أسميه لوياثان، رجل اصطناعي، وبالرغم من أنه أقوى وأضخم من الرجل الطبيعي فهو مكلف بحمايته وتأمينه . . . .»

* * *

ستواجه هذه النظريات الواردة من مصادر شتى - ولكنها تلتقي عند مبدأ واحد هو مبدأ السلطة - نظريات أخرى؛ ستبدأ معركة جديدة: إنها في أول الأمر

معركة المجردات، ولكنها لا تخلو من جمال مؤثر. سنرى الأفكار تتولد، متهيبة، ضعيفة، ترفض لأول وهلة، ثم نراها يشتد ساعدها. ولا تظل إحداها حبيسة في موطنها الأصلي بل تطير وتجتاز الحدود، تلك طبيعتها، تلك حياتها. تبدو كأنها تحيا وتتقوى عندما تصل إلى آفاق جديدة. يهاجمها البعض بلا هوادة والبعض يدافع عنها ويوضحها بلا انقطاع؛ فتنال نصراً يتلوه غزو؛ حتى يأتي يوم تحس في نفسها قوة تحفزها إلى احتلال مكان المبادئ التي ألهمت الماضي، وقيادة الناس نحو مستقبل يأملون أن يكون أفضل. يتولد القانون الطبيعي من فلسفة: الفلسفة التي تنكر ما يخرق الطبيعة، وما هو إلهي، وتستبدل بفعل الله وإرادته الذاتية نظام الطبيعة، القائم بنفسه. ويصدر هذا القانون أيضاً من اتجاه عقلي يتحقق في دائرة النظام الاجتماعي: لكل كائن بشري أهلية تلتحم بتعريفه التحاماً وثيقاً، يصحبها واجب مباشرتها وفقاً لماهيتها. وأخيراً يصدر هذا القانون عن شعور هو: أن السلطة التي تنظم العلاقة بين الرعايا والأمير، تنظيماً تحكمياً - في الداخل - والتي لا تؤدي إلا إلى الحروب في الخارج، يتعين رفضها، وإبدالها بقانون جديد لعله يوصل إلى السعادة: قانون سياسي ينظم علاقات الشعوب، مع فكرة توليها مصائرها بنفسها - قانون الشعوب. . .

القانون، فلسفة الحياة، قيمة اجتماعية، قيمة عملية؛ القانون، جذور عميقة، فروع كثيفة، كيانه لا يتغير دون كبير عناء. هناك مؤلفات عظيمة مناضلة، تقيم الأوتاد على طول الطريق. إن تتبعها، مع ملاحظة تواريخها، لمشاهدة لمجهود جبار، يزداد وعياً، في كل مرحلة، بالحقائق التي يسعى في أثرها.

١٦٢٥ - هوج دي جروت[١]: قانون الحرب والسلام

Hughes de Groot, De jure belli et pacis

إن الذي أعطى الإشارة الأولى، هولاندي لاجيء إلى باريس، . ولما كان موفور الحس، جم المعرفة، وافر الذكاء، ويقف في طليعة المعارك السياسية وفي

(١) - اسم جروسيوس، Hugo De Groot, dit Grotius. [المترجمان].

قلب المنازعات الدينية، فقد كان يتألم من أجل القتال المستمر الذي يخرب أوربا: «كنت أرى في العالم المسيحي إفراطًا في الحروب، لو اقترفه الشعوب البربرية لكان مثارًا لخجلها؛ فالناس يهرعون إلى السلاح لأتفه الأسباب أو دون أي سبب، فإذا تناولوه لم يحترموا أي قانون، لا القانون الإلهي ولا القانون الإنساني، كأنما الغضب الجنوني ينطلق في طريق الجرائم بمقتضى قانون شامل. . .» جروسيوس هذا، الذي جرت عليه أفكاره الاضطهاد، هرب هروبًا روائيًا من السجن الذي سجنه فيه أعداؤه وانتقل إلى فرنسا: وقدم إلى لويس الثالث عشر في ١٦٢٥ كتابه «قانون الحرب والسلام»، كتاب عظيم، يجهله الشعب، كما هو دائمًا شأن كل ما يؤثر في مصيره أعمق التأثير. من يدرس هذا الجزء من القانون الذي ينظم علائق الشعوب أو رؤساء الدول بعضهم ببعض؟ لا أحد، كما يقرر جروسيوس. بل يقول الناس عادة إن الحرب لا تتفق مع أي نوع من القانون؛ وأنه، لأسباب تقتضيها مصالح الدولة - أسباب اخترعها «ماكيافيلي» - يجب أن نفهم وأن نبيح كل غدر وكل عنف. وهذا غير صحيح، فهناك قانون يبقى في أثناء الحرب بل يسود الحرب، وهو القانون الطبيعي. والواقع أن الطبيعة قد نقشته في قلب الإنسان، الذي تريده اجتماعيًا أنيسًا؛ لا شيء يستطيع أن يفوق هذا القانون العرفي، هذا القانون الحيوي. - «لكي تكون الحرب عادلة، ينبغي أن تقوم على روح الإنصاف التي اعتدنا أن نراعيها في توزيع العدل.» - «في أثناء الحرب، تبطل القوانين المدنية: لكن لا تبطل القوانين العرفية التي تفرضها الطبيعة.»

وما القول في القانون الإلهي؟ يحاول جرسيوس أن يحميه. يقول: إن ما قلنا يسري، ولو فرضنا أن لا وجود لله (وهو ما لا يمكن تصوره دون جريمة)، أو أن أمور البشر ليست محل عنايته. أما ولا شك في وجود الله والعناية الإلهية، فهناك منبعًا آخر للقانون، غير الذي ينبثق من الطبيعة: القانون الذي يصدر عن إرادة الله. «إن القانون الطبيعي نفسه يمكن نسبته إلى الله، ما دام الله شاء أن يوجد في أنفسنا مبادئ مثل تلك المبادئ.»

قانون الله، قانون الطبيعة . . . هذه الصيغة المزدوجة، لم يخترعها جروسيوس، بل استعملت قبله بكثير؛ إنها كانت معروفة في القرون الوسطى. أين إذن صفتها الجديدة؟ ولأي سبب ينقدها الناس، ويحرسها الأساتذة والآباء؟ ولماذا تثير كل هذه الضجة؟

وجه الجدة هو في التفرقة بين هذين اللفظين، التي بدأت تتكشف، وفي اختلافهما الذي يحاول أن يندعم، وفي محاولة التوفيق بعد نفاد السهم، التي تفرض فكرة انفصام. وجه الجدة على الأخص هو الشعور الذي سبق ذكره - والذي كان غامضاً إذ ذاك وأصبح قوياً الآن: الحرب، والقسوة، والبلبلة، التي لا يكبحها قانون الله، بل يبيحها، بل يبررها بأغراض تسمو عن مداركنا؛ فلعل قانوناً بشرياً يفلح في تخفيف كل هذه الشرور التي نقاسيها، وفي القضاء عليها. هكذا ننتقل، - مع الاعتذار عن تلك الجرأة - من نظام العناية الإلهية إلى نظام الإنسانية.

وترجم هذا الكتاب، وفسر، وشرح، في كليات القانون طوال القرن.

١٦٧٠ - سبينوزا. بحث لاهوتي سياسي، Tractatus theologico - politicus

١٦٧٧ - الأخلاق، Éthique

ظهرت فكرة أن الملوك دجالون، يستغلون الدين في دعم سلطانهم الجائر؛ ثم فكرة أخرى عميقة، وهي أن: كل كائن لا بد أن يجاهد للابقاء على كيانه.

يكفي أن نذكر في هذا الصدد نص «علم الأخلاق» القسم الثالث، الفرض السادس:

«كل شيء، مهما كان، يجاهد، طالما له كيان، للابقاء على كيانه.»

الإثبات - الواقع، أن الأشياء الخاصة حالات تعبر عن صفات الله بطريقة مؤكدة ومعينة. . . أي أشياء تعبر عن قدرة الله، التي تدل على وجوده، وبها يؤثر

بطريقة مؤكدة ومعينة. ولا شيء يحمل في ذاته دواعي دماره، أي ما يقضي على وجوده. . . بل هو بالعكس يقاوم كل ما يستطيع أن يقضي على وجوده، وبذا فهو يجاهد، - طالما له كيان - للإبقاء على كيانه. هذا هو ما كنا نريد تبيانه.

١٦٧٢ - صاموئيل بوفندورف: ثمانية كتب عن القانون الطبيعي وقانون الشعوب

Samuel Pufendorf, De jure naturae et gentium libri octo.

١٦٧٣ - كتابان عن واجبات الإنسان والمواطن طبقًا للقانون الطبيعي

De officio hominis et civis juxta legem naturalem libri duo

واصل المهمة ألماني - أستاذ في السويد - ووسم أثره الخالد على النظريات التي كانت تتكون في ذاك الوقت. كان صاموئيل بوفندورف أول أستاذ لقانون الطبيعة وقانون الشعوب، في جامعة هايدلبرج. في ١٦٧٠ قبل دعوة شارل الحادي عشر ملك السويد، الذي عرض عليه كرسي الأستاذية في جامعة لوند Lund. - «واجب الإنسان والمواطن»: ما أعجب هذا العنوان في ذلك الوقت! يخيل إلينا أنه يسبق زمنه بمائة سنة على الأقل؛ ولو أننا سئلنا إلى أي تاريخ يرجع، لما ترددنا في أن ننسبه إلى لغة الثورة الفرنسية. الواقع أن هذا المؤلف يتضمن أفكاراً، ستتنقل من ذهن إلى ذهن، حتى تسيطر فيما بعد على ضمائر القرن التالي: - قيام التجرد الفلسفي محل التاريخ، مادام ممكنًا «أن نقدر أن أول رجل إنما هبط من الفضاء، حاملاً نفس الميول التي يحملها الناس معهم اليوم عند ولادتهم»؛ - والأخلاق الاجتماعية، بتقدير أن الواجب «هو فعل بشري يطابق تمام المطابقة القوانين التي تفرض علينا التزامه»؛ - والميثاق السياسي. فالمجتمع المدني - الذي خلف الحالة الطبيعية عن طريق الزواج، والأسرة، وتكوين كتلة سياسية - يقوم بالضرورة على اتفاقات: يتعاهد الأفراد على الاتحاد في كتلة واحدة، وعلى تنظيم أمنهم

ومصالحهم المشتركة بارتضاء إجماعي؛ ويتعهد أولئك الذين يملكون السلطة العليا بالسهر على الأمن الجماعي والمصلحة العامة؛ وفي نفس الوقت يعد الآخرون بطاعة خالصة.

بدأ القانون الطبيعي يتكون ويزداد قوة؛ لم يعد يطالب بمكانه في وسط الحروب فحسب، بل يحتله قسراً في التكوين السياسي للدول؛ ويسود الحياة الاجتماعية: «إن قانون الطبيعة هو القانون الذي يوافق دائماً طبيعة الإنسان الأنيسة والمنطقية، حتى إنه لا يمكن أن يوجد في الجنس البشري، دون مراعاة لمبادئه، مجتمع شريف سالم. . . » لا ينكر بوفندورف القدرة الإلهية، ولكنه يبعدها إلى مجال آخر، فهناك مجال العقل الصرف ومجال الوحي؛ إذن هناك مجال القانون الطبيعي ومجال اللاهوت الأخلاقي؛ مجال الواجبات التي نلتزم بها لأننا ندرك على ضوء العقل الطبيعي المستقيم، أنها لازمة لارادة المجتمع البشري؛ ومجال الواجبات التي نلتزم بها لأن الله فرضها علينا في الكتاب المقدس. إلا أن البراهين التي يقدمها لإثبات أن هذه المجالات لا تتعارض بل يمكن أن تتوافق، تبين لنا اختلافها العميق. إن اللاهوت يخص السماء، والعقل الطبيعي يخص الأرض؛ وبوفندورف لا ينظر إلا إلى الأرض: فالسماء تبدو له بعيدة جداً.

لقد أدرك قساوسة السويد خطر هذه القسمة، أو بمعنى أصح خطر هذه المفاضلة الصريحة؛ وقد حدثت حينئذ ضجة كبرى ضد عالم القانون الطبيعي، حتى اضطر إلى الاستغاثة بالسلطات المدنية لكيلا يفقد وظيفته.

وحدث العكس، فقد انتصر.

١٦٧٢ - ريشار كامبرلاند: بحث فلسفي عن قانون الطبيعة

De Legibus naturae disquisitio Philosophica.

إنه يمثل مشاركة انجلترا في هذا السبيل: لقد فند ريشار كامبرلاند، أستاذ اللاهوت، والأسقف فيما بعد، مبادئ هوبز المرذولة. فعلى أي أساس يستند؟

على القانون الطبيعي، الذي هو على التدقيق نقيض العنف الذي أشاد به كاتب اللوياثان: «إن القوانين الطبيعية تتلخص فيما يلي: ينبغي أن نأخذ بالرفق كل كائن عاقل...»

إلا أن هذه الأرض العجوز ستقدم معونة فعالة أخرى، حيث أصبحت المنازعات السياسية جزءاً متمماً للحياة الفكرية والأخلاقية والدينية للشعب؛ وحيث كانت الملكية - التي لم ينقطع الحديث عنها طوال القرن السابع عشر، والتي انقلبت، ثم تأسست من جديد، ثم انقلبت ثانية وتأسست من جديد، وتغيرت في جوهرها - قد أصبحت موضوعاً لمجادلات حامية محتدمة، أراد أن يشترك فيها البرجوازيون والنبلاء، وليس الشعراء والفلاسفة فحسب، بل حتى الملوك أنفسهم. ولكن الأمور لم تأخذ مجراها بتلك السرعة؛ فعلينا أن ننتظر قليلاً.

١٦٨٥ - فسخ أمر نانت

La Révocation de L'Édit de Nantes

ارتفع من فرنسا المكونة خارج فرنسا، من الملاجئ المؤسسة في الأراضي الأجنبية، صوت ينادي بالعصيان. والحق أن رجال الإصلاح، حتى بعد الاضطهاد والنفي، لم يعتقدوا أنهم في حل من يمين الولاء للملك؛ ولم يحلوا مشكلة الضمير التي عرضت لهم حلاً واحداً، لأن بعضهم ظل يعتقد أنه بما أن القانون الإلهي هو أساس الطاعة نحو الأمير، فإن أخطاء لا تمس سلطة الملك، القائمة على الحق الإلهي. ولكن البعض منهم رفعوا عقائرهم منادين بمقابلة العنف بالعنف. ألقى جوريو، من ١٦٨٦ إلى ١٦٨٩ بمقالاته «رسائل رعوية إلى المؤمنين الذين يئنون في أسر بابل[1]» معلناً فيها الحق في العصيان: «إن استعمال سيف الأمراء لا يمتد إلى

(١) - Lettres pastorales aux fidéles qui gémissent sous la captivité de Bobylone

الضمائر» : لقد استعمل لويس الرابع عشر سيفه لاجبار الضمائر، وبذا خرج على القانون: إن العصيان أصبح مشروعًا من الآن.

ولقد انصدم بوسويه عندما سمع بذلك التوكيد، وكرس لتفنيده مؤلفه «الإنذار الخامس إلى البروتستانت عن رسائل القسيس جوريو ضد تاريخ التبدلات (١٦٩٠): أساس الممالك الذي يقلبه هذا القسيس[1]. » - «ينشر السيد جوريو مبادئ مثيرة للفتنة ترمي إلى قلب كل الممالك وإلى تجريد كل السلطات التي وضعها الله. » ياللعجب! لقد عانت الكنيسة المسيحية القديمة الاضطهاد دون عصيان، وأنكر البروتستانت أنفسهم زمنًا طويلاً أنهم تمردوا في فرنسا وفي انجلترا على السلطة الملكية؛ والآن يعلن جوريو أن لنا الحق في أن نحارب ملوكنا وأوطاننا! إن روح العصيان هذه لشيء ممقوت. «أريد أن أثبت لكم أن إصلاحكم هذا ليس إصلاحًا مسيحيًا، لأنكم غير مخلصين لأمرائكم وأوطانكم. »

لكن الأمر، لم يكن أمر مسألة بين البروتستانت والكاثوليك: بل تدخل القانون الطبيعي في اقتتالهما. استند جوريو على جروسيوس. وكان بوسويه يعرفه تمام المعرفة؛ كان جروسيوس عالمًا بحق وحسن النية؛ ولكنه كان سوسنيانيا؛ كان ذهنًا خطرًا، يخلط بين ما هو إلهي وما هو بشري. ماذا كان يريد أن يقول بقانونه الطبيعي؟ إن تخيله أن الشعب كان سيدًا مطلقًا بطبيعته، معناه بلا شك أن الإنسانية - في حالتها البدائية - كانت لديها فكرة سلطة مطلقة تخصها، وأن لها الحق في تفويض هذه السلطة إلى من تشاء. يا له من خطأ! إن جروسيوس، وجوريو من بعده، يخطئان في المبادئ ولا يدركان معاني الألفاظ. فلنحذر الخطأ: بما أن حالة الإنسانية البدائية كانت فوضى شنيعة وحشية، ولم تكن أول الجماعات

---

(١) - Cinquième avertissment aux protestants sur les lettres du ministre Jurieu contre L'Histoire des Variations, 1690: Le fondement des empires renversé par ce ministre.

البشرية تشكل - كما يسمح لنا المنطق أن نفترض - شعبًا بل قومًا رحلاً، فكيف نتصور إذا ذاك سلطة مطلقة تكون شكلاً من أشكال الحكومة؟ ««من المستبعد أن يكون الشعب - في حالته هذه - سيدًا مطلقًا، بل لا يوجد شعب أصلاً في هذه الحالة. من المحتمل أنه كانت هناك أسر سيئة الإدارة وغير موطدة؛ كما أنه من المحتمل أنه كانت هناك قبيلة، كتلة من الناس، خليط مهوش؛ ولكن لا يمكن أن يكون هناك شعب، لأن الشعب يفترض شيئًا يتضمن بعض السلوك المنظم وبعض القانون الموضوع؛ وهو مالا يحدث إلا لدى الذين بدأوا يخرجون من هذه الحالة التعسة، أي الفوضى». لا يستطيع بوسويه أن يتصور أن الفوضى تفوض سلطة.

ومع ذلك فإن لويس الرابع عشر، السلطان المطلق، قد حكم عليه بصفته هذه؛ كان يمثل في نظر الناس النظام القديم. ما أشد رد الفعل الذي حدث في داخل مملكته - فرنسا - ضد مبدأ سلطة لا يصادق عليها إلا الله! فالمعارضون، الذين قاموا بالبحث في المواثيق والقوانين القديمة، عن مصادر الملكية، مبينين اغتصابها؛ والبارلمانيون العنيدون، الذين دافعوا عن حقوق وامتيازات هيئاتهم الجليلة؛ والنبلاء الذين يطالبون بامتيازات أمراء الإقطاع في فرنسا Pairs؛ بدأ الجميع، بورجوازيين كانوا أو نبلاء، منقادين كانوا أو عاصيين، مجانين أو عقلاء، يعبرون عن عدم رضاهم، وعن غضبهم وعدم اصطبارهم على هذا النير، في الكتب التي يطبعونها في هولاندا، وفي المخطوطات التي يتداولونها خفية تحت أرديتهم.

وفي الخارج، افتضح لويس الرابع عشر، كما قلنا من قبل. ولكن من وجهة نظر القانون، بقي اعتراض بوسويه قائمًا. إذا لم يكن البشر في حالة الطبيعة إلا قبيلة رحالة، فكيف تولد قانون من تلك البلبلة البدائية؟

١٦٨٨ - الثورة الإنجليزية

طرد جاك الثاني، الملك بنعمته تعالى، من العرش؛ وتربع وليم أورانج مكانه؛ يقول المؤرخون إن الملك الجديد، الذي توج في وستمنستر في ١١

أبريل ١٦٨٩ . «يحكم بمقتضى حق لا يفترض في شيء عن الحق الذي ينتخب كل مالك بمقتضاه نائب مقاطعته» ؛ وإنه قبل رقابة المجلسين، وبذا حقق انتصار الحكم البرلماني، فقًا لميثاق مثالي أبرم بين الأمير ورعاياه.

أين كانت الأفكار التي نادى بها الأساتذة من فوق منابرهم، والتي استوعبها الطلاب، وأعلنتها الصحف العليمة، والتي نوقشت، ونوقضت، ثم عادت واندعمت من جديد، وغذت منذ جروسيوس جيلين متتابعين؟ أين كانت الأفكار التي شرحها أساتذة الكنيسة، ووضحها الفقهاء الرسميون، والتي كانت تدعمها قوة التقاليد؟ هل تقف تلك الأفكار جامدة، بينما التجربة نفسها، بينما الحدث الذي يقلق كل أوربا، يهيئ لها فرصة عظيمة للإعلان عن نفسها، والمعارضة في هذه المرحلة الحاسمة من قتالها؟ لم يفت الناس الالتجاء إلى النظريات للدفاع عن حكم أسرة «ستيوارت» المزعزع الأركان. لقد بعثوا من زوايا النسيان كتبًا تثبت شرعية الحكم المطلق، من بينها كتب مجادل قوى، قد دافع في منتصف القرن عن القضية الملكية بشجاعة. كان روبرت فلمر Robert Filmer يعظ بالخضوع والطاعة، قائلاً إن حكومة مختلطة لا تؤدي إلا إلى البلبلة، وإن الرعايا ليس لهم أي حق في العصيان؛ وإن هوبز كان مخطئًا في مبادئه، ولكنه كان مصيبًا في استنباطه؛ وإن سلطة الملوك المطلقة ضرورة لا معدى عنها. لقد أصبح فلمر بدعة العصر، بل طبع في عام ١٦٨٠ - ثم مرة أخرى في خلال السنوات التالية - المؤلف الخطير لذلك «الرجل العالم»، تحت عنوان Patriarcha، موضحًا وضوح النهار أن سلطة الملوك امتداد للسلطة الأبوية: لا يجرؤ ابن، يخاف الله والناس، أن يعق أباه.

لقد كذبت الوقائع مزاعم أشياع جاك الثاني. وسيتقدم رجل ليخلع على الوقائع قيمة المبدأ الشامل.

١٦٨٩ - جون لوك: بحثان عن الحكومة

نكشف في الأول مبادئ السير روبرت فلمر وخلفائه الباطلة وأسسهم المغلوطة ونفندها. والثاني مقال عن مصادر الحكومة الباطلة ومداها ومقاصدها الحقيقية (١)

في نفس السفينة التي أقلعت من هولاندا، حاملة وليم أورانج نحو انجلترا ونحو الثورة، كان يرحل جون لوك، فيلسوف الأزمان الحديثة. وهو الذي سيستجيب في بحثه لدعوة الملكيين إلى القتال.

وهو في الواقع يردد الأفكار التي سبق أن سمعناها مراراً: ولكنه سيدفع بها إلى أبعد مما وصلت إليه من قبل؛ ويلزمها بأن تثبت، بسلسلة من الاستدلال المنطقي، شرعية الحق في العصيان. إنه يبدأ حالة الطبيعة، كما سبق أن فعل بوفندورف، وكما يفعل الجميع الآن؛ فإن هذه بدعة، بل هوس. إن حالة الطبيعة ليست حالة عنف ووحشية كما يدعى هوبز، إلا أنها أيضاً لا تبلغ مرتبة الكمال. فالرجل يؤسس حالة اجتماعية، علاجاً للشرور التي تتضمنها حالة الطبيعة، ولكن دون أن يتبع نظام رب العائلة، كما يزعم فلمر؛ بل يؤسسها بناء على ميثاق، كما أثبت بوفندورف. فليعرف القراء ما يلي: «لايوجد مجتمع سياسي إلا حيث يتجرد كل عضو من سلطته الطبيعية ويضعها بين يدي المجتمع، لكي يستعملها في الأمور كافة، على ألا يحول ذلك دون الالتجاء إلى القوانين التي يضعها المجتمع.» إن الحكم المطلق، الذي ينكر هذا الحق في الاستئناف، لا يتفق مطلقاً مع المجتمع

(١) Deux traités de gouvwrnement. Dans le premier, les faux principes et les fon-dations erronées de Sir Robert Filmer et de ceux qui le suivent sont décoverts et rejetés. Le scond est un essai concernant l'Origine, l'Extension et la Fin véritable du gouvernement civil.

المدني؛ وإن الحق الالهي، الذي يشيد به الأساتذة الكاثوليك، لا يثبت بتاتًا سلطة رجل واحد على بقية الناس. يجب أن تكون السلطة تحت الرقابة وأن تكون مجزأة، كما هي الحال في بريطانيا العظمى: تشريعية وتنفيذية. إذا لم تعمل السلطة التنفيذية طبقًا للأغراض التي أسست من أجلها، وإذا اعتدت على حرية الشعب، يجب سحبها من يد الذي يملكها. بل أكثر من ذلك: إذا رأى الرعايا أن الطاغية يعد الوسائل لاستعبادهم فليسبقوه! فليمنعوه، بوساطة عصيان علني، من تحقيق نواياه السيئة!

كان لوك يرتب الأمور بفضل مزايا عبقريته العملية؛ فكان يضيف إلى فكرة الطبيعة، فكرة المدنية. وكان يبدو كأنما يرد مقدمًا على بوسويه. حقًا، إن حالة الطبيعة تتضمن بعض المحذورات. وحقًا أيضًا، إن التاريخ، الذي لا يتصف بالغنى والدقة فيما يخص نشوء المجتمع، كما نريده أن يكون، لا يقدم لنا نماذج أكيدة، بل فروضًا شبه حقيقية؛ وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نتصور على وجه التقريب كيف اضطر الناس إلى تفويض سلطتهم. هكذا: كان الناس بطبيعتهم أحرارًا؛ وكانوا في تأييد هذه الحرية، قضاة ومحتكمين؛ أما للدفاع عنها فعند من كانوا يستأنفون؟ كان الناس بطبيعتهم سواسية، ولكن، لحماية هذه المساواة ضد الاغتصاب، إلى من كانوا يختصمون؟ لو أنهم لم يفوضوا سلطتهم إلى حكومة قادرة على على الاحتفاظ بالحرية والمساواة الأولية، لوقعوا في حالة حرب مستمرة. لم يكونوا قبيلة رحالة، ولكن، لولا احترازهم لأصبحوا كذلك. إن القانون الطبيعي يوحي بالقانون السياسي، الذي يصون المزايا الطبيعية من أخطار الحياة العملية.

كلما ظهرت صعوبة حاول لوك الحكيم أن يحلها بالحكمة. مثلاً: يصعب على الناس أن يضحوا بفكرة السلطة الأبوية، الوسيطة بين الله والناس، وأول صورة للسلطة الملكية. ويتدخل لوك ليشرح أن الأطفال لا يولدون «في» حالة مساواة تامة، وإن كانوا يولدون «لأجل» هذه الحالة؛ وأن الوالدين (الأب وكذا

الأم) يملكان نوعًا من الولاية عليهم: الواقع أن الوالدين ملزمان باعداد الأطفال للحرية، طالما لم يبلغ الأطفال رشدهم. إذن فالسلطة الأبوية موجودة، ولكنها غير مطلقة، بل هي واجب أكثر منها سلطة؛ لا يمكنها أن تسن قوانين؛ وإذا أمكن افتراض أنه كان هناك، في بداية الأزمان، نظام رب العائلة، فإن هذا النظام لم يكن يقوم إلا على رضا ضمنى من الأطفال.

لننظر الآن إلى الملكية: تلك المسألة الخطيرة. إنها لا تتفق مع المساواة الطبيعية كل الاتفاق. نرى، بموجب العقل وبموجب الوحي معًا، أن الله أهدى الأرض مشاعًا لكل الجنس البشري: كيف نفسر إذن أن الأفراد استطاعو أن يتملكوا شرعًا جزءاً من هذا الرزق الجماعي؟- يتدخل لوك هنا أيضًا ويجيب: إن الملكية الفردية تفسر بالعمل. - «ومع أن الأرض وما عليها من خيرات مشاع بين الناس، إلا أن كل فرد يتمتع بحق خاص على شخصه الذاتي، الذي ليس لأحد آخر أن يدعي عليه أي حق كان. يمكننا أن نقول إن جهد جسمه وإنتاج يديه، ماله الخاص. كل شيء يستخرجه من الطبيعة، بفضل مجهوده وصناعته، يملكه هو وحده...» إن الماء الذي ينبثق من تلك العين ملك لكل المارة، ولكن إذا ملأت منها جرتي، من يجرؤ أن يقول إن ماء جرتي ليس ملكي؟

كان لوك ينقض ويفسر، وسيطًا بين الفقهاء والجمهور؛ وسيطًا أيضًا بين الأمان القديمة والأزمان الحديثة: محتفظًا من العقائد القديمة بما يكاد يكفي لئلا يدهش الضمائر كل الدهشة؛ ومكثراً من الجديد. لا حق إلهيًا؛ ولا حق في الفتح: «يبعد أن تكون الفتوحات مصدراً أو أساسًا للدول، قدر ما يبعد أن يكون تدمير منزل السبب الحقيقي في إنشاء منزل آخر في نفس المكان.» فبفضل لوك، كان شعاع الدستور الانجليزي ينعكس على الحق الطبيعي؛ وفي نفس الوقت، كان الحق الطبيعي يؤسس الدستور الانجليزي؛ دستور عادل يتضمن برلمانًا وملكًا اختارته الارادة الأهلية. كان لوك يدخل الحق الطبيعي في سياسة زمنه، وبلده وجنسه، وفضلاً عن ذلك، كان يسجل صلته بدين الاصلاح. فالحق الالهي، بمجرد زعمه أنه أساس الحكم المطلق، لم يكن يبدو فوق الطبيعة، بل مخالفًا للطبيعة: ولم يكن

تبرير الحكم المطلق ببعض إرادة إلهية مزعومة، إلا اختراعًا حديثًا للاهوتيين الكاثوليك: «لم نسمع مطلقًا عن شيء مثل ذلك، قبلما يكشف لنا علم اللاهوت في هذا القرن الأخير عن ذلك السر الكبير ...»

١٦٩٩- مغامرات تليماك (١)

Lse Aventures de Télémaque

الحق أن فينلون لا ينكر مبدأ الحق الإلهي. ولكن، بين المشاعر والأفكار العديدة التي أعلنها هذا الكتاب المشهور، المنتشر بين الصغار والكبار بآلاف وآلاف النسخ، - يوجد على الأقل شعور واحد وفكرة واحدة يجب أن نعيها.

شعور واحد: البغض، كراهية لويس الرابع عشر. والموضوع ليس مجرد اعتراض نظري، بل هو في الحق شعور ينفجر، أو انفعال متهم عام. - «هل بحثت بين الناس عن أبعدهم عن التغرض، وأصلحهم لمصارحتك؟ هل عنيت بأن تسمع كلام أناس لا تدفعهم أي رغبة إلى إرضائك، وأبعدهم عن الوصولية في سلوكهم، وأجدرهم بلومك على شهواتك، وعلى مشاعرك المخالفة للعدل؟ ولما وجدت منافقين، هل صرفتهم عنك؟ هل كنت تحترس منهم؟ كلا، كلا، إنك لم تفعل البتة ما يفعله الدين يحبون الحق، والجديرون بمعرفته... بينما كان العدو الخارجي يهدد مملكتك التي لا تزال مزعزعة، لم تفكر في داخل عاصمتك الجديدة إلا في إنشاء المباني الفاخرة... إنك بددت مالك؛ إنك لم تفكر لا في إنماء شعبك ولا في فلاحة الأراضي الخصبة... بل إن كبرًا باطلاً دفع بك إلى حافة الهاوية. ومن أجل رغبتك الملحة في التظاهر بالعظمة، حطمت عظمتك الحقيقية...»

(١) - كتاب ألفه فنيلون Fénelon لتعليم تلميذه دوق بورجوني de Bourgogne الذي أصبح ولي العهد في ١٧١١. يصف فيه مغامرات تليماك لما رحل، وهو ما يزال طفلاً، باحثًا عن أبيه أوليس، أحد أبطال حرب طراودة. إنما المقصد من هذا التأليف - كما اعترف به فنيلون - شرح الحقائق الضرورية لادارة الدولة، وعيوب السلطة المطلقة؛ والتعليمات الأساسية التي تناسب أميرًا تؤهله ولادته للحكم. [المترجمان].

وفكرة واحدة: قيمة الشعب. «إن الآلهة لم تجعل ... ملكًا لشخصه بل لكي يكون رجل الشعب: إنه مدين للشعب بكل وقته، بكل عنايته، بكل عاطفته؛ وإنه ليس جديراً بالملكية إلا بقدر ما يتناسى نفسه، ويضحي بنفسه للصالح العام. . .» - «اعلم جيداً أنك لست ملكًا إلا بقدر ما لك من شعب لتحكمه. . .» بل أكثر من ذلك! الشعب المكبوت لا رغبة له إلا في الانتقام من الملوك، وحينئذ تأزف ساعة العصيان: «إن حكمه المطلق يخلق عدداً من العبيد بقدر ما له من رعايا. يتملقه الناس، ويتظاهرون بعبادته، ويرتعدون لأقل نظراته؛ ولكن انتظر العصيان: لن تستمر هذه العظمة الوحشية، إذا تجاوزت الحد؛ فلا سند في قلوب الشعب؛ لقد أجهدت كل كيان الدولة وأثارته؛ إنها دفعت كل أعضاء الدولة إلى التلهف على تغير الحال. فمن أول ضربة ينقلب ذلك الصنم المعبود، ويتحطم، ويقع مرذولا تحت أقدام الناس[1]».

إن مملكة فرنسا تعاني تعاسة شديدة. من لا يعرف الفقرة التي وصف بها (لابروبير) حالة الفلاح بأسلوب روائي مؤلم[2]؟ ولعل ملاحظات لوك أقوى منها تأثيراً، وإن كان لا ينظر مثله إلى التأثير: إنه يلاحظ أن الفلاحين يعيشون في جحور، ويملكون ما يكاد يستر أجسادهم وما يقيم أودهم، وبالرغم من تعاستهم لا تعدم الحكومة وسائل لافقارهم بالضرائب. ولذلك تتوقف الزراعة وتبور الأرض: وحيث إن العمل لا يؤدي بالفلاح إلا إلى ظلم أفدح، فإنه يكف عن العمل. ومن جهة أخرى، تموت المصانع، أو تحاول الفرار إلى خارج الحدود، علها تجد الحرية التي افتقدتها في فرنسا. إن الرسوم الجمركية، التي تفرض عند كل

---

(١) -تيليماك، الكتاب العاشر.

(٢) - هاك هذه الفقرة: «نشاهد بعض حيوانات متوحشة منتشرة بالريف، سوداء، مغبرة، قد لفحتها الشمس، ملحقة بالأرض التي تنبش فيها بعناد لا يغلب، تلوح كأنها تنطق بلغة مفصلة؛ حينما تقف على أقدامها تظهر لها وجوه إنسانية؛ الواقع أنهم أناس يأوون بالليل إلى جحورهم حيث يتغذون بالخبز الأسود، بالماء وبالجذور. إنهم يكلفون الناس الأحرار مشقة البذر والحرث للمعيشة، وبذا يستحقون ألا يحرموا من الحب الذي بذروه». (كتاب الشخصيات، الفصل ١٠، الإنسان) La Bruy]ére, Caractéres, chap. X. المترجمان[.

مخرج، وعند كل مرور، تجعل التجارة تبور. إن إخفاق سياسة «كولبير» الذي بدأ الناس يحسونه في أثناء حياته، أصبح جليًا بعد مماته. مجاعة عام ١٦٩٤ الهائلة، والإفلاس: أي تعاسة!

وجمعت نخبة ممتازة هذه الشكاوى وحاولت أن تعالج هذه الشرور. إن الضائقة الفرنسية الكبرى، ستسجل في كتب يبدو أنها قد أملتها ضرورة الحياة. كتب بواجلبرت[1] في أسلوب ثقيل خال من الفن ولكن في إصرار وصرامة لها تأثيرها، مبينًا أن فرنسا، التي كانت أغنى ممالك العالم فيما سبق، قد فقدت خمسة أو ستة ملايين من دخلها السنوي، وأن هذا العجز يزداد كل يوم. ولقد بلغ من سوء توزيع الضرائب أن تثقل على الفقير وتحمي الغني، وبهذه السياسة المالية أصبح الفقراء بائسين: إن المملكة بأجمعها تسير إلى حتفها. ويقول فوبان Vauban بدوره، إن الحالة ملحة إلى تغيير توزيع الضريبة؛ إن ضريبة عشرية عادلة Dime تكلف أقل، وتغل محصولاً أوفر. وإذا كان بواجلبرت وفوبان – مع بعدهما عن أن يكونا متمردين – يحاولان إصلاح مالية الدولة وإيجاد موارد يبحث الملك عنها عبثًا، فقد كانا يبدوان دخيلين مغتصبين يتعديان على ملك محفوظ من قديم[2]: فحكم على مشروع ضريبة العشر بالحريق[3].

ولكن كم يبدو فنليون أكثر جسارة! فالأسئلة التي يوجهها تليماك إلى إيدومنيه (ملك كريت)، يوجهها فنيلون، بنفس النغمة الأليمة، إلى تلميذه الدوق بورجوني، إذا قدر له أن يتولى الحكم يومًا: أتعرف كيف تتأسس الدولة؟ هل درست الواجبات الأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها الملوك؟ هل بحثت عن الوسائل التي تروح عن الشعوب؟ كيف تجنب رعاياك الشرور التي تنجم عن الحكم

---

(١) – دي بواجلبرت: تقرير عن مالية فرنسا، ١٦٩٥. Pierre Le Pesant De Boisguilbert, Le détail de la France, 1965.

(٢) – لأن الضريبة العشرية كانت مخصصة للكنيسة. [المترجمان].

(٣) – مشروع قانون عن ضريبة العشر الملكية... (١٧٠٧).

المطلق، وسوء الإدارة، والحروب؟ وحينما يصبح الدوق بورجوني في عام ١٧١١ ولي عهد فرنسا، يقدم له فنيلون قائمة إصلاحات، تهيئة لتنصيبه على العرش.

فلنسجل في قائمة فنيلون ما قاله، دفاعًا عن حقوق الإنسانية، بهذه الألفاظ: «كما أن كل أسرة عضو في شعب معين، كذلك كل شعب عضو في الجنس البشري، الذي هو المجتمع الشامل. وكل فرد مدين للجنس البشري، الذي هو الوطن الأعظم، أكثر مما هو مدين لوطنه الخاص، الذي ولد فيه؛ لذلك فإن المساس بالعدالة بين شعب وشعب آخر لأشد وبالا على الجنس البشري من المساس بالعدالة بين أسرة وأسرة. إن إنكار المشاعر الإنسانية ليس إعوازًا للتربية ووقوعًا في البربرية فحسب، بل هو أيضًا أشد صور عمى الأشقياء والمتوحشين: إنه خروج على الآدامية، لا يليق إلا بأكلمة لحوم البشر[١].»

١٧٠٥ - توماسيوس:

أساس القانون الطبيعي وقانون الشعوب على ضوء الإدراك السليم

Fundamenta juris naturae et gentium ex sensu communi deducta

١٧٠٨ - جرافينا:

مصادر القانون المدني ونشأته وتقدمه، وقانون الشعوب واثنا عشر جدولاً مفسرًا.

Origines juris civilis, quibus ortus et progressus juris civilis, jus nattu-rale gentium et XII Tabulae explicantur.

يدخل جان فنسانزو جرافينا Gravina فكرة القانون الطبيعي في التاريخ. ويحاول، من جهة أخرى، أن يفسر تناقضًا يتولد دائمًا من فكرة الطبيعة،

(١) -حديث الأموات، سوقراط والسيبياد (١٧١٨) Dialogue des Morts, Socrate et Alcibiade, 1718.

التي لا يمكن إدراكها. فالقانون الطبيعي هو العقل، الذي يوجب الفضيلة. والفضيلة تطرد الرذيلة: ومع ذلك نرى الرذيلة أيضاً في الطبيعة... هاك الجواب: «علاوة على القانون الشامل الذي يشترك فيه الروح والجسد معاً، بتقديرهما مرتبطين، فإن للإنسان قانوناً يخصه، وهو كثيراً ما يخالف القانون الآخر. أسمي الأول: القانون الجماعي، والثاني، قانون الروح فقط. فالقانون الجماعي يشمل عموم الكائنات، فهو إذن يشمل الإنسان أيضاً. أما قانون الروح، القانون المنطقي، الذي يقوم على التفكير، فيخص الإنسان فقط.» وبموجب هذا القانون الأخير، يخضع الرجل لعقله الذاتي، وبالتالي يخضع للفضائل، كما لو كانت قضاة عينهم ذلك القانون لكي يحكموا على أفعالنا ويسهروا على حواسنا...

سيطرد مجهود العقول وانتشار هذه الأفكار إلى أيامنا. ولكن نهاية القرن السابع عشر تسجل مرحلة حاسمة، إذ تلاقت فيها نظرية القانون الطبيعي، ونظرية قانون الشعوب، والوقائع. لقد أتم لوك - وإن كان أقل قوة وتعمقاً بكثير من جروسيوس وبوفندورف، ومع أنه كان يعوزه المنطق أحياناً - تحويل «القانون» من ديني إلى مدني. الحرية، والمساواة: كان يمكن أن يتخذ كتابه هاتين الكلمتين شعاراً. «الحالة الطبيعة قانون طبيعي ينظمها، وعلى كل فرد أن يخضع له وأن يطيعه. فالعقل، الذي هو هذا القانون، يعلم كل الناس - إن تفضلوا باستشارته - أنهم ما داموا جميعاً سواسية ومستقلين، فلا يحق لأحد أن يؤذي الآخر، في حياته، أو صحته، أو حريته أو ماله.... [1]»

(١) -عن الحكومة المدنية... ترجمة دافيد مازيل، أمستردام ١٦٩١، الفصل الأول، Du Gouvernement civil..., traduit par David Mazel, Amsterdam



تيليماك في رحلته إلى الجحيم يشاهد مصير الملوك السيئين
(من كتاب مغامرات تيمليماك. باريس ١٧٨٣)

الفصل الرابع

الأخلاق الاجتماعية

إذا كان هناك رجل، قد أكد بصورة أوضح وأقوى من كل أسلافه، استقلال الأخلاق عن الدين، فهو بلا شك بيير بايل. لقد رجع إلى هذا الموضوع مرات ومرات، في أبواب قاموسه، وفي إجاباته على أسئلة قروي. لكنه كتب في أفكاره عن المذنب، متئداً، مبدياً كل قواته، وواضحاً متحمساً، دستور الانفصال.

لقد بدأ في هوادة؛ ليس الكفار أسوأ من الوثنيين، سواء من حيث العقل أو من حيث القلب. ثم تطرق، بعد أن مهد الطريق، موعزاً بأن الكفار ليسوا أسوء من المسيحيين. إذا قلنا لرجل يأتي من عالم آخر إن هناك أناساً ذوي حكمة وعقل سليم، يخافون الله، ويعتقدون أن السماء ستثيبهم على حسناتهم وأن الجحيم ستعاقبهم على سيئاتهم: لتوقّع: ذلك الرجل أن يرى أولئك الناس يأتون بالحسنات، ويحترمون الغير، ويتسامحون حيال الاهانة والشر، ويسعون لاكتساب سعادة أبدية. واأسفاه... ! فإن الأمور لا تجري على هذا المنوال في الواقع. يجب أن نعترف بأمر واقع يوضحه لنا مشهد الحياة في نور ساطع وهو أن: الفرق كبير بين ما نعتقد به وما نفعله، وأن المبادئ ليس لها تأثير عل الأفعال؛ وأننا نبدو أتقياء في كلامنا، كفرة في سيرتنا؛ ونزعم أننا نعبد الله بينما لا نطيع إلا المنفعة

ولا نتبع إلا الشهوة؛ «إني أرى الخير وأصدق به، ولكني أرتكب الشر[1]»: هذا مثل قديم. انظر كيف يعيش المسيحيون. يقرأون كتب العبادة: ولكنها تنسى فور ما تقرأ. إن جنود الجيوش الكاثوليكية جداً فاسقون ونهابون، ينهبون البلاد بلا تمييز بين الأعداء والأصدقاء، ويحرقون عند اللزوم -ودون تبصر- الكنائس والمعابد والأديرة. أما الحروب الصليبية، فيا لها من مشروع يستحق الاعجاب من الوجهة النظرية! ولكن ما أكثر ما حدث في إبانها وما تبعها من استغلال وخيانة وإجرام! إن النساء متدينات بوجه خاص: ومع ذلك فكم نرى من يتقابلن منهن مع عشاقهن بمجرد مغادرتهن غرفة الاعتراف! هناك عاهرات، ولصوص، ومجرمون يعبدون العذراء عبادة خاصة؛ وتسري روايات -يزعم الناس أنها دينية- تقول إن العذراء تحمي الفتيات والأشرار، لأنهم يحرقون شمعة إو يسجدون أمام تمثالها. إن أشياع جانسنيوس يعارضون كثرة تناول القربان، لأنهم يعرفون جيداً أنه يمكننا الاقتراب كل يوم من مائدة القربان المقدس، ونبقى مع ذلك أشراراً. والخلاصة، إن إيمان المرء لا يؤثر على سيرته وعلى أخلاقه. بل إن التدين يشجع أحياناً بعض الشهوات السيئة، مثل الغضب على الذين يعتقدون بعقيدة أخرى، أو التمسك بالمراسيم الظاهرية، والنفاق.

حينئذ يعرض بايل للقارئ التجربة معكوسة: كما أنه لا يوجد شيء عادي أكثر من المسيحيين الأورثوذكس الذين يسلكون سلوكاً سيئاً، كذلك نجد عدداً كبيراً من المتحررين الذين سلكوا سلوكاً صالحاً على أتم وجه. فضلاً عن القدماء، مثل دياجوراس، ثيودور، نيكانور، أفيمير، هيبون، ويلين، الذي كان دائماً جديراً بصفته كروماني عظيم؛ وأبيقور الذي عاش حياة نموذجية، -فلننظر إلى المحدثين:

(١) - قاله الشاعر أوفيدOvid باللاتينية على لسان الأميرة ميديه: -Video meliora proboque, deteri-ora sequor . وهاك تعليق بايل: «إن الشاعر الذي جهل «ميديه» تقول: «أرى الخير وأصدق به، ولكني أفعل الشر -قد بين في وضوح ودقة الفرق بين ضوء الضمير والرأي الخاص الذي يدفعنا إلى العمل...».

(أفكار عن المذنب، الفصل الثاني). [المترجمان]

كان يشتبه في أن «دي لوبيتال»، رئيس الديوان، عديم الدين، مع أنه لم يوجد أوقر من شخصيته وأنبل من حياته؛ وأولئك الذين عاشروا سبينوزا يذكرون أنه كان أنيسًا، وحليمًا، وشريفًا، ومستقيمًا في أخلاقه؛ ومع ذلك كان سبينوزا كافرًا.

جمهورية من الكفار -لماذا لا نستطيع أن نتصورها؟ إن مجتمعًا بلا دين يكون أشبه بمجتمع وثني؛ ولا يفترق المسيحيون، في حياتهم العملية، عن الوثنيين... لعل الكفار يدركون الشرف والخزي، والثواب والعقاب، بقدر ما يدركها المسيحيون: إن فكرة فناء الروح لا تحول دون تمني المرء أن يكسب اسمه الخلود. وإذا كان لزامًا أن يكون لمذهب شهداء، لكي يستحق الاحترام، فإن مذهب الكفر لا يعوزه الشهداء: «فانيني» الذي مات في سبيله؛ وأحدث من ذلك، المدعو «محمد أفندي» الذي أعدم في «الآستانة» لأنه أنكر علنًا وجود الله. «كان يستطيع أن ينقذ حياته لو اعترف ووعد بألا يكرره في المستقبل؛ ولكنه آثر الاصرار على تجديفه، قائلاً إنه، وإن كان لا ينتظر أي جزاء، إلا أن محبته للحقيقة تجبره على أن يموت شهيدًا في سبيلها، دعمًا لها».

وبعد ما يتم بايل التجربة والتجربة العكسية على هذه الصورة، يصل إلى نهاية إثباته: إن الدين والأخلاق ليسا ملتحمين، بل مستقلين؛ نستطيع أن نكون متدينين دون أن نكون أخلاقيين؛ ونستطيع أن نكون أخلاقيين دون أن نكون متدينين. فالكافر الذي يعيش حياة فاضلة ليس مخلوقًا خارقًا للطبيعة: «لأن يعيش كافر حياة فاضلة، ليس أغرب من أن يرتكب مسيحي كل أنواع الجريمة». فالكفار الذين يعيشون في تركيا، والكفار الذين يعيشون في الصين، أطهر أخلاقًا من المسيحين الذين يعيشون في روما أو في باريس...

ألا نستطيع أن نقول إن أخلاقًا مستقلة أفضل من أخلاق دينية؟ ما دامت الأولى لا تنتظر ثوابًا أو عقابًا ولا تعتمد إلا على نفسها؛ بينما الأخرى، لخوفها من الجحيم وأملها في السماء، لابد من أن تكون متغرضة؟ -«تولاند»، يغالي كعادته، قائلاً: «إن أفظع كفر لأقل شؤمًا على الدولة والمجتمع البشري من تلك الخرافة

الوحشية والبربرية، التي تملأ الدول المزدهرة بالنزاع والانقسام، وتفسد أكبر الممالك وكثيراً ما تقبلها؛ والتي تفصل الأولاد عن آبائهم، والأصدقاء عن أصدقائهم، وتحطم وحدة الأشياء التي يجب أن تكون متحدة بأقوى الصلات ...[1]».

* * *

ولكن بعدما هدمنا أخلاق النظام الإلهي، كيف نستطيع أن نعيد إنشاء الأخلاق في النظام البشري؟ هنا كان يبتدئ الارتباك.

هل يجب أن نرجع إلى الوراء، ونلتجئ إلى القدماء، ونتخذ الوثنيين أدلاء؟ ومن بين الوثنيين؟ أبيقور؟ أبيكتيتوس؟ أولئك الفلاسفة متناقضون. هل كان يجب اختيار فيلسوف حاول أن يقدم إلى العالم أفضل ما في الأخلاق القديمة، دون أن يؤلف مذهباً مبتكراً؟ هل كان يجب أن نستشير الخطيب الروماني، مؤلف كتاب «الواجبات»، أي شيشرون، عن قاعدة حياة مدنية لا دينية؟ لقد كان العالم «إيرازم» Érasme معجباً بعظمة حياته وطهارة قلبه؛ والواقع أنه «لم يخلف لنا العالم الوثني أحداً آخر يوضح تمام التوضيح هذه المبادئ الكريمة ويوصي بها بمثل تلك القوة -هذه المبادئ التي تستمد منها الطبيعة البشرية مجدها وكمالها: حب الفضيلة وحب الحرية، وحب الوطن، وحب الجنس البشري بأسره[2]».

ولكن كان من السهل على علماء الأخلاق المسيحين أن يردوا على ذلك. فقد قضت المسيحية على هذه النظريات التي يريد الناس ابتعاثها، منذ ألف وسبعمائة عام. بروتوس، وكاتون، وأمثالهم، يا لهم من نماذج تعسة! إنهم أولعوا بتلك الكلمات الضخمة، وبتلك الحركات الكبيرة، بتلك المواقف المسرحية؛ فانتهت حياتهم بالافلاس. وأنقذت الروح المسيحية الإنسانية من هذا الافلاس.

---

(١) - Adeisidaemon، ١٧٠٩.

(٢) - لقد أخذنا هذه التعبيرات من كتاب «تاريخ شيشرون» بقلم ميدلتون C. Middleton لندن ١٧٤١ ترجمة أبيه بريفو في عام ١٧٤٣.

حينئذ ظهرت أخلاق حديثة، أخلاق الناس الشرفاء؛ أخلاق سيكولوجية. لم تأنف هذه الأخلاق أن تقتبس من المصادر القديمة، مفضلة إياها من كل الوجوه على المسيحية؛ ولكنها كانت تستعين على الأخص بالعقل. عقل قد تمدن وتهذب، عقل لم يعد خشنًا وجامداًكما كان فيما سبق، ولم يحتفظ بشيء من صلابته القديمة. «يجب أن ننسى وقتًا كان يكفي فيه أن يكون المرء جاداً رزينًا لكي يبدو فاضلاً، مادام الأدب، والرقة، والتفنن في الشهوات، قد أصبحت جزءاً من الفضيلة الحالية. فمن جهة كراهية الأفعال الخبيثة، يجب أن تبقى ما بقيت الدنيا؛ لكن فلنتقبل أن يدعو المترفهون «متعة» ما دعاه الغلاظ الجفاة «رذيلة»، ولا نكّون فضيلتنا من المشاعر القديمة التي غرستها فطرة وحشية في الناس البدائيين[1]» لم تحرم هذه الأخلاق الملذة، ولا الشهوة، بشرط أن تكون معتدلة، مسيطراً عليها... ما في ذلك من شك. ولكنها لم تستطع مع ذلك أن تدعي أن لها قوة ملزمة، أو قيمة شاملة. كان يجب أن يدعي المرء سانت أفريموند، أو وليم تمبل، أو لورد هاليفاكس، لكي يدركها ويباشرها. أخلاق أرستوقراطيين، أخلاق قوم مترفين، قوم سئموا الدنيا؛ إنها مركب هش رقيق، اتفاق، ليست سيطرة، بل تكييفًا.

* * *

قلّ من كان يستطيع أن يتقبل تلك الأخلاق الميتافيزيقية السامية الجدية، التي عرضها سبينوزا، كما رأينا، -تباين هائل، يقابله تعارض دائم في الأخلاق البشرية، فيا للتهوش! ما أصعب إيجاد مبدأ مشترك، قاعدة ينبغي أن تفرض على كل الناس، في كل زمان وفي كل مكان! هنا، نرى الناس يعرضون أولادهم للوحوش، أو يتركونهم يموتون جوعًا: كيف نتكلم بعد ذلك، عن الصفة الشاملة للواجب الأبوي! وهناك، نرى الأولاد لا يترددون في قتل آبائهم عندما تدركهم الشيخوخة. «في إحدى بلاد آسيا، لا يكاد الناس يقطعون الأمل في صحة

(١) - سانت أفريموند. بقلم جوستاف لانسون، تبدل الأفكار الأخلاقية (مجلة الشهر، ١٩١٠).

مـريض، حتى يضعـوه في حفـرة تحت الأرض، حيث يتركـونه مـعـرضـًا للريح، وأخطار الجـو، دون شفقة وبلا معونة، حتى يموت. وإنها لعادة لدى بعض سكان «جورجيا» الذين يدينون المسيحية، Mingréliens، أن يدفنوا أبناءهم أحياء، دون تأنيب ضـمير. وفي جهات أخرى، يأكل الآباء أبناءهم. اعتاد أهل «كاريبيا» أن يخصوا أولادهم بقصد تسمينهم وأكلهم. يذكر «جارسيلازو دي لافيجا» أن بعض سكان «بيرو» اعتادوا أن يحتفظوا بالسبايا، لاستخدامهن كسراري، ويتوفرون على تغذية أولادهم منهن حتى يبلغـوا الثالثة عشرة، ثـم يأكلونهم، ويأكلون أمـهـاتهم بالمثل بمجرد بلوغـهن سن اليأس». إن مـا نراه في الدنيا يثبت لنا، في الواقع، أن الأخلاق تختلف اختـلافًا جوهريًا. ينبغي أن نسلم بذلك: «إن من يعني بمطالعة تاريخ الجنس البشري، وفحص سيرة شعوب الأرض بغير تغرض، ليستطيع أن يقتنع بأنه يتعذر إيجاد أي مبدأ أخلاقي، أو تصور أي قاعدة للفضيلة -باستثناء الواجبات التي يقتضيها بالضرورة حفظ المجتمع البشري، (والتي كثيراً ما تخرقها الشعوب في صلات بعضها ببعض)- من غير أن تستخف بها، وتناقضها، تقاليد شعوب بأكملها في بعض أرجاء الدنيا ...[1]».

باســتثناء الواجبات التي يقتضيهابالضرورة حفظ المجتمع البشري ... هنا ظهر احتمال أخلاق جديدة؛ أخلاق لا شيء فطريًا فيها، حتى ولا فكرة الخير، حتى ولا فكرة الشر؛ بل أخلاق شرعية ولازمة، ما دامت مكلفة بالابقاء على وجودنا الجماعي. حيث إننا خلقنا لحياة اجتماعية، فمن المعقول أن نخاف من الفوضى التي قد تهلك جنسنا؛ ولذلك، نتخذ الحيطة التي تنقذنا من اضطراب مشئوم؛ فنجمع النصائح التي توعز بها إلينا غريزة حفظ النوع، في قانون. لأن هناك «أنانية» شرعية، تبقى على حياة الجماعة؛ إن الأنانية لا تصبح مرذولة إلا إذا هددت كيان الجماعة، وبالتالي هددت الفرد نفسه، بحسبانه جزءاً لا ينفصل من

(١) - بيان مأخوذ من «مقال عن الإدراك الإنساني» الكتاب الأول، الفصل الثاني.

الكل. إن الخير الأخلاقي ليس شيئًا تقديريًا، مثل الشهرة، والمال، والمتعة، بل إنه ضرورة حيوية: إن معناه حفظ الإنسانية.

يقول أشياع ذلك المذهب إن له فضلاً يستحق الاعجاب، فضلاً ليس له مثيل: فإن هذه الأخلاق يمكن إثباتها. لأنها لا تستند على فرض أولي مسلّم به، بل على حقائق واقعية يمكن تحليلها تمام التحليل. لننظر في أنفسنا: نحن نسمي «خيرًا» ما يمكن أن يولد، أو يزيد، أو يحفظ إحساسنا المتعة؛ وبعكس ذلك نسمي «شرًا» ما يمكن أن يولد أو يزيد أو يديم إحساسنا الألم. لذلك، فإن منفعتنا الحقة، أو بمعنى أصح كياننا بالذات، يدفعنا إلى طاعة القوانين المدنية، ما دمنا، بمراعاتها، نحفظ مالنا، وحريتنا، وبذا نعمل على دوام وضمان متعتنا الذاتية. أما إذا لم نراعها، فإننا نعرض أنفسنا للعقاب ثم الاضطراب، ثم الفوضى التي لا حياة فيها بلا ألم، أو حياة فيها على الاطلاق. والأمر لا يختلف فيما يخص الأمور التقديرية: فالفضيلة تكسبنا تقدير ومحبة الأشخاص الذين نعيش بينهم، وبالتالي تزيد من متعتنا؛ أما الرذيلة، فتسبب التأنيب، والنقد، والعداء، وبالتالي تسبب الألم[1].

* * *

ولكن، هل الخير الاجتماعي هو الفضيلة الصرفة؟ هل تنجح جماعة تنفذ واجبها بتمام الدقة في أن تزدهر أو حتى في أن تعيش؟ ذلك ما لم يشك فيه لوك؛ ولكن ذلك أيضًا هو ما شكك فيه ذهن خبيث، متحرر، أزعجه علماء الأخلاق الذين يزعمون أن ليس في قلب الإنسان إلا الكرم، والعطف، والايثار. كان هذا الرجل هولانديًا متجلنزًا، يدعى «برنار دي ماندفيل» وكان من طائفة الفلاسفة المحدثين، بمعنى أنه كان يعلن تفكيره بكل حرية، دون أن يحسب حسابًا لقادة الفكر، أو العادة، أيًا كانت قيمتها. تدفعه جسارته إلى حب الآراء الغريبة التي تثير

(١) - لوك: «مقال عن الإدراك الإنساني» الكتاب الثاني، الفصل ٢٨.

ضجة. والحق أنه أثار ضجة، لما بدأ يحكي قصته. كان قد حاول، قبل ذلك، أن يقلد قصص «إيزوب» و«لافونتين»؛ ولكن قصته هذه لم توضع للأطفال.

لقد ظهر في ٢ أبريل عام ١٧٠٥ كتيب في ستة وعشرين صفحة، دون اسم المؤلف: «الخلية الطنانة، أو اللصوص الذين انقلبوا شرفاء». ذات مرة، كان هناك خلية تشبه مجتمعًا بشريًا حسن التنظيم. لا ينقصها اللصوص، ولا المتعيشون على الاحتيال والاختلاس، ولا الأطباء الفاسدون، ولا القساوسة الفاسدون ولا الجنود الفاسدون، ولا الوزراء الفاسدون، وكان لها ملكة فاسدة. وكانت تحدث كل يوم خدع وسرقات في هذه الخلية؛ والسلطة القضائية التي كان عليها أن توقف هذا الفساد، كانت هي نفسها فاسدة. الخلاصة، كانت كل وظيفة، وكل طبقة مليئة بالرذائل: ولكن ذلك لم يحل دون ازدهار الشعب وقوته. والواقع، أن رذائل الأفراد كانت تشارك في الرفاهية العامة: وفي مقابل ذلك، كانت الرفاهية العامة تولد سعادة الأفراد. ولما أدرك كبار الأشقياء ذلك، أخذوا يشاركون بكل جهدهم في سبيل الخير العام.

لكن حدث تغير في عقول النحل، إذ واتاه تفكير غريب في ألا يقبل بعد ذلك إلا الشرف والفضيلة، فطالب باصلاح كامل. وكان أعلاه صوتًا أعلاه بطالة ولصوصية. حينئذ أقسم «جوبيتر» أنه سينقذ هذه الخلية الزائطة من الرذيلة التي كانت تشكو منها؛ قال ذلك: وفي الحال، استولى حب الخير المحض على القلوب.

وسرعان ما سبب ذلك دمار كل الخلية. لم يعد بعد لا إفراط، ولا أمراض: وبالتالي لم تعد حاجة إلى الأطباء. لم يعد بعد نزاع، ولا دعاوى: فلم تعد حاجة إلى المحامين ولا إلى القضاة. ولما أصبح النحل مدبرًا وقنوعًا لم يعد ينفق شيئًا: وبالتالي لم يبق ترف ولا فن ولا تجارة. وبذا عم الحزن والخراب.

وجد النحل المجاور أن الوقت مناسب للهجوم؛ فبدأت المعركة. ودافعت الخلية عن نفسها وانتصرت على الغزاة، ولكنها دفعت ثمنًا غاليًا لهذا الانتصار.

لقد مات في هذه المعركة آلاف من النحل الشجاع. وطار باقي النحل -في عزة ووقار- إلى جوف شجرة، خوفًا من أن يقع في الرذيلة مرة أخرى. لم يبق للنحل إلا الفضيلة والبؤس.

«أبطلوا شكواكم، أيها الحمقى! إنكم تحاولون عبثًا أن تربطوا بين عظمة الشعب والفضيلة. لا يتوهم إلا المجانين أنهم يمكنهم أن يتمتعوا بخيرات الأرض، وأن يكتسبوا الشهرة في القتال، وأن يعيشوا في يسر ورخاء، وأن يكونوا في نفس الوقت فضلاء. أتركوا هذه الأحلام الزائفة! ينبغي أن يدوم الخداع، والترف، والبطلان، إذا أردنا أن نتمتع بثمارها الشهية ...».

ما أكثر المناقضات التي أعقبت هذا الكلام! ما أكثر ما أثاره من نقاش! كان «برنار دي ماندفيل» أزرق الناب، ولم يسمح بأن يفوت شيئًا أيًا كان. إنه عاش طويلاً، ولكن قصته هذه عاشت أطول مما عاش، وما زلنا نناقشها إلى الآن.

الفصل الخامس

السعادة على الأرض

السعادة؛ أنتركها وديعة بين يدي العالم الآخر؟ هناك ستكون الظلال خفيفة، واهية؛ بل تكون ظلال، ولكن بعض الجوهر الأبدي، الذي يستحيل أن نتصور صورته. لن يكون هناك إكليل غار، ولاقيثار، ولاموسيقا سماوية. السعادة؛ فلنقتنصها على الأرض. أسرعوا، نحن في عجلة؛ لاضمان في الغد، ولاعبرة إلا بالحاضر؛ غافل من يقامر على المستقبل؛ فلنضمن أولا رفاهية بشرية صرفة.

هكذا فكر علماء الأخلاق المحدثون، الذين أخذوا يبحثون عن السعادة في الحاضر

* * *

لكي نحقق حياة سعيدة، يمكن أولاً (كوسيلة أولى) أن نفكر في هدوء ودعة، كما يليق بالفطنة الخالصة، وأن نلطف من حدة الخيال الذي يبالغ في تصوير الشرور. لأنه إذا تعلق الأمر باختراع الشرور، فمقدرتنا لاتحدها حدود؛ نحن نضخمها، ونظنها غريبة ليس لها دواء؛ بل إننا نحس بعض الميل إلى الألم، ونعزه. ولهذا الخيال الخادع عيب آخر: فإنه يهدف إلى متع مستحيلة؛ إنه يغرر بنا باكثاره من السراب: فنسرع للحاق به؛ ولما كنا ننخدع في كل مرة، فإننا لم نعد نقدر سأمنا. فلنتعلم كيف ننظر إلى الحياة على ضوء الواقع، ولانطلب منها أكثر من

طاقتها. إننا نشكو دائماً من حالة لاترضى: ولكن، لو فرضنا أننا اطلعنا، قبل ولادتنا، على كل الحوادث، وكل المصائب التي يمكن أن تكون من نصيبنا: أفلا تتملكنا الدهشة؟ وإذا قدرنا الأخطار التي نجونا منها أفلا نكون في أوج السعادة بأننا ضمنا سلامتنا بهذا الثمن الزهيد؟ «العبيد، وأولئك الذين لايجدون الكفاف، وأولئك الذين لايعيشون إلا من عرق الجبين، وأولئك الذين تنهكهم الأمراض، هاك قسماً كبيراً من الجنس البشري. ما كان أقربنا من أن نكون من هؤلاء! فلنعترف إذن بمدى الخطر في كوننا بشراً، ولنحتسب ما لم يصبنا من البلايا، عدداً من الأخطار نجونا منها [1]. »

وبما وصلنا إليه من نظرة سليمة، فلنسع إلى إدارة رزقنا إدارة حكيمة: لعله قليل، ولكنه حقيقي. فلنعن بتجنب الشهوات، التي ليس وراء عنفها إلا الحزن والارتباك؛ فلننشد الهدوء. وإذا ردد الناس أنه لاطعم له ولالذة، فلنهز أكتافنا: «أي فكرة لدينا عن حالة البشرية، لو شكونا من الهدوء؟» فلنعرف كيف نبتعد عن المراكز التي تطمح إليها الأنظار، الشهرة، والطمع، وكل الأخطار التي تهدد الرحلة الهادئة لزورقنا المسكين، الذي يجب أن نقوده برفق نحو هدوء الميناء. فلنكن متفقين مع أنفسنا: إن ضميراً واثقاً بنفسه لنعم الملجأ لنا. ولنحرص على رزقنا القليل، حرص البخيل، مخافة أن نضيع منه أي نزر يسير. إن ضربة من ضربات الحظ يمكن دائماً أن تحرمنا منه، بالرغم من تحوطنا الدقيق. أما إذا احتطنا وسهرنا عليه، فإن حظنا في الاحتفاظ به ليزيد: لأننا، بقدر ما نكون عقلاء، نكون بناة لحياتنا.

متع بسيطة، نصيب متواضع من سعادة لانستطيع الوصول إليها؛ حديث ممتع، أو رحلة صيد، أو مطالعة كتاب: في ذلك ما يكفي لشغل أيامنا. فلنتذوق هذه المتع المضمونة بدلاً من الاعتماد على غير المضمون. «إننا نملك الحاضر بين يدينا، ولكن المستقبل دجال مشعوذ يخطف الحاضر منا، - ساحراً عيوننا. » فلنتمتع

(١) - فونتنل، عن السعادة. ولقد تبعنا أفكار فونتنل من قريب، في كل هذه الفقرة.

بالخيرات البسيطة، كأنها وهبت لنا من قوة تستطيع أن تحرمنا غداً من هباتها بنزوة من نزواتها. فلنحذر تفويت سوانح الفرص، ولنحذر الخطأ في خصائص المتع. «المسألة مسألة حساب، والحكمة تقتضي أن نوفر دائمًا في حجارة اللعب ...»

إن ذلك الموقف للمقامر الماهر، الذي لايكف عن الاهتمام باللعب، والذي يضارب أو يتخلى عن المضاربة بدارية، لايخلو من بعض الجمال. لنعترف مع ذلك أنه ليس في طوق الجميع، بل يقتضي ذكاء بصيراً وثبات جأش خارقًا للعادة؛ وينظر إلى الشهوات كأنما يكفي أن نستعمل عقلنا للتغلب عليها، وإلى الخيال كأنه عبد ذليل؛ ويفترض يسر الحال، واستقلالاً، ووقت فراغ: سعادة أنانية ...

* * *

يعرض البعض لنا ضربًا آخر. الشيء الذي يجب أن نستأصله من روحنا، لكي تحس تمام الراحة، هو الشعور بمأساة الحياة. إن هذا الشعور يبعث في نفوسنا الألم طوال حياتنا، وحينما يحين حيننا، يثور ويهتاج: حينئذ تلوح مأساة أخرى، مأساة الآخرة. ماأسعدهم، أولئك الذين رحلوا إلى الشاطئ الآخر بثغر باسم[1]. لم يعرفوا ذلك الاضطرام الحالك عدو طمأنينة النفس، الذي لايكفيه إزعاج من يتملكهم، بل يخلق فيهم حمية متعصبة لاذاقة غيرهم العذاب. حماسة، تجلّ، خوف معذب على الدوام، تخيلات مرعبة عن الجحيم والعذاب، كيف نستبعد كل ذلك؟

بطريقة بسيطة؛ بفضل استعداد فكري يسمى الخلق المرح: good humour, good nature يكفي أن نجده. ضع على أنفك منظاراً ناجعًا، ذا لون وردي جميل: يضحك لك كل شيء. يوم تصبح الانسانية مستعدة للابتسام، يوم تزول تلك الجفوة الفكرية التي تزيد حدة الشرور. لاتستخفوا بفضل «الخلق المرح»، فإنه فضيلة فعالة تؤثر كعلاج دائم. يقول سبكتاتور- الذي شرع، كما هو معلوم، في

(١) - ديلاند Deslandes تأملات عن العظماء الذين ماتوا بثغر باسم، ١٧١٢.

إصلاح معاصريه رويداً رويداً، موزعًا عليهم قليلاً من الأخلاق في كل صفحة من صحيفته- إن الخلق المرح ثوب يجب أن نرتديه كل يوم: كم يكون العالم أفضل!

لقد وجد هذا الشعور المتفشي، الذي لم يكن مجهولاً في فرنسا، ولكنه كان أقوى في انجلترا، بماله من تأثير ناجع ضد الميل العام إلى السوداء Spleen -الذي لاحظه المواقبون- وضد التعصب البوريتاني- وجد مفسراً مهذباً في شخص أنطوني أشلي كوبر، كونت دي شفتسبري Shaftesbury. نحب أن نتملى بضع لحظات في هذا الوجه الرقيق. كان لدى شفتسبري، على ما يظهر، أسباب كثيرة تدعوه إلي التفاؤل: فهو عريق الأصل، ابن لرجل الدولة، حامي لوك؛ وكان لوك نفسه يشرف على تنشئته؛ ولما كان غير معد للحياة السياسية، فقد استمرأ رويداً رويداً متع الفكر والفن؛ ولما كان غنياً فقد استطاع السفر، واقتناء الجميل من اللوحات والنادر من الكتب، ومساعدة المحتاجين من رجال الأدب، من أمثال دي ميزو وبايل، ولي لكير: كان الحظ قد حباه بكل هباته. لم يغفل منها إلا واحدة: الصحة. ذلك أنه كان مصدوراً؛ فترك قصره، وأراضيه، وأصدقاءه، ووطنه، باحثًا بلا جدوى في جو مونبلييه، ثم في نابولي، عن علاج للمرض الذي قضي به نحبه، في الثانية والأربعين. بحيث إنه كان لديه أسباب كثيرة للتفاؤل، وسبب واحد، فاصل، لكي يلعن الحياة.

إنه يجدها جميلة، ويجدها سعيدة: وبذا تأخذ تأكيداته، الوادعة، والباسمة بالرغم من ألمه، لهجة مؤثرة. سواء في بستان انجليزي عريق الشجر، أو في ضوء البحر المتوسط الشفاف، يتكلم شفتسبرى مع أقرانه؛ لايبدو حديثه أبدا ثقيلاً متكلفًا، بل لطيفًا بسيطًا؛ وإذا كان فيه عيب، فهو تشعبه وأناته. حينًا يذكرنا بأجمل أفكار فلاسفة اليونان، أو شعراء اللاتين، فتزينه دون جهد؛ وحينًا يستعين بالحاضر، فيوقظ واقعة معاصرة، أو شخصية حية: وهكذا ينوع مفاتنه. لايستخف بالسخرية، أو بمعنى أصح بالدعابة: فالمعنى ليس واحداً؛ إذ السخرية للفرنسيين، والدعابة للانجليز. إن لهجته الملتوية تتسلط عليها فكرة ثابتة، اعتقاد يرمي إلى الاستحواذ على القلوب بافتتانها. كيف نصل السعادة؟

بجعل الناس أكثر إنسانية -إذا صح التعبير- وبتجريدهم من تلك الرزانة الباطلة، ومن نفاقهم، ومن الحماسة التي تخدعهم في شأن مشاعرهم الحقيقية. إن العدوالذي يهاجمه شفتسبري في «رسالة» بقيت بحق مشهورة [1] هو الحماسة: لاتلك العبقرية المبدعة التي تخلق روائع الجمال؛ بل الحماسة الدينية، التي تدفعنا إلى الاعتقاد بأننا نملك شرارة من الألوهية، بينما نحن في الواقع إنما نحبذ أسوأ نقائصنا: الحزن، الكسل في التفكير، التعلق بالغريب، الغرور، الزهو الباطل، وأكثر من ذلك فضول التطفل على حياة الغير واضطهاد الضمائر؛ وعادة الحقد والقسوة... فلنستعمل ضد الحماسة سلاح العقل السليم، وحرية الفكر، بل حتى -وهذا أقل ما كنا نتوقعه- السخرية في الوقت المناسب.

لنتعلم الضحك: ليس هناك مبدأ أصوب منه في الطب النفساني. هل من الصواب أن نستسلم للغضب، ونقابل حدة المحتدين بالحدة؟ كلا! بل الأفضل أن نضحك. فلنزل تعاظم المتعاظمين، ولنسخر من المحزونين؛ أما المتحمسون، فلنهزأ بهم.

ها هم أولاء بعض المساكين من اللاجئين إلى لندن، البروتستانت الفرنسيون القادمون من السيفين؛ إنهم بحماسة مقدسة، ويتنبأون، ويقعون في الهذيان؛ حتى أصبحوا خطراً وقبضت عليهم السلطات. هل ينبغي أن نسجنهم؟ أن نحكم عليهم بالاعدام؟ أن نجعل منهم شهداء؟- لقد مثلهم الناس تمثيلاً تهريجيًا في المساخر، وهذا فيه الكفاية: فإنهم يفقدون، بعد هذه السخرية، كل أهميتهم. لنترك المرض الذي انتابهم يأخذ مجراه، ولنضحك، ولنبتسم: وسيفقد قوته، وسيشفى من تلقاء نفسه. آه... ! لو أننا تصرفنا هذا التصرف في كل المجادلات الدينية، منذ بداية الأزمان، كم من أكوام من الحطب كنا أطفأنا وكم من أرواح كنا أنقذنا!

يجب أن نعامل الدين بلاتكلف: فإن المرح يقود إلى الإيمان الصحيح، والسآمة تقود إلى الكفر. فإذا كان الله رحيماً، وهو لاشك رحيم، فلنفكر في شأنه

---

(١) - رسالة عن الحماسة، ١٧٠٨. Aletter concerning Enthusiasm

في حالة نفسانية هادئة، بدلاً من الخوف والغم. أي زيغ يجعلنا لانبتهل إلى السماء إلا ونحن في بؤس، أو قلق أو مرارة؟

«الخلاصة، يا عزيزي اللورد، أن الطريقة السوداوية التي نباشر بها أمور الدين هي التي تجعله، في اعتقادي، مفجعاً إلى هذا الحد، وتدفعه إلى خلق كل هذه المآسي المؤلمة في الدنيا. إن رأيي هو الآتي: طالما نحن نعامل الدين بالحسنى، فلاخشية من أن نستعمل حياله مرحاً زائداً عن الحد، ولا أن نتمادى في حرية فحصه، أو أن نرفع الكلفة بيننا وبينه. لأنه إذا كان حقيقياً، فلن يحتمل الفحص فحسب، بل سيفيد منه؛ وإذا كان مختلفاً مزيفاً، فسينكشف ويفتضح.»

كان طبيعياً، بل ضرورياً، أن يجابه شفتسبري الرجل الذي كان أكثر ما يكون إحساساً بفاجعة الحياة: باسكال. إنه يعرف نظرية الرهان[1]، ويرفضها. يقول: إن

(١) - نظرية الرهان: ذات يوم طلب عالم رياضي من باسكال أن يقنعه بالبراهين الهندسية بوجود الله. ولما عارض باسكال بأن الله يخرج عن متناول العقل لأنه أبدى لامتناه، رد العالم بأنه من المستحيل حقاً أن نعرف ماهية الله ولكن ليس من المستحيل أن نعرف وجوده. وضرب مثلاً لذلك، العدد اللامتناهي الذي لاشك في وجوده وإن كنا لاندرك ماهيته. فأجاب باسكال بأن ذلك يرجع إن أن بيننا وبين اللامتناهي صلة بالنسبة للامتداد، وتفاوتا بالنسبة للحدود. أما الله فليس له امتداد ولاحدود، ولذلك لايمكننا إدراك وجوده إلا استناداً على الإيمان والأنبياء والكتب المقدسة. ولكنه لم يشأ أن يعترف بالعجز، فاضطر إلى أن يضع نفسه في مكان سائله وأن يقنعه باستدلال بسيط، فضرب مثل الرهان وقال: «إن عدم المراهنة على وجود الله مراهنة على أنه غير موجود. فإلى أي جانب تنحاز؟ فلنزن المكسب والخسارة بالانحياز إلى الجانب المراهن على وجود الله: إذا تكسب الكل، وإذا خسر لاتخسر شيئاً. راهن إذن على أنه موجود دون تردد ...» (أفكار باسكال، بقلم ستروفسكي، الفصل السادس، الرهان). Les Pensées de Pascal par Strrowski, de I,Institut [المترجمان]

وقد انتقد فولتير أفكار باسكال ومن بينها هذه فقال: «تبدو هذه الفكرة باطلة غير لائقة فإن فكرة اللعب هذه، والمكسب والخسارة، لاتليق بجدية الموضوع. غير أن صالحي في الاعتقاد بشيء لايثبت وجود هذا الشيء. تقول إنك ستعطي إلى مملكة الدنيا إن كنت أصدق بأنك على صواب. أريد إذن بكل قلبي أن تكون على صواب؛ ولكن، إلى أن تثبت ذلك، لاأستطيع أن أصدق كلامك. إذا كنت تريد أن تقنعني فاستعمل طرقاً أخرى، ولاتتكلم عن اللعب، والرهان، والوجه والظهر. لاترعبني بالأشواك التي تبذرها على الطريق الذي أريد أن أتبعه، بل يجب أن أتبعه. إن استدلالك هذا لايصلح إلا لدفع الناس إلى الكفر، لولا أن الطبيعة كلها تنطق بوجود الله، بقوة وصراحة بقدر ما يبدو في برهانك من ضعف وإبهام.» (فولتير: رسائل فلسفية الرسالة ٢٥، عن أفكار باسكال). [المترجمان]

الرهان على الدين، بحيث إذا كان الله موجوداً نكسب كل شيء، وإذا لم يكن موجوداً لانخسر شيئاً، يعني تقليد المتسولين الماكرين الذين نقابلهم في الطريق. إنهم يقولون لكل مار: يا مولاي. فإذا كان المار لورداً، فسيغضب لو لم يخاطب بلقبه، وإن لم يكن لورداً، فسيفرح لتعميده بهذا اللقب؛ وهو في الحالتين، سيجود بالحسنة على هذا المتسول... أفليس إهانة لله أن يستند إيماننا على مثل هذا الحساب؟

إن الله ذاته ليس مرعباً. إنه ليس جائراً، كما يريده أشياع «القدرية». إن الله ليس حانقاً علينا، كما يريده أولئك الذين يخافون من العذاب الأبدي. لايجبر الله الناس على أن يكونون متغرضين ومنافقين، كما يريده أولئك الذين يتمسكون بأهداب الفضيلة ابتغاء أجر في الآخرة. إن الله هو الطيبة، والإحسان، المنتشر في العالم: فمن كان طيباً، محسناً، فهو به على اتصال.

«إن محبة الغير، والسعي في سبيل الخير الشامل، والعمل لصالح الجميع، بقدر ما في وسعنا من إمكان، هو بلاشك الوصول إلى الطيبة المثلى، إنه تحقيق ذلك الخلق الذي نسميه إلهياً...»

مجادلات، ومنازعات، ومناقشات، وضوضاء، ذلك ما شهدناه عشرين مرة، في ذلك العصر الذي لم يكن قد اعتراه الملل، الذي كان يكره عدم الاكتراث، الذي كان يخاف الشك، والذي كان يبحث. إن شفتسبري، وإن كان مقتنعاً بذلك مثل معاصريه، إلا أنه يسمعنا لهجة أقل حدة؛ فإن تحضّره، وداعته، ورقته الأرستوقراطية، وغناه بالمحبة واللطف، ومذهبه الذي يعتقد أنه عقلي بينما هو ليس إلا فضفضة عاطفية لقلب كريم، تريحنا وتؤثر فينا. والأمر الذي لايصدق، هو أن هذا العالم الأخلاقي لايستطيع أن يكره الناس، ولا أن يشتد في حكمه عليهم؛ ولايعد الزمن الذي يعيش فيه سيئاً: حقاً، إنه زمن زاخر بالشذوذ وبالجنون، ولكنه شذوذ نشهر به، وجنون نسمه بالفضيحة؛ زمن يحييه نقد حر، هو بداية السلام. وإذا وجدنا علاج شفتسبري بسيطاً جداً، ووصفته عن السعادة

غير كافية، وفلسفته جد مألوفة أو بيتية، كما يقول في رسالته: -this plain home spun philosophy of looking into ourselves, this plain honest morals فإن عزمه لايثبط بتلك السهولة: بل يريد أم يجعلنا نتذوق، دون أن نترك الأرض، الملذات السماوية بفضل سحر الجمال.

Beauty and Good are one and the same الجمال والخير شيء واحد. مادام الكون انسجاماً، فلا يمكن أن نتصور فيه شذوذاً؛ ومادام وعينا الأخلاقي بالخير والشر يرمي إلى تحقيق هذا الانسجام، فيجب أن نريد هذا الانسجام بتمامه. إن الرذيلة خطأ «أستطيقي»؛ وارتكاب هذه الخطيئة بالاختيار بعد أولاً تعدياً على المنطق، ثم تعديا على الأخلاق، ثم تعديا على الذوق السليم. فكما يمثل الفن روائع عالم المحسوسات، - التي هي انعكاس «الفكرة» المنظمة للأشياء- فكذلك يجب أن يحاول الإنسان أن يمثل في ذاته، الجمال الأخلاقي، أو المثل الأعلى للجمال الأخلاقي، الذي ليس إلا انعكاساً آخر لنفس الفكرة. إن المرء فنان ينحت تمثال نفسه؛ يولد من نفسه أفكاراً صحيحة، وأفعالاً فاضلة، وصوراً جميلة؛ وهذه المجموعة، التي تحققها إرادته المبدعة، هي ما نسميها السعادة. إن الكافر يحرم نفسه من هذه المشاركة في النظام؛ إنه مخطئ، إنه شرير، إنه ينشر القبح في العالم، إنه تعس.

هكذا يفكر الرجل الذي أسميناه بحق «فنان الانسانية الموهوب». وهو، لكي يقتنع بأن الأخلاق اجتماعية في جوهرها، يصغي إلى لوك، الذي كان مربيًا له. ولكي يتكلم عن السعادة، يصغي إلى سبينوزا: الذي يرفض فكرة الخطيئة، ثم ينصح الحكيم أن يتذوق متع الحياة، ورقة العطور، وجمال النبات، والموسيقا، واللهو، والتمثيل: فلن يستمرئ دموع الجنس البشري إلا إله يعاديه. ليس سبينوزا مغموراً ببهجة خفية عميقة فقط: فإن البهجة، عنده، هي الشعور بتحقيق صفة سامية للكائن؛ والحزن، هو الشعور بالحط من شأن الكائن؛ ولكنه فوق ذلك، يقدر ثمنًا عاليًا، أو قل قيمة فلسفية، للمرح. وشفتسبرى يتبعه؛ ولكنه، يفضل

الخير دائماً، ولذا نراه يتبع أفلاطون أيضًا. فإذا كان الوقت الذي يعيش فيه يذكرنا، من كل نواحيه، بزمن النهضة، فكيف يمكن أن يغيب فيه ذكر أفلاطون؟ إن أساتذة كامبردج يتبعون مذهبه بشيء من التقديس؛ يشرح «كادورت» الدنيا بخواص «بلاستيكية» تقبل التشكيل، وسيطة بين الأفكار والخليقة. ويحب شفتسبرى أن يتأمل الظلال الكبيرة، في لعبتها الإلهية على جدار مغارتنا[1]. يتخيل أنه يكفي أن نصغي إلى انسجام الأفلاك، لكي نكف عن الشكوى والصراخ.

وفي نهاية عمله، يبدو له أن السعادة لم تعد تظهر في المذهب الرواقي، الذي يحتمل بل يحتقر الشرور التي لايستطيع أن يتفاداها. لاتشتري السعادة بالزهد، أو بالكبت الدائم لطبيعتنا الفاسدة. لم تعد الأرض مقراً للامتحان، حيث المصائب التي تثقل كاهلنا أرفع قيمة من المتع، لأن أولئك الذين يبكون سيجدون عزاء[2]. يريد العالم أن يحول أنظاره عن المسيح المفجع، الذي صلب لانقاذ البشر؛ لم يعد يريد أن يسمع نداء ذراعيه الأبكم. إن السعادة إبراز قوة كامنة في أنفسنا يكفي أن نحسن توجيهها. فارتضاء العذاب، وشهوة التضحية، والكفاح ضد الغريزة،

---

(١) - رمز المغارة Allégorie de la Caverne -شرح أفلاطون نظريته عن الأفكار في رمزيته المشهورة عن المغارة حيث يمثل الناس بقوم مكبلين بالأغلال: تحت الأرض مغارة ينيرها ضوء خاب ضعيف ينفذ من كوة في أعلى المغارة. وفي المغارة أناس مكبلون بالأغلال من أيديهم وأقدامهم، بحيث إنهم لايستطيعون حراكًا ولايرون إلا الصخرة التي أمامهم. من ورائهم يمر بعض الرجال يحملون تماثيل من الحجر. وفي جوف المغارة نار موقدة تلقي بظلال التماثيل على الجدار. من البديهي أن أولئك الناس المقيدين بالأغلال لايرون إلا ظلال هذه التماثيل على الجدار الذي يقع أمامهم. فيعتقدون أن الحقيقة هي هذه الظلال -يقول أفلاطون إنه ينبغي تشبيه عالمنا المرئي بالإقامة في السجن، وضوء النار التي تنيره بتأثير الشمس. فلأشياء التي مرت هي الأشياء التي تخص العالم الذي لاوجود له إلا في الفكر، والشمس التي تنيرها هي فكرة «الخير» علة العلم وعلة الوجود. أنظر: مجموعة مصنفات أفلاطون، طبع جارنييه، الجزء الرابع (جمهورية) الكتاب السابع، ص٢٤٧، وعلى الأخص مقدمة الجزء الرابع Robert Baccou ص٤٢، ومقدمة شامبرى Chambry في الجزء الأول. [المترجمان]

(٢) - بوسويه: رثاء ماري تيريز النمسوية Oraison funébre de Marie-Thérése d,Autriche «المسيحي ليس حيًا على الأرض أبدًا، لأنه يتعذب فيها دائمًا، والعذاب تمرين، إمتحان، بداية الموت»

وجنون الصليب، كل هذه ليست إلا أخطاء في التقدير وعادات سيئة. إن إله العقل يحرم علينا أن نتصور وجودنا الفاني كاستعداد للخلود.

* * *

شاركت في تأسيس السعادة على الأرض فضيلة؛ فضيلة جديدة.

لم تكن تبدو فضيلة في ذلك الوقت؛ بل كانت ضعفًا، بل تكاد تكون جبنًا. التسامح حيال كل الآراء، التسامح حيال رأي أخي، ولو كان مخطئًا، ولوانتهى الأمر به إلى فقدان روحه؛ التسامح حيال رأي أدعياء النبوة والكاذبين- هذا يعني أننا شركاء علنا في الباطل والضلال. بينما الواجب على النقيض، هو أن نفتح عيون الذين يعمهون، وأن نهدي الضالين إلى الطريق المستقيم. لاريب في أنه لاينبغي أن نشتد على الضمائر: ولكن هل يجوزلنا أن نتركها وشأنها، بينما نعرف أن اليقين واحد، وأن السلام الأبدي يتوقف على معرفة اليقين؟ إن الواجب يمنعنا من التسامح، وبالمثل الشفقة. إذن، لايمكن أن يكون المتسامحون إلا سوسنيانيين متنكرين، أناسًا يمحون الصفات التي تميز الكنيسة الحقيقية، أناسًا يتقبلون كل المارقين في وحدة الإيمان؛ ارتيابيين، يعلنون أن لافرق هناك ولا مفاضلة بين الأديان؛ عصاة، عقولاً قوية. كان من المستحيل أن يكون رجل مثل بوسويه متسامحًا؛ ولارجل مثل بيليسون، حتى حينما كان يفاوض ليبنتز في رجوع البروتستانت إلى الكنيسة الرومانية. لقد كتب إلى ليبنتز في عام ١٦٩٢-«أعتقد أن من نسيمهم سوسنيانيين، ومعهم من نسميهم أشياع الديزم وأتباع سبينوزا، قد شاركوا كثيراً في انتشار ذلك المذهب، الذي يمكن أن نعده أكبر الأخطاء، لأنه يتفق معها كلها. ولما كانوا يخشون ألا يحتملون الناس، وأن تتدخل السلطات المدنية في شئونهم، فقد وجدوا صالحهم في أن يقولوا باحتمال كل شيء. من تولد «مذهب التسامح»، كما يسمونه؛ وتولدت كلمة أخرى أحدث من الأولى، هي عدم التسامح الذي يتهمون به الكنيسة الرومانية ...»

ولكنه كان يتكلم بلا جدوى؛ وكان هناك تغيير ينتاب الأمور ، وكان يستشعره جيداً؛ وجعل التسامح -بعد عناء شديد وجهد كبير طال سنين وسنين- يتخذ لوناً جديداً، فيصبح فضيلة.

كان رهان معركتين، إحداهما سياسية، والأخرى دينية. نعم، إن لملك فرنسا الحق في استعمال القوة لارغام العنيدين على الرجوع عن غيهم؛ ولحكام هولاندا الحق في أن يعزلوا من الوظائف وأن يزجوا في السجن من يأبون الاعتراف بأي سلطان في موضوع التفكير، وبذا يعكرون السلام ويهددون كيان الدولة؛ ولملك انجلترا الحق في أن يحرم من حماية القانون، أولئك الكاثوليك البشعين الذين يعلنون دائماً سيادة روما على السلطات المدنية. -كلا. لايستطيع الناس ولايجوز أن يزعجوا الضمائر في نشاطها، لأن كل هذا الموضوع من اختصاص اللّه وحده. إن روحاً مسيحية حقة، لتعلم وتشعر أن الاضطهاد يخالف روح الانجيل مخالفة الظلام للنور. بحيث إن ملكاً مسيحياً يجب أن يكون متسامحاً حيال كل رعاياه، طالما يحترمون حكمه السياسي. هكذا كان وليم أورانج، كما قال المؤرخون البروتستانت. -«قال إنه كان بروتستانتياً، وبصفته هذه، لم يستطع أن يتعهد إلا بالاحتفاظ بدين الاصلاح، وإنه على كل حال، لم يعرف على وجه الدقة ماذا يعني الكفر، ولاإلى أي حد قد يمتد معنى هذه االكلمة؛ أما عن نفسه، فإنه لن يحتمل أبداً أن يضطهد أحداً من أجل دينه، وإنه لن يعمل على تغيير إيمان أحد أيًا كان، إلا بالإقناع، حسب الانجيل[1]. » ولقد وضع في عام ١٦٩٠ «عقد التسامح» مقابل «فسخ أمر نانت.»

وكانت المعركة الدينية أشد. أعطى إشارتها الأولى، عام ١٦٧٠، الراعي «هويسو»، حين عرض على المذاهب أن تلقي السلاح، لانتخاب عقيدة من السعة بحيث تشمل العالم بأسره. الأمر الذي دفع جوريو إلى الاحتداد؛ يقول لنا إنه ألف

---

(١) - دافيد دوراند David Durand : تاريخ انجلترا منذ تأسيس الرومانيين ... ، لرابين تويراس Thoyras ١٧٢٤- ١٧٣٦. الجزء الحادي عشر، ص٤٨ : شعوره عن التسامح.

كتابه «فحص في كتاب الوحدة أو بحث عن التسامح في موضوع الدين» بقصد مناقضة هويسو: «إن كرهي لهذا التسامح المهين نحو الالحاد لهو عندي داء قديم قد اشتد على مر الزمن.» واستمر الكفاح في أرض الملجأ؛ وأخذ الطرفان يتقارعان بالحجج دون أن تتلاقى؛ وتتابعت الأبحاث تلو الأبحاث. وبين أكثر رعاة البروتستانت عرفانًا، مثل «هنري باناج دي بوفال»، و«جيديون هوية»، وألي سورين Elie Saurin، أن عدم التسامح، لاالتسامح، خطيئة ضد الفكر؛ وإذا كانوا حقًا، قد حرموا الكاثوليك من عطفهم ورعايتهم، كما فعل بهم «وليم الثالث» باستبعادهم من «عقد التسامح»، - فقد حالفوا على الأقل علماء وحكماء هولنديين، مثل «جلبرت كوبر»، وأدريان باتس Paetsونودت Noodt، المخلصين لتقاليد بلادهم الحرة: وكانوا جميعًا يسعون في سبيل إقامة فضيلة من الصعب إقامتها. وكانت أحيانًا تظهر عواصف تفسد كل شيء: لقد تسبب بايل في اشتداد تلك المجادلات العنيفة، بنشر «إعلانه للاجئين»- الذي نسب إليه بحق أو بغير حق- والذي كان يحمل على عدم التسامح البروتستانتي حملته على عدم التسامح الكاثوليكي. ولكن لم تكد العاصفة تهدأ، حتى تغيرت نظرة الناس نحو التسامح، فبدا لهم مزدانا بغصن الزيتون.

كان لوك أكثر الجميع إنسانية. ليس في تلك الكتلة من المؤلفات نداء أبلغ ولاأكرم من مؤلفه «رسالة عن التسامح» EpistoLa de Tolerantia الذي نشره في عام ١٦٨٩ والذي دافع عنه حتى مماته. كان لوك يقول بأعلى صوته: تذكروا أن التسامح هو جوهر المسيحية. لأنه إذا أعوزتنا الشفقة، والرفق، والعطف، فكيف نجرؤ على الزعم بأننا مسيحيون؟ إن الإيمان يؤثر بفضل الشفقة لا بفضل الحديد والنار. وهل ينبغي أن يحرق الأخ أخاه، من أجل بعض الاختلاف في الآراء، التي لن نعرف صحتها من بطلانها قبل يوم القيامة؟ فليحارب الثائرون الغيورون- إذا راموا أن يعملوا- الرذائل والجرائم التي يرتكبها كل يوم إخوانهم في الدين: فساد أنكد بلا شك من رفض المرء، لعدم ارتياح ضميره، بعض قرارات الكنيسة! فالروحانيات شيء، والزمنيات شيء آخر؛ والمجتمع الديني شيء، والمجتمع المدني

شيء آخر: ليس للحاكم سلطان على الأرواح، فليحذر أن يعتب أبواب المعابد. إن التسامح مطابق لانجيل المسيح، وموافق للادراك السليم لكل الناس، حتى إنه يمكننا أن نعد من يرفضون أن يدركوا لزومه وفائدته كوحوش. أي أهمية في استعمال اللاتينية أو عدم استعمالها في الكنائس؟ أي أهمية في السجود أو في الوقوف؟ في ارتداء كساء طويل أو قصير؟ يا من تؤمنون بالمذهب الكاثوليكي، وأنتم أيضاً، يا أهل جنيف، وأنتم يا ناكري التعميد، ويا أيها الأرمنيون، والسوسنيانيون، اعلموا أنكم لن تستحوذوا على روح بالقوة؛ فليس لكم الحق ولاالقدرة. تسامحوا فيما بينكم، وتوادوا، متحدين تجمعكم إرادة واحدة لفعل الخير.

الفصل السادس
العلم والتقدم

منتزه واسع منعزل فيه شخصان: مركيزة لعوب ورجل مجتمع، صديق لها أو لعله عشيق، يستغرقان عند انسدال الليل في حديث. عن أي موضوع؟ عن علم الفلك: «حدثني عن نجومك...[1]». إنهما متأنقان متكلفان مهذبان: هكذا يصورهما فونتنل، لا لأن هذه طبيعته فحسب، بل لأنه يريد إظهارهما محببين. يريد صراحة ألا يضير كتابه أحداً، وأن يعجب الجميع، وعلى الأخص أولئك الذين لا يعرفون شيئًا، وأن يسحر -قبل كل شيء- بظرفه وخفته الفاتنة. حتى ليكاد أن يفقد كتابه صفته العظيمة. ومع ذلك تنبثق في وضوح النور، رغم التكلف في الأسلوب، تلك العظمة السامية. يبدو رجل المجتمع والمركيزة، وقد طواهما جناح الليل، يعيدان ذكرى رعاة كلدانيا القدامى، يستخبران الأفلاك، ويتعجبان للنجوم بعد أن تعجبا للشمس -مثل سكان الأرض الأولين. رفيقان من أبناء الرغام، يجترئان بعيونهما الحقيرة، يسبران غور السماء.

إن المركيزة لا تعرف شيئًا: ولكن فونتنل يعرف، وسيعلمها في خلال بضعة ليال، سير الكواكب الذي يبدو في الظاهر على هذا الغموض. كفى أخطاء! لقد أخطأ العالم في حركات الاجرام السماوية منذ زمن بعيد! لقد تخيل الناس من زمن طويل أن الشمس تدور حول الأرض: إنه خطأ أولي، جر وراءه كثيراً من الأخطاء. ولكن في النهاية زال الضلال. «لقد أتى ألماني يدعى كوبرنيكوس، هدم

(١) - فونتنل: في ابتسام العقل، Le sourire de la Raison. [المترجمان]

كل تلك الدوائر المختلفة، وكل تلك السماوات الصلبة، التي تخيلتها الأزمان القديمة. لقد دمر بعضها وفتت البعض الآخر. تمتلكه حماسة عالم فلكي نبيلة، فتناول الأرض ونحاها عن مركز العالم حيث وضعت من قبل، وفي ذلك المركز وضع الشمس، التي كانت أحق بهذا الشرف ...» لقد انخدع القدماء مرة أخرى، وأخطأ الناس لأنهم تبعوهم. ولكن بزغ عهد جديد. لقد فضح العقل والفحص هذه الأخطاء الأزلية. إن العلم يتكلم، فيجب أن نصدق به، لقد تغيرت الأرض والسماء.

لعل المركيزة تنتابها الدهشة لهذا الاكتشاف. لقد كانت تعتقد أن هذا الكون إنما خلق لها، مثلما كان يظن ذلك الأثيني المجنون أنه يملك كل السفن التي تدخل ميناء بيريه، فيا للوهم الذي تبدّد! إن الأرض بما فيها من أشغال، وحروب، واضطراب، لم تعد تبدو لها إلا كيرقة من دود القز، يرقة صغيرة، ضعيفة، وحقيرة! ولعلها قد ترتعد فزعًا، أمام تلك الهوة اللامتناهية التي تكشفت لها.

ولكنها على العكس، تشعر ببهجة الموقفين، يخالجها شعور من الكبرياء: إنها تسلم بهذا العلم المجدد. وهي تدخل في زمرة المؤمنين، لم تعد من قطيع الوثنيين الذين لم يعرفوا الحقيقة أبداً، ولا الكفار الذين يتغذون بالضلال: وهي بذلك فخور. فلنتخيل، بإحدى تشبيهات فونتنل المألوفة، التي تحيل الأفكار المجردة إلى صور ظريفة- مثل (زورق ينزلق على نهر، سفينة تنساب في المحيط، كرة تدور على الطريق) - فلنتخيل تمثيلاً في الأوبرا: فايتون يترك الأرض[1]، الريح ترفعه فيحلق في السماء. لنفترض أن فيثاغورس، وأرسطو، وأفلاطون، وكل أولئك الحكماء الذين يتردد ذكرهم على الأسماع، يشهدون هذا التمثيل. سيقول أحدهم: «إن فايتون مركب من بعض أعداد ترفعه إلى أعلى». وسيقول الثاني: «إن فايتون يرتفع ببعض خاصية سرية». بينما يقول الثالث: «إن لفايتون شيئًا من

---

(١) - فايتون: في الميثولوجيا اليونانية ابن الشمس. ولقد ألف الكاتب كينو Quinault وبرا تدور حول أسطورته المشهورة (١٦٦٣).

الشغف بأعلى المسرح، فهو لا يرتاح ما لم يكن هناك». تخيل مئة حلم من هذا القبيل، قدمتها الأزمان القديمة شـرحًا لتلك الظروف: أفلم يكن هذا يستدر الرثاء؟ من حسن الطالع أن أتى ديكارت وبعض المحدثين وقالوا: «إنما يرتفع فايتون لأنه مشدود بالحبال، ولأن ثقلاً، أثقل منه، ينزل». لم يدر بخلد أحد أن ينظر إلى ما وراء الستار: يوم اكتشفت الآلة، ويوم بدأنا نستعمل العقل، عرفنا السر. يا للمتعة، متعة الاكتشاف! ويا للبهجة، بهجة الحقيقة!

للمعرفة العلمية جمالها الخاص، لأن تصور عالم مكتمل الترتيب، تبدو أكثر الوقائع ارتباكًا فيه نتيجة لأبسط الوسائل، أو إن أمكن القول أقلها كلفة، لشيء يفتن العقل. فليقل إعجاب الآخرين بهذا العالم الآلي: أما المركيزة، فعندما تعلم أنه يشبه الساعة، تزداد حبًا له. أي شيء أحق بالاعجاب من هذا الانتظام، هذا التوفير في انتخاب الوسائل، هذه البساطة؟ إن كشف قوانين الطبيعة يشعرها بلذة ذهنية، رقيقة، نادرة: «ليست متعة كالتي تشعر بها في إحدى كوميديات موليير، بل متعة لست أدري في أي مكان من العقل، لا تدغدغ إلا الذهن».

العلم؛ لقد رأينا العلم في كل مكان، ونحن نقترب الآن من أولئك الذين يعدون علماء في أوج العلم، من أولئك الذين يملئون السبورة بأرقام تدير الرؤوس، أولئك الذين يتطلعون بالمرصدة، أولئك الذين يشرّحون أجساد الحيوان والناس، إننا ندخل في مملكتهم الخاصة. إن فونتنل يدعونا إليها. وفونتنل في الفلسفة يصطف بين «القلقين»، وفي العلم بين «محبي الاستطلاع» وهذا نفس الشيء. فليقترب اللادينيون دون وجل من شجرة المعرفة! ولسوف تؤثر الحقيقة على كل العقول كالهام سماوي. إن مؤلفه «محادثات عن تعدد العوالم، ١٦٨٦» لمقدمة، عميقة، خلابة، لتفسير جديد للكون.

* * *

لم يصبح التفكير الهندسي فقط هو البدع، بل الهندسة أيضًا. لقد هبطت من أعلى الذرى، حيث رفعها العصر السابق، إلى الجمهور المثقف. وفي باريس لقي عالم رياضي -جوزيف سوفير- شهرة عريضة بالقاء محاضرات تهافت عليها البنلاء؛ وأصرت النساء على أن يكشف الرجال «تربيع الدائرة» قبلما يحاولون اكتساب حظوتهن. وهذا على الأقل، ما تذكره «صحيفة العلماء»، ساخرة من هوس ذلك الوقت: «منذ ما عرف علماء الرياضة سر الدخول إلى الأبهاء، ناقلين إلى خدور النساء ألفاظ علم قوي جاف كالرياضيات، عن طريق كوميدية «ميركوري الأنيق[1]» Mercure galant ، يقول الناس إن مملكة الأناقة تتخلف، وأننا لم نعد نتكلم فيها إلا عن مسائل، ونتائج، وقضايا هندسية، وزوايا قائمة، وزوايا منفرجة، وأشكال شبيهة بالمعين، وغير ذلك؛ وإنه كان في باريس منذ عهد قريب غادتان، هوشت تلك المعارف من ذهنيها، حتى إن إحداهما لم تشأ قبول عرض زواج، إلا إذا تعلم طالب يدها صنع المناظير التي تردد ذكرها في الكوميديا المذكورة، ورفضت الثانية رجلاً غاية في الكمال والشرف، بحجة أنه حين تقدم يطلب يدها، لم يقدم شيئًا جديداً عن تربيع الدائرة». (٤ مارس ١٦٨٦). ما دامت المادة ليست سوى الامتداد، فليس علم الطبيعة إلا علم الرياضيات. لقد شكر الناس فضل علماء الهندسة لاتاحتهم لهم تلك زمام المادة، ولاستعاضتهم عن السفسطة واللغو -كالقول بأن الأفيون منوم لأن فيه خواص منومة- بضمان الحساب. فبفضلهم وجدوا مفتاح مغالق الظواهر الكونية.

ولكن الحق أن هذا الشعور لم يكن وحده المتسلط على العقول: هناك ضرورة أخرى كانت تعذبها، ضرورة تزداد إلحاحًا كل يوم. كانت الرياضيات وجهًا من أوجه المعرفة: ولكن هل كانت حقًا الوجه الوحيد؟ هل تجريد كل شيء هو معرفة كل شيء؟ لعل الهندسة قد تجاوزت حدودها، في انتصارها؛ والدليل

(١) - رواية كوميدية ألفها بورسنو Boursault في عام ١٦٨٣، وميركوري هو إله التجارة في الميثولوجيا اليونانية. وهو الزئبق أيضًا. [المترجمان]

على ذلك أن ديكارت، العالم الهندسي الفائق، قد تاه في علم الطبيعة. المشاهدة، والتجربة: ذلك ما كانت تنصح به الفلسفة الجديدة؛ فهل كان يجوز أن يستخف بها العلم؟ كان الناس يسمعون صوت جاليليو، وأكثر منه صوت بيكون الذي لم ينسوه أبدًا. لقد قال بيكون -وكان العالم لا يزال يتذكر قوله- إنه يجب أن نبتدئ بالمشاهدة، وإن الذهن البشري يدرك الأشياء عن طريق الحواس؛ وإن صور الحواس -بنقلها إلى الذهن- تصبح موضوعًا لأحكام العقل؛ وإن العقل بدوره، يردها صافية مصححة؛ ولذلك يجب أن تبتدئ الفلسفة الصحيحة من الحواس لكي تشق للإدراك طريقًا مستقيمًا، ثابتًا وأكيدًا. كان علماء الهندسة قد أكدوا، بناء على تعريفهم للمادة، أن الفراغ ليس له وجود؛ وعلى إثر ذلك أثبت علماء أخر، بناء على تجاربهم، أن الفراغ[1] موجود ولا شك في وجوده؛ لقد وجد أولئك الأخيرون الحقيقة الصحيحة، بتوفرهم على دراسة الواقع الملموس. الواقع. الخضوع للواقع. كان هذا هو الواجب.

هيا بنا، فلا زالت أمامنا مهمة لنشرع فيها: مهمة شاقة. فلابد من من تغيير اتجاه العقل البشري من جديد، لابد من البحث، والعمل، والكد، وعلى والأخص التوصل إلى نتائج إيجابية؛ فلنحتفظ بعون الرياضيات التي تمثل يقينًا،

---

(١) - الفراغ Le Vide: كان الاعتقادمن قديم أن الطبيعة لا تقبل الفراغ. وكان أشهر علماء الطبيعة ينكرون أن الفضاء يمكن أن يكون فارغًا على الاطلاق أي محتويًا على عدم. وكانت هذه المسألة موضع اهتمام العلماء وعلى الأخص جاليليو وتلامذته وطورشيللي وغيرهم. وبدأ باسكال يهتم بها ويجري التجارب منذ صيف ١٦٤٦ حيث أخبره صديق أن رجلاً اسمه جان باريه يحاول انتشال الذهب الغارق مع السفينة «سنغال» بوساطة جهاز يستعمله غواص. ونجح باسكال في تجاربه لاثبات وجود الفراغ، إذ وجد أن أي نوع من السائل إذا وضع في أمبوبة اختبار مقلوبة، فإنه يتوقف عند ارتفاع معين، متناسبًا دائمًا مع كثافة السائل. وبين السائل وطرف الأمبوبة مسافة فارغة في الظاهر، أثبت باسكال أنها فارغة في الحقيقة. ويرجع سبب هذا التوقف إلى كثافة الهواء. وقام بتجربة كبيرة أمام العلماء والفلاسفة ليثبت لهم ذلك، تفصيلها في كتاب «باسكال» بقلم ستيفان فالوت الفصل ١٢، وكتاب «أفكار باسكال» بقلم ستروفسكي، الفصل الأول ص ١٤ Stephen Valot,Blaise Pascal,(B. Grasset), Paris 1945.- F. Strowski, Les Pensées de Pascal, (Mellottée) Paris. [المترجمان]

لكن مع الوصول إلى نمط جديد من المعرفة، التي لا تجرد الكائن، بل تقبل تركيبه لكي تسيطر عليه. وكان هذا مجهوداً جماعياً من قبل أوروبا التي تسير في طريق التبدل. انظر إلى الإيطاليين المجتمعين في مجمع سيمنتو بفلورنسة. كل ظاهرة طبيعية موضوع بحث علماء ذلك المجمع: لماذا يوجد دود في الفواكه؟ ما هذه الافرازات التي تظهر على الغصون والأوراق؟ لماذا تضيء السمكة في الماء، ولا تضيء إذا خرجت إلى الهواء؟ إنهم يبحثون وليس لديهم معمل ولا عدة، ولا يكادون يخلعون ثيابهم الرسمية وشعرهم المستعار حتى ينكبوا على العمل. إنهم يبحثون. إنهم يصنعون الأدوات، ويكثرون من التجارب، ويقولون: حقًا، إن المثل الأعلى للمعرفة هو الهندسة، ولكن هذه الهندسة تتركنا لتحلق في الفضاء اللامتناهي: حينئذ نتجه نحو التجربة التي تقودنا إلى الحقيقة، بفضل البراهين والبراهين المضادة. ولما انحل مجمع سيمنتو في عام ١٦٦٧، لم يمت التقليد الإيطالي، بل هو سيدوم طوال القرن التالي بفضل مارسيجلي، وفالسنيري، وجوالتيري، وكلاريسي، وميشيلي، ورامازيني، وفورتيس؛ ولسنا ندعي أننا ذكرناهم كلهم. نشر جيوفاني ماريا لانسيزي في عام ١٧٠٤، في صحيفة «جاليري دي منيرف» مقالاً عن: طريقة التفلسف في الفن الطبي، يثبت فيه أنه من الأفضل للطب العقلي، أن نستعمل الفلسفة التجريبية بدلاً من أية فلسفة أخرى.

ولم يبد الفريق الإنجليزي، الذي يتميز فيه بويل، نشاطًا أقل: لقد استحقت «الجمعية الملكية» إعجاب أوروبا. إن أعضاءها الحكماء المهرة، لا يهتمون باظهار ذكائهم وقوة ذاكرتهم في مقالاتهم، اهتمامهم بتقدم العلوم والفنون بفضل الوصول إلى نتائج راسخة. بحيث إنهم يفحصون أولاً حقيقة الفروض التي يمكن تحقيقها في ميدان الواقع، ولا يضيعون وقتهم في الأمور الأخرى... ثم يبحثون عن العلل، بالتفكير وباجراء التجارب الجديدة، التي تدفع بهؤلاء العلماء الكبار إلى أقصى الأبعاد، حتى إنهم أرسلوا علماء إلى قمة جبل تنريف (في جزر

الكنار) لاجراء بعض التجارب، بعد ما أجروا عندهم تجارب عديدة واخترعوا آلات خاصة[1]».

وأصبح علماء الطبيعة الهولنديون أساتذة في المنهج الذي بدأ يتشكل؛ الأطباء، وعلماء النبات، وعلماء الطبيعيات، يتسابقون في العمل: سوامردام، هيجنز، بورهاف، جرافيساند، وليوفانهوك. وهذا الأخير، ذو أصابع خفيفة، ونظرة ثاقبة، وعقل تغريه الطرافة؛ وهو يبدأ في استكمال طريقته الفنية أو «التكتيك» كما نقول اليوم؛ ولا يرتاح إلا بعد أن يصنع بيده، وبعد تجارب عديدة، مجهراً أقوى من الذي استعمله أسلافه. ولقد نجح وتوصل إلى مجهر يكبر الأشياء مائتين وسبعين مرة. إنه يرى عالمًا في قطرة من الماء: ففيها مخلوقات دقيقة تتحرك، وتتقاتل، وتبحث عن غذاء؛ إن هذه القطرة مأهولة بالسكان كأنها محيط، إن الحياة تختلج فيها بكل مظاهرها. وهو يطبق التجربة على سوائل مختلفة، من دم ومني وغيز ذلك... ومع ذلك فقد أنكر الناس اكتشافاته، ولم يكن هناك بد كما يحدث دائماً، من مناقشات ومناقضات ومؤلفات، وهمة واسعة لكي يسلم الرأي العام بالحقيقة التي رآها بعينه.

ثم نجد رجال اسكندناوة، أولوس رومر، توماس باتولان، نيلز ستنسن، يجددون الطب باكتشافاتهم التشريحية. والألمان، مثل أوتو فون جوريك الذي واصل التجارب على الفراغ. لقد نشر الألمان -بما هم عليه من نظام وتوفر على العمل الجماعي- صحيفة خاصة، صحيفة طبية- فيزيقية، تعرف الناس بأعمال محبي الاستطلاع في الطبيعة؛ وقد أثنى عليها بايل ثناء جماً، قائلاً إن أصحابها يخدمون العلوم أجل الخدمات، بمثابرتهم على العمل بلا كلال، وفي نفس الوقت، باختراعاتهم وعبقريتهم.

(١) - سوربيير Sorbére، ذكره ج. أسكولي، «بريطانيا العظمى أمام الرأي الفرنسي»، ١٩٣٠، الجزء الثاني، ص ٤٢.

ولقد أصيب الفرنسيون أيضاً بحب الاستطلاع في الطبيعة: فأهل باريس يذهبون إلى منتزه الملك للاستماع إلى دروس التشريح التي يلقيها دفرناي، Duverney؛ ويفاخرون بأن لديهم في شخص نيقولا ليميري NicoLas Lémery الذي كان صيدليًا فيما سبق، «أول عالم كيميائي معقول» كما قال عنه فولتير؛ وواحد من أعلام الطبيعة في هذا الوقت، وهو ماريوت Mariotte «لقد افتتح في باريس مكتب جديد للطبيعة، هكذا أسمى أكاديمية العلوم. قال الأب بنيون الذي يحتفظ بمفتاح هذا الكتب، إن الطبيعة ستبدو فيه غاية في البساطة، وإن هذا المكتب لم يجد من اللائق أن يستعير من أعضاء الأكاديمية الفرنسية، مظاهر الأبهة التي يسرفون فيها. وإنه لعلى صواب[1]».

إن إسبانيا نفسها تشترك في حركة الفحص: تأسست في أشبلية في عام ١٦٩٧ جمعية للطبيعة والطب التجريبي. وإنك لترى الأفكار تهاجر، كما يحدث في الأدب، وكما يحدث في الفلسفة، بل لعلها أسرع هنا. لقد نشر طبيب توسكاني شهير -جراندشسكو ريدي- بحثًا عن الجراثيم، يبين فيه أن المادة لا تفسد إذا لم تعرض للذباب، بينما هو يضع بيضه عليها إذا عرضت له: وتهتم أوروبا العالمة بأسرها باكتشافه هذا، فترى بيير كوست الفرنسي يترجم هذا المؤلف الإيطالي، ثم تظهر هذه الترجمة في هولاندا، كأن في ذلك علامة على تبادل الأفكار. تعرف أحد سكان البندقية، باولو ساروتي، بروبرت بويل في لندن، فتملكه حماسة العلم، واستقدم معه إلى البندقية «شابين إنجليزيين خبيرين في تكييف الآلات لاجراء التجارب». ولما قام الأب تاشارد برحلته الثانية إلى سيام، طلب منه تيفينو أن يوضح له شيئًا يؤكد الناس صحته، مع شدة غرابته: يقال إن هناك أصدافًا على جبل «المائدة» المتسامق فهل هذا ممكن؟ وسرعان ما يشرع الأب لوبلان والأب دوييز في تسلق الجبل. ولقد خصصت كبريات الصحف الأوروبية

(١) - روح المحاضرات في أوروبا، ١٦٩٩، ص ٢٥ L'esprit des cours de L' Europs, 1699, p.25

حيزاً كبيراً من صفحاتها لمسائل الرياضيات العالية، حيزاً أكبر منه للطبيعيات. وكثيراً ما تنبئ رسائل القراء عن ميل متأصل للخوارق: إن دجاجة لم يسبق أن وضعت بيضاً، قد وضعت بعد ما غنت بشكل خارق للعادة، بيضة ثمينة يزيد حجمها عن الحجم الطبيعي، وعليها رسم لا لمذنب واحد كما اعتقد الجمهور، بل لنجوم عديدة. عثر الناس على فراشة رأسها رأس طفل صغير. تقيأت فتاة بعض العنكبوت والديدان والحلزون، وأنواعاً أخرى من الحشرات... تلك بعض الحوادث الغريبة التي يطرب لها الجمهور. ولكنك تلمس أيضاً، في نفس الصفحات، المجهود العلمي؛ إن علماء من كل نوع، ينكبون على العمل، مدفوعين بحب استطلاع واحد، وقلق واحد: كيف تعمل عصارة النماء في الأشجار؟ ما هو تأثير الكنكنياChina-China على التحقيق؟ كيف تؤثر الخمائر؟ تشريح العين، تشريح المعدة، مسالك جديدة في القلب البشري. هل وجد قط متوحش هائل؟ فليكن، فلنتناوله بالتشريح، بدلاً من أن نصيح بأنه معجزة.

ولما تهيأ الجو، ظهر -كما يحدث في الفلسفة وفي النقد- أحد أولئك الأبطال الذين تستدعيهم الأزمان الكبرى: نيوتون.

* * *

أليس علامة من علامات الزمن، أن يجد الرجلان اللذان وصفهما فيكو بأنهما «العبقريتان الأوليان في هذا العصر، لبنتز ونيوتون»، في آن واحد تقريباً، حساب النهايات الصغرى؟ إن تطبيق هذا المنهج الجديد يسمح لنا بأن نعد الظواهر الطبيعية لا كأنها غير مستمرة -وهي ليست كذلك في العموم -بل كأنها مستمرة- كما هي في الواقع. ما أهم المكانة التي احتلها في تطور الفكر البشري ذلك العلم الذي كان الناس السذج لا يزال يراودهم الظن في أنه يمكنهم الاستغناء عنه بسهولة! لقد لاحظ الناس أنه، كلما ظهر نظام من نظم الرياضيات، يظهر

مـذهب يبنى على هذا النظام نظرية شـاملة عن الأشـياء : فـعلى علم الحساب قـام مذهب فيثاغورث، وعلى الهندسة قام مذهب سبينوزا، وكذلك على علم النهايات الصغرى قامت فلسفة ليبنتز[1] . والواقع أن هذا الأخير أعلن بنفسه أن الرياضيات تقدم للفيلسوف العـون الأساسي، وأنه ما كان ليجد أبداً نظرية الاتساق، لو لم يضع أولاً قانون الحركة . بينما كان نيوتون يصل، بوساطة علم النهايات الصغرى، إلى كشف قوانين الجاذبية .

لقد ظهر منذ عام ١٦٨٧ ، في الواقع، المؤلف الجبار الذي يتضمن شرحاً لهذه القوانين «مبادئ» رياضية للفلسفة الطبيعية». وما كان أبعد هذه المبادئ عن أن تفهم بمجرد أن تظهر؛ فإنها لن تؤتي ثمارها إلا في القرن التالي؛ إن القرن الثامن عشر سيتغذى، في الفلسفة وفي النقد وفي كل شيء، بما كشفته نهاية القرن السابع عشر؛ فإن الناس لا يهضمون هذه المواد الدسمة إلا ببطء. إلا أن هذه «المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية» لا تعد الرياضيات كل الفيزيقا -كما أراد ديكارت- بل آلة تستعملها الفيزيقا في اكتشافاتها وتجاربها. إن هذا المؤلف الخالد يرد للبحث والتجربة مكانتهما، وقيمتهما. الاهتمام بالواقع؛ الاذعان للواقع؛ التواضع أمام الواقع؛ وكراهية شبه غرزية لكل نظرية لا تحققها التجربة الواقعية: تلك كانت بعض نواحي عبقرية نيوتون، وكان اكتشافه الكوني يبدو كأنه تمجيد عظيم لمبادئه، أو جزاء على إصراره على رأيه. إن الخيال الشعبي، الذي يتصور نيوتون جالساً تحت شجرة، متأملاً في سقوط التفاحة، مسائلاً عن السبب في سقوطها، لا يخطئ كثيراً حين يرمز إلى فكر يبدأ خطواته من الواقع الملموس. فإنه يحقق إلى مدى بعيد، الرغبة التي كانت تحرك فرق البحاث الذين رأيناهم يعملون من قريب في صبر وحمية. تقبل الواقع الملموس، وتفسيره بالعقل، وتحقيق نفس هذا التفسير بالواقع الملموس: ذلك هو قانون العلم الصريح الذي كانت هذه الفرق تسعى إلى وضعه .

---

(١) - ليون برونشويك، مراحل فلسفة الرياضيات، ١٩١٢، ص ٢٥ Léon Brunschvicg, Les étapes de La philosobhie mathématique, 1612.

عندما يخاطب فونتنل، السكرتير الدائم لمجمع العلوم، مثنياً على إسحق نيوتون، وعندما يعرض اكتشافاته، بتفكيره الواضح، حتى يتوهم غير العارفين أنهم قد أدركوها، وعندما يشتد أسلوبه ويحتد، دون أن يفقد شيئاً من وضوحه وجماله، كأنه تحت تأثير النفثة المبدعة للرجل العظيم الذي سيعمل على تمجيده: عندئذ سنرى مقارنة، لن تكون زخرفاً من البلاغة، بل ستجابه ديكارت بنيتون وجهاً لوجه، وهو ما كان صواباً، وما كان مرغوباً؛ وبالرغم من تحيز فونتنل لأستاذه ديكارت، فسيبين تمام التبيان، الفرق بين الحالتين الفكريتين اللتين تسجلان -كما يقول- حدود العقل البشري:

«إن الرجلين اللذين يقوم بينهما هذا التعارض البين، كانت تجمعهما صلات كبيرة. كان الاثنان عبقريين من أعلى طراز، ولدا ليتسلطا على العقول وليشيدا الممالك. ولما كانا عالمين ممتازين في الهندسة، فقد أدركا ضرورة إدخال الهندسة في ميدان الفيزيقا. ولقد أقاما علمهما الفيزيقي على هندسة لا مصدر لها تقريباً إلا ضوء معارفهما الذاتية. ولكن أحدهما تجاسر فأراد أن يرتفع إلى غاية مصدر الأشياء، لكي يتمكن من المبادئ الأولية ببعض أفكار واضحة أساسية، حتى لا يكون عليه بعد ذلك إلا الهبوط إلى الظواهر الطبيعية على أنها نتائج ضرورية. أما الآخر، فكان أقل جرأة أو أكثر تواضعاً، فبدأ خطواته مستنداً على الظواهر لكي يرتفع منها إلى المبادئ المجهولة، معتزماً أن يتقبل تلك المبادئ حسبما تتولد من سلسلة النتائج. لقد بدأ أحدهما بما كان يدركه تمام الإدراك إلى علة ما كان يراه. بينما بدأ الآخر بما كان يراه، ليصل إلى علته ...».

كذلك نرى فونتنل عندما يستطرد فيتحدث عن «علم البصريات» أو عن «بحث عن الضوء والألوان» اللذين نشرهما نيوتون في عام ١٧٠٤. يجيد تبيان دور فن التجربة، وقيمته، وصعوبته، وما فيه من جمال:

«إن فن إجراء التجارب، إذا سمونا به، لا يعد شيئاً عادياً أبداً، إن أقل واقع يعرض لنا، ليتضمن كثيراً من الوقائع الأخرى التي تكونه أو تعدله، حتى

إننا لا نســـتطيع أن نميز كل ما يدخل فيه دون حذق كبير، ولا نسـتطيع أن نخمن ما يمكن أن يدخل فيـه دون بصيـرة ثاقبـة. يجب تجزئـة هـذا الـواقع إلى وقـائع أخرى لكل منها تركيبها الخاص. ولو أننا لم نحســن اختيار طريقنا، لدخلنا في تيه لا مخرج لنا منه. يبدو أن الوقائع الأولية والأصلية قد أخفتها الطبيعة عنا، بنفس العناية التي أخفت بها العلل، وإذا أمكننا أن نراها، يخيل إلينا أنها مشـهد جديد كله، ما كنا لنتوقعه».

إن في ظهور الفيزيقا التجريبية تأييداً لحالة فكرية غزيرة النتائج؛ فنيوتون يســجل بسـاطع عبقريته، هذا الانتقال من ميدان العقل إلى ميدان الواقع، وهو ما حاول بوفندورف أن ينفذه في القانون، وريشار سيمون في تفسير الكتاب المقدس، ولوك في الفلسـفة، وشـفتسبري في الأخلاق. ولقد أبعد -وهو يمتلئ ثقة- كل ما يتصوره العالم من مخاوف من تمادي عقل، بقـي زمناً طويلاً يعد قوة هدامة.

لقد حقق الاتحاد بين مقتضيات النقد ووقائع التجربة -وهو ما كان يبدو من الصعوبة بحيث يعد مستحيلاً. لقد شرع الإنسان يغزو العالم من جديد.

* * *

ألقى الطبيب بويرهاف Boerhaave في ٨ فبراير ١٧١٥ أمام مجمع ليدن خطاباً بعنوان De comparando certo in physicis، يلخص فيـه النتـائج التي وصل إليها العالم في خلال السنين السابقة: لقد فشل كل ما أجرى من محاولات لمعرفة كنه الأشياء، فالعلل الأولية والجواهر ليست في متناولنا، إننا نكثر من ترديد كلمات من قبل الذرات والجواهر الفردية، على حين أنه ينبغي أن نعرف الآن، أنه ليس هناك إلا فروض ستكذبها الأيام. لقد بين نيوتون نفسه، أنه في كلامه عن قوة الجاذبية، قد تحاشى أن يقع في ضلال المدرسيين الذين كانوا يشرحون العلل التي تستعصي على إدراكهم، بصفات مبهمة. إن الأمر يبدو كأن الأجسام يجاذب

بعضها بعضاً: ولكن لماذا تتجاذب؟ هذا هو ما يتحاشى شرحه، إنه يشاهد ظواهر واضحة محسوسة، ويقارن ويحسب النتائج: ويقف عند هذا الحد. وعلى ذلك، فلنعد تلك الميادين الميتافيزيقة التي تاه فيها عدد كبير من الفلاسفة ميادين محرمة. فلنقتصر على النتائج التي تحرزها التجربة وتؤيدها؛ ولندع الميتافيزيقا، ولنتجه صوب الفيزيقا، فهنا فقط سنبتدئ في معرفة الصفات الصحيحة للطبيعة، التي فاتنا إدراكها حتى الآن.

كل شيء يلمس، هناك شكًا آخر تغلبنا عليه: الشك الفيزيقي Pyrrhonis-mus physicus كقول بويرهاف نفسه. كان من المحال أن يلقي خطابه هذا لولا التغيرات التي نحاول أن نتبع مجراها. إن الطبيب الهولندي الكبير يلخص مبادئ حكمة حديثة، فلسفة عامة كان لوك قد عبر عن جوهرها. لقد كل الناس من البحث عن الحقائق الجوهرية، واقتنعوا أنهم لن يستطيعوا إدراكها، فعملوا على وضع بيان بالمجال المحدود الذي يمكنهم أن يسودوه. فليفلحوا هذا الميدان! وليبنوا فيه مسكنًا مريحًا! وليجعلوا عملهم أقل مشقة وأوفر ثمرة! وليكونوا فيه سعداء، سعادة تزداد كل يوم! ومن الذي سيأخذ على عاتقه أن يرشدهم في ذلك العمل؟ العالم، الذي عليه أن يدير الحياة، ولذا فله الشرف العظيم. فيعلن الناس تفوقه على الأمراء والغزاة، ويمدحونه في المجامع، إنه يستحق تلك الصفحات البليغة التي كانت تخصص للكتاب فقط فيما سبق. وهو جدير أيضاً بترؤس الشئون العامة: لقد رأى الناس أنه إذا كانت السياسة عبارة عن «حساب» رفيع أو ترتيب دقيق، فلا ريب في أن العالم سيمتاز فيها؛ عندما كان نيوتون عضواً في البرلمان الإنجليزي، لم يكن مثالاً سيئًا لعضو البرلمان. إن المؤرخ يفتخر بالتأمل في الحركات التي تثير الشعوب، والني تولد الدول أو تقلبها: إنها لمتعة تافهة، بالنسبة للمتعة التي يختص بها العالم! -«إن أغرب صفحات التاريخ، لا تكاد تكون أغرب من الفوسفور، ومن السوائل الباردة التي تولد اللهب إذا خلطت، ومن أشجار الفضة،

من التأثيرات السحرية للمغناطيس، ومن عدد لا يحصى من الأسرار التي اكتشفها الفن بالبحث في الطبيعة ...[1]» أي عجب بعد ذلك، وفي أن يأخذ الشعر في تمجيد المجهر، والآلات التي تدور بالهواء المضغوط، والبارومتر؛ وفي وصف الدورة الدموية، أو انكسار الأشعة؟ ليس في عمله هذا إلا تمجيد للفكر الحديث.

سيزداد اتساع المعارف على الدوام: اليوم، كشفت الجاذبية، وغداً ستظهر عبقريات أخرى تكشف لنا عن أسرار جديدة؛ بحيث إننا سنكشف رويداً رويداً، كل أجسام «الآلة الاعجازية» التي جهلناها حتى الآن. إن المعارف ستعطينا القدرة. فالعلم مفيد حتى لو بدا في الظاهر كأن لا غناء فيه. ليس عبثًا أن نعلم كيفية التفكير المحكم الدقيق، وتكوين ذهننا طبقًا لصرامة قوانينه. ولكن العلم النظري يولد الواقع دائماً: Theoriam cum praxi [2] «إن معرفتنا أن ما تحت المماس في القطع المكافىء، يساوي ضعف الاحداثي الأفقي المقابل، لمعرفة مجدبة في ذاتها ولكنها ضرورية للوصول إلى فن رمي القنابل بالدقة التي وصلنا إليها في الوقت الحاضر» -«لما جعل أكبر علماء الهندسة في القرن السابع عشر يدرسون منحنياً جديداً سموه سيكلويدCycloïde لم يكن في ذلك إلا بحث نظري محض. . ، بينما تعمق بحث طبيعة هذا المنحنى جعل من نصيبه أن يهيىء للساعات كل الكمال الممكن وأن يذهب بقياس الزمن إلى أقصى درجات الكمال». ما من شك في أن نفوذنا على الطبيعة سيزداد بلا انقطاع، وسنسير متنقلين من أعجوبة إلى أعجوبة: سيأتي اليوم الذي يطير فيه المرء إلى عنان الجوزاء. لقد حاول الكثيرون الطيران، بوساطة جناح يسندهم: «إن هذا الفن سيكتمل، وذات يوم سنرحل حتى القمر ...» والخلاصة، «هاك ميدانًا فسيحًا من المعارف لاستعمال الناس ولافادتهم: اختراع آلات جديدة

---

(١) – هذه التعبيرات وما بعدها مأخوذة من أنشودة العلم لفونتنل في مقدمة تاريخ «تجديد الأكاديمية الملكية للعلوم»، ١٧٠٢.

(٢) – تعبير لبنتز في خطبة بمناسبة افتتاح أكاديمية برلين: Denkschrift über die . Errichtung der Berliner Academie (Deutsche Schriften, B. 11, p. 268)

أنظر أيضًا برنامج عن العلم العام: (Opuscules et Fragments inédits éd. Couturat, p. 218).

سريعة توفر عملنا أو تسهله، وترتيب وسائل أو مواد عديدة تضمن لنا منتجات جديدة ومفيدة، يمكن أن نستعملها، وبذا نزيد مجموع ثروتنا، أي الأشياء المفيدة ليسر حياتنا...» سوف تصبح الأرض فردوسًا، ولقد أخذ الموت يتقهقر من الآن بفضل هذه «الأخوات العالمات»، الميانيكا والهندسة والجبر والتشريح وعلم النبات والكيمياء؛ اللواتي يفقن عرائس الشعر التي عفا عليها الزمان:

Savantes soeurs, soyez fidèles

A ce que présagent mes vers:

Par vous, de cent beautés nouvelles

Les arts vont orner L'Univers.

Par Les soins que vous allez prendre

Nous allons voir bientôt s'étendre

Nos jours trop prompts à s'écouler

Et déjà sur la sombre rive

Atropos en est plus oisive,

Lachesis a plus à filer...[1]

* * *

---

(١) - هودار دي لاموت، قصيدة إلى السيد بنيون (مجمع العلوم):

أيتها الأخوات العالمات، لا تكذبن ما تنبئ به أشعاري-بفضلكن ستزين الفنون الكون بمئة شيء جميل جديد- وسنرى قريبًا بفضل عنايتكن، امتداد أيامنا السريعة الجريان، وقد بدأت أتروبس تتعطل من الآن، على شاطئ النهر الظليل، بينما نشاط لاشيسيس قد ازداد.

أتروبس ولاشيسيس: في الميثولوجيا الإغريقية اتروبس إلهة تقطع حبل الحياة، ولاشيسيس إلهة أخرى تدير المغزل وتوزع النصيب، والأثنتان من ملكات الأجل الثلاث المشهورات باسم parques [المترجمان]

أي شعور بالانتصار، وأي ترقب سعيد في هذه الكلمة وحدها: التقدم! إنها تهيئ الكبرياء التي تصعب بدونها الحياة، وذلك الرجاء في المستقبل الذي لا يتعارض والحاضر بل يكمله ويجمله. إن منهجنا يتقدم. إن علمنا يتقدم. إن قدرتنا على العمل تزداد. حتى مزايا ذهننا تتحسن. «كل العلوم وكل الفنون التي كان تقدمها قد توقف تماماً منذ قرنين، قد اكتسبت في هذا العصر قوى جديدة، ودخلت في دور جديد...[1]» -«ها نحن أولاء في عصر سيصبح من يوم إلى يوم أكثر إشراقاً، بحيث لن تبدو العصور السالفة بالنسبة إليه إلا ظلاماً...[2]» بدأ الناس يصرفون قلقهم واضطرابهم، ولما كان الإنسان قد كل من النظر إلى الوراء متأملاً في العصر الذهبي في ثنايا الماضي البعيد، ولما كان يخالجه الشك في الخلود، فقد أخذ يضع آماله في مستقبل أقرب، لعله يستمتع به بنفسه، وسيصل إليه أبناؤه على كل حال...

لقد أصبح العلم من الآن صنماً معبوداً. بدأ الناس يمزجون بين العلم والسعادة، بين التقدم المادي والتقدم الأخلاقي. ويعتقدون أن العلم سيتبوأ مكان الفلسفة والدين، وأنه سيكفي كل مطالب الذهن البشري. وحدث رد فعل، فأخذ الناس يحتجون، وينعون على العلم ميله إلى تخطي الحدود التي رسمها، ويتحدثون عن زهوه المتزايد، ويعلنون إفلاس العلم -فإلى هذا الحد يلزم أن نبادر إلى محاربة هذا الإله الذي يوشك على الظهور[3].

---

(١) - فونتنل: المقدمة المذكورة سابقاً.

(٢) - بايل: أخبار عن جمهورية الأدب، أبريل ١٩٨٤، باب ١١.

(٣) - توماس بيكر، تأملات عن المعرفة، لندن ١٧٠٠. Thomas Baker, Refections upon learning, by a gentleman

الفصل السابع

نحو مثال جديد للإنسانية

لما اعتزل «رجل البلاط» الإيطالي الحياة العامة، بعد أن مثل دور السيد ودور المرشد، خلفه «الرجل الفاضل L'Honnête homme». لقد لقن دروس الحكمة لجيل لا يزال مضطرباً مهوشاً: كيف ينبغي تقبل النظام الديني، والسياسي، والاجتماعي، الذي يبدو بعد طول التجربة وكثرة المشاق، أفضل نظام؛ كيف ينبغي على كل فرد أن يستقر في ظله، دون انقلاب أو عصيان، لكي يسعد جميع الناس أو على الأقل يعمهم الرضا. وإذا كان هذا الرجل مجموعة من المتناقضات، فقد وفقت حكمته بينها حتى انتهى به الأمر إلى انسجام تام: التوفيق بين الحكمة القديمة وفضائل المسيحية، بين مقتضيات الفكر ومقتضيات الحياة، بين الروح والجسد، بين العادي والجليل. كان يعلم الأدب، الفضيلة الصعبة، التي تعني إرضاء الغير لنرضى عن أنفسنا؛ ويقول إنه يجب اجتناب المغالاة في كل شيء حتى في الخير، وألا نفتخر بشيء، إلا الشرف. وكان يخضع لنظام ثابت، وإرادة قوية: وإنه لمشروع صعب أن يمنع الإنسان «الإنية» من تخطي حدودها، وألا يقدرها إلا كجزء من قيمة شاملة. وإن التزاماً مثل هذا ليقتضي بطولة رصينة، فما يبدو الرجل الفاضل جذاباً إلا لأنه ينظم قوته النفسانية ويتصرف فيها باتزان، وانسجام.

وكانت صورته لا زالت تتلألأ في نهاية العصر؛ وكان البعض لا يزال ينظر إليها بشيء من التقديس، ويعرضها كمثال للشبان، . وأخذ «محترفو» الأبحاث يستغلون نجاح أسلافهم ويكثرون من النصائح والعظات المألوفة. فمثلاً: إن الرجل

الفاضل يحب المجتمعات ويجد متعة في البحث عنها؛ ويقدر مؤلفات الفكر ولا يتكلم عنها بتغرض أو نقد أو غيره...

نصائح متأخرة وهراء معاد. لم يكن الأمر يتعلق بتقبل هذا الارتضاء الاختياري أو الانتفاع منه بأكبر نصيب: بل باصلاح كل شيء، وبأسرع طريق. لا توفيق، ولا مصالحة؛ يجب تغيير السياسة، والمجتمع. كيف يمكن أن نخضع لدين دولة؟ إن المحدثين من الناس. نماذج البدع -مثل الماركيز هاليفاكس الذي يعرض على ابنته مبادئ للحياة -يوصون الجيل الجديد بأن يضع لنفسه دينًا خاصًا، دينًا لطيفًا، مريحًا، ظريفًا، دينًا خاليًا من الخوف والحزن: الآن، لم يعد اللّه هو الذي يتحكم في المخلوقات، بل المخلوقات هي التي تسعى إلى اللّه؛ لقد انهارت تقريبًا كل المبادئ التي كانت تقوم عليها فلسفة الشرف؛ وتحطم التمثال الجميل.

وكانت تلك الفلسفة تبدو فيما سبق كأنها من عمل العقل: ولكن الحق أن العقل هو الذي غير اتجاهه... لم يعد العقل قوة وسيطة، تفرض نظامًا كله اصطلاح، بل أصبح قوة ناقدة، فضيلتها الأولى روح الفحص. إن الرجل الفاضل لم يعد يلائم هذا العقل الذي لا يقنع.

لقد تنازل عن عرشه من تلقاء نفسه. ولما كان قد ساد زمنًا طويلاً، فقد دخل شيء من الآلية، في طريقة تقليده واتباعه. لم يعد البعض ينظرون إلى الشرف كوسيلة لحياة صالحة، بل كهدف في ذاته، لم يعد يتضمن شيئًا من الأخلاق، بل أصبح متعة: بحيث إن أولئك الناس غيروا كيانه. يقول الكونت دي جرامون لصديقه ماتا، وهو يحكي له. عما تلقى من تعليم في أكاديمية السلاح: «تعلم أنني أمهر رجل في فرنسا؛ ولذا سرعان ما عرفت كل ما يدرس فيها؛ كما عرفت ما يستكمل الشباب ويجعل المرء رجلاً فاضلاً، لأني تعلمت كل أنواع لعب الورق والنرد[1]». إنه لايميز بين القشر واللب، ويظن أن المقامرة -وهي طريقة بسيطة لقضاء الوقت في صحبة- هي كل الشرف. ولما كنا نعلم من سياق قصته فيما بعد،

(١) - هاملتون: مذكرات عن حياة الكونت دي جرامون، ١٧١٣، الفصل الثالث.

أنه يستغل مهارته في سرقة لاعب وثق به، فإننا نرى أن الشرف والفضيلة في بداية القرن الثامن عشر، لم يعودا يتفقان: ومنذئذ هوى الرجل الفاضل من منزلته؛ فلابد من مثال آخر لقيادة الحياة.

* * *

لقد عرضت إسبانيا نموذجًا آخر: وكانت مفاجأة، ولا سيما أن «البطل» الإسباني لم يكن خلقًا حديثًا، بل يبدو كأنه يبعث من جديد. في عام ١٦٣٧ نشر الأب بالتازار جراسيان، من جماعة الجيزويت، كتابًا عنوانه «البطل» El Héroe؛ وفي عام ١٦٤٠ «السياسي» El Politico؛ وفي عام ١٦٤٩ «الرصين» El Discre-to؛ وفي عام ١٦٤٧ «كتاب الهاتف الإلهي» El oraculo manual وفي ١٦٥١، ١٦٥٣، ١٦٥٧ «الناقد» El Criticon؛ كل هذه المؤلفات محورها دراسة الإنسان، وتكوين نموذج من صفاته المختارة؛ وكان المتوقع أن تبطل بدعتها، طبقًا للقانون العادي، وعلى الأخص في زمن كانت الأفكار فيه تسرع في جريانها. فلماذا ترجمت في نهاية القرن السابع عشر مؤلفات بالتازار بتلك الكثرة؟ ولماذا أغدق عليه هذا الثناء؟ إنه لم يكن رجلاً مجهولاً: لكنه بعد ضياء بسيط انتهى إلى سناء المجد الكبير. ولعل السبب في ذلك ترجمة فرنسية سلسلة لمؤلفاته، -بقلم املو دي لاهوسيه، في عام ١٦٨٤-، هذه الترجمة وإن كانت قد أضاعت شيئًا من نكهتها الأصلية، إلا أنها أضفت عليها شيئًا من الروح الأوروبية التي كانت تعوزها، من قبيل التعويض. ولعل جماعة الجيزويت، وقد نسيت خلافها القديم مع المؤلف، شاركت من جهتها في هذا النجاح المتأخر. ولعل السبب أنه كان هناك جمهور واسع لا ترضيه الميول الحديثة، ويجد في التغذية الأرضية شيئًا من المرارة؛ وكما يقول ستاندال إنه يكمن دائمًا في القلوب شيء إسباني. ولعل مرد ذلك إلى أسباب لا ندركها: فنحن لا نستطيع أن نشرح كل شيء.

والواقع أنه ظهر من عام ١٦٨٥ إلى ١٧١٦ في فرنسا فقط، خمس عشرة ترجمة لكتب جراسيان. وتحمست ألمانيا للعالم الأخلاقي الإسباني: قدمه

ترماسيوس -في خطابه الافتتاحي المشهور الذي ألقاه ضد تقليد الفرنسيين الذليل- كأحد الأساتذة الذين يجب أن يستوحيهم الألمان، إذا كانوا يريدون تهذيب أخلاقهم، فيشيد به في بداية خطبته وفي نهايتها. وفي إنجلترا، وفي إيطاليا، وفي كل مكان، يلقى جراسيان التشريف والتمجيد.

فالرجل المثالي -إذا صدقنا قول جراسيان- ليس هو الذي يقنع بمجموعة منسجمة من المزايا المتوسطة: فالفضائل العادية، مهما تعددت، لا تصل بالمرء إلا إلى مستوى عادي: بل هو الذي يدفعه طموح أعلى، لأنه يريد أن يتفوق في كل ميدان عظيم. الرجل المثالي ذو ذكاء خارق، ورأي سديد، وعقل من لهيب، وعاطفة مرهفة، (لأنه ماذا يساوي الذكاء إذا افتقد القلب؟)؛ يختار مقدرته الغالبة، ويضع ثقته -بالحدس- في مقاصد الحظ، الذي يحب من يقابله بالعنف؛ يهدف إلى أجل النماذج جمالاً في كل نوع، لا لكي يصل إلى مستواها، بل لكي يتعداها: إنه من يسعى ليكون «الأول والوحيد». لذلك يجب أن يحيط نفسه بجو من الغموض، وأن يكون قادراً على انتظار ساعته، بل يجب أن يخفي دوره: إلى هذا الحد يجب ألا يكشف عن نفسه إلا تدريجًا، ليثير كل كرة تعجب العامة، أمام قوة لا ينضب لها معين. إن «البطل» يحتمل كل ألم، ويصبر على كل إهانة: فالإهانة الوحيدة الحقة هي التي يجب أن يفرضها على نفسه، أمام محكمة ضميره، إذا وجد أنه قد حط من شأنه. إن الانتصار ليس غاية، والسيطرة على الدنيا ليست إلا وسيلة: يهب البطل «إنيته» المنتصرة المتفوقة لله، ويرد للدين ما فاز به من سيادة خلقية. إنه ماهر حتى إنه يضفي على خبثه لونًا مقدسًا، ويستر كبرياءه بقناع من السذاجة؛ خيالي مع معرفته التامة بحقيقة القلب البشري، وعملي مع ولعه بالجمال المثالي؛ متحمس، متجبر، متدين، يحب المشاكل لما فيها من حدة وصعوبة، عجيب، عظيم، متناقض: هكذا ترسم صورته. إن «الرجل الفاضل»، -الذي خلق ليوائم مشاهد (جزيرة فرنسا) الوديعة الهادئة، الغبراء- تودي به المقارنة مع البطل: فالبطل يتطلب نفس الشمس التي كانت تلفح دون كيشوت في طريق الكاستيل والتي كانت تجعل العدل، والطيبة، والحب تتلألأ أمامه.

لقد راق في عين أوروبا؛ ولكن للحظة. كانت تستطيع أن تتأمل جراسيان بحب استطلاع وعطف، وأن تقرأ كتبه، وتجد فيها دراسة وتسلية: ولكنها لم تستطع أن تتخذ منه دليلاً ومرشداً. فقد فات الوقت، وكانت قد اتخذت قرارها، ولم يمكنها أن تتراجع. فإذا كان الرجل الفاضل لم يعد يرضيها فكيف كانت تستطيع أن تتبع آثار «بطل» أقل منه بعداً عن الدين.

لقد كانت لحظة من تلك اللحظات النادرة العجيبة، تختلط فيها الشاشة البيضاء، إذ تتنازعها صورتان مختلفتان، إحداهما تتأخر في الانصراف والثانية لا يزال ينقصها الوضوح والوثوق. فقد أخذت الظلال، تكسو النبيل، وبدأ «البورجوازي» يتخذ رويداً رويداً شكلاً ولوناً. لم يعد الناس يقبلون المبدأ الأرستقراطي الذي ساد حتى ذلك الحين. الوداع للمحارب؛ لقد انقضى الزمن الذي لم يكن يعجب الناس فيه إلا ببطولة القواد، وغزو المدن، وكسب المعارك بعد قتال عنيف، وفرار العدو على أثر هجوم شديد، وتتويج هامة المنتصر بالغار. يسخر سانت أفريموند من الماريشال دي هوكنكور، ذلك المغوار؛ ويعلم فنيلون تيليماك، على لسان الملك إيدومينه، أنه ينبغي أن نكف عن تقدير الملوك المحاربين، وأن نحب الملوك الحكماء؛ ويسخر فونتنيل: «أغلب رجال الحرب يظهرون في مهنتهم شجاعة كبيرة، ولكن قليلاً منهم يفكرون فيما يعملون؛ إن ذراعهم تتحرك كيفما تشاء؛ ولكن رأسهم يرتاح، وإن انشغل ففي غير شيء». ويحكم بايل، باسم العقل السليم على «زهو أولئك المحاربين الطامحين» الذين لا يفكرون إلا في شهرتهم، بأنه ضعف أخلاقي وجنون؛ ويستمع جان باتست روسو إلى هذا الكلام فيقول: -ما الغزاة إلا قوم حاباهم الحظ، الذي يتوج الجرائم التي ليس لها مثيل:

Mais de quelque superbe titre

Que tes héros soient revêtus,

Prenons La Raison pour arbitre,

Et cherchons chez eux Leurs vertus.

Je n'y trouve qu' extravagance,

Faiblesse, injustice, arrogance,

Trahisons, Fureurs, cruautés,

Etrange vertu qui se forme

Souvent de L'assemblage énorme

Des vices Les pLus détestés..(١)

حتى أبطال الأزمان القديمة العظماء، ينبغي أن يحرموا من الإعجاب الذي لا يستحقونه، والذي خلعه عليهم الناس من زمن طويل :

Quoi! Rome, L'Italie en cendre.

Me Feront honorer Sylla!

J' admirerais dans Alexandre

Ce que j' abhorre en Attila!

J' appellerais vertu guerrière

Une Voillance meurtière

(١) - مهما بلغ جمال ما يحمل أبطالك من ألقاب،
فلنجعل العقل حكماً ولنبحث عن فضائلهم،
إني لا أجد فيهم إلا جنوناً، وضعفاً، وجوراً، وعجرفة
وخيانة، وحنقاً، وقسوة،
يا للفضيلة العجيبة، التي تتكون من مجموع ضخم من أقبح الرذائل ...

Qui dans mon sang trempe ses mains.

Et je pourrais forcer ma bouche

A Louer un Héros farouche

né pour le malheur des humains![1]

إن الفاتح لرجل قد سلطته الآلهة -الحانقة على البشر- على العالم، لتخريب الممالك، لنشر الذعر والفقر واليأس في كل مكان، وليخلق عبيداً أرقاء بقدر ما يوجد من أحرار. -إن أولئك الغزاة الكبار الذين نخلع عليهم صفات التمجيد، لأشبه بتلك الأنهار التي تفيض فتبدو رائعة، ولكنها تخرب كل الأرض الخصبة التي كان عليها فقط أن ترويها. -من صاحب هذا الكلام؟ «فنيلون» أيضاً، في الجزء الثامن من «تيليماك».

ومسألة الشرف؟ لقد افتتن به الناس كل الافتتان؛ إنه اعتقاد باطل حان الوقت للتحدث فيه. إن خرافة مسألة الشرف هذه تقود إلى المبارزة، أي إلى أسوء الجنون. وقد اتفقت الصرامة الإنجليزية والعقل الفرنسي ضد الرذائل التي يتظاهر بها النبلاء عادة، بحسبانها من الأناقة، وضد فساد الأخلاق، وشهوة المغامرة، وعادة التجديف، حتى إن «النبيل» أوغل في الظلام مصحوباً باللعنة.

حينئذ ظهر «البورجوازي»، مبتسماً، تلوح عليه أمارات الرضا والفخار! وكان «ستيل»Steele و«أديسون»Addison بمثابة إشبينين له؛ كانا عالمين أخلاقيين، ماهرين، حكيمين. لا ينقصهما إلا شيء من قوة التركيز ومن الجرأة؛ ومع ذلك فقد أجادا تصوير مثال جديد للإنسانية، وفرضاه على القراء العديدين، الذين وجداهم أولاً في إنجلترا، ثم في أوروبا كلها. وإذا كان حقاً أن وراء كل نجاح أدبي

---

(١) - ماذا... ! هل من أجل روما وإيطاليا المدمرة أمجد سيلاً!
هل يعجبني في الإسكندر ما أكرهه في «أتيلا»!
هل أعد تلك الشجاعة القاتلة -التي تخضب يديها بدمي- فضيلة حربية!
وأقسر لساني على مدح بطل متوحش، ولد لا تعاس البشر!

باعثًا اجتماعيًا، فقد كان الباعث هنا مايلي: تطوعت مجلتاTatlerو Spectator بتقديم مثال للإنسانية، إلى زمن كان لا يزال يبحث عن قوانينه: ذلك أنهما كانا يفحصان الإنسان، لمجرد التسلية في تصويره لا شك، ولكن أيضًا لأنهما كانا قد شرعا في إصلاحه. كلما كانت صحيفة تخرج من مطبعتهما، وتنشر في مقاهي لندن، ثم تجتاز البوغاز، كانا يوجهان رسالة إلى مجتمع في حاجة إلى أصول للأدب واللياقة والواجب؛ ويشاركان -كما تقول صحيفة Tatler في توطيد شرف الطبيعة الإنسانية. كانا ينقضان خطأ، أو يصلحان ضرراً، وأكثر من ذلك، كانا يرشدان إلى ما يجب فعله، بعد تبيان ما يجب اجتنابه، لاجئين إلى السخرية حينًا وإلى اللوم حينًا آخر. وكانا يعرفان القدماء ويمجدانهم؛ درسا علماء الأخلاق الفرنسيين، مونتاني Montaigne، وسانت أفريموند، و«لابروييير»؛ ولم يجهلا أي نوع من الأنواع الحديثة للنموذج الذي يدرسانه، من «رجل فاضل» إلى «رجل لبق»، إلى «رجل ظريف»، إلى «رجل متعاقل»، إلى «أستاذ صغير»[1]؛ ولكنهما كانا يعرفان أيضًا أن قلب الإنسان ثابت ومتقلب في نفس الوقت، وأنه يجب ألا نكف عن العمل على إصلاحه؛ وتوفرا على العمل: بعد كاستجليوني، وبنكازا، ونيكولافاري، وشيفالييه دي ميري بعد أولئك اللاتينيين جاء رجلان إنجليزيان، فقد حل دورهما.

فقيه في القانون، والتاجر فريبورت، والربان سنتري، والدنيوي هونيكومب، وقسيس: تلك هي الجماعة الصغيرة التي تحيط بالسيد سبكتاتور. ومجمل القول، أن هذه الجماعة لم تضم إلا بعض البورجوازيين، فيما عدا البارون السّير روجير دي كوفرلي؛ ولكن سير روجير يبدو من البساطة ورجاحة العقل، ومخالفة عادات إخوانه النبلاء، وحب المناقضة وغرائب الآراء، ومن الرقة والإحسان، بحيث لا يشبه في شيء أولئك النبلاء الفاسدين الذين شهد أدب العصر السابق ازدهارهم. إن السيد سبكتاتور نفسه يبدو كأكثر الناس بساطة

---

(1)- honnête homme -galant homme- homme du bel air -un petit maître - un bel esprit

وتواضعًا. كل ثروته عبارة عن عقار بسيط في الريف، لم يتغير منذ ستمائة عام؛ يعرف الكثير ولكنه لا يحب أن يتظاهر به؛ ولقد رحل إلى كل نواحي الدنيا، ولكنه لم يتخذ من ذلك سببًا للزهو. إنه رزين، صامت، يحب العزلة، قليل الأصدقاء، لا يتردد على أقربائه، ولا يقابل أحداً، حتى صاحبة مسكنه. ولما كان الناس يرونه يتردد على المسارح، والمقاهي، والمحلات العامة في لندن، بحثًا في أخلاق معاصريه، فقد أخذ البعض يظنه يسوعيًا، والبعض جاسوسًا، والبعض متآمراً، والبعض مجنونًا. «الشيء الذي يعزيني عن هذه المعاكسات التافهة، هو أني أجد سروراً في مشاهدة طبائع الناس بنظرة هادئة ساكنة، دون رأي مبتسر. ولما كنت قد تحررت من الشهوات والأغراض التي تسيطر عليهم، فإن لي بصيرة أقوى في الكشف عن فضائلهم ورذائلهم». وهكذا يقدم لنا السيد سبكتاتور، ببساطة خلقه وحكمته الهادئة، نموذجًا لحياة جميلة سعيدة.

يقول لنا إن الطبقة النبيلة توشك على الضياع، لاصرارها على المبارزة من أجل مسألة شرف ليس لها أساس، ولأنها تخطئ في معنى كلمة العدل، إذ تلعب مع محترفي المقامرة، وتبدد ثروتها بين أيديهم. إنه يسخر من أولئك الذين يضعون كل شرفهم في ألقاب باطلة، يكتسبونها مصادفة بمولدهم، ولا فضل لهم فيها. ويبشر بالأدب وبرقة الأخلاق، ويؤاخذ الناس الذين يضجون في المسرح، والنساء اللواتي يشربن الخمر أو يدخن؛ ولكنه ينوه في نفس الوقت بأن التهذيب الخارجي ليس كل شيء في الحياة؛ بل يفضل توكيد الفردية على إمحاء الشخصية: إن كلا من المجاملة، والتصنع، والتكلف تثير اشمئزازه؛ فقيمة كل امرئ في صدق طبيعته لا في تصنعه. إن الناس يخطئون في ظنهم أن أسمى فضيلة لدى الرجال الشجاعة، ولدى النساء العفة: اعتقاد باطل مرده إلى رغبة كل جنس في أن يروق في عين الجنس الآخر. فالنساء يقدرون الشجاعة عند الرجال فوق كل شيء، والرجال يكرهون النساء الخائنات. كأنما دماثة الخلق، وكرم الطبع، ورقة الشمائل، ليست في منزلة تلك المزايا التي يسمونها اجتماعية، والتي لها مكان الشرف في العادة!

وبالمثل ينبغي أن يقدم المفيد على الظريف: فالغانيات اللواتي لا يبتغين إلا اجتذاب الأنظار؛ والمتعطلون الذين لا يرومون إلا نيل الاعجاب، والمتكلفون، الذين غالوا في الرقة والدقة في كل شيء، حتى أصبحوا لا يبالون بالخير والشر، كل أولئك جنس مشئوم. وإن الدعابة، والملحة، والسخرية، التي يستلطفها الناس، ليست في الغالب إلا خبثًا محضًا. وبعد، فماذا تساوي حياة المجتمع نفسها؟ هل يجب أن يكون دور الرجل التأنق والتظاهر في المجالس والمجتمعات؟ هل في ذلك كل سعادته؟ إن السعادة عدوة الأبهة والضجة، بل هي تبتغي العزلة؛ إنها تتولد من التمتع الذاتي، أو من صداقة عدد قليل من الأشخاص المختارين؛ إنها تحب الهدوء والانفراد، وتتردد على الغابات والجداول، على الحقول والمروج: تجد في كيانها كل ما تحتاج إليه، وإنها لفي غنى عن الشهود والمشاهدين. وبالعكس، فإن السعادة الخيالية لا هم لها إلا اجتذاب الأنظار؛ ولا سعى لها إلا وراء إثارة الاعجاب، حياتها تترعرع في القصور، والمسارح، والاجتماعات، وتموت بمجرد ما تنصرف عنها العيون. السعادة تقتضي ألا نغالي في مطالبنا! والبحث عنها لا يفيد الجنس البشري بقدر ما يفيده قدرة المرء على السلوان، وثباته وصبره أمام الأحزان. إن رضى النفس هو كل ما نستطيع أن نتوقعه في هذه الدنيا: فلا تكاد أطماعنا ترتفع حتى تصادفها العوائق وآلالام. لنستغل دراستنا وجهدنا لنحصل على الراحة في الأرض، والسعادة في السماء. -إننا نرى كيف يكرر السيد سبكتاتور بعض الصور المعروفة لموضوعات قديمة؛ ولكنا نرى أيضًا كيف يبتعد ابتعاداً صريحًا- ولو أنه يلتزم الكلاسيكية -عن مثال الرجل الفاضل؛ وكيف ينتقل- محاولاً أن يشيد حالة رفيعة من المدنية -من الأرستقراطية إلى البورجوازية، ومن الظاهر إلى الباطن، ومن المتعة الاجتماعية إلى الفائدة الاجتماعية، ومن الفن إلى الأخلاق.

تقول مجلة تتلر Tatler، إن التاجر أحق بلقب «جنتلمان» من رجل البلاط الذي لا يشارك إلا بالكلام، ومن العالم الذي يسخر من الجاهل. وهذا ما تراه مجلة سبكتاتور Spectator. إن التاجر جدير بكل الاحترام. فهو لا يعطي لإنجلترا القوة، والغنى، والشرف فحسب؛ ولم يرفع مصرف إنجلترا -معبد الأيام الحديثة-

إلى مجده فقط، بل يعمل، بفضل تجارته، في سبيل التعاون بين الدول، ويدفعها إلى المشاركة في سبيل الرفاهة العامة: إنه صديق الجنس البشري. البطل يقنع بشهرة باطلة، بينما يحتاج التاجر إلى سمعة أدق وأرهف، وكأنما أرق، تسمى ثقة أو ائتمانًا. إن كلمة بسيطة، أو تلميحًا أو سريان خبر غير صحيح، يجرح هذا الائتمان ويخرب التاجر: قال نبيل ذات يوم إنه اعتاد أن يتكلم بكل حرية، عن النبلاء الآخرين، دون تحفظ، بينما كان يحرص على ألا يتكلم بسوء عن التجار: لأن في ذلك قضاء عليهم وإدانة لهم بدون دفاع. هكذا ينتشر شرف من نوع جديد: شرف التاجر.

إن الشخصيات تبدو أكثر حيوية على المسرح، كما يعلم الجميع؛ فالكتاب مضطرون إلى المبالغة فيها بعض الشيء، ليظهروها للعيون. ولا يكتفي ستيل بوصف تلك المنافسة بين النبيل والتاجر في الصحف فقط، بل ينقلها إلى المسرح. وكان هذا في واحدة من أجمل مسرحياته: «The Conscious Lovers». سير جون بفيل، الرجل النبيل، يوشك على تزويج ابنته من ابن السيد سيلاند، التاجر الثري الذي اغتنى من الاتجار مع بلاد الهند. إنهما يتجابهان: يسخر التاجر من الرجل النبيل؛ قائلاً إن عنده -هو، سيلاند- سلسلة نسب رائعة: جود فروا، أبو أدوارد، أبو بطليموس، أبو كراسوس، أبو الكونت ريشارد، أبو المركيز هنري، أبو الدوق جان: كلهم ديكة ممتازة في القتال...

وإذا لم يكن لدى السير جون بفيل المعرفة الكافية، فإن السيد سيلاند يتكفل بأن يوضح له التطور الذي حدث في إنجلترا.

- «اسمح لي أن أقول لك إننا، معشر التجار، نوع من النبلاء ظهر في الدنيا في القرن الأخير. إن لنا مالكم من شرف ونفع، يأيها الملاك الذين يعدكم الناس أفضل منا بكثير. لأن مشاغلكم لا تتعدى، في الحق، حمل علف أو ثور سمين. إنكم حقًا قوم مضحكون، لا تصلحون إلا لخلق الكسالى!»

وهاك صيغة أكثر كبراً.

- «إنه الحق كل الحق، إن التاجر الكامل هو أفضل مثال للنبل في الشعب؛ وإنه يفوق كثيراً من النبلاء من وجهة المعرفة، والحكمة، وحسن السلوك».

وخلاصة القول، أن انقلابًا قد تم، وأن الأدب قد سجله وعمل على، نشره:

- «إن مآل عدد كبير من النبلاء أن يجدوا أنفسهم مضطرين إلى التنازل عن إرث آبائهم لأسياد جدد، كانوا أدق منهم في إدارة حساباتهم، ولا شك في أن الذي اكتسب ملكًا بفضل صناعته أحق بملكيته من الذي أضاعه نتيجة لاهماله... [1]».

* * *

هذا الطراز الإنجليزي الذي رأيناه يتشكل، سيؤثر على كل أوروبا تأثيراً عميقًا. ستشيعه الصحف، وقصص الأسفار، والمسرح والروايات؛ وسيسعى أهل البدع إلى تقليده: بساطة في المظهر، ثياب بلا زينة؛ صوف لا حرير؛ وعصا لا سيف. وبساطة في الروح أيضًا: خلق صريح يذهب في مقت الكذب إلى حد الخشونة، إدراك سليم، اهتمام بالمسائل العملية: فكما يقول السيد سبكتاتور، هل ينبغي ألا نهتم إلا بالأدب والفنون الجميلة؟ يجب أن نوجه الاهتمام أيضًا إلى العمل، والتجارة، والادخار، والفنون الميانيكية التي تفيد في استكمال الحياة. يقول بيير كوست -الذي ترجم في عام ١٦٩٥ كتاب جون لوك عن «تربية الأطفال»- إن الحق أن ذلك المؤلف الإنجليزي كتب للشباب المهذب Gentlemen، ولكن لا يجوز أن يخطئ الفرنسيون في معنى كلمة «جنتلمان» هذه: لأنها لا تشير إلى النبلاء، بل إلى الطبقة التي تأتي تحت رتبة البارون مباشرة، أي إلى الأشخاص

---

(١) - سبكتاتور رقم ١٧٤.

الذين يسمون في فرنسا «أناسًا من أسرة طيبة»، أو بورجوازيين طيبين، «وبذلك يسهل علينا أن نستنتج أن هذا البحث عن التربية لابد من أن يلاقي رواجًا واسعًا، نظرًا لأنه كتب خصيصًا للنبلاء، على أن تأخذ هذه الكلمة المعنى الذي أخذته في إنجلترا». هكذا عرضت البورجوازية الإنجليزية على لسان بيير كوست، دعوة إلى البورجوازية الأوروبية.

ولكن لن يملك شعب فيما بعد الامتياز في أن يكون «طرازًا» عالميًا وحده، ولذلك سيكون هذا الطراز أكثر تعقيدًا وأقل وضوحًا في معالمه من الطراز الكلاسيكي؛ ولن يبدو أي مثال فيما بعد، بتلك البساطة الجميلة التي أضفاها الفن الكلاسيكي على النموذج الذي قدمه للعالم. لقد أخذت فرنسا تبحث من جانبها. فلابد لها -وبذلك يقضي طبعها وإرادتها- من دليل يقودها نحو العقل، ونحو استقلال الفكر. فعرضت أخيرًا المثل الأعلى الذي ستتخذه بصفة قطعية، البدعة الفكرية في القرن الثامن عشر: مولد من الإنجليزي والفرنسي، مفكر نظري وسيد للحياة: الفيلسوف.

في هذا الوقت، وقت العمل والتوليد، في أي صورة يظهر لنا هذا النموذج الجديد؟ «الفيلسوف» -كما يقول لنا قاموس الأكاديمية سنة ١٦٩٤-: «هو الذي يتوفر على دراسة العلوم، ويرمي إلى معرفة النتائج بمعرفة العلل والمبادئ... الفيلسوف هو الرجل الحكيم الذي يعيش عيشة هادئة منعزلة، بعيدًا عن صخب الأمور... وهذه الكلمة تنطبق أحيانًا على الرجل الذي يعلو بنفسه، بفضل تحرر فكره، فوق الفروض والالتزامات العادية للحياة المدنية».

هذا زمن تتلاحق فيه هذه الملامح المختلفة متتابعة. أولاً، لم يعد الفيلسوف ذلك الرجل، المحترف، المختصص، الأستاذ، الدعي الذي لا يقسم إلا بأرسطو أو بأفلاطون، بل من الجائز ألا يدرس المرء الميتافيزيقا أبدًا، ومع ذلك يكون فيلسوفًا. -إنه عالم يستعمل عقله، لا ذاكرته: يدرس علم الفلك، ويتكلم عن تعدد

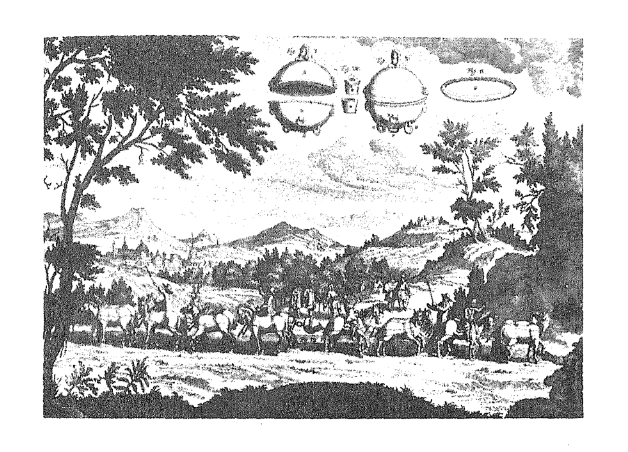
العوالم، ويشرح- إن لم يكن لم فعلى الأقل كيف -تدور الأرض حول الشمس. - إنه حكيم؛ فهو يتخذ لنفسه حياة ناعمة، يحيط به أصدقاء وصديقات، دون أن يطمع في وظيفة أو مهنة أخرى غير وظيفة مراقب بط قصر سان جيمس؛ وسيتضمن برنامجه الشهوة، دون أن تشغل حيزًا كبيراً: شهوة معقولة. -إنه متحرر الفكر: هذا هو المهم. إنه يقدر كل شيء في حرية تامة؛ ويعيد إلى العقل منزلته الرفيعة، كما ستقول مدام «دي لامبرت» فيما بعد. إن أولئك السادة أعضاء الأكاديمية يخطئون، أو لعلهم يسيئون التنبؤ، في قولهم إن الفيلسوف يعلو بنفسه فوق فروض والتزامات الحياة المدنية. لأن الفيلسوف، على العكس، يبتغي إصلاحها: فلا فلسفة إن لم يستمل الفيلسوف أنصاراً. وأخيراً فسيكون له قلب حار، ولكن بعد مدة؛ يجب أن ننتظر نصف قرن، قبلما يضطرم قلبه ويشتعل بكل لهبه.

يبدو الفيلسوف، من بدايته، خصمًا للأديان المنزلة. فإن قلت إن في الصين، جميع مستشاري الإمبراطور والمقربين إليه فلاسفة، فإنك تدرك جيداً أنهم، مثل أستاذهم كونفوشيوس، حكماء لا دينيون. وإن استمعت إلى فيلسوف يتكلم عن الأخلاق والعلم، فكن متأكداً أن أخلاقه لن تكون دينية، وأن علمه لن يكون فيه شيء من القداسة: بل العكس. وإن علمت أن رجلاً عاش فيلسوفًا ومات فيلسوفًا، فستدرك أن ذلك الرجل مات غير مؤمن. والمدافعون عن التقاليد لا يخطئون في ذلك؛ ألف الأب «ليجييه» في عام ١٦٩٦ مسرحية لمدرسته، بعنوان «ديموقليطس أو حكم الفيلسوف».

Damocles, sive philosophus regnans: كن أحمق وسلم زمام السلطة لفيلسوف، وسرعان ما يقلب أمور الدنيا!

* * *

فلسفة تكف عن الميتافيزيقا وتقتصر مختارة على ما تستطيع أن تدركه مباشرة في النفس البشرية. فكرة طبيعة ما زال الناس ينكرون طيبتها التامة، ولكنها مع ذلك عظيمة قوية، منتظمة، وموافقة للعقل: ومن هنا دين طبيعي وقانون طبيعي، وحرية طبيعية، ومساواة طبيعية. أخلاق تنقسم إلى فروع عديدة؛ والالتجاء إلى المنفعة الاجتماعية لاختيار أفضل هذه الأخلاق. الحق في السعادة، في السعادة على الأرض؛ الكفاح ضد الأعداء الذين يحولون دون سعادة الناس في هذه الدنيا، ضد السلطة المطلقة، ضد الخرافة، ضد الحرب. العلم الذي سيضمن تقدم الإنسان، وبالتالي سعادته. الفلسفة، مرشد الحياة. تلك هي التبدلات التي حدثت أمام أعيننا؛ تلك هي الأفكار والرغبات التي ترعرعت قبل نهاية القرن السابع عشر، والتي اتحدت لتكوين مذهب النسبية والإنسانية. الطريق ممهد. وكل شيء معد: يستطيع فولتير أن يقبل.



تجربة عن الفراغ (أمستردام . ١٦٧٢)

القسم الرابع
القيم التخيلية والحساسة



الفصل الأول

زمن بلا شعر

نستطيع أن نتتبع الحركة العقلية حتى ظهور الانسيكلوبيديا [(١)]، وحتى «المقال عن الأخلاق»[(٢)]، وحتى إعلان حقوق الإنسان[(٣)]، وحتى وقتنا هذا.

لكن من أين يأتي ريشاردسون[(٤)]؟ من أين يأتي جان جاك روسو؟ من أين تأتي «العاصفة والانفعال» Sturm und Drang [(٥)]؟ لا بد من أنه كان هناك نبع خفي قد انبثق منه هذا السيل العاطفي. لقد ظهرت حتى الآن بمظهر من لا يرى على

---

(١) - تأليف واسع استغله فلاسفة القرن الثامن عشر، وكان يتولاه دالامبير وديدروDiderot [المترجمان].

(٢) - Essai surLes moeurs مؤلف تاريخي وفلسفي لفولتير، ١٧٥٦. الفكرة الأساسية فيه؛ أنه لا يوجد شعب مختار ولا جنس متفوق، بل المجتمع البشري بأجمعه يشارك في تقدم الإنسان. وأن الأنسانية كونت نفسها، تحت ضغط الاحتياج والظروف التي خلقت القوانين والأخلاق والعلوم، (أنظر فولتير، بقلم جوستاف لانسون، هاشيت ١٩٢٧). [المترجمان]

(٣) - المبادئ التي أعلنتها الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩: المساواة بين المواطنين، سيادة الشعب، واحترام الحريات... [المترجمان]

(٤) - ريشاردسون: خالق الرومانتيكيه الانجليزية الحديثة ومن مولفاته كلاريس هارلو، وباميلا. [المترجمان]

(٥) - Sturm und Drang، أو العاصفة والانفعال: أعطى هذا الاسم لمدرسة أدبية أثرت تأثيراً عميقاً على الأدب الألماني بين (١٧٧٠ - ١٧٩٠). وهذه المدرسة تدين باسمها لمسرحية ألفها Klinger عام ١٧٧٦ بعنوان «عاصفة وانفعال» قوامها حركة عكسية ضد العقلية، مطالباً بحقوق الشعور ضد حقوق العقل، وبحقوق الابداع ضد الاصطلاح. ويظهر في إنتاج هذه المدرسة تأثير «ستيرن» ويونج وجولد سميث و «أسيان» والكتاب المقدس. ولكن الحركة على وجه عام يسودها تأثير «جان جاك روسو». وأهم من يمثل هذه المدرسة فاجنر، لنتز، كلينجر وفردريك مولر. [المترجمان]

«المسرح العالمي إلا العقليين: والواقع أن هذا هو الوقت الذي تقدموا فيه إلى المنظر الأمامي، حيث شغلوا - في صخب وإلحاح - أهم الأدوار الكبرى. لكن ليس صحيحاً أنهم كانوا وحدهم متفردين، وقد حان الوقت لنلتفت إلى الآخرين إلا أنه ينبغي أن نعترف أولا أن البحث شاق هنا، وأن المظاهر تخدعنا، وأن أولى النتائج التي نصل إليها سلبية.

* * *

ونحن في الواقع نرغب فب توجيه بحثنا إلى ناحية الشعر. فلابد من أن القيم التخيلية والحساسة التي نأمل العثور عليها، تحتمي فيه.

إلا أن هذا العصر كان عصر النثر. وهل هناك نثر أغنى وأقوى، وأحق بالإعجاب من نثر سويفت؟ وأرق من نثر سانت أفريموند؟ وأبلغ من نثر فونتنل؟ وأحد من أسلوب بايل؟ إن ذلك المنطيق، ذلك الرجل الذي لم يحب إلا الاتهام والتمييز Criminations et discriminations كما يقول لبنتز، - لم تخمد أبداً جذوته. إنه يغضب، وتزداد فورته، ولا تزال تشتعل صفحاته بالنار التي كانت تلهبه. فإذا لم تكفه ألفاظ اللسان الجاري، خلق غيرها. يحصر تعبيره الأفكار ويربطها حتى يجعلها تفصح عن كل ما تتضمنه. ولا أحد يشبهه، وإنك لتتعرف أسلوبه لأول نظرة، حتى ولو لم يوقعه.

لقد أعطى الجميع، - انجليز كانوا أو فرنسيين - للنثر قوة مؤثرة جديدة، بتحميله بالأفكار، وبجعله مناضلاً، متهجماً. ولقد صبوا في بحوثهم، وفي رسائلهم، وفي أحاديثهم عن الأحياء والأموات [1] وفي رحلاتهم الخيالية، كل الأخلاق، وكل الدين وكل الفلسفة.

---

(١) - مثل كتاب فينيلون «أحاديث الأموات» الذي كتبه في عام ١٧١٢ لتربية دوق بورجوني. [المترجمان]

ولم يكونوا شعراء. كانت آذانهم قد سدت عن نضرة الكلمات ورقتها، وكانت نفوسهم قد فقدت معنى الأسرار. ولقد أغرقوا عالم الواقع الملموس في نور لا يخمد. وكانوا يبغون الانتظام والوضوح حتى في مكاشفاتهم القلبية. وإذا كان الشعر دعاء، فإنهم لم يعرفوا الدعاء؛ وإذا كان محاولة للوصول إلى ما يجل عن الوصف، فقد كانوا ينكرون ما يجل عن الوصف؛ وإذا كان ترددًا بين الموسيقا والمعنى، فإنهم لم يعوفوا التردد. فهم لا يريدون إلا البرهان والقضايا، وإذا نظموا شعراً، فإنما يفعلون ذلك ليضمنوه فكرهم الهندسي [1].

هكذا مات الشعر، أو على الأقل بدا ميتًا. لقد نفذ إليه الذكاء، بآليته وجفافه، ففقد سبب وجوده. في ذلك الوقت، كان هناك جمع غفير ممن ينظمون الشعر: ولكن بعد موت لافونتين، لم يعد في فرنسا شعراء. ولما ظهرت المدرسة الكلاسيكية الإنجليزية في ازدهارها الرائع، كان أكثر ما تفتقده الشعراء المجيدون.

وبعد، فقد كان للعبقرية المبدعة عدو آخر. لقد بولغ في الاعجاب بما قدمه الجيل السابق من الروائع الأدبية في سخاء. ازداد أشياع كورنيل وراسين وموليير عما يجب، وظن البعض أن أولئك الأعلام جديرون دائماً بالمحاكاة والتقليد. واعتقدوا أنهم استعملوا صيغًا خاصة وأسراراً فنية، وأنه يكفي أن يتوصلوا إلى هذه الصيغ وتلك الأسرار لكي ينتجوا مثلهم روائع خالدة.

إن جبابرة العقل الذين كانوا يفخرون بعدم احترامهم لشيء من الأشياء، وكراهيتهم للاعتقادات الباطلة، قد أصبحوا في ميدان الأدب قطيعًا طيّعًا؛

---

(١) - ليماجون دي سان ديديه: الرحلة إلى باريس ١٧٦١، ص ٢٥٨ «لقد دوت فجأة ضجة هائلة، فإن مائة شاعر صاحوا في آن واحد راجين أبوللو أن يستمع إلى أشعارهم. فقال أحدهم: أيها الاله العظيم، لقد نظمت قصيدة عن حركة الأرض، وقال غيره: لقد نظمت قصيدة عن الجبر . . .» وفيما يتعلق بانجلترا أنظر إلى مؤلف جورج أسكولي، «بريطانيا العظمى في نظر الرأي الفرنسي في القرن السابع عشر. ١٩٣٠. الجزء الأول ص ١١٩.

يسجدون أمام الأوثان، ولايجترئون على لمس «قانون التفريق بين الأنواع» أو قانون «الوحدات الثلاث». يرفضون الاعتقاد في الملائكة والشياطين، ولكنهم يؤمنون ببندار وأنا كريون وتيو كريت [1]. بل كانوا يعتقدون في أرسطو: لا أرسطو الفيلسوف، بل أرسطو مؤلف علم البلاغة، فهو بصفته هذه نصف إله.

كانت اليونان في نظر راسين حقيقة شعرية مؤثرة. ولو لم تكن فيدرا[2] ابنة الآلهة، لما تألمت مثلما تألمت:

J'ai Pour ayeul le Père et le Maître des Dieux.

Le Ciel, Tout l'Univers est plein de mes Ayeux.

Ou' me cacher? Fuyons dans la Nuit infernale.

Mais que dis -je? Mon père y tient l'urne fatale.

Le Sort, dit - on, l'a mise en ses sèvères mains.

Minos juge aux Enfers tous les pâles humains.

Ah! combien frèmira son ombere èpouvantèe,

Lorsqu'il verra sa fille à ses yeux prèsentèe,

Contrainte d'avouer mille forfaits divers

Et des crimes peut - être inconnus aux Enfers?

Que diras -tu, mon Père, à ce spectacle horrible?... [3]

---

(١) – شعراء اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد. [المترجمان]

(٢) – فيدرا: في المثيولوجيا اليونانية ابنة مينوس إله الجحيم ابن زيوس رب الأرباب، وقرينة «تيزيه» اشتهرت بحبها لابنها هيبوليت سفاحًا، ولما صدها اتهمته لدى زوجها ثم انتحرت ندما. وألف راسين مسرحية عن هذه المأساة. المترجمان]

(٣) –جدي هو سيد الآلهة، رب الأرباب.
إن أجدادي يملئون الكون والسماء.
أين أختبئ؟ هيا نهرب من الليل الخبيث. =

ولكن اليونان لم تعد اليونان، فقد اذاها هذا النجاح، ولم تفهم على حقيقتها: ففقدت بساطتها الطبيعية، وشبابها وحياتها، وأصبحت أشبه بالمدافن العامرة بالتماثيل؛ ولم تعد روائعها الابداعية سوى مجموعة قوانين للنجاح المصطنع. لقد درسها الناس على ضوء الحاضر، وبدلاً من تفهم أوليس وأجاكس[1]، قالوا إن جمالها مرده إلى لبسهما الشعر المستعار وإلى حملهما السيف في ذاك الوقت.

عندما شرع العالم في تمجيد هوميروس في عام ١٧١٥، وأراد أنصار القدماء الانتقام من المحدثين، ونشر بوب ترجمته للالياذة، التي ترجمت مقدمتها إلى الفرنسية والألمانية، ترى ماذا كان رأي المعاصرين في القصيدة اليونانية؟ قال بوب إن هوميروس يفوق الآخرين بفضل الابتداع، علامة العبقرية، لأنه يمد الفن بالثروة التي عليه أن ينظمها. لقد استطاع هوميروس بفضل مقدرته هذه، أن يتخيل تلك الأساطير التي أسماها أرسطو روح شعر الملاحم، والتي تنقسم ثلاثة أقسام، الأولان هما القصص المجازية والمحتملة - التي تبيح للشاعر التعبير عن أسرار العلم والحكمة - ثم القصص العجيبة المحيرة التي تتضمن ما يفوق الطبيعة، وآلية الآلهة: «يخيل إلى أن هوميروس هو أول من جعل من الآلهة نظاماً آلياً للشعر، مما أضفى

= لكن ماذا أقول؟ إن أبي يحتفظ فيه بالإناء المشئوم
يقال إن إله القد قد وضعه في يديه الصارمتين
إن مينوس يحكم في الجحيم على البشر المسكين.
آه!... كم سيرتعد دهشة حين تتقدم ابنته إليه،
مجبرة على الاعتراف بمائة فاحشة، وجرائم ربما لا يعرفها الجحيم!
يا أبتاه!... ترى ماذا تقول في هذا المشهد الفظيع؟

(١) - Ulysse: والد تيليماك وزوج بنليوب، بطل حرب طرواده. ورجوع أوليس إلى وطنه هو موضوع الأوديسا لهوميروس. وأجاكس هو خصم أوليس. نشب بينهما قتال للاستيلاء على سلاح أشيل - قاتل هيكتور في حرب طروادة وأحد أبطال الالياذة، الذي قتل بارنس برمية سهم - فانتصر عليه أوليس، فاغتنم وجن. [المترجمان]

على الشعر هذه الرفعة والأهمية. . . » بيد أن هذا الابتداع، وإن كان مفيداً في الخطابة والوصف والتشبيه، في التصوير والشعر والأسلوب، إلا أنه لا يخلو من بعض العيوب! فأعاجيب هوميروس لم تعد معقولة، واستعاراته ملؤها المغالاة، وتكراره متعب ممل. . .

ولما قرأت مدام داسييه[١] هذا الكلام، ثارت وقالت: «ماذا يعني بوب هذا؟ ذلك الانجليزي الذي يترجم هوميروس وهو لا يفهمه؟ إنه لا يرى في الالياذة إلا كتلة مهوشة من جمال لا انتظام فيه ولا انسجام، حقلا ليس فيه سوى بذور فجة، لا نضج فيها ولا كمال، وإنتاجاً حافلاً بالغث الذي لا فائدة فيه، يجب حذفه لأنه يخنق ما يستحق الاحتفاظ به، إن أعداء هوميروس لم يوجهوا إليه أبداً إهانة أشد ولا ظلما أفدح. ما أبعد الالياذة عن أن تكون حقلاً بائراً، بل إنها في الحق بستان فيه أحسن انتظام وأكمل انسجام رآه الانسان. إن «لينوتر» أعظم مهندسي البساتين في الدنيا، لم يحقق في بساتينه انسجاماً أكمل مما حققه هوميروس في أشعاره. . . »

عند هذا الحد انتهى الانتقال، واستقرت الأمور في مكانها: أصبحت إتياك[٢] فرسايل.

* * *

لشد ما أساء الناس إلى الشعر! لم يعودوا يدركون معناه، ولم يعد نفثا إلهياً يذكي القلوب. لقد صغروا من شأنه حتى لم يعد إلا صورة من صور عدوه، فن الخطابة. فبدلا من البحث في أعماق النفس، اتجه - بمجهود مخالف لطبيعته - نحو خارجها، نحو الاثبات والتحليل. كان الخيال يعد مقدرة تافهة، ولم تعد صورة إلى بهرجاً كاذباً. وأصبح االشعر مملا ثقيلا، وولم يعد إلا صعوبات مذللة: هنا كان فضله كله. . وكما قال فالانكور في رده على خطاب السيد دي فليري في الأكاديمية

(١) - قرينة عالم مشهور قامت بترجمة الالياذة والأوديسا. [المترجمان]

(٢) - إتياك: إحدى جزر الأيونيون، موطن أوليس عندما اشترك في حصار طروادة. [المترجمان]

الفرنسية في عام ١٧١٧ : إن عرائس الشعر لم يعدن يسكن جبل بارناس، لم يعدن بعد آلهة، لم يعدن سوى وسائل شتى يتوسل بها العقل للتوصل إلى أدمغة الناس.

إذا أردنا أن نعرف إلى أي حد من الضلال وصل الناس إذ ذاك، فينبغي أن نطلع على ماكتبه فونتبل عن أشعار فرجيل، وما كتبه «هودار دي لامت» عن القصيدة. إلا أن هذا الأخير كان أكثر تمشياً مع المنطق، فقد واصل جرأته حتى وصل إلى نتائج مبادئه : الشعر مضايقة، فلنكتب بالنثر. إن النثر قادر على التعبير عن كل ما يقوله الشعر، فهو أدق وأوضح وأسرع؛ لا يدفع بالذهن إلى العذاب، بالقوافي والأوزان؛ فلنقدم للناس قصيداً غير منظوم. . . وهو لم يكن يسير في طريق ابتداع الشعر المنثور، ولم يدرك أن الالهام له الحق دائماً في اختيار الشكل كيفما يشاء : بل على النقيض كان ينكر الانسجام بكل فخار.

والحق أن البلاغة، على طول تهديدها للشعر، لم تحرز يوماً انتصاراً أقسى مما نالته يوم كتب هودار دي لامت قصيدة سماها «البلاغة الحرة» : العفاء على القافية الوزن!

يا قافية، أيتها القيود الغريبة الظالمة، أتكون أفكاري دائماً عبيداً لك؟ حتام تتحكمين فيها مغتصبة حقوق العقل؟ فور ما تأمرين بالتزام العدد والوزن، يجب التضحية بالصحة والدقة والوضوح. وإذا أنا أصررت على الاحتفاظ بها بالرغم منك، فبأي عذاب تنتقمين مني لمقاومتي لك؟عليك وحدك، أيتها البلاغة الحرة المستقلة، عليك وحدك أن تخلصيني من عبودية مهينة للعقل كل الهوان».

هودار دي لاموت، الرجل الذي لخص «الالياذة» في اثنتي عشرة أغنية، ثم نظم قصيدة يتمثل فيها «هوميروس» يهنئه على عمله القيم؛ الرجل الذي كتب أشعار راسين منثورة، وسر بعمله هذا وافتخر. . . لقد أمل أصدقاؤه وأمثاله أن العالم بأجمعه سيدرك يوماً أنه لا حساب إلا لعرض الوقائع، ويومئذ سوف يدع الناس الاشباح ولا يعبرون عن غير الحقيقة، ولن يثقلوا كاهل اللسان مرضاة

للأذن، وسوف يصبح الشعراء فلاسفة: وهذا خير سبيل للإفادة منهم[1]. «كلما سار العقل في طريق الكمال، فضل الناس التمييز على الخيال، وبالتالي قل إعجابهم بالشعراء. يقال إن أوائل المؤلفين كانوا شعراء. حسنًا، إني أصدق هذا، فما كان في مقدورهم أن يكونوا غير ذلك. أما الآخرن فسيكونون فلاسفة[2].»

وإلى أن يحين ذلك اليوم البعيد، ينبغي التحرز من طائفة عنيدة، مخادعة، لافائدة لها. الشاعر - حسب قول جان لي كلير - رجل يخترع، جزئيًا أو كليًا، الموضوع الذي يتناوله، ويرتب أفكاره طبقًا لنظام خاص يجتذب القارىء ويسترعي انتباهه، ويستعمل ألفاظًا عن الألفاظ الشائعة. «عندما نطلعه على قصيدة، فلا بد من أن نقول إن هذا عمل كذاب، يريد أن يصف لنا أوهامًا أو حقائق مشوهة حتى إننا لا نستطيع أن نفرق بين الصحيح، والباطل. ينبغي أن نعي أن الألفاظ الفخمة التي يستعملها لا غرض منها إلا أن يحير بها عقلنا، وأن الوزن الذي يستعمله لا غرض منه إلا أن يتملق آذاننا، لكي يدفعنا إلى الاعجاب بعمله، والاكبار من شأنه. قد تنفع هذه الأفكار كترياق في مطالعات من هذا النوع، إذ تفيد أولئك الذين أوتوا ذهنًا قويًا، ولكنها لا نفع لها إلا في تهويش أصحاب الأذهان الضعيفة، إذا بالغوا في الاعجاب بها[3].» ما منشأ هذا العداء من أحد أعلام العقليين؟ إنه هذا الاعتقاد الراسخ: الشعر هو الباطل.

وبعد، فقد كان هذا رأي معظم المعاصرين، وإن لم يشعروا بذلك. كان عملهم يقتصر على تقليد أشعار بندار - أعظم شعراء الأغاني في اليونان القديمة - و«قصيدة الاستيلاء على نامور». فقد قال جان باتست روسو الذي كان يعد أكبر شاعر غنائي في هذا الوقت «كان اعتقادي دائمًا أن آمن طريق للوصول إلى ذروة

(١) - فونتنل: عن الشعر، مصنفات مختلفة، الجزء الثامن، ١٧٥١.
(٢) - الأب تروبليه، مقال عن موضوعات شتى في الأدب والأخلاق ١٧٣٥.
(٣) -جان لي كلير: ١٦٩٩.

الاجادة هو تقليد عظماء المؤلفين السالفين» لذلك تجد الاجادة عنده، عبارة عن علامة استفهام أو تعجب أو فورة كاذبة. فهو يبتدئ كلامه بتعجب مدهش: ماذا أرى؟ ماذا أسمع؟ لماذا تنشق السماء؟ لأن الأميرة فلانة تقترن، أو الأمير فلان يولد، أو الملك فلان يموت». ثم يتبع ذلك ببعض الأبيات يدعمها مدد من الميثولوجيا، ثم ينتقل إلى مقارنة، أو وصف: وهكذا تتم القصيدة. ولا يكتمل لها النجاح، إلا إذا اختفى المنطق، وبناء القصيدة، تحت ستار من الغموض الفني. «وهذا الخروج على القواعد والفن والمنهج، إنما يزداد روعة كلما ازداد خفاء، وكلما وهنت فيها الروابط، مثلما يحدث في أحاديثنا إذا أوحت بها نشوة العقل، التي تعوقها عن الخمود. بمعنى أن هذا الغموض هو الحكمة في ثوب الجنون، متحررة من تلك القيود الهندسية التي تجعلها ثقيلة، وتسلبها الروح ...».

* * *

ويمكننا على أسوأ الفروض، أن نلتجئ إلى الظروف المخففة، بل أن نذكر أيضاً في كتاب الحساب الكبير، حيث يسجل نجاحنا وفشلنا، بعض القيم المستنفذة، مقابل كل هذه الخسائر.

أي حلم عذب، أن نحلم بوجود الشعر الخالص؛ لا شعر هناك إلا نسبي، نسبي لكل جيل يمضي. لكي يبقى الشعر ويعيش، يكفي أن جيلاً، حتى ولو كان مولعًا بالعقل المجرد، لا يزال يجد بعض الفتنة فيما يسميه «المخادع الكذاب»؛ يكفي أن يرفض - وقد ناقض نفسه - اتباع مثال رجل يعتزم تحويل الشعر إلى نثر؛ وحسبه أن يكون لديه كتاب تؤثر فيهم الموسيقا والجرس، يوهمونه - مهما كانوا عليه من ضعف - بوجود انسجام رفيع. لا يوجد شعر خالص؛ ولكن هناك طلب أبدي للشعر. بدا بوب شاعراً موهوباً، وإنه لشاعر موهوب ما دام قد بدا كذلك؛ وقد وفى الطلب الخجول لزمنه، ويزيد.

ومن هنا، ليس غريباً أن نقول إنه حتى في هذا الزمن المجدب، كان هناك شعر، في نظر المعاصرين. كان كانتر في رأي الألمان شاعراً؛ وحتى في رأي الفرنسيين، ما دام قد كان من بين النماذج التي قدمت لهم فيما بعد، عندما أريد لهم أن يتذوقوا طبيعة الألمان وبساطتهم. وقدم الايطاليون سلسلة من الشعراء كانوا موضع إعجاب أوروبا بأسرها: والمعجزة، أنه بالرغم من كل الأسباب التي كانت تدعوهم إلى كتابة شعر رديء، فقد نظموا أشعاراً بقيت أكثر من يوم، أكثر من سنة، أكثر من قرن، أشعاراً تفتننا اليوم. فقد كانت تثقل كاهلهم التقاليد «المارينية»[1]، التي كانت تنصحهم بالتغني دون سأم، بالنيران المثلجة، والثلوج المتأججة، والرقة القاسية، والشدة المستحبة. وكانت أكثر من ذلك إثقالاً لكاهلهم، الذكريات القديمة؛ وحينما كانوا لايشعرون باضطراب إلى تقليد أناكريون، كانوا يجعلون من تقليد بندار واجباً عليهم. وكان مما يسبب ارتباكهم ذلك العلم، الطارئ الجديد، الذي باشروه، أحبوه، وأرادوا أن يخلو له مكاناً في أشعارهم. ظلت قصائدهم ثقيلة تنبئ عن كثير من الجهد، بما تحمل من كلمات فخمة، ولتحرقها إلى الوصول إلى ذلك «الاختلال» الجميل، مجد الفن. ولكن حدث هذا يوم، أن خطر ببال فرانسسكو ريدي - بالرغم من تقليده بندار في التكلف والغموض - أن ينادي باكوس بين تلال توسكانيا، وأن يذيقه خمور الكروم، الواحدة تلو الأخرى، وأن يصوره مترنحاً، متأثثاً، وهو ينتسي شيئاً فشيئاً:

Chi la squall ida cergovia

Alle labbra sue congiugne

Presto muore, o rado giugne

All' età vecchia e barbogia:

Beva il sidro d' Inghilterra

---

1) - نسبة إلى ماريني الشاعر الإيطالي الذي أخذ عليه التكلف في الأسلوب. [المترجمان]

Chi vuoL gir presto sotterra

Chi vuoL gir presto alla morte,

Le bevande usi del Norte..

إنه لتجديف من باكوس، أن يلفظ أسماء هذه الخمور الدنسة؛ ينبغي أن تتطهر شفتاه:

Si puriFichi, s' immerga,

Si sommerga

Dentro un pecchero indorato,

Colmo in giro di quel vino

Del vitigon

Si benigno

Che flammeggia in Sansovino ...(1)

في ذاك اليوم، أنقذت صورة من صور الشعر، ثقيلة لكن حية مرحة، عذبة، مبتكرة، بالرغم من أنها تزعم تذكيرنا بالشعر الغنائي القديم. ومرة أخرى أسمعنا فانسترو دافليكاجا - وقد حزن على عبودية وطنه - صيحات جميلة ملأها أنات مؤثرة:

E t' armi, O Francia? e stringi il ferro ignudo

Contra a me, che a' tuoi colpi armi ho di vetro,

---

(١) - Bacco in Toscana, 1685 : باكوس في توسكانيا.
ذلك الذي يقرب من شفتيه - الجعة الشاحبة الحزينة - يموت سريعًا - أو قلما يصل - إلى الشيخوخة المخرفة - وليرشف شراب التفاح الانجليزي - من يريد أن يوارى التراب سريعًا - ومن يرد أن يلاقي الموت - فعليه بخمر الشمال . . . . . يجب أن تتطهره شفتاه، أن تغطسا - أن تغرقا - في كأس من ذهب - تفيض بتلك الخمر - بذلك الكرم - العذب أي عذوبة - الذي يتلألأ في سانسو فينو!.

Nè a me la gloria de l'antico scetro,

N`ae l'antica grandezza a me fa scudo?[1]

وأكثر من ذلك! البهرج، الاستعارة المبالغ فيها إلى حد الجنون، الصور المعقدة التي شوهتها المغالاة في التكلف؛ كل القرن السادس عشر Secentismo أراد الايطاليون أن يبعدوه عن أشعارهم. فثاروا، لا إطناب في الشعر، بل بساطة وطبيعية. أن العبء ثقيل على المنزل: ينبغي الاستغناء عن الخدم. ماذا أقول؟ لا لزوم لبيت على الإطلاق، ولا لزوم لسقوف ولا جدران: ويعقدون اجتماعاتهم في رياض، تظلها السماء؛ يريدون ابتعاث أركاديا القديمة، أرض النعيم، حين كان الناس يستروحون الشعر في نسمات الرياح، وحين كان الرعاة يبعثون الألحان السماوية من مزاميرهم الريفية، واأسفاه! إن تنفيذ مشروع في مثل هذا الجمال ينقلب إلى تهريج ومسخرة، إن أول ماإتجه إليه اهتمام أولئك «الأركاديين»، أن يضعوا لأنفسهم قوانين؛ وأن يتنكروا بأسماء رعاة تقليداً للاغريق؛ ويسعون في جماعات عديدة تنتشر في إيطاليا كلها، أكثر حذلقة وادعاء من أركاديا الرومانية؛ إذ يلقون في رياضهم أشعاراً لا تقل رداءة عن تلك التي أرادوا أن يتخلصوا منها: هي هي بذاتها، احتفظوا بها ولم يغيروا شيئاً منها. فانتهى المشروع إلى إفلاس. ومن دأبنا ألا نهتم إلا بالإفلاس: ولو شئنا لاستطعنا أن ننظر إلى جمال المشروع ونبله.

ولا زال في مقدورنا أن نجد في الحقول الانجليزية بعض السنابل، المتخلفة عن الحصاد. صحيح أنه ليس لدى برايور لوحات عظيمة حية الألوان: ومع ذلك فإنه يجيد إضفاء لون بهيج على مواطن الجمال في رسومه الدقيقة. إنه يجهل «السيمفونية» الهائلة: لكن لحنه رقيق؛ ، إذا كان الفن الذي لقنه إياه الاغريق

(١) - إيطاليا على الطريقة الفرنسية L' Italia alla Francia. 1700

إيه يا فرنسا أتشهرين السلاح؟ وتجردين السيف - ضدي، أنا التي لا أستطيع أن أواجه ضرباتك إلا بسلاح من زجاج؟ - ضدي أنا التي، لا مجد صولجاني القديم - ولا عظمتي الحالية، يستطيعان حمايتي؟

اللاتين، نتيجة لطبيعة جديدة، فان تلك لا تمحو طبيعته الأولى؛ فإذا كان «أناكريون»، و«هوراس» أستاذه المفضل، قد هذبا من موهبته، فانهما مع ذلك لم يخلقاها. وهو وإن لم تكن عواطفه قوية، فإنه يتغنى في جمال بسعادة أوقات الفراغ، ويعذبنا في الحياة، وخوفنا من الممات، ومروق الزمان، وبكاء كلويه على ذبول زهوره؛ وهو يخلو من الغضب والاحتقار والحزن الشديد: ولكن من حين إلى حين تتطرق نغمة حزينة إلى أغانيه، فينفذ حينذاك بصورة أعمق إلى شغاف القلوب. يجوب ماتيو أنحاء انجلترا القديمة مع صديقه جان؛ فيتقدم إلى خان كان يعرفه من قديم:

Come here, my sweet landlady, pray how d'ye do?
Where is Cicely so cleanly, and prudence, and Sue?
And where is the widow that dwelt here below?
And the hostler that sung, aout eight years ago?
And where is your sister, so mild and so dear
Whose voice to her maid like a trumpet was clear?(١)

إنها لوحة انجليزية: الخان الريفي، وصاحبه الجالس إلى المائدة، وصاحبته:

By my throth! she replies, you grow younger, I think.
And pray, Sir, what wine does the gentleman drink?
Why now let me die, Sir, or live upon trust,
If Iknow to which question to answer you first.(٢)

(١) - تعالي إلي، يا صاحبة الفندق، بربك كيف حالك؟ - أين سيسيليا النظيفة، وبرودنس وسوزي؟ - وأين الأرملة التي كانت تقيم هنا في الطبقة الأرضية؟ - والسائس الذي غنانا من نحو ثمانية أعوام؟ - وأين أختك العذبة الغالية؟ - التب كان نداؤها لوصيفتها واضحاً كالنفير؟ (ماتيو برايور، من قصيدة Down Hall، عام ١٧٢٣).

(٢) - فتجيب، قسماً سيدي، أرى أنك تصغر سنا - وبربك يا سيدي أي نبيذ يشربه السادة؟ - فلأمت يا سيدي أو أعش على الصدق - إن كنت أعرف أي سؤال أجيبك عنه أولاً.

كل ذلك طبيعي ومألوف؛ ثم ننتقل - دون أن تتغير النغمة - إلى التأثر الذي يتملكنا عندما نفكر في ذكريات الماضي :

Why, things, since I saw you, most strangely have varied,
And the hostler is hanged, and the widow is married.
And Prue left a child to the parish to nurse;
And Cicely went off with a gentleman's purse;
And as to my sister, so mild and dear,
She has lain in the churchyard full many a year.(1)

ولا يصعب علينا، أن نبين بعض الشعر عند الآخرين؛ سواء تراءى شعراً لآذان من يسمعه لأول وهلة، أو غلفته السنون حتى احتفظ بمسحة من جمال قديم مؤثر إلى وقتنا هذا. ومع ذلك، فنحن لا نستغني عن أن نستعين بالظروف المخففة؛ وأن نتخلى عن المطلق لنقنع بالنسبي؛ وأن نقرر، مع كردوسي Carducci . أنه لم يوجد زمن أقل شاعرية من الخمسين سنة الأولى من القرن الثامن عشر، وبذا كانت هنا بداية عهد من الإجداب؛ وأن نعترف، أخيراً، بأن أحسن الشعراء الذين سردنا أسماءهم، ليسوا إلا شخصيات هزيلة بجانب دانتي وشكسبير.

* * *

فلنعترف بأن هذا الانقلاب نفسه قد وقع في معظم ميادين الأدب، فقد فقد الناس معنى القيم المبتدعة، ظانين أن التأليف هو التقليد، هو الطاعة.

---

(١) - آه، لكم تغيرت الأمور منذ رأيتك أخيراً - فقد شنق السائس وتزوجت الأرملة - وتركت ثرو طفلا للأبرشية لتربيه - وهربت سيسليا بحافظة نقود أحد الوجهاء - أما عن أختي العذبة الغالية - فإنها ترقد في رحاب الكنيسة منذ أمد طويل.

وقف النقاد على مفترق الطرق لمنع المؤلفين من الضلال، وإعادتهم إلى الطريق الأمين. وكما قال توماس ريمر - الذي كان له الفخر في تبيان أن شكسبير لم يفهم شيئًا من المأساة - فإن الشعراء قد يصبحون في غاية الإهمال إذا لم يشعروا بأن النقاد يقفون لهم بالمرصاد.

وما أكثر النقاد! الأموات الذين لم يتخلوا عن أماكنهم، أرسطو، هوراس، لونجين، الذي لم ير احتفالاً مثل هذا قط. الأحياء: الأب يوهور، الأب رابين، والأب لي بوسيه، العلماء الأعلام الذين يعرفون كيف يكون التفكير السليم في مولفات الفكر، وكيف تنظم الخطب والأشعار، وكيف ترتب الملاحم الشعرية. وفريق من الانجليز أصحاب السلطة، جيرار لانجبين وإدوارد بيش وليونارد ويلستد، وجون دنس وغيرهم. وفي إيطاليا موراتوري وكريسيمبيني وجرافينا يدرسون جوهر الشعر المسرحية الكاملة. في ألمانيا يشرح كريستيان فرنيك أن الأدب الفرنسي إنما ارتفع إلى ذروة الكمال، لأن كل مؤلف في باريس، لا يظهر إلا ويتبعه النقد على الفور، حتى ولو كان لمؤلف في مشهور... يا للحمية! ياللسلطة الصارمة! يا للتذمر ويا للنزاع! فلنرث للمؤلفين على ما يتعرضون له من امتحان وتأنيب - لقد سايروا الزمن، وكان لهم في ذلك متعتان: متعة الصياح في الرد للمتكبرين، ومتعة الطاعة للكسالى الخاملين.

وهرم بوالو. لقد لخص مبادئه الأدبية في مقدمة طبعة مصنفاته عام ١٧٠١، ثم ودع الجمهور: «بما أن طبعة مؤلفاتي هذه قد تكون الأخيرة التي أشاهدها، وليس من المحتمل أن تمتد حياتي أكثر من ذلك، إذا بلغت الثالثة والستين من عمري وأرهقتني الأمراض، فرجائي أن يتقبل الجمهور وداعي، وأقدم له عظيم امتناني على ماأبداه من كرم في الاقبال على مؤلفاتي التي لا تستحق في الحق كل هذا الإعجاب الكريم...» بيد أن الجمهور لم يكف عن الإعجاب، والدليل أن بوالو في نفس وداعه هذا يشكر الكونت دي إريسيرا على ترجمته الشعرية البرتغالية

لمؤلفه «فن الشعر» والتي تفضل بإرسالها إليه من لشبونة مصحوبة برسالة وأشعار بالفرنسية من تأليفه. ترى، أي بلد لم يقرأ فيه «فن الشعر»، ويفسر، ويترجم؟ أي بلد لم يتخذ فيه مكانة القانون؟ إن بوالوا، ذلك الفرنسي المزهو الذي لم ير ولم يقدر شيئًا خارج حدود بلاده، لا يزال بالرغم من ذلك يمثل دور مشترع بارتاس[1]، السلطة الباقية، بينما هي قدضعفت في كل مكان.

إنه لم يعد شخصًا فحسب بل أصبح مؤسسة: لقد أقبل الناس على زيارته في أوتي. كأنما يزورون اللوفر. تخيل امرأة أديبة- مسز مونتاجو، ترحل لتلحق بزوجها سفير انجلترا في القسطنطينية، فتقرأ أشعاراً تركية. ، ترى فيمن تفكر في ذلك الحين؟ في بوالو. - إنها تقول: «أرى في هذه الأشعار كثيراً من الجمال؛ فمثلاً هذا التشبيه «سلطانة لها عيون الغزال»، يعجبني غاية الاعجاب وإن لم يبد ظريفًا بالانجليزية، يخيل إلى أنه يعرض صورة حية للنار التي تضطرم في عيون حسناء فاترة. لقد لاحظ بوالو بدقته، أننا لانستطيع أن نحكم على جمال هذا التعبير أو ذاك عند القدماء، بناء على الفكرة التي يمثلها، لأن هذه الكلمة أو تلك، وقد كانت عندهم لطيفة، ربما تبدو عندنا مبتذلة أو جارحة للأذن. . .[2]»

لم يفكر بوالو أبدا في أنه يمكن لمؤلف أن يستغني عن العبقرية: لكن أخلافه خالفوه، مفضلين الأصول الفنية على العبقرية. قالوا إنه يكفي توافر شرط واحد لنظم الشعر الجيد: وهو احترام القواعد. لقد أيد بوالو قاعدة التفريق بين الأنواع: فكم من تمييز تافه، كم من تفريق وتقسيم ستؤدي إليه قاعدته هذه! كانت الكلاسيكية روحًا وإرادة، بينما الكلاسيكية الكاذبة أصبحت صيغة: كل الفرق هنا.

---

(١) - بارناس: جبل مخصص لاله الشعر (أبوللو) في الأساطير اليونانية. [المترجمان]

(٢) - إلى بوب من أدرنة، إبريل ١٧١٧.

الأخلاق: هو ذا ما سيدافع عنه الورثة المساكين، كأنما ينشدون السلوة. فالملحمة الشعرية يجب أن تكون أخلاقية، هدفها الإصلاح الخلقي. والشعر ينبغي أن يكون أخلاقيًا، يعلم الحقائق الدينية، إنه علم أخلاقي، وجزء من علم اللاهوت. «الشاعر الحق هو الذي يجمع بين الفائدة والتسلية حتى إنه يعلم حينما يسلي، ويسلي حينما يعلم». - «الشعر ساحر، لكنه ساحر مسالم، وهو هذيان يطرد الجنون». والمسرح على الأخص ينبغي أن يكون مدرسة؛ تبًا للمؤلف الهزلي إذا هزأ بالفضيلة، وأضمر الرذيلة! لقد وجدت الملهاة في انجلترا شكلاً مبتكرًا؛ كانت تقتبس الحبكة من النماذج الفرنسية وعلى الأخص من موليير؛ ولكنها أضفت عليها نكهة خاصة، بأن مزجت بينها وتبلتها ببعض التعابير المبتذلة والمواقف الخليعة؛ فكانت متهتكة فاضحة، مرحة، لطيفة: تلك هي المسرحية التي جعلها كونجريف وفانبرو تنتصر على مسارح لندن، إلا أن أكليركيا هو جيريمي كوليير هاجمها هجومًا عنيفًا، ونشر في عام ١٦٩٨ مقالاً عن «تهتك المسرح الانجليزي». شيئًا من الأخلاق. إن ما يعوزنا هو الأخلاق! على المسرح أن يبين لنا بطلان التعاظم البشري، وتقلبات الحظ مباغتة، والعواقب الوخيمة للقسوة والظلم، وجنون الكبر، وإجرام النفاق. لكن ماذا يفعل المسرح الانجليزي بدلاً من ذلك! لقد استحالت الفضيلة إلى سخرية، وساد التجديف والكفر والفحشاء، ولم يتورع الناس عن الهزء برجال الدين! يا للعار! يا للفضيحة! - والشيء الأغرب، أنه بعد مناقشات عنيفة أثارها جيريمي كوليير، أفلح الروح البوريتاني في إصلاح الملهاة، التي لما رأت إنها لم تعد تستطيع العيش في الشكل الذي ترضاه، آثرت أن تموت.

وفي نفس الحين تقريبًا، حاول الايطاليون خلق ملهاة تحترم العقل والأخلاق في وقت واحد. ففي نابولي - بصرف النظر عن روما وفلورنسة - وجد مؤلف هو نيكولو أمنتا، تخلى عن الهرج والهوس: لا شخصيات خليعة، لا ألفاظ مبتذلة، لا فورات عاطفية، ولا خادمات فاجرات، ولا مكائد جنونية: بل الانتظام، بل الأخلاق.

إن تأسيس مجمع رسمي يختص بالفحص في المسائل اللغوية، والسهر على سلامة الذوق في الأدب، رغبة لم تراود ذهن دولة من الدول سوى فرنسا، حينما كانت متحمسة للنظام والطاعة، أما الآن فإن الشعوب المجاورة تحسد هذه الأكاديمية الفرنسية، التي اتخذت مهمتها رويداً رويداً صفة مقدسة، واكتسبت نفوذاً لم يعرفه مجلس آخر، والتي تعد كل أفعالها- كجائزة أو احتفال أو خطبة - أحداثًا مهمة جليلة. وابتغى الانجليز، أكثر شعوب الدنيا حرية، أن يكون لهم أكاديمية مماثلة، يكون من أعضائها بريور الذي يعد في بريطانيا بمثابة لا فونتين، وبوب الذي يعد بمثابة بوالو، وكونجريف الذي يعد بمثابة موليير [١]، وسويفت الذي أعلن أنه سيطيع الأكاديمية مختاراً، وإن كان لا يحتمل أي نير [٢]. وبعد مجادلات عنيفة أخفق المشروع. لكن على الأقل، تأسست أكاديمية برلين في عام ١٧٠٠، والأكاديمية الملكية الاسبانية في عام ١٧١٣، وحتى الروسيا البعيدة حصلت على أكاديميتها في عام ١٧٢٥.

إن النقد، الذي كان لايقيم وزنًا لجميع نظم الماضي فيما يخص الدين أو السياسة، أصبح هنا، على النقيض، محافظًا. كان يتهم القدماء بأنهم يعوقون تقدم أنوار المعرفة: أما هنا، فكان يستشهد بهم كآلهة حافظة. كان يجعل من الرأي الشخصي قاعدة لكل شيء: أما هنا فلا يرى السلام إلا في مراعاة القواعد، إذ يحول وقائع التجربة إلى إلزامية. إذا شئت أن تؤلف تراجيديا، فخذ أربعًا وعشرين ساعة، وبهواً في قصر، وبعض الواجب، وشيئًا من العشق، وبعض أبطال مشاهير.

* * *

(١) - فولتير: رسائل فلسفية، الرسالة ٢٤. عن الأكاديمية.

(٢) - سويفت: اقتراح لتصحيح وتحسين وتوطيد اللغة الانجليزية، لندن ١٧١٢.

في عام ١٧١١، غمرت السعادة الانجليز لرؤيتهم مؤلفًا صنواً «لفن الشعر» يولد في أرضهم، دبجه أحد مشرعي «بارناس». رجل عليل، قميء، عصبي، مرهف الحس لكل نفثة ولكل فيض عاطفي، ولكنه بالرغم من كل هذه الفوارق، وغيرها، خلف مجيد لبوالو. وقد كان ينتظر الكسندر بوب سؤدد طويل، ما دام عمره لم يكن يتعدى الثانية والعشرين، عندما نشر مؤلفه مقال عن النقد: Essay on Criticism.

يخيل إلينا أننا نجد في هذا المؤلف الذي سرعان ما أصبح واحداً من أشهر مؤلفات العصر، معركة نهائية. كان في مؤلف «مقال عن النقد» رجلان، لا يتفقان في كل آن: بل طالما يتعارضان. أحدهما يمثل حمية طبع فردي حي، والآخر يمثل الطاعة والنظام اللذين سينتصران. أولى هاتين الشخصيتين تطلق لحميته الفتية العنان، وتفصح عن الشعور الذي يعتمل - سراً أو جهراً - في قلوب معظم الكتاب: السأم، فراغ الصبر، والعصيان ضد النقاد. فنحن نعلم أن الكتاب يرحبون بالمدح، ولكنهم لا يتحملون أحكام الإدانة. يحمل بوب على النقاد فيقول: أولئك الناس الذين يعيبون ما في مولفاتي من نقص وقصور، الذين يفرضون عليّ حكمهم ورقابتهم، أي حق لهم؟ لقد أعلنوا ذات يوم أنهم سيكونون نقاداً، إنها المهنة التي اختاروها: فهل يكفي هذا الاختيار ليكون أساسًا لتفوقهم؟ واعجباه! أيليق أن أي أحمق يضفي على نفسه مظاهر الأهمية، ويزعم نفسه وصياً عليّ؟ هل يجوز أن أي شاعر فاشل مغمور يحكم على قيمة أشعاري؟ أو أن مؤلفًا مسرحيًا فاشلاً يتقدم ليعلمني كيف ينبغي أن أكتب الملهاة؟ فليسمعوا مني بعض الحقائق بدورهم، وليحدث مرة أن ينتقد النقاد كاتب. كل شاعر رديء يقابله عشرة حكام أردياء؛ والعجرفة ليست شهادة بالقيمة، وقبل أن نحكم ينبغي على الأقل أن نفهم: إن ذهنًا محدوداً عاجزاً عن استيعاب وجهة نظر الكاتب، لا بد من أن يخطيء في التفسير. ما أكثر المزايا التي يحق لنا أن نتطلبها في السادة النقاد - أقران

أستارك[1] - هل اكتسبوا رأيهم السديد الأكيد بالتجربة وبالعمل؟هل أوتوا مرونة الذهن، والحدس؟ هل بلغوا من التواضع، بحيث لا يعرفون الغيرة والحسد؟ هل يقدرون على غض النظرعن العيوب الهينة، وعلى التنويه بالمواهب؟ وعلى أن يجودوا بالمدح بخلوص نية ورضا بدلا من التقتير فيه كالبخلاء؟ هل يحدوهم دائماًالانصاف؟ واأسفاه! إنهم عبيد القوة، والشهرة، والأحزاب السياسية، والأهواء الدينية. . .

إن هذه الغضبة، التي تنبئ عن نفس جياشة حية، وعن طبع لا يرى أنواء أنكدمن أنواء المحبرة الهوج، لممتعة جداً. إلا أن الأعجب أن نرى كيف يتصدى بوب الآخرللأول - الذي سرعان ما يقتنع في غير عناء-لأنه في الحق لم يحمل على النقاد إلا لأنه يتمنى لهم رفعة المقام. إن بوب الحكيم المنطيق يعلن مبادئه ونظرياته، فيقول إننا يجب أن نتبع الطبيعة، الطبيعة المعصومة، الضوء الصافي، الشعاع النوراني: بيد أنه يجب أن نتبع هذه الطبيعة الثابتة الشاملة، بهدى العقل: يجدر بنا في الواقع أن نسوس «بيجاز» [2] لا أن نهمزه، أن نكبح فورته لا أن نستحث سرعته، ينبغي أن نخفف سرعة الفرس المجنح الأصيل. إن الفن هو الطبيعة، لكنه الطبيعة المستكملة، الطبيعة النظامية، الخاضعة للعرف. فليتبع الشعراء إذن القواعد التي اقتبسها الأقدمون من الطبيعة، وليدرسوا المبادئ النافعة التي تلقننا بها اليونان الحكيمة كيف نكبح - قي الوقت المناسب - جماح الخيال، لنرد له قوته! لقد جرب فيرجيل يوماً أن يرتكن على عبقريته، ولكنه أدرك للحظته أن هوميروس والطبيعة ليساإلا شيئاً واحداً؛ فترك مشروعه الجريء، مقتنعاً، مذهولاً، وبلغ به الحرص أن أخضع مؤلفه لقواعد صارمة، كما لو أن فقرة من شعره قد فحصتها عين أرسطو.

---

(١) - أرستارك: عالم نحوي اسكندري وناقد مشهور، مربي أولاد بطليموس، في القرن الثاني قبل الميلاد-مضرب المثل في شدة النقد مع الصحة والوضوح. [المترجمان]

(٢) - «بيجاز» في الأساطير اليونانية، فرس ذو جناحين ويعد رمزاً للشعر. [المترجمان]

فليقدر الشعراء إذن عظماء الماضي النموذجيين حق قدرهم: فان تقليدهم تقليد الطبيعة. وبالمثل، فليتناولوا مؤلفاتهم بالصقل المرة تلو المرة! إن الأسلوب الذي يبدو سلساً لنتيجة للفن، لا للمصادفة؛ إنه لبدارسة الرقص تكتسب سهولة الخطوة. – هكذا يعبر بوب الكلاسيكي. إنه مشبع بمؤلفات أولئك الذين يحيى فيهم أسلافه العظماء، أرسطو وهوراس ودنيس هاليكرناس وبترون وكنتليان، ولونجين؛ وإرازم الذي قهر الخرافة القوطية، وفيدا الذي يترجم عن تفوق إيطاليا في عصر ليون العاشر، وبوالو. إنه يباهي بأولئك الأسلاف الأمجاد الذين ينحني أمامهم تبجيلا، ثم يلتفت صوب معاصريه، زاعماً إرشادهم وقيادتهم بدوره.

لا بأس بأن نبين بعض المؤلفات، لتحقيق امتياز النظريات؛ وكان من اللازم أن يكون هذا أمراً يسيراً. ما دامت طريقة نظم الملاحم الشعرية معروفة جيداً، فماذا ينتظر الشعراء؟

Excelling that of Mantua, that of Greece,

A wond' rous, unexampled Epick Song,

Where all is just, and beautiful, and strong,

Worthy of Anna's arms, of Malbro's Fire

Does our best Bard united strength require...

ملحمة شعرية، تفوق ملاحم مانتوا[1] وملاحم الأغريق؛ ملحمة رائعة معدومة النظير، كل ما فيها صحيح، قوي، جميل، جدير بأسلحة «آن» ونار «مالبورو»، – ذلك ما تطلبه القوات المتحدة لأشعر شعرائنا... إن ريشارد بلاكمور، الذي يحمس مواطنيه بهذه الكلمات، قد ضرب بنفسه مثلاً طيباً. هدف الشعر هو تثقيف الذهن وتهذيب الأخلاق؛ والملحمة هي أسمى أنواع الشعر،

---

(١) – مانتوا: بلد فيرجيل في إيطاليا. [المترجمان]

وأكثرها أخلاقية أيضاً. فالأبطال الذين تقدمهم، يعلمون الدين، والفضيلة، والسيطرة على الشهوات، والحكمة: إذن فمن الواجب نظم الملاحم. صحيح أنه منذ هوميروس وفرجيل لم يفلح في ذلك أحد: لكن مرد هذا الاخفاق ليس إلى الافتقار إلى العباقرة بل إلى الجهل بالقواعد. واليوم، لدينا خلاف أرسطو وهوراس، أدلاء مثل رابين وداسييه ولوبوسيه، وريمر؛ إذن لم نعد نجهل شيئاً مما يلزم لإتقان التأليف: فلنبدأ.

ويبدأ: «خبريني، يا عروس الشعر. . .» فتوحي إليه العروس بقصائد الفروسية «الأمير أرثر»، و «الملك آرثر» و «إليزا» و «ألفريد»، وبالقصيدة الفلسفية «الخليقة»؛ عشرات من الأغاني، وآلاف مؤلفة من الأشعار. ولكن ريشارد بلاكمور كان طبيباً أكثر منه شاعراً، فجر النسيان ذيوله على قصائده.

والمسرحية؟ إن عقلاً ممتازاً، فقيهاً مشهوراً، هو جان فانسنزو جرافينا، سوف يقدم لنا النموذج. إنه يدرس البحوث، وفنون الشعر، إنه لا يقنع بالكلاسيكية الفرنسية، ولا بمؤلفات النهضة، بل يصل إلى التراجيديا الاغريقية، التراجيديا الصحيحة، الأصلية: وإنه ليملك ناصيتها، ولن تهرب من قبضته. وفي مقدمة المسرحيات الخمس التي ينشرها فينابولي في عام ١٧١٢، يعطي جرافينا الكلمة للتراجيديا شخصياً فتصيح: هأنذي! أخيراً أظهر في صورتي الأولى، بعد قرون طوال من الجهل أخيراً وصلت، بإرشاد فقيه في القانون، خطيب، فيلسوف، يحرسني «العقل الشاعري» الذي تنقاد له القواعد، وتوجهني شعلة النقد! ... إن هذه العروس تحسن الكلام: لكن هذا لم يمنع مسرحيات جرافينا من أن تكون مرذولة.

بدأت في كل أنحاء أوربا مباراة عامة في التراجيديا؛ وأخذت الشعوب المختلفة تسعى للحصول على الجائزة وإكليل الغار؛ ورجال المسرح يسعون جاهدين

من كل صوب. فكربيون Crébillon[1] ينافس راسين: ولكنه يسرف في الشخصيات البرونزية والسوداء. لقد أخذ الأجنبي ينافس فرنسا: آه، لواستطاع أن يكسفها! إن كربيون على الأقل لم يقتصد في الوقت ولا في العناء ولا في عدد المسرحيات؛ بل بذل كل ما في وسعه طوال سنين. إنه يوم يستحق الذكر، يوم قدم المركيز «سيبيوني مافي» لأول مرة، في فيرونا في ١٢ يونيو ١٧١٣، «ميروب»، تلك المسرحية التي كانت تبدو أكثر كلاسيكية من كل المسرحيات الكلاسيكية الفرنسية، بالرغم مما كانت عليه من هزال. أي تصفيق! أولاً في إقطاعيته، ثم في كل أنحاء إيطاليا! وأي نصر! أي إعجاب بتلك المشاعر الدفاقة، وتلك المقطوعات المفخمة، وتلك الأشعار الموزونة بطريقة آلية! ولقد أثارت هذه المسرحية ضجة كبرى في أنحاءالعالم، وقد ترجمت، ونوقشت وامتدحت؛ ثم وصلت فيما بعد إلى جيته عن طريق فولتيروليسنج. والانجليز أيضاً أدركوا جيداً أنه لابد لهم من أن يصلحوا مسرحهم، وأن يوقفوا تجاوز شكسبير غيراللائق، وأن يمنعوا «التراجيديا - الكوميدية» من أن تزعم التشبه بالتراجيديا نفسها، وأن يحذفوا من المسرح أثر المعارك، والجلبة، والمواكب، والأبواق والطبول، والاغتيالات، التي لا يمكن أن نحتمل مشهدها، إذ أوتينا شيئاً من سلامة الذوق؛ والخلاصة أنهم كانوا يصبون إلى التراجيديا المنتظمة الجميلة، المرسومة بدراية، التي لا تبالغ في الرعب أوالشفقة، وتبدو متواضعة في الفروسية، وسامية دون مغالاة. كانوا يبذلون كل ما في وسعهم. فنرى ناتانيل لي يؤلف نيرون، سوفونيزب، جلوريانا، والملكات المتنافسات، وميتريدات، وأوديب، وتيودوز، بروتس وغيرها، حيث تجتهد عبقريته المفطورة على الارتباك ألا تدخل واقعتين في مسرحيةواحدة، وأن تحذف منها الحشو غير النافع، وأن ترضى قاعدةوحدة الزمن المتألهة، وأن تحترم العرف، وألا تتكلم إلامي لهجة نبيلة مفخمة. ولقد وفق في بعض الأحيان، ولم يكن

(١) - كربيون: شاعر مسرحي فرنسي: صاحب تراجيديا «راداميس وزنوبيا» (١٦٧٤ - ١٧٦٢). [المترجمان]

بعيداً عن هذا الانتظام الذي يرى أنه الجمال الأسمى. وكانت مسرحية «البندقية المنقذة» La Venise Sauvèe التي ألفها أوتواي Otway نجاحًا جميلاً، يثبت للأجانب أن المسرح الانجليزي قادر على أن يكون صحيحًا ومؤثرًا في نفس الوقت. ولكن سنة ١٧١٣ تسجل أخيراً الانتصار. يومئذ ظهرت «كاتون» مسرحية أديسون، الجديرة بأن تترجم على الفور إلى الفرنسية: إن لندن التي كان لديها قرين لبوالو أصبح لديها قرين لراسين، وبدأت أوروبا تمجد هذه المسرحية الرائعة. إنها نتيجة نصف قرن من الجهد أو مايقرب من ذلك. لم يكن في مقدور الانجليز أن يهذبوا مالم يكن مهذبًا من عبقريتهم في مدة أقل من هذه، وأن ينتجوا هذه التحفة الرائعة.

وتخلف الألمان: ولكنهم مع ذلك سيصلون، فلنتذرع بالصبر. إن جوتشد Gottsched يتألم من تخبط المسرح الألماني فيعكف على العمل، يقرأ «فن والشعر» لأرسطو وشرحه، ومسرحيات القدماء، والشعراء الفرنسيين، حتى بما تتضمنه من مقدمات؛ فيستيقظ، مدركًا أن للفن المسرحي قواعد تبلغ من المنطقية، والقطعية، وتقضي بها الضرورة الحتمية، حتى إن ألمانيا قد تظل في حالة الهمجية طالما ترفض مراعاتها. وعلى ذلك يسعى جوتشد بكل وسيلة ليقف على أسرار الفن، وأخيراً يقدّم، منتصراً، مسرحيته «كاتون على فراش الموت» في عام ١٧٣٢. ويقول إنه قد كان يكتفي بترجمة مسرحية أديسون «كاتون»، لولا أنه وجدها غير كاملة الانتظام، فيها شيء من الاستطراد؛ فقد تضمنت بعض الحشو والزخرف، مما يثقل بناءها بلا مناسبة- وشكراً للسماء، وشكراً للمؤلف، فإن كل مناظر «كاتون» الألمانية تحدث في قصر واحد وفي بهو واحد، ومدة المسرحية «تبتدئ ظهراً وتنتهي مع غروب الشمس.»

وإنه لشيء غريب حقًا، أن رجل مثل فولتير- عندما يكتب مسرحيات أو ينظم قصائد- يخرج عن عبقريته الخاصة، دون أن يستشعر معاصروه ذلك، ودون

أن يستشعره هو نفسه؛ إذ يريدأن يقلد كورنيل وراسين أو بوالو. إننا لنشعر بشيء من الحزن إذ نرى منذ ذلك العهد - ودون أن ننتظر أن تتقوى «الكلاسيكية الكاذبة» خلال فترة أطول مما رأت أي مدرسة حديثة - هذه الكتلة المهوشة من القصص الخالية من الروح، والمسرحيات الخالية من الحقيقة والأشعار الخالية من الشعر. قوة بلا روح. . . هذا هو ثمن الجمائل التي قدمها المذهب الكلاسيكي للعالم. لأن الكلاسيكيين الفرنسيين وصلوا إلى درجة سامية من الكمال، الذي فتن عقول خلفائهم، حتى إنهم ظنوا أنه لا وسيلة إلا أن يقلدوهم؛ ولأن كتاب الصف الثاني - وقد يسارعون إلى السهل - يحبون أن يكرروا مالقي النجاح مرة؛ ولأن الروح الهندسي قد مضى على حب الأشكال المرنة والألوان الحية؛ ولأن العقل المسيطر لم يعد يحتمل «أزهار» البلاغة إذا لم تكن سوى أزهاراً؛ لقد ذوت القوات الغنائية؛ ووقعت العبقرية الشاعرية في سبات عميق.

الفصل الثاني

بـهـجـة الحيـاة

مـادامت هذه الحقول من الأزهار الاصطناعية لاأمل فيها ولاحتى سراب، فلنبحث في غيرها ...

إن السيد سبكتاتور يوصي قراءة بالتزام الحكمة والاعتدال: ولكنه، يتوقف في أثناء إرشاداته، ليشيد بمتع الخيال، وليؤكد أن المتعة التي يهيئها لنا البصر، لاتقل عن التي يهيئها الذكاء، بل ليبدي إعجابه بمفارقات شكسبير النبيلة: يروق الفضلاء أن يقتربوا من الينابيع ...Juvat integros accedere fontes . ويوصي علماء إيطاليا باطاعة القواعد: ولكنهم في الوقت نفسه يحتفظون بمزايا وحقوق بعض الهوى المبدع: حتى رأى الناس فيهم-بشيء من السماحة لايخلو من الاسراف- أسلاف الرومانتيكيين. يا للتناقض الظريف! دعوا الفرنسيين يعملون، إنهم في سبيل إخضاع كل شيء للفرجار: اللهم إلا إذا أتت الجنيات تهوش، في لعبها، رسومهم الهندسية. كانت نهاية القرن رزينة، حزينة، لتأثرها بالشعور الذي يسود عند اضمحلال العهود العظيمة؛ لقد خلفت المؤلفات الرائعة كتب النقد، وعلى حين غرة تخيل ماذا يطلب البدع؟ وأي كتب تعرض في واجهات المكتبات؟ حكايات الجن.

إن معاصري لويس الرابع عشر المسن، ومدام دي مانتنون العاقلة المتدينة، يستلطفون الحكايات التي تقصها «أمنا الأوزة» للأطفال. نستطيع أن نقبل أن ديكارت لم ينبذ نهائياً، وأن قرعة مذّهبة تستحيل إلى عربة مذهبة، والعظايات

(السحالي) إلى خدم ذوي أردية مزخرفة، والفئران ذوات الشوارب إلى سوق ذوي شوارب؛ وبذا نكون قد احتفظنا إلى حد ما بالنسب المعقولة التي يعزها الشعب الفرنسي. ولكن أي مجافاة للمنطق! إن قصوراً فاخرة تنكشف فجأة، قصوراً لاترى فيها إلا الذهب والياقوت، ويغطي أبوابها العقيق، وعليك لكي تلجها أن تشد رجل جدي معلقة في سلسلة من الماس. الحيوانات تتكلم؛ فالوعلة التي ترعى في الغابة، والهرة التي تأوي إلى ركنها، هن نساء مسحورات؛ والطيور الزرق أمراء فاتنون. لانرى إلا أعاجيب، وزهوراً، ومجوهرات، وزينة خارقة للعادة: قطعة من قماش طولها ٤٠٠ متر تطوي في حبة صغيرة من الذرة البيضاء، وإذا بسطت تنفذ من سم خياط؛ عليها رسم كل حيوان الأرض والبحر والسماء، مع القمر والشمس والنجوم. والناس يمتطون جياداً من خشب، تعدو مطلقة العنان، وتقفز أحسن مما تقفز خيول الأكاديمية، ويجولون في مركبة يشدها خروف سمين خبير بكل الطرق، أو في زحافة صغيرة مذهبة، يجرها أيلان في سرعة إعجازية، أو في كرسي طائر تجره ضفادع مجنحة، أو في عجلات نارية تقودها التنانين في الجوزاء -ولم نعد نتعرف قوانين الدنيا التي تجد بعض القوى السحرية متعة في قلبها، فالأجسام تفقد أوزانها، والأحلام تتحقق، والفضيلة تنال ثوابها، والرذيلة تلقى عقابها. وإذا نحن تخلينا عن هذه الحكايات العجيبة، نجد الحياة الكآبة والفتور، بحيث يصبح العيش عناء.

وكانت النساء سباقات إلى جمع هذه الحكايات، الصادرة من أغوار الزمان والتي توغل في قدمها حتى لتتعذر معرفة أصلها؛ هذه الاختلاجات للنفس البدائية، التي لم تر في الخليقة كلها، في الريح وفي الليل، في الربيع وفي الشتاء، إلا سحراً في سحر. نساءهن حارسات الخيال، لأنهن أقوى غريزة، وأكثر حساسية لماضي البشر. ثم أتى شارل بيرو، ناظر الأملاك الأميرية السابق، الذي تناول بعض أجنحة الفراش وأولاد العذراء وأشعة القمر، وبنى بها حكاياته عن الجن، تلك التحف الرقيقة الخالدة. كانت الحسناء تغفو في الغابة، وتوقف كل حركة، حتى الأحلام؛ وكفت العفاريت عن لهوها، والنزوات عن عبثها، وخيم الحزن الكئيب

على فرساي وعلى المدينة وعلى البلاط؛ ثم ضربة عصا، وإذا بكل شيء يفيق، فيهرول الطهاة، ويتواثب الخدم، وتصهل الخيول، وتتناجى طيور الغابة على الغصون، فتستيقظ الأميرة، ثم تبتسم وتعاتب الأمير على تأخره في الحضور، وتخبره أنها انتظرته طويلاً.

* * *

أولئك الذين قاموا بالرحلات الحقيقية لم يأتوا لنا بكل ما نحبه اليوم؛ إنهم لم ينقلوا «إنيتهم» إلى الجهات النائية ليعرفوا ماذا يصيبها، وليشعروا بأثر هبوب الرياح المجهولة عليها. ومع ذلك فنحن لم نقل كل شيء إذا لم نتحدث إلا أفكارهم. هل كانوا عقولاً خالصة؟ ألم تبدأ عيونهم تتفتح أمام بهجة الدنيا؟ ألم يقدموا لقرن قد شبع بالذكاء، صوراً تغريه؟

لقد ظهرت في أوروبا نفسها، أراض عجيبة، كما لو كانت جزراً جديدة في وسط محيط مألوف. تلك هي بلاندة التي كانت تتبدى رويداً رويداً من خلال الظلام الكثيف. يقول الرحالة فرانسو برنييه إن اللابلانديين قوم غرباء، فطس الأنوف، «قصيرو القامة، أقوياء السيقان، عريضو الأكتاف، قصيرو العنق، طوال الوجوه بشعو الخلقة كالدببة، يشربون زيت السمك في جنون ...» بلاد عجيبة، حيث لاتغرب الشمس صيفا ولاتشرق شتاء، حيث تحل الرنة محل الحصان، حيث يتزلق الناس على ألواح مشدودة إلى الأقدام، حيث ينتاب السحرة رعب شديد لقاء «نعم»أو «لا». إنها تبلغ من الغرابة بحيث ينقل عنها السياح «وصفًا لدنيا جديدة أكثر منه رواية عن شطر من قارتنا ...»

وما أغرب مالم يزل يرد من ولايات المغرب من روايات، ومغامرات بحرية، وحوادث أسر، وهروب ونجاة، وفرقة أحباب ولاقاة، وشهداء وعصاة، وباشوات وانكشارية، وغادات يذرفن الدموع، أسيرات في القصور، وأجانب يشفقون على دموعهن، وحراس يراقبون سجناء ينحنون على المجاذيف، ومبعوثين يحضرون معهم بكل عناء، فديات ضخمة بالعملة الاسبانية أو الفرنسية. تلك الروايات التي

لم يكف الناس عن تكرارها وتوشيتها، كانت تحظى دائماً بالاعجاب. خواتم الكوميديات، مغامرات قصص الحب، ووقائع حقيقية أكثر روائية من الروايات.

وقد ورد من أورشليم، بيت المقدس، مرة على الأقل، أنين شاعري أليم. أيا أورشليم! أيتها المدينة التعسة! يا مدينة القبور! إن الهياكل العظمية، والعظام المنفصلة، العظام المحطمة التي نراها في المقابر توحي بأفكار مفجعة، تبدت في «تأملات»:

Is this, alas! our boasted mortal State?

Is it fort this, we covet to be great?

What Happiness from envied Grandeur springs,

When these poor Reliques once were mighty Kings?

O FraiL uncertainty of human Power,

While Graves can Majesty itself devour! (١)

إن الذي يئن هذا الأنين، ليس يونج في «لياليه»، وليس هيرفي في «مقابره»، بل هو آرون هل الرومانتيكي، آرون هل، السائح في الأرض المقدسة.

لو أن لويس الرابع عشر قرأ الرسائل التي كان يرسلها الأب بريمار من كانتون إلى الأب لاشيز، لخالجه الريب في وجود أمساخ أغرب مما كان مصوراً في لوحات الهولانديين. كانتون؛ أي بلد غريب! تخيل الأزقة الضيقة، التي تعج بشعب بأكمله: ترى حمالين حفاة الأقدام، يغطون رءوسهم بقبعة من القش، تقيهم المطر والشمس معاً؛ ومقاعد غريبة بدلاً من العربة، والأب بريمار نفسه يتنزه في مقعد

---

(١) - أهذه إذن، ويا آسفاه، حالتنا الفانية التي نباهي بها؟ -أمن أجل ذلك نبتغي المعالي؟ - أي سعادة إذن في المعالي المشتهاة- بينما هذه الأشلاء التعسة كانت يوماً ملوكاً عظماء؟ - يا للقدرة البشرية الضعيفة التي لاأمان فيها- مادام القبر قادراً على التهام العظمة نفسها!

ضخم مذهب، يحمله ستة رجال أو ثمانية على أكتافهم؛ وحرسًا محاربًا، لأن سونج- تو، أعني حاكم ولايتين، لايخرج أبدًا إلا وترافقه حاشية من مائة شخص على الأقل ... «يخيل إلي أن كل ما قلته لك هنا، يعطيك فكرة عن مدينة حديثة، لاتمت بصلة إلى باريس. وحتى لو نظرنا إلى البيوت وحدها، فأي أثر تترك فينا شوارع بأكملها لاترى فيها أي نافذة، بل كلها حوانيت، معظمها فقير، مدخلها سياج بسيط من القصب بدلاً من الباب؟ ...[1]» أضف إلى ذلك المعابد Pagodes التي يقوم على خدمتها رهبان بوذا، وبوابات الشوارع التي تغلق في آخر النهار، وعلى النهر مدينة بأكملها عائمة، وقوارب تقطن كل واحدة منها أسرة، ومزارع الأرز في الريف ...

ومن بلاد الهند الغربية، من «الجزر»، وصلت صورة المغامرة ذاتها، صورة أخطر المغامرين على الأرض أو المياه. كانت قيادتهم العامة في جزيرة «السلحفاة» على مقربة من «سان دمنجو»: عصبة من الأشرار desperados من كل بلد ومن كل جنس، يعيشون في ظل قانون لشرف يخصهم وحدهم، شرف ينفردون به دون بقية البشر. إنهم القراصنة: طائفة البوكانييه، Boucaniers وطائفة الفليبوستيه Fli-bustiers الأولون يصيدون الثيران من أجل جلودها، والخنازير البرية من أجل لحومها. ويتعقبون طريدتهم وقد حملوا البنادق الطويلة المصنوعة خصيصًا لهم في دييب أو نانت، تتبعهم كلاب الصيد، ويساعدهم الخدم الذين يتعهدون بالخدمة لمدة ثلاث سنوات، يصبحون بعدها رفاقًا لهم إذا توافرن فيهم القوة والشجاعة: فإذا قتلوا حيوانًا، استخرج الزعيم العظام الأربعة الكبيرة، وكسرها ثم امتص نخاعها الدافئ: ذلك هو إفطاره. وإنهم لمن المهارة في التصويب حتى إنهم، على سبيل التسلية، يقطعون عنق البرتقالة دون أن تمس القذيفة الفاكهة؛ وبعضهم من الخفة بحيث يلحقون الثور في عدوه ويقطعون فخذه. في خلقهم الجفوة والقسوة

(١)- رسالة من الأب دي بريمار إلى الأب لاشيز. في كانتون ١٧ فبراير ١٦٩٩. (رسائل غريبة مرسلة من البعثات الأجنبية، الجزء الأول، ١٧٠٣).

والشراسة، والوحشية، وهم على استعداد دائم لإراقة الدماء، ولكنهم شجعان بين الشجعان، بهم حساسية عجيبة للصداقة.

أما الطائفة الثانية (الفليبوستيه) فهم صيادو البحار. إنهم يلقون بأنفسهم على أمواج المحيط، يطاردون السفن الكبيرة، وعلى الأخص الاسبانية، التي تمر مشحونة بذهب بلاد الهند، ويهجمون، ويغتالون البحارة، فتصبح السفينة لهم؛ ومن عراك إلى عراك، ومن نصر إلى نصر، يجمعون الغنائم: إلى أن يرسوا في ميناء ذات يوم حيث ينفقون مالهم في جنون، مثل أولئك الذين أمروا، عند وصولهم إلى بوردو، بعد حصولهم على غنائم هائلة، بحملهم على مقاعد، تحف بهم المشاعل، في وضح النهار.

وأولئك القراصنة بما أوتوا من شجاعة ووحشية، يصلون إلى ذروة الفروسية. منهم من يدعى اسكندر الملقب بالذراع الحديدية لقوة رسغه، «الذي سجل اسمه بين المغامرين بقدر ما سجل الاسكندر القديم بين الفاتحين»؛ ومنهم بطرس الأكبر، من أهل دييب؛ وروك، الملقب بالبرازيلي من أهل جرونج؛ ومورجان الغالي؛ والربان مونتربان، الذي جال عشرين عاماً حول الشاطئ إسبانيا الجديدة وقرطاجنة والمكسيك وفلوريدا ويورك الجديدة وجزر الكنار والرأس الأخضر. ورابط القرصان «لولونوا»، من سكان بواتو، بسفينته أمام كوبا، على رأس واحد وعشرين رجلاً؛ واستولى على السفينة التي كلفت بمطاردته، وعندئذ علم أن الحاكم الاسباني قد أعد على ظهر هذه السفينة جلاداً خصيصاً لشنق القراصنة. «وعصف بلولونوا الغضب عندما سمع بكلمتي الجلاد والشنق، وعندئذ أمر الاسبان من خلال كوة سطح السفينة بالصعود فرادى؛ حتى إذا صعدوا أطاح رؤوسهم بسيفه. ولقد أتم هذه المجزرة وحده حتى آخر إسباني.» ولقد استولى لولونوا على مكارايبو وجبل طارق في ولاية فنزويلا. «ولما جمع كل شيء، وجد أنه بتعداد الحلي، والنقود، بحسبان الجنيه عشرة «إيكوسات»، كان لديه مائتان

وستون ألف إيكوس، بخلاف الغنائم الأخرى التي كانت تساوي مائة ألف على الأقل؛ غير ماسبب من تلف يفوق المليون إيكوس، من كنائس مخربة، وأثاثات مدمرة، وسفن محرقة، منها واحدة مشحونة بالطباق، استولى عليها، ولاتقل قيمتها عن مائة ألق جنيه». وكانت نهاية لولونوا مشئومة: «كان من سوء حظه أن وقع في يد الوحوش الذين يسميهم الاسبان الهنود الشجعان Indios bravos، قطعوه إربا إربا وشووه على النار وأكلوه[1].»

وكانت تصل من الشرق أروع الحكايات؛ ذلك«أننا نعلم أن الشرقيين يفوقون كل الشعوب الأخرى في ناحية الأعاجيب». نشر أنطون جالاند من عام ١٧٠٤ إلى ١٧١١ ترجمته لألف ليلة وليلة. لما بدأت شهرزاد تحكي رواياتها الليلية، وتبدي، بلاكلل، موارد خيالها التي لاتغيض، وقد تغذى بأحلام بلاد العرب وسوريا والشرق الأدنى العريض؛ ولما أخذت تصف أخلاق الشرقيين وعاداتهم، ومراسيم دينهم، وتقاليدهم البيتية، تلك الحياة الساطعة المتعددة الألوان؛ ولما بينت كيف يمكن اجتذاب الناس وافتتانهم لابالاستدلال المنطقي، بل بنضرة الألوان وسحر الأقاصيص: حينئذ تحرقت أوروبا كلها للاستماع إليها، حينئذ احتلت السلطانات والوزراء، والدراويش، والأطباء اليونانيون، والرقيق السود -مكان الجنية «كارابوس» والجنية «أورورا»؛ حينئذ احتلت فنون العمارة الرقيقة الهوائية، والنافورات، وأحواض الاستحمام التي تحرسها أسود من ذهب مصبوب، والأبهاء الواسعة المزينة بالحرائر وأقمشة مكة -مكان القصور حيث كان «الوحش» ينتظر استيقاظ «الحسناء» للعشق[2]؛ حينئذ خلفت بدعة، بدعة أخرى: ولكن الأمر الذي

(١) - ا. و. أوكسميلين، القرصان في أمريكا، امستردام ١٦٧٨. ترجمة فرنسية ١٦٨٦.
A.O.Œxmelin, De Americansche Zee-Rovers, Amsterdam, 1678.

(٢) - الحسناء والوحش: قصة كتبتها مدام لوپرانس دي بوسو. اضطر تاجر أن يسلم إحدى بناته لوحش مخيف. لكنه أحب الفتاة التي أحبته بدورها لطيبة قلبه. وجعله هذا الحب يستعيد أصله النبيل، كأمير، ويتزوجان. [المترجمان]

لم يتغير هو مايتطلبه الإنسان، الذي يريد قصصًا تلو قصص وأحلامًا تلو أحلام، إلى الأبد...

صور... إن السياح يزينون رواياتهم بالرسوم والنقوش، معابد الصين، والأفاعي أو قنن الجبال المستديرة أو كهنة سيام «الطالابوان»، والنباتات العجيبة التي تنبت في حدائق مالابار. ونقش الأب بوفيه لوحات تبين للفرنسيين، المندهشين، ثياب موظفي الصين؛ وأوصى السيد دي فريول وزير البلاط الفرنسي لدى السلطان الأعظم، على مجموعة من مائة طابع، ليبين لسكان باريس ثياب الشرق الفاخرة. ويقدم البعض للقارئ مناظر ولوحات، مستغلين تلك النماذج الأجنبية: همجي يقدم مشعلاً لسيدته في فراشها؛ كشافون يدخلون هرمًا مصريًا حيث تلقى مشاعلهم أنواراً غريبة على المدافن التي تطاول الدهر في القدم. كثيراً ما تبدو تلك الرسوم مليئة بالفتنة، تلك الرسوم التي ترد من القصى البعيد، من المجهول؛ وكأنما تعيد جدتها للفنانين الحيوية التي فقدوها من كثرة تقليدهم للنماذج القديمة. وأحيانًا كان السائح نفسه ينقلب إلى رسام، لعلمه بأنه سيكون أقوى تأثيراً على العقول، بتمثيل الأشكال المباشر، مما إذا التجأ إلى الكلمات والجمل: إن كورنليوس فإن برون يقف أمام نماذجه، واعيًا، جاداً كأنه يقوم بواجب مقدس: إنه مبعوث الحقيقة.

ولكن هل يتعلق الأمر بالكتب فحسب؟ إن الزوار مختلفي الألوان، القادمين من الجزر، ومن بنجكوك، ومن بكين يعمرون الأفق المألوف. وأقمشة الفلاندر المزركشة تتخذ أرجاء المعمورة الأربعة موضوعًا لها؛ والصينيون الذين مثلهم الناس في الأوبرا وفي مسارح الأسواق من قبل، قد سجلت رسومهم الآن على السجف والجدران. والأواني الصينية وأطليتها الزاهية، لاتتأخر في وصولها عن أفكار كونفوشيوس.

سبينوزا، مالبرانش، ليبنتز: ولكن أيضًا اسكندر ذو الذراع الحديدية وشهرزاد. النظريات الميتافيزيقية الكبرى، المستندة على العقل؛ ولكن أيضًا الخيال الذي يتسكع في قصص الجن والسحر، والعين التي تحلم في وجل وهي تنظر إلى

وحيد القرن وجاموس البحر. كل هذا الجهد العظيم لتفسير الدنيا، في الأعماق؛ وعلى السطح تلك اللمعات والألاعيب.

* * *

أما «الطبيعة العلة»، و«الرؤية عن طريق الله»[1]، فإن طائفة كبيرة من المرحين الأفاقين السكارى النشالين تهتم بها اهتمام السمكة بالتفاحة؛ بل قل إن «الاتساق المقدر»[2] الوحيد الذي يهم أولئك الأشرار هو الاتساق الذي يشعرون به بين حلقهم والنبيذ الجيد. إنهم يواصلون طريقهم دون أن يتساءلوا من أين يأتون ودون أن يعرفوا إلى أين ينتهي بهم الطريق؛ فما جدوى ذلك؟ المهم هي الحياة، فكلب حي خير من فيلسوف ميت. الواقع الملموس: ذلك هو ميدانهم. وهم يجولون فيه بكل مرح، مصفرين، مغنين، مقرطين في الطعام والشراب، منتفعين من الحمقى والبلهاء، سعداء بالحياة؛ لا يأبهون بالموت ولا بالآخرة.

لابد من أن طراز الصعلوك، الفاجر، النشال، يتضمن في ذاته شيئًا من الحقيقة السيكولوجية، أو قيمة رمزية، أو آية من القوة المسلية، مادام لايكف عن افتتان الأجيال وإن اتخذ صوراً مختلفة. إيه يا «بيكارو»[3] الخالد! إن أبناء وأحفاد «جوزمان دالفاراش»[4] و«لازاريلو دي تورمس» لازالوا يذرعون الدنيا، كتفا إلى كتف، مع نسل «بانورج»[5] ابن عمهم الانجليزي. لكن جماعتهم التي لاتكل قد ازدادات بامدادات جديدة. في لندن يترك ندوارد Nedward حانته، وقد كان

---

(١) – الطبيعة العلة Nature Naturente : في فلسفة اسبينوزا يطلق هذا التعبير على الطبيعة التي تعد علة لظواهرها. الرؤية عن طريق الله Vision en Dieu : نظرية مالبرانش المشهورة وقد سبق الكلام عنها في فصل «العقليين» القسم الثاني. [المترجمات]

(٢) – الاتساق المقدر: l'Harmonie préétablie : نظرية فلسفية لليبتز سنتكلم عنها في فصل «ميتافيزيقا الجوهر» من القسم الرابع. [المترجمان]

(٣) – شخصية مألوفة في القصة الاسبانية تدل على الأشقياء. [المترجمان]

(٤) – شخصية من رواية اسبانية في القرن السادس عشر. [المترجمان]

(٥) – شخصية معروفة من رواية «بانتاجرويل» Pantagruel للكاتب الفرنسي رابليه Rabelais. [المترجمان]

جالساً قبل ذلك مع لفيف من أخصائه، وأمامه أوزتان مشويتان، ورأس عجل، وقطعة ضخمة من جبن تشستر: كل هذا قد سقى بعدد كبير من كؤوس الجعة، كبداية، ثم من كؤوس «البورتو» في النهاية. وعند خروجه من الحانة، يصادف في طريقه لوك، صامويل كلارك، بويل، أو نيوتون، ثم يتجول خلال الشوارع والميادين، ويلج حانات أخرى، ومنازل وكنائس ومصارف ومتاحف، وكل مكان يمكن للمرء أن يقابل فيه نماذج ظريفة لهذا الجنس الغريب، الذي يدعى البشرية. حينئذ أخذ يصفهم في لهجة قاسية، وصور آسرة وأسلوب ممتع: يبدو كأنه لايفرغ، يفيض بالدعابة والسخرية، ويجعل من كل فصل من كتابه «جاسوس لندن» Espi-on de Londres ملهاة واقعية: واقعية ومرحة، تلك هي الآية التي كان يأتي بها ويجددها كل يوم. وكان على مقربة منه توم براون البوهيمي بين البوهيميين، الساخر بين الساخرين، المستعد دائماً لأن يؤجر قلمه، وأن ينفق ما كسبه بفضله، يراقب من جهته هوس المدينة الكبيرة. ؟ وبعد؟ هل الحياة إلا التسلية؟ البعض يتسلى بالطموح، والبعض يتسلى بالمنفعة، والآخر بتلك العاطفة السخيفة، الحب. الصغار يتسلون بالمتع الصغيرة، والعظام يتسلون باكتساب المجد: وأنا أتسلى بالتفكير في أن كل هذا لاشيء، لاشيء إلا تسلية...

هكذا تكلم هذا العالم الأخلاقي الغريب، الذي مات في الواحدة والأربعين من عمره، بعد أن ثمل وأحب، واستدان، وتعدى رقاده في السجن رصيده. وفي تلك الأثناء كان «الشيطان الأعرج»[1] يتسلى بين باريس ومدريد بنفس الطريقة: ولكنه كان يؤثر أن يرفع سقف المنازل- بدلاً من أن يلجها من الأبواب- ليكتشف أناساً يعادون الميتافيزيقا، والبطولة، وينغمسون في غمار المادة ولايعتقدون أن في ذلك ضرراً لهم أو سوءاً، أو على الأصح لايفكرون في شيء: إنهم قانعون بالوجود. «صورة لما تتكلفه المخلوقات التعسة الفانية من عناية وحركة وشقة، لتملأ -على أفضل صورة في مقدورها- تلك الفترة القصيرة بين حياتها

(١) - كتاب ألفه ليساج Lesage، واسم هذا الشيطان أزموديه Asmodée . [المترجمان]

وموتها.»[1] لاأفضل ولاأكثر؛ ولاأي سؤال فيما يتعلق بالحقائق السامية، بل فيما يبدو، لاقلق على الاطلاق، ولا أي حب استطلاع. الحقيقة الواقعية هنا، هي قبح النفوس والأجساد؛ يكفي أن تزيل قليلاً قشور المظاهر لتجدها، ولاتجد سواها. «إني أرى في المنزل المجاور لوحتين ممتعتين، إحداهما لغانية عبثت الأيام بشبابها، تخلع قبل النوم شعرها، وحاجبيها وأسنانها وتتركها على منضدة لزينة؛ والأخرى لشيخ متصاب في الستين من عمره، عائد من موعد غرام. وقد خلع عينه وشاربه الصناعي، مع شعره المستعار الذي كان يخفي رأساً أصلع. وهو ينتظر أن يخلع له خادمه ذراعه وساقه الخشبيتين، لكي يذهب إلى فراشه مع ما تبقى.» إذن، هل الجمال لاوجود له؟ ألا رجاء لنا في أن نجده؟ يقول زامبولو: «إذا صدقت عيني، أرى في هذا المنزل فتاة رائعة القوام، تستحق التصوير- ويرد الأعرج: «حسناً، إن هذه الفتاة الجميلة التي تفتنك هي الأخت الكبرى لذلك الشيخ المتصابي الذي يوشك أن ينام. يمكن القول بأنها زميلة هذه الغانية العجوز التي تقيم معها. إن قوامها الذي يحظى باعجابك لآلة استنفدت كل الفن الميكانيكي. إن عنقها وفخذها اصطناعيان... ومع ذلك فإن تصابيها أوقع عاشقين شابين في منافسة من أجل مفاتنها، حتى نشب بينهما عراك من أجلها. ياالجنونهما! يخيل إلي أن أرى كلبين يقتتلان من أجل عظمة.»إن كتاب «الشيطان الأعرج» يخلو من الأفكار، بل يتضمن رأياً مبتسراً من خيال سقيم أو أسود. إن لسياج سيصل إلى أوج الكمال في مؤلفه «جيل بلاس»- Gil Blas الذي ظهر القسم الأول منه في عام ١٧١٥: حيث يبدو البطل أرق حاشية، وأوفر فطنة، وأكثر تركيباً؛ وحيث يبدو المؤلف أكثر تعمقاً في دراسته، والأسلوب أكثر سلاسة وطبيعية: ومع ذلك لازلنا على مبعدة من التراجيديا الميتافيزيقية.

* * *

وأخيراً، هاك نبلاء حسني المظهر، يقفون في مؤخرة الصفوف، كأنما يخجلهم التحاقهم بهذه الفرقة، ولكن فيهم نقصاً هو عدم الاهتمام بالمسألة

(١) - آلان رينيه ليساج، الشيطان الأعرج، ١٧٠٧.

الأخلاقية، أو التفكير في شأنها في وقت متأخر، حتى ليمكن أن نقول عنهم ماقاله صاحب الفندق في «إميين» عن مانون ليسكو وعشيقها دي جريو: إنهما ظريفان، ولكنهما أفاقان إلى حد ما. فأولئك النبلاء لايعيشون إلا للمغامرة، والرحلات، والمقامرة والعشق؛ تستهويهم الحيلة والاختلاس اللطيف، والجرأة، وضربات السيف التي يسرفون في توزيعها والتي أحيانًا يتلقونها: ولكنهم لايموتون أبداً. يعالجون جراحهم، ويلتزمون في فراشهم: وبعد ثمانية أيام يغادرون الفراش، ويبدأون من جديد حياتهم الصاخبة الناهكة، والتي تدير أقل رواية عنها رؤوس البورجوازيين الهادئين. يمكن تسمية كل منهم بنفس اللقب الذي خلعه جاسيان دي كورتيلز على أحد أبطاله، والذي أطلق في الدنيا عدداً وافراً من الأشقياء Picaros المتنكرين في ثياب النبلاء؛ يمكن تسمية كل منهم «شفاليه هازار». أي حياة! أي نسق جنوني! «لم يعرف الشفالييه هازار أبداً أبا ولا أما؛ لقد وجد في لفة على عتبة كنيسة وتربى على حساب الكنيسة، ويترك مربية ليجرب حظه في جهة أخرى؛ وتلحقه سيدة نبيلة ليتمرن في حانوت صائغ؛ ويهرب من معلمه لينضم إلي الجيش، ويلتحق بالقوات البحرية للورد (س. ت)؛ وتغرق السفينة التي يعمل بها؛ وينقذ نفسه بمعجزة مع أحد البحارة؛ ويبحر إلى بوسطون؛ حيث يقتل صديقه في عراك مقامرة، ويأخذ بثأر صديقه وإن كان هذا يضر بحبه لعشيقته؛ ويتهم بأنه حمّل فتاة سفاحًا، ويوشك على الزواج بفتاة أخرى؛ ويهاجمه البعض في الطريق ويصاب بطلق ناري، ويصبح جرحه خطيراً؛ وفي تلك الأثناء تقام العراقيل في طريق زواجه؛ تريد الفتاة الحامل أن تتزوجه، وترفع عليه دعوى؛ ويريد شقيقها أن يغتاله، ويهاجم مرة أخرى؛ ويصاب بأربعة جراح؛ وبعد شفائه، تصاب عشيقته بالجدري ثم تموت ...[1]». إذا كان هذا الرجل المضطرب المسكين، مشغولاً إلى هذا الحد، وعلى هذا المنوال، فكيف يجد وقتًا للتفكير؟

(١) - مذكرات الشيفالييه هازار، مترجمة عن النسخة الانجليزية الأصلية، في كولونيا، عند بيير لوسانسير، ١٧٠٣.

وأكثر أولئك المغامرين المشاهير جاذبية، ليس المركيز دي مونبران، ولاالشفالييه دي روهان، الأمير العاثر الحظ، ولاحتى دارتانيان الذي قدر له مستقبل بمثل هذا الجمال، بعد مانام مائة وخمسين عاماً؛ بل هو الكونت دي جرامون الذي وجد أنطوني هاملتون متعة في نشر حياته[1]. من ذا الذي لايعرف هذه الصورة الساطعة، التي أهداها إنجليزي إلى الأدب الفرنسي؟ من ذا الذي لا يعرف هذه الصورة الساطعة، التي أهداها انجليزي إلى الأدب الفرنسي؟ من ذا الذي لم يتابع الكونت دي جرامون في سنوات تمرينه، وفي حملاته في بيمونت، وفي إقامته في البلاط الانجليزي الذي أصبح قدوة سيئة فيه؟ من ذا الذي لم يبتسم لتلك الذكريات الظريفة، لصورة زميله ماتا، لصورة الآنسة دي سان جرمان، أو المركيزة دي سينانت؟ من ذا الذي لم يعجب بما في القصة من حرية، وبهجة، ودسامة، وقوة، ودعابة؟ فلندع هاملتون نفسه يقول لنا كيف اهتم بالشخصيات لا بالأخلاق؛ بالنواحي البارزة لابالخير والشر؛ بالحياة لابالتفلسف: -«إن الموضوع هو وصف رجل تغطي شخصيته التي لانظير لها على نقائض لانزعم إخفاءها؛ رجل يشتهر بمزاج من الرذائل والفضائل التي يبدو أنها تندعم في تسلسل لازم، فريدة في توافقها التام، ساطعة في تعارضها. إن هذا الجانب البارز الذي لايفهم، هو الذي جعل الكونت دي جرامون -في الحرب، والغرام، والمغامرة، وفي مختلف ظروف حياة طويلة- موضع إعجاب عصره...». النشاط الحيوي: ذلك في الحق، مامثله جرامون في شخصه، وما ترجم هاملتون عنه.

إنه لمن السذاجة أن نتعجب أمام ذلك المشهد البهيج من هرج الناس ومرجهم، الذي ينعكس في الأدب. لكننا كنا قد نسيناه، إذ لم نتطلع إلا إلى خالق.

---

(١) - مذكرات حياة الكونت دي جرامون، تتضمن على الأخص التاريخ الغرامي للبلاط الانجليزي في عهد شارل الثاني، كولونيا، بيير مارتو، ١٧١٣.

الفصل الثالث

الضحك والدموع وانتصار الأوبرا

Je chante les combats, et ce prélat terrible

Qui, par ses longs travaux et sa force invincible,

Dans une illustre église exerçant son grand Cœur,

Fit placer à La fin un lutrin dans le Chœur...(١)

اختيار موضوع تافه ونظمه على طريقة الملحمة، بدلاً من ترجمة «أنايد» فرجيل Énéide في أسلوب هزلي؛ وصف النزاع والكفاح بين أمين صندوق كنيسة وخصمه المرتل؛ إضفاء مظهر هزلي على المحسنات الضرورية في القصائد الكبرى، من وصف، وعراك، وقتال، وتنبؤ. وأحلام: هل هذا حقًا يثير الضحك؟

ومع ذلك، فكثيراً ما أضحكنا شعر «المقرأ» Le Lutrin عندما كنا في المدرسة، ولم يكن لنا غذاء آخر؛ ولقد أضحك أوربا قبل زمننا بمائتي عام، ولم تكن قد ملّت بعد، الكلاسيكية، أوربا الأفاضل. صفوة أوربا كلها، ما دام ليس

(١) -أترنم بالمعارك، وبهذا القسيس الغريب - الذي كان يرتل بقلبه في كنيسة مشهورة - والذي نجح بعد جهد كبير وبقوته التي لا تغلب - في وضع المقرأ بين جوقة المرتلين. . .

(شعر هزلي بوالو كتبه بوالو يصف فيه نزاعًا بين أمين صندوق ومرتل في كنيسة واسم هذه القصيدة الهزلية «المقرأ» Lutrin. [المترجمان].

هناك بلد لم يلق فيه الإعجاب هذا المؤلف الممتع للسيد بوالو - الهجاء الكبير -، ولم يترجم ولم يقلد؛ وما دام واحد من خيرة أطباء لندن - صامويل جارث - لم يجد المجد الشعري إلا في إعادة الموضوع نفسه، أي بتحويل «المقرأ» إلى «الصيدلية»، باستبدال الأطباء بالرهبان، والصيادلة بالمرتلين، وما يتبعهم من محاقن ومدقات وهاونات:

Muse, raconte - moi les débats salutaires

Des médecins de Londres et des apothicaires

Contre le genre humain si longtemps réunis:

Quel Dieu, pour nour nous sauver, les rendit ennemis?

Comment laissérent - ils respirer leurs malades.

Pour frapper à grands coups sur leurs chers camarddes?

Comment changérent - ils leur coiffure en armet

La seringue en Canon, la pilule en boulet?

Ils connurent la gloire: acharnés l'un sur l'autre,

Its prodiguaient leur vie et nous laissaient la nôtre...(1)

وبالمثل: اتخاذ بعض أشعار ملتون كعنوان، وجعلها تنتهي إلى سقطة مضحكة:

---

(١) - يا عروس الشعر، احكي لي عن هذا الجدال الناجع - بين أطباء لندن والصيادلة - المتحدين ضد الجنس البشري منذ زمن طويل: - أي قدرة إلهية أوقعتهم في عداء لانقاذنا؟ - كيف تركوا مرضاهم يتنفسون - ليواجهوا إلى أصدقائهم الأعزاء أعنف الضربات؟ - كيف حولوا القلنسوة إلى خوذة - والمحقن إلى مدفع، والحبة إلى قنبلة؟ - لقد عرفوا المجد: فضحوا بحياتهم، وقد تحمسوا في تقاتلهم - وتركوا لنا حياتنا. . .

فولتير، تعليقاً على «صيدلية» صامويل جارت، ١٦٩٩. في القاموس الفلسفي باب بوفون Bouffon.

Sing, Heavenly Muse

Things unattempted yet in Prose or Rhyme

A shilling...(١)

أما وقد أضفينا هذه النغمة، وتغنينا في أشعار هائلة بسعادة رجل يملك شلنا، شلنا جميلاً، جديداً، لامعاً؛ رجل لم يعد بعدئذ يخشى الفقر الشاحب الوجه، ويستطيع أن يلج حانة حيث يطلب جعة راغية، ومحاراً طازجاً؛ ولا يسمح أبداً للحزن أن يبدى وجهه تماماً، بل يطرده ببعض الحيلة الفكهة، بمجرد ما ينوى أن يستقر - هل في هذا شيء يضحك؟ أجل، مادامت صحيفة «تتلر» قد أعلنت أن أجمل شعر هزلي نظم باللغة الإنجليزية هو «الشلن الرائع» The Splendid Shilling لجون فيليبس.

وبالمثل أيضاً يجلس بوب إلى مكتبه، ويتفنن في نظم «خصلة الشعر المغتصبة»(٢). وإنه لفخور بالجديد الذي وجده، مثلما كان بوالو فخوراً بإنتاجه مؤلفاً ليس له مثيل في الفرنسية. في كل أشعار البطولة الهزلية، لا بد من عدة؛ وهذا تعبير آخترعه المهرة، دلالة على الآلهة التي توجه الحركة، وعلى هذه العدة تتوقف الأعجوبة. وعلى ذلك، خطر بباله أن يستعمل بدلاً من الملائكة والشياطين التي كلت من طول الخدمة، جنيات الهواء Sylphides وأقزام البحر الخارقة للعادة gnomes وعرائس الشتاء: شخصيات مقترضة من عالم السحر، ذلك أن المسألة ليست عدم الاقتراض، بل الغرض هو التوصل إلى مقرضين جدد. ثم يخترع مورداً جديداً؛ فلو أنه وصف موضوعات لا يسهل إدخالها في نطاق الشعر، مثل مباراة في لعب الورق، فأي فضل! إن الصعوبة المذللة هي الفن العظيم - نبيل عاشق يقص خصلة شقراء من حسناء، فتغضب أشد الغضب، ويتبع ذلك هياج

---

(١) -غنني، أيتها العروس السماوية - أشياء لم يسبق لها مثيل في نثر أو شعر - شلن واحد... (ج. فيلبس، الشلن الرائع، ١٧٠١ و ١٧٠٥).

(٢) - The rape of the Lock, 1712.

شديد في عالم الإنس والجن. عقدة خفيفة لقصيدة قديمة؛ بعض أزهار دقيقة مطرزة بتفنن، وبعض الفطنة وبعض البريق الأخاذ: هل في هذا ضحك؟

وكان الضحك الإيطالي أعلى رنينًا على كل حال. كانت عروس الشعر في الريف التوسكاني، تستشعر حرية أوفر، وخفة أكثر، وتنطلق على سجيتها دون كبير تكلف:

Non é figlia del Sol la Musa mia,

Né ha vetra d'oro o d'ebano contesta

É rozza villanella, e si trastulla

Cantando in aria... (١)

والحق أنها كانت تريد هي الأخرى، جعل قصص البطولة مهازل: لكن دون تكلف، alla buona؛ وإن اختلط الأمر عليها، كالنمل الذي يصادف في طريقه جصًا أو دقيقًا، فإنه لا يجد في ذلك إلا لهوًا.

Ma canta per istar allegramente,

E accio' che si rallegri ancor chi l'ode;

Né sa, né bada a regole niente... (٢)

وهي إذن لم تكن تتردد. لم يعد هناك حب سماوي، ولا شرف سام، ولا روح فروسية؛ لقدتحول الفرسان البواسل إلى غلاط ثقلاء، أفاقين، سكارى:

---

(١) - عروسي أنا، ليست ابنة للشمس - ليس لها قيثار من ذهب، أو مطم بالآبنوس - إنها ريفية خشنة، تتسلى - بالغناء في الهواء. . .

(٢) - إنها لا تغني إلا لتسعد - ولتسعد أيضًا من يصغي إليها - إنها لا تعرف القواعد، ولا تعيرها أدنى اهتمام.

E Rinaldo ed Orlando in compagnia

S'ubbriacano ben bene all' osteria...(١)

كانت هذه العروس المجنونة، والغليظة أحيانًا، تعامل كل العناصر القديمة بلا احترام، من مثل السحر، والافتتان، وركوب الخيل، والمطاردة، والكمين، والقتال الغريب، والخان المسحور، والسجن، والقتال الشاعري؛ وتنتقل من حكاية إلى حكاية، ومن صورة هزلية إلى أخرى، دون أن تفكر في السير المستقيم، والاتجاه صوب هدف معين أيا كان، بل لم يكن يشغلها إلا تبيان كم يسهل علينا أن نضحك وأن نضحك، على ذقون الحمقى والمدعين.

لقد أبعد ممثلو «الكوميديا الفنية» Commedia dell'arte الإيطاليون من باريس، عام ١٦٩٧؛ وقد كانوا في غاية الجرأة، والجاذبية، والمرح؛ فأغلق مسرحهم. ولكن رينيار بقي، رينيار المحبوب؛ ولم يكن الحزن من طبع بورجوازي باريس. وكان يكتفي بأبسط العقد، من استبدال الشخصيات، والتعرف، والمفآجات المتوقعة؛ وبأكثر الشخصيات استعمالاً في قائمة المسرح، من مثل المرابين الذين يخنقون أولاد الذوات، والأرامل الثريات اللاتي يستغلهن الشبان، والأمهات المتحكمات، والفتيات العاشقات، والشبان الطائشين؛ وكم من خدم وصيفات، لاتمام التمثيل! وسواء كان بمعجزة، أو لعله بسبب إكثاره، أو براعته، أو حميته التي لا تغيض، أو خبرته بالمواقف والكلمات، أو مرح طبعه الذي لا يقاوم، - فقد كان يستمد من هذه المواد القديمة رواية مضحكة تبدو دائمًا جديدة. هل هناك أسهل من مسرحيته «الرجل التائه» Distrait؟ لياندر هذا، الذي يفقد حذاءه في الطريق ويتبع طريق بيكاردي على أنه طريق روان، والذي يضع إصبعه في بيضة نمبرشت (ألا كوك) ويعضه حتى يتفجر منه الدم، والذي يخطئ في حجرته، ويلقي بساعته على الأرض، والذي يعلن هيامه بالحسناء التي لا يحبها،

(١) - ورينو ورولاند معًا - يسكران في الحانة ما استطاعا.

وكراهيته للحسناء التي يحبها، والذي - بعد عشرين حادثًا على هذا المنوال - ينسى ليلة زفافه أنه قد تزوج: أهناك شيء معروف أكثر من ذلك؟ أو مستغل أكثر من ذلك، أو في معنى آخر مصطلح عليه أو معتاد؟ إنها لا تعدو شخصية من شخصيات لابروبير أطيلت على خمسة فصول. ومن ذلك، تجوز عليك الخدعة، وتضحك على كل عثرة، كالأطفال.

هذا المنظر أو حتى تلك المسرحية يمكن أن تكون محزنة، لكن ليس الحزن العميق الذي نجده عند موليير، ما دام رينيار لا يتغمق أبدًا النفسيات. ولكنه لا يجهل ما في الناس من نقائص ورذائل؛ لكنه يعرف تمامًا ما للنقود من قوة وتأثير على مجتمع يوشك على الانحلال، لكنه لا يتردد في تصوير كهول محطمين، محمومين، مصروعين، مشلولين، مسلولين، مبهورين، مستسقين، لم تبق في فمهم إلا سن واحدة، سوف تقع عند أول نوبة من السعال - يشتهون فتيات في ريعان الشباب. فملهاة «الموصى العمومي»، Le Légataire Univeresel[1] تسودها رائحة المآتم... وأي بأس؟ إننا لا نحس الحزن بل المرح. إن الشخصيات لا تظهر على المسرح إلا لتسلينا لحظة، ولتلمع لمعة عابرة. إنها سريعة، خفيفة، تتراقص، وتتواثب: لأنها قررت أن تعتقد - مرة وإلى الأبد - أن علاج الشرور كلها، حتى في حالة الموت، حبة من الجنون. وحين تنتهي المسرحية، وقد أصبح الغيورون والبخلاء موضع استهزاء، وحين ينتهي أمر الخدم والوصيفات les Cris-pin et les Lisette[1] بالعفو والتبرئة، ويتزوج العشاق، وحين يحيي الممثلون الجمهور ويسدل الستار، حينئذ لا يحتفظ المشاهد المسرور إلا بذكرى واحدة:

Il faut bien que je rie

De tout ce que je vois tous les jours dans la vie [2]

---

(١) -كرسبان: شخصية في ملهاة أصلها إيطالي أصبح مثالاً للخادم الظريف الخالع العذار - وليزيت: اللقب الشائع للوصيفات في الملهاة، حية ماكرة لعوب. [المترجمان].

(٢) - لابد من أن أضحك من كل ما أشاهد كل يوم في الحياة...

(الرجل التائه، الفصل الأول، المنظر السادس)

مـصاحبـة جديدة في نغمة خافتة، تخالف الأنغام العالية. لم يكن تولاند ولا كولنز من الضاحكين؛ ولم تكن لتنال من فونتنل إلا بسمة، خفيفة، ساخرة؛ وكان جان لي كلير جاداً؛ وجوريو محزوناً مكروبا. وكان بوسويه في شيخوخته صارماً، ويل للضاحكين فلسوف يبكون؛ وكان فينلون يرى في الضحك شيئاً غير لائق؛ ولم يغد لويس الرابع عشر يضحك، في خريفه، في شتائه. ولكن أولئك لم يكونوا يمثلون الجنس البشري بأسره.

* * *

فلنكشف الآن كما كان الشيطان الأعرج يفعل، عن مساكن جديدة. فلندع المازحين، السكارى، والأشقياء Picaros والمتشردين rogues والنشالين، أولئك الرفاق الخالي البال؛ ولندع الضاحكين؛ ولنلتفت إلى النفوس الحساسة، التي تعجز عن العيش بلا انفعال، بلا حزن، بلا يأس؛ ولنتجه صوب الذين يعتقدون أن العقل غير إنساني.

ليس الموضوع أن نعرف ما إذا كان الناس لم يكفوا أبداً عن البكاء في هذه الدنيا، بل هو تحديد الزمن الذي بدأنا نعتقد فيه أننا نستطيع أن نكشف عن دموعنا بلا خجل.

هاك منظراً في مسرح؛ بطل بخوذته، وريشه، وفخامته، يشكو لبطل آخر، روماني مثله، حالة قلبه الضعيف:

SERVILIUS.

Mais quand je songe, hélas! que l'état ou je suis

Va bientôt exposer aux plus mortels ennuis

Une jeune beauté, dont la foi, la constance,

Ne peut trop exiger de ma reconnaissance,

Je preds à cet objet toute ma fermeté.

Eh! pardonne, de grâce, à cette lâcheté,

Qui, me faisant prévoir tant d'affreuses alarmes.

Dans ton sein généreux me fait verser des larmes.(١)

دموع! بطل مدرع يجرؤ على ذرف الدموع، على المسرح! إن الآخر يعصف به الغضب أكثر مما يتملكه التأثر:

MANLIUS

Des larmes! Ah! Plutôt, par tes vaillantes mains,

Soient noyés dans leur sang ces perfides Romains.

Des larmes! Jusque - Là la douleur te possède! (٢)

إن المشاهدين يتعجبون، سائلين: بأي سر لا يخالجنا الخجل من الضحك على المسرح بتلك الحرية، بينما نخجل من البكاء(٣)؟

هاك غرفة بيير بايل؛ إنه يكتب إلى أخيه يعقوب؛ لقد ماتت أمهما من قريب. إنه يقبل البكاء في مثل هذه الحالة من الحزن.

---

(١) - سرفليوس: واآسفاه عندما أفكر أن حالتي - سوف تجلب أسوأ الشرور - على فتاة جميلة جعلني إخلاصها ووفاؤها - مدنيًا لها بشكر ليس له حدود - إني أفقد لذلك كل جأشي وصمودي فاغفر لي بربك، هذا الهوان الذي يجعلني أسكب أدمعي في قلبك الكريم - لما أستشف فيه من مخاطر مرعبة...

(٢) - مانليوس: دموع! آه!... أفضل أن أرى أولئك الرومان الخوان - غارقين في الدماء بيديك الباسلتين - دموع! أإلى هذا الحد تملكك العذاب؟

(مانليوس كابتوليموس، مأساة «لافوس دوبني» التي مثلها لأول مرة ممثلو الملك يوم السبت ١٨ يناير ١٦٩٨).

(٣) - لابروبير، الشخصيات، «عن نتاج الفكر.»

- «إني أوافق على غزارة دموعك، ولا يزعجني أن تشجعني على أن أذرف منها بفيض. لا ينبغي أن نلقي أذنًا صاغية للرواقيين. . . إن الحساسية التي نظهرها أما ضربات القدر القاسية، لا تعدم لها أثرًا؛ لذلك ينبغي أن نأمل في رقة القلب أكثر مما نأمل في خشونة الطبع. إن اللّه سيبارك دموعنا وأنيننا. . . »

ثم يتردد بايل قليلاً، ويتراجع. لنا الحق في البكاء، لكن ليس لنا الحق في البكاء على الدوام:

- «ولو أني قلت لك ذلك، إلا أني لاأمتدح الخلق الذي تحدثني عنه، عندما تقول بالحرف إن لك طبعًا لينا، وإنك لا تستطيع أن ترى أقل شيء أو تفكر فيه إلا وتبكي في غزارة عجيبة. إن هذا الضعف لا يليق برجل، ضعف نكاد نجيزه للنساء. في ظروف الحياة وتقلباتها، يجب أن يحتفظ كل ما يخص الرجل بصفة من الرجولة. . . »

ولكن ترى ألا يكون قد جرح أخاه؟ إنه يتراجع مرة أخرى: آه! إذا أراد أخوه أن يبكي، فليبك كيفما شاء!

- «بيد أني وإن كنت أقدر صحة ألمك البالغ، إلا أني لا أوافق على هذا الحنان الكبير الشامل الذي تشعر به: وهكذا مع إدانتي لطبع شفيق إلى هذا الحد، فإني لا أؤاخذك على هذا الفيض من الدموع التي ذرفتها وسوف تذرفها. يمكننا أن نستسلم إلى تلك المغالاة، دون أن نفقد قوة الذهن التي يجب أن يمتاز بها جنسنا، وما دام أكبر الأبطال، وأكبر القديسين، قد عرفوا البكاء، فلا ينبغي أن تعد الدموع ضعفًا نسويًا. . . [(1)]»

ضعف نسوي. . . ها هو ذا المنزل البرجوازي الثري حيث تكتب إمرأة ضعيفة رسائل حب وهي تبكي وتنتحب. لقد أحبت في مقتبل عمرها البارون دي

(1) - مالم ينشر من رسائل بايل، ج. ل. چيريج. وفان روز برويك، عدد يوليو - سبتمبر ١٩٣٢ من «رومانيك - ريفيو».

بروتيل الذي خالته أجمل رجل في الدنيا، ولما تملكها اليأس لعلمها أنه ليس حراً، عزمت ذات يوم على الفرار من بيت أبيها، واتجهت صوب الدير؛ ولكن أباها لحق بها في الطريق، وزوجها رغم أنفها ليعيد إليها صوابها؛ وأصبحت الآنسة آن دي بلينزاني، الرئيسة فيراند. وحدث أن رأت الرئيسة البارون مرة أخرى، وأحبته أشد الحب، أحبته بجنون. ومن هنا، تلك الرسائل، التي تعد من أجمل الرسائل التي دبجها قلم عاشقة، وكلها مليئة بالاضطراب: سعادة حب يجهله العالم؛ متعة تزداد قيمة كلما بقيت سراً؛ حزن منشؤه أن هذا الحب لا يستطيع أن يتفتح، حراً، مجيداً؛ غضب من أجل العراقيل التي تتجمع شيئاً فشيئاً؛ نغمات حانية شبه أمية، وصيحات عاطفية، وتقزز للتفكير في أنها ستعود - بعد مغادرة عشيقها - إلى زوج ينفر منه جسدها؛ بصيرة الشعور، «نعم يا عزيزي، أنت تحبني، وأنا أعبدك. . .»؛ فقدان التقدير الذي لا يكفي لمحو الحب: «لقد فقدت عطف أسرتي، وأحلت عشي إلى جحيم من أجل عشيق لا يستحق إلا حقدي. ولكن يا إلهي! هنا ذروة تعاستي، لا أستطيع أن أكرهه، إني أحتقره، إني أشمئز منه، ولكني أشعر بأني لست أكرهه. . .» إن هذه المرأة المفطورة على العشق، فيها بعض الصفات التي ستفخر بها البطلات الرومانتيكيات بعد ذلك الوقت بمائة وأربعين عاماً. فهي تقدر أن السعادة سلوة، أما الحزن فيجعلنا أكثر إحساساً للحب: إنها أتعس إمرأة أحبت؛ لقد وسمها القدر: نظر إليها الحب، منذ المهد، كضحية لعذابه. إنها تذرف سيلا من الدموع[1] . - منذ ذلك الوقت[2]!

---

(١) - قصة حديثة لحب بليز وكليانت، ١٦٨٩ - رسالات الرئيسة فيراند la Présidente Ferrand إلى البارون دي بروتيل de Breteuil طبع أوچين آس، ١٨٨٠ .

(٢) - يتعجب المؤلف لهذه المشاعر الرومانتيكية، التي تظهر قبل الأوان. والرومانتيكية مذهب ظهر في مبادئ القرن التاسع عشر، وهو التحرر من قيود العصر الكلاسيكي. وأول مبشر بها چان چاك روسو؛ ومن موحيها شاتو برياند Chateaubriand ومدام دي ستايل. وتمتاز الرومانتيكية على الأخص بالفردية وتفوق الحساسية والخيال على العقل. ومن أعلامها لامارتين Lamartine، والفريد دي فيني De Vigny، وفكتور هوجو، والفريد دي موسيه Musset وچورج صاند وبلزاك. [المترجمان].

وكـان المجتمع ينحل، وهذا صحيح؛ وكـانت عـدوى الترف تستشـري، والـترف يقتضي النقـود، بكـثرة، وبسـرعة: عـنـدئـذ أخذ الناس يبحثون عنها في المضـاربة، وأوراق النصيب، وشـركات الإيراد، ولعب الورق. إن مسـرحيـة Turcaret ظهـرت في ١٧٠٩؛ ويعـتقـد توركاريه ذلك الخادم الذي أصبح ملتزمًا غنيًا، أن كـل شيء يشـتري بالجنيه، السلوك المهـذب، والفن، وقلوب النسـاء. ولا ريب في أن لـوسـاج يـبديه لـنا وقد انتهى إلى الإفلاس وأصبح موضع سخرية واستهزاء: إلا أن النقـود وإن لم تقدر على كل شيء فهي تفسد كل شيء؛ وهاك المغزى الخلقي للمسرحية الذي يستخلصه الخادم فرونتان، في حديثه مع الوصيفة ليزيت: «إني معجب بسير الحياة البشرية؛ إننا ننتف ريش غانية، والغانية تأكل رجل أعـمال، ورجل الأعـمال ينهب غـيره، وهكذا ننتهي إلى أظرف سلسلة من الخداع في الدنيـا.» وفي مسـرحيات «دانكورت»، مـرآة ذلك الوقت، الجـمـيلة الأضلاع، نجد أكثر الناس اصطناعًا للسذاجة، وأوفرهم فسادًا، وأكثرهم ولعًا بالألقاب والمال، هن النساء.

وصـحيح أيضًا أن الناس دفعوا بالنسـاء نحو الفلسفة ونحو العلم: لورد هاليفاكس حينا، وفونتنل حينًا آخر. وطالب البعض بتحرير النساء تحريرًا تامًا؛ لأن

الرجال أساءوا استعمال سلطتهم - عندما وضعوا القوانين - لاستبقائهن تحت حكمهم؛ وعـهـدوا إليهن بأشغال تافهة، ورسخ الشر بفضل العادة، واستفحل بفضل التربية: ولقد حان الوقت لكي نغير هذه الحال. يجب أن تصبح النساء على قـدم المسـاواة مع الرجـال، فـبـذلك يقـضي المنطق والعـقل: يجب أن يتلقين نفس التعليم، وأن يشـغلن نفس الوظائف، في القـضـاء، والمعـارف، وحتى في قيـادة الجيش، وحتى الكنيسة. أما بوالو، الذي لم ينس «النساء العالمات»، فليس من هذا الرأي؛ فـتـراه يتذمر، ويسـخر من الداعرات والغـانيات، والمقامـرا، والعالمات، والمتكلفات، والهوائيات؛ ويذكّر في لهجة ساخرة بمفاتن الزواج: ولكن ترى بيرو Perrault يسـارع إلى الذود عن شـرف الجنس اللطيف. ويعلن أن بوالـو رجـعي

الأفكار؛ فإنه يهجو النساء لأنه اقتبس هذا الموضوع من هوراس وجوفينال Juvé-nal، وأنه يظن نفسه ملزمًا بترديد كلّ ما قاله الأقدمون. بيد أن «المحدثين»، وقد يفوقونهم سداد رأي، يعلمون أن أخلاق اليوم تفترق كثيراً عن أخلاق الأمس: للّه در النساء! إن فيلسوفًا إيطاليًا، باولو ماتيادوريًا يردد ذلك، مبينًا «أن المرأة، في كل الفصائل الكبرى تقريبًا، لا تقل عن الرجل في شيء.»

كل هذا صحيح. يقرر المشاهدون أن الفتيات يتحررن، وأنهن ينسين العادات القديمة الطيبة، وأن سلوكهن فاضح؛ وأن النساء سفيهات، شرهات، متعرضات. ولكن إذا وقع حب كبير، بما يتبعه من عقبات، نرى العاطفة تسترد حقوقها فوراً، وتنفجر، وتترجم إلى صيحات مؤلمة، وزفرات موجعة: إن في ذلك نداءً لعصر قريب، سوف يريد أن يكون بأكمله، عاطفة.

* * *

بأي براعة تتبدى الحساسية - كأنما من وراء حجاب - تلك الحساسية التي يريد البعض استئصال شأفتها من الدنيا! صدرت عن انجلترا أيضًا إشارة، وكان مصدرها ممثل، كولي سيبر: لقد استشف هذا الميل الخفي لزمنه. كفى مسرحيات ماجنة! كفى نبلاء فاسقين يزهون على المسرح زهو الطاووس! كان جيريمي كوليير محقًا، لقد حان الوقت لكي نرد المسرحيات الإنجليزية إلى اللياقة والأخلاق. واتخذت الأخلاق الشعور كرفيق.

فلنفترض زوجًا شريراً، قد هجر زوجته بقسوة، بحثًا عن المغامرة، وأضاع ماله كله في النبيذ العتيق والنساء الفتيّات - كما يقول؛ ثم عاد إلى إنجلترا مفلسًا، لكن محتفظًا بسفاهته. ودون أن نرهق خيالنا، فلنسمّه لوفليس Loveless ولنفترض من جهة أخرى مثال الزوجات أماندا Amanda. إنها لم تنقطع عن حب زوجها الشرير، وتريد أن تستعيده. ترى هل يحسن الالتجاء إلى مواعظ الأخلاق مباشرة؟ كلا، قطعًا؛ وإلا هرب من جديد. فمن الأفضل أن تلجأ إلى الشعور،

إلى الندم؛ إلي بقية من عاطفة، تستيقظ رويداً رويداً؛ بل إلى المتعة. وأخيراً، سيعترف لوفليس بأخطائه، وسيتكلم مستغفراً: «آه... إنك انتشلتني من خمود الرذيلة العميق... دعيني أركع أمامك، وأشكر تلك التي أخضعتني بفضيلتها الظافرة. هنا أود أن يكون مقامي، راكعًا هكذا، لشدة خجلي؛ أريد أن أتطهر من جرائمي في سبيل من دموع التوبة.» لقد مر بمدرسة الشعور.

لقد مثلت مسرحية كولي سيبر هذه، «حيلة الحب الأخير» Love's Last Shift على المسرح الملكي بلندن في عام ١٦٩٦، ولقيت نجاحًا عظيمًا. ومنذ ئذ تتابعت كوميديات ذات لونين، مرحة، جادة، بورجوازية، أخلاقية، تشوبها رائحة الخلاعة القديمة: ذلك أنك كنت ترى فيها أكثر من شخصية مقتبسة من القائمة القديمة، وبالتالي، لم تكف عن عادة الشرب، أو مغازلة الفتيات، أو التحدث في لهجة غير صقيلة، دون مراعاة للآذان العفيفة. كوميديات حديثة، بما فيها من بعض المناظر الحية، الصافية؛ وقد تستعمل دون وازع، أقدم الأساليب، نعنى التنكر، والتمسخر، والخطأ في عنوان الرسائل، والغلط في الشخصيات: ونرى كولي سيبر يقدم مثلاً، بافتراضه أن لوفليس لا يتعرف زوجته أماندا؛ ويفسر ذلك بأن سيماء أماندا قد تغير قليلاً بفعل الجدري. كوميدات تبدو فجة، ثقيلة في خواتم الفصول، وأحيانًا في خواتم المناظر، لما فيها من بعض الأشعار الصغيرة الأخلاقية، التي يصعب أن نعدها طبيعية أو جميلة. ولكنها تفصح جميعها عن حالة ضمير واحدة، وتقدم جمعيًا ناحية سيكولوجية واحدة، من أجلها نغضي عن الكثير: فإن إصلاحًا أخلاقيًا لا يمكن أن يتحقق بفعل خارجي، بالقوة، والسلطة، بل لا بد من ارتضاء النفس. إذن ينبغي - قبل أن نتوسل بالإرادة المجددة، أن تتأثر النفس، وأن تنفعل أولاً، ثم تعالج، بالشعور. فالزوج الذي يستشف اضطراب زوجته، لن يحصل منها على شيء، ما لم يحرك في قلبها شعور الأسف والندم. وفي سبيل ذلك، يتخيل رواية كاملة، فيلجأ إلى عشيق كاذب، يستأجره ليدفع بها

إلى حافة الخطيئة: وحين تصبح شبه مذنبة، تحس فظاعة الكذب، والخيانة، فترجع إلى أحضان الفضيلة لاشمئزازها من الرذيلة.

وسنصبح أكثر حناناً. إن خدما مسنين، مخلصين إخلاص الكلاب الأمينة، شاكرين لأسيادهم ما طوقوا به أعناقهم من أفضال، سيكشفون في الأوقات الحرجة عن إخلاص يستحق الإعجاب. وسنترك بعض النساء اللواتي يستعصي إصلاحهن لنصيبهن التعس؛ ولكن سوداهن سيكن رقيقات، وديعات؛ وإذا تشتت منهن القلب، فسنعرف كيف نعيدهن إلى الطريق المستقيم. وعند الرجال، لن يعدم الثبات في حب مخلص جزاءه، بعد الامتحان. وسنعجب بالوالد الذي يعني بألا يصيب ابنه أي ألم، وبالابن الذي لا يقل عنه رقة وعطفا: أحسن الآباء وأحدبهم وأحسن الأبناء وأحناهم: شخصيتان مرهفتا الحس - «كالست المستحية» - تنكمشان بمجرد اللمس. وسنرى في نفس المسرحية عذراء ساذجة، نقية وفاتنة، تأبى الاعتقاد في وجود الشر، مهما قيل لها. وأقل الشخصيات ظرفاً، ستبدو على الأكثر، في شيء من خشونة الطبع أو قليل من الغيرة. ولكن ستسكن الغيرة وتستحيل الخشونة إلى رقة، ويزول سوء التفاهم، ثم يتعانق الجميع، بين الدموع. تلك حال «العاشقين المتحفظين» The conscious lovers لستيل Steele اللذين يسجلان في عام ١٧٢٢ انتصار هذا الطراز.

إن شطراً من الأدب يريد أن يصبح «خدمة كريمة في سبيل الإنسانية[1]».

* * *

الأوبرا - أي إهانة موجهة إلى العقل! تملق العيون والآذان، استفزاز العقل: إن في ذلك لتحرشا. غناء كل شيء من البداية إلى النهاية، لا في إعلان العشق

(١) - ر. ستيل، ملهاة، الزوج الوفي، ١٧٠٥. R. Steele, the tender husband إلى مستر أديسون، «الشعر... خدمة كريمة في سبيل الإنسانية».

فحسب، بل في الخطب والرسائل، والأوامر، والشتائم، والمسارة، والأسرار: فأي سخف! «هل نستطيع أن نتخيل أن سيداً ينادي خادمه، أو يكلفه بمهمة، وهو يغني؟ أو أن صديقاً يسر في أذن صديقه وهو يغني؟ أو تدور المناقشة في مجلس بالغناء؟ أو نغنى الأوامر التي نصدرها؟ أو يدور القتل في مذبحه بالسيف والرمح على أنغام الموسيقا. . . ؟» - «إذا أردت أن تعرف ما هي الأوبرا، فاعلم أنها عمل غريب من الشعر والموسيقا، حيث الشاعر والموسيقار، وقد ضاق كلاهما بالآخر، يبذلان كل جهدهما في إتيان تأليف ردئ. . .»

أضف إلى ذلك، المكلف بالزخرفة، ذلك المجرم الآخر. ملأ المسرح بأعاجيب من الورق المقوى، لا بدال الفائدة السيكولوجية، بمؤثرات خارجية من المفاجأة والدهشة، واختراع آلات معقدة أبلغ التعقيد، من عجلات تطير، وآلهة تصعد إلى السماء، ووحوش ناطقة: أي مخالفة للمنطق! وجماع القول، أننا إذا استمعنا إلى ذوي العقول السديدة، أو لئك الذين يحبون الشيء الحقيقي، المحتمل، المنطقي، المنتظم، مثل سانت أفر يموند ويوالو ولا برويير، وأديسون وستيل، وجرافينا وجراسمبينى وما في وموراتوري، لوجدنا: أن الأوبرا تخالف العقل والصواب، وأنها تستأهل كل احتقار. ذلك أن «حماقة حافلة بالموسيقا، والرقص والآلات والزخارف لحماقة رائعة، ولكنها حماقة على كل حال. . .»[1]

بالضبط: كانت الأوبرا مخالفة للعقل، وكانت تروق الناس! ذلك هو الواقع الذي لم يستطع أن ينكره أحد؛ الجديد الذي أثار غيظ الذائدين عن العقل السليم، انتصرت الأوبرا في كل مكان؛ غزت فلورنسة، والبندقية، وروما، ونابولي، وكل مدينة في إيطاليا. واستقرت في المراكز الموسيقية الكبرى في ألمانيا، درسدن وليبزج. وكانت فتنة فيينا، التي أصبحت وطناً ثانياً لها. فما من أمير دوق كبير لم

(١) -سانت أفريموند، رسالة عن الأوبرا.

يرد أن يكون له مسرح خاص، ومزخرفين، ومؤلفين، وأحسن قادة الأجواق Maestro، وأحسن أساتذة الرقص، وأحسن المغنيات Prima donna. ومجدت باريس لولي وكينو. واحتجزت لندن هاندل. وتأخرت مدريد قليلاً؛ وقد حكت مدام «دولنوا» d'Aulnoy، وهي تبتسم، في «قصة السفر إلى إسبانيا» في عام ١٦٩١: «لم أر قط أدوات في مثل هذه الحقارة؛ فقد كانت الآلهة تنزل بخيلها بوساطة دعامة خشبية مشدودة من طرف إلي طرف؛ والشمس تسطع بوساطة اثنى عشر فانوساً من الورق المزيت داخل كل منها مصباح؛ وعندما كانت «ألسين» تقوم بأعمالها السحرية، وتستحضر الشياطين، كانت الشياطين تخرج من الجحيم في يسر، على درج...» هذه الحالة ستتغير: ففي عام ١٧٠٣، ستستقر شركة إيطالية في مدريد.

ما منشأ هذا الولع؟ - إن الناس في حاجة أبدية إلى عامل مؤثر؛ والمأساة التي أصبحت منذ نهاية القرن محض تقليد وآلية، لم تعد تهيئه. إذن فستهيئه الموسيقا. إن حاجة سيكولوجية ملحة، تنتهي إلى تحويل في الفن، تنتهي إلى شكل جديد.

تأليف واسع مزخرف، تشارك فيه كل الفنون؛ عيد من الأنغام، والألوان، والحركات الإيقاعية، افتتان الآذان والعيون؛ انفعال ذو صفة نوعية جديدة، ما دمنا لا نستطيع أن نحلله، ما دامت فتنته حسية، ما دام الجسد نفسه يبدو كأنما يذوب ويلين بتأثيره؛ متعة تجمع بين السحر والفتنة؛ عميقة لا يمكن شرحها، لذة في صميم القلب: تلك هي الأوبرا. ولو أن الناس انتقدوها مائة وألف مرة، لذهب نقدهم أدراج الرياح. لقد أخطأ الرقباء؛ لم يدركوا أن رغبة قد استيقظت في النفوس، ولا بد من إشباعها: كان الجمهور ينشد ما هو عجيب، مؤثر، عاطفي. لم تعد النفوس تريد أن تقتنع، بل تريد أن «تضطرب»[1] هنا كان التغير.

(١) - مدام دي سيفينيه، رسالة في ٨ يناير ١٦٧٤.

ولنسع إلى زيادة التخصيص: إن ما قابلته أوروبا بحماسة، كان الأوبرا الإيطالية. فإيطاليا، التي قدمت مثالاً لها، هي النبع الذي لا ينضب، والذي تنبثق منه الأمواج الرنانة؛ إنها تمد أوروبا بأسرها بالموسيقا والموسيقيين معًا؛ إنها النغم نفسه. إن مآسيها الموسيقية (ميلودراما) تغزو كل الشعوب المجاورة. وباريس تريد الكفاح ولكن الموهبة التي تقدمها ضد إيطاليا، إيطالية؛ وعلى كل حال، فإن نصف فرنسا هو الذي يقاوم، أما النصف الآخر فقد تم غزوه. وتظل هامبورج طويلاً، مخلصة للموسيقا الألمانية، ولكن ينتهي بها الأمر إلى الاستسلام. إن عالم الأوبرا ليس إلا مستعمرة إيطالية.

وما منشأ هذه المعاملة اللطيفة بدورها، وهذه السيادة؟ - إن مؤلفي الأوبرا الإيطاليين، يريدون هم أيضًا أن يظلوا مخلصين للعقل السامي؟ فإنهم ينقذون أنفسهم، باطاعته، من احتقار النقاد؛ وبذا يبذون كبار مؤلفي التراجيديا مقامًا. إن مجهود بنيديتو مارسيلو، وأبوستولوزينو - مورد جلالة الامبراطور - والذي يريد أن يكون بمثابة بيير كورنيل في الأوبرا، يهدف إلى تنظيم قصة الأوبرا، وأن يحذف منها مالا يتفق مع السياق، وأن يحصرها، وأن يصفيها، وأخيرًا أن يقربها من التراجيديا؛ وسينتهي ميتاستاز فيما بعد، إلى تبرير الميلودراما باسم «فن الشعر» الأرسطوطاليس.

لكن بلا جدوى. فلم يستطع مؤلفو الأوبرا المتحمسين أولئك، وقد كانوا ضحايا الوهم الأدبي السائد حولهم، والذي يرفع الملحمة والمأساة إلى أعلى درجات إنتاج الذهن الإنساني - لم يستطيعوا أن يفهموا أن الأدب لم يعد إلا خادمًا متواضعًا، تفرض الموسيقا عليه قوانينها. فالموسيقا تتطلب هنا لحنًا، وهناك ثنائيًا، وهنالك جوقة مرتلين؛ تريد عددًا معينًا من الشطرات، على إيقاع معين، تخصص للصوت الموتفع (تينور) أو للصوت المنخفض (باس)؛ كانت تتحكم في كل شيء، حتى اللغة، التي لا ينبغي أن تقدم إلا اللفظ السهل، والمنسجم. وهي لا تطلب من

الكاتب إلا المرونة والبراعة: فلم تترك له إلا فن المجاراة، فن طاعة الملحن، وقائد الجوقة، والمغنية الأولى (البريمادونا). ولما كانت اللغة الإيطالية، أغنى وأحسن وقعًا، وأكثر انسجامًا، وأوفر تنوعًا من كل لغات أوربا الأخرى؛ فقدت استعادت هنا المكانة التي كانت قد فقدتها، عندما كان الأمر يتعلق بالتعبير عن الأفكار.

الموسيقا الإيطالية، أي فتنة! أي تدفق هارب من القيود! أي غني دافئ! أي غزارة! أي سهولة منتصرة! كانت بما هي عليه من كرم وغنى لا يغيض - تقدم لجمهور لا غنى له عنها ما ليس في الموسيقا الفرنسية، ولا في أي موسيقا في أي بلد: الحمية والحيوية والشخصية المميزة. نعم، الشخصية، البارزة أبدًا، سواء في حيويتها أو في رقتها. لم تنشد توافقًا موسيقيًا رقيقًا، متساويًا، موحدًا، لا يعمل إلا بالتسلسل، حذرًا، منطقيًا: بل كانت تتجاسر وتخاطر، وبجسارتها هذه كانت تثمل النفس. إنهم المعاصرون أيضًا الذين يقررون هذا، بل حتى الفرنسيون. «إن الموسيقيين الفرنسيين ليعتقدون أنهم قد ضاعوا لو خالفوا القواعد أدنى مخالفة؛ إنهم يتملقون، يدغدغون، يحترمون الأذن، ومع ذلك يرتعدون مخافة ألا ينجحوا بعد ما أدوا عليهم بكل ما يمكن من انتظام؛ أما الإيطاليون الذين يفوقنهم جسارة، فيغيرون النغم والمقام فجأة، ويأتون بوقفات مزدوجة ومضاعفة لسبعة مقاييس (مازوره) أو ثمانية على نغمات نعتقد أنها لا تسطيع أن تتحمل أقل رجفة؛ إنهم يطيلون النغمة إطالة فذة، حتى إن غير المعتادين عليها، لا يستطيعون أن يملكوا أنفسهم من الغيظ في بدء الأمر من هذه الجرأة التي يعتقدون في النهاية أنهم لن يوفوها حقها من الإعجاب...» وجماع القول، «إنهم يلقون الذعر بقدر ما يلقون الدهش في ذهن المستمع، الذي يظن أن «الكونشرتو» كله سوف يقع في نشاز مريع، وبذا يستثيرون اهتمامه بالخراب الذي يبدو كأنما يهدد الموسيقا كلها، ثم سرعان ما يطمئنونه بزلات منتظمة، لدرجة أن كل مستمع يدهش لرؤية التوافق

كأنما يبعث في نفس هذا النشاز، ويستمد القسط الأكبر من جماله من ذلك الشذوذ الذي كان يبدو أنه يعمل على دماره . . .[1]»

متعة تفيئها الجرأة، متعة نتوصل إليها على الأقل بتوهمنا أننا نخرق القيود المقدسة، متعة تهم كياننا الجسدي، حيث تختلج أعصابنا اختلاج الكمان تحت القوس: تلك هي المتعة التي قدمها لنا كثير من الملحنين الإيطاليين - الذين حتى أسماؤهم كانت رنانة - والذين «فتنوا أوروبا بأسرها بانتاجهم الرائع»، عندما كان تلامذه سكارلاتي - أشهر أولئك الملحنين - يسألون أستاذهم عن سبب هذا التفضيل أو ذاك أو عن سبب هذه الضحية أو تلك، لم يكن لديه إلا جواب واحد: لأن الإحساس شيء جميل Perchè fa buon sentire.

(١) - راجنيه Reguenet، موازنة بين الإيطاليين والفرنسيين فيما يتعلق بالموسيقا والأوبرا، ١٧٠٢.

الفصل الرابع

العناصر القومية والشعبية والغرزية

لقد حاولنا أن نرى كيف تعمل بعض القوات، التي تعارض، بكيانها نفسه، في ألاتكون أوروبا إلا نقداً، وتحليلاً، إلا منطقًا وعقلاً: استمداد للمستقبل؛ استعداد غامض للانتقام -الذي لم يحن وقته بعد- للحساسية والخيال. لقد نظرنا إلى هذه القوات، كما هي عليه، قابلين، مسجلين مظاهر هذه الحياة الملموسة، في تنوعها المبهم. هل يمكن الآن أن نشرف عليها، وأن نميز، من وجهة نظر أعلى، بعض المبادئ التي تحب عناصر المقاومة هذه أن تتجمع حولها؟

* * *

شعور الفوارق القومية: من يستطيع أن يستأصله؟ إنه يدخل في الموضوع قيما لاتقبل أي نقص؛ إنه يصدر عن أسباب يعرفها العقل، وعن أسباب أخرى لايعرفها العقل.

طريقة واحدة في التفكير، وبالتالي طريقة واحدة في التحرير، تسعى لكي تفرض نفسها على كل البلاد: النظام، الدقة، الحكمة المنظمة، الجمال المتين الذي يكتسب بالصبر الطويل والجهد المكين: هذه حقيقة أولى. لكن أليست الحقيقة الثانية أن كل بلد كان يفسر على طريقته، هذا المبدأ العام، وبذا تظهر فوارق محسوسة، بل قل اختلافات، في هذه الوحدة المرغوبة؟ فمثلاً: قبلت انجلترا الكلاسيكية، من جهة تحت تأثير فرنسا، ومن جهة أخرى لأنها كانت تروم إصلاحًا

داخلياً ينظم قوتها. بيد أن هذا لم يكن أبداً إلا كلاسيكية بريطانية؛ كلاسيكية منفصلة؛ كلاسيكية اصطلاحية[1]. ولنضرب في الحال مثلاً بينا. يعد سويفت من الكلاسيكيين؛ والواقع أنه شارك في ضبط النثر الانجليزي إلى حد كبير؛ وهو يشرح في المدارس، ولاريب في أنه سيشرح فيها على الدوام؛ إنه أوتي تلك المتانة في الملكة، تلك العبقرية التي لاتنكر والتي تجعلنا لانتردد في عده من بين أكبر كتاب شعبه؛ ومع ذلك فكم يبدو كلاسيكياً غريباً في نظر الفرنسي، اليوم، ومن باب أولي في نظر الفرنسي الذي كان يقسم ببوالو! فلنتصفح «قصة البرميل»؛ ولنحاول أن نضع أنفسنا محل قارئ من القارة، بما هو عليه من حالة ذهنية في عام ١٧٠٤؛ ولنتخيل دهشته. فأولا، أي اختلال! هذا الرجل لايعرف أصول التأليف؛ إنه يتبع الفكرة الأولى التي تمر بذهنه، ويحيد عنها، ثم يحيد: كما لو كان يجهل تلك الوسيلة الهامة لفن التحرير التي تسمى التسلسل. إنه لايصغي إلا لهواه؛ واستهلالاته أطول من عروضه وبياناته؛ وليس لديه أي احترام للمنطق القطعي: وذلك يجعله يبدو كما لو كان يسخر منا. «بعدما ألقيت بنفسي في تلك الانحرافات الواسعة، أعود إلى الطريق معتزماً تتبع موضوعي خطوة خطوة حتى نهاية رحلتي، مالم يعرض لذهني مشهد ظريف ...» ماذا تقول في مؤلف يستطرد في مدح استطراد؟ وأي صور خارقة للعادة؟ أي شذوذ! أي جنون في الخيال! «إن الحكمة «ثعلب»، كثيراً ما نطارده بلا جدوى، إذا لم نجبره على الخروج من جحره؛ الحكمة «قطعة من الجبن» تزداد حلاوتها كلما كانت قشرتها سميكة، متينة، مقززة؛ الحكمة «شوكلاته» تزداد لذتها كلما اقتربنا من عمقها. الحكمة «دجاجة» لابد من أن نحتمل صوتها المزعج لأنه يتبعه بيضة؛ الحكمة تشبه «جوزة»، إذا أنت لم تحسن اختيارها كلفتك سنا ولاتأخذ منها إلا دودة ...»

---

(١) - أنظر في هذا الصدد الملاحظات النفاذة للويس كازاميان في «تاريخ الأدب الانجليزي» بقلم أ. لوجوي، ل. كازاميان، ١٩٢٤ ص٦٩٤.

ثم مـاهذا الهـوس في مـهـاجـمـة كـل شيء وتدمـيـر كل شيء؟ إنه يهـاجـم الكاثوليك أولاً، ثـم اللوثريين، وأتبـاع كـالفين، والمتـحـمـسين من كل نوع؛ إننا لانضمن أبداً، أنه بعد ملاطفته لنا، لايعضنا؛ إنه يهتاج، ويستولي عليه الغضب، ويشتم ويسب: إنه أرستوفـان [1] مجنون. ومـا هذه الاستـعارات الدائمة؟! وتلك السخرية؟! إنها لاتنتهي. وهذه الدعـابة القـاسيـة!«لقد رأيت في الأسبوع الماضي جسد امرأة مسلوخة الجلد، ولايمكنك أن تتصور كم كان هذا النوع من العرى في غير صالحها...»

كم من انجليزي، وقد اعـتـرف بقـيـمة القـواعد الكلاسـيكيـة، بل حـاول أن يجاريها، استشعر في صميم قلبه أسفاً على الحرية المفقودة! كم منهم من فكر أن أرسطو ومن بعده هوراس، كان فيهما الكفاية، وأنه لم تكن هناك حاجة إلى التزام الصرامة والصلابة الفرنسية! «كأننا لكي نحصل على عسل شهي قصصنا أجنحة النحل، وأجبرناها على التزام خليتها، أو على عدم الابتعاد عنها... النحل تريد أن تنطلق في الريف، كـمـا تنطلق في البـسـاتين، لكي تـخـتـار بنفـسـهـا الزهور التي تروقها... [2]»

ويزداد الاخـتـلاف بروزاً، ويصبح عنيداً بل شـديداً، حين لايتـعلق الأمـر بالأدب بل بالأخـلاق؛ أو بمعنى آخـر حين يتـعلق الأمـر بالدفـاع عن مـلاذ آمن وأعـمق، عن عـادات متـأصلة، عن كـيان نوعي خـاص. عندمـا نطالع قـصص أو كوميديات زمن كان يقبل، على كل حال، وإلى حد ما، نموذج المؤانسة الفرنسية، فإننا ندهش لشدة رد الفعل. إن فرنسا تمثل فيها كوقحة، قد خلفت للندن أساتذة الرقص، وخدمهـا الفاسـدين، ووصيفاتها الفاسقات، وتجار البدعة، ونساءها

---

(١)- الشاعر الهزلي اليوناني الشهير، وقد صار في الأدب مثالاً للكاتب الذي يهاجم بشدة، ويسخر من نقائص معاصريه. (المترجمان)

(٢) - وليم تمبل، عن الشعر، في «متنوعات»، ١٦٩٢- ترجمة فرنسيـة، أوترخت، ١٦٩٣، ١٦٩٤. أمستردام، ١٧٠٨.

المغامرات، ونبلاءها المزهوين الذين يستعرضون أساليبهم الجميلة بحماقة، والذين ليسوا إلا جبناء خداعين. إن الانجليز يعرضون مقابل هذا، الانجليزي الفاضل؛ البسيط، الصارم: وهذه الصرامة نفسها تعرض كفضيلة. من الأفضل أن يحتفظ المرء بصراحة كلامه، وخشونة سلوكه وقوته البكر، بدلاً من أن يستسلم للفساد تحت تأثير قوة أجنبية، تروم أن تجعل منه رجلاً آليًا، عديم الرأي، منافقًا، «جميلاً». هكذا يظهر الفرنسيون والفرنسيات في كثير من المسرحيات، في دور المنفرّين: أشخاص سخفاء، مهمتهم أولاً إثارة مرح الجمهور، ثم تبيان قيمة المزايا، المزايا الانجليزية المتينة.

وتشكو إيطاليا من عبوديتها لفرنسا؛ والواقع أنها أصبحت أمة لها، إلى حد ما. ولكن هنا أيضًا، فلنحذر التوكيدات المطلقة. فلا يقتصر الأمر على أن بعض شعرائها يحتفظون بفكرة الوحدة الرومانية قائمة حية، فكرة أن شعب «الغال» ليس على كل حال إلا طارئًا متأخراً، والأمل في عودة عهد يسترد فيه السلطان الحقيقي حقوقه فحسب؛ بل مادمنا قد ذكرنا الكلاسيكية، فإن علماء إيطاليا يطالبون بحقوق كلاسيكية إيطالية، سابقة في تاريخها على المذاهب الفرنسية، هي وحدها الشرعية، الصحيحة، النقية. إنهم يواصلون «النهضة» بعناد، نهضتهم هم: من يستطيع أن ينكر فضلهم فيها؟ بينما يسعى الشعراء إلى تقليد كورنيل وراسين، معلنين عزمهم صراحة على النجاح أكثر مما نجحا، نراهم يرددون أنهم يرغبون في البقاء مخلصين لروح، ولنموذج التراجيدية الاغريقية: الوحيدة التي يحسب لها حساب، والتي آلت إليهم ملكيتها بحق الاكتشاف والاستثمار الأول. وبعد، فماذا فعلت فرنسا؟ لقد شوهدت، وأفسدت تلك النماذج النبيلة. لقد خنثت التراجيديا العتيقة، جعلتها أنيقة، وأعطت للتعبير عن الحب مكانة زائدة عن الحد. إن الأستاذ العظيم لايزال هو سوفوكليس: إليه ينبغي أن نعود.

* * *

وبدأت الشعوب تتحارب أيضاً، لاسترداد حق الأسبقية في الزمن. وعندئذ حاولت جميعها النزول إلى أعماق ماضيها، لاستحضار وثائق العراقة. كلها تملك أقدم لغة، أقدم شعر، أقدم نثر، أقدم حضارة. وأخذ كل شعب يؤكد فخوراً، أن جيرانه ليسوا إلا مدعين، محدثي نعمة.

ولم يبذل أي بلد جهداً شجاعاً قدر مابذلت ألمانيا في هذا السبيل. لم تكن إلا ترابًا، كانت مسحوقة، ذليلة. كانت تعاني كل أنواع النفوذ، وليس لها أي نفوذ، ولذا لم تعد تبدو قوة معنوية.

ولكنها دافعت عن حيويتها الغامضة؛ ولتوطيد كيانها، كانت تجادل في كل الجبهات. الوحدة؟ سوف تستعيدها بسهولة بإصلاح داخلي، كما قال بوفندورف، كما قال ليبنتز- القانون؟ ألم يكن هناك قانون جرماني أقدم وأسمى من القانون الروماني، ومن القانون الاكليركي؟ القانون الروماني، القانون الاكليركي، ذلك كل ما نعلّمه في الجامعات؛ أي خطأ كبير؛ لقد حان الوقت لكي نرد إلى القانون الأهلي القومي مكانته -اللغة؟ لكن اللغة الألمانية كانت في قدم وفي جمال اللاتينية، واليونانية، وأية لغة كانت: إن اللغة الألمانية قديمة قدم الدنيا. - الأدب؟ إن الأدب الألماني لم يكن يقل عن أي أدب آخر. ذلك ما أثبته في عام ١٦٨٢، العالم مورهوفيوس. كم بذل من جهد، كم جمع من براهين! كم كنت تشعر، في كل صفحة من صفحات كتابه الدسم، الضخم، بحب الوطن الألماني! كان يقول إن ألمانيا كان لها شعراء في ذروة المجد، نسيناهم ظلماً، مثل هانزتزاخ، وشعراء أقدم منه، يطالب بهم أولاوس رودنك لاسكندناوة بدون وجه حق.. وكان لفرط حماسته، يستدل استدلالاً غريبًا: كان لألمانيا شعراء لم يبق لهم أي أثر، ولكن هذا لايعني أنهم لم يكن لهم وجود: بل على النقيض، لابد من أنه كان لهم وجود، مادام الشعر في كل الشعوب هو أول صورة للأدب؛ وبالتالي فإن لهم وجوداً، سواء جهلناهم أو لم نقف على وجودهم...

إن هذه اللغة الألمانية التي تملك قوة اللغة الاغريقية، وعظمة اللغة الرومانية، وجمال اللغة الفرنسية، وفتنة الايطالية، وغنى الانجليزية، ورفعة الفلمنكية؛ إن هذه اللغة ستعطي- كما يرجو محاموها المتحمسون- روائع أدبية سوف تجبر أوروبا الغيري على الاعتراف بمزيتها. أي صيحة انتصار! حين ظهر في عام ١٦٨٩ «أرمنيوس وتوزنلدا» تأليف كاسبرز فون لوهنشين. أخيراً ظهر مؤلف عظيم، وفيّ للوطن Patria amantissimus ، قد بحث ووجد موضوعاً جديراً بالشعب الجرماني؛ إنه مجّد ذلك البطل أرمنيوس الذي قاوم روما، لا في بدايتها الضعيفة، بل إبان عنفوان قوتها؛ إنه يرد لألمانيا إكليل الغار. صيحات الغبطة، ودوي النصر...

نداء الحنين Sehnsucht، أي صفة للنفسية الألمانية الأبدية أشهر منه؟ إنه لايفتقد في زمن تزمع فيه أنوار المعرفة أن تبدد كل ظلمات النفس، وأن تضيء ما وراء الشعور. كان كريستيان وايز، الشاعر، عالم التربية، الذي توخى في كل تأليفة البحث المؤثر عما هو بسيط، وطبيعي -يقدم كل سنة مسرحيات تمثل في المدرسة التي يديرها: ومن هنا، متعة الطلاب الذين أصبحوا ممثلين؛ وزهو الآباء. وقد ظهر عذاب نفس غير قانعة، في إحدى هذه المسرحيات «النفس المعذبة» Die unvergnu¨gte Seele، التي مثلت في عام ١٦٨٨. إن فرتيمنوس، الكريم المحتد، الطيب، الذي كان المنطق يقتضي أن يكون سعيداً في الحياة، كان تعساً شقياً: يشعر بأنه غير قادر على التمتع بالمال الذي يملكه، ولايستطيع أن يقول ماذا ينقصه. فيحاول أن يملأ فراغ نفسه: بالنساء؛ بالصحبة المرحة من الندماء؛ بالألقاب؛ بمعاشرة كبار الفنانين: لكن كل ذلك لم يجده؛ فيقع فريسة اليأس، يوشك أن يموت؛ ألا راحة إذن إلا في الموت؟- وعند هذه النقطة، تنقلب المسرحية إلى موعظة أخلاقية، فتفقد فائدتها السيكولوجية. ويمر فلاحان، «القانع والمطمئن» Contento et Quiete ؛ وقد عرفا صروف الدهر، التي كانت كبيرة، ولكن ذلك لم يقلل من تذوقهما للحياة، إذ لم يطلبا منها إلا ما كان في وسعها أن تعطيه؛ فيعطيان درساً لفرتيمنوس، الذي يصغي إليهما، ويتوب.

إن النفس غير القانعة لازالت خجولاً، متواضعة؛ تعوزها الكبرياء، فهي لاتعد نفسها ذات امتياز بل تعتقد أنها قابلة للشفاد. ولكنا نعلم أن فرتمنوس سيكون له خلفاء، سيذهبون في ضجرهم إلى أقصى درجاته، وسيستشهدون بالدنيا وبالله ذاته على تعاستهم، وأن «القانع» و«المطمئن» لن يسعفاهم عندما يعتزمون مفارقة هذه الدنيا التي لاتليق بهم.

لم يدر بخلد نقاد ذلك الوقت، الذين أعجبوا «بأرمنيوس وتوزمنيلدا»، أو بأشعار كرستيان ويز العديدة- أن ألمانيا كانت قد أنتجت رواية من أروع الروايات، ترجم فيها لأول مرة عن نفس جماعية: الرجل البريء، le Simplicissimus لجر يملسهوزن. لعلها تشبه روايات الأشقياء، بالمغامرات العديدة التي يخوضها البطل: لكن فيها لذة محلية عميقة كل العمق، حتى إنها تحدّت المترجمين، ولازالت تتحداهم إلى الآن في بعض البلاد كفرنسا. موضوعها ذكريات حرب الثلاثين، إتلاف الحصاد، نهب القرى، التنكيل بالفلاحين، النار في كل مكان، الدماء في كل مكان. موضوعها العقل البريء السليم، الملقى به في وسط مدينة فاسدة، تغريه وتغويه، ولكنه ينتهي مع ذلك بالغلبة عليها. موضوعها الإيمان، الذي يخترق الأرض كأنه غابة من التماثيل الرمزية، الذي يعي أن يعيش وسط وفرة من الأوهام الوقتية، تواقًا على الدوام إلى الحقائق الأبدية؛ موضوعها المسيحي الذي يكسب السماء بمشقة، بمروره بألف امتحان، بالجهل، بالخطيئة، والتوبة، والأمل الذي يسبق الغبطة الأبدية: هذه الموضوعات تنمو، وتتعانق، وتذوب وتستعيد نغمتها الأصلية، وتتسلسل في تدفق ونضرة ليس لها مثيل، مترنمة بفروسية شعب يعتقد جيرانه أن موته وشيك، بينما يظهر، على النقيض، إرادة لاتلين في قوة أصلية.

ولم يكن الناس قد اخترعوا، عندئذ، نظرية تفوق جنس على جنس آخر. ولم يكونوا قد حللوا بعد، مضمون هذه الكلمة: الوطن. بل حتى لم يكونوا قد كونوا فكرة واضحة عما يمكن أن يكون الشعب. ولم يكونوا قد أضافوا بعد، إلى المشاعر التي يولدها في النفوس نداء الأرض وقباب الأجراس، عمل العقل الذي

يفسرها ويبررها. ولكن هذه المشاعر كانت حية في النفوس؛ وبمجرد ما كان إيطالي من إيطاليا الممزقة، أو بولندي من بولندة التي تحارب نفسها بنفسها، أو إسباني من إسبانيا الغافية، يعتقد أن أحداً قد مس مزية بلده أو حتى مجده الخارجي، كان يبتدئ الاحتجاج والنزاع؛ كان العقل الشامل المسوى يفقد حقوقه أمام الخصائص الأهلية.

* * *

وكنت تسمع أحياناً أغنية، لاهي قصيدة مؤلفة بدراية، ولاهي بغزلية ولاهجائية، بل أغنية شبه بربرية: تذكر أن أحد ملوك اسكندناوة في القرون الوسطى -رينير لادبروج- وقد نهشته أفعى نهشة مميتة، ترنم بأشعار باللغة الجرمانية القديمة، قبيل سريان السم إلى قلبه (1)؛ وكانت هذه الأشعار تستطيع، بما فيها من غرابة، أن تدهش أو تفتن معاصري وليمَ أورانج ولويس الرابع عشر. وكانت هناك أيضاً أغان شعبية ترد من أقصى الأصقاع، من بلاد أولئك السكان الذين لاشبيه لهم، سكان القطب، اللابلانديين. أغنية صحراء الجليد:

أزمة الضمير الأوربي:

O soleil levant, dont le joyeux rayon

Invite ma beauté aux plaisirs champêtres,

Dissipe la brume, éclaircis le ciel,

Et amène devant moi ma chére Orra.

Ah! si j étais sûr de la revoir, ma bien-aimée,

Je grimperais jusqu' à la plus haute branche ce sapin

(1)- وليم تمبل مقال عن «الفضيلة الباسلة» في «المتنوعات»، القسم الثاني، لندن ١٦٩٠، ص٢٣٤-٢٣٥ .W.Temple, Essay upon Heroic Virtue

Là - haut, dans cet air qui doucement Frissonne,

Et tout à l'entour, je regarderais sans trêve...[1]

أو أغنية الرنة :

Hâte-toi, mon renne, et accomplissons d'un pas agile

Notre voyage d'amour à travers cette lande désolée.

Hâte- toi, mon renne, tu es encore trop lent,

Un amour impétueux exige la vitesse de L' éclir...[2]

ولم يكن هذا شيئًا مذكوراً، وسط الأشعار العديدة المنظومة وفقًا لأحسن القواعد؛ ولقد كانت تقل عن ذلك، لو لم يدر بخلد أديسون أن يهتم بهذه الأشعار الفجة، وأن يعترف بإعجابه بها. أنعم بأغنية Chevy Chace القديمة، وبالقصيدة الرقيقة «طفلان في الغابة»: لقد كانتا بريئتين وجميلتين؛ وكان يسره أن يسمع، وهو يخترق انجلترا، تلك الأغاني التي يتوارثها الابن عن الأب، والتي تعد فتنة البسطاء [3]. صحيح أن أديسون يدخل هوميروس وفرجيل، تبريراً لذوقه، ليبين أن في تلك الأشعار ما في الأوديسا والأنابيد من مزايا. ولكنه لحسن الحظ، لم يصر على هذا الاثبات العلمي، بل عاد إلى مدح الطبيعي، الفطري، التعبير الساذج للفلاح يعود من حرثه، مردداً أغنية- تعبير الروح الشعبية. «هذه الأغنية هي صورة بسيطة للطبيعة، مجردة عن كل عوامل الفن وزخرفه ... ؛ وهي لاتروقنا إلا لعين هذا السبب: إنها صورة من الطبيعة ... »

---

(١) - أيتها الشمس المشرقة التي تدعو أشعتها المرحة - حسنائي إلى المتع البرية - اقشعي الضباب، وأضيء السماء - وإلى بالعزيزة أورا.

آه. .. لو كنت واثقًا برؤية حبيبتي - مرة آخرى - لتسلقت أعلى غصن لشجرة الصنوبر هذه - عاليًا هنالك، حيث يخفق النسيم الرقيق - وتطلعت فيما حولي على الدوام.

(٢)- أسرعي يارنتي، ولنتم بخطوة سريعة- رحلة غرامنا خلال هذه البيداء الموحشة- أسرعي يا رنتي، إنك لازلت شديدة البطء- إن الحب الجارف يتطلب سرعة البرق... (سبكتاتور رقم ٣٦٦، ٤٠٦).

(٣)- سبكتاتور، رقم ٧٠، ٧٤، ٨٥.

وفي قطب آخر للحياة، كانت تسود أيضًا، أو تسري على الأقل، فكرة أن السلطة الشعبية هي وحدها الشرعية، وأن السلطة الملكية لاتقوم إلا بتفويض منها. وحتى في مملكة فرنسا، كان هناك قوم يذكرّون بأن شعوب «الفرنجة» Les Francs كانت غزت شعوب الغال، وأن الفرنجة كانوا يعقدون اجتماعاتهم في ميدان مارس، وقد اعتادوا أن يعينوا لهم رؤساء؛ وهكذا لم تعد السلطة تستند على بعض امتياز إلهي، أو تقليد روماني، بل على مبايعة من جانب كتلة المحاربين لسيد يختارونه بحرية. فالشعب، كالديمقراطية، لم يكن له بعد وجود؛ ولكن فكرة السلطة الشعبية كانت تتكشف، مليئة بالمستقبل.

* * *

الغريزة: إنها لم تكن قد اكتسبت بعد عطف الناس، مادامت تنفر المسيحيين وتقلقهم، ومادام الفلاسفة لايزالون يترددون في حسبان الطبيعة خيّرة تامة الطيبة، مفضلين جذبها نحو العقل. ولكنها على الأقل لم تكن غائبة تمامًا عن المشاغل الجارية. حينا يشهّر طبيب بالجامعة ومبادئها، ويمتدح طريقة علاج المرء لنفسه بنفسه، وحفظ الصحة بالغريزة. وحينا، يتكلم رجل مبتكر عن الالهام الشعري، فينسب مصدره إلى نوع من الجنون furor، إلى جنون فائق، إلى الغريزة. وفي هذا الصدد، كان هناك عامل مضايق، يتملص من الجهود الفكرية، والقيود الاختيارية؛ عامل لقى العقليون عناء كبيرًا ليخضعوه للطاعة: الجليل الجمال Le sublime. لما قال الناس إنه ليس إلا الحقيقي والجديد مجتمعين في فكرة كبيرة، ومشروحين بأناقة ودقة؛ وإنه بغير الحقيقي لايمكن أن يوجد جمال جليل، وبالتالي أي جليل: كانوا يشعرون أن الدعوى لم تنته بعد. لذلك كان يدفعهم ولع لايقنع إلى سؤال لونجين [1]، الذي لم يخش أن يعرّف هذه الكلمة الصعبة، والذي كانت في صفّه هيبة الأزمان القديمة. الجليل الجمال - أليس بالرغم من كل شيء، قيمة تخرج إلى حد ما عن رقابة العقل؟

(١)- لونجين: Longin البلاغة اليوناني مؤلف «بحث في الجليل الجمال» Traité du sublime الذي ترجمه بوالو (٢١٣-٢٧٣). [المترجمان]

ماذا كانت تلك المناقشة حول أرواح الحيوان، التي استمرت منذ ديكارت، والتي لم تكن قد أوشكت على الانتهاء، وقد دعت إلى المبارزة المفتوحة الباب دائمًا، أبطالاً من كل نوع، - ماذا كانت، إن لم تكن احتجاجًا في صالح الغريزة، وإن كان غامضًا؟ لما جعل الناس يدافعون، فلانًا عن جواده العزيز، وعلانًا عن كلبه الأليف، لم ينسبوا للحيوان روحًا شبيهة بروح الانسان؛ لم يطالبوا لها إلا بإدراك جزئي: ولكنه كان واضحًا أنها تحب، وتتعذب، وأنها لم تكن آلات، مادامت الآلات لاصلة لها بالشعور: قال لافونتين منذ ذلك اليوم، في خطابه إلى مدام لاسابليير إنه ينسب إلى الحيوان:

Non point une raison suivant notre manière,

Mais beaucoup plus aussi qu'un aveugle ressort:

Je subtiliserais un morceau de matière

Que l'on ne pourrait plus concevoir sans effort,

Quintescence d'atome, extrait de la lumière,

Je ne sais quoi plus vif et plus mobile encore

Que la flamme...

Je rendrais mon ouvrage

Capable de sentir, juger, rien davantage,

Et juger imparfaitement...[1]

---

(١) - لاعقلاً كالذي نعهده- بل شيئًا أكثر من محرك أعمى:

لو أني بخرت قطعة من مادة- حتى تصبح شيئًا لانستطيع تصوره بلاجهد، جوهر ذرة، أو خلاصة ضوء- أو شيئًا أكثر حيوية وحركة- من اللهب ... لجعلت عملي- قادرًا على الحس، والحكم، ولاشيء أكثر، لكن حكمًا غير كامل...

كان «ماجالوتي» عالم الطبيعة الفلورنسي، وروح مجمع «سيمنتو» أكثر جسارة، في استشهاده ضد ديكارت بحبنا للحيوان، «الحب البالغ، الحنون، والذي كثيراً ما يبدو في غاية الجنون والغباء، الذي نكنه لكلب، أو هر، أو جواد، أو ببغاء، أو عصفور.» ولقد قال «دانتي»:

Amor, cha` nullo amato amar perdonna...

وقال «لوتاس» Le Tasse:

amiamo or quando

Esser si puote riamti amando,

«نحن لانحب إلا إذا كان محتملاً أن نحب». وإذن فمادمنا نحب الحيوان، فلابد أنه يحبنا؛ وإذن فهو لايخلو من الإحساس ... - بتلك الأصوات المتشعبة، وفي تلك الظروف المختلفة، كان يظهر فعل ذلك الجزء من الوجدان الذي يتوق إلى الإحساس: فقاعات تصاعد من أعماق المستنقعات، وكثيراً ما تفنى على أديم المياه.

أيتها العرائس السعيدة، أيها الرعاة السعداء، الذين يعيشون حياة وادعة على مقربة من العيون، وفي عزلة الغابات، كم كان يحسدكم الناس في هذه الأوقات المجدبة! ويا أهل الأندلس القديم البسطاء، يا من كنتم تستغنون بمثل تلك السهولة -في أحلامكم اللذيذة- عما في المدينة من مغالاة في الرقة والترف؛ كم كانوا يمتدحون سعادتكم، التي يجهلها أولئك الذين كفوا عن اتباع قوانين الطبيعة! «أوه ... ما أبعد هذه الأخلاق عن الأخلاق الباطلة الطموحة للشعوب التي نظنها أوفر الشعوب حكمة! لقد بلغنا من الفساد حداً لانكاد معه نتصور أن هذه البساطة يمكن أن تكون حقيقية. نحن ننظر إلى أخلاق هذا الشعب كأنها أسطورة جميلة، ولاريب أن أخلاقنا تتراءى له كحلم مرعب!»- أيها الهمجي السعيد، بأي لهجة

(١) - Hurons: قبيلة من مواطني شمال أمريكا ...[المترجمان]

ثورية أعلن الناس أنك ينبغي أن تكون مثالاً للحياة الكاملة، وأن الأوربي ينبغي أن يجعل من نفسه هيرونيا [١]! لقد أعلن أذكى الناس إفلاس العقل:

Source intarissable d'erreurs,

Poison qui corromps la droiture

des sentiments de la nature,

Et la vérité de nos coeurs,

Feu follet, qui brilles pour nuire,

Charme des mortels insensés,

Esprit, je viens ici détruire

Les autels que l'on t'a dressés…[٢]

Esprit! tu se´duis, on t'admire,

Mais rarement on t'aimera,

Ce qui Sûrement touchera

C'est ce que le coeur nous fait dire;

C'est ce Langage de nos cœurs

Qui saisit l'âme et qui l'agite,

Et de faire couler nos pleurs

Tu n'auras jamais le mérite…[٣]

---

(١)- شوليو chaulieu قصيدة ضد العقل، ١٧٠٨ .

(٢)- يا منبع الضلال الذي لايغيض- أيها السم الذي يفسد استقامة المشاعر الطبيعية، وحقيقة القلوب؛- أيها اللهب الشيطاني الذي يلمع ليغوي ويؤذي، - يافتنة الغافلين، - أيها العقل، لقد جئت لأدمر الهياكل- التي أقيمت لك ...

(٣)- أيها العقل! إنك تفتن وتعجب -ولكن يندر أن تحب؛- إن الذي يؤثر بكل تأكيد، هو ما يمليه علينا القلب؛- إن لغة القلوب هي التي تملك النفس؛ ولن يكون لك أبداً- فضل إسالة الدموع ...

أمـا الناس الأقل إحـسـاسًا، ولكنهـم أحـذق في تنسم الريح، فـقـد أعلنوا مساوئ العقل:

C'est elle qui nous fait accroire

Que tout céde à notre pouvoir,

Qui nourrit notre folle gloire

De l'ivresse d'un faux savoir

Qui par cent nouveaux stratagèmes

Nous masquant sans cesse à nous-mêmes

Parmi les vices nous endort:

Du Furieux fait un Achille,

Du Fourbe un Politique habile,

Et de l'athée un Esprit fort.

Mais vous, mortels, qui dans le monde

Croyant tenir les premiers rangs

Plaignez l'ignorance profonde

De tant de peuples différents,[1]

---

(١)- جان باتست روسو Jean-Baptiste Rousseau القصيدة التاسعة، إلى المركيز دي لافار.

هو الذي يجعلنا نظن- أن كل شيء يذعن لقدرتنا- هو الذي يغذي عظمتنا الجنونية، بنشوة علم باطل- هو الذي يعمينا عن حقيقة أنفسنا- بمائة حيلة حديثة- فيستبقينا في أحضان الرذيلة- يخلق من كل ثائر «أشيلا»- ومن الخداع سياسيًا حاذقًا- ومن الكافر «عقلاً قويًا».

أما أنتم يا من تظنون -أنكم في مقدمة الصفوف في الدنيا- فتشفقون على الجهل العميق، لكل تلك الشعوب- يا من تخلطون بين الحيوان -

Qui confondez avec la brute

Ce Huron caché sous sa hutte

Au seul instinct presque réduit:

Parlez: quel est le moins barbare

D'une raison qui vous égare

Ou d'un instinct qui le conduit?(١)

منذئذ، بدأ يظهر تعبير مؤثر لهذا الشعور، لهذه الحاجة إلى اطراح كل الخدع المتكتلة: عبء القرون الذي يثقل كاهلنا، والنفاق الذي ندعوه أخلاقًا دون أن نصدق بها. كان هناك ذات مرة إنجليزي يدعى «توماس إنكل»، ثالث أبناء أحد مواطني لندن الأثرياء؛ أبحر إلى بلاد الهند الشرقية للاتجار. وفي أثناء رسو السفينة في أحد الثغور، اغتال الهنود فريقًا من جماعته؛ وهرب واختبأ، واكتشفته هندية، فتية جميلة، اسمها «باريكو». ولقد أحبت ذلك الأجنبي، ذلك التعس؛ ووهبته نفسها جسمًا وروحًا؛ وتولت غذاءه واستبقته؛ فوعدها بأن يصطحبها إلى انجلترا إذا تهيأت الفرصة. وذات يوم لمحا شراع سفينة فأشارا إليها: واقتربت السفينة، ونزل بعض البحارة ثم اقتادوهما إليها: فكانت السلامة. ولكن على طول الطريق، جعل توماس إنكل يحلم. ماذا سيفعل بهذه المرأة؟ لقد أضاع وقته، وماله: اعتزم أن يبيعها كأمة في أقرب ميناء. بكت الهندية وأنّت، وحاولت أن تمس شغاف قلب عشيقها؛ ولما كانت حاملاً فقد باعها توماس إنكل بثمن غال. هكذا يتصرف المتمدنون(٢)...

وذات يوم صادف فونتنل الغريزة في الطريق؛ فأخذه الدهش، بل تكدر لهذا الظهور. «أعني بكلمة غريزة شيئًا مضافًا إلى عقلي؛ يولد مفعولاً مفيداً لحفظ

---

(١) - وذلك الهيروني اللائذ بالكوخ - الذي يعيش على الفطرة - فلتتكلموا: أيهما أقل بربرية - العقل الذي يضلكم - أم الغريزة التي تقوده؟

(٢) - سبكتاتور، رقم ١١.

كياني؛ شيئًا أفعله دون أن أعرف لماذا، ومع ذلك فهو يفيدني كل الفائدة: وفي ذلك كل أعجوبة الغريزة ...» ولما كان لايمكن أن يقبل مثل هذا الخروج على المنطق، ومادمنا قد اتفقنا على أن «العجيب» ليس له أي حق في الوجود، فإنه يتوسل بأصعب رياضة ذهنية، وبأحذق البراهين ليثبت أن الغريزة ليست إلا عقلاً يتردد، عقلاً لم ينتخب بعد، بشكل واع بصير، وسيلة من وسائل العمل المختلفة التي تعرض له: ومنذئذ يعد فونتنل نفسه مطمئنًا.

ويخيل إلينا أننا لازلنا بمبعدة عن «الغريزة الآلهية» التي سيمجدها جان جاك روسو. لكن أقل مما نظن، إذا نحن -بدلاً من أن نبحث عند الذين لايستطيعون العيش دون ترف الحياة- سألنا أصحاب الطبع الخشن، وإذا وجدنا لدى سويسري يدعى بيات دي مورا، تصويراً أوليًا لمقال روسو الشهير:

«منذ مافقد الإنسان شغله وكرامته، فقد أيضًا معرفة ما يخصه، وفي تلك البلبلة التي نعيش فيها، لانعرف ماهية كرامتنا ومشاغلنا. ولما كان النظام وحده هو القادر على أن يرد لنا هذه المعرفة، فظني أن هناك وسيلة واحدة للبقاء في النظام: هي اتباع الغريزة التي تكمن فينا. الغريزة الإلهية التي ربما تكون كل ما تبقى لنا من حالة الإنسان البدائية، والتي تركت لنا لإعادتنا إلى هذه الحالة. كل المخلوقات الحية التي نعرفها لها غريزة لاتخدعها أبداً. فهل الإنسان، الذي يفوق في كماله كل هذه المخلوقات، ليس له غريزة، بحيث تشمل كل خلقه، وبحيث يكون فيها من الوثوق بقدر ما فيها من الشمول؟ لاشك في أن له غريزة، وهذه الغريزة هي صوت ضميره، حيث يتصل الإله بنا ويحدثنا ...[1]»

«الغريزة الإلهية التي ربما تكون كل ما تبقى لنا من حالة الإنسان البدائية، والتي تركت لنا لاعادتنا إلى هذه الحالة»: هل من الممكن أن نجلجل بنداء الرجل البدائي جلجلة أوضح وأعلى من هذه؟»

---

(١)- رسالة عن الرحلات، كتبت فيما بين ١٦٩٨، ١٧٠٠. انظر إلى طبعة ش، جوذ، ١٩٣٣ ص٢٨٨.

الفصل الخامس

سيكولوجية القلق، استطيقا الشعور، ميتافيزيقا الجوهر، والعلم الجديد

سيكلوجية القلق

لقد أمسك لوك عن الألعاب الكبرى، كما كان متواضعًا، فقد ترك البحث عن الحقائق السامية، وقنع بالحقائق النسبية، التي يمكن أن تلمسها أيادينا الضعيفة. وإن من يطلب منه التحليق العالي في سماء الخيال، لمخطئ في العنوان؛ فإن لوك الحكيم لن يدله إلا على طريق أمين سالم نحو يقين متواضع، طريق ممهد، خال من النزوات.

ومع ذلك، فأي نتائج مستقبلية، في توكيده هذا: إن الإحساس هو العمل الأولى للنفس! لأن هذا التوكيد - إذا فكرنا فيه جيداً - يثير انقلاباً في القيم التدرجية التي كانت تبدو حتى ذلك الوقت أثبت القيم القيم الموروثة. فالأفكار النبيلة، أجمل الأفكار وأنقاها؛ والمبادئ الأخلاقية، ونشاط النفس، كل هذا منشؤه الإحساس. والعقل الذي يؤثر على الإحساس نفسه، ليس مع ذلك إلا عاملاً، عاملاً معاونًا: فلا حياة عقلية بلا حياة عاطفية تسيطر عليها. إن التابع يصبح سيداً؛ إنه يستقر، لقد فاز بحق الرشد وحق الأصالة؛ وإن شهاداته لمسجلة في «المقال عن الإدراك الإنساني».

إنه ليس جوهر النفس - ولكن جوهر النفس يستحيل إدراكه؛ والشيء المحقق أن هذا الامتياز لا يمكن نسبته، بأي حال، إلى الفكر. لو كانت النفس في

جوهرها فكراً، لما كنا نراها تمر بحالات مختلفة (كما نراها فعلاً)، منذ الانتباه وما يصحبه من مجهود كبير إلى حالة توشك فيها على الفناء. إن الفكر يختفي اختفاء تامًا في أثناء النوم؛ وهو حتى عند الرجل اليقظان، يمر بلحظات من الضعف والغموض تقترب كثيراً من العدم؛ وهذا الاختفاء، هذا التغير، هذا الإقلال، ليس من خصائص الجوهر، بل من خصائص الفعل، الذي يحتمل الانقطاع والإهمال.

بل أكثر من ذلك: إن سيكولوجية الرغبة والقلق لنتيجة لهذا الترتيب الجديد للقيم.

واعجباه! هل كانت نفس «رجل العاطفة» من إعداد لوك؟ وسانت برو؟ وفرتر؟ ورينيه؟[1] - إنهم جميعًا ليسوا من نسله المباشر؛ ولكن، في مختلف الأسباب التي تحول عقلية الأجيال المتتابعة، وفي تطور حالة نفسانية ستنتهي بأن تطلب من القلب إشباع رغبات لم يحققها لها العقل، - فلنحسب، فلنحسب بلا تردد فلسفة لوك. هاك ما قالته هذه الفلسفة قبل أن ينتهي القرن السابع عشر:

«إن القلق الذي يستشعره المرء في دخيلته، لغياب شيء قد يهيئ له متعة إذا كان موجوداً، هو ما نسميه «رغبة»، وهذه الرغبة تضعف أو تشتد، بحسب ما يكون عليه قلقه من ضعف أو شدة. ولعله لا يخلو من فائدة أن نلاحظ ملاحظة عابرة، أن القلق هو المحرك الأساسي، إن لم يكن الوحيد، الذي يثير اجتهاد ونشاط الناس...[2]»

Uneasiness: تلك هي كلمة النص الإنجليزي، ولقد توقف عندها المترجم، بيير كوست، لأنه لم يجب مرادفًا لها في الفرنسية؛ فترجمها بكلمة

(١) - سانت برو Saint - Preux بطل رواية «هيلويز الجديدة» أو جوليا Julie تأليف چان چاك روسو؛ وفرتر Werther بطل رواية جوته «فرتر»؛ ورينيه René بطل رواية شاتو برياند (رينيه).
ويمثل فرتر ورينيه، الرجل الذي يعيش في قلق وعذاب نفس، بسبب قلبه المريض، الذي يشمئز من الحياة المادية الملموسة، ويبتغي أن يتخيل في أفق لا متناه. [المترجمان].

(٢) - مقال عن الإدراك الإنساني، ١٦٩٠، الكتاب الثاني، الفصل العشرون.

«قلق» inquiétude، لعدم وجود ما يفضلها، وكتبها بأحرف مائلة خاصة، ليبين أنها تتضمن معنى خاصاً جديداً. وسيصادفها مراراً، لأن لوك يصر عليها:

«كل من يتأمل في نفسه، سرعان ما يجد أن الرغبة حالة من القلق، لأنه من ذا الذي لم يشعر في حالة الرغبة بما قاله الحكيم عن الرجاء - الذي لا يفترق كثيراً عن الرغبة - والذي إذا ماطل يمرض القلب (أمثال، الإصحاح الثالث عشر، ١٢)[1]؛ وذلك بصورة متناسبة مع شدة الرغبة، التي تصل بالقلق في بعض الأحيان إلى الدرجة التي جعلت راحيل[2] تصيح: هبني بنين، هبني ما أريد، وإلا أمت؟[3]».

ليس وجود شيء معين هو الذي يدفعنا إلى العمل، بل عدم وجوده. إن أفعالنا رهن بإرادتنا، ومحرك إرادتنا هو القلق. ونحن، بدون القلق، نقع في حالة جمود وخمود: فعليه تتوقف آمالنا، ومخاوفنا، وأفراحنا، وأحزاننا؛ عليه تتوقف عواطفنا؛ عليه تتوقف حياتنا. وسيعود أشياع لوك إلى هذا الموضوع، حتى يصلوا به إلى أقصى سعته. سيعلن كوندياك - في شهادته لأستاذه (وعنده أنه بين أرسطو ولوك لا توجد فلسفة جديرة بهذا الاسم)، أنه لا يزال علينا، بعد لوك، أن نثبت أن القلق هو المبدأ الأول الذي تنشأ عنه عادات اللمس، والرؤية، والسمع، والحس، والتذوق، والمقارنة، والتقدير، والتفكير: كالرغبة، والحب، والكره، والخوف، والأمل، والإرادة؛ وأن القلق يولد كل عادات نفسنا وجسدنا. وسيمجد الرغبة، ويعرف الضجر، عذاب النفس. وسيعزّز هلفسيوس قول كوندياك، مصراً على قوة العواطف، وعلى الألم الذي يخلقه الضجر، مبيناً أن العاطفيين يفوقون المتعلقين، وأننا نصبح أغبياء بمجرد ما نقلع عن العاطفة. - لقد بحث الناس عن

(١) - «الرجاء المماطل يمرض القلب والشهوة المتممة شجرة حيوة» (العهد القديم). [المترجمان].

(٢) - «فلما رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب غارت راحيل من أختها وقالت ليعقوب هب لي بنين وإلا فأنا أموت». (تكوين، الإصحاح الثلاثون). [المترجمان].

(٣) - مقال عن الإدراك الإنساني، الكتاب الثاني، الفصل ٢١، ترجمة بيير كوست.

مختلف الوسائل لتأويل النفسية الرومانتيكية، دون أن يدور بخلدهم أن يلتقوا نحو لوك: إن لوك قد توصل إلى الانسيكلوبيديا، إن لوك خلق علماء الأفكار: هذا كثير. ولكنه أيضاً الرجل الذي لاحظ في النفس القلق الذي يعذبنا، والذي جعل منه مبدأ إرادتنا وأفعالنا.

وحين يشتغل لوك بالتربية؛ حين يصنع مخلوقاً بشرياً، موحداً بين تجربته كمرب وبين مثله الأعلى كفيلسوف، فماذا عساه يسعى أن يربي فيها، إن لم تكن الاختيارية الطبيعية؟ إنه يقف موقف الثائر، ويحتج على طريقة تنشئة الأطفال المتبعة فيما حوله. فهم أولاً ليسوا أشباحاً، فلكل منهم ذراعان، وساقان، وصدراً، ومعدة؛ جسم ينبغي أن نقويه بمختلف وسائل التدريب، لكي نجعله صحيحاً وسليماً. أما ذهنهم، فيجب أن يحكمه العقل: لا «الروتين»؛ لا سلطة خارجية تعمل دون أن تقابلها موافقة نفسية، ولا قاعدة تعسفية تطبق على المجموع دون تمييز. ذلك أنه في كل طفل ملكة طبيعية يجب أن يحسب حسابها. «يجب أن نذهب بالملكة الطبيعية لكل طفل إلى أبعد ما نستطيع. أما الشروع في إضافة ملكة أخرى إلى ملكته، تختلف عنها كل الاختلاف، فهو عناء لا ثمرة فيه. كل عمل من هذا القبيل لن يؤدي بنا على الأكثر إلا إلى صورة سيئة زرية؛ إذ نرى فيها دائماً تلك الهيئة المنفرة التي يخلفها الإجبار والتكلف على الدوام.» - «إن الطبيعة البسيطة غير المصقولة، المتروكة على سجيتها، لخير من جمال سيء مصطنع، ومن كل الأساليب المدروسة لإخفاء الخلق الطبيعي وإفساده بدلاً من تقويمه.» ينبغي أن تؤثر الفضيلة على المعرفة: لأن المهم في الحياة، ليس أن نعرف الكثير، بل أن نكون شرفاء طيبين. وفوق ذلك ينبغي، لكي نودع في الطفل أقل المعرفة التي تلزمه، أن نحسب حساب تلك الإختيارية التي لا يكف لوك عن التفكير فيها. علينا أن نختار المكان والساعة، وملاءمة اللحظة، واستطلاع الطفل. إن التعليم لو فرض كمهمة إجبارية، كحمل ثقيل، يصبح مضايقاً غير مستساغ: فلنستفد من هذا المزاج، من

ذاك الاستعداد الموقوت، وسنرى كيف تسهل المهمة. يجب مساعدة الطبيعة وتقويمها وتوجيهها، لكن دون أن تخالجها في ذلك شبهة: ولنستعمل الحيلة قليلاً عند الحاجة، حتى يكون مظهرها أكثر طبيعية.

الفرد: هذا هو في الأصل ما يهم لوك: لا مدارس عامة. بل مرب حكيم، يحل محل الأب، ويضحى بنفسه دون تحفظ، لتلميذه. لا عقوبات جسدية، تجلب المهانة والذل. أقل إجبار ممكن، فيما عدا السنوات الأولى؛ على أن نزيد الحرية مع مرور الزمن. يجب اتخاذ ألف تحوط بارع حول النبات الصغير الذي يشق طريقه؛ وحبذا ألف تدليل حاذق لتبرير الدورس التي نريد أن نودعها فيها. وفي هذه التربية التي تتراءى في غاية البساطة واليسر، بينما هي في الواقع في غاية التعقيد والكبر؛ والتي تريد أحيانًا أن تبلغ في رواقيتها مبلغ الشدة، بينما هي في معظم الوقت تطلب من الحساسية كل شيء، وتسمح لها بكل شيء؛ والتي لا تكف عن الحديث عن الحقائق الواقعية مع أنها زاخرة بالأحلام؛ في هذه التربية التي هي برنامج مخصص لتلميذ، وفي نفس الوقت رواية يسجل فيها الأستاذ ثورته، وأسفه، وآلامه، ورغباته: نرى هنا أيضًا الرجل الذي سيؤكد علنا، بعد سبعين عامًا، إيثاره للوك: جان جاك روسو Jean - Jacques Rousseau.

استطيقا الشعور

«إن الذهن الفلسفي الذي يجعل الناس «متعقلين» إلى هذا الحد، سيجعل شطراً كبيراً من أوروبا ما جعل القوط والوندل (التيوتون) منها فيما سبق... أرى الفنون الضرورية، مهملة؛ والمعتقدات المكتسبة النافعة كل النفع للمجتمع، تفنى؛ والتفكير النظري مفضلاً على الحياة العملية. إننا نتصرف دون أي تقدير للتجربة، أصلح مرشد للجنس البشري. والعناية بالأجيال المقبلة، مهملة كل الإهمال. وكل النفقات التي تكبدها أجدادنا في العقارات والمنقولات قد كنا نفقدها، ولم نكن لنلاقي في الغابات خشبًا للبناء، ولا حتى للتدفئة، لو أنهم كانوا «متعقلين»

بالطريقة التي نحن عليها الآن . » إن الذي يسمعنا هذه الأقوال الجريئة هو الأب ديبو Dubos . إن «تأملاته النقدية عن الشعر والرسم» التي ظهرت في عام ١٧١٩ ، لنتيجة لدراسة بطيئة عميقة .

كان هناك فريقان ، الأول فريق أولئك الذي يريدون تحويل الفن نفسه إلى عقل صاف . ما هو الجميل؟ ما هو الذوق السليم ، الذي يتيح لنا تمييز الجميل؟ ما هو الجليل الجمال؟ مسائل عويصة! كان هناك الفلاسفة ؛ وليس الفلاسفة فحسب ، بل كل أولئك الذين لا يثقون إلا بالذهن الهندسي لايجاد الحلول ، وإن لم يكونوا فلاسفة - سواء بحسب العادة أو الانسياق أو البدع . - كانوا يقولون ، كما سمعناهم ، إن الجميل هو الحقيقي أو على الأقل شبه الحقيقي ؛ وما دام هو الحقيقة فهو يشارك من جانبه في الأخلاق والفضيلة ؛ وإن الذوق السليم يقوم على مبادئ ، على نماذج ، وبالتالي يستطيع أن ينطق بأحكام أكيدة طبقًا لقواعد ثابتة مكينة .

طبّق فلسفة الفن هذه في الحياة العملية : تصل إلى «التأكدم» Académisme . تقليد القدماء . معرفة تامة لقواعد فنية ، على كل فرد أن يخضع مواهبه لها . دراسة الطبيعة : لكن في الوقت نفسه ، كيفية تقويم هذه الطبيعة وتنظيمها ، التي تبيح - في تفاصيلها - كثيراً من النزوات والأهواء . لقد أصبح لوبران Le Brun رسام لويس الرابع عشر ، الذي خلده النجاح والزمن ، والسلطة الملكية ، شبه مؤسسة ؛ إن لوبران هذا - الذي يذكّرنا مجرد ذكر اسمه بمجموعة من اللوحات الفخمة المثلجة في إطاراتها الذهبية ، يعلم تلاميذه أصول التعبير : كيف يجب تصوير الغضب ، الدهشة ، والفزع ؛ أو - وهو الأصعب - التقدير ، الإعجاب ، التبجيل . من التقدير إلى الإعجاب : «لا يعتري الوجه إلا أقل القليل من التغير في كل ملامحه ، وإذا حدث تغير ، فإنما يكون في رفع الحاجب ليس غير ؛ لكن بشرط أن يبقى الجانبان متساويين ، وتكون فتحة العين أوسع قليلاً من المعتاد ، وكذا الحدقة بين الجفنين ، مثبتة دون حركة على الشيء الذي أثار الإعجاب . ويفتح الفم أيضًا نصف فتحة ، على أن يبدو بدون تغير ، مثله في ذلك مثل بقية ملامح الوجه . » وهكذا فيما تبقى ؛ كل شيء مقدر ، مرتب ومنظم . الجمال هو العقل وموضوعًا في «ورشته» . . .

والفريق الثاني أقل عدداً؛ الرسامون الذين لا يقنعون بلو بران كنموذج، والمثالون اذين يسعون إلى الابتعاد عن نماذج «برنان» ليستبدلوا الظرف والجمال بالنبل والفخامة، والمعماريون الذين يحلمون ببناء مساكن جميلة يؤوى فيها المتحررون عشيقاتهم، بدلاً من كنائس مشيدة على طراز «جيزو»، أو قصور على طراز فرسايل: شباب يتحرقون وقد فرغ صبرهم إلى قطع كل صلة بالكبار، بالأساتذة. ثم هواة يواجهون المحترفين، وفي ثورتهم على التقاليد الأكاديمية، يجترئون في المطالبة بحقهم في إعزاز ما يروق لهم: مثل روجيه دي بيل الذي يفضل رامبراندت Rembrandt وعلى الأخص روبنز Rubens على المدرسة البولونية[1]، ولا يتورع من إعلان ذلك دون حياء. إنه ليس ثورياً على وجه التدقيق، بمعنى أنه لا يهاجم المذاهب السائدة مدفوعاً برأي مبتسر؛ لكنه يريد أن يكون رجلاً لا ينقص من شخصيته: وهذا بحسب الظروف، أقل من الثائر قليلاً، أو أكثر منه كثيراً. بل حتى خلوه من الرأي المبتسر يشارك في إضفاء لون طريف من الحرية على أقواله. فمثلاً: «إن العبقرية أول شيء يجب أن نفترضه في الرسام. هذا أمر لا يمكنه اكتساب بالدراسة ولا بالعمل. . .» - «إن الإجازة من الضرورة بحيث لا يخلو منها فن من الفنون. إنها تخالف القواعد، إذا التزمنا الحرفية، أما إذا أخذنا بالروح، فإن الإجازة تصبح قاعدة إذا استعملت استعمالاً مناسباً. . .[2]»

من بين أولئك المتمردين، يبرز الأب ديبو. لأنه يجمع بين مزايا نادرة، فهو في الوقت نفسه رجل مجتمع وعالم ضليع: فلم يكن تردده على المجامع العلمية يقل عن تردده على دور الأوبرا. ولأنه أوتي ذهناً رقيقاً، وقوياً معاً. ولأنه فرنسي جداً، ومختلط. ولأنه رجل عمل، وفيلسوف. ولأن مخالطته للوك (وقد عرفه في

---

(١) - المدرسة البولونية. نسبة إلى مدينة بولونيا بايطاليا، مقر مدرسة مشهور في عصر النهضة. ورامبراندت رسام هولندي شهير من أهل ليون، يعد من أكبر عباقرة الرسم وروبنز رسام شهير من أهل الفلاندر ومن روائعه «صلب القديس بطرس، وصورة هيلين (١٥٧٧ - ١٦٤٠). [المترجمان].

(٢) - مختصر عن حياة الرسامين، ١٦٩٩.

لندن، واستوثق من أمانة ترجمة بيير كوست بمراجعتها على النص الأصلي) دفعت به صوب مصدر الحساسية الذي كشفه الإنجليزي الكبير: وأدرك ديبو أن هذه الحساسية يمكنها أن تروي ظمأ المعاصرين غير المفهوم. إن الحساسية منبع الجميل، منبع الجليل الجمال، ومنبع الفن. وهو يأخذ على عاتقه إثبات ذلك للناس.

إن «التأملات النقدية عن الشعر والرسم» تعج بالأفكار؛ لقد أجرى الأب ديبو كثيراً من التجارب، وشهد كثيراً من اللوحات، وحضر كثيراً من الكوميديات والتراجيديات والأوبرات؛ إنه يهوى المحادثة، المحادثة التي لاتقنع بالكلمات بل تعمل على إذكاء التفكير؛ وهو لبق كل اللباقة ولو لم يملك الحقيقة تماماً، حتى إن كتابه ليعطيك تأثيراً عن ثروة لا ينضب لها معين. إنه يريد أن يدخل عليه شيئاً من التوازن، ويقسمه إلى أجزاء: إلا أن بعضها قصير وبعضها طويل، والشروح تقف أو تستطيل على هواها؛ والموضوعات تختفي بعد أن تتناول، أو تتكرر كيفما تشاء: هذا ليس بالتأليف الكلاسيكي العظيم على الإطلاق، بل إنه من نوع «روح القوانين» وإن كان أقل منه تألقاً. إن الحساسية التي تتحرر بكل مشقة من روح التحليل، تتبدى بفضل عناية ذكاء رقيق، يستعين بالمثل والواقع.

أي نفوذ «للمؤثر» على النفوس! أليس عجيباً أن نرى الشعر والرسم يثيران فينا إعجاباً أكثر لو نجحا في أن يحزنا قلوبنا؟ إذا وجدنا في بهو عرض، فإن اللوحة التي تمثل التضحية البشعة بابنه «يفتاح»[1] تستبقينا أطول من اللوحات المرحة وتغرينا أكثر منها. إن قصيدة موضوعها الأساسي وفاة أميرة فتية، تدخل في برنامج إحدى الحفلات، وهذه الفاجعة تفتن جماعة لم تجتمع إلا بقصد التسلية. «أبيح لنفسي أن أوضح هذا الواقع الغريب، وأن أشرح مصدر المتعة التي تفيئها علينا الأشعار واللوحات...».

الواقع: أن أعدى أعداء الناس السأم. وهم يتخلصون منه إما بالإحساس وإما بالتأمل. إلا أن الوسيلة الأولى أقوى؛ إن العاطفة تتملكنا تمام الامتلاك. وإن

---

(١) - قصة يفتاح الجلباوي وابنته (العهد القديم، قضاة، الإصحاح الحادي عشر) [المترجمان].

الانفعال الذي تثيره فينا ليبلغ من الحيوية أن كل حالة نفسية أخرى لتبدو بازائه خموداً. إلا أن العواطف الحقيقية لها عواقب خطيرة، عرفناها بتجارب أليمة. فماذا نحن فاعلون إذن؟ نحن نقلد الموضوعات التي قد تبعث فينا العواطف الحقيقية. تلك مهمة الفن. «إن الرسم والشعر يبعثان فينا هذه العواطف الصناعية، بتقديمهما لنا تقليداً للموضوعات القادرة على أن تبعث فينا العواطف الحقيقية.»

إذن، فالصيغة المتفق عليها عموماً الفن يساوي العقل، لا قيمة لها. الفن يساوي العاطفة؛ عاطفة مصفاة، لكن ممثلة في كل قوتها. ودرجة القوة العاطفية هذه، تفسر تدرج الأنواع: فالتراجيديا تؤثر فينا أكثر مما تؤثر الكوميديا؛ «كل نوع يؤثر فينا بقدر ما يستطيع الموضوع - الذي من جوهره أن يصوره ويقلده - أن يؤثر فينا. لذلك يجتذبنا النوع الرثائي والنوع الرعائي أكثر مما يجتذبنا النوع المسرحي.» ورويداً رويداً يتجدد كل شيء، سواء في التأليف أو في النقد، ما دام الأمر لا يتعلق إلا بتصوير العواطف بصورة فعالة، ومعرفة ما إذا كانت قد صورت بهذه الصورة أو لم تصور. إن الأب ديبو سوف يذهب في بحثه عن سر الفن، حتى أعمق أغوار كياننا، حتى الإحساس، القيمة الأولى: إن القيم الفكرية لا تظهر بالنسبة إلا شاحبة، هزيلة، صناعية. إنه يقول «أعتقد أن نفوذ الرسم على الناس لأبلغ من نفوذ الشعر، وقوام اعتقادي هذا سببان. أولهما أن الرسم يؤثر علينا عن طريق حاسة والثاني أن الرسم لا يستعمل علامات اصطناعية كما يفعل الشعر، بل علامات طبيعية. وبالعلامات الطبيعية يؤدي الرسم تقليده.» إن المتعة التي يفيئها الأسلوب حسية. والمتعة التي تفيئها موسيقا الشعر هي الأخرى حسية. وما أبعد العبقرية عن أن تكون موهبة ضعيفة نحاول عبثاً أن نقويها بالتقليد، والتدريب، بل هي موهبة طبيعية، قوة بدائية، لا شيء يعوقها، تعلو على القواعد والقوانين. وما من ريب في أنها قوة فيزيقية: «هذه العبقرية شعلة إلهية، حمية، لها بلا ريب أسباب فيزيقية، مزية خاصة في الدم، مضافة إلى استعداد حسن في الأعضاء.» وسنعرف ذلك فيما بعد، عندما تكتسب هذه الشروح الفيزيقية، غير الكاملة اليوم، الضمان الكافي. ولكن، يمكننا أن نتساءل من الآن عما إذا لم يكن للأسباب

الفيزيقية نصيب في التقدم العجيب للآداب والفنون؟ عما إذا كانت الشمس، والهواء، والجو لا تؤثر على إنتاج الرسامين والشعراء؟ عما إذا كانت هذه القوات لا تؤثر على الآلة البشرية بأسرها؟ إن صفات ذهننا وميولنا تتوقف كثيراً على خصائص دمنا؛ وهذه الخصائص تتوقف على الهواء الذي نستنشقه، وعلى الأخص في فترة تكويننا، فترة طفولتنا: ذلك هو بلا ريب السبب في أن الشعوب التي تعيش في في أجواء مختلفة، تختلف ذهنا، كما تختلف ميولا...

إن ديبو يقف عند هذه النقطة. أي مرحلة قطعناها! أي علامة ساطعة على ثورة مزدوجة، ضد الطريقة الأكاديمية الدجماطيقية، وضد التجرد العقلي من جهة أخرى! حينما سطر الأب ديبو أفكاره، لم تكن كلمة «استطيقا» قد اخترعت بعد. إنها لن تظهر إلا في عام ١٧٣٥، في رسالة دكتوراة لشاب ألماني، اسكندر أميديه بومجارتن. ومع ذلك نجد في «التأملات النقدية» محاولة استطيقية تستند على الشعور. الألوان والأصوات، الأرض والمياه والسماء، كل ما نرى، ونسمع، ونلمس، كل ما يتصل بحياتنا الحسية، كل ما في دخيلتنا، من عاطفية، وحيوانية، ومادية على وجه التقريب - كل هذه تحتج على نسيان العقل الخالص لها وإزدرائه إياها.

ميتافيزيقا الجوهر

في فلسفة ليبنتز، نستطيع أن نجد مطالبة أخرى: مطالبة بميتافيزيقا تستند على قيمة اللا متناهي في الصغر، مالا يرى، مالا يدرك، الغامض؛ على قدرة «الديناميكية» النفسية؛ على وجود جواهر بسيطة هي بمثابة ماهية الغريزة الحيوية، ماهية «الإنية».

لم يكن ليبنتز ليقبل أن يكون للهندسة التفسير النهائي للأشياء. وكان يكن لديكارت إعجاباً خالصاً، لكن مع نفور أخذ يتكشف من كتاب إلى كتاب، إلى كتب أخيراً وصيته الفلسفية «المونادولوجيا» Monadologie في عام ١٧١٤، قبل وفاته بسنتين. ولم تنشر مباشرة؛ إذ أخفاها الأمير «أوجين دي سافوا» في صندوق

صغير؛ ولم يطلع عليها إلا بعض العلماء الاختصاصيين: كنز مخفي. . . وسوف يأتي اليوم الذي تخرج فيه الرسائل والأبحاث من ثنايا الظلام، حيث يفتح الصندوق الصغير، وحيث يؤثر الجوهر الروحي الذي يتضمنه تأثير الخميرة.

كان يأخذ على ديكارت إغفاله للعناصر الهامة، بما اقترفه من خلط بين الامتداد والجوهر، بين الحركة والقوة الحية. ووضوحه البادي الذي يرجع إلى أسلوبه في البت في كل شيء إلى قسمين، وإهماله للتدرج الذي يوصلنا إلى اللا متناهيات في الصغر، وجهله بأحاسيس النفس الغامضة. لقد قال صراحة في «المونادولوجيا» إن عدم حسبان الأحاسيس التي لا ندركها، هو موضع القصور في المذهب الديكارتي: كما أنه ذكر قبل ذلك بعشر سنوات في كتابه «مقال جديد عن الإدراك الإنساني»، أنه في كل لحظة تحدث في أنفسنا تغيرات كثيرة لا نحسها، لأنه إما أن تأثيراتنا ضعيفة جداً وعديدة، وإما أنها متحدة. لقد جعلتنا العادة لا نهتم لحركة طاحون أو مسقط مياه، لو عشنا على مقربة من أيهما فترة من الزمن؛ ومع ذلك فإن هذه الحركة تؤثر دائماً على أعضائنا. عندما نكون على الشاطئ نسمع صخب البحر: ينبغي أن نحس إذن صوت كل قطرة في كل موجة: ومع ذلك نحن لا نحسها. إن ديكارت لم يلاحظ هذه الأحاسيس غير المحسوسة، التي هي أساس الحياة السيكولوجية. «نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن الإحساس Perception وما يتعلق به، لا يمكن شرحه بالأسباب الميكانيكية، أي بالصور وبالحركات. ولو افترضنا أن في الإحساس آلة، تجعلنا عدتها نفكر، ونشعر، ونحس؛ لاستطعنا أن نتخيلها تكبر محتفظة بنفس النسب، بحيث يمكننا أن ندخل فيها كما ندخل في طاحون. أما وقد افترضنا ذلك، فلن نجد في داخل هذه الآلة عند زيارتنا لها، إلا قطعاً تدفع كل منها الأخرى، ولن نجد فيها أي شيء يشرح لنا الإحساس. وهكذا ينبغي أن نبحث عنه في الجوهر البسيط، لا في المركب ولا في الآلة. . .».

هذا الجوهر البسيط هو «الجوهر الفرد» La Monade، الذرة الحقيقية للطبيعة، عنصر الأشياء. وما يسترعى النظر في طريقة شرح ليبنتز لخصائص هذا

الجوهر الفرد - الذي يأخذ التفسير المبدئ للحياة من الفزيقا وينسبه إلى الميتافيزيقا - هو الدفاع عن قوة نفسية فردية وحمايتها؛ فبينما يعمل سبينوزا على تحويل الخاص إلى الشامل، ينشئ ليبنتز توافقاً يمثل فيه الشامل دون أن يفقد الخاص حقوقه. لا يمكن أن يتغير الجوهر الفرد في صميمه بفعل مخلوق آخر؛ وليس به منفذ يتيح لأي شيء أن يدخل فيه أو يخرج منه. ولكل جوهر فرد خصائصه النوعية بالنسبة إلى ما يجاوره من جواهر فردية، إذ لا يوجد في الطبيعة أبداً كائنان متماثلان. والجوهر الفرد قابل للتغير مثل كل مخلوق: ولكن نفس هذا التغير يتوقف على مبدأ داخلي ولا يأتي من الخارج.

إن صفة الجوهر الفرد هذه، لمن البروز بحيث تنجم عنها مشكلة: ما دام الجوهرا الفرد جوهراً بسيطًا، وما دام لا يتضمن شيئًا إلا ما يأتيه من دخيلته، ألا يكون هذا حكمًا عليه بالعزلة؟ - كلا؛ بفضل «الاتساق المقدر»: Harmonie préétabile[1].

(١) - كل شيء في الطبيعة يفسر بضرورة فيزيفية، تعرض لنا في شكل يشغل امتداداً، لكن لا تستمد مبدأها من شكل يشغل امتداداً. إن المادة الملموسة تفترض روحاً، تحقق بمجهودها الوحدة الحقيقية للجوهر. هذه الروح أو الجوهر الفرد ليست فجة كالذرة - التي تقبل التقسيم دائماً مادامت تشغل امتداداً -: وكنها أيضاً ليست مجردة كنقطة رياضية مماثلة لغيرها من النقط. إنها تفترق عن غيرها بمقتضى صفتها، وتأتي وحدتها بأكملها من نشاطها الموجه. . .

فلنفترض فكرة تأثير متبادل مباشر بين بعض الجواهر وبعض في الكون. من المحقق أن حالة كل جزء من المادة تعبر عن الكون، أي تتحول بمقتضي تحولات كل عناصر الدنيا: فالقدح الذي أمامي يعبر بصلابته ولونه وكل خصائصه، عن المسافة الحالية بين الشمس «وكلب الجبار»، وعن كل مصادر القوة التي يمكن أن يكون لها مفعول حالي عليه. ولكن لو فرضنا أن الحركة ليست «متعدية»، لو أنكرنا أن الامتداد له قدرة على النقل أو التوصيل - لأن صوره ثابته جامدة لا حياة فيها - فأننا لا ندرك هذا التأثير المتبادل بين الجواهر إلا بصورة غير مباشرة، بوساطة قدرة خارقة للطبيعة، وعن طريق عدد لا متناه من الحركات الانبعاثية المنتظم بعضها على بعض. إن ظواهر التأثيرات المتبادلة قائمة: وهي محل دراسة العلم. هذا التصور عن الصلات بين الجواهر وهو ما يسمسه ليبتنز «الاتساق المقدر». (مقتطف من مقدمة ل پرينان، في «مختارات مصنفات ليبتنز» Leibniz,Œuvres Choisies, Garnier, Pré-face de L. Prenant. [المترجمان].

أما كيف يضع ليبتنز هذا التوافق العجيب، فهذا ما ليس علينا أن نعيده هنا، لأن تاريخ الفلسفة كله يشرحه أكثر مما نستطيع أن نفعل. ولكن في متناولنا من الآن ما نحتاج إليه لبرهاننا - ما وراء الشعور: L'inconscient - القيمة الجوهرية للذهن: «كل ذهن بما أنه بمثابة عالم منعزل، مكتف بنفسه، مستقل عن كل مخلوق آخر، مشتمل على اللا متناهي، معبر عن الكون، فهو دائم، باق، مطلق، كعالم المخلوقات.» - تصوير شاعري لتكاثر الحياة:

«قد يكون كل جزء من المادة بمثابة عامر بالنبات، وبمثابة بركة عامرة بالأسماك. ولكن كل فنن في النبات، وكل عضو في الحيوان، وكل قطرة من أخلاطه، هي أيضًا بستان مثل ذلك البستان، بركة مثل تلك البركة.

وبالرغم من أن الأرض والهواء المحجوزين بين نباتات البستان، أو المياه المحجوزة بين أسماك البركة، ليست نباتًا ولا سمكًا: فهي مع ذلك تحتوي نباتًا وسمكًا، ولكنها غالبًا من نوع دقيق جدًا يستعصي علينا إدراكه.

وهكذا، ليس في الكون شيء بائر، مجدب، أو ميت، لا خواء ولا اختباط إلا في الظاهر...»[1].

وأخيرًا توكيد اتساق سام، اتساق يدخلنا، وقد اقتتنا به، في مجال الحب الصافي.

العلم الجديد

نابولي. الشمس؛ بهجة الحياة. صيحات، وضوضاء. وفي الأزقّة المنعطفة، أكثر جماهير الدنيا حركة. حيوية، وحب استطلاع منقطًا النظير؛ حركة تثقيف واسعة. محادثات حامية، اجتماعات، ندوات، حيث رجال يحملون بكل خفة أثقال معرفة هائلة، يثيرون كل المسائل العلمية والفلسفية، ويمحصّون كل

---

(١) - المونادولوجيا، ٦٧، ٦٨، ٦٩.

المذاهب، ويجمعون كل الوقائع. في نابولي التي تستقبل - لأنها تستدعي - رسائل الفكر الأوربي، وتعرف كيف توفق بينها وبين عبقريتها؛ في نابولي المبتدعة والمليئة بالضوضاء، والتي تبدو هنا كرمز للقوة والحيوية، ولد في ٢٣ يونيو ١٦٦٨ جيامباتستا فيكو.

لقد عرف ذهنه كل أنواع الاجبار، وعرف كيف يتخلص منها جميعًا. عرف كيف يتفادى خطر أن يكون طفلاً إعجازيًا؛ أن يكون تلميذًا منصاعًا لأساتذته، لا يقسم إلا بأقوالهم؛ أن يكون أسيرًا لإحدى المهن؛ بل حتى أن يكون سعيدًا، وهو أخطر ما يتهدد من يروم التفكير. قرأ أرسطو، وجميع الإغريق، والقديس أوغسطين، والقديس توما، غاسندي ولوك، ديكارت وسبينوزا، مالبرانش وليبتنز، دون أن يصبح عبدًا لأحد، قانعًا باختيار أربعة نماذج: إفلاطون؛ تاسيت؛ باكون، الذي رأى «أن العلوم الإنسانية والألهية في مسيس الحاجة لأن تصل في أبحاثها إلى مدى أبعد، وأن القليل من المكتشفات التي توصلت إليها ما زال في حاجة إلى تصحيح»؛ وجروسيوس، الذي «جمع كل الفلسفة في نظرية قانونية شاملة، والذي أقام لاهوته على تاريخ الوقائع خيالية كانت أو محققة، وعلى تاريخ اللغات الثلاث: العبرية، واليونانية، واللاتينية، وهي وحدها اللغات القديمة العليمة، التي أوصلتها إلينا الديانة المسيحية...». ولكن مهما بلغ تأثير هؤلاء العباقرة عليه فإن ذلك لا يمنعه من مراجعة مبادئ معرفتهم من أساسها. إن فيكو قد بقي هو نفسه، بصورة أليمة ورائعة.

إنه يملك نوعي الذكاء، النوع الذي يفهم، والنوع الذي يخلق. إن حميته تجعله يحيد عن الطرق التي اختطها بنفسه؛ وهو يكثر من المجاز، ومن الخيال؛ ينحو نحو التحليل ثم على حين غرة يعمل بوحي من حدس فائق. وهو يقيم براهينه وفقًا لأسلم قواعد المنطق؛ ثم يتعجل فيتعدى إثباته، بسبب طبيعة ذهنه أكثر مما هو بسبب سعة الموضوع الذي يتناوله. وهو عنيد فتراه يكرر ويعيد، ضيق الصدر فتراه يسرع، إذ يعرض لنا النتائج بينما هو لم ينته بعد في المبادئ الأولى؛ إنه مفتون بالجديد، بالجرئ، بالغريب، بالصحيح، الذي يزيح عنه أكوام الأخطاء ثم يذيعه

على العالم، هو، جيامباتستا فيكو. لا يعرف الاتزان الكلاسيكي؛ وهو بفورته، وعصبيته، بل هوسه أيضًا، يمثل الرجل المبترم غير الراضي: فهو أبداً لم يثبت الإثبات الكافي، أو يصحح نصوصه، أو يجدد تفكيره، أو يفرض على القراء اكتشافاته العجيبة. إنه متصلب الرأي، صعب المراس، غير ودود؛ وهو متعاظم، غضوب؛ يشعر بتفوق عبقرية لا يعترف به معاصروه، الذين لا يفهمونه، ولذا فهو يتألم أشد الألم. عندئذ يضاعف مجهوده لاقناعهم؛ ويشرع في كفاح ضدهم، وضد نفسه. لا بد من أن ينتهي باشراكهم في سره العظيم، سر «العلم الجديد».

والحق أنه سيكون جديداً؛ أولاً بالمقدرة التي يؤثر أن يستعملها، وهي الخيال الخالق. إن للنقد دوره وفائدته بلا مراء، غير أنه لا يتفق تمام الاتفاق مع المغزى العميق للحياة: التي ليست تجرداً، بلا خلقًا متصلاً. - وسيكون جديداً بمنهجه، المنهج الذي يرفضه الناس من حوله، المنهج التاريخي. غير أن التاريخ ليس عبارة عن روايات المؤرخين: بل هو يطالع في كل الأثار التي خلقتها الإنسانية من تلقاء نفسها على طول طريقها: الشعر البدائي، اللغة، القانون، والأنظمة؛ كل ماكان كيفية لكيانها. - وسيكون أيضًا جديداً بحركته: لأنه يسير مخالفًا مجرى العصور، ويبحث عن الحقيقة لا في أقاصي المستقبل البعيد بل في مصادر الجنس البشري. وسيكون جديداً في ماهيته. إنه معرفة الصيرورة الجماعية، معرفة الكائن الذي يخلق نفسه ويعرف نفسه في الوقت ذاته، ويجد ضمان يقينه في المماثلة بين الفاعل والمفعول: العلم، هو خلق الإنسانية بالإنسانية، المسجلة أيضًا بالإنسانية. «من وسط هذا الليل العميق البهيم، الذي يغلف الزمن القديم، الذي نبعد عنه أيما بعد، يلوح لنا نور أبدي ليس له غروب، حقيقة لا يمكن أن تساورنا فيها شكوك: لاريب في أن هذه الدنيا المدنية من فعل الناس. إذن من المحتمل، لأن هذا مفيد ولازم، أن نجد مبادئها في تبدلات ذهننا.»

* * *

أيها المسكين، أيها العظيم فيكو! إن الناس لم يفهموه، إنهم لم يكادوا يعيرونه أسماعهم، كانت أفكاره بالغة الجدة، تختلف كثيراً عن الأفكار التي قبلها الناس من حوله. كان الآخرون يمجدون النظرى، العقلى؛ يخجلون من ماض يبدو لهم مثار فضيحة لمدنيتهم التقدمية؛ يرون التاريخ كذباً والشعر تمويهاً، يطّرحون الحساسية، تلك المريضة؛ والخيال، ذلك المجنون. أما هو فيرفض- بعناد العبقرية- أن يعد جسم الانسانية قطعة تشريحية، ويصر على البحث في اختلاج الحياة من جديد. إنه يستعين بالفقه، والفيلولوجيا، والصور، والرموز، والأقاصيص، حتى تتوطد بينه وبين الماضي رويداً رويداً أواصر الألفة، فيصل إلى أغوار الهوات السحيقة، ليكشف تاريخ تطورنا والصورة المثالية لذهننا، معاً.

ولم يقبل الناس الغصن الذهبي الذي أتى به. لذلك يمكننا أن نسمع في «العلم الجديد» Scienza Nuova [1] صيحة نفس ساخطة. إن الانفعال يحاول أن يرفع الجمل المشحونة بالتفكير، ليساعدها على سهولة التحليق؛ ويسعى فيكو- طامعاً في إثبات كل شيء في آن واحد، خاشياً من أنه لم يقل الكفاية أبداً، مستعجلاً، لاهثاً، ثقيلاً- في أن يقدم لمعاصريه المؤلف العظيم الذي يقابلونه بعدم اكتراث. علينا أن ننتظر ثلاثة أرباع قرن، قبل أن يلقى هذا الكتاب الرائع شعاعه الساطع على الأفق الأوربي.

(١) - مبادئ علم جديد، (الطبعة الأولى، ١٧٢٥، الثانية في ١٧٣٠).
Princpii di una Scienza Nouva intorno alla commune natura delle nazioni (Premiére édition, 1725: Prima Scienza Nuova. Deuxiéme édition, 1730: Seconda Scienza Nuova)

الفصل السادس
الحمية الدينية

كل هذه الأبراج التي تشرف على الأرياف، وكل هذه الكاتدرائيات التي تتزاحم حولها البيوت في المدن، متوسلة إليها أن تسامق نحو السماء. الشعاع الذهبي للشموع التي تخفق أمام الهياكل، صوت القسس وجوقة المؤمنين، دستور الإيمان المسيحي، وأنشودة العذراء، رنين الأجراس، وعبق البخور. الكنائس العديدة، والمعابد، والمساجد، وكل مكان يجتمع فيه الناس ليعترفوا بالسر الذي يحيط بولادتهم، وموتهم، وليعهدوا إلى الله بالتفسير الأسمى الذي لا يستطيع عقلهم أن يتوصل إليه...

إن الضرورة الدينية تدافع عن أبديتها.

* * *

نحو ذلك الوقت، استشعر المؤمنون تهديد جهود المفكرين الأحرار، والكفار لهم؛ وأشارت جمهرة من علماء الدين إلى الخطر المستفحل. وإذا كان بعضهم قد قبل- دون تردد- الكفاح في الميدان العقلي، فقد أخذ البعض الآخر ينشد أسلحة أخرى. كانت الذئاب الضارية تتكاثر حول القطيع، فلم يكن بد من خضد شوكة هجومهم بوسائل دفاعية جديدة: فلنرد على الكفر الصريح بتقوى أشد حيوية! لن يظفر العدو بمن يسهرون ويتعبدون.

«هذا القـرن الجليل الذي يمكن أن ندعـوه عـصـر الفكر ، أو عـصـر الحب الخالص ... » هكذا كان يعبر هنري بريموند في دراسته للحياة المسيحية في ظل «النظام القـديم» ؛ وكـان يبين أن تقـدم المذهب الديكارتي، لـم يوهن في النفـوس التقية، لا حيوية تقبل حقائق الإيمان الأساسية، ولا مزاولة العبادة. وإني لأود أن أحجز واحداً من كتب الصلوات التي يذكرها دعماً لأقواله، واحداً بريئاً وجميلاً، «ساعة لعبادة القربان المقدسة الدائمة»، المؤرخ عام ١٦٧٤ . هذه الساعة المقدسة تسجل أوقات الأخطار الداهمة؛ يستطيع المؤمنون أن يتخيلوا، باستماعهم إلى دقاتها، هجوم الأعداء الذين يهدفون إلى تدمير الإيمان بقيادة؛ إبليس؛ كل ساعة تستدعي خيالاً يثير الرعدة. منتصف الليل: يخرج أمراء من كهوفهم، في الليل البهيم- وهو الشطر الرئيسي من مملكتهم-، دون أن يفارقهم العذاب والنيران التي يحملونها في كل مكان، ويطيرون فوق الأرض لجمع معاونيهم الأشرار ... الساعة الخامسة صباحاً: يلقى «بالخبز المقدس» إلى الكلاب ... ولكن كل إهانة يقابلها دعاء معوّض؛ وتوقظ دقات هذه الساعة الرهيبة «غريزة جديدة»، «حمية خفيفة»، لم يكن هناك داع لظهورها في هدوء الأيام الخالية من الكفاح .

حياة حساسة تزداد نمواً؛ لعل هذه هي النقطة الأساسية هنا؛ هنا تسجل مبادئ علم الدفاع عن الدين المسيحي- وإن كان لا يزال على شيء من الغموض- الذي يستغرق قرناً بأكمله قبل أن يتقوى. أنوار المعرفة، حسناً: ما من كنيسة عدوة للنور. العقل، حسناً: ما من كنيسة تزعم أنها في غنى عن مشاركة العقل. ومع ذلك، ودون حسبان لصور الكفر الصريح المتطرفة، وإذا لم نعتدّ إلا بالتبدلات التي تعتمل في متوسط الضمائر، - فقد فقد الدين عون قوة ذهنية تريد الانفصال عن الإيمان، والاستغناء عنه، وتشكيل مثل إنساني أعلى من دونه. «لا شك في أن عصرنا مستنير. لقد حققنا تقدماً كبيراً في العلوم وفي الفنون، سواء لأننا هيأنا لها مبادئ أفضل، أو لأننا وضعنا لها أدلة وبراهين أقوى. كم من مكتشفات حديثة، كم من تجارب جديدة، وضعناها في وضح النهار، لنساعد الذهن على التغلغل إلى ما وراء تلك الحدود التي كانت بربرية العصور السالفة تحتجز عندها أنوار المعرفة!-

ومع ذلك يحق لنا أن نشك فيما إذا كان الدين قد لقى فائدة كبيرة من تلك الأبحاث الجميلة؛ وفيما إذا لم يكن خسر أكثر مما كسب ... [1]» يمكنه أن يعوض ما فقد، إذا طلب العون في قوات نفسية أخرى، مما يحتقرها خصومه أو ينكرونها.

إن البراهين الميتافيزيقية على وجود الله، أفضل البراهين بلا مراء؛ ولكنها ليست في متناول «العاديين من الناس، الذين يمتثلون لخيالهم.» أما بالالتجاء إلى خيالهم وحساسيتهم، فيستطيع عالم الدين المسيحي أن يقنعهم بوجود الله. أفلا تثبت آيات الطبيعة وجوده، وعظمته، وطيبته؟ حجة ليست جديدة، ولكنها تكتسب قيمة جديدة لو أعطيناها لونًا خاصًا، لو انقلب البرهان إلى اندفاق عاطفي. عندئذ ندخل في حالة من الاعجاب تفسر كل شيء في حالة شاعرية لا يقاومها شيء. انظر إلى الغابة: «في الصيف تحمينا هذه الغصون بظلالها من أشعة الشمس؛ وفي الشتاء تغذى الشعلة التي تحفظ فينا الحرارة الطبيعية. وليس خشبها مفيداً للوقود فحسب؛ بل هو مادة رقيقة طيعة، بالرغم من صلابتها ومتانتها، تستطيع يد الإنسان أن تعطيها دون عناء، الشكل الذي يشاء، لأكبر الأعمال المعمارية والملاحية. وفوق ذلك، فإن أشجار الفاكهة، بميل فروعها نحو الأرض، تبدو كأنما تقدم للإنسان ثمارها ...» - أنظر إلى المياه: «لو أن الماء كان كثافة لأصبح نوعًا من الهواء، ولأصبح كل ما على وجه البسيطة مجدبًا؛ ولما وجد إلا حيوان طائر؛ ولما استطاع أي نوع من الحيوان أن يسبح، ولا أي نوع من السمك أن يعيش، ولما وجدت أي تجارة للملاحة. لو أن الماء كان أقل كثافة، لما استطاع أن يحتمل تلك العمائر الهائلة التي نسميها سفنًا؛ ولغاصت أقل الأجسام وزنًا في الماء ...» انظر إلى الأجواء وإلى النار؛ انظر إلى الأفلاك، وإلى هذا الفجر الذي «لم يقصر مرة واحدة منذ آلاف السنين عن أن يبشر بالنهار، يبدؤه في وقت معين، في لحظة محددة ومكان محدد.» انظر إلى الحيوان: «فقد أوتى الفيل خرطومًا، لأنه لو كانت رقبته في مثل طول رقبة الجمل لكانت تثقل عليه كثيراً نظراً لضخامتها ... [2]»

(١) - اسحق جاكلو، بحث في وجود الله، لاهاي ١٦٩٧، مقدمة.

(٢) - فنيلون، إثبات وجود الله، مستمداً من معرفة الطبيعة، ١٧١٣.

قليلاً من الوقت، وسيأتي نيوفنتجت Nieuwentijt، وسيأتي الأب بلوش Pluche اللذان سوف يثبتان وجود الله بآيات الطبيعة أمام جمهور واسع: ومن بعدهما برندان دى سان بيير، ثم شاتو برياند.

* * *

عند هذه النقطة من طريقنا، وعلى عتبة آخر ملاذ، حيث يتحمس رجل الشعور، فلنتذكر «جو تفريد أرنولد»، حاملاً في يده كتابه «تاريخ مقسط للكنيسة والإلحاد». إنه يقول لنا إنه تاريخ مقسط لأن الذي كتبه رجل لا ينتمي إلى مذهب من المذاهب، ويستعمل المنهج التاريخي لا اللاهوتي. وإنه عام، لأنه لا يقبل أن توجد كنيسة واحدة، وإنه سيتكلم عن كل الكنائس التي تبشر بالإيمان بالله وبالسيد المسيح. وإن كتابه يريد على الأخص أن يكون تاريخًا مجيداً للإلحاد.

والواقع أننا إذا صدقنا قوله، نخطئ في شأن الملحدين، الذين لا يفهمهم الناس ويفترون عليهم. الملحدون، اسم يطلقه أصحاب المصالح على من يضرون بمنافعهم ونفوذهم. إن أصحاب المصالح يباهون بأنهم أرثوذكس: إلا أن الأورثوذكسية ليست الإيمان. قبول العقائد والصيغ بدون تمحيص، والخضوع للسلطات، وعد الإيمان عملاً فعالاً opus operatum. تلك هي الأرثوذكسية، التي ليست في الواقع إلا «عقلية» فارغة، تجهل التجارب الدينية، واليقظة والبعث.

إن الملحدين الحقيقيين ليسوا أولئك الذين يخاطرون بأن يخطئوا، مع سلامة نيتهم؛ بل هم النقيض أولئك يعيشون كالوثنيين، رافضين الخضوع لنفوذ الله؛ أي الأنانيون، والدجماطيقيون، وغير المتسامحين... هكذا يتكلم في عام ١٦٩٩ جوتفريد أرنولد، العالم، المتمرد، المتصوف: أولئك الذين نعهدهم عادة ملحدين، هم المسيحيون الحقيقيون، أتباع المسيح، الذين يطهرهم الألم، وتزكيهم المحبة؛ وأولئك الذين نسميهم الأرثوذكس، ذوو القلوب الجافة المجدبة، هم الملحدون.

* * *

فلندخل الآن تحت قيادته، إلى دائرة النفوس الغيورة.

في عام ١٧٠٩، طردت آخر الراهبات اللواتي كن لا يزلن مقيمات ببور- رويال، وفي عام ١٧١٠ دمر هذا الدير. وسيقضى على مذهب جانسينيوس قضاء مبرمًا؛ إن المذهب الذي أزعج كنيسة فرنسا منذ سنوات عديدة سيغلب أخيرًا على أمره: ubi solidinem faciunt, pacem appellant أينما حولوا إلى خراب قالوا إنهم أتوا بالسلام[1]. - لكن لا، فإن هذا المذهب ينتشر في الخارج، ويكسب أشياعًا شيئًا فشيئًا، وتبقى له مراكز في لوفان؛ وفي أترخت حيث تؤوى كنيسة عنيدة المنفيين والمبعدين؛ وفي مدن مختلفة في ألمانيا، وفي فينا حتى في البلاط الامبراطوري؛ وفي بيمونت ولمبارديا، وليجوريا، وتوسكانيا وحتى في روما؛ ويقوم أتباع جانسينيوس بدعاوة واسعة في إسبانيا. وفي فرنسا تجدد العراك، عنيفًا كأول يوم، على إثر إعلان القرار البابوي Bulle unigenitus[2] في عام ١٧١٣. إذ ينشر كينيل القسيس بالأوراتوار كتابًا عن «الأخلاق الإنجيلية؛ ويحرم البابا مائة قول وواحد من هذا الكتاب؛ وكأنما كان ذلك إيذانا بمعاودة القتال؛ فأخذ المعارضون، والمؤيدون، والموفّقون يتجادلون، وسوف يتجادلون خلال سنين طوال. وسيظهر عن قريب المتعصبون المتشنجون (Les Convulsionnaires)[3]- وسوف تحدث معجزات، في أثناء المواكب الاحتفالية، وعلى مقابر القديسين؛ وفي هذه المرة ستبلغ الاضطرابات مبلغ الفضيحة. وإذا كان لمذهب جانسينيوس عنصران أحدهما لا هوتي والثاني أخلاقي، فإن الأول سوف يضعف مع مر الزمن، بينما يزداد الثاني

(١) - كلمة للشاعر تاسيت في «حياة أجريكولا» على لسان جالجاكوس البطل الكلداني. تطلق على الغزاة الذين يبررون ما يسببون من خراب بحجة المدينة. (المترجمان)

(٢) - قرار أعلنه البابا كليمان الحادي عشر بإدانة مذهب جانسينيوس. وقام على إثره عراك عنيف بين أتباع جانسينيوس والجيزويت. (المترجمان)

(٣) -صفة لأتباع جنسينيوس المتعصبين، في القرن الثامن عشر، الذين كانوا يقعون في تشنج عصبي حماستهم الدينية. (المترجمان)

قوة. إن الحسرة والقلق النفساني، والاسترابة في شأن السلام، وذكرى الاضطهاد الأليمة، والإيمان بالآيات المنتقمة، لا تتبدد بإرادة الملك ولا بقرارات روما. لم تعد الجانسينية مذهبًا، بل أصبحت على مر الزمن روحًا، روحًا عنيفًا صارمًا، يسرى في مواجهة سريان التهوين في العقيدة والأخلاق.

وكان البروتستنت السفينيون Camisards [1]، الذين يتعقبهم البوليس الراكب، ويعذبون إذا وقعوا في قبضته، شهداء الإيمان- يقعون من باب أولى في فوران عاطفي شديد، يزداد غلوًا حتى يصل إلى درجة الوهم. فلننظر إلى أحد رؤسائهم، ابراهام مازال الذي خلف لنا مذكراته أو بمعنى آخر اعترافه. «قبل أن أتناول السلاح ببضعة أشهر، وقبل أن تدور بخلدي أية فكرة، حلمت أني أرى في بستان ثيرانًا ضخمة سوداء، سمنة جدًا، ترعى في كرمب البستان. وأمرني شخص لا أعرفه أن أطرد الثيران السود إلى خارج البستان، فرفضت أن أفعل، إلا أنه لما أصر وكرر أوامره أطعته وطردت الثيران. وعلى إثر ذلك نزل على الروح القدس، وأمسكني كالعادة مسكة رجل قوي، ثم فتح فمي وجعلني فيما أقول إن البستان الذي رأيته يمثل الكنيسة، وإن الثيران السود السمينة هي القسس الذين يلتهمونها، وإني إنما استدعيت لتنفيذ هذه الرؤيا. وقد أوحى إلى أكثر من مرة أن أستعد لحمل السلاح للكفاح بجانب إخواني المضطهدين، وإني سأحمل الحديد والنار ضد قسس الكنيسة الرومانية وسأحرق مذابحهم.» بالوحي، يعقدون اجتماعات في الغابات، وينزل عليهم «الروح» بصورة مرعبة حتى إن الرعدة التي تهز أجسامهم تلقى بالخوف والذعر في قلوب من يشاهدهم. بالوحي، يحملون السلاح، ويسيرون، ويهاجمون، ويتفرقون. بالوحي، يحرقون الأبرشيات ويقتلون الخوارنة. ولما قبض على مازل سجن في برج كونستانس في أيج- مورت. وقد

(١) -كاميسار: لقب لبروتستانت السيفين الذين تسلحوا عقب فسخ أمر نانت. وكانوا يرتدون تسمى -Ca miso ومن هنا هذا اللقب. (المترجمان)

نـشـر أحد أحجـار البـرج، لـيهرب، و «كان يستشعر وحي الروح كلما اشتغل بهذا العمل.»

ولعل حالة إيلي ماريون تحيرنا أكثر. «في اليوم الأول من هذا العام ١٧٠٣، أسبغ الله على شرف زيارة روحه، ومن أول وحي نطقت به، قيل لي فيما قيل، إن الله قد اختارني منذ كنت في بطن أمي لتمجيده.» إن إيلي ماريون هو «المختار»، البشير بعهد المسيح المجيد. فلنذكر- دون أن نتبعه في معاركه، وفي هزيمته- الطريقة التي انتهجها في معيشته في لندن، حيث التجأ في عام ١٧٠٦. إن الأوهام تتملكه، فيتنبأ، وينزل عليه «روح الله»، ويروعه؛ وينفجر ضد ضعاف الإيمان والقسس أكثر مما يرعد ضد الملحدين والكفار. وكان قبل ذلك قد فضح قسس جنيف الذين أبوا أن يصدقوا بقرب مجيء المسيح. «إن هذا المجيء الثاني لبمثابة الشمس لهم، لا تستطيع عيونهم أن تحتمل شعاعها إذ يعميهم. فليحذروا أن ينبذوا كما نبذ اليهود من قبلهم!» وفي لندن يرعد ضد القسس الفرنسيين، ضد الانجليكان، وضد الجميع؛ وهكذا تبدأ قصة عجيبة أليمة. أولئك «الأنبياء» الكاميساريون وقد طردوا من الكنائس، وأرذلتهم الجماهير، وقبض عليهم، وقدموا للمحاكمة، وأدينوا، يستشعرون لهبًا يزداد اضطرامًا على الدوام. وهم يكسبون أنصارًا من الانجليز، لأن مرضهم معد؛ وتغتني جماعتهم بطائفة إنجليزية هيستيرية. وذات يوم يعلنون أن النهاية قد أوشكت، وأن النار سوف تلتهم «المدينة» بما فيها من كفار: ولن ينجو إلا المؤمنين؛ ولكي يتعرفهم الملك المدمر، عليهم أن يرتدوا شريطًا أخضر إما في ذراعهم وإما على رؤوسهم. ومرة أخرى يتنبأون أن اضطهاد «الأنبياء» سيتوقف قبل مرور ستة أشهر، وتتأيد حقيقة رسالتهم: وتمر الستة الأشهر دون حدث جديد. ومرة أخرى يزعمون قدرتهم على بعث الأموات. وينظر الشعب الانجليزي مندهشًا إلى أولئك المتحمسين، أولئك المجانين؛ ويظهر حيالهم في بادئ الأمر أمارات فروغ الصبر، ثم عنفه البارد. وحكم على إيلي ماريون بالحناك العلني pilori؛ وقد كتب على ورقة معلقة فوق رأسه: «إيلي ماريون، المعترف بادعائه أنه نبي حقيقي- وهذا كذب وكفر- وبأنه نشر وأعلن كثيرا

من الأقوال بدعوى أن روح الله قد أملاها عليه أو أوحى إليه بها، بقصد إثارة الرعب في رعية الملكة.» وأخيراً سيغادر إيلي ماريون البلاد، متبوعاً ببعض المخلصين الذين سيظلون ملتصقين به في عناد، وستنتقل الجماعة الصغيرة من بلد إلى بلد حتى الآستانة، حتى آسيا الصغرى، مبشرين دائماً، متنبئين دائماً، مهددين دائماً؛ مضطهدين، مسجونين أحياناً، ولكن حاملين في أنفسهم شعلة جنونية، زاعمين أن يجعلوها تشتعل في كل الشعوب: إنها بريق الضوء النازل من السموات ليكشف في ليل شعوب الأرض عن الفساد الموجود في ظلماتها...

* * *

إن قدرية إن سبينوزا تمثل- من وجهة نظر معينة- صلابة العقل. ومع ذلك فهناك شيء من اللذة في الاستغراق، والذوب في «الكائن» الشامل: إنه شعور، بل إحساس تقريباً. هذا الانضمام إلى النظام الذي يسود الدنيا الذي هو الدنيا، وهو الله، وهو كل شيء، يجب أن يكون واعياً وإرادياً ليكون له أثره الفعال: ولكنا نستطيع بميل يسير أن ننزلق من هذه الصفة الارادية إلى إذعان سلبي، يصبح استسلاماً. فلا عجب إذن إذا رأينا تصوفاً يتولد من «علم الأخلاق»، وينتشر في هولندا وفي ألمانيا. - ولكنا لازلنا، مع أولئك، الاسبينوزيين، على مبعدة من الدوائر الأخيرة، أكثرها حمية.

مادمنا ننعى على قسس اللوثريين نفس الرذائل التي نعوها على الكاثوليك؛ ماداموا قد أضحوا عبيداً للحرفية لا للروح؛ مادامت لا تحدوهم شفقة ولا إيمان؛ وما داموا ينتفعون بالمال من مباشرة عبادتهم، بل إنهم يسمحون بمشترى العقاب بالنقود؛ وما دامت مواعظهم، بدلاً من أن تكون منابع للحقيقة وللحياة، وقد أصبحت محفوظة عن ظهر قلب؛ ممزوجة ببعض الفكاهة الشعبية، ولا صلة لها مطلقاً بعظات كلام الله: فقد تولد، ضدهم، وانتشر في ألمانيا، مذهب «الخشوعية»، دين القلب. الخشوع، القلب؛ هاتان الكلمتان ستترددان كثيراً بقلم

ولسان الرجل الذي أتاح للحساسية الألمانية، المكبوتة منذ أمد طويل، أن تظهر إلى وضح النهار، «فيليب يعقوب سبنر». كان قسيساً في فرانكفورت لما واتته فكرة تأسيس «مدارس التقوى»، في عام ١٦٧٠: ليس واجب القسس أن يجادلوا، وأن يتصايحوا، بل هو على النقيض أن يذكوا الحياة الباطنة، وعلى ذلك فقد كان يجمع في المساء، مرتين في الأسبوع، ذوي الارادة الطيبة لقراءة الكتاب المقدس، والتعبد، وليتركوا الله يؤثر في نفوسهم. وكانت هذه الخطوة الأولى، وقام بالثانية لما نشر في عام ١٦٧٥- Pia desideria, oder herzliches VerLangen nach gott-gefalliger Besserung der wahren evangelischen Kirche (تمنيات صالحة، أو رغبات المؤمنين القلبية لإصلاح الكنيسة الانجيلية الحقيقية). عندئذ اتسع نشاطه، وشمل القسس، والمؤمنين، يدعوهم إلى العودة إلى إيمان حي فعال، إلى إيمان قوامه المحبة. في ١٦٨٦ ينتقل إلى درسدن، ويصبح واعظاً في البلاط، ومرشداً لمنتخب ساكس، وعضواً في مجلس الكرادلة الأعلى: وقد لا يكون لهذه الألقاب قيمة، لو لم تسمح لنا بتقدير مدى نفوذه ونجاحه: فالطلبة النساء يستمعون إلى كلمته المستحرة والخطيرة في نفس الوقت؛ وتجتمع الدوائر- بوحي منه- لدراسة الكتاب المقدس؛ وأصبحت كلمة «الخشوعي» Piétiste مجيدة بعد أن كانت مرذولة. كان أوجست هرمان فرانك خشوعياً، ولما كان عليه أن يعظ بالإيمان، وأحس أن الإيمان يعوزه، وقع في اليأس، وجثا، متوسلاً إلى الله أن ينقذه من حالته التعسة: فيلهمه الله، وتكون رسالته أن يعمل على إنارة الآخرين بدوره. والأمراء، والنبلاء، الذين ينشدون سلامهم بأنفسهم خشوعيون أيضاً، وكذلك البورجوازيون، وعامة الشعب؛ إن ألمانيا تفيء إلى الإيمان.

وسوف تسري العدوى على الدوام، العدوى التقية. سيغادر سبنر Spener درسدن قاصداً برلين، ويكسب منتخب براندبرج، وعندما يحول هذا الأخير أكاديمية هال إلى جامعة، في سنة ١٦٩٤، سيصبح سبنر موجهها ومحركها. وهكذا ترتفع قلعة «الخشوعية»، محوطة من كل جانب بأعمال مسيحية. ماذا تمثل إذن تلك القلوب المتحمسة، والمنتصرة هنا، أولا، أثراً باقياً، أثر بوهم Boehme

المتصوف، الحاضر فيهم على الدوام- ثم رفضًا، تمردًا على الميل إلى تبلور وإلى تبريد موجة الحياة الدينية التي تنبثق في نفوسهم. - وبصورة أعمق، فكرة أن المنهج التحليلي والبحث المنطقي لا يمثلان كل المعرفة؛ وأن الوضوح ليس حتمًا كل الحقيقة: إنها الحدس؛ إنها تحتفظ إمكان المعرفة المباشرة، إمكان الاتصال الكلي بمنبع الحياة الأبدي- الإنية Le Moi، وفي الإنية، قوة المقدرات العاطفية، وهي أكثر شخصية، وأكثر فردية من المقدرات الأخرى. - التمسك بقوام أولى -Substra tum، تهدده صور التمدن الديني المعتادة في كماله وسلامته.

إن فوارق الشعور المتعددة تغني حياتهم. إذ يستشعرون نضوب عواطفهم، وإجدابهم وضياعهم؛ ويحسون ضيق من يصيح في الصحراء بلا جدوى: هل هناك أشد إيلامًا من انتظار طويل للغفران؟ ثم تحين ساعة الاعتراف، والفضفضة؛ وتلك الضربة التي تصدمهم: المعجزة، الإلهام، الوحي المباشر. حينئذتكون لذة حب سماوي لا نهائية، ذوب المخلوق البشري في «الكائن» الذي يعلم، والذي يريد، والذي يعطي للحياة طعمًا «سبقيًا» من الأبدية. فما جدوى البحث من الآن فصاعدًا؟ وما فائدة الفلاسفة؟ أو حتى اللاهوتيين، أو حتى شراح الكتاب المقدس، الذي يجب أن يفهم من نفسه، مادامت كلمة الله قد سجلت فيه دون ألغاز؟ Unum est necessarium: شيء واحد لازم: الاتحاد بالله ... [1]- هنا لايزال شيء من الحركة باقيًا؛ وسوف يلغيه أنصار الركونية.

* * *

كيف نفسر النزاع الذي أوقع بين أشهر أسقفين في كنيسة فرنسا، بوسويه وفنيلون، والذي دفعهما إلى تبادل اللوم والاتهام؛ إلى الالتجاء إلى روما حتى حكم على أحدهما بالإدانة- إلا إذا وجدنا في هذا الجدل الكبير حالة خاصة لميل

(١) - ... Agir en Dieu يشرح بول هازار هذا التعبير بأنه يعني «الذوب في الله»، أي الاتصال في الفكر بالله. أنظر الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر، الجزء الأولى، باب «السعادة»، ص٢٤. (المترجمان)

عام؟ كان مذهب «الركونية» Quiétisme [1] صورة من صور التصوف التي كانت تزعزع أسوار الكنائس في كل مكان، باسم الشعور المنطلق.

أي أحلام عذبة لم يتعلل بها فنيلون؟ إنه يتأهب للرحيل؛ اليونان مستعدة لاستقباله، السلطان يجزع فيتراجع؛ وكان يرى - وهذه هي ألفاظه بالضبط - الشقاق يزول، والشرق والغرب يتحدان، وآسيا التي تئن حتى ضفاف الفرات، والتي ترى بزوغ النهار بعد ليل طويل. أو كان يتخيل أرضًا من أراضي الأحلام، أو «أندلسا» مثالي الجمال، ليصفه بألفاظ كلها إعجاب: شتاؤه دافئ، وصيفه غير محرق، السنة بأكملها كأنها زواج سعيد بين الربيع والخريف اللذين يبدوان كأنهما يشدان على أيدي بعضهما؛ تربته من الخصوبة حتى إنها تفيء محصولاً مزدوجًا؛ وأشجار الرمان والغار والياسمين تحف بالطرق العبقة. أو كان يبني بيديه المدينة الخالية من العيوب، «سالانت» [2]: حـيـث لا بؤس ولا رذيلة؛ إن الأراضي الاسترالية لتكاد تستطيع أن تقدم لأبناء الإنسان سعادة مماثلة. ففي سالانت يسود السلام، والعدل والنظام الاجتماعي، والغزارة؛ حيث تدخل الثروات كمد البحر، وتترك ثروات أخرى في محلها عند الجزر. ولكل صعوبة «علاج يسير». ضربة عصا سحرية وكل شيء يتغير في الحال: سكان الحضر سعداء، والقرويون سعداء، والنساء سعداء، وكذلك الأطفال، والكهول. «كان الكهول، وقد ذهلوا لرؤيتهم ما لم يجرأوا على أن يتمنوا رؤيته بعد مثل هذا العمر الطويل، يبكون لفرط الغبطة المشوبة بالحنان، رافعين أياديهم المرتجفة نحو السماء...» وفي الخارج يسود السلام.

---

(١) - الركونية Quiétisme: مذهب تصوفي، يرى أن الكمال المسيحي في محبة الله، وفي عطلة الروح عن الحركة. وكان لهذا المذهب ممثلون في كل عصر، وأشهر رؤسائه القسيس الاسباني مولينوس Mo-linos، الذي نشر في منتصف القرن السابع عشر كتابًا في التصوف، جعل فيه الذين في صورة مثالية حتى لم يعد يفهمه العامة. وقد قبل فنيلون هذا المذهب وتكلم عنه في مؤلفاته، وكانت حركاته هذه ولا سيما وهو أسقف «كامبري» ومربي ولي العهد- سببًا في نزاع شديد بينه وبين بوسويه الذي رأى أن هذا المذهب يفقد المرء شخصيته ولا يترك له أي قوة أو إرادة ليحارب الشر. (المترجمان)

(٢) -سالانت: انظر تيليماك، الكتاب الثامن. (المترجمان)

فلصد هجوم الأعداء، يكفي الوقوف في وسطهم، وإلقاء خطبة عليهم. عندئذ يلقي الجنود سلاحهم، ويتعانق الجميع، في بكاء ودموع.

ذلك أن فنيلون يهوى الدموع؛ إن أبطال «تليماك» يذرفون أنهاراً، بل سيولاً من الدموع، تغرق الكتاب. كاليبسو، أو كاريس،وفينوس؛ تليماك، منتور، فيلوكليس، وإيدومينيه، يسكبون كثيراً من تلك الدموع الغالية. إنه يريد أن يكون محبوبًا، رقيقًا، حنونًا. إذ يقول في «رسالته عن مشاغل الأكاديمية»: أفضل المحبوب، عن المذهل، والعجيب؛ ويقول فيه أيضًا إنه يود أن يسمح في اللغة بكل ما ينقصنا من تعبير، يكون جرسه رقيقًا: فيجيبه مدير الأكاديمية «الرقة التي تمتازون بها... ». كان محسنًا، كريمًا؛ ولقد عرف وباشر بسليقته كل طرق افتتان القلوب، ما تقاوم منها وما تسلم.

ولكنه كان يعلم أيضًا أن خياله كان طموحًا، ملحًا، لا يقنع بالتحليق في «ماوراء الواقع». كان عليماً بقدرته على أن يكون متكبراً، متجبراً، بل كانت تكمن في نفسه قوات حية من الحقد. كم كان بعيداً عن الكمال! كم كان تعساً بهذه المتناقضات! نفس معذبة، قلب فريسة للحزن، وللضجر، ولذا كان يتطلع متألمًا إلى «أغوار لا تشرح» في كيانه الأخلاقي؛ فيحس عندئذ شعوراً من الاشمئزاز، لأنه كان يرى فيه أفاعي– على حد قوله.

إنه يتوفى إلى مياه نقية تستطيع أن تروى غليله؛ ويتحرق إلى الغفران الذي قد يمحو نقائض الدنيوي، الدساس، الطموح، الممثل؛ ويتمنى كمالاليس في مقدوره أن يصل إليه بلا عون؛ إنه يتألم من قلقه. هنا ولا شك، سر نفوذ مدام جويون Guyon: إنها لم تنل هذه السيطرة العظيمة عليه، إلا لأنه كان يشعر بحاجته لأن يصهر ويمحو الأغلال التي تثقل كاهله في نار التصوف. كانت مدام جويون قد كسبت طالبات مدرسة سان سير Saint-Syr [1]، وكبار السيدات، ومدام دى مانتنون نفسها: كسب سرعان ما ضاع، لأن هذه النفوس تتدارك خطأها عند أول

(١) – مدرسة أنشأها لويس الرابع عشر بمعاونة م مدادي مانتنون لفتيات الطبقة النبيلة. (المترجمان)

إشارة. ولقد حاولت أن تكسب بوسويه: مهمة عسيرة جداً، فإنها لم تفلح حتى في استشارة أي رغبة عنده، لأن إيمانه لم يكن في حاجة إلى هذا العون المشتبه فيه. إن هذه المرأة، بصفتها امرأة، هذه السيدة التي «لديها فكرة كبيرة عن نفسها»، التي تباهى بأنها تتنبأ، وتواتيها الرؤى، وتأتي بالمعجزات، - كانت موضع كراهيته. عندما تدعى أن الدعاء ينبغي أن يكون فناء كلياً للنفس، وأنها لا تستطيع أن تطلب شيئاً من الله، ولا حتى عفواً عن خطاياها: انتهى أمرها، إن مدام جويون ملحدة، لن يستمع إليها بوسويه. أما عند فنيلون، ذي القلب المهموم، ذي القلب المحموم، ذي الروح التي تبلغ من النبل أن تدرك نقائصها، ولكنها لا تستطيع لاستغراقها في الحياة أن تتخلص منها- عند فنيلون، كانت مدام جويون تأتي بمذهب الحب النقي.

الوسائط بين الله والإنسان، تلك الوسائط التي يبدو بعضها كثيفاً غليظاً، والبعض الآخر دقيقاً وغير مادي تقريباً، ولكنها مع ذلك تكوّن فواصل، يقل احتمالها كلما وصل الإنسان إلى هذه الدرجة من الرغبة حيث تبدو له عندها أقل عقبة- مثل لزوم حركة أو وجوب دعاء- أقوى العقبات؛ هذه الوسائط بين الله ومخلوقه تريد مدام جويون أن تقضي عليها. ولما كانت حديثة في المذهب، وقد تملكها رغبة شديدة في توجيه الضمائر، فإنها تقول لنا كيف ينبغي أن نعمل لكي نصل إلى هذه الدرجة العالية من الروحانية. فهي تصيح أن تعلموا العبادة، تعلموا الدعاء: يجب أن تعيشوا على الدعاء، كما يجب أن تعيشوا على الحب. تعالوا، أيتها القلوب المسغبة، تعالوا أيها المعذبون المساكين؛ تعالوا، أيها الخاطئون، بالقرب من ربكم. تعالوا، يا من لكم قلب.

إنك تضع نفسك بين يدي ربك، بفعل من أفعال الإيمان الحي؛ تبتدئ بقراءة بعض نصوص من كتب الدين لا للتفكير والاستدلال بل لحصر الذهن فحسب. ثم تستغرق في نفسك بعمق، وتجتمع كل حواسك في دخيلتك. وحين تتأثر عاطفتك، دعها تسترح في هدوء وسلام. فلو أنك حركتها أكثر، لحرمت روحك من غذائها؛ يحسن أن تهضم ما تتذوقه في شيء من الراحة المملوءة بالمحبة والثقة.

وتتولد العادة؛ فتبتدئ الدرجة الثانية من التعليم، الدعاء في بساطة. ولا يلزم إلا قليل من الجهد؛ ويزداد الاحتمال؛ يكون الشعور بوجود الله أيسر، وكأنه أقوى. ولا سيما إذا أفاءت الروح على الدعاء حبًا صافيًا، متجردًا من كل ما لا يكون الحب ذاته، وبالتالي حبًا خاليًا من التغرض. لا يجوز أن تطلب الروح شيئًا، لا يجوز أن تقوم بالدعاء لتحصل على شيء من الله، لأن الخادم الذي لا يخدم سيده إلا إذا كان يكافئه، لا يستحق المكافأة. لاابتهال، بل انتظر كل شيء. دعاء يكاد يكفي للاستغراق في التقوى: ليس الدعاء إلا شعلة حب تصهر الروح وتذيبها.

إن المسيحي الذي يرتقي الجبل المقدس يصل عندئذ إلى الاستسلام: تجرد من كل عناية بالنفس ليسلم قيادة كله لله. لا استدلال ولا تفكير. اطراح كل إرادة، حتى ولو كانت طيبة. عدم اكتراث بكل شيء، سواء للجسد أو للروح، بالخيرات الزمنية والأبدية؛ ترك الماضي في غياهب النسيان، والمستقبل للعناية الالهية، وإعطاء الحاضر لله. فمن يستسلم له تمام الاستسلام فسرعان ما يحوز الكمال.

عندئذ تختفي الصفة الخاصة للفرد، منشأ كل خبث. إذ يبعث الله أمامه حكمته تعالى، كما ستبعث النار على الأرض لتفنى كل نجاسة في الإنسان. النار لا تبقى ولا تذر، ولا شيء يقاومها إلا وتفنيه. والحكمة الالهية مثلها، تفنى كل نجاسة في المخلوق لإعداده للاتحاد الالهي. وإنه لاتحاد يجل عن الوصف. وإذا نحن أردنا، بالرغم من ذلك، أن نعبر عنه بالألفاظ، يمكن القول إننا نشعر بمحبة علوية تغرقنا في السعادة. إن في التنازل عن الإنية، في امتلاك اللانهائي، للذة يستحيل على أي متعة بشرية أن تعطينا فكرة عنها. لافراغ بل غزارة. فالتنازل هو الكسب؛ التخلي، هو غنم كل شيء. ليس علينا إلا أن نحبَ.

هكذا تقدم مدام جويون، ملخصة لأول مرة بياناتها المسهبة، إلى من يريد الاستماع إليها «وسيلة مختصرة وسهلة للدعاء، يستطيع الجميع أن يباشروها بكل يسر، وهكذا يصلون في قليل من الوقت إلى كمال رفيع» (١٨٥٦). ولما كانت جريئة، دساسة، فقد كانت تحلم بمشروع تجديد ديني واسع. لم تجد أبدًا، لا في

دوفيني، ولا في أثناء تجولها في طرق بيمونت مع معاونها الأب لا كومب، وهي تبشر، وتنشر مذهب مولينوس؛ ولا في باريس، لم تجد أبداً رجلاً يقدر على أن يضفي على مذهبها السعة والانتشار. كانت تتمنى أن يكون فنيلون المصباح المشتعل الساطع الذي يضيء الكنيسة المجددة؛ وأن يبين كيف يجب أن نتعبد «للسيد» في تناول القربان؛ كيف يجب أن نكافح الشيطان؛ وجماع القول، أن يوطد تحت قيادته سلطان المحبة الالهية.

ولعلها قد تكون في نظر الآخرين امرأة مغامرة: أما عنده هو فكانت المرشد الذي يدفعه نحو الكمال. كم كان من الصعب عليه أن يتخلى عن منطقة، المنطق البالغ الرقة والفطنة! وأن يتنازل عن حكمته الانسانية! عن كل تلك العناصر الدنسة التي يناقض وجودها إرادته الطيبة ويؤذيها! ولكن الحمية الصوفية التي كانت تذكيها هذه المرأة، كانت تقضي رويداً رويداً على هذا الدنس. «أكن لك إخلاصاً متزايداً، لا يفوقه إلا إخلاصي لله، وهو وحده عليم بمقدار شكري لك.» وكان عرضه لنكسات، وغفلات، واندفاعات إرادية، وللكراهية، ونفاذ الصبر، والكبر، ونوبات من الاجذاب، باطناً بالنسبة إلى الدعاء، وظاهراً بالنسبة إلى الصلة بالناس: فكانت تقوّمه، وتدفعه إلى التقدم، وتزيل عنه هذه العوائق. فكان يستشعر تجدداً من السذاجة والبراءة: «يا للسعادة اللانهائية في تصاغرنا إلى غير شيء!»؛ وكان يشعر أنه يصير إلى ما كان يود أن يكون، فانياً، محروماً، مثل طفل صغير. عندئذ كان ينظم أشعاراً، على منوال الأغاني:

O Pur amour, achéve de détruire

Ce qu'a tes yeux il reste encor de moi,

Divin vouloir, daigne seul me conduire,

Je m'abandonne a ton obscure foi... (١)

---

(١) - أيها الحب الصافي، أنجز تدمير- ما تراه باقياً من نفسي- أيتها الإرادة الالهية- اقبلي أن تقوديني وحدك- إني أستسلم لدينك الغامض...

أو:

C'est peu pour toi que n'avoir plus vie

Et qu'abimer ce moi jadis si cher... [1]

ولم يكن هذا بكاف؛ فقد كان لا يزال باقيًا في الأشعار شيء صريح، واضح؛ فقد كان يلزمه بعض التمتمة، والهمهمة، كالأطفال. فكان يعود دائمًا إلى هذا: أي متعة في أن يكون المرء مخلوقًا يزعم أنه مدين بوجوده لنفسه، مليء بالخبث، قلق، تعس، معذب على الدوام- ولا يصبح الآن، إلا طفلاً صغيراً، نائمًا على ذراع «الأب»! وكانت تكتب له: «لابد من أن تصبح يومًا بسيطًا مثلي. كلما كنت حكيمًا، كنت بسيطًا وصغيراً، بفرض أن الإيمان هو أن يقلع المرء عن أن يكون رجلاً كبيراً ليصبح طفلاً صغيراً.» ويكتب هو لها: «إني أفتح لله كل امتداد قلبي، لأتلقى روح الطفولة والصغر، هذا الذي تتحدثين عنه.»- «يخيل إلى أن الله يريد حملي كطفل صغير، وأني لا أستطيع أن أخطو خطوة وحدي، دون أن أتعثر. وعلى شرط أن ينقذ إرادته في نفسي، وبنفسي، فسيكون كل شيء حسنًا، مهما حدث.»

سيكون كل شيء حسنًا. حتى الاضطهادات حتى التفسيرات الخاطئة لمذهب مدام جويون: لأنه كان يعدها تفسيرات خاطئة، ولم ير في مدام جويون شيئًا يزيد عما نراه في أكبر المتصوفين الذين اعترفت بهم الكنيسة: القديسة تيريزا قديسة يسوع، والقديس يوحنا قديس الصليب. إلا أن قومًا لم يجبلو على تذوق عذوبة الحب الصافي، قابضين أيديهم الغليظة على تلك الزهرة الرقيقة للتقوى الجليلة، كانوا يزعمون أنها ليست جديرة بمذابح المعابد. حتى الحكم المدين، الصادر من روما بعد معارك طويلة، لم ير فيه إلا امتحانًا؛ فالتصاغر، وقبول هذا الحكم، وإبلاغه في خطاب رعوى إلى المؤمنين في أسقفيته، لم تكن عنده إلا وسيلة للقضاء

(١) - إنه لشيء قليل بالنسبة إليك ألا تكون لي حياة- وأن ألغي إنيتي العزيزة على...

على رجل الجسد، وقبول التضحية النهائية، وإبطال آخر مقاومة للكبرياء، والانتصار بالله. Inveni portum : لقد وجد الطمأنينة التي لم يعرفها أبداً قبل اتصاله بمدام جويون، والتي لا يريد أن يفقدها حتى مماته. وكان يعترف بأخطائه، إذا كانت أخطاء؛ ويفرض على نفسه العقاب، إذا ارتكب خطيئة: ولكن ذهنه لم يكن فيه محل للخطأ، ولم يكن في مقدور قلبه أن يأثم؛ كان غير شيء تماماً، رماداً- بقية حب يبلغ من القوة أنه لم يجد قناعة إلا في موت الكائن الذي اختار أن يحرقه. إن مأساة سيره الباطني نحو الحب الصافي، لأهم عند فنيلون من المأساة التي يتجه إليها اهتمامنا عادة- الجدال مع بوسويه، الرسائل، البحوث، الردود، الردود على الردود، الأفحاص، المرافعات، القرارات. مأساة خفية، لا يمكن لرجل الشارع أن يكون لديه ولو فكرة عنها: هل يستطيع أن يتصور الصفة المؤثرة، الصفة الخطيرة لتحول الماهية البشرية هذا إلى ماهية إلهية، لهذا التطهر بالنار؟- «عندما أتحدث عن الحب الصافي، لا أقصد الحب الحار الذي لا يعمل إلا على تجميل من يشعر به، والذي يبدو كأنه مخصص له: هذا الحب غير مكمل، مع أنه الحب الذي يعده الجهال ذروة القداسة. لست أرى حباً صافياً إلا الحب القاسي، المبيد، الذي لا يجمّل أو يزين صاحبه، بل ينتزع منه كل شيء بلا رحمة، لكيلا يبقى فيه شيء، وبذا لا يحول شيء دون انتقاله إلى الآخرة. وفيما ذلك عدا ذلك لا يمكن أن يكون للحب الصافي وجود. كل عناية تتجه إلى أن يقبّح، وينتزع، ويهلك، ويضيع؛ لا عيش له إلا في الهلاك؛ إنه مثل هذا الوحش الذي رآه دانيال والذي يأكل، ويستحق، ويلتهم كل شيء.»

* * *

كان لمدام جويون أتباع في كل أنحاء أوربا، وقد نشر بواريه Poiret مؤلفاتها، بواريه الذي لم يكن أقل من علّموا «لاهوت القلب». كان المتحمسون يطاردون بلا جدوى: ما من قوة كانت تتغلب عليهم؛ وكيف يمكن ردهم إلى جادة العقل، ماداموا يرفضون التعقل؟ كانوا يتزايدون، ويتكاثرون، أولئك الجشعون، أولئك

المتحمسون، بل أولئك المرضى الذين، وقد غالوا في نصائح الأساتذة المغالين، انتهوا إلى البحث عن الله في غليان أعصابهم، في اختلال أذهانهم، في الجنون. لقد كانوا يرفضون أي إجبار، إجبار الكنائس الأهلية، التي تبدو لهم كسجون؛ وإجبار رجال الدين، الذين كانوا يسمونهم الطغاة؛ بل حتى إجبار المجتمع، الذي كان يضطهدهم. ويعدون التقدم فساداً، والعلم انحلالاً. ويقبلون على وجه العموم الخطيئة الأولى، والخلاص. أما وقد انتهت فائدة هذا الخلاص الأول، فلا بد من خلاص ثان، مجيئه وشيك. لقد انتهى الزمن، إن «النبى الكذاب» Antéch-rist يسيطر على الدنيا، التي لم يعد فيها مسيحيون حقيقيون:

Cet Antéchrist est né

Ja plus d'un an passé

Le temps est arrivé

Qu'il soit manifesté.

Je l'ai vu en esprit

Par une claire nuit,

Sur un théâtre grand

Riche et resplendissant,

Couvert d'un pavillon

Bordé a l'environ,

Tout tendu de velours

Incarnat a l'entour.

Dessus un lit mollet

Demi couché il est,

Il n'est plus en bas âge

Ains un grand personnage.

Sa gloire est sans pareille,

On l'estime a mereille,

Fait paraître son train

De nuit, en grand festin:

Il a valets en nombre,

Comme une armée innombre

du peuple aux environs

De toute nation... [1]

بدأت النكبة الأولى: الحروب؛ وسوف تتبعها الأخرى، الطاعون، والنار، والمجاعة. ولكن الله لن يدع المؤمنين يهلكون. عن قريب سيأتي المسيح، جسماً، وروحاً، وألوهية، وفي مجد عظيم، حينئذ يبدأ عهد السعادة الصحيحة.

وكثيراً ما كان أولئك المتحمسون يؤسسون الجمعيات؛ مثل جوهان جورج جيتشل، الذي أسس جمعية الإخوان الملائكيين: فعلى أشياعها أن يحولوا الناس إلى ملائكة، بالتخلي عن كل المشاغل، وكل الأعمال، بالتأمل والخمود. أو مثل جين ليد التي أسست مذهب «صوفي المتصوفة» ونظمت شيعة «الفيلادلفيين»،

(١) - لقد ولد هذا النبى الكذاب- منذ أكثر من عام- وقد حان الوقت- لكي نزيح عنه الستار- لقد رأيته في المنام- ذات ليل مضيء- على مسرح كبير- غنى ساطع- يظله سرداق- منقوش الحروف- كله من مخمل قرمزي- مستلقياً على فراش وثير- ليس صغير السن- بل يبدو كرجل كبير- إن مجده ليس له نظير- يقدره الناس أكبر التقدير- يجعل من حياته في الليل- حفلة كبيرة: عنده عدد كبير من الأتباع- كجيش عرمرم- يحيط به حشد- من كل شعب

(انطوانيت بورنيون، النبى الكذاب المكشوف، أمستردام ١٦٨١، الفصل الثالث والعشرون).

والتي وجدها جتشل ضيقة الأفق، ولا تتفق بساطتها مع ذوقه. كانت تقنع برؤى متواترة، وتنبؤات كالآتية: سوف تفتح الأختام السرية لكتاب الحمل، سوف يطارد أتيلا العظيم التنين، وسيرفع الفيلادلفيون راية المحبة المطرزة بالاسم الملكي، وسينتشر الانجيل في كل مكان، وسوف تدين أكثر بلاد الأرض تأخراً للمسيح المنقذ...

ولم يكتفوا بالاستسلام العلوي؛ بل كانوا يرون رؤى إعجازية، ويقعون في نشوات وغيبوبات؛ لم يعد الأمر يتعلق بالمتع الروحية فحسب بل بالمتع الحسية أيضاً. كانوا يكافحون الشيطان، الذي كان يتبدى لهم في صور مرعبة؛ ويخرجون متصرين من تلك المعارك المضنية. كانوا أنبياء، شافين، صانعي معجزات: يالصانعي المعجزات المساكين، الذين سجنهم الناس، ورجموهم بالحجارة، الذين انتقلوا من مدينة إلى مدينة، ومن بلد إلى بلد، يتعقبهم أصحاب السلطان، وفي نفس الوقت جنونهم. وكانوا يجدون سلوة في التفكير في أن الشيطان هو الذي يجر هذا العذاب، لأنه كان يرى فيهم مدمري سلطانه وعدة الله. وكانوا يموتون تعساء، على أسرة المستشفيات؛ وأحياناً يموتون في عذاب، مثل كورينوس كوهلمان، الذي، بعد أن اخترق ألمانيا وهولندا وفرنسا وإيطاليا وتركيا، باذراً الحب في أراض مجدبة جرداء، محاولاً إنشاء الجمعيات في طريقه، معلناً أن بابل سوف تسقط وتبتدئ الملكية الخامسة للصالحين- أحرق في موسكو عام ١٦٨٩.

فلنفكر في عددهم الكبير؛ وفيما بينهم من علاقات، وروابط، وصلات؛ وفي الكتب التي ينشرونها بوفرة، والتي تجد دائماً مترجمين في كل بلد، شبكة «تيوصوفية» théosphigue واسعة تمتد خلال أوروبا. فلنفكر في طبقة أخرى من الأفراد الذين يتغذون بأحلام أخرى؛ في أشياع «الصليب الوردي» الغامضين، في القبلين Cablistes؛ في الموقفين الذين ينشدون حجر الفلاسفة، ظانين أنهم سيستطيعون إذابة مظاهر روح الكون الموحدة بعضها في بعض: حينئذ سوف تتكون لدينا فكرة، عن تخمر هائل متصل.

إن الشعور يهزمه العقل، ولكنه لا يقبل هذه الهزيمة. ضد أنوار المعرفة، كما يفهمها الفلاسفة، يزعم «الملهمون» Ies illuminés أن لديهم ناراً تنيرهم وتشعلهم في وقت واحد. ضد العلم الذي يستأمن المستقبل على تقدمه، يعلن «اليتوصوفيون» أن لديهم علماً مباشراً لدنياً، هو وحده الذي يحسب له حساب.

إن سواد المفكرين المعاصرين يقولون: «المعرفة»؛ ولكن أقلية تجيب: «المحبة». إن أنطوانيت بورنيون، في حياتها المغامرة المتعدية، حياتها المضطهدة- تلك المرأة العجيبة التي انتهى الأمر بها إلى ألا يكون لها حياة عاطفية؛ التي تتصل مباشرة بالله وتحتقر المعرفة لأنها تحجب الحكمة الغامضة التي تكفيها كل الكفاية؛ والتي تعلن أن حتى لو اندثر الانجيل، لوجد المخلوق في نفسه ناموساً يكفي ليقوده نحو الحقيقة ونحو السعادة [1]- أنطوانيت بونيون هذه، واجهت ذات يوم بعض الهولانديين من أشياع ديكارت. لقد عقدت اجتماعات مع الديكارتيين، وكونت عن مبادئهم فكرة مروعة ... لم يرضوا عنها قط، ولم ترض عنهم بالمثل. لم يكن منهج الديكارتيين من شأنها؛ لم تكن تريد أن نستشير أنوار العقل، على حين أن مبدأهم أنه يجب أنه نفحص كل شيء بهذا المحك. وكانت تؤكد «أن الله قد كشف لها، بل قال لها صراحة إن غلطة الديكارتيين هذه، هي أسوأ الغلطات، وألعن إلحاد رآه العالم، وأنها كفر بيّن، أو إنكار لله، الذي يحل محله العقل الفاسد.» يضاف إلى ذلك ما كانت تقوله عن الفلاسفة من أن «مرضهم مرده إلى أنهم يريدون فهم كل شيء بنشاط العقل البشري، دون أن يتركوا أي مجال لآلهام الايمان، الذي يتطلب إبطال عقلنا، وذهننا، وفهمنا الضعيف، لكي ينشر الله فيها، ويذكي ذلك النور الالهي. وبغير ذلك، لا يقتصر الأمر على أننا لا نعرف الله حق المعرفة فحسب، بل إن الله ومعرفته الحقيقية يبتعدان أيضاً عن النفس بفعل نشاط عقلنا هذا، وذهننا الفاسد. وإن هذا لنوع من الكفر، وإنكار الله ... [2]»

* * *

(١) - النور المتولد في الظلمات، انفرس ١٦٦٩ - الطبعة الثانية، أمستردام، ١٦٨٤.

(٢) - بيير بايل، القاموس، باب بورنيون، بيان ك.

«عندما ألغى القرن الثامن عشر، أو ظن أنه ألغى - والمعنى واحد - صورة الاله ذي اللحية البيضاء، الذي يشمل كل مخلوق بنظره العطوف، ويحميه بيمينه، لم يلغ في نفس الآن المسألة الدينية. لأن الرغبة الصوفية الصوفيةشيء، والصورة التي نتخذها رمزاً لهذه الرغبة، ترضية لأنفسنا، شيء آخر. فإذا زال الرمز، بقيت الرغبة. إن الإنسان عطش إلى أن يجد فوقه ملاذاً سامياً يبث إليه رغباته المكبوتة، التي تصر على أن تنبجس من أعماق نفسه [1].»

---

(١) - بيير ابراهام، شخصيات عند بلزاك، ١٩٣١، ص١٥.

خاتمة

ما هي أوروبا؟ بغضاء محتدمة بين جيران يتقاتلون. منافسة بين فرنسا وإنجلترا، وبين فرنسا والنمسا؛ حرب حلف أوجسبرج، حرب الوراثة الإسبانية[1] حرب عامة، كما تذكر المؤلفات التاريخية التي لقيت صعوبة في تتبع تفاصيل هذه المعارك المهوشة. الاتفاقات لا تؤدي إلا إلى هدنات قصيرة، والسلام لم يعد إلا حنيناً إلى الوطن، والشعوب تنهك بينما تستمر الحرب: والجيوش تعاود القتال في كل ربيع.

إن ليبنتز، وقد رأى استحالة منع الأوروبيين من التقاتل، يعرض عليهم توجيه حميتهم الحربية الجنوبية إلى الخارج. فالسويد وبولونيا تغزوان سيبريا وروسيا الجنوبية، وإنجلترا والدانمراك تختاران أمريكا الشمالية من نصيبهما؛ ويكون لإسبانيا أمريكا الجنوبية، ولهولاندة بلاد الهند الشرقية؛ وترى فرنسا أفريقية في مواجهتها، فلتغتصبها، ولتتوغل حتى مصر، ولتبسط حتى الصحراء سلطان زهور الزنبق. هكذا تستغل كل تلك الجنود، كل تلك البنادق، كل تلك

---

(١) - حرب حلف أوجسبرج: حلف وقع عقب فسخ أمر نانت بين النمسا وإسبانيا والسويد وبعض أمراء ألمانيا ووليم أورانج ضد لويس الرابع عشر. وامتدت الحرب تسع سنين وانتهت بصلح رزويك (١٦٨٨-١٦٩٧).

حرب الوراثة الإسبانية: بين فرنسا والدول المتحالفة: النمسا وإنجلترا وهولاندة بمناسبة جلوس فيليب الخامس (حفيد لويس الرابع عشر) على عرش إسبانيا، انتهت بمعاهدة أترخت (١٧٠١-١٧١٣). [المترجمان]

المدافع، ضد البرابرة، وضد غير المؤمنين؛ وهكذا تتباعد المطامع والمصالح في أقاصي الأرض، ولا تتصادم بعد ذلك أبداً.

أما الأب سان بيير فلا يقنع بابعاد المنازعات. «عندما فكرت في شأن القسوة، والقتل، والعنف، والحريق، وغير ذلك مما تسببه الحرب من خراب، ولما كنت شديد التأثر بما أصيبت به فرنسا وغيرها من شعوب أوروبا، جعلت أبحث فيما إذا كانت الحرب شراً ليس له دواء، وفيما إذا كان من المحال جعل السلام مقيماً...[1]» أجل، فلنجعل السلام مقيماً، بل دائماً! ولتجعل الأملاك الحالية مكتسبة إلى الأبد، لا تقبل أي تغير أو تصرف؛ ولكيلا يكون لدى دولة جيوش أكبر مما لدى جيرانها، تحدد القوات العسكرية ويعين عددها، وليكن اثني عشر ألف فارس على الأكثر. وإذا تولد نزاع بالرغم من كل ذلك، يحتكم فيه إلى «الاتحاد»، وعند الاقتضاء يعلن «الاتحاد» الحرب على الأمير الذي يرفض الخضوع للنظام الذي وضعه، أو الاذعان للحكم الذي أصدره. وينعقد مجلس مستديم من مندوبين مفوضين في مدينة حرة، محايدة، مثل أترخت، كلونيا، جنيف، أو أكس لاشابل... إن كلمة تفتن الأب سان بيير، وهو ينظم -بدقة الخياليين- تفاصيل حلمه؛ كلمة يخالها تتضمن كل الآمال، كلمة «أوروبي»: محكمة أوروبية، قوة أوروبية، جمهورية أوروبية. فليسمع الناس له، حينئذ تصبح أوروبا جمعية، بدلاً من أن تكون ميداناً للقتال.

ولكن عندما أراد ليبنتز في عام ١٦٧٢ أن يشرك فرنسا في مشروعه العظيم، كانت الحرب قد أعلنت على هولاندة؛ وليس من المحقق أن لويس الرابع عشر قد

(١) - شارل كاستيل دي سان بيير، مذكرات لجعل السلام دائماً في أوروبا، كولونيا ١٧١٢ مقدمة. Ch. Castel de Saint-Pierre, Mémoires pour rendre ld paix perpetuelle en Europe, Cologne, 1712. Préface

قابل هذا الفيلسوف الذي قدم من ألمانيا ليمحضه النصح. وعندما جعل الأب سان بيير، بعد أربعين عاماً، يقيم سراباً فوق سراب، تركه معاصروه يبني أحلامه السابقة لأوانها في الخلاء. ولما كان الأب سان بيير، يمتلئ بحمية جديدة، ويبحث عن عون، فقد أبلغ خططه إلى ليبنتز، ذلك البطل العجوز في قضية السلام الكبرى، فرد عليه ليبنتز في حزن شـــديد. رد عليه بأن أكثر ما يعوز الناس ليتخلصوا مما لا يحصى من الشرور، هو الإرادة؛ وأن الأمير الهمام يستطيع، في أسوأ الظروف، أن يرد غائلة الطاعون أو المجاعة عن حدود بلاده، إلا أن تفادي الحروب أشق من ذلك بكثير، لأن الأمر لا يتعلق بقرار رجل واحد، بل يتطلب مشاركة الأباطرة والملوك. ولا يوجد الوزير، على حد قوله، الذي يستطيع أن يعرض على الإمبراطور أن يتنازل عن حقوقه في وراثة عرش عن إسبانيا، وبلاد الهند، لقد كان الأمل في إدخال الملكية الإسبانية إلى العرش الفرنسي، مصدر خمسين عاماً من الحرب؛ ويخشى أن الأمل في إخراجها منه قد يعكر صفو أوروبا خلال خمسين سنة أخرى. «هناك في أغلب الظروف، أسباب مقدرة تحول دون أن يكون الناس سعداء ... [1]».

* * *

ما هي أوروبا؟ شكل متناقض: قطعي معين، وغير ثابت في وقت واحد. اشتباك من الحواجز، أمام كل منها أناس صناعتهم طلب إجازات السفر، ودفع المكوس؛ كل العوائق الممكنة تقام في سبيل الاتصالات الأخوية. حقول نعتني بتحصينها حتى لا نجد وقتاً لاستغلالها؛ ما من قيراط واحد من الأرض إلا كان

(١) - ليبنتز إلى الأب دي سان بيير. من هانوفر، ٧ فبراير ١٧١٥-اقرأ لنفس المؤلف، ملاحظات عن مشروع السلام الدائم للأب سان بيير (مصنفات ليبنتز، طبعة فوشيه، الجزاء الرابع).
والحروب، تماماً كما ستوجد الرذائل طالما هناك أناس في الأرض...».

محل نزاع من قرون، وكل ممالك يسوره بدوره. لم تعد هناك مساحات واسعة كبيرة حرة؛ كل شيء منظم، معين، محدد؛ إننا نشعر بضيق واختناق؛ لا يوجد محل خال: «لقد قدمت إلى الدنيا متأخراً، حتى إني لا أكاد أجد فيها شبراً من الأرض لأبني فيه لنفسي مقراً، وقبراً[١]».

هذه الحدود المعينة، نجعلها غير محققة، مادمنا نغيرها تبعاً للفتوحات، والمعاهدات أو حتى بمجرد وضع اليد. هذه الحواجز، نقدمها، ونؤخرها، ونزيلها، ونقيمها من جديد؛ ولا يكاد الجغرافيون ينتهون من وضع الخرائط الجديدة، حتى تصبح هذه الخرائط عديمة القيمة[٢]. ممالك بأسرها نريد أن نجعلها تكملة لممالك أخرى، وجبال البرانس نريد أن نلغيها. ومن هنا هذا التناقض الداخلي: إن أوروبا لمركب من أشكال تزعم أنها لا تمس، بينما هي لا تكف عن المساس بها.

من جهة الغرب يسود الاطمئنان: فلن تأتي عن طريق البحر أساطيل بربرية كبيرة؛ ولن يقبل الغزاة الأجانب لتخريب القرى العريقة، وإذا حدث قتال، فلن يكون هذا -ولله الحمد- إلا بين إخوان؛ إنجليز، فرنسيين، برتغاليين، وإسبان. -وفي البحر الأبيض المتوسط، جعل الأتراك يأتون بأعمال مهينة حيال السياح والبلاد الواقعة على الشاطئ: إلا أنهم لا يمثلون خطراً داهماً- أما من جهة الشرق، فيا للمفاجأة! فيما مضى، كان على أوروبا أن تدافع عن نفسها أمام جيوش الهلال، التي جاء دورها لتقبض على زمام المدنية. أما الآن فلم تعد المسألة بهذه السهولة. فها هم أولاء ملايين من الناس يظهرون على أبواب الشرق،

---

(١) - مارانا: محادثات بين فيلسوف ورجل منعزل عن موضوعات شتى أخلاقية وعلمية، ١٦٩٦، ص ٢٩. انظر أيضاً ص ٢٨: «يحاول الناس فض المنازعات بالعنف والحدة، فالقوى سيتغلب دائماً على من كان أقل استعداداً للدفاع عن نفسه؛ وطالما هناك ولايات وممالك، وشعوب، ستبقى العداوات والحروب، تماماً كما ستوجد الرذائل طالما هناك أناس في الأرض....»

(٢) - جريدة العلماء، ١٣ إبريل ١٦٩٣. بمناسبة «الحالة الحاضرة للشئون الأوروبية» ١٦٩٣: «لا يمر يوم تقريباً إلا وتتعرض فيه لتغيير جديد».

مطالبين، تنفيذاً لإرادة القيصر، بالانضمام إلى أوروبا. يطلبون أن ترسل إليهم منتجات أمستردام، ولندن، أو باريس؛ ونماذج أيضاً وأساتذة؛ فهم يحلقون لحاهم وشعرهم ويغيرون ملابسهم ويدرسون اللغة الألمانية ... لكن نفوسهم، ترى هل يغيرونها بمثل هذه السرعة؟ هل سيقنعون بدور التلامذة المتأخرين، الذين ينصتون في تواضع إلى دروس إنسانية سامية؟ وإذا نحن لبينا رجاءهم (وكيف لا نلبيه؟) أفلا يحتمل أن يعرضوا علينا يوماً حكمتهم الخاصة مقابل حكمتنا؟ أما كونها حكمة أو جنوناً، فهذا هو السؤال الذي سيعرض فيما بعد. لكن أوروبا تشعر من الآن بشيء من الضيق، فقد فقدت توازنها بفعل أوروبا المنافسة هذه، بفعل هذا الامتداد والتقليد والتزييف لأوروبا التي ظهرت على حدود الشرق.

أوروبا، أرض النزاع والحسد! الحسد والألم والمرارة. فاللاتين يحتقرون الجرمان، لضخامة جرمهم، وجفوة خلقهم، وبلادة ذهنهم؛ والجرمان يحتقرون اللاتين، المنهوكين، المنحلين. واللاتين يتشاجرون فيما بينهم؛ يبدو أنهم يتألمون حين يضطرون إلى الاعتراف بمزايا شعب مجاور، فلا يخطر ببالهم أبداً سوى النقائص. مثل معطف أزمودية، الشيطان الأعرج، حيث نرى صوراً لا تحصى منقوشة بالحبر الصيني: فليس بينها صورة جميلة، بل كلها قبيحة: سيدة إسبانية متشحة تغازل أجنبياً في الطريق؛ سيدة فرنسية تتمرن أمام المرآة على حركات مغرية جديدة، لتجربها على قسيس شاب، يتقدم إلى مدخل غرفتها، وقد جمّل وجهه بالأحمر، بخال اصطناعي؛ جماعة من الألمان، غارقة في الفوضى، وقد صرعهم النبيذ ولوثهم الطباق، يحيطون بمائدة تفيض بآثار فسقهم؛ إنجليزي يقدم إلى رفيقه بكل رشاقة غليوناً وقدحاً من الجعة ...[1] وبالمثل، أدخل إلى حديقة السيد سبكتاتور: تجد الأزهار، بمجرد أن تصبح شعاراً للشعوب، تفقد بهاءها وشذاها: فإن أريج زهور إيطاليا بالغ القوة، يؤذي المخ؛ وأريج زهور فرنسا -ولو أنها زاهية،

(١) -لوساج: «الشيطان الأعرج»، الفصل الأول.

فاتنة، حية- ضعيف وعابر؛ وزهور ألمانيا وبلاد الشمال إما أن أريجها ضعيف وإما أنها ليس لها أريج، وإذا كان لها رائحة فهي كريهة على كل حال[1].

* * *

ومع ذلك، فإذا استمع المرء مدة طويلة، كما استمعنا، إلى الصيحات والشكاوى التي تصّاعد من هذه الأراضي المعذبة، فإنه يسمع أيضًا، وسط التحرش والتأنيب، أصوات الكبرياء. يسمع أنشودة تتعالى شيئًا فشيئًا تمجيدًا لمزايا أوروبا التي لا تستطيع أي قوة في الدنيا أن تعادلها ذكاء، وقوة، وظرفًا، وبهاء.

صحيح أن أوروبا أصغر أقسام الدنيا الأربعة: ولكنها أجملها، وأخصبها، إذ ليس فيها قفار أو صحراء؛ كما أنها أكثرها استثمارًا؛ ارتقت فيها الفنون العقلية والميكانيكية إلى نضرة ليس لها مثيل. فليمدح الآخرون، إذا شاءوا، العجائب التي تكتشف في الصين: «هناك ضرب من العبقرية لم يخرج بعد من حدود أوروبا، أو على الأقل لم يبتعد عنها كثيراً ولعله غير مسموح له أن يمتد إلى مساحة واسعة من الأرض مرة واحدة، ولعل القدر يفرض عليه حدوداً ضيقة. فلنتمتع به طالما نمتلكه؛ ومن خير مزاياه، أنه لا يقتصر على العلوم وعلى الدراسات النظرية الجافة، بل يمتد بنفس النجاح حتى فنون اللهو والتسلية التي أشك في أن شعبًا من الشعوب يقف معنا على قدم المساواة[2]».

ومهما كانت أوروبا منقسمة على نفسها، فإنها تتحد بمجرد أن تواجه القارات التي عرفت كيف تستعبدها، والتي تستطيع أن تتغلب عليها كلما لزم الأمر. ما زالت باقية في أذهان شعوبها ذكريات الرحلات البحرية الباسلة، والاكتشافات، والسفن الموسوقة بالذهب، والأعلام المجيدة التي رفعتها على أنقاض الممالك البربرية. ولا زالت تشعر، على حد قولها، إنها «مهولة»،

---

(١) - سبكتاتور: رقم ٤٥٥.

(٢) - فونتنل: محادثات عن تعدد العوالم، الأمسية السادسة.

و«محاربة». «ولو أن أوروبا أرادت أن تذهل الشرق والغرب، لأذهلتهما قبل أن تقرر ذلك». -«عند أول إعلان للقتال يصدره أمراء أوروبا، يجدون رجالاً يحملون السلاح طواعية- لا تدفعهم إلا رغبة واحدة هي اكتساب المجد -أكثر ممن يستطيع الآسيويون والأفريقيون أن يجمعوا بفضل الذهب، والفضة، والوعود[1]».

إن أوروبا -وإن كانت ممزقة، مجروحة لوعيها التام لابتعاستها فحسب، بل بأخطائها أيضاً، وإن كانت تندم على فقدان وحدة العقيدةفوق ندمها على كل ما تشعر به من خسار، وإن كانت يائسة من أن تدعي «بالمسيحية» كما كانت تدعي فيما سبق- إن أوروبا لا زالت تحتفظ مع ذلك بشعور من امتياز يخصها وحدها، من بديعية تزيدها كل مقارنة ظهوراً، من قيمة موقوفة وفريدة.

* * *

ما هي أوروبا؟ تفكير لا يقنع أبداً. إنها لا تكف أبداً، دون أن تشفق على نفسها، عن تتبع بحثين: أحدهما في سبيل السعادة، والآخر في سبيل الحقيقة، وهو ألزم لها، وأعز. لا تكاد تجد حالة توفي هذه الضرورة المزدوجة، حتى تحس، وتعرف، أنها لا تملك بعد إلا الموقوت، إلا النسبي، وبصورة غير محققة؛ وتعاود بحثها المستيئس الذي تجد فيه مجدها وعذابها.

وفي خارجها، كتل بشرية، لم تلمسها المدنية، تعيش بلا تفكير، قانعة بالحياة. وأجناس أخرى تحس أنها بلغت من الشيخوخة والسأم ما يجعلها تكف عن قلق مضن، وتستغرق في جمود تدعى أنه حكمة، وفي عدم تزعم أنه كمال. وأجناس أخرى أمسكت عن الاختراع، مكتفية بالتقليد على الدوام. أما في أوروبا، فنحن ننقض في الليل النسيج الذي نسجه النهار؛ ونجرب خيوطاً أخرى ونصنع لحماً أخرى، وفي كل صباح نسمع صخب الأنوال التي تصنع الجديد في اهتزاز وارتجاف.

---

(١) - لوبس دي ماي، «السائح الحذر» جنيف، ١٦٨١، المقال الرابع «عن أوروبا عامة».

وإذا كان ذلك العامل الطماع قد استشعر يوماً أنه يستطيع أن يتوقف وأن يرتاح -لأنه أنتج أخيراً أروع تحفة- فإنما كان ذلك في العصر الكلاسيكي. هل كان يستطيع أن يخلق أشكالاً أجمل وأمتن؟ أشكالاً تبلغ من الجمال والمتانة ما يجعلها تنال إعجابنا اليوم، وتكون جديرة بأن تعرض كنماذج لأبنائنا وأبناء أحفادنا؟ بيد أن هذا الجمال نفسه يفترض أماناً في الأذهان التي أنتجته. لقد وجدت الكلاسيكية وسيلة لكيلا تطرح الحكمة القديمة، لكي تباشر الحكمة المسيحية؛ ولتحقق الاتزان بين مقدرات النفس؛ ولتبني النظام على أساس القناعة والاعجاب، ولتأتي بمائة معجزة أخرى، ولنجمل كل شيء في كلمة واحدة: لتعرض على الناس حالة تقرب من الطمأنينة.

حتى أن أوروبا، وقد سعدت بتأمل هذه النتيجة الجديرة بالذكر، توقفت لحظة. لقد توهمت، هنيهة، أن في مقدورها أن تتوقف قليلاً في وسط آمال وأوجه نظر تبلغ من الصحة والعظمة أنها لن تجد أبداً أضبط منها أو أكمل.

أمل لم يطل، بل سرعان ما أنكر؛ ميل إلى التوقف، أكثر منه توقفاً صحيحاً، لأن أوروبا لم تكف أبداً عن احتمال قانونها الخاص، قانونها القاسي. قبل أن ينتهي العلماء، في دنيا تقيم منطقها على الارتضاء المختار للسلطة، من شرح مذاهبهم وما بها من فوارق دقيقة، جعل علماء أخر يلفتون الأنظار إلى ما في هذه السلطة نفسها من أخطار وسوء استعمال، ونقائص، وانتهوا إلى رفض كل قيمة لفكرة السلطة، مكافحين كل ما فيها من تجاوز ومغالاة. هكذا بدأ العمل في البحث من جديد، خفية؛ وتولد الاضطراب تحت المظاهر الهادئة؛ وجعل الناس يسعون نحو سعادة أخرى، نحو حقيقة أخرى؛ وأخذ القلقون، محبو الاستطلاع -الذين كانوا مستذلين، مضطهدين، مستخفين فيما سبق- يظهرون في وضح النهار، ويتقدمون، ويشتهرون، ويطالبون بمكان القادة والرؤساء. تلك هي أزمة الضمير التي شهدناها، فيما بين القرن السابع عشر والثامن عشر.

* * *

لكن، من ذا الذي غذى هذا التفكير النقدي؟ من أين اتخذ قوته، وجرأته؟ وأخيراً من أين يأتي؟

من أعماق الدهر؛ من عهد اليونان القديمة؛ من هذا العالم أو ذاك من علماء القرون الوسطى الملحدة؛ من هذا المنبع القصي أو ذاك؛ لكن من زمن النهضة بلا مراء. إن بين النهضة والزمن الذي ندرسه قرابة لا مرية فيها. نفس الرفض، من جانب العلماء المجترئين، رفض إلحاق البشري بالإلهي. نفس الثقة، الثقة بالبشرى، البشرى وحده، الذي يحدد كل الحقائق، ويحل كل المسائل، أو يعد ما يعجز عن حلها كأن لم تكن، والذي يتضمن كل الآمال. نفس التدخل من طبيعة، غير معرّفة كل التعريف، لكنها قادرة كل القدرة، لم تعد من صنع الخالق، بل هي الحمية الحيوية لكل الكائنات على العموم وللإنسان على الخصوص. نفس الشقاق، فإن فشل وحدة الكنائس، في نهاية القرن السابع عشر، ليس إلا تأييداً للشقاق الذي حدث في القرن السادس عشر، والذي حاول الناس إزالة صفته القاطعة بلا جدوى. نفس الجدال الذي لا ينتهي، في علم التاريخ، وفي السحرة. هذه السنون الشاقة، هذه السنون ذات الجهد والنبل، حيث يتأمل كل امرئ حتى أغوار نفسه، حيث يعي المدعون والمدافعون أنهم يكافحون في سبيل عقيدتهم بأكملها، حيث لا يزال الارتيابيون يبدون في صورة مهتدين جدد، حيث لا يجهل أحد أن الأمر يتعلق بتفسير قاطع لحياة -هذه السنون تبدو لنا بمثابة «نهضة» ثانية. إلا أنها أكثر منها صرامة ومشقة، وكأنما هي مستدركة مستفيقة: نهضة بدون رابليه[1]؛ نهضة بلا بهجة.

ليس الأمر أمر تشابه مبهم، بل هو صلة تاريخية يسهل علينا إدراكها. أولئك المجتهدون المتحمسون، كتّاب المجلدات الضخمة، أولئك القراء الكبار الذين لم

(١) Rabelais-: مؤلف فرنسي في القرن السادس عشر (١٤٩٤-١٥٥٣)، صاحب «حياة جارجانتوا وبانتا جروبل» Gargantua et pantogruel. وضع أفكاره عن الإنسانية وفلسفة الطبيعة والأخلاق الأبيقورية في أسلوب هزلي مرح بهيج. ويتميز بروح نقدي عال، وشك، وحب حي للإنسانية والعدالة، وتقديس للعلم الحقيقي. [المترجمان]

تشبع شهيتهم أبداً، -وإن كانوا لم ينظروا بعين التقدير إلى الشعراء الذين تدين لهم النهضة بفتنتها وبسمتها- إلا أنهم درسوا الفلاسفة الذين كونوا روحها الجسور، وعرّفوها متعة وعذاب تفكير ليس له حدود. إنهم سمعوا لهم، وأعجبوا بهم، وتبعوهم. إن بيير بايل لوريث نسل المتحررين الذين يمدون القرن السادس عشر حتى القرن السابع عشر: إنه يحب لامت لوفاييه، الذي تتضمن «محاوراته»، «أموراً بالغة الجرأة فيما يخص الدين، ووجود اللّه»؛ وهو يذكر لاسيليو فانيني عاداً إياه الشهيد المجيد لعدم التصديق. وهو يعرف من قبل ذلك جان بودان، وشارون، وميشيل دي لوسبيتال، ولعله من نافلة القول أن نقول مونتانيMontaigne: الذي لفت نظره -في لسانه الغاليّ القديم- إلى أن كثيراً من الناس يهملون الأمور للبحث عن العلل: وهذا مما شهدناه جيداً في مثل المذنبات. وهو يعرف، مثلما يعرف سواد معاصريه الكبار، جيوردانو برونو، الذي «كان رجلاً ذا ذهن واسع، ولكنه أساء استعمال معارفه، لأنه لم يقتصر على مهاجمة أرسطو في وقت لم يكن أحد يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يسبب مئة اضطراب، بل هاجم أيضاً أهم حقائق الإيمان». وهو يعرف كاردان -«واحد من أعظم الأذهان في عصره» «رجل ذو طبع فريد»- «الذي يقول إن أولئك الذين يزعمون أن الروح تموت مع الجسد، هم بحسب مبادئهم أناس أصلح من الآخرين»؛ وهو يعرف بومبونازي. ومن ذا الذي لا يعرفه؟ إنه يعرف بالينجنيوس الملحد، المؤلف الأثير لدى السيد نوديه؛ إنّه يعرف، بصفة عامة، كل أولئك الذين لم يشاءوا الاعتراف بقانون آخر، إلا قانون العقل البشري[1].

وبالمثل، لا يجهل ريشار سيمون أحد ممن عكفوا على دراسة الكتب المقدسة من قبله، والذين كان هدفهم الوحيد -طبقاً لقول جيوم بوستيل- «إخضاع الكون بأسره لاستعمال العقل الحق». إن احترام النصوص، ومعرفة اللغات العالمة، وتقدم الفيلولوجيا، وكل أنوار المعرفة التي أضاءت طريقه، مصدرها «النهضة».

(١) - «أفكار عن المذنب»، في أبواب مختلفة؛ و«القاموس».

فهو يتبع مثال أساتذته البعيدين بالكلية الملكية: يقول «بين يدي وثائق دعوى رفعتها كلية اللاهوت بباريس على الأساتذة الملكيين بالعبرية واليونانية، بعد أربع سنوات من تأسيسها[1]».

لقد لاحظ الناس هذا التحالف الأكيد بينهم، في أثناء حياتهم. إن بوسويه يجمع في لوم واحد بين «إرازم وسيمون، اللذان يزجان بنفسيهما في الحكم بين القديس جبروم والقديس أغسطين، بدعوى ما لهما من امتياز في الآداب واللغات[2]» بينما يرى المعجبون ببايل أنه ينبغي أن يقام له تمثال بجانب تمثال إرازم في روتردام[3]. إن أعداء الفلسفة يدينون في حكم واحد سبينوزا، برونو، كاردان، والنهضة الإيطالية التي بعثت أخطاء الوثنية إلى الحياة، ونشرت الكفر في الدنيا[4]؛ ويمجد أصدقاؤها نهاية القرن الخامس عشر، وبداية القرن السادس عشر، التي انبثقت منها أشعة نور جديد[5].

* * *

هكذا ترتسم حركة التفكير الحديث، كمايلي على وجه التقريب. تظهر ابتداء من النهضة، حاجة إلى الاختراع، ولع بالاكتشاف، اقتضاء نقدي، تبلغ من الوضوح أننا نستطيع أن نرى فيها الصفات الغالبة في ضمير أوروبا. ابتداء من منتصف القرن السابع عشر، أو نحو ذلك، نرى توقفاً مؤقتاً؛ توازناً غريباً يتحقق

---

(١) - «رسائل مختارة»، الرسائل ٥, ٩, ٢٣.

(٢) -«دفاع عن التقاليد والآباء القديسين»، الفصل العشرون، الكتاب الثالث، القسم الأول: «نقد جريء لإرازم عن القديس أوغسطين، يدعمه السيد سيمون».

(٣) - انظر بايل، «مراسلات»، طبع جيجاس، مقدمة، ص ٩. بيير جوريو «فيلسوف روتردام، المتهم، المذنب واقعاً وقانوناً»، ١٧٠٦، ص ٢.

(٤) - انظر جون افلين Evelyn، «تاريخ الديانة»، طبعة لندن، ١٨٥٠، المقدمة. ص ٢٧، وش. كورهولت: Ch. Korhoit, De tribus tmpostoribus magnis liber, Kilonii, 1680, début

(٥) - ل. ب.، «مقالان مبعوثان في رسالة من أكسفورد إلى نبيل في لندن»، ١٦٩٥.

بين عناصر متعارضة؛ مصالحة تقع بين قوى متعادية؛ وهذا النجاح، الاعجازي بحق: الكلاسيكية. فضيلة مسكّنة؛ قوة هادئة؛ مثال لطمأنينة توصّل إليها. بوعي، أناس قد عرفوا -كما عرف الناس قاطبة- الشهوات والشكوك، ولكنهم يتوقون -بعد اضطراب العصر السالف- إلى نظام منقذ. ولا يعني هذا فناء روح الفحص: فهو باق لدى الكلاسيكيين أنفسهم، منظم، مكبوح، معنيّ بأن يصل بالروائع الأدبية إلى ذروة الكمال، تلك الروائع التي تقتضي صبرًا طويلاً لكي تكتسب الخلود. وهو باق لدي المتمردين الذين ينتظرون دورهم، في الظلام. إنه باق لدى أولئك الذين يتعاهدون مع النظم السياسية والاجتماعية -وهم يلعنونها؛ تلك النظم التي ينتفعون منها، والتي يجدون فيها متعة حياتهم، مثل سانت أفريموند وفونتنل وغيرهما، أرستقراطيو الثورات.

لذلك، بمجرد ما تكف الكلاسيكية عن أن تكون مجهوداً، إرادة، قبولاً متفكرًا، وتتحول إلى عادة وإلى إجبار، فإن الميول المجددة -المستعدة- تستعيد كل قوتها ونشاطها؛ ويعود الضمير الأوروبي إلى بحثه الأزلي. حينئذ تبدأ أزمة تبلغ من السرعة والمباغتة، أنها تدهشنا: بينما هي في الواقع ليست إلا معاودة أو مواصلة، قد سهرت على إعدادها تقاليد باقية من أجيال.

ولما كانت مكتملة، متجبرة، عميقة، فإنها تعد بدورها -قبل أن ينتهي القرن السابع عشر- القرن الثامن عشر بأكمله على وجه التقريب. لقد وقعت معركة الأفكار الكبرى قبل عام ١٧١٥، بل حتى قبل عام ١٧٠٠. إن جرأة حركة التفسيرAuFkärung، جرأة عصر الأنوار، لتبدو شاحبة هزيلة، بجانب جرأة «البحث اللاهوتي السياسي» المتهجمة، بجانب جرأة «علم الأخلاق» المدوخة. لافولتير، ولا فردريك الثاني وصلا إلى حملات تولاند الجنوبية ضد الأكليروس وضد الدين؛ ولولا لوك لما كتب دالامبير «المقال الافتتاحي للانسيكلوبيديا»؛ ولم

يكن العراك الفلسفي أعنف من المعارك التي رن صداها في هولاندة وإنجلترا؛ وحتى بدائية روسو لم تكن أكثر مطالبة بالاصلاح من بدائية أداريو الهمجي، الذي قدمه لاهونتان المتمرد. من هذا العهد الكثيف المشحون الذي يبدو غامضاً، ينبع بوضوح النهران الكبيران اللذان سوف يخترقان القرن بطوله؛ أحدهما التيار العقلي؛ والثاني وإن كان ضعيفاً في بدايته، ولكنه سيفيض فيما بعد على شواطئه: التيار العاطفي. وما دام الأمر في هذه الأزمة نفسها كان يتعلق بالخروج من المجالات المخصصة لمفكرين للاتجاه نحو الجمهور، للحاق به وإقناعه، وما دام الناس قد مسوا مبادئ الحكومات بل حتى فكرة الحق نفسها، وما داموا قد أعلنوا المساواة والحرية الفردية المنطقيتين؛ ما داموا قد نادوا بحقوق الإنسان والمواطن: فلنعترف أيضاً بأن كل الاتجاهات الذهنية، على وجه التقريب، التي ستؤدي جملتها إلى الثورة الفرنسية، كانت قد اتخذت قبل نهاية حكم لويس الرابع عشر. الميثاق الاجتماعي، تفويض السلطان، حق المواطنين في العصيان ضد الأمير: حكايات قديمة، نحو عام ١٧٦٠! فمنذ ثلاثة أرباع قرن أو أكثر، والناس يناقشونها في وضح النهار.

إن الكل في الكل، كما نعلم؛ ولا شيء جديد، كما نعلم أيضاً، ما دمنا قد انتهينا منذ لحظة من تسجيل القرابات والأنساب. لكن إذا وصفنا بالجدة، إعداداً بطيئاً يصل إلى هدفه أخيراً، إتباع الميول الأبدية التي تنبثق ذات يوم -بعد أن كانت مدفونة في الأرض- محبوبة بقوة، وموشاة بنضرة، تبدوان مجهولتين للناس، الجهال الدائبي النسيان؛ إذا وصفنا بالجدة طريقة معينة لعرض المسائل، لهجة معينة، اختلاجاً معيناً؛ عزماً معيناً على التطلع إلى المستقبل أكثر من الماضي، على التخلص من الماضي مع الاستفادة منه في نفس الوقت؛ وأخيراً إذا وصفنا بالجدة تدخل «الأفكار-القوات» التي تصبح من القوة والوثوق بنفسها بحيث تؤثر

تأثيراً جليًا على الحياة اليومية: فإن تغيراً قد وصلت عواقبه إلى عصرنا الحاضر، كان يعتمل في السنوات التي قام فيها عباقرة مثل سبينوزا، بايل، لوك، نيوتن، بوسويه، فنيلون -مع الاقتصار على ذكر أعظمهم- بفحص كلي للضمير، لكشف الحقائق التي تسيطر على الحياة. ولنقل مع أحد أولئك العباقرة، مع ليبنتز، مادين قوله عن العالم السياسي إلى العالم الأخلاقي: Finis saeculi novam rerum faciem aperuit [1]: في السنوات المختتمة للقرن السابع عشر، بدأ ترتيب جديد للأمور.

---

(١) - مصنفات، طبع فوشيه دي كاريل، الجزء الثالث: Status Europae incpiente novo saeculo. حالة أوربا في مستهل القرن الجديد.

اصطلاحات

(أ)

الاتساق المقدر Harmonie préétablie

الارتيابيون Sceptiques

استطيقا Esthétique

استنباط Déduction

آلية Mécanisme

امتداد Etendue

الإنية Le moi

أنوار المعرفة Les Iumières

أوليا A priori

(ب)

بداهة Évidence

بيداجوجيا Pédagogie

(ت)

التجلي Illuminisme

التجريبية Empirisme

تحليل Analyse

تصوف Mysticisime

تيوصوفية Théosophie

(ج)

الجليل الجمال Le sublime

الجوهر Substance

الجوهر الفرد — Monde

(ح)

حدس — Intuition

الحساسية — Sensibilité

حساب النهايات الصغرى — Calcul infinitésimal

الحلوليون — Panthéistes

الحيوانات- آلات — Les bêtes-machines

(خ)

الخشوعية — Piétisme

(د)

دييزم (الاعتراف بالله وإنكار الوحي) — Déisme

(ر)

الركونية — Quiétisme

الرواقيون — Stoïciens

(س)

السوسنيانيون — Sociniens

(ص)

صغرى القياس — La mineure

الصيرورة — Le devenir

(ع)

العقليون — Rationaux

العلة — La cause

العلة الغائية — La cause finale

العلل الفعالة — Les causes efficientes

(غ)

الغدة الصنوبرية — La glande pinéale

(ف)

الفراغ — Le Vide

الفضاء — L'Espace

فكر	Pensée
فكرة	Idée
فلسفة الذرائع	Pragmatisme
فيلولوجيا	Philologie

(ق)

قلق	Inquiétude
القوام	Substratum
قياس	Syllogisme

(ك)

كبرى القياس	La majeure
الكويكرز	Quakers

(ل)

لامتناه	Infini
لامنطقية	Illogisme

(م)

ماهية	Essence
مختلط	Cosmopolite
مخالفو التثليث	Antirinitaires
المطلق	L'Absolu
الملهمون	Les illuminés
منهج	Méthode
الموقفون	Les initiés

(ن)

النسبي	Le relatif
النور الفطري	Lumiére naturelle

(و)

وحي	Révélation
وضوح	Clarté

(ى)

يقين	Certitude

فهرس الكتاب

الصفحة

القسم الثالث

محاولة الإنشاء من جديد

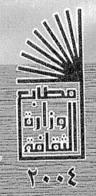
القسم الرابع

القيم التخيلية والحسّامة

الصفحة

الطبعة الثانية / ٢٠٠٤

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة



سعر النسخة داخل القطر ٢٢٥ ل.س في الأقطار العربية مايعادل

٢٠٠٤